همنغواي

ن تقرع الأجراس

ترجمة : خيري حماد

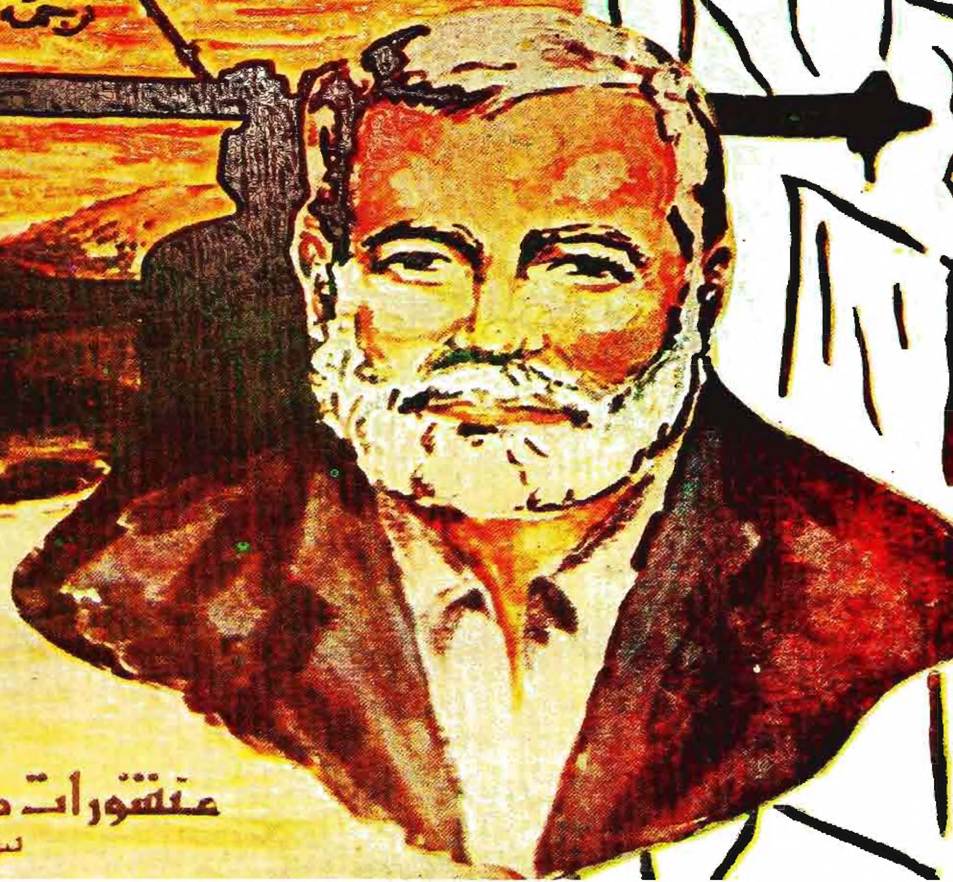

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

لِمَن تُقرَع الأجراس؟

أرنست همنغواي

لمن تُقرَع الأجراس؟

ترجمة

خيري حماد

**

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
١٤١١هـ - ١٩٩٠م
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

المؤلف والكتاب

ارنست همنغواي .. شيخ كتاب القصة المعاصرة ، واكثرهم شهرة فى الميدان الأدبي .. والحائز على جائزة نوبل فى القصة لعام ١٩٥٤ .

لم تنل كتب اي قصصي فى العصر الحديث .. ما نالته قصصه من شهرة داوية وصيت ذائع .. لما فيها من روعة فى الاسلوب ، والحوار . وسيطرة على الفن ..

« رجال بلا نساء » . « وداعا يا سلاح » .. « الفقر والغنى » .. «لمن تقرع الاجراس» .. اسماء داوية ، فى عالم القصة ، نقلت الى كل لغة، ودوى صيتها في كل افق ..

قال عنه .. رئيس المجمع العلمي السويدي .. « ان همنغواي ، هو اعظم مؤلفي العصر .. لما يصوره من مناظر الحياة وحقائقها » ..

وهذا الكتاب .. اروع ما كتبه همنغواي .. فيه صراع العواطف الانسانية ، والحب ، والخيال ، والفقر ، والغنى .. والحروب بويلاتها ، والنزاع بين العقائد والمثل ..

الكتاب الذي يصور الحرب الاهلية الاسبانية كما لم يصورها اي كتاب آخر ..

انه الكتاب الذي يرسم خطوط النضال بين الفاشية والشيوعية ، وبين الديكتاتورية والجمهورية ..

اعظم كتاب قصصي .. لاعظم كاتب

استلقى على ارض الغابة ، التي تغطيها اوراق الصنوبر الصفراء الذابلة؛ وقد اسند ذقنه الى ذراعيه اللذين ضمهما الى بعضهما ، بينما اخـذت الريح تئز فى الاعالي ، متلاعبة ، بهامات اشجار الصنوبر ، وكان الجبل ينحدر ، بهدوء ، فى المنطقة التي استلقى فيها . ولكن الى الناحية الثانية ، امتد واد عميق ، كان يرى فى غوره الطريق الملتوية ، وهي تجتاز المضائق الجبلية . وهناك على مقربة من الطريق ، ينساب جدول ، فتتدفق مياهه، عبر سد اقيم فى نهاية المضيق ، مكونة شلالا ، يعكس ، لونا ابيض ، تتخلله اشعة الشمس ، وهي تطبق على الطاحونة ، التي تصل اليها مياه الشلال . .

وقال متسائلا : هل هذه هي الطاحونة ؟

اجـــل .

ـ انــا لا اذكرهــا .

ـ لقد بنيت بعد ان ارتحلت . اما الطاحونة القديمة ، فهناك ، بعيدا وراء المضيق . ونشر خريطته العسكرية المفصلة ، على ارض الغابة ، واخذ يتطلع اليها ، بعين الفاحص الخبير . ووقف الرجل العجوز ، وراءه ، ينظر

اليها من وراء كتفه . كان رجلا عجوزا ، قصير الهامة ، مستقيمها ، يرتدي قميصا اسود ، مما يرتديه الفلاحون عادة ، وسراويل رمادية ، لا تقبل الكي ، وفي قدميه ، حذاءان ، نعلهما من القنب . وكان تنفس العجوز متلاحقا ، من جراء متاعب الصعود ، بينما اتكأ بمرفقه على احد الكيسين الثقيلين اللذين كانا يحملانهما .

ـ اذن فأنت لا ترى الجسر من موقعك هذا ؟

فرد العجوز قائلا ـ لا . هذه هي الارض المنبسطة ، قرب المضيق ، التي ينساب فيها الجدول بهدوء . وهناك ، حيث تنعطف الطريق ، وتنأى عن النظر ، مختفية وراء الاشجار ، فانها تنحدر فجأة ، حتى تصل المضيق السحيق . . .

ـ آه . . . لقد تذكرت .

ـ ويقوم الجسر على ذلك المضيق .

ـ ولكن اين هي قوائمه ؟

ـ ان احداها ، توجد في الطاحونة التي تراها هناك .

واخرج الشاب الذي كان يدرس المنطقة منظاره ، من جيب سرواله الخالي الباهت . ومسح عدسته ، بمنديله ، ثم أخذ يدير لوالبه ، حتى اصبح في وسعه أن يرى الطاحونة بوضوح عليهما ، وابصر بالمقعد الخشبي. قائما الى جانب الباب ، وباكوام النشارة ، وبالقناة ، التي تمر بها جذوع الاشجار ، مندفعة من سفح الجبل الى الطاحونة . وبدا الجدول ، واضحا، ناعما ، على عدسة المنظار ، بينما تطاير رذاذ الماء المتساقط من الحاجز ، وقد حملته الريح الى كل مكان .

ـ لا ارى حارسا في الباب .

فقال العجوز ـ أرى دخانا يتصاعد من المدخنة . وارى ملابس .

منشورة على الحبل .

ـ انني اراها ، ولكنني لا ارى اي جارس .

ـ ربما كان يجلس في الظل . ان الحرارة شديدة هناك فى هذه اللحظة. واعتقد انه يجلس فى الظل القائم فى المؤخرة التي نراها .

ـ ربما . ولكن اين قاعدة الجسر الأخرى ؟

ـ انها وراء الجسر . على مقربة من كوخ ، عامل الطريق ، على مقربة من الكيلو متر الخامس من فوهة الممر .

وقال مشيرا الى الطاحونة ... كم عدد الرجال هناك ؟

ـ اعتقد انهم اربعة ، ومعهم عريف .

ـ وهناك ، بعيدا ؟

ـ اكثر من هذا الرقم . ساحاول ان اعرف .

ـ وعلى الجسر ؟

ـ دائما رجلان . واحد فى كل ناحية .

ـ سنحتاج الى عدد من الرجال ، كم في وسعك ان تؤمن لنا ؟

ـ اي عدد تريد . فهناك عدد من الرجال . هنا في هذه التلال .

ـ كـــم ؟

ـ هناك اكثر من مائة . ولكنهم فى مجموعات صغيرة . كم رجلا تحتاج ؟

ـ سأبلغك عندما ننتهي من دراسة الجسر .

ـ اتود ان تدرس وضعه الان ؟

ـ لا . اريد ان نمضي الآن الى مكان نخفي فيه هذه المتفجرات ، حتى يحين وقت استخدامها . واريد ان نضعها فى مكان امين ، شريطة ، ان لا يبعد هذا المكان اكثر من نصف ساعة عن الجسر ، اذا امكننا ذلك .

فقال العجوز ... ـ هذا هين ، سنمضي الآن الى مكان ، يقع فوق الجسر مباشرة . ولكن علينا الان أن نصعد الجبل بجد ، حتى نصل هناك، هل انت جائع ؟

ـ اجل . ولكن لنؤجل الاكل بعض الوقت . ما اسمك ؟ لقد نسيت ؟

ـ انسيلمو ، وانا انتمي الى باركو دي افيلا . دعني اساعدك ، في حمل هذا الجراب . وكان الشاب طويل القامة ، نحيلها ، ذا شعر اشقر لوحته الشمس . ووجه تغطيه سمرة غير طبيعية ، يرتدي قميصا باهتا من الكتان ، وسروالا من سراويل الفلاحين ، وفي قدميه حذاءان ايضا نعلهما من القنب ، وقد انحنى الآن فحمل احد الكيسين ، ووضعه على كتفه ، ثم امسك بالكيس الآخر بذراعه ، والقاه على ظهره . وقال ... لقد حملتهما الان ، فاين نمضي ؟

فقال انسيلمو ـ نمشي صعدا في الجبل .

واخذا يصعدان ، وقد احنى الكيسان ظهر الشاب ، نتساقط العرق منه ، ومضيا في غابة الصنوبر ، الممتدة ، على طول الجبل المرتفع . ولم يكن ثمة طريق معروفة يسلكانها ، ولكنهما كان يغذان السير ، فاجتازا جدولا صغيرا ، ومضى الرجل العجوز امامه ، يتسلق المنحدر الصخري الذي يعلو الجدول . وبدأ الصعود ، يقسو شيئا فشيئا ، حتى بدا وكان الجدول ، قد انتهى الى جرف من الجرانيت الناعم ، امتد امامهما ، ووقف العجوز عند حافة الجرف ينتظر وصول الشاب وقال :

ـ كيف تحس ؟

ـ لا باس ... قال هذا وكان العرق يتصبب منه وقد تقلصت عضلات فخذه .

ـ انتظرني هنا . ساسبقك لانذرهم . فانت لا تريد ان يطلقوا عليك النار وانت تحمل هذا الحمل ؟

ـ حتى ، ولو على شكل مزاح . هل هم بعيدون ؟

ـ لا ، انهم قريبون . ماذا يلقبونك ؟

ـ روبرتو ... قال هذا والقى بالعبء عن كتفه وظهره الى الارض .

ـ اذن انتظرني هنا ، يا روبرتو ، وسأعود اليك .

ـ حسنا . ولكن هل تتصور الهبوط من هنا . الى الجسر ؟

ـ كلا . عندما نذهب الى الجسر . سنمضي فى طريق آخر اقصر واسهـــل .

ـ لا اريد ان نضع هذه المواد فى مكان ناء جدا عن الجسر .

ـ سترى بعينك ، واذا لم ترض عن المكان فسنختار مكانا آخر .

ـ حسنا سنـــرى .

وجلس الشاب على مقربة من حمله ، يتطلع الى العجوز ، وهو يتسلق الجرف ، لم يكن التسلق صعبا ، وكان يجد اشياء ، يمسك بها فى مرتقاه، دون ان يجهد نفسه فى البحث عنها ، مما اشار الى انه ، قد ارتقى هذا المكان مرارا من قبل ، لكن كل من يصعدون ، كانوا حريصين على ان لا يتركوا اثرا يدل عليهم .

وشعر روبرت جوردان الشاب ، بجوع مخيف ، وبقلق عنيف ، وكـــان كثيرا ما يحس بالجوع ، ولكنه يندر ان يحس بالقلق ، لانه لا يكترث كثيرا بنفسه ، وكان يعرف بحكم التجربة ، سهولة التحرك وراء خطوط العدو ، فى جميع هذه البلاد ، وكان من السهل عليه ان يتحرك وراءها بقدر ما كان من السهل عليه ، ان يتجول فيها ، اذا اتيح له دليل قدير ، وكل مـــا فى الموضوع من صعوبة ، هو التفكير بما سيحل بالانسان ، اذا ما قبض عليه، وتقرير من فى وسعه ان يعتمد عليهم ويثق بهم ، وعليه ان يثق تمام الثقة بالرجال الذين يعملون معه ، او لا يثق بهم على الاطلاق ، على ان يتخذ قراره فى موضوع الثقة ، باسرع وقت ممكن ، ولم تكن هذه الامور لتقلقه او تزعجه ، ولكن ثمة امورا اخرى .. تثير فى نفسه الاضطراب .

فانسيلمو هذا ، دليل ممتاز ، وفى وسعه ، ان يرتحل فى الجبال ، وفى

وسع روبرت جوردان ايضا ، ان يمشي على أحسن ما يرام ، وقد علمه سيره معه طيلة هذا اليوم ، منذ الفجر الباكر ، ان الرجـــل العجوز ، يستطيع ان يمضي به ، حتى درجة الانهاك والموت . وكان فى وسع جوردان، ان يثق بانسيلمو تمام الثقة ، الا من ناحية تقديره للأمور وحكمه عليها ، اذا لم تتح له الفرصة بعد لاختبار هذا التقدير ، لا سيما وان الحكـــم النهائي ، جزء من مسؤوليته هو نفسه ... لا ، انه لا يساوره القلق بصدد انسيلمو ، ولم تكن مشكلة الجسر ، اصعب من غيرها من المشاكل ، فقد اتقن صناعة نسف الجسور صغيرها وكبيرها ، ومهما اختلفت صورها وتباينت اشكالها . وكان يحمل فى كيسيه كميات كبيرة من المتفجرات ، ومعدات تكفي لنسف هذا الجسر على ما يرام ، حتى ولو كان يبلغ فى حجمه ضعف ما وصفه له انسيلمو ، وكما تذكره عندما مر به فى طريقه الــى لاغرانجا ، فى مسيرة على الاقدام فى عام ١٩٣٣ ، وكما قرأ له وصفه ، غولز ، فى الليلة السابقة عندما كانا يجلسان فى تلك الغرفة العلوية فــي ذلك المبنى الذي يقوم خارج ايسكوريال .

فقد قال غولز ، آنذاك ، وهو يشير بقلمه الى خريطة كبيرة امامه ، وقد انعكست اضواء المصباح على راسه الاصلع المحلوق ، الــذي تغمـره الندوب ... ان نسف الجسر ليس بالأمر العسير ، هل فهمت ؟

ــ اجــل فهمت ؟

ــ ان النسف شيء بسيط . والاكتفاء بنسف الجسر ، يعني الفشل .

ــ اجل ، ايها الجنرال الرفيق .

ــ المهم هو ان ينسف الجسر فى ساعة معينة ، ترتكز على الوقت المحدد للبدء بالهجوم . لا شك انك تدرك ذلك . هذا ما يجب ان تفعله علـــى الوجه الصحيح .

وتطلع غولز الى القلم واخذ يقرع بطرفه اسنانه .. اما روبرت جوردان فقد ظل صامتا ، ومضى غولز يقول ... هل فهمت ، هذا ما يجب ان

تفعله على الوجه الصحيح . وهذا ما يجب ان اعمله . ولكننا لا نستطيع .

ـ لماذا ايها الجنرال الرفيق ؟

ـ لماذا ؟ كم هجوما رايت فى حياتك ، وما زلت تسال لماذا ؟ ما الـذي يضمن لي ان اوامري ستنفذ بحذافيرها ، دون اي تبديل ؟ بل ما الذي يضمن لي ان الهجوم لن يلغى ؟ ما الذي يضمن لي ان الهجوم لن يؤجل ؟ وما الذي يضمن لي انه سيقع فى غضون ست ساعات من الموعد المقرر للبدء به ؟ وهل وقع كل هجوم ، كما يجب ان يقع حتى الآن ؟

وقال روبرت جوردان ... ـ انه سيقع فى الوقت المعين ، إذا كنت انت الـذي ستقوم بـه .

ـ انها ليست هجماتي . صحيح ، انني انا الذي اقوم بها ، ولكنها ليست هجماتي ، فالمدفعية ليست مدفعيتي ، وعلي ان اطالب بها . ولم يسبق لهم ان قدموا لي ما اطلبه حتى ولو كان ما اطلبه متوفرا لديهم . هذا اسوا ما فى الامر . وهناك اشياء اخرى . فانت تعرف اي نوع من الناس هم . ولا ارى لي حاجة الى البحث فى التفاصيل . فهناك دائما شيء من الخطا. تدخل من احد الناس . لذا ، هل تاكدت انك فهمت الآن .

ـ اذن متى يجب أن ينسف الجسر ؟

ـ بعد الشروع فى الهجوم . بعد البدء به مباشرة ، وليس قبل ذلك . وذلك لمنع الامدادات من المرور فى تلك الطريق ... واشار بيده الـى الخريطة ثم مضى يقول ... يجب ان أعرف ان لا شيء ، سيمر بتلك الطريق ابدا .

ـ ومتى سيقع الهجوم ؟

ـ ساخبرك . ولكن عليك ان تستعمل التاريخ والساعة ، كاشارة على احتمال الموعد . وعليك ان تكون متاهبا فيه . ولن تنسف الجسر الا بعد ان يبدا الهجوم . هل فهمت ؟ واشار الجنرال بقلمه الى الخريطة وقال ...

« هذه هي الطريق الوحيدة التي يستطيعون ان يأتوا بالامدادات منها . انها الطريق الوحيدة التي تصلح لمرور الدبابات والمدفعية ، وحتى السيارات الشاحنة ، الى المضيق الذي سأهاجمه . وعلي ان اعرف ان الجسر قد ازيل من الوجود . ومن الواجب ان لا يتم تدميره قبل الهجوم ، حتى لا يقوم العدو باصلاحه . اذا ما تأخر الهجوم عن موعده . لا ، انه يجب ان يزال ، عندما يبدأ الهجوم ، ويجب ان اعرف ذلك وانه قد ازيل . وهناك حارسان ليس الا . وقد جاء الرجل الذي سيمضي معك الى هناك ، لتوه من الناحية . يقولون لي انه رجل موثوق للغاية . وهـــذا مــا ستعرفه بنفسك . ان له رفاقا فى الجبال ، استخدم منهم أي عدد تحتاج اليه . وكل ما كان العدد اقل ، كلما كان العمل احسن . ولكن استخدم العدد الكافي ، ولا أشعر بالحاجة الى ارشادك الى ما تعمله .

ـ وكيف يسعني ان اقرر ان الهجوم قد بدأ ؟

ـ ستقوم فرقة كاملة بالهجوم . وسيسبقه قصف جوي عنيف كتمهيد، وبالطبع فأنت لست بالاصم ؟

ـ اذن عندما تنتهي الطائرات من افراغ محمولها ، يكون الهجوم قـد بـــدأ ؟

ـ ليس فى وسعك ، ان تقدر الأمور دائما على هذا النحو . ولكن فـي هذه الحالة ، نعم . فالهجوم هجومي .

ـ لقد فهمت يا سيدي ، وان كنتاود القول انني لا احبه كثيرا .

ـ وانا لا احبه كثيرا كذلك . ولكن اذا كنت لا ترغب فى القيام به ، فعليك ان تقول لي ذلك الآن . واذا كنت تشعر بعجزك عنه ايضا ، فقل ذلك الان.

ورد روبرت جوردان قائلا : .. سانفذ الامر يا سيدي ، علـى احسن مـــا يـــرام .

ـ هذا كل ما اردت معرفته . وهو ان شيئا ما لن يمر على الجسر ، هــذا شيء نهائي .

ـ فهمت .

ـ وانا لا احب ان اطلب الى الناس ، ان ينفذوا مثل هذه الأمور بمثل هذا السبيل ، وليس فى وسعي ان آمرك ، بالقيام به ، وانا اقدر ما ينطوي عليه الارغام فى حالة فرضي مثل هذه الشروط ، وقد اوضحت لك كل شيء بدقة وعناية حتى تفهم كل شيء ، وتدرك كل المتاعب الممكنة ، واهميتها .

ـ وكيف ستزحف على لاغرانجا ، اذا نسف ذلك الجسر .

ـ سنمضي قدما لاصلاحه ، بعد ان نكون قد اكتسحنا المضيق ، انها عملية جميلة ومعقدة فى آن واحد ، لقد وضعت الخطة فى مدريد ، وهي من الخطط غير الناجحة التي يضعها فيسنتو روجو ، وسأقوم بالهجوم واحققه كما افعل دائما ، حتى ولو بقوات قليلة ، ومع ذلك فالعملية ممكنة وانا مرتاح اليها هذه المرة اكثر من المعتاد ، والشرط الاساسي لنجاحها ، هو نسف ذلك الجسر ، فى وسعنا ان نحتل سيغوفيا ، انظر ، سأريك كيف انفذ الخطة ، هل ترى ؟ اننا لن نهاجم قمة المضيق ، بل سنحتفظ به ، ولكن ما سنهاجمه ابعد من ذلك . انظر ... هنا ... مثل هذا ..

ـ افضل ان لا اعرف ...

ـ حسنا ، انك تقلل بذلك ، ما تحمله من متاع ، اذا وقعت فى ذلك الجانب ..

ـ افضل دائما ان لا اعرف ، فمهما حدث بعد ذلك فانني لن اكون انا الذي تحدثت او افشيت الخطة .

وضرب غولز بالقلم على راسه وقال ... حسنا ، من الافضل ان لا تعرف ، وكم مرة وددت لو لم اعرف انا ، ولكنك تعرف الشيء الوحيد الذي يجب ان تعرفه ، وهو الجسر ؟

ـ اجل انني اعرف ذلك .

ـ أنا أصدقك ، ولن احاول القاء خطبة قصيرة عليك ، دعنا الآن نحتسي

كاسا . فقد عطشت من كثرة ما تحدثت ، ايها الرفيق هوردان ، ان اسمك عندما ينطق بالاسبانية يصبح مضحكا ، ايها الرفيق هورداون .

ـ وكيف تنطق اسمك غولز بالاسبانية ايها الجنرال الرفيق ؟

ـ هوتزيه ... هوتزيه ... الرفيق الهنرال خوتزيه . لو كنت اعرف انهم سيلفظون اسمي على هذا الشكل ، لجئت باسم آخر للاشتراك فى الحرب ... وعندما اتخيل انني جئت الى هنا لاتولى قيادة فرقة ، ولا استطيع ان ابدل اسمي هذا خوتزيه ... الخنرال خوتزيه ... يا له من اسم مضحك ... ولكن قد فات الوقت على تبديله . والآن كيف ترى عملك مع الانصار وراء الخطوط ؟ انه التعبير الروسي لأعمال العصابات .

ـ انه عمل احبه ، ولا سيما عندما يكون فى الهواء الطلق .

ـ لقد كنت احبه ، عندما كنت فى مثل سنك . يقولون لي ، انك تحسن نسف الجسور . وانك تزيلها من الوجود ، بطريقة علمية . هذه مجرد اقوال ، اذ انني لم ارك بنفسي تعمل شيئا . وربما لم يحدث شيء حقا . فهل تنسف الجسور ؟ ... خذ اشرب هذا ...

وقدم لروبرت كاسا من الكونياك الاسباني ثم قال ... احقا تنسف الجسور ؟

ـ احيانا .

ـ ارجو أن لا تستعمل كلمة احيانا ، فى جسرنا المعهود . لا ، دعنا لا نتحدث عنه . لقد فهمت ما فيه الكفاية عن هذا الجسر . اننا نعيش حياة جدية ، ولذا ففي وسعنا أن نسخر احيانا . اسمع ، الك صديقات كثر ، فى الجانب الآخر من الخطوط ؟

ـ لا فليس لدي وقت اضيعه مع الفتيات .

ـ انا لا اوافقك على ذلك . فكلما كانت الخدمة العسكرية اكثر شذوذا ،

كلما تطلبت حياة اكثر شذوذا ، وخدمتك شاذة كل الشذوذ . ثم انك فى حاجة الى تشذيب شعرك .

ـ انني اقص شعري ، عندما اشعر بالحاجة الى ذلك . ولدي الكثير ، مما افكر فيه دون ان اشغل نفسي بالفتيات .

وقال روبرت جوردان متسائلا ... واي زي يجب ان ارتدي ؟

ـ لست فى حاجة الى زي . ان شعرك على ما يرام . لقد كنت امزح . انك تختلف عني .

قال هذا .... ومضى يملأ القدحين من جديد ثم استطرد قائلا ... انك لا تقصر تفكيرك على الفتيات . اما انا فلا افكر مطلقا ، فلماذا افكر ؟ انني جنرال سوفيتي ، وانا لا افكر ابدا . لا تحاول ، ان توقعني فى شباك التفكير .

وتمتم احد موظفيه ، وكان يجلس فى مقعد . فى زاوية من الغرفة ، يشتغل فى احدى الخرائط ، على لوحة للرسم ، بلغة لم يفهمها روبرت جوردان ... فقال غولز بالانكليزية ... صه لا تتحدث ، اليس من حقي ان امزح ، انا كثير الجد ، دائما . والآن اشرب هذا وانصرف . لقد فهمت ، اليس كذلك ؟

ـ اجل ، لقد فهمت .

وتصافح الرجلان ، ثم ادى روبرت التحية ، وخرج ، الى سيارة القيادة حيث كان الرجل العجوز ينتظره فيها ، وهو نائم ، فمرا فى غوادا راما ، وهو ما زال نائما ، ثم الى نافاسيرادا ، حيث اويا الى كوخ « النادي الالبي » حيث هجع روبرت ثلاث ساعات ، قبل ان يبدءا رحلتهما .

كان هذا اخر لقاء له بغولز ، بوجهه الابيض الغريب ، وعينيه اللتين تشبهان عيني الصقر ، وانفه الضخم ، وشفتيه الرقيقتين ، وراسه الحليق ،

الذي تعلوه التجاعيد والندوب ، سيكون فى الغد ، خارج الاينسكوريال ، يسير فى ظلمة الليل على الطريق ، ورجاله ، وقد دججوا بالسلاح يستلقون سياراتهم الشاحنة ، ورجال فصائل الرشاشات ، يحملون مدافعهم الرشاشة ، والدبابات ترفع ، لتقلها الشاحنات ايضا ، ثم يتجه مع فرقته فى هداة الليل ليشرع فى هجومه على المضيق . . .

ولكن روبرت لا يريد ان يفكر فى كل هذا ، فهو ليس من شانه ، انه شان غولز ، فعليه مهمة واحدة ، يجب ان يؤديها ، ومن واجبه التفكير فيها ، بوضوح ، وان يتقبل الأمور بهدوء ، دون ان يقلق ، او ينزعج ، فالقلق كالخوف ، سواء بسواء ، كلاهما يعقد الأمور .

وجلس الى جانب الجدول ، واخذ يتطلع الى الماء وهو ينساب امامه بين الصخور ، ورأى وراء الجدول ، بعض الاعشاب التي لا تنمو الا فى الماء ، من الرشاد . فعبر الجدول ، وقطف حزمة منه ، ثم شرع ينظف ما على جذورها من الوحل فى الماء ، وعاد الى مقعده ، قرب كيسه ، واخذ يأكل الاوراق الخضراء النظيفة الباردة ، وسيقانها ذات الطعم اللاذع ، وركع بعد ذلك ، قرب الجدول ، ودفع بمسدسه الاوتوماتيكي ، فى نطاقه الى ما وراء ظهره ، مخافة ان يبتل بالماء ، ثم انحنى وقد اتكأ على مرفقيه يعب الماء فى جوفه من الجدول ، كان الماء شديد البرودة .

وعندما ارتوى ، رفع راسه ، فابصر بالعجوز يهبط من الجرف ، ومعه رفيق ، يرتدي ملابس الفلاحين السوداء ، وسراويلهم الرمادية ، التي تبدو كانها الزي الشائع فى المقاطعة ، وقد تمنطق بغدارته ، التي اطلت من وراء ظهره . لقد كان الرجل حاسر الرأس . وهبط الرجلان الصخور ، وكانهما عنزتان . . . واتجها اليه ، فوقف روبرت جوردان على قدميه وقال . . . تحية . . . ايها الرفاق . . .

ـ تحية . . . قالها الرجل ، بلهجة تحز بالألم . . . وتطلع روبرت جوردان ، الى وجه الرجل ، العبوس ، الذي تغمره لحيته الكثة . كان وجهه مدورا وقد التصق بكتفيه . وكانت عيناه صغيرتين ، وفيهما بعض

الحول ، واذناه صغيرتين ، وقد التصقتا براسه . كان رجلا بدينا ، ويبلغ طوله خمسة اقدام وعشر بوصات ، وكانت يداه وقدماه كبيرتين . امـا انفه فقد تحطم فى وسطه ، وفمه ، مشروم من طرفه .

واحنى الرجل العجوز راسه ، مشيرا الى الرجل ، ثم ابتسـم ... وقال ... انه الرئيس هنا ، وهو رجل قوي للغاية .

فقال روبرت مبتسما ــ فى وسعي ان ارى ذلك ... انه لم يشعر بالراحة الـى هـذا الرجل .

وقال الرجل صاحب الغدارة ــ هل معك ما يثبت هويتك ؟

واخرج روبرت جوردان ، ورقة مطوية من جيب قميصه ، وقدمها الى الرجل ، ففتحها ، متطلعا اليها ، وفى عينيه بعض ملامح الشك ، ثم اخذ يقلبهـا بيـن يديه .

وادرك روبرت ، ان الرجل لا يعرف القراءة ، فقال له ... انظـر الـى الختـم .

واشار الرجل العجوز الى الختم ، واخذ صاحب الغدارة يدرسه بعينين فاحصتين ويقلبه بين اصابعه ... ثم قال ... اي ختم هذا ؟

الـم تره من قبـل ؟

ــ لا .

ــ هناك ختمان ، احدهما ختم دائرة الاستخبارات العسكرية ، والثاني ختـم القيادة العامة .

ــ اجل لقد رايت هذا الختم من قبل . ولكنني انا القائد هنا ... ماذا تحمل فـي الكيسين ؟

فقال العجوز ــ متفجرات ...! لقد عبرنا الخطوط فى ظلمة الليل امس،

وقد حملنا هذه المتفجرات عبر الجبال ، طيلة اليوم .

فقال صاحب الغدارة ـ فى وسعي ان استعمل المتفجرات ... قال هذا واعاد الى روبرت ورقته ، واخذ يتطلع اليه ، بعين تنضح بالشك : « اجل، في وسعي ان استخدم المتفجرات . فهل اتيت لي بكمية كبيرة ؟

فقال روبرت ... انا لم آت لك ، باية متفجرات . انها لهدف آخر . مـــا اسمك ؟

ـ ومـــاذا يهمك اسمي ؟

فقال العجوز ـ اسمه بابلو .

وقال روبرت ـ لقد سمعت الكثير عنك من الأمور الطيبة .

ـ مـــاذا سمعت عني ؟

ـ سمعت انك من خيرة قادة حرب العصابات ، وانك مخلص للجمهورية وانك تبرهن على اخلاصك باعمالك ، وانك رجل صارم وشجاع . وقد حملت اليك تحيات القيادة العامة .

ـ واين سمعت كل هذا ؟

ـ لقد سمعته فى كل مكان بين بويتراغو والايسكوريال ...

ـ ولكنني لا اعرف احدا في بويتراغو او ايسكوريال ...

ـ هناك كثيرون ، فى الطرف الآخر من الجبال ، لم يكونوا هناك قبلا . مـــن ايـــن انت ؟

ـ من افيلا . ولكن ماذا تريد ان تفعل بالمتفجرات .

ـ اريد ان انسف جسرا .

ـ اي جســـر ؟

ـ هـــذا شغلي .

ـ اذا كان الجسر في هذه المنطقة ، فهو شغلي . فليس في وسعك أن تنسف جسوراً ، على مقربة من المنطقة التي تعيش فيها . اذ عليك ان تعيش فى منطقة ، وان تعمل فى منطقة اخرى . فكل من استطاع ان ينجو بعد سنة من العمل ، يعرف شغله .

فقال روبرت ـ ولكن هذا شغلي ، على كل حال ، في وسعنا ، ان نبحث الموضوع معا . او تريد ان تساعدنا في موضوع الكيسين ؟

فرد بابلو وهو يهز راسه ـ لا .

والتفت اليه الرجل العجوز فجأة ، واخذ يتحدث اليه بسرعة ، وبلهجة تنطق بالغضب والهياج ، وبتعابير لم يكن في وسع روبرت ان يتابعها تماما. وبدا انسيلمو وكانه يقرا فى كتاب ، أنه يتحدث باللهجة القشتالية القديمة، وكان يبدو وكأنه يقول له : هل انت وحش ؟ اجل ، هل انت حيوان ؟ نعم . نعم . هل عندك عقل ؟ لا ، لا ، ابدا . فها نحن نأتي الى هنا لاكمال عمل بالغ الاهمية ، ثم تأتي انت ، مطالبا بعدم ازعاج مسقط راسك . وتقدم مصلحة جحرك ، الذي تعيش فيه كالثعالب ، على مصلحة الانسانية ،وعلى مصلحة شعبك . ثم بدأ ينهال عليه بالشتائم والسباب ، قائلا ، هيا ، احمل هـذا الكيس .

واحنى بابلو راسه ثم قال : على كل منا ، ان يعمل ما يستطيع اداءه . وفقا للطريقة التي يجب ان يتم فيها العمل . فأنا أعيش فى هذه المنطقة ، واعمل فيما وراء سيغوفيا . ولو قمت بأي اضطراب هنا ، فسيطاردوننا في هذه الجبال . ونحن لا نستطيع العيش فيها ، الا لاننا لا نقوم فيها بأي عمل . هذا هو مبدأ الثعالب .

وقال انسيلمو بمرارة ـ اجل . انه مبدأ الثعالب الذي تطبقه ، عندما تحتاج الـى مبدأ الذئاب .

وقال بابلو ، وقد ادرك روبرت ، انه سيحمل الكيس اخيرا ـ ولكنني

ذئب اكثـــر منك .

فرد انسيلمو وهو يضحك ساخرا ... انت ذئب اكثر مني وانا فى الثامنة والستين . ثم بصق انسيلمو على الارض وهز راسه .

وقال روبرت ، وهو يحاول تهدئة الجو ـ هل بلغت هذا العتي من العمر

ـ سأبلغ الثامنة والستين فى شهر تموز .

وقال بابلو ـ اذا قدر لنا ان نعيش حتى ذلك الشهر ... واتجه الى روبرت يقول ... دعني اساعدك في حمل هذا الكيس ، ودع الآخـــر للعجوز . فهو قوي البنية .

فرد روبرت ـ لا ، سأحمل انا الكيس .

فقال العجوز ـ كلا ، دعه لهذا الرجل القوي .

وقا لبابلو ، وفى صوته رنة حزن ازعجت روبرت ، واقلقته ... كلا ، ساحملــه انــا .

ـ اذن اعطنــي الفدارة .

وعندما ناوله اياها بابلو ، وضعها على ظهره ، ثم بدا ، يرتقي مع الرجلين الآخرين الجرف ، وهما يصعدان امامه ، بثقل واعياء حتى وصلوا جميعا الى بقعة خضراء تتوسط الغابة . ومروا بطرف المرج الصغير ، واخذ روبرت يخطو ، بنشاط الآن ، وقد استراح من العبء الثقيل الذي كـان يحمله قبل مدة قصيرة على ظهره والذي حمل العرق على الانصباب منه . ولاحظ ان الاعشاب ، قد قطعت قبل مدة قصيرة ، فى عدة اماكن ، كما راى طريقا ضيقا ، وقد تركت الخيل التي مرت به اخيرا اثارها ، من روث وما شابه ذلك في اكثر من مكان . وادرك . انهم يأتون بخيولهم الى هذا المكان في الليل ، لترعى ، ثم يعودون بها الى الغابة فى وضح النهار ، لاخفائها عن عيون الاعداء . وتساءل عن عدد الخيول التي يملكها بابلو هذا .

وتذكر انه رأى ملابس بابلو وقد اهترات فى أكثر من موضع ، ولا سيما عند ركبتيه وفخذيه ... وعاد به خياله الى هذه اللمحات من الحزن ، التي طافت بوجه الرجل ، والتي لم يحبها ، ومثل هذا الحزن علامة سيئة، فهو يسبق عادة ، احد امرين ، اما التخلي عن قضية ، او الخيانة . انه الحزن الذي يسبق عادة افشاء السر .

ورأى امامه حصانا يصهل بين الاشجار ، كانت الغابة كثيفة ، والنور فيها ضئيلا ، اذ لا تنفذ اشعة الشمس ، الا من الفرجات الضيقة القائمة بين اعالي اشجار الصنوبر ، وعندما اقترب الرجال ، اتجهت اليهم الخيل بابصارها ، ورأى على مقربة من جذع شجرة ، عددا من الاسرجة ، وقد كومت فوق بعضها البعض .

وتوقف الرجلان عن السير ، وادرك روبرت ان عليه ، ان يمتدح هذه الجياد المطهمة . وقال ملتفتا الى بابلو ... حقــا انها جميلة ، ارى ان لديك افراسك .

كانت خمسة من الجياد ، اخذ روبرت يتفحصها بنظره ، واحدا اثـر آخر . وكان بابلو وانسيلمو ، يدركان حقا ، قيمة هذه الجياد ، فـوقف صاحبها ، مزهوا بها فخورا ، وقد ضاعت معالم الأسى من وجهه ، يرقبهما بحنان وحب ظاهرين .

وقال انسيلمو ... كيف تراها ؟

فقال بابلو ـ لقد سلبتها كلها ... وشعر روبرت بالسرور وهو يسمع ما رافق هذا القول من زهو وكبرياء ، ثم اشار الى جواد منها اشقر ، في جبهته شعر اصهب ، واحدى قوائمه بيضاء ... هذا حصان رائع .

فقال بابلو ـ كلها جياد رائعة ، اتفهم فى الخيل ؟

ـ اجــل .

ـ هذا يحسن الوضع . اترى عيبا فى هذه الجياد ؟

واحس روبرت ، ان الرجل الأمي ، الذي لا يعرف ان يقرا ورقة ، يريد الآن ، اختبار معلوماته ... وكانت الجياد كلها تتطلع الى الرجـل ... فتقدم روبرت منها ، واخذ يتفحصها ثم قال ... أن الجواد الأحمـر الغامق اللون ، يظلع من رجله الخلفية . وقد تصدع سنمه ، وعلى الرغم من ان اصابته قد لا تسوء ، اذا حذي بصورة سريعة ، ومناسبة ، الا ان قدمه هذه ، قد تصاب بأذى شديد ، اذا مشى مسافة طويلـة علـى ارض صلبــة .

وقال بابلو ـ لقد كانت قدمه على هذا الشكل عندما حصلت عليه .

ـ اما خير جيادك ، وهو الاشهب ، فهناك تورم فى الجزء العلوي مـن عمود ظهره وهو ما لا يعجبني فيه .

ـ المسألة بسيطة ، فقد اصيب فى ظهره قبل ثلاثة ايام ، ولو كان الامر على جانب من الخطورة ، لاشتد التورم فى هذه المدة .

واخذ بابلو يعرض عليه ، الاسرجة ، فرأى بينها سرجين ، عسكريين من الجلد الاسود . . وقال بابلو موضحا . . لقد قتلنا رجلين من الحرس المدني

ـ كانت لعبة ظريفة ... اليس كذلك ؟

ـ لقد ترجلا عن جواديهما بين سيغوفيا وسانتا ماريا ديل ريال ، ليطلبا من احد سائقي العربات اوراقه . وقد تمكنّا من قتلهما ، دون ان نلحق بالجوادين اي اذى .

ـ هل قتلت فى حياتك عددا كبيرا من رجال الحرس الوطني ؟

ـ اجل عددا كبيرا ، ولكنني لم افلح فى عدم الحاق الاذى بالجياد الا فـي هذا الحادث .

وقال انسيلمو ـ لقد كان بابلو ، هو الذي نسف قطار اريفالو . اجل انــه بابلـو .

فرد بابلو ـ كان معنا رجل غريب قام بعملية النسف ، هل تعرفه .

ـ مـــا اسمه ؟

ـ لا اذكر ، فقد كان اسمه غريبا ، نادرا .

ـ ومـــا شكله ؟

ـ كان اشقر الشعر ، مثلك تماما . ولكنه لم يكن طويلا . وكانت يداه ضخمتين وانفه مكسورا .

ـ كاشكين ، لا ريب انه كاشكين .

ـ اجل ، قلت ان اسمه غريب نادر ، مثل هذا الاسم . ماذا حل به ؟

ـ لقد مــات منذ شهر نيسان .

ـ هذا مصير كل انسان . وهذه هي نهايتنا جميعا .

فقال انسيلمو ـ مصير كل انسان الى الموت ، ماذا دهاك ايها الرجل ؟ قل مـــا في فؤادك ؟

فرد بابلو ، وكأنه يخاطب نفسه ، وكان يتطلع الى جياده بنظرة تنطق بالحزن ـ انهم اقوياء ، ولن تستطيع ان تدرك . ما هم عليه من قوة . انني اراهم يزدادون قوة كل يوم ، وتصل اليهم اسلحة جديدة ، وكذلـــك المعدات . وانا اقف هنا مع هذه الجياد . فما الذي آمل فيـــه . ان يصطادوني واموت . لا شيء غير هذا .

فقال انسيلمو ـ فى وسعك ان تصطادهم كما يصطادونك .

ـ لا ، لم يعد لي مجال . واذا تركنا هذه الجبال ، الآن ، فالى اين نمضي ، قل ، اجب على سؤالي ، اين نمضي ؟

ـ فى اسبانيا كثير من الجبال ، في وسع الانسان ان يذهب الى سييرادى غريدوس ، اذ يترك هذه الجبال .

ـ لا ، بالنسبة الي . لقد تعبت من الطراد . اننا نشعر بالراحة هنا .

والآن اذا نسفت جسرا هنا ، فسيطاردوننا . واذا عرفوا اننـــا هنا ، وطاردونا بالطائرات فسيعثرون علينا . واذا بعثوا الينا بالمغاربة ، فانهم يعثرون علينا ، وعلينا ان نذهب . لقد مللت كل هذا . هل تسمع ؟ . . . وانت ايها الغريب ، بأي حق ، تأتي الى هنا ، وتصدر الي امرك ، بمـا يجب ان افعلـه .

ـ انا لم اصدر اليك اي امر .

ـ ولكنك ستصدره ، فهناك ، مصدر الويل . . . قال هذا واشار الى الكيسين الثقيلين .

ووقف الرجال الثلاثة . أمام الجياد ، وكانت الشمس ، تنفذ بأشعتها عبــر الاغصان . وركل بابلو احد الكيسين ، بقدمه ثم قال . . . هذا هو مصــدر الشــر .

ـ لقد جئت هنا ، اطيع امرا . اجل لقد حملت الأوامر ، التي اصدرها اولئك الذين يوجهون دفة الحرب . فاذا طلبت منك ان تساعدني ، فلك الحق فى ان ترفض ، وسأبحث عن العون عند آخرين . يضاف الى هــذا انني لم اطلب مساعدتك بعد . ولكن علي ان انفذ الأمر الذي تلقيته ، واود ان اؤكد لك اهميته . أما انني غريب ، فهذا ليس ، بخطئي . كنت افضل لو ولدت فى هذه البلاد .

ـ ان كل ما يهمني الان . هو ان لا يلحق بنا ازعاج فى هذه المنطقة وهذا واجبي اليوم نحو من معي . ونحو نفسي .

وقال انسيلمو ـ نحو نفسك ، اجل نحو نفسك ونحو جيادك . لقد كنت معنا حتى صرت صاحب جياد . اجل لقد غدوت رأسماليا .

ـ لا . انك تظلمني ، فانا اعرض الجياد طيلة الوقت لخدمة القضية .

لا انك لا تخدم القضية الا بعض الوقت . هذا رأيي . انك تريـــد ان تسرق ، وان تأكل وان تقتل . اما ان تحارب فلا .

ـأنك عجوز ستسبب لنفسك المتاعب بسلاطة لسانك .

ـ انني عجوز ، ولكنني لا اخاف احدا . يضاف الى هذا انني لا املك جيـــادا .

ـ انك عجوز ، قد لا تعيش طويلا . . .

ـ انني عجوز ، سأعيش حتى اموت . وانا لا اخشى الثعالب .

ولم ينبس بابلو ببنت شفة ، وانما حمل احد الكيسين .

وحمل انسيلمو الكيس الاخر ، وهو يقول . . . ولا اخشى الذئاب ايضاً ، اذا كنـــت منهـــم .

فقال بابلو ـ اغلق فمك . انك عجوز مهذار ، كثير اللجاجة .

ـ ولكنني اعمل كل ما أعد به . . . وانا جائع الان ، وعطش . سر يـــا قائد العصابات بوجهك الحزين ، وقدنا الى ما نأكله .

حقا لقد كانت البداية سيئة ، هذا ما فكر به روبرت جوردان . ولكن انسيلمو رجل لا كالرجال . يا لهؤلاء الناس ما أروعهم ، عندما يكونون طيبين . . . انهم لا صنو لهم عندما يكونون من الاخيار ، ولا مثيل لهـم عندما يكونون من الاشرار . لا ريب فى ان انسيلمو ، كان يعرف ، ما هو مقدم عليه ، عندما جاء الى هذا المكان . . . وقال روبرت لنفسه . . . ولكنني لا احب هذا الوضع ، اجل انني لا احبه .

وكانت العلامة الطيبة الوحيدة ، ان بابلو قد حمل الكيس ، وترك لـه غدارته . لعله هذا النوع الحزين دائما من الرجال . . .

ومضى يحاور نفسه قائلا ، لا ، لا تحاول خداع نفسك ، انك لا تعرف هذا الرجل من قبل . ولكنك تعرف الآن ، انه يتجه فى طريق الشر ، بسرعة هائلة ، ودون ان يحاول اخفاء نيته . وعندما يشرع فى اخفائها ، يكــون قد وصل الى قرار . هذا ما يجب ان تتذكره . فعندما يبدي لك اية اشارة

ودية ، عليك ان تتأكد من انه قد حزم أمره ، واتخذ قراره . وهذه الجياد انها طيبة واصيلة ، وجميلة . ولا ادري ، ما تثيره هذه الجياد في نفس صاحبنا . لقد كان العجوز على حق . لقد جعلت الجياد منه رجلا غنيا ، وعندما شعر بالثروة ، ود ان يتمتع بالحياة . ولا ريب في انه سيشعر عما قريب ببعض المرارة ، لانه لا يستطيع الانتماء الى نادي الفرسان . يا لبابلو المسكين . لقد اخطأ فارسه .

واحس ببعض الارتياح لهذه الفكرة . وتطلع امامه ، فرأى الرجليـن يحملان الكيسـين ، وهما يسيران امامه . انه لم يهزل طيلة النهار ، اما وقد حضرته النكتة الان ، فقد شعر ببعض التحسن . وقا لنفسه ، انه قد غدا واحدا من هؤلاء الناس لا يتميز عنهم بشيء . فها هو الحزن يخيم عليه ايضا ، ولقد كان حزينا ولا شك اثناء مقابلته لغولز . فقد افزعته المهمة بعض الشيء . هل كان فزعه ، خفيفا ، او عنيفا . لقد كان غولز مرحا ، وكان يريد منه ، ان يسخر ويمزح ، ولكنه ظل محتفظا بجموده وحزنــه .

لقد كان الأخيار دائما مرحين . فالمرح ، من الخصال الطيبة ، وهو يرمز الى شيء ابعد منه . انه يرمز الى تمتعك بالخلود ، وانت ما زلت على قيد الحياة . اليس هذا التفكير معقدا . ومع ذلك ، لم يبق من المرحين الا القليل ، اجل لم يبق منهم الا قلة ، وقلة لا تعدو اصابع اليدين . . . واذا ظللت على هذا التفكير ، فانك لن تبقى ايضا . . . اذن فاتجه بفكرك الى ناحية أخرى ايها الرفيق . . . انك لست اكثر من ناسف جسور الان . . . لقد توقفت عن ان تكون مفكرا . . . آه انني جائع وآمل ان يكون بابلو من خيـرة مـن يأكلون .

٢

وصل بهم السير ، عبر الغابة التي تكتظ بالاشجار السامقة ، الـــى الطرف الاعلى من الوادي الصغير ، ورأى من وراء الاشجار ، المكان الذي يجب ان يكون المعسكر قائما فيه ، تحت تلك الصخرة الشاهقة .

حنا لقد كان المخيم هناك ، وكان مخيما رائعا ، فالعين لا تراه الا اذا وصل المرء اليه ، وادرك روبرت جوردان ، ان مثل هذا المخيم ، لا يمكن ان تحدد مكانه الطائرات ، انه خفي كالكهف الذي لا يرى ابدا ، ولكن الحراسة عليه تبدو ضعيفة ، وهكذا اخذ يتطلع اليه بعناية ، منذ اطلوا عليه .

وكان هناك كهف كبير في سلسلة الصخور ، وقد جلس رجل على مدخل الكهف ، مسندا ظهره الى الصخر ، وقد امتدت ساقاه امامه ، واسند بندقيته الى الصخر ، كان الرجل ، يقطع بمدية فى يده ، عصا يحملهـا ، فنظر الى القادمين ، محملقا فيهم ، ثم بدأ يصهل كالحصان .

وقال الرجل ... هولا ... من القادمون ؟

فرد بابلو قائلا ... الرجل العجوز ، وشخص يعمـــل فى النسف والتدمير ..

وقذف بابلو ، بالكيس الذي يحمله ، في مدخل الكهف ، وانزل انسيلمو حمله ايضا ، بينما ، اتكأ روبرت جوردان ببندقيته على الصخر .

وقال لرجل الجالس ، ذو العينين الزرقاوين ، والوجه الجميل الذي يشبه وجوه الفجر . . . ابعد الكيس عن الكهف ، فهناك نار في الداخل .

ورد بابلو ــ انهض انت ، واحمله بعيدا ، الى تلك الشجرة .

ولم يتحرك الفجري ، ولكنه تمتم قائلا . . . دعه في مكانه ، وانسف نفسك به ، فسينقذك من اوجاعك .

وجلس روبرت الى جانب الفجري ، وهو يقول . . ماذا تفعل ؟ . .

وعرض عليه الفجري ما يعمله ، دون ان يتكلم ، لقد كان فخا ، ذا اربع شعب . . . لكنه ما لبث ان قال . . . انه للثعالب . . . وهو كان للقضاء عليها ، وكسر ظهرها . . .

وقال انسيلمو ــ انه يصطاد الارانب ، فهو غجري . واذا ما امسك بارنب زعم انه ثعلب ، واذا ما صاد ثعلبا ، زعم انه فيل من الافيال .

وقال الفجري ، وهو يبتسم ، متطلعا الى روبرت ، واذا ما صدت فيلا.

فرد انسيلمو ــ قلت انه دبابة .

ــ ساصيد دبابة ، اؤكد لك ، ساصيد دبابة وفي وسعك انذاك ان تقول ما تشاء .

فرد انسيلمو قائلا . . . ان الفجر يكثرون من الكلام ، ولا يفعلون الا القليل .

ولم ينبس الفجري ، ببنت شفة ، وانما اخذ يتطلع الى روبرت جوردان بينما دخل بابلو الى الكهف ، واشتد الامل في فؤاد روبرت ، ان يكون قد مضى طلبا للطعام . وجلس الى جانب الفجري على الارض ، واخذت اشعة الشمس ، المتسللة عبر اوراق الاشجار ، تلسع سافيه الممدودتين ، واندفعت رائحة الطعام الى انفه ، من الكهف ، فقد شم رائحة الزيت

والبصل واللحم المشوي ، واخذت امعاؤه تتلوى من الجوع .

وقال روبرت للفجري .. فى وسعنا ان نحصل على دبابة ؛ هذا ليس بالأمـر العسير .

فرد الفجري ، وهو يشير الى الكيسين ... بهذا الشيء ؟

ـ أجل ، ساعلمك ، عليك ان تهيء الشراك ، انه ليس بالامر الشاق .

ـ انـت وانـا ؟

ـ اجـل ، ولم لا .

وقال الفجري لانسيلمو ـ هي ... ابعد هذين الكيسين الى مكان امين، انهمـا ثمينـان .

ورد انسيلمو ـ انا ماض اطلب النبيـذ ...

وهب روبرت جوردان على قدميه ، وحمل الكيسين ، مبعدا اياهما عن مدخل الكهف ، واسندهما على جذعي شجرتين متباعدتين . انه يعرف ما بداخلهما ، وكان يكره ، ان يراهما قريبين من بعضهما ..

وقال الغجري ـ ائتني بقدح معك ..

وقال روبرت ـوهو يجلس ثانية الى جانب الغجري ..هل عندكم نبيذ؟

ـ نبيذ ؟ ولم لا ؛ عندنا زق مملوء بالنبيذ ..

ـ وماذا عندكم لنأكل ..؟

ـ كل شيء ايها الرجل ، اننا نأكل كالجنرالات ..

ـ وماذا يعمل الغجر ايام الحرب ؟

ـ انهم يواصلون الحياة كغجر .

ـ حقا انه لعمل طيب .

ـ احسن عمل ... ما اسمك ؟

ـ روبرتو . وانـت ؟

ـ رافاييل . وهل حديثك عن الدبابة جدي ؟

ـ طبعا .بكل تأكيد ، ولم لا ؟

وخرج انسيلمو من الكهف يحمل ، جرنا من الحجر ، وقد امتلأ بالنبيذ الأحمر ، القاني ، وبين يديه ثلاثة اقداح ... وقال ... ان لديهم اكوابا ، وكـــل شيء ...

ودلف بابلو ، خارجا وراءه .. وهو يقول ... سيكون الطعام جاهزا بعد هنيهة . امعك طباق ؟

ومضى روبرت الى احد الكيسين ، فمد يده في جيب سري ، بداخله ، واخرج علبة من السجائر الروسية ، كان قد حصل عليها من مقر قيادة غولز . وفتح العلبة باصبعه ثم قدمها الى بابلو الذي تناول نحوا من ست لفائف . ثم امسك بها في يده الضخمة الكبيرة ، وتناول لفافة واحدة منها اخذ يتطلع اليها في ضوء الشمس . كانت لفائف طويلة رفيعة ، وفي اسفلها نوع من الفلين ... ثم قال ... انها تحوي الكثير من الهواء والقليل من التبغ . انا اعرف هذا النوع ، فقد كان الرجل الاخر ذو الاسم الغريب يحملهـا دائمـا .

وقال روبرت ـ كاشكين ... ثم قدم العلبة الى الغجري وانسيلمـو فتناول كل منهما احدى اللفائف .

وهتف روبرت بهما ... خذا اكثر ، فاخذ كل منهما لفافة ثانية . ولكنه اعطى لكل منهما اربعا اخرى ، فأحنى الرجلان راسيهما علامة الشكـر والامتنان .

وقال بابلو ـ اجل لقد كان اسمه غريبا .

ومضى انسيلمو يملأ الاقداح بالنبيذ ... وقال وهو يمد احدها الـى روبرت ... خذ ، هذا هو النبيذ ، ثم ملأ قدحا ثانيا له وثالثا للغجري .

وقال بابلو ـ اليس هناك قدح لي ...

فناوله انسيلمو قدحه ، وعاد الى الكهف ليأتي بقدح رابع ، فملأه ، ثم قرعوا جميعا الكؤوس ببعضها ، على عادة الندامى .

كانت الخمر رائعة ، ولذيذة المذاق ، واخذ روبرت يتناول قدحه ببطء وهو يحس ، بالدفء ، ينتشر فى جسده التعب .

وقال بابلو ـ سيصل الطعام قريبا ... والان قل لي كيف مات هـذا الغريب ذو الاسم النـادر ؟

ـ لقد قبضوا عليه فقتل نفسه .

ـ وكيف تم ذلك ؟

اصيب بجراح ، وكان يكره ان يؤخذ اسيرا .

ـ ما هـي التفاصيل ؟

ـ لا ادري .... لقد كذب ، فقد كان يعرفها ، تمام المعرفة ، ولكنه لم يرغب فى الحديث عنها الان .

ـ لقد حملنا على ان نعده باطلاق النار عليه فى حالة اصابته بجـراح فى حادث القطار ، وعدم تمكنه من النجاة .... لقد كان يتحدث بشكل غريـب نـادر .

وخيم الصمت على روبرت ، فقد اخذ يفكر فى كاشكين المسكين .

ومضى بابلو يقول .... كان يخشى من الانتحار ، كما كان يخـاف مـن التعذيب .

وقال بابلو ـ هل قال لكم كل ذلك ايضا ؟

فرد الفجري قائلا : ـ اجل ، لقد حدثنا جميعا ، بكل شيء .

ـ وهل كنت انت ايضا فى حادث القطار ؟

ـ اجل لقد كنا جميعا ، هناك .

قال بابلو ــ كان حديثه غريبا، ولكنه ، كان رجلا شجاعا للغاية .

واخذ روبرت يفكر فى كاشكين المسكين ، يبدو ، انه قد اساء للوضع اكثر مما احسن اليه هنا . وكم ود روبرت لو عرف حينـــذاك ، ان كاشكين على هذا النحو من الثرثرة ، فانه كان سيعمل حتما على سحبه من هذا المكان . فليس فى الامكان ، ان يعهد الى انسان ثرثار بمثل هـــذا النوع من العمل . ان الحديث من هذا الطراز ، لا يليق برجل فى مثـــل مهمته . وحتى لو كان يحسن اداء المهام ، فانه يسيء اكثر مما يحسن بمثل هـــذه الاحاديث .

وقال روبرت اخيرا ... لقد كان غريب الاطوار ، واعتقد ، انه كـــان مصابا بمس فـــي عقله .

ورد الفجري قائلا ــ ولكنه كان ماهرا فى احداث الانفجارات ، وكـــان شجاعـــا للغايـــة .

ــ اجل ، ولكنه مجنون فى الوقت نفسه ، فهذه الاعمال تتطلب دماغـــا كبيرا وهدوءا اكبر ، وما كان يليق به ، ان يتحدث بهذا الشكل .

وقال بابلو ــ واذا اصبت انت بجراح ، فى حادث الجسر ، فهل تريد منـــا ان نتركك وراءنا .

فرد روبرت ، وهو يملأ لنفسه قدحا ثانيا من الخمر ... اسمعوا ، اصغوا الي بانتباه ، واسمعوا ما اقوله بوضوح . اذا كانت لي رغبة عند احدكم .. فساطلبها منه فى الوقت المناسب .

وقال الفجري ــ حسنا ، اذن فلا تتحدث الا بما تريد ... آه ، لقـــد جـــاء الطعام .

وقال بابلو ــ لقد اكلت انت .

ــ ولكن فى وسعي ان آكل مرتين ايضا . انظر من يحمل الطعام .

وخرجت من الكهف فتاة تحمل قدرا كبيرا من الحديد . فراى روبرت وجهها من احد ىزواياه . ولكنه راى فى هذا الوجه شيئا غريبا ...وقالت

الفتاة وهي تبتسم ... « هالو ايها الرفيق » فرد روبرت قائلا ... وهو يتحاشى ان ينظر الى وجهها بجماع عينيه «هالو» . ووضعت الفتاة الوعاء الضخم امامه فراى يديها السمراوين الجميلتين . ووقفت الآن تتطلع اليه وهي تبتسم ... كانت اسنانها بيضاء تشرق فى وجهها الاسمر الدافىء . بينما كانت عيناها الرماديتان الضاحكتان فى منتهى الروعة والجمال ، وفمها دقيق مستقيم تلفه شفتان ممتلئتان . اما الشعر فبني اسود لفحته الشمس ، فزادته سمرة على سمرته الطبيعية . وقد قص بشكل غريب ، جعله قصيرا اشبه ما يكون بفراء صغير . وتطلعت اليه الفتاة وهي تبتسم ثم رفعت يديها على راسها . لتعدل بهـــا شعيرات خرجت من موضعها . وخيل اليه انها فى منتهى الجمال . لو لم يجزوا لها شعرها ، على هذا النحو .

وقالت لروبرت ، وهو يتطلع اليها ... هذه هي طريقتي فى تمشيـط شعري هم وابدا طعامك ... لا تنظر الي هكذا محملقا ، لقد حلقوا لي شعري ، على هذا النحو من فالادوليد ، ولكنه قد نما الآن ...

وجلست امامه ، تتطلع اليه ... فرفع نظره اليها ، وابتسمت ثم بسطت يديها ، على ركبتها . وامتدت ساقاها ، طويلتين نظيفتين ، من السروال الـــذي ترتديه ، ورأى ثدييها الناهدين يكادان يندفعان وراء القميص الرمادي الذي تلبسه . وكان روبرت كلما تطلع اليها احس بشيء ثقيل فـــي حلقه .

وقال انسيلمو ـ ليس لديهم صحون ياكلون فيهـــا . وفى وسعك ان تستعمل مديتـــك .

وبدا الجميع ياكلون . دون ان يتحدثوا عن الطريقة الاسبانية المالوفة . كان الغداء ارنبا مطبوخا مع البصل والفلفل الاخضر ، وبعض الخضار . وقد طبخت فى حساء تخلله النبيذ الاحمر . واحتسى روبرت قدحا آخر من النبيذ وهو ياكل هذا الطعام الذي احسنت الفتاة طبخه . وظلت الفتاة ترقبه طيلة الوقت . اما الآخرون فقد اهتموا بانفسهم وبمـــا ياكلون .

وعندما انتهى روبرت من الاكل تناول قدح النبيذ من جديد ، والفتاة لا تزال تتطلع اليه .

واخيرا قال يخاطب الفتاة ... مـا اسمك ؟

ونظر اليه بابلو نظرة سريعة ، ثم هب على قدميه ومضى بعيدا ...

ــ اسمي ماريا ، ومـا اسمك ؟

ــ روبرتو ، هل مضى عليك وقت وانت في الجبال ؟

ــ ثلاثـة شهـور .

ــ ثلاثة شهور ؟... قال هذا وهو يتطلع الى شعرها القصير ...

لقد حلقوه لي بالموسى وانا في سجن فالادوليد . وها قد مضى اشهر ثلاثة . حتى نبت الى هذا الحد . لقد كنت في القطار وكانوا ينقلونني الى الجنوب وهربت مع عدد من المسجونين ، ولكن معظمهم قد اعتقل ، امـا انا فنجوت وجئت الى هنا مع هؤلاء .

وقال الفجري ــ عثرت عليها مختفية بين الصخور ، كنا على وشك ان نمضي . كم كانت قبيحة ايها الرجل . على كل حال حملناها معنا ، وكم مرة فكرنا بان نخلفها وراءنا .

وقالت ماريا ــ وذلك الرجل الآخر الذي كان معهم في حادث القطار ؟ ذلك الرجل الغريب الاشقر اين هو ؟

ــ لقد مات في شهر نيسان .

ــ في شهر نيسـان ؟ لقد وقع حادث القطار في نيسـان .

ــ اجل لقد مات بعد عشرة ايام من الحادث .

ــ يا له من مسكين . لقد كان رجلا شجاعا . وهل تقوم بنفس العمل ؟

ــ اجـــل .

ــ وهل نسفت قطرا ايضا ؟

ـ نعـم ثلاثة قطـر .

ـ هنـــا ؟

ـ فى السيتراماندورا . كنت هناك قبل ان آتي الى هنا . والعمل هنا كثير ، كما ان الكثيرين منا يعملون فى السيتراماندورا .

ـ ولماذا جئت الى هذه الجبال الآن ؟

ـ لقد حللت محل ذلك الرجل الاشقر هنا . يضاف الى هذا انني اعرف هــذه المنطقــة منذ عهد بعيد .

ـ هــل تعرفها جيــدا ؟

ـ ليس تماما ولكنني سريع التعلم . وعندي خريطة ممتازة ، ودليل طيــب .

ـ الرجل العجوز . . .؟ انه رجل طيب .

وقال انسيلمو ـ شكرا لــك . . .

وادرك روبرت جوردان انه ليس وحيدا مع الفتاة وان من الصعب عليه ان ينظر الى الفتاة ، لان مجرد النظر اليها ، سرّعان ما يظهر اثره فى صوته وحديثه ، انه يخالف الآن القاعدة الثانية من قواعد السلوك ، مع الاسبان، وهي أن يعطي الرجال تبغا ، وان لا يتحدث الى النســاء . وادرك فجاة ،انه لم تعد تهمه تلك القاعدة ، فهناك اشياء كثيرة ، لا يريد ان يهتم بها ، وهذه القاعــدة مــن هذه الامور .

وقا لروبرت . . . ان لك وجها جميلا للغاية ، وكم كنت اود لو اتاح لي الحظ ان اراك قبل ان يحلقوا شعرك .

ـ سينمو ، بعد ستة اشهر ، سيكون غزيرا .

وقال الفجري : آه لو رأيتها ، عندما نقلناها من القطار ، كانت على درجة كبيرة من القبح ، بحيث تشعر برغبة شديدة فى التقيؤ .

ـ لمن انت يا فتاة ؟ هل انت فتاة بابلو ؟

وضحكت ألفتاة ، ثم ربتت بيدها على ركبته .

ـ فتاة بابلو ؟ هل رايت بابلو ؟

ـ اذن هل انت فتاة رافائيل ؟ لقد رايت رافائيل .

ـ ولست لرافائيل ايضا .

وقال الفجري : انها ليست لانسان ... انها امراة غريبة ، انها ليست لانسان ولكنها تجيد الطهي .

وقال روبرت يسالها ـ حقا ، الست لانسان ؟

ـ لا ، لست لانسان . لا جداً ولا هزلا . ولست لك ايضا .

ـ لا ؟ ... قال هذا واحس بشيء يغص في حلقه ... حسنا ، ليس لدي وقت لاضيعه مع امراة ، وهذا حق وصدق .

وقالت الفتاة ساخرة ... حتى ولا ربع ساعة ؟

ولم ينبس روبرت ببنت شفة ... ولكنه تطلع الى الفتاة ... واحس وكانه قد فقد القدرة على النطق .

وقال اخيرا ... لقد احمر وجهه خجلا ... هل من عادتك الخجل ؟

ـ ابـدا .

ـ اذن لم احمر وجهك .؟

ـ اذن سامضي الـى الكهف .

ـ ففي ، يــا ماريـا .

ـ لا ... سامضي الى الكهف الآن .

وتناولت الصفحة التي تناولوا فيها الطعام ، واخذت تخطو ، وكأنها فلو صفير ... ثم قالت ... او تريدون الاقداح ؟

وكان روبرت ، لا يزال يتطلع اليها ، فاحمر وجهها مــن جديد ... وقالت : « لا تجبرني على ذلك ، فانا لا احب الخجل » .

وقال الغجري . . . أتركيها في موضعها . . . ثم تناول قدحا منها ، فملأه وقدمه الى روبرت الذي كان لا يزال يرقب الفتاة ، وهي تحني راسها دالفة الى الكهف وهي تحمل الوعاء الحديدي الثقيل .

وقال روبرت وقد استعاد هدوءه . . . شكراً لك ، هذا آخر كأس . لقد شربنا الكثير .

ـ يجب ان ننتهي من الجرف . وعندنا اكثر من نصف زق ، حملناه على ظهر احد الجياد .

فقال انسيلمو ـ كانت تلك غارة بابلو الاخيرة . ومنذ ذلك اليوم ، لم يعمل شيئا .

ـ وكم عددكم ؟

ـ سبعة رجال ، وامرأتان ؟

ـ امراتان ؟

ـ اجل ، زوجة بابلو .

ـ واين هي ؟

ـ في الكهف . فالفتاة لا تجيد الطبخ ، وقد زعمت قبل قليل انها تجيده . لأرضيها ، اما الحقيقة فهي تساعد زوجة بابلو .

ـ وما شكل زوجته ؟

ـ انها متوحشة جدا . واذا كنت تعتقد ان بابلو ، قبيح الصورة ،فعليك ان ترى زوجته . لكنها شجاعة باسلة . انها اشجع منه مائة مرة . ولكنها متوحشة .

فقال انسيلمو ـ لقد كان بابلو شجاعا في البداية ، اجل كان انسانا جديرا بالتقدير .

ـ نعم ، لقد تفوق على الحمى الصفراء (الكوليرا) ، في عدد الذين قتلهم ، في بدء الحركة . وكان ضحاياه اكثر عددا من ضحايا التيفوئيد .

ـ ولكنه غدا منذ مدة ، انسانا مترهلا كسولا ، يخشى أن يموت .

قد يكون هذا راجعا الى انه قتل في البداية عددا كبيرا من الناس فقدقتل بابلو عددا يفوق ما افناه الطاعون الدملي .

ـ لكن هذا ليس بالسبب الوحيد ، فهناك ، الثراء الطارىء ، وهناك ادمانه على الشراب . انه يريد ان يتقاعد الآن كبطل حلبات المصارعة . ولكنه لا يستطيع .

ـ لو عبر الخطوط الى ذلك الجانب ، فسيأخذون جياده ، ويجندونه في الجيش . وانا لا احب ايضا ... العمل في الجيش .

فقال انسيلمو ـ هذا شأن الغجر دائما ...

ـ أجل ، ماذا يدعونا الى العمل في الجيوش ؟ هل قمنا بالثورة ، لنعمل في الجيش ، انني اتوق الى القتال ، ولكن خارج الجيش :

وقال روبرت متسائلا ـ ولكن أين الآخرون ؟...

واحس بخدر لذيذ ، يتسلل الى جسمه ، من الكؤوس التي احتساها ، فود لو نام ، واغفى على ارض الغابة التي استلقى عليها ، متطلعا ، الى هامات الاشجار ، ليبصر من الفرجات القائمة بين اوراقها ، سحب المساء الصغيرة ، وهي تتجمع ، متجهة في سير وئيد ، عبر السماء الاسبانية العالية ، نحو سمت الجبال .

ورد الغجري قائلا ... هناك رجلان ينامان داخل الكهف ، وآخران يقومان بالحراسة ، هناك على ذلك المرتفع ، حيث اقمنا مدفعنا . وخامس يتولى الحراسة بعيدا في المنخفض ، ولعلهم جميعا من النيام الآن .

وقال روبرت : أي نوع من المدافع هو ؟

ـ اسمه غريب جدا ، لقد نسيته في هذه اللحظة ، انه مدفع رشاش .

وخيل لروبرت ، انه بندقية أوتوماتيكية ...

ـ ومـا وزنه ؟

ـ في وسع رجل واحد أن يحمله ، ولكنه ثقيل ، وفي اسفله ثلاث قوائم ، لقد غنمناه فى غارتنا الاخيرة ، قبل تلك التي غنمنا فيها النبيذ .

ـ وكم طلقة عندكم لهذا المدفع ؟

ـ عدد لا يحصى ، صندوق ضخم وثقيل ...

وخيل لروبرت ، ان العدد لا يربو على الخمسمائة طلقة .

ـ وهل تكون العيارات فى خزان او في نطاق ، فى المدفع ؟

ـ لا في علبة فى اعلاه .

وادرك روبرت لتوه ، ان المدفع الرشاش من طراز لويس ... ثم قال موجها حديثه الى الرجل العجوز ... هل تفهم شيئا عن المدافع الرشاشة ؟

ـ لا ابـدا .

ـ وانـت ؟

ـ كل ما افهمه ، انها تنطلق بسرعة ، وان انبوبه تشتد حرارته ، حتى لا يكاد الانسان يستطيع ان يمسه بيده .

وقال انسيلمو ... بازدراء ـ كل انسان يعرف هذا .

ـ ربما ، ولكنه طلب الي ان احدثه بما اعرفه عن المدفع الرشاش ، وقد قلت ما اعرفه . وهو يختلف ايضا عن البندقية العادية ، في انه يواصل الانطلاق ، طالما انك تضع يدك ضاغطا على الزناد .

ـ الا اذا نفذ العتاد ، أو اشتدت الحرارة ، فانصهرت « الماسورة » .

ـ مـاذا تقول ؟

ـ لا شيء ، كنت اهرف ببعض الكلمات بالانكليزية ، باحثا عن المستقبل .

ـ يا له من قول غريب ، تبحث عن المستقبل بالانكليزية ؟ هل تستطيع

قــراءة الكــف ؟

ـ لا ، ولكن اذا كنت تحسن القراءة ، فارجو ان تقرا لي كفي ، وأن تخبرني بما سيقع في الايام الثلاثة القادمة .

ـ تستطيع امرأة بابلو ، أن تقرا الكف ، ولكنها امراة شديدة العصبية ، وذات طبيعة متوحشة ، ولا ادري ، اذا كانت ستوافق على ان تقرا لـك مـا في كفـك .

وجلس روبرت ، وتناول قدحا جديداً ، ملأه بالنبيذ ، وشرع يعب منه .. ثم قال ... دعونا نرى هذه المراة الآن . واذا كانت الامـور سيئة فلنواجههـا فـورا .

ـ لا . لن ازعجها ، فهي تكرهني اشد الكراهية .

ـ لمـاذا ؟

ـ انها تتهمني بانني مضياع للوقت ..

وقال انسيلمو .. ساخرا .. يا لها من تهمة باطلة !

ـ انها تكـره الفجر .

فاستطرد انسيلمو يقول .. لا شك انها مخطئة !!

ـ ان فيها دما غجريا . فهي تعرف ما تتحدث عنه . ولكن لها لسانا يقرص ويجلد كالسوط المريع . حقا انها في منتهى الوحشية .

وقال روبرت ... ـ وكيف تعامل الفتاة ماريا ؟

ـ خير معاملة ، انها تحبها ، ولكن اذا دنا احد منها ...

فرد انسيلمو ـ انها تحسن معاملة الفتاة ، وتعني بها خير عناية .

ـ عندما التقطنا الفتاة بعد حادث القطار ، كانت على جانب كبير من غرابة الاطوار . انها لا تتحدث ابدا ، وتغرق في عويل لا ينقطع ، واذا مسها

انسان ، ارتجفت ، كالكلب الذي بللته المياه . ولم يتحسن وضعها الا منذ ايام . اجل لقد تحسنت اخيراً . وكانت اليوم رائعة فى حديثها أليك . وكنا نريد ان نتخلى عنها بعد حادث القطار ، اذ لم يكن من الجدير بنا ان نضيع وقتنا فى انقاذ فتاة قبيحة وحزينة ولا قيمة لها . ولكن المراة العجوز ربطتها فى حبل اليها ، وعندما خيل الى الفتاة انها اصبحت عاجزة عـن السير ، ضربتها بطرف الحبل ، لترغمها على المشي . ولكن الفتاة عجزت تماما . فحملتها المراة العجوز على كتفها ، وكنت أتناوب معها فى حملها ، اذ كنا نسير صعداً ، فى طريق ذلك الجبل الوعر . وعندما لحق بي التعب والانهاك . حملها بابلو . . ولكن لو سمعت ، ما قالته المراة العجوز لنا ، لترغمنا على ذلك . . حقا ان الفتاة طويلة الساقين ، ولكنها ليست بالثقيلة. فعظامها خفيفة . ولكن مهما كان حملها خفيفا ، فقد كان من الشاق علينا ان نحملها ، ثم نطلق النار خلفنا ، ونعود الى حملها من جديد ، ولا سيما وان المراة كانت تنهال على بابلو بالحبل ، لترغمه على حملها ، عندما يضعها من يديه ليحشو بندقيته . وكانت الأم تأخذ البندقية فتحشوها بالنيابة عنه ، وتنهال عليه ، بالسباب والشتائم . وعندما هبط المساء اصبنـا بعض الراحة . وكان من حسن حظنا ان قوة العدو كانت تخلو من الفرسان

وقال انسيلمو ــ يبدو ان معركة القطار ، حامية الوطيس ، انا لم اشهدها لقد اشتركت فيها عصابة بابلو ، وعصابة أيل سوردو الذي سنجتمع اليه هذه الليلة ، وعصابتان آخريان من عصابات هذه الجبال . اما انا فكنت قد مضيت الى الجانب الآخر من الخطوط .

وقال الغجري ــ وكان هناك ايضا الرجل الاشقر ، ذو الاسم الغريب :

ــ كاشكيــن .

ــ اجل ، انه اسم لا استطيع ان احفظه ، وكان معنا رجلان بعث بهما الجيش الينا ، يحملان مدفعا رشاشا ، ولم يستطع الرجلان ، الخلاص بمدفعهما فخلفاه وراءنا ، وبالطبع لم يكن اثقل وزنا من الفتاة ، ولو كانت المراة العجوز معهما ، لمـا خلفاه . .

ومضى يتذكر ثم قال .. ولا اذكر انني في حياتي سمعت صوتا كصوت ذلك الانفجار ، وكان القطار يسير الهوينا ، رايناه يقترب من بعيد ، واحسست بشيء يثور حماسا في صدري . ورأينا البخار يتصاعد من القاطرة ، ثم سرعان ما سمعنا صوت الصفير ، يتصاعد منها . واخذ هدير القاطرة يرتفع شيئا فشيئا ، وعندما وقع الانفجار ، ارتفعت عجلات القاطرة الامامية عن الارض ، وتصاعدت الى السماء سحابة كثيفة من الدخان والغبار ، لفت القاطرة التي طارت في الهواء ، لتنقلب بعد قليل على جانبها كحيوان جريح وسرعان ما تعاقبت الانفجارات ، ودويها يملأ الفضاء .. آه انني لم ار منظرا ، كذلك الذي رايت ، يوم القطار ، الجنود يفرون كالارانب ، والرجال يتساقطون ، هنا وهناك . ووضعت يدي على بندقيتي دون ان اطلق عيارا واحدا ، واذ بيد تنهال علي صفعا .. كانت يد العجوز ، وهي تهدر قائلة اطلق النار ، أيها الاحمق ، اطلق النار والا تتلتك . وبدات في اطلاق النار ، وكان من الصعب علي ان احفظ التوازن، ولكن الجنود يهربون الى سفح الجبل ، كالفيران المذعورة . وعندما هبطنا فيما بعد الى القطار ، لنرى ما يمكننا اخذه منه ، ارغم ضابط جنوده ، تحت وطأة مسدسه ، على الكر علينا . وكان يلوح بمسدسه ، وهو يهتف بجنوده ، فاطلقنا عليه النار جميعنا ، ولكننا لم نصبه ، وانبطح جنوده على الارض واخذوا يطلقون علينا نيرانهم ، وهو يخطو وراءهم ، جيئة وذهابا ملوحا بمسدسه ، دون ان نتمكن من اصابته ، واطلق نيرانه على رجاله ، ليرغمهم على النهوض ، لمهاجمتنا ، قاصا باثنين منهم واخيرا اذعنوا لتهديده وسبابه ، فكروا علينا ، وعلى القطار . وسرعان ما عادوا الى الانبطاح ثانية ، يطلقون النار . وسرعان ما غادرنا المكان تحت ستار من النيران الحامية التي أصلاها مدفعنا الرشاش ، وهناك عثرت على الفتاة مختفية بين الصخور بعد ان فرت من القطار ، وركضت معنا . وواصلت هذه القوات مطاردتنا حتى هبط الظلام .

وقال انسيلمو ـ يبدو أن المغامرة ، كانت شاقة ، ومثيرة .

ـ كانت اروع ما حققناه من انتصارات .. جملة انطلقت من صوت عميق

واستطرد الصوت قائلا .. والان ماذا تعمل هنا ايها الفجري الكسول القذر ، يا سليل ، القذارة ، والنجاسة ؟ ماذا تعمل ؟

ورفع روبرت نظره ، ليرى امراة فى نحو الخمسين من عمرها ، لا تقل ضخامة عن بابلو ، طويلة القامة ، عريضة المنكبين ، ترتدي قميصا اسود ، ورداء يعلو زوجين من الجوارب الصوفية الخشنة ، تختفي وراءهما ساقان غليظتان ، وفى قدميها خف من الحبال ، ويعلو قامتها ، وجه اسمر ، اشبه ما يكون بوجوه تماثيل الصخر . ورأى يديها الكبيرتين ، لا تخلوان من جمال . كما رأى شعرها الأسود الفزير معقوصا ، فى عقدة تقف علـــى عنقهـــا ..

وقالت موجهة حديثها الى الفجري ، ومتجاهلة الآخرين ... أجبني ايهـا القــذر .

ـ كنت أتحدث الى هؤلاء الرفاق . فهذا الرجل ياتي الينا ليعمـــل فـــي التفجير .

ـ اعرف ذلك . قم الآن من هنا وخذ مكان اندريه الذي يقوم علـى الحراسة فـــي المرتفع .

ـ سمعا وطاعة ساذهب ... وتطلع الى روبرت وقال ... سأراك ، في موعد الطعام . فردت المراة قائلة ... حتى ولا فى المنام ... لقد اكلت ثلاث مرات اليوم . اذهب الآن ، وليأت اندريه .

وقالت لروبرت وهي تمد يدها اليه .. هو لا .. كيف انت ، وكيف تسير الامـــور في الجمهورية ؟

ـ على احسن ما يرام ، انا والجمهورية .

وقالت ، وهي تتطلع اليه مبتسمة ، وقد لاحت له عيناها العسليتان الجميلتان ... انا سعيدة برؤيتك . هل جئتنا ، لتنسف قطارا آخر .

فقال روبرت ، وقد احس نحوها بالثقة فورا .. لا لقد جئت لنسف جسـر .

ـ لا ، الجسر شيء تافه ... متى ننسف قطارا آخر ، لا سيما ونحن نملك الجياد الآن .

ـ فيما بعد . اما الجسر فعلى جانب كبير من الاهمية والخطورة .

ـ قالت لي الفتاة ، أن زميلك الذي كان معنا فى حادث القطار قد مات .

ـ اجـل .

ـ يـا للأسف .

ـ لم ار فى حياتي انفجارا كذلك الانفجار . لقد كان رجلا موهوبا. وكنت راضية منه كل الرضى . اوليس فى الامكان ان نقوم بحادث قطار مماثل الآن ؟ عندنا فى الجبال الان ، عدد كبير من الرجال ، انهم اكثر من اللزوم . وقد بدأ العثور على الطعام ، يصبح مهمة شاقة . ومن الخير ان نخرج ، لا سيما وعندنا الان الجياد .

ـ علينا ان ننسف الجسر اولا .

ـ وايـن يقع هـذا الجسـر ؟

ـ في مكـان قريب .

ـ هذا افضل . دعنا ننسف جميع الجسور فى هذه الضاحية ثم ننطلق منها . لقد مللتها . فقد اصبح حشد الناس فيها أكثر من اللزوم . وليس ثمة من جدوى فى ذلك . فقد غدت رائحة النتانة لا تطاق ...

وابصرت ببابلو .. يأتي من وراء الاشجار . ثم قالت ... تعال ايهـا السكير القذر . والتفتت الى روبرت وقالت بمرح ... لقد أخذ زجاجة من الخمر ، ليشربها وحيدا فى الادغال .. انه يحتسي الخمر طيلة الوقت. وهذه الحياة تقضي عليه ..! اسمع ايها الشاب ، انا سعيدة بمجيئك ،

وربتت على ظهره ، ثم قالت وهي تمر بيدها ، على عضلات كتفيه ، تحت قميصه الكتاني .. انك اقوى مما ظننت اولا .. حسنا ، انا سعيدة بمجيئك

ـ وانا سعيد برؤيتك .

سنفهم بعضنا جيدا . هل لك فى كاس من الخمر ؟

ـ لقد شربنا ما فيه الكفاية ... ولكن اتشربين معي ؟

ـ لا حتى العشاء . انه يحرق فؤادي .. ورات بابلو ثانية وهتفت .. ايها السكير ، ثم عادت تلتفت الى روبرت ، وهزت راسها قائلة .. لقد كان رجلا طيبا للغاية ، ولكنه قد انتهى الآن .. والان ، اسمع ، سأحدثك عن شيء آخر ، كن طيبا مع الفتاة ، وكثير العناية بها .. اجل ماريا .. لقد مرت بمحنة قاسية ، هل فهمت ؟

ـ اجل ، ولكن لم تقولين ذلك ؟

ـ لقد رايت موقفها منك ، وما تحس به نحوك ، عندما عادت الى الكهف وابصرت بها ، وهي ترقبك عندما خرجت .

ـ لقد مزحت معها بعض الشيء .

ـ كانت فى حالة سيئة ، وقد تحسن وضعها الان . ومن الواجب ان تخرج من هنا .

ـ فى وسعنا ان نبعث بها عبر الخطوط مع انسيلمو .

ـ فى وسعك ان تاخذها ، مع انسيلمو ، عندما ينتهي الموضوع .

واحس روبرت بغصة فى حلقه ، وهو يقول .. فى وسعنا ان نفعل ذلك .

ونظرت اليه زوجة بابلو ، وهزت راسها ، وهي تقول .. هل كل الرجال من هذا الطراز ؟

ـ لم اقل شيئا ، انها جميلة ، وانت تعرفين ذلك .

ـ لا ، انها ليست جميلة ، ولا ريب انك تعني انها بدات تصبح جميلة ..

الرجال ، يا له من عار علينا معشر النساء ، ان نلدهم . لا . أرجوك ، فانا احدثك بكل جد . اليست هناك اماكن فى الجمهورية للعناية بمثل هذه الفتـــاة ؟

ـ اجل ، هناك ، اماكن ممتازة ، على الساحل قرب فالانسيا . وهناك اماكن اخرى ايضا ، وبالطبع سيعنون بها هناك احسن عناية ، وتستطيع ان تعمل فى تربية الاطفال ، الذين نقلوا من القرى التي جلونا عنها ، وتعهدهم بها وهم سيدربونها على هذا العمل .

ـ هذا ما اريده لها ، ان بابلو مولع بها ، وهذا يلعب دوره ايضا فـي تدميره ، فهو عندما يراها ، يشعر وكانه مريض ، من الخير ان تذهب الان .

ـ فى وسعنا ان ناخذها ، بعد ان ننتهي من هذا الموضوع .

ـ وستعني بها الان ، اذا وثقت بك ؟ انني احدثك وكانني اعرفك منذ امـد طويـل .

ـ هذا هو المالوف عادة ، عندما يتفاهم اثنان .

ـ اجلس ، انا لا اطلب وعدا ، فكل ما هو مقدر آت . اما اذا لم تاخذها فاريد منك أن تعدني بشيء .

ـ ولماذا لا اخذها ؟

ـ لانني لا اريد أن تصاب بالجنون ، بعد ان تمضي انت عنا . لقد خبرت جنونها قبلا ، وانا فى غنى عن جنونها من جديد .

ـ سناخذها بعد ان ننتهي من قضية الجسر . اذا قدر لنا ان نعيش بعد حادث الجسر ، فسناخذها .

ـ لا يرضيني ان تتحدث على هذا الشكل ، فالحديث على هذا الطراز ، ياتي بالحـظ الحسـن .

ـ لقد تحدثت على هذا النحو ، لكي اعدك فقط ، فانا لست من الذين يتشاءمـون .

ـ دعنـي ارى يدك ...

وبسط لها روبرت كفه ، فاخذتها المراة بين يديها الضخمتين ، ثم اخذت تفرك ابهامها فيها ، وتنظر اليها بدقة وامعان . ثم اسقطتها من بين يديها، ونهضت ، فوقف روبرت ايضا ، وتطلعت اليه دون ان تبتسم .

ـ ماذا رايت فى كفي ، انا لا اصدق عادة ، ولذا فلن اخاف .

ـ لا شيء ، لم ار فيها شيئا .

ـ لا ، لقد رايت ، ماذا رايت .. هذا مجرد فضول ، فانا لا اؤمن بمثل هذه الامـور .

ـ بمـاذا تؤمن اذن ؟

ـ اؤمن باشياء كثيرة ، الا هذه ؟

ـ بمـاذا ؟

ـ اؤمن بعملـي .

ـ اجل ، لقد رايت هـذا .

ـ ماذا رايت ايضا ..

ردت بمرارة ... لم ار شيئا آخر ، يبدو ان موضوع الجسر شـاق كمـا تقول ؟

ـ لم اقل انه شاق ، قلت انه مهم .

ـ ولكن يمكن ان يكون شاقا ؟

ـ حتما ، وسامضي الان لاراه . كم رجلا عندك هنا ؟

ـ خمسة يمكن الاعتماد عليهم ، اما الغجري ، فلا نفع فيه ، وان كانت نواياه طيبة ، ان قلبه طيب . اما بابلو ، فقد فقدت الثقة فيه .

ـ كم رجلا عند ايل سوردو ، يمكن الاعتماد عليهم ؟

ـ ثمانية ... سنرى الليلة على كل حال ، أنه آت الينا ، وهو رجل عملي واقعي ، ولديه بعض المتفجرات ، ولكنهــا ليست كثيرة .. وسنتحدث اليــه .

ـ أبعثت في طلبه ؟

ـ انه يأتي كل ليلة ، فهو جار لنا ، بالاضافة الى انه صديق ورفيق .

ـ ما رأيك فيه ؟

ـ رجل طيب ، وواقعي ، لقد كان رائعا فى قضية القطار .

ـ وما الموقف بالنسبة الى العصابات الاخرى ؟

ـ اذا ابلغناها فى الوقت المناسب ، امكننا حشد خمسين بندقية ، يمكن الركون اليها الى حد ما .

ـ الى اي حد ؟

ـ الى الحد الذي تسمح به خطورة الوضع .

ـ وكم طلقة عندنا لكل بندقية ؟

ـ نحو من عشرين ، والامر يتوقف على كل حال ، علــى العدد الذي سيعدونه لهذا العمل ، اذا وافقوا على الاشتراك فيه ، فعليك ان تتذكر ، ان قضيــة الجسر لا تنطوي على غنائم ، او اموال ، وانما تنطوي على الخطر بالنسبة الى تحفظك فى الحديث ، ثم هناك ما هو الاهم ، وهو احتمال المضي عن هذه الجبال ، ان الكثيرين سيعارضون فى موضوع الجسر .

ـ واضــح ...

ـ لذا من الخير ، عدم الخوض فى الحديث عنه ، الا عند الضرورة .

ـ انا متفق معك .

ـ اذن بعد أن تدرس موقع الجسر ، فسنتحدث الليلة الى ايل سوردو .

ـ سأنزل الآن مع انسيلمو .

ـ ايقظه اذن .. اتريد غدارة ؟

ـ شكرا ، قد يكون وجودها نافعا ، ولكنني لن استعملها . انا ذاهب لادرس لا لاثير المشاكل . شكرا لك على حديثك . لقـــد احببت فيك طريقتك في الحديث ...

ـ انا احاول التحدث بصراحة .

ـ اذن قولي ماذا رايت في يدي ؟

ـ لا . لم ار شيئا . امضي الان الى جسرك ، وسأعني بمتاعك .

ـ أسدلي عليه شيئا ، ولا تدعي احدا يلمسه . من الخير ان يظل فى مكانـــه .

ـ سأغطيه بشيء ، ولن يلمسه احد ... امض الآن فى طريقك .

ووضع روبرت يده على كتف انسيلمو يهزه ، من سباته .. وهتف .. انسيلمو .. وفتح العجوز عينيه ، وقال .. اجل .. دعنا نذهب .

٣

هبط الرجلان المائتي باردة الاخيرة ، وهما ينتقلان ، بحرص وحذر من شجرة الى ثانية ، مختفيين فى ظلالها . واخذا الآن ، ينظران عبر ما تبقى من اشجار الصنوبر على سفح الجبل ، الى الجسر الذي يقع على بعد خمسين باردة فقط . وكانت شمس الاصيل ، التي ما زالت تلقي باشعتها، من وراء كتف الجبل ، تظهر الجسر قاتما معتما . يقوم فوق تلك الهوة الهائلة من الخواء ، الهابط الى الوادي السحيق . كان الجسر من الفولاذ وهو ذو معبر واحد ، والى جانبيه يقوم ملاذان لرجال الحرس ، يأويان اليهما عند الحاجة . اما الطريق فوق الجسر ، فتتسع لسيارتين فى آن واحد ، وفى الهوة السحيقة ، ينساب جدول ، صغير ، بمياهه البيضاء المندفعة بين الصخور والجنادل ، ليتصل ، بالنهر الرئيسي عند المضيق .

وكان روبرت يواجه اشعة الشمس ، ولذا لم يستطع ان يرى من الجسر الا خطوطه العريضة . وبدات الاشعة تتضاءل شيئا فشيئا ، الى ان اختفت نهائيا ، وعندما تطلع عبر الاشجار الى القمة العالية الداكنة التي اختفت ورائها الشمس ، رأى انه لم يعد يرى القا ، وانما يرى انحدارا جبليا ، تغطيه الخضرة فى كل مكان ، وهناك بعيداً على القمة ، كتل

ثلجيــة ، تنتشر هنا وهنالك .

وعاد يتطلع الى الجسر من جديد ، ليدرس ، على ما تبقى من ضوء النهار، تركيبه وبنيانه . وادرك ان قضية نسفه ليست بالامر العسير . وتناول من جيبه دفترا صغيرا ، اخذ يرسم عليه بعض الخطوط السريعة ، ولم يحسب ، عندما رسم هذه الخطوط حساب ، المتفجرات التي سيضعها بل ترك تقدير ذلك ، الى وقت اخر . اذ كان كل ما يريد تحديده الآن ، هو الموقع الذي يجب أن يضع فيه المتفجرات ، لينسف احدى دعائمــه ،ــ فتهبط ، به الى الهوة السحيقة . وقرر أن في آلوسع انجاز المهمة باناة ودقة ووفقا للاسلوب العلمي بست متفجرات ، توضع بشكل متعاقــب بحيث يتوالى انفجارها ، كما يمكن انجازها ايضا بمتفجرين كبيرين يوضع كل منهما فى ناحية من الجسر ، على ان ينفجرا فى وقت واحد . ومضى يرسم بسرعة ، وهو يحس بالسعادة ، لانه اصبح اخيرا مسيطرا علـى المشكلة ، ولانه قد بدا أخيرا فى تنفيذ المهمة الموكلة اليه . وانتهى اخيرا من الرسم ، فاعاد القلم الى موضعه ، ثم اخفى دفتره فى جيبه .

وبينما كان روبرت مستغرقا في عملية الرسم ، كان انسيلمو يراقــب الطريق والجسر وملاذ الحرس . وقدر انهما إقتربا من الجسر اكثر مــن اللزوم ، وان سلامتهما اصبحت معرضة للخطر ، ولذا ، ما كاد روبرت ينتهي من الرسم ، حتى شعر بالراحة تعاوده .

وعندما انتهى روبرت من وضع دفتره فى جيبه ، وانبطح وراء شجرة الصنوبر متطلعا من ورائها ، وضع انسيلمو ، يده على ذراعــه ، مشيرا باصبعه . ففي ملاذ الحرس المواجه لهم ، كان الخفير جالسـا ، وقد امسك بندقيته بيده ، بعد أن وضع حربته في راسها ، وكان الحارس يدخن لفافة من التبغ ، وقد ارتدى فوق راسه ، قبعة مخيطة ، وبالطبع لم يكن فى وسعهما من مسافة خمسين ياردة ، أن يتبينا وجهه تماما ، واعد روبرت منظاره ، ووضعه على عينيه ، فرأى الجسر امامهُ واضحا كل الوضوح ، وابصر بوجه الحارس المغضن ، ووجنتيه الغائرتين ، كما شاهد رمـاد سيكارته وبريق حربته ، لقد كان وجه فلاح ، بلحيته الكثة ، والعينين وقد

احاط بهما حاجبان كثيفان . وراى روبرت يديـــه الغليظتين تمسكان بالبندقية ، والى جانبه ، زق خمر من الجلد ، وبعض الصحف ، وبحث روبرت بعينيه عن جهاز الهاتف فلم يره . وتطلع الى الاسلاك ، فلعـــل الجهاز قائم في الزاوية التي لا تنكشف امامه ، ولكنه لم ير اثرا للاسلاك ، كان ثمة خط هاتفي يسير عبر الطريق ، ممتداً فوق الجسر .

ومد روبرت المنظار الى انسيلمو ، ولكن الرجل العجوز ، لـــم ياخذه واكتفى بهز راسه ، قائلا .. لقد رايته ..

ولم يستطع روبرت ان يرى شيئا في الملاذ الثاني القائم عند الطرف الآخر من الجسر ، فالطريق العريضة الحسنة التعبيد والممتدة فوق الجســـر تنحرف الى اليسار في نهايته ، ثم تختفي عن النظر عند منعطف يمتد الى اليمين ، وراى روبرت ، ان المنعطف يتسع هناك ، بعد ان نحت جانب من الصخر ، ليصبح جزءا من الطريق ، اما من الجانب الآخر ، فهناك قوائم مرتفعة من الاحجار ، موضوعة في صف طويل ، لترمز الى انتهاء الطريق وامتداد الوادي السحيق .

وقال روبرت سائلا انسيلمو ــ واين المركز الآخر للحرس ؟

ــ على بعد خمسمائة متر ، وراء المنعطف ، في كوخ العامل الذي يشرف على تصليح الطريق ، والمنحوت في قلب الصخر .

ــ وكم عدد الرجال فيه ؟

كان يتطلع من جديد الى الحارس . رآه ، يطفىء سيجارته ، ثم يخرج ، حقيبة جلدية ، من جيبه ، ملأى بالطباق ، ويفتح ورق السيكارة التـي اطفأها لتوه ، ليخرج ما فيه من تبغ ، يضمه الى ما في الحقيبة ، ووقف الحارس فاسند بندقيته الى الجدار ، وتثاءب متمطيا ، ثم عاد فحمل بندقيته ، واضعا اياها على كتفه ، وخرج يسير على الجسر . وانبطح انسيلمو تماما على الارض ، بينما وضع روبرت منظاره في جيبه ، واختفى

تماما وراء شجرة الصنوبر .

وقال انسيلمو ، وهو يهمس فى اذنه ، هناك سبعة رجال وعريف . هذا ما علمته من الغجري .

ـ سنعود الآن ، حالما يهدا الرجل ، اننا قريبان جدا منه .

ـ او رايت ما وددت أن تراه ؟

ـ اجل ، لقد رايت كل ما انا فى حاجة الى رؤيته .

وبدا الطقس يبرد بسرعة مخيفة ، بعد ان اختفت الشمس وراء الافق ، واخذ الظلام يدب الى الكون شيئا فشيئا ، بينما يختفي وهج الشفق ، وراء الجبل السامق .

وقال انسيلمو لرفيقه ، عندما راى الحارس ، يعبر الجسر متجها الى الملاذ الثاني وقد انعكس نور الشفق على حربته ، واختفى قوامه ، وراء معطفه الاسود المصنوع من الخيش ، وما هو رايك فى الوضع ؟

ـ علـى خيـر مـا يرام .

ـ يسعدني هذا ، هل نمضي الان ؟ فليس ثمة من خطر فى ان يرانا .

كان الحارس واقفا ، فى نهاية الجسر القصوى ، وقد ادار ظهره اليهما ، ومن الهوة السحيقة ، ارتفع هدير الماء ، وهو يصطدم بالجنادل ، ووراء هذا الهدير سمعا ازيزا يتعالى ، ورفع الحارس راسه ، الى السماء ، فتطلعا الى حيث يتطلع وابصرا بثلاث طائرات ، تطير على شكل حرف (V) ، وتعبر السماء ، مسرعة فى طريقها ، بينما انعكست اضواء الشمس المختفية وراء الافق ، عليها .

وقال انسيلمو ـ هل هي طائراتنا ؟

ـ يخيل الي ذلك .. لكنه لم يكن واثقا ، اذ من الصعب على الانسان ان يميز الطائرات ، وهي على مثل هذا الارتفاع ، فقد تكون طائرات تقوم

بالدورية الليلية لأي من الفريقين ، ولكن فى وسعك أن تنسب دائما ، الطائرات المطاردة الى فريقك ، لانها توحي بالثقة ، اما القاذفات فمسئلة اخـــرى .

واحس انسيلمو بنفس الشعور وقال .. انها طائراتنا ، فقد ميزتها ، انهـــا من طراز موسكا .

ــ حسنا ، يبدو لي انها من طراز موسكا

ــ انها من طراز موسكا حتما .

وكان فى وسع روبرت ، أن يتطلع اليها بمنظاره ليتأكد لتوه ، ولكنه آثر ان لا يفعل ذلك ، ولا يهمه فى هذه الليلة بالذات ، لمن تكون هذه الطائرات واذا كان الرجل العجوز يريدها ، ان تكون لفريقه ، فلماذا يحرمه من هذه الرغبة . اما وقد ابتعدت عن مدى النظر باتجاه سيغوفيا ، فانها لم تبد تلك الطائرات الخضراء ، ذات الجناح الخفيض الاحمر ، الذي يسميه الروس « بوينغ بي ٣٢ » ويسميه الاسبانيون موسكا ، وبالطبع لم يستطع ، روبرت تمييز الالوان من هذا المدى البعيد ، ولكن تركيبها ليس من النوع الذي يعرفه . حتما انها دورية فاشية تعود الى قاعدتها .

وكان الحارس لا يزال واقفا فى الطرف النائي من الجســر ، وقد ادار لهما ظهره . وقال روبرت .. هلم بنا .. وشرع يرتقي الجبل ، ماشــا بحرص ، يختفي وراء كل شجرة ، ووراءه انسيلمو يفعل فعله ، حتـــى اختفيا عن النظر .. وعندما اصبحا فى منجاة من ان يراهما الحارس ، عاد انسيلمو ، يسبقه ، فى الارتقاء ، بثبات .

وقال العجوز .. لدينا سلاح جوي قوي .

ــ اجـــل .

ــ وسنربح الحـــرب .

ــ يجب ان نربحهـــا .

ـ اجل ، وبعد أن ننتهي منها ، يجب ان تأتي الينا لنصيد في بلادنا .

ـ ماذا اصيد ؟

ـ الخنازير ، والدببة والثعالب والوعول ...

ـ اتحب الصيد ؟

ـ نعم ، يا رجل ، احبه اكثر من كل شيء . كلنا نصيد في قريتنا . او لا تحب الصيد ؟

ـ لا ، فانا لا ارغب في قتل الحيوانات .

ـ أما انا ، فعلى العكس منك . لا ارغب في قتل الرجال .

ـ ليس هناك من يرغب في قتلهم ، الا المصاب بخلل في عقله . ولكنني لا ارى ما يحول دون ذلك ، عندما يكون ضروريا . لا سيما اذا كان دفاعا عن قضية .

ـ ومع ذلك ، فهذا شيء آخر . لقد كان عندي في البيت ، عندما كان لي بيت ، انياب الخنازير التي قتلتها في الغاب . وكنت احتفظ ، بجلود الذئاب التي قضيت عليها . اجل كنت اصيدها ، في الشتاء ، فوق الثلوج . وفي ذات ليلة من ليالي تشرين الثاني ، وكنت عائداً الى القرية ، قتلت في خارجها ذئبا كبيرا للغاية ، عند الغسق . كان عندي جلود اربعة ذئاب . لقد بليت ، من الاقدام ولكنها جلود ذئاب على كل حال . وكان عندي قرون الوعول ، وهياكل النسور التي حافظت عليها ، بعد أن حشوتها بالملح . انها فاتحة اجنحتها ، وعيونها صفراء . وكأنها حية . يا لها من اشياء جميلة ، وكنت دائما اشعر بالمتعة عندما اتطلع اليها .

ـ حقا .

ـ وعلى باب الكنيسة في قريتنا ، دققت مخلب دب قتلته في الربيع ، عثرت عليه عند سفح الجبل ، فوق الثلوج ، وكان يدحرج جذعا ضخما بعين هذا المخلب .

ـ ومتى كـان هذا ؟

ـ قبل ست سنوات . وكنت كلما رايت ذلك المخلب ، كيد الانسان تماما ، ولكن على شكل اضخم ، كنت اشعر بالسرور .

ـ افتخارا واعتزازا ؟

ـ اجل ، عندما اتذكر معركتي معه عند سفح الجبل فى أوائل الربيع . اما قتل الانسـان للانسـان ، فأمر لا يترك ، اي اثر للذكرى .

ـ اجل اذ ليس فى وسعك ان تدق مخلبه على باب الكنيسة .

ـ طبعا ، فمثل هذه الفظاعة تفوق حد التصور ، ومع ذلك فان يـد الانسان تشبه الى حد ما مخلب الدب .

ـ وصدر الانسـان لا يختلف ايضا عن صدر الدب ، فاذا ما نزعنا الجلد عن الدب ، ظلت هناك اوجه شبه متعددة فى الاوضـاع .

ـ اجل ، فالغجر يعتقدون ان الدب هو اخو الانسـان .

ـ وهذا ما يؤمن به هنود امريكا ايضا . فعندما يقتلون دبا ، يعتذرون اليه ويسالونه الصفح والمغفرة . فهم يضعون جمجمته على احدى الاشجار، ثم يتقدمون اليها طالبين الغفران ، قبل ان يرحلوا .

ـ أما الغجر ، فيعتقدون ان الدب اخ للانسان ، لان جسمه اذا ما نزع عنه جلده اضحى شبيها بجسم الانسـان ، ولانه يشرب الجعة ، ويطرب للموسيقى ويحب الرقص .

ـ وهذا مـا يعتقده الهنود أيضا .

ـ وهل الهنود من الغجر ؟

ـ لا ، ولكنهم يتشـابهون معهم فى اعتقادهم عن الدب .

ـ واضح . ويؤمن الغجر ايضـا انه اخ للانسـان لانه يسـرق طلبا للمتعة .

ـ هل فى دمك ، قطرة من دماء الغجر ؟

ـ كلا . ولكني رايت الكثيرين منهم . وقد تضاعفت معرفتي بهم بعد الثورة . فهناك عدد كبير منهم يعيش في الجبال . وهم لا يعتبرون قتل الغريب عن عشيرتهم « جريمة » ومع انهم لا يعترفون بذلك ، الا انهـــا الحقيقة . . ولهم عدد من القوانين التي يعترفون بها في الظاهر ، فقد اصبح عدد منهم ايام الحرب من الاشرار ، كما كانوا في الايام السالفة .

ـ انهم لا يعرفون سببا لهذه الحرب . وهم لا يعرفون لماذا نحارب .

ـ لا . وكل ما يعرفونه ان ثمة حربا ، وان في وسع الانسان ان يقتل كما كان شانه في الايام الخوالي ، دون ان يخشى العقاب .

ـ وهل قتلت في حياتك يا انسيلمو ؟

ـ اجل . عدة مرات . ولكن دون ان اشعر بمتعة . فقتـلالانسان في رايي خطيئة . حتى ولو كان من الفاشيين ، الذين يجب ان نقتلهم . فثمة فرق كبير في رايي بين الانسان والدب ، وانا لا اؤمن بسحر الغجـــر ، وشعوذتهم عن الاخوة القائمة بين الانسان والحيوان . انني اكره قتل الانســـان .

ـ ومع ذلك فقد قتلت .

ـ اجل ، وساقتل ثانية ، ولكن اذا قدر لي ان اعيش لما بعد هذه الحرب فساحاول ان احيا ، دون ان الحق اذى بانسان ، مما يغفر لي اخطائي السابقـــة .

ـ ومن الذي يغفر لك ؟

ـ لا ادري ؟ ما دمنا لم يبق لنا في هذه البلاد ، اب او ابن او روح قدس ننال غفرانهم ، لا ادري .

ـ اليس لـــك اله ؟

ـ لا ، ايها الرجل ، طبعا لا ، لو كان ثمة اله ، لما سمح بهذه الفظائع التي رايتها بعيني ، دع الله لهم .

ــ انهم يزعمون انه الههم .

ــ من الطبيعي ، ان احس بالحاجة اليه ، اذ نشأت متدينا . ولكنني ارى الان ان يكون كل انسان مسؤولا عن نفسه .

ــ اذن فانت تطلب المغفرة عمن قتلتهم من نفسك .

ــ يخيل الي ذلك ، ما دمت ، قد اوضحت القضية على هذا الشكل . ولكن سواء اكان ثمة اله او لم يكن ، فاني لا اعتقد ان قتل الانسان خطيئة، فمن الجريمة ان تسلب انسانا حياته ، وقد ارتكبتها عندما يكون ذلك لازما لا مفر منه ، ولكنني لست من طراز بابلو .

ــ ومع ذلك ، يتطلب الانتصار في الحرب ، ان تقتل اعداءك ، هذه قاعدة اثبتت الايام صحتها .

ــ واضح ، ففي ايام الحرب ، يتحتم على الانسان ان يقتل ، ولكن لي آراء غريبة .

وكانا يسيران الان متلاصقين في هداة الليل ، وكان انسيلمو يتحدث برقة ونعومة ، وهو يستانف الصعود ، ملتفتا الى رفيقه بين الفينة والفينة .. وقال .. ومع ذلك ، فانا لا احب ان اقتل انسانا حتى ولو كان مطرانا، او ملاكا من اي نوع . وكل ما افرضه على هؤلاء الناس ، ان يعملوا في الحقول كما عملنا ، او في الجبال في قطع الاخشاب ما تبقى من حياتهم ، فيدركون آنذاك لماذا يخلق الانسان ، واحتم عليهم ان يناموا حيث ننام ، وان ياكلوا ما ناكل ، ولكن اهم من ذلك كله ، افرض عليهم العمل ، فهذا وحده يعلمهم .

ــ وتترك لهم مجال العيش ليعودوا الى استعبادك ثانية ؟

ــ ان القتل لا يعلم شيئا ، وليس في وسعك ان تستأصلهم ، فمن بذورهم ينشأ جيل جديد ، يعيش على الكراهية ، والسجن لا يفيد ، فهو يخلق الحقد ، ان ما اريده هو ان يتعلم جميع اعدائنا .

ــ ومع ذلك فقد قتلت .

ـ اجل ، لقد قتلت عدة مرات ، وساقتل ثانية ، ولكن دون ان اشعر بالمتعة ، وعلى الرغم من اعتباري القتل خطيئة .

ـ والحارس ؟ لقد كنت تهزل عندما تحدثت عن قتله ؟

ـ اجل كنت أهزل . ساقتله . اجل ساقتله حتما ، وضميري مرتاح ، لاننا نؤدي واجبا ، ومع ذلك فلا اشعر بمتعة فى قتله .

ـ سنترك القتل لمن يتمتعون به ، فهناك ثمانية وخمسة ، اي ثلاثة عشر ، وهو عدد كاف لمن يريد التمتع .

ـ ان من يتمتعون بالقتل كثيرون . ولدينا منهم عدد جم . أجل ، ان لدينا منهم ، عددا اكبر من اولئك الذين يؤثرون المعارك على القتل .

ـ وهل خضت فى حياتك معركة ما ؟

ـ لا ، ابدا . لقد حاربنا فى بداية الحركة فى سيغوفيا ، ولكن سرعان ما هزمنا ، وهربنا . لقد هربت مع الآخرين . ولم نكن نفهم حقا مـــا كنا نعمل ، أو كيف يجب ان نعمل . ولم تكن لدي الا بندقية صيد ، مع عدد من الخراطيش ، اما الحرس المدني ، فكانوا يحملون بنادق الموزر . ولم يكن فى وسعنا ان نصيبهم ببنادقنا ، من مسافة مائة ياردة ، أما هم ،فكان فى وسعهم ان يصيبونا ببنادقهم ، من مسافة ثلاثمائة ياردة وان يقتلوننا كما يقتلون الارانب . لقد اطلقوا علينا نيرانا حامية ، وصائبة ، وكنـــا اشبه ما نكون بالاغنام امامهم .. وسكت العجوز برهة ثم قال ..او تظن ان معركة ستنشب عند الجسر ؟

ـ هناك احتمال .

ـ لم ار فى حياتي معركة لم افر فيها . ولا أدري كيف ساحتفظ برباطة جاشي ، وانا كما تعلم رجل عجوز ..

ـ ساقوم بالقتال ، نيابة عنك .

ـ وهــل خضت معارك عــدة ؟

ـ اجل .

ـ وما رايك . في قضية الجسر هذه ؟

ـ انا افكر في الجسر اولا . فهذا عملي . وليس من الشاق ، ان اقوم بنسف الجسر . ثم نقوم باستعداداتنا الاخرى . اما بالنسبة الى الاعمال التمهيدية ، فستكون كلها اوامر مكتوبة .

ـ ولكن ليس بين هؤلاء من يقرا الا النزر اليسير .

ـ انها ستكتب على كل حال ، ولكنها ستوضح ايضا .

ـ ساقوم بتنفيذ ، ما يفرض علي . ولكن مع ذكرياتي لما وقع في سيغوفيا؛ عندما اطلقت النيران ، فانني اريد تعليمات واضحة عما يجب ان افعله في حالة وقوع معركة لتجنب الفرار . انني ذكرت ، ان حافزاً قويا كـــان يدفعني الى الفرار في سيغوفيا .

ـ لا تخف ، فسنكون معا . وسابلغك ما تعمله طيلة الوقت .

ـ اذن فقد انتهت المشكلة . في وسعي ان انفذ كل ما تامرني به .

ـ ستكون هناك مشكلة الجسر ، ثم قضية المعركة اذا تحتم علينا ان نخوضهـــا .

ـ لا ريب في ان التجربة ستكون ممتعة حقا .

وخيل لروبرت جوردان ، انه محظوظ، لأن القدر قد اتاح له هذا الرجل العجوز . وبعد ان درس وضع الجسر ، وتناول المشكلة من جميع نواحيها، مبسطا اياها ، فقد قدر ان خير سبيل يلجأ اليه هو ان يداهم المـراكز العسكرية المحيطة بالجسر ، وان ينسفه بطريقة عادية ، فسخط على اوامر غولز ، ولم ير ضرورة لها . اجل سخط عليها ، لما قد تاتي به من شر له ولهذا الرجل العجوز . فقدكانت اوامري تنطوي على الشر بالنسبة لمـن يقــوم بتنفيذها .

وخيل اليه ان مثل هذا التفكير لا يصلح له البتة ، وان ليس ثمة اناس ،

يجب ان يكونوا في منجاة من ان يقع لهم شيء . وقال لنفسه .. انك لا شيء ، وهذا الرجل العجوز لا شيء ايضا . انكما اداتان من ادوات تنفيذ الواجب . وهناك اوامر ، ليست خطيئة من خطاياك ، كما ان ثمة جسراً ، وهذا الجسر قد يكون نقطة التحول في تاريخ الجنس البشري . ومن المحتمل . أن تكمن نقطة التحول هذه . في اي امر يتعلق بهذه الحرب . هناك شيء واحد عليك ان تنفذه . اجل شيء ، لا اكثر ولا اقل . ولو كان شيئا واحدا لهان الامر . ولكن، كف عن التعليق ايها اللقيط المغرور... وفكر بشيء آخر .

واشتغل تفكيره ، الى هذه الفتاة ماريا ، ببشرتها الصافية ، وشعرها الداكن وعينيها البنيتين الذهبيتين .. ان بشرتها شاحبة صافية .. تخفي سمرة وراءها .. وهي ناعمة ، ناعمة ، في كل ، جزء من اجزاء جسمها ، وهي تخطو خطوا لا مباليا ، وكان شيء يضايقها ، ويحيرها ، ولكن هذا الشيء لا وجود له الا في خيالها .. وتذكر حمرة الخجل . وهي تعلو وجهها عندما يتطلع اليها ، ورآها في خياله تجلس وقد ضمت يديها الى ركبتيها ، وانفتح قميصها ، ليبين عنقها ، وتذكر ثدييها ، وهما يكادان يقفزان من ذلك القميص ، فاحس بغصة في حلقه ، وتعثر في مشيته ، واذا به يفيق من احلامه على صوت الرجل العجوز يهتف به قائلا .. سنهبط هذه الصخور ، فنكون قريبين من المعسكر .

وعندما خرجا من الصخور ، في ظلمة الليل الحالك ، سمعا صوتا يقول .. قف .. من هناك ؟ وسمعا صوت فرقعة زناد البندقية .

وقال انسيلمو ـ رفاق ...

ـ اي رفاق ؟

ـ رفاق لبابلو .. الا تعرفنا .

ـ اجل . ولكنها الاوامر . ما هي كلمة السر .

ـ لا نعرفها ، لقد اتينا من المنحدر .

ـ اعرف ... لقد جئتما من الجسر . اجل انا اعرف كل هذا ... ولكنها الاوامر .. ويجب ان تعرف نصف كلمة السر .

ـ وما هو النصف الثاني ؟

ـ لقد نسيته .. اذن امض الى نار المعسكر مع متفجراتك اللعينة .

ـ هذا ما يسمى بنظام حرب العصابات .. اغلق بندقيتك يا هذا ..

ـ لقد امنتها . فقد انزلت الزناد بابهامي .

ـ قد يحدث هذا فى بندقية « موزر » ومع ذلك تنطلق .

ـ انها بندقية « موزر » ، ولكن لي أبهاما وسلامة قويين كل القوة .. انا الجا دائما الى هذه الطريقة .

ـ وايـن تتجه البندقية ؟

ـ اليكما ، كانت تتجه اليكما طيلة الوقت . وعندما تصلان الى المعسكر ابعثا بمن يخلفني فى نوبة الحراسة ، فانا اشعر بجوع قتال ، ثم انـي نسيت كلمـة السر .

ـ مـا اسمك ؟

ـ اوغسطين . ومع ذلك ، فانا اكاد اموت من الملل فى هذا المكان .

ـ سنحمـل الرسالة ..

ـ اسمع يا هذا .. واقترب اوغسطين من روبرت ، والقى بيده على كتفه ، ثم قدح زناد قداحته وقربها من وجه الشاب متطلعا اليه علـى ضوئها .. وقال .. انك تبدو كالرجل الآخر ، ولكنك تختلف عنـه .. اسمع .. هل صحيح ما قيل لي عن قصة الجسر .

ـ وماذا سمعت عن الجسر ؟

ـ سمعت اننا سننسف جسراً قذرا ، ثم نطرد انفسنا بقذارة من هذه الجبـال .

ـ لا ادري شيئا .

ـ لا تدري شيئا ؛ يا للفظاعة ! اذن لمن المتفجرات ؟

ـ انها لـي .

ـ ثم لا تعرف الغاية منها ، وستعرفها انت في الوقت المناسب . اما الان فسننصرف الى المعسكر .

ـ اذهب ، حيث شئت ، وافعل بنفسك ما تشاء ، ولكن اتريدني ان اقول لك شيئا قد ينفعك .

ـ اجل . شريطة ان لا ينطوي على السباب والشتائم .

وبدا اوغسطين يتحدث بقذارة ، مضيفا نعت القذارة الى كل اسم يستعمله حتى خيل لروبرت ان الرجل لا يستطيع ان يفوه بجملة كاملة .. ومضى يقول .. انها طريقتي في الحديث ، وقد تكون بشعة ، فمن يدري ، فكل انسان يتحدث بما في نفسه ، وكل اناء ينضح بما فيه . اصغ الي : انـا لا يهمني الجسر ، كما لا يهمني أي شيء آخر ، ثم .. لقد مللت من الحياة في هذه الجبال ، واذا كان لا بد من ذهابنا ، فيجب أن نذهب ، فليس لهذه الجبال من اهمية عندي . اجل يجب ان نتركها ، ولكنني اود ان اقـول شيئا .. احرص على متفجراتك .

ـ شكرا .. منـك ؟

ـ لا ، ولكن من اناس ، اقل انطباعا مني .

ـ هـذا رايك ؟

ـ لا شك انك تفهم الاسبانية ؛ احرص على متفجراتك

ـ شكـرا لـك .

ـ لا ، لا تشكرني ، ولكن احرص عليها .

ـ وهل حـل بهـا شيء ؟

ـ لا ، والا لما كنت اضيع وقتي في الحديث اليك بهذه الطريقة .

ـ شكرا على أي حال ، سنذهب الآن الى المعسكر .

ـ حسنا ، وليرسلوا ، من يعرف كلمة السر .

ـ هل سنراك فى المعسكر ؟

ـ حتما ايها الرجل ، وبعد وقت قصير .

وقال روبرت لانسيلمو ـ هلم بنا .

ومضيا في طريقهما ، يسيران فى طرف المرج الصغير ، وكان ثمة ضباب يلف المكان ، واضحى العشب رخيا ، طريا ، تحت اقدامهما ، من اثر الندي عليه ، ورأى روبرت عبر الاشجار بصيصا من النور ، فادرك ، انه الضوء المنبعث من فم الكهف .

وقال انسيلمو ـ ان اوغسطين رجل طيب ، ومع ان طريقته فى الحديث قذرة ومهذارة الا انه غالبا ما يكون رجلا جاداً لا هازلا

ـ وهل تعرفه جيدا ؟

ـ اجل ، اعرفه منذ امد طويل ، واني اثق فيه كل الثقة .

ـ وما رايك فيما قاله ؟

ـ اجل ايها الرجل . لقد ساءت طباع بابلو . وكان فى وسعك أن تقرر ذلك بنفسك .

ـ وما خير طريق نسلكه ؟

ـ علينا ان نتولى حراسة المتفجرات طيلة الوقت .

ـ من يتولاها ؟

ـ انت ، انا ، المرأة ، اوغسطين ، ما دام انه يرى الخطر .

ـ وهل تعتقد ان الامور قد ساءت الى هذا الحد ؟

ـ لا ، لقد ساءت بسرعة ، ولكن كان علينا ان نأتي الى هنا . وهي بلاد

بابلو وايل سوردو ، وعلينا في بلادهم ، ان نتعامل معهم ، الا اذا كان في وسعنا الاستغناء عنهم .

ـ وما رايك في ايل سوردو ؟

ـ انه طيب ، بقدر ما هو بابلو شرير .

ـ اذن فانت تعتقد انه سيء حقا .

ـ كنت افكر في الموضوع طيلة النهار ، وبعد ان سمعت الان ما سمعناه يخيل الي انه سيء حقا .

ـ أو ليس من الخير ان نتركهم ، وان نتحدث عن جسر آخر ، ونحصل على ما نحتاج اليه من رجال ، من عصابات اخرى ؟

ـ لا ، انها بلاده ، فليس في وسعك ، ان تخطو خطوة واحدة ، دون ان يحس بك ، ولكن على الانسان ان يكون حذرا في خطوه .

٤

ووصلا الى مدخل الكهف ، وكان بصيص من النور ، ينفذ من وراء الستارة التي علقت على هذا المدخل ، ورأى روبرت الكيسين ، عند جذع الشجرة ، وقد غطيا بقطعة من الخيش، وركع بجانب كيسيه فتحسسهما ووجد ان الغطاء ، قد غدا مبتلا ، وتناول فى ظلمة الدجى من جيب احد الكيسين ، وجس ما فى داخلهما بيده ، فوجد ان كل شيء على ما يرام ، من متفجرات واسلاك ، وصمامات ، وتناول صندوق سكائر روسية من تلك التي اخذها من مقر قيادة غولز ، فوضعه فى جيبه ، ثم اغلق الكيسين كما كانا ، وغطاهما بقطعة الخيش ، ووجد ان انسيلمو ، قد دخل الى الكهف .

ومضى روبرت جوردان ، يلحق به ، ولكنه سرعان ما اعاد النظر في الوضع ، فرفع الشراع من جديد ، وحمل الكيسين بيديه ، ومشى الى مدخل الكهف، ووضع احد الكيسين جانبا ثم رفع الستارة ، واطل براسه وهو يحمل الكيس الآخر الى الكهف .

كان الجو حارا في داخل الكهف ، وقد اختلط الهواء بالدخان ، ورأى مائدة مرتكزة الى الجدار ، وعليها قنديل مرتفع ، وقد جلس حولها بابلو وثلاثة رجال لا يعرفهم ورافائيل الغجري ، وكان ضوء القنديل ينعكس على

الجدار وراء الرجال ، راسما خطوطا من الظلال ، وكانت زوجة بابلو ، تقف عند الموقد المليء بالفحم ، والقائم في زاوية الكهف . اما الفتاة ، فراكعة على الارض على مقربة منها ، وهي تدير بملعقة كبيرة محتويات قدر ضخمة من الحديد ، ورفعت الفتاة ملعقتها الخشبية ، وتطلعت الى روبرت وهو يقف في الباب ، فرأى ان المراة ، كانت تنفخ بمنفاخها النار ، كما ابصر بوجه الفتاة وذراعيها وبنقاط الحساء ، وهي تتصبب من الملعقة الى القدر .

وقال بابلو ـ ماذا تحمل ؟

فقال روبرت وهو يضع الكيسين في زاوية من الكهف بعيدا عن المائدة ـ احمل متاعي .

ـ لماذا لم تكن في أمان في الخارج ؟

ـ قديمر عليها شيء في الليل .. في الظلام .. ومضى الى المائدة ،ووضع عليها علبة لفائفه .

وقال بابلو ـ ولكني لا احب ان يكون عندنا في الكهف متفجرات .

ـ انها بعيدة عن النار ..خذ بعض اللفائف .. ومد يده بالعلبة الى بابلو .

واتى له انسيلمو باريكة ، خفيفة جلس عليها ، حول المائدة ايضا ، وتطلع اليه بابلو من جديد ، وكانه يريدان يقول شيئاثم سكت على مضض ،واقبل على اللفائف ، يعب منها .

ومد روبرت بالعلبة الى الآخرين ، ولم يكن قد نظر اليهم بعد ، ولكنه لاحظ ان احدهم تناول من السكائر بينما امتنع الآخران .. كان كل اهتمامه مركزا على بابلو .. وقال لرافائيل .. كيف حالك ايها الفجري ؟

ـ على ما يرام .

وكان في وسع روبرت ان يدرك ، ان الحديث ، كان يتناوله عندما وصل اليهم .. انهم جميعا في حالة من القلق ، وحتى الفجري ايضا ..

وقال روبرت موجها حديثه الى الفجري ـ وهل سيسمح لك بالاكل ثانية؟

ـ طبعا ، ولم لا ..؟ كانت لهجته بعيدة عن اللهجة الودود التي عرفها روبرت منه بعد الظهر ..

ولم تنبس زوجة بابلو ببنت شفة ، وانما واصلت النفخ في النار بمنفاخها وقال روبرت اخيرا .. هناك رجل يدعى اوغسطين ، يقول انه كاد يموت من الضجر .. هناك .

فرد بابلو قائلا .. ذلك لا يقتل ، على كل حال ، دعه ، يموت بعض الوقت

وقال روبرت ـ هل هناك بعض الخمر ؟

فقال بابلو بخشونة ـ لم يبق الا القليل .

ورأى روبرت أن من الخير له ان ينظر الى الرجال الثلاثة الآخرين ، وان يحاول رؤية الموقف الذي يقف فيه .. ثم قال مخاطبا الفتاة .. اذن فأرجو ان تأتيني بقدح من الماء .

وتطلعت الفتاة الى المراة ، التي لم تعلق بشيء ، وتظاهرت بانها لم تسمع ، ثم مضت الى جرة مليئة بالماء ، فملأت قدحا منها ، وعادت به الى المائدة حيث وضعته امام روبرت . فتناول هذا الكأس ، وهو يبتسم لها ، ثم ادار نفسه على مقعده ، ليدير مسدسه ، المعلق الى جانبه الى الوضع الذي يريده ان يكون فيه ، ومد يده الى جيبه الخلفي ، وكان بابلو يرقبه .. وادرك روبرت أن الجميع يرقبونه ايضا ، ولكنه كان يتطلع الى بابلو وحده ، دون الاخرين ، ورفع يده من جيبه ، وقد حمل بها زجاجة مغطاة بالجلد ، ففتحها ثم شرب نصف ما في الكأس من ماء ، واخذ يصب من الزجاجة في الكأس .. وقال للفتاة « انه شراب قوي عليك ، والا كنت اعطيتك قليلا منه » .. ثم تطلع الى بابلو وقال .. ولم يبق في الزجاجة الا القليل ، والا كنت قدمت لك بعضه .

وقال بابلو ـ ولكنني لا احب اليانسون .

وانتشرت فى الكهف رائحة الشراب وقال روبرت .. هذا حسن ، فلم يبق فى الزجاجة الا القليل .

وقال الغجري ـ اي شراب هذا ؛

ـ انه دواء . اتحب ان تذوقه ؟

ـ دواء لماذا ؟

ـ لكل عاهة . انه يشفي كل شيء . فاذا كنت تشعر بالم ، انقذك منه

ـ دعني اذوقه .

ودفع روبرت بالكأس اليه . كان لون الشراب كالحليب ، بعد ان امتزج بالماء ، وساوره الامل ، بان لا يتناول الغجري الا جرعة صغيرة ..لم يبق معه الا القليل ، وكان الكأس منه يعوض عليه قراءة الصحف ؛ وقضاء الامسيات فى المقاهي ، والتجول فى الشوارع والتطلع الى المكتبات والمخازن وزيارة الحدائق العامة ، وحضور الحفلات ، وشهود المراقص ، وجميع المتع التي عرفها فى الماضي البعيد والتي نسيها ، فلا يذكره بها الا هذا الشراب الحاذق ، المخدر للسان ، المدفىء للفؤاد ، المبدل للافكار .

وبدأ على الغجري انه لم يستذق الطعم ، فأعاد الكأس الى صاحبه وهو يقول ، « ان فيه رائحة اليانسون ، ومرارة العلقم . وخير للانسان ان يظل مريضا من ان يتناول هذا الدواء .

ـ انه الابسنث الحقيقي . والمفروض فيه ان يتلف عقل الانسان ولكنني لا اصدق ذلك ، فكل ما يفعله انه يغير الافكار . وعليك ان تصب الماء عليه ببطء . وان يكون ذلك على شكل نقط قليلة فى كل مرة . ولكنني صببته فى الماء .

وقال بابلو غاضبا .. ماذا تقول ؟

ـ اشرح حقيقة الدواء . لقد أبتعته من مدريد. كانت الزجاجة الاخيرة، وقد ظلت معي ثلاثة اسابيع ..وتناول جرعة أخرى احرقت لسانه ثم تطلع الى بابلو وقال .. وكيف احوالك ؟

ولم يرد بابلو ، فتطلع روبرت بعناية الى الرجال الثلاثة الآخرين . كان لاحدهم وجه كبير مفلطح ، شديد السمرة ، وفي وسطه انف مقصوم من وسطه ، وبدت السيكارة الروسية الطويلة فى فمه غير منسجمة مع هذا الوجه المبسوط . وكان شعره اشيب وقصيرا ، وله ذقن مدببة ، وهو يرتدي جاكيتة مغلقة من الامام حتى العنق . وعندما تطلع اليه روبرت خفض عينيه الى المائدة ، ولكن نظرته كانت مسددة ومستقيمة . وبدا على الآخرين انهما اخوان . فقد كانا متشابهين في قصر قامتيهما ، وبدانة جسميهما ، واسوداد شعرهما وعيونهماالسوداء . وكانتفي جبهة احدهما فوق عينه اليسرى ندبة واضحة . وبدا ان احدهما فى الثامنة والعشرين من عمره ، والاخر اكبر منه بسنتين .

وقال صاحب الندبة متسائلا .. ـ علام تتطلع ؟

ـ عليك .

ـاترى شيئا غريبا .

ـ كلا .. أو تريد لفافة ؛

ـ ولم لا . انها كلفائف الرجل الآخر ، الذي كان معنا فى القطار .

ـ وهل كنت فى حادث القطار ؟

ـ لقد كنا جميعا هناك ، باستثناء الرجل العجوز .

وقال بابلو ـ وهذا ما يجب ان نفعله الآن ـ قطار اخر .

فقال روبرت ـ سنفعل ذلك ، بعد الجسر .

وادرك ان زوجة ، بابلو ، قد تركت الآن ، عملها فى النار ، وبدأت تصغي. وعندما نطق بلفظة الجسر ، خيم الصمت على الجميع .

وعاد يتناول جرعة من كأسه بهدوء وقال بكل اصرار .. بعد الجسر .

وقال بابلو ، وهو يتطلع الى المائدة .. لن اذهب الى الجسر ، لا انا ولا رفاقي . ولم يرد روبرت ، تطلع الى انسيلمو ورفع كأسه .. ثم قال .. اذن فسنقوم بالعمل وحدنا ايها العجوز ..

ورد انسيلمو قائلا ... ولن نكون بحاجة الى هذا الجبان .

وقال بابلو : ماذا تقول ؟

ـ انا لا اخاطبك .

ونظر روبرت عبر المائدة ، الى زوجة بابلو ، وهي تقف بجانب النار . لم تكن قد فاهت بعد بكلمة واحدة ، كما لم تشر بأية اشارة . ولكنه رآها الآن تهمس فى اذن الفتاة ، فتنهض هذه من مكانها قرب النار ، وتسير بجانب الجدار ، فترفع الستارة وتخرج من الكهف . وخيل لروبرت ... ان الساعة الفاصلة قد دنت .. اجل لقد دنت ... ولم يكن ليريدها ان تكون على هذا الشكل ، ولكن ما دامت قد حلت فليكن ما يكون .

وقال روبرت لبابلو : اذن سنؤدي المهمة دون عونك .

ورد بابلو وقد تصبب العرق من جبينه : كلا ، لن تنسف اي جسر فى هذه الضاحية .

ـ حقا ؟

ـ اجل لن تنسف جسرا هنا .

وتطلع روبرت الى زوجة بابلو ، التي تقف بجسمها الضخم عند النار ، وقال ... وانت ! ماذا تقولين ؟ فالتفتت اليهم جميعا ، وقد احمر وجهها من لهب النار ، وبدا رائع الجمال .. فقالت : انا مع القائل بنسف الجسر .

وتطلع اليها زوجها ، وقد اشتد تساقط العرق من وجهه : ماذا تقولين ؟

ـ انا مع الجسر ، وضدك على طول الخط . هذا كل شيء ...

وقال الرجل ذو الوجه المسطح : وانا مع الجسر ايضا .

وقال احد الاخوين ـ اما انا فلا يعني الجسر لي شيئا ، ولكني مع زوجة بابلو .

وقال الاخ الثاني ـ وانا كذلك .

وقال الغجري ـ وانا ايضا .

وكان روبرت ، يرقب بابلو ، تاركا يده اليمنى تهبط شيئا فشيئا لتستعد للعمل اذا اقتضى الامر ، مخافة ان يضيع النصر الذي حققه ، ومدركا ان تقاليد الاسرة والعشيرة والعصابة ، تقضي بان ينقلب الجميع ضده ، وهو الغريب ، اذا ما وقعت معركة بينهما وعازما على انهائها بضربة فاصلة من مسدسه ... وتطلع الى الزوجة ، فرآها وقد شعرت بالاعتزاز من هذا الولاء الذي ابداه الجميع لزعامتها ، فاحمر وجهها خجلا . وقالت ...انا مع الجمهورية ، والجمهورية مع الجسر ، وعلى كل حال فلدينا وقت كاف للقيام بمشاريع اخرى .

وقال بابلو بمرارة ـ وهل تظنين بعقلك الصغير وبقلبك العاهر ، انه سيكون لدينا وقت بعد هذا الجسر ؟ وهل فكرت بما سيقع بعد نسف الجسر ؟

ـ فليأت اي شيء ، فكل ما هو آت آت .

ـ ولا يهمك ان يطاردونا بعد ذلك كالوحوش . بعد ان ننسف هذا الجسر ، الذي لا يجدينا نفعا ؟ ولا يهمك اننا قد نموت في الحادث .

ـ لن يحدث شيء ، ولا تحاول اخافتي ايها الجبان .

ـ جبان ! انك تصفين بالجبن من يفكر تفكيرا واقعيا ، لانه يرى النتائج المترتبة على عمل احمق كهذا سلفا . ليس من الجبن في شيء ان يميز الانسان الحماقة من غيرها .

وقال انسيلمو ـ وليس من الحماقة ان يميز الانسان الجبن من غيره .

وقال بابلو ، بكل جد واصرار ... اتريد الموت ؟

ـ لا .

ـ اذن اغلق فمك . فانت تكثر من التحدث عن اشياء لا تفهمها . اولا ترى ان الموضوع جدي للغاية ؟ انني الوحيد بينكم الذي يدرك خطورة الوضع .

وجالت فكرة في راس روبرت جوردان ... ان الرجل على حق ، ان بابلو على حق ، وانا اعرف هذا واصدقه ، ولكنني لا ادركه . وقد قراته المراة في يدي وهي تقرا كفي ولكنها لم تدركه بعد .

وقال بابلو ـ وهل صرت قائدا لكم دون سبب . انا اعرف ما اقول . اما انتم فلا تعرفون . فهذا العجوز يهرف . وهو لا يعدو ان يكون رجلا عجوزا يقوم بدور الرسول والدليل للاغراب . وقد جاء هذا الغريب الى هنا لينفذ عملا في مصلحة الغرباء . وعلينا ان نضحي بانفسنا من اجل فائدته . انني لا اروم للجميع الا الخير والسلامة .

وردت عليه زوجته تقول ـ سلامة ! ليست هناك اية سلامة . فهناك كثيرون يبحثون عن السلامة ، فيجدون الخطر ، وقد نفقد كل شيء في بحثنا عن السلامة .

ووقفت الان الى جانب المائدة ، وقد حملت الملعقة الكبيرة في يدها .

وقال بابلو ـ اجل هناك سلامة ، ففي الخطر ، تقوم السلامة في معرفة الغرض في العمل الذي يقدم عليه الانسان . وهناك مثل مصارع الثيران ، الذي يعرف ما يفعل ، فلا يركن الى الحظ ، ويعثر على السلامة .

وردت عليه زوجته تقول .. اجل مصارع الثيران ، الذي لا يعثر على السلامة ، الا بعد أن تبعثر الثيران بطنه ، وكم مرة سمعت ابطالا من المصارعين يتحدثون بنفس اسلوبك قبل أن تبقر بطونهم . وكم مرة سمعت فينيتو يقول : ان الثور لا يبقر بطن الانسان ولكن الانسان هو الذي يبقر بطنه على قرن الثور ، هذه هي طريقة حديثهم الذي ينفح بالغرور ، قبل

ان يلقوا حتفهم ومصيرهم ، ثم سرعان ما نهب الى عيادتهم في المستشفى .. ونقول .. هالو ايها العزيز .. هالو .. ماذا حل بك ، وكيف وقع الحادث ، كيف وقع هذا الحادث الفظيع يا فينيتو الحبيب . فيرد هو قائلا .. انها مسألة بسيطة ، مسألة في غاية البساطة ، كان من الواجب ان لا تقع ، لقد قتلته تماما كما تعرفين، ولم يكن في وسع انسان آخر ان يقتله خيرا مني ، وبعد ان قتلته تماما ، ومات ، واخذ يترنح على رجليه ، على استعداد للسقوط ، بعدت عنه ، وقد سيطر علي الغرور ، وأذا به يغرز قرونه في ظهري ، فتمتد الى كبدي .. وبدات المراة تضحك .. وعادت لتقول .. والآن تاتي انت لتحدثنا عن سلامتك ، أو لم اعش تسع سنوات مع اسوأ مصارعي الثيران في العالم ، فاتعلم منهم شيئا عن الخوف وعن السلامة ؟ حدثني عن اي شيء ، الا عن السلامة ، وانت ، كم علقت عليك من آمال ، اراها تنهار الآن . لقد تحولت في سنة واحدة من الحرب الى انسان كسول وسكير وجبان .

وقال بابلو ــ لا يجوز لك ان تتحدثي على هذا الشكل ، ولا سيما امام الناس وامام هذا الغريب .

ــ لا سأتحدث كما اشاء ، هل سمعت ؟ أوتعتقد انك ما زلت القائدهنا؟

ــ اجل ، انني القائد هنا .

ــ لا حتى ولا في المنام ، فانا القائدة هنا . او لم تسمع بنفسك ما قاله السادة ، أنا القائدة الوحيدة هنا ، وفي وسعك ان تظل اذا رغبت ، وان تاكل الطعام وتشرب الخمر ، على ان لا تتجاوز الحد ، وان تشترك في العمل ان اردت . لكنني انا القائدة هنا .

وقال بابلو ، بلهجة تنم عن منتهى الجد ــ يجب ان اقتلك انت وهذا الغريب .

ــ ولماذا لا تحاول ،لترى ، ما يحدث لك .

وقال روبرت ، وهو لا يرفع بصره عن هذا الرجل ، المقطب الوجه ، وعن المراة التي تقف امامه في منتهى الكبرياء والثقة والتحدي ، وقد

حملت ملعقتها الكبيرة في يدها ، وكأنها صولجان السلطان .. ارجو ان آخذ كاسا من الماء ..

وهتفت زوجة بابلو ـ ماريا ..! وعندما دخلت الفتاة ، قالت .. هات قدحا من الماء للرفيق .

وتناول روبرت زجاجة الابسنت من جيبه ، وحل اثناء ذلك ، رباط مسدسه فوضعه على فخذه ، ثم وضع قطرات من الشراب في الكأس الذي جاءت به الفتاة . ووقفت الفتاة الى جانبه ترقبه .

وهتفت زوجة بابلو تقول .. وهي تشير بالملعقة .. اخرجي الى خارج الكهف .

فقالت الفتاة وقد اقتربت بوجنتيها من وجنة روبرت ، وهي تراقب ما يدور في الكأس ، الذي يتحول لونه الى البياض ... ولكن الطقس بارد في الخارج .

ـ قد يكون باردا هناك ، ولكنه شديد الحرارة هنا .. على كل حال لن يطول بك المكوث خارجا .

وهزت الفتاة راسها ، ومضت الى الخارج .

وخيل لروبرت ان الوضع لن يستمر على هذا الهدوء طويلا ، فامسك بالكاس في يده ، بينما وضع يده الاخرى على المسدس ، فرفع زناد الامان ، واحس بشعور الطمأنينة والزمالة يعاوده وهو يضع يده على مسدسه الحبيب ، ولم يكن بابلو يتطلع اليه الان ، وانما يتطلع الى زوجته التي مضت تقول .. اسمع ايها السكير ، اتفهم من القائد هنا ؟

ـ انا القائد .

ـ لا ، اصغ الي ، وافتح اذنيك جيدا .. انني القائدة .

وتطلع اليها بابلو ، ولم يكن في وسع انسان ان يقدر ما كان يفكر فيه من تطلعه الى ملامحه . ونظر اليها باصرار وعناد ، ثم انتقل ببصره ، عبر

المائدة الى روبرت جوردان . واشتدت نظرته في اتجاهه وهو يفكر ثم عاد ببصره الى المراة ثانية . وقال ـ حسنا ، انت الآمرة ، وفي وسعه ان يأمر هو ايضا . وفي وسعكما ان تذهبا معا الى الجحيم .. كان يتفرس في وجه زوجته دون أن تطرف له عين ، ودون ان يبدي رهبة لها ، او خوفا منها. ثم قال : وقد أكون كسولا ، وقد اكثر من الشراب . وقد تعتبرينني جبانا ، ولكنني لست بالجبان فانت مخطئة . ولست ايضا بالبليد . حسنا ليكن لك الامر ، اذا كنت ترغبين في القيادة . والآن ، اذا كنت قائدة ، وامراة ، فيجب أن تعدي لنا شيئا ناكله .

وهتفت الزوجة تقول ... ماريا .

واطلت الفتاة براسها من الباب ، فقالت لها .. ادخلي لنا ، وقدمي العشاء

ودلفت الفتاة ، واخذت تعد القدور والصحاف ، وتاتي بها الى المائدة.. وقالت امراة بابلو لروبرت .. هناك خمر يكفي للجميع ، ولا تكترث ، بما يقوله ذلك السكير . وعندما ينتهي ما عندنا من خمر ، سنأتي بخمر جديد والآن افرغ كاسك من هذا الشراب الغريب وخذ قدحا من النبيذ .

واحتسى روبرت ما تبقى من الابسنت ، واحس بالدفء في اوصاله .. ثم قدم كاسه ، ليملأوه له بالخمر . وملاته له الفتاة ، وهي تبتسم .

وقال الغجري .. وهل رايت الجسر ؟

وكان الاخرون الذين لم ينطقوا بحرف واحد ، اثناء معركة الولاء يصغون الان بجميع حواسهم ، لكل ما يدور .

ـ اجل ، والمهمة سهلة للغاية ، فهل تريدون مني ان اطلعكم على الموضوع؟

ـ اجل ايها الرجل . فكلنا شوق لذلك .

واخرج روبرت دفتره الصغير من جيبه وعرض عليهم الرسم الذي صوره ، والمخططات الاخرى .

وقال بريميتيفو ، الرجل ذو الوجه المسطح ــ يا له من رسم دقيق ،انه تماما كالجسر .

وشرح روبرت بطرف قلمه ، كيف يمكن ان يتم نسف الجسر ، واسباب وضع الالغام هنا او هناك .

وقال احد الاخوين ، واسمه اندريه ــ يا لها من خطة بسيطة ، ولكن كيف تفجر الالغام ؟

واخذ يشرح لهم ، ايضا طريقة التفجير ، وفى غضون حديثه ، احس بذراع الفتاة وقد اتكا على كتفه . وكانت زوجة بابلو ترقبه ايضا . لكن بابلو كان الوحيد ، الذي لم يكترث بكل ما يدور ، فقد جلس وكاسه فى يده ، يترعه بين حين وآخر ، بالخمر من الزق القريب منه .

وقالت الفتاة تساله ــ وهل قمت بعمليات مماثلة كثيرة من هذا النوع؟

ــ اجل .

ــ وهل فى وسعنا ان نرى طريقة عملك ؟

ــ اجل ، ولم لا .

وقال بابلو ، من مكانه البعيد فى طرف المائدة .. سترينها ، اعتقد انك سترينها .

وردت زوجته تقول .. اغلق فمك ثم تذكرت ما راته فى كف الشاب بعد ظهر ذلك اليوم ، فثار غضبها الى حد الجنون واخذت تصرخ .. اغلق فمك ايها الجبان ، اغلق فمك يا غراب الشؤم . اغلق فمك يا قاتل .

فرد بابلو ــ حسنا ساغلق فمي . فانت الآمرة هنا ، وفى وسعك ان تواصلي رؤية الصور الجميلة ، ولكن تذكري انني لست بالبليد .

واحست زوجة بابلو ، بغضبهايتحول الى الم ، والىشعور بالياس من كل

امل ورجاء . أنها تعرف هذا الشعور منذ حداثتها ، وكانت تعرف اسبابه بالنسبة الى حياتها . وقد رأته يغمزها نجاة ، ولكنها طردته عنها الان ، فهي لا تريد ان يمسها في هذه اللحظة . . ولا تريد ان يمس الجمهورية . . ثم قالت . . هلمي يا ماريا وقدمي العشاء . .

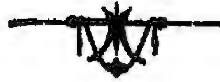

٥

رفع روبرت جوردان ، الستارة المعلقة فى مدخل الكهف ، وخرج الى العراء ، يعب الهواء فى رئتيه ، مستنشقا نسيم الليل البارد العليل ، وكان الضباب قد اختفى وبانت النجوم فى كبد السماء ، وهدات الريح العاصفة، فاحس بالراحة تغمر نفسه ، بعد أن خرج من جو الكهف الحار ، الذي اثقله الدخان ، دخان اللفائف ودخان النار المشتعلة ، وانتشرت فيه رائحة الارز المطبوخ واللحم والزعفران والتوابل والبهارات والسمن ، وفاح فيه اريج الخمر ، الذي تضمه القربة الجلدية المدلاة فى سقف الكهف ، والتي تنصب منها قطرات على الارض ، تختلط بالتراب ، فتنبعث منها رائحة خاصة ، تختلط بتلك ، المنتشرة من مختلف انواع الحشائش والاعشاب المدلاة فى سماء الكهف الذي تتناقله الجبال ، حاملا معه رائحة الصنوبر ، ورذاذ الطل على الاعشاب المنتشرة فى المروج ،وكان الندي قد تكاثف منذ توقف الرياح العاصفة ، ولكنه وهو فى موقفه هناك ، خيل اليه ، أن الجليد سيتكاثف فى الصباح .

وسمع وهو فى وقفته الهادئة هذه ، صوت عيار ناري ينطلق من كان بعيد ، ثم سمع بوما ينعب على الشجرة القريبة من المكان الذي تقف فيه

الجياد ، واخذ يصغي الى صوت الفجري ، ينبعث من داخل الكهف وهو ينشد ، عازفا على قيثارته ..

ترك لي والدي ارثا كبيراً ..

انه القمر والشمس .

وعلى الرغم من انني ساطوف انحاء العالم .

فانني لن انفق هذا التراث .

وسمع روبرت جوردان ، الاكف تنهال بالتصفيق ، وآهات الاستحسان، ثم سمع صوتا يقول .. اسمعنا اغنية الكاتالونية ايها الفجري ...

ـ لا . لا اريد .

ـ بلى . نريد الكاتالونية .

ـ حسنا .. وشرع الفجري ينشد بنغم حزين ..

انفي مسطح ..

ووجهي اسود ..

ولكني رجل .

وهتف احدهم .. آه .. استمر ايها الفجري ..

وارتفع صوت الفجري يقول ..

وشكرا لله ، انني زنجي .

ولست بالكاتالوني .

وسمع صوت بابلو يقول .. ـ الضجة شديدة . اغلق فمك ايها الفجري

ـ اجل .. الضجة شديدة .

وقال الفجري .. ولكنني اعرف شعرا آخر .. وارتفع صوت القيثار من جديد ..

فقالت المراة .. دعه الى وقت آخر .

وتوقف القيثار ، وقال الفجري .. يبدو لي ان صوتي رديء الليلة ،ولذا فلا ضير في سكوتي .. ثم دلف الى الخارج .

ورآه روبرت . يتجه الى احدى الاشجار ، ثم عاد اليه .. قائلا بصوت ناعم .. روبرتو ..!

ـ نعم يا رافائيل .. لقد ادرك روبرت ، ان الفجري ، قد تاثر من الخمر من اهتزاز صوته . وكان هو نفسه قد جرع كاسين من الابسنت ، وعددا من كؤوس النبيذ ، ولكن عقله ظل صافيا .. بعد أن هدأ من العاصفة التي اثارها بابلو .

ـ لم لم تقتل بابلو ؟

ـ ولماذا اقتله ؟

ـ عليك أن تقتله ان عاجلا وان آجلا ، فلم لم تنتهز الفرصة ؟

ـ هل تتحدث جدا ؟

ـ وماذا ظننت ان الجميع كانوا ينتظرون منك ؟ ولماذا ابعدت المراة الفتاة الى الخارج ؟ او تعتقد ان في الوسع الاستمرار في العمل ، بعد الذي حصل ؟

ـ هل كنتم تريدون جميعا أن اقتله ؟

فقال الفجري بهدوء ـ اجل ، على كل هذا شانك . لقد انتظرنا ثلاث مرات أو اربعا ان تقتله ، فليس لبابلو من صديق .

ـ كانت لدي فكرة بقتله ، ولكنني عدلت عنها .

ـ هذا ما رايناه جميعا . لقد رأينا جميعا استعداداتك ، فلماذاتقاعست؟

ـ ظننت ان هذا يسوؤكم ، أو يسوء المراة .

ـ ها . ها . وكانت المراة تنتظر ، كما تنتظر العاهر طيران طائركبير .

لا ريب في انك اصغر سنا من ظاهرك .

ـ هذا ممكن .

ـ اقتله الان .

ـ هذا اغتيال .

ـ ومع ذلك ، فهو خير ، واقل خطرا . هيا اقتله الان .

ـ لا استطيع على هذه الصورة . ونفسي تنفر منها ، كما ان هذهالطريقة لا تخدم القضية .

ـ لم لا تستفزه ؟ ولكن عليك ان تقتله ، فلا مناص من ذلك .

وطار البوم وهما يتحدثان ، بين الاشجار ، فسقط عندما مر بهما ، ثم ارتفع يصفق بجناحيه .. وقال الفجري .. انظر اليه ، هكذا يجب ان يتحرك الرجل .

ـ نادرا ، ولكن عليك ان تقتله ، ولا تعقد الامور .

ـ لقد مرت اللحظة المواتية .

ـ أثرها من جديد . او اغتنم فرصة الهدوء .

وارتفعت الستارة من جديد ، ودلف رجل الى الخارج ، وانضم اليهما وهو يقول .. انها ليلة رائعة ، لا ريب في ان الطقس سيكون جميلا ..

كان الرجل بابلو ... وكان يدخن احدى لفائف التبغ ، فبان وجهه المدور في الضوء ، الذي بمثته اللفافة عند سحب الدخان منها . وكان في وسعهما أن يريا جسمه الضخم بذراعيه الطويلتين .

وقال موجها حديثه لروبرت ـ لاتكترث بما تقوله المراة .. ورأيا على ضوء السيكارة يده وهي تنخفض .. واستطرد يقول .. انها صعبة احيانا ولكنها سيدة طيبة ، ومخلصة جدا للجمهورية .. وبدات اللفافة تهتز في فمه ، مما يشير الي انه كان يتحدث وهي في فمه .. ثم قال .. لن تكون

ثمة مصاعب . فنحن متفقون ، وانا مسرور بمجيئك . ولا تكترث بالنقاش .. فقد حللت اهلا وسهلا .. وارجو ان تسمحوا لي الآن ، لارى ما حل بالجيـاد .

ومر بهما مجتازا المرج ، وسمعا صوت حصان يصهل .. وقال الفجري .. ارايت ؟ لا شك انك رايت .. أو لم تمر اللحظة المناسبة ؟

ولم يرد عليه روبرت .. وقال الفجري ... ساهبط اليه هناك .

ـ لمـاذا ؟

ـ لماذا ؟ لاحول دون ذهابه على الاقل .

ـ وهل يستطيع ان يمضي باحد الجياد من هناك ؟

ـ لا .

ـ اذن ، امض الى الجهة التي تستطيع ان تمنعه من الذهاب منها .

ـ ان اوغسطين هناك .

ـ اذن امض ، وقل لاوغسطين .. أجل ابلغه ما حدث .

ـ سيقتله اوغسطين بكل سرور .

ـ هذا اقل سوءا ، اذن أصعد ، وقل له ما حدث .

ـ ثم ماذا ؟

ـ سامضي انا الى المرج لارى .

ـ حسنا ايها الرجل .. شيء رائع .. ولم يكن في وسع روبرت ان يرى وجه رافائيل في الظلام ولكنه ادرك انه يبتسم .. ومضى الفجري يقول .. في لهجة تنطق بالموافقة والتاييد .. يبدو انك قد حزمت امرك اخيراً .

ـ امض الى اوغسطين .

ـ حسنا يا روبرتو ، سامضي .

ومضى روبرتو بين اشجار الصنوبر منتقلا من شجرة الى اخرى ، حتى وصل الى طرف المرج ، وتطلع ، نحو المرج ، يحاول استجلاء كنه الظلمة المدلهمة ، فراى مربط الجياد ، وعدها فوجدها خمسة . وجلس روبرت عند جذع شجرة ، واخذ يجول بنظره في انحاء المرج .

وطاف فكره بمختلف الاتجاهات .. فقال يحدث نفسه .. لا شك انني تعب ، وربما كان تفكيري على ضلال . ولكن واجبي ان اقوم بالمهمة في الجسر ، وعلي أن لا اقامر بأية فرصة قبل أن اتم هذه المهمة . وبالطبع . قد يكون من المغامرة ،ان لا يهتبل الانسان الفرص التي تتهيأ له ولكنني حاولت حتى الان ،انأترك الاوضاع تتبلورمن نفسها .واذا صح ما يقوله الغجري،انهم كانوا ينتظرونمني ان اقتلبابلو،فقد كان من واجبيان اقتله. ولكنني لم اعرف ذلك .وهناك ناحية اخرى سيئة ،وهي ان يقوم الغريب بالقتل ،في المكان الذي سيعمل فيه فيما بعد مع اهل البلاد . وقديتم القتل في حالة عمل ، وقد يتم اذا كان مدعومابنظام كاف.ولكنفي هذه الحالة ، اعتقد ان الاقدام على ذلك العمل كان في منتهى السوء ، ولو ان الاغراء كان قائما ، وكانت طريقة القتل سهلة ومختصرة . ولكني لا اومن بسهولة اي شيء أو اختصاره في هذه البلاد ، وعلىالرغم من انني اثق بالمراة كل الثقة ، الا انه لا يسعني ان اقدر تماما موقفها في حالة عمل عنيف كهذا . فالموتفي مكان كهذا يكون بشعا وقذرا ، وداعيا للتقزز . وليس في وسعك ان تقرر ماذا سيكون عليه موقفها .فبدون المراة لا مكان للنظام أو التنظيم في هذا المكان . اما بوجودها ، فقد تسير الامور سيرا طيبا . وقد يكون من الخير ان تقتله هي ، أو يقتله الفجري ـ ولكنه لا يقتله . أو الحارس اوغسطين وبالطبع فان انسيلمو سيقتله اذا طلبت اليه ذلك ، على الرغم من انه ضد كل عملية قتل ، وهو يكرهه ـ كما اعتقد ، ويثق بي كل الثقة ، ويعتقد انني امثل كل ما يعتقد به . ويبدو لي انه هو رالمراة وحدهما اللذان يؤمنان بالجمهورية .. لكن من المبتسر الحكم منذ الان .

وعندما تعودت عيناه على ضوء النجوم ، راى بابلو ، يقف بجانب احد الجياد . وكان الجواد قد رفع راسه عن المشب ، ثم عاد يرعى . اما بابلو،

فهو واقف الى جانبه يربت على عنقه . واحس الجواد بالضجر من هذه الرقة ، وهو يتناول طعامه . ولم يكن في وسع روبرت ان يرى ما يفعله بابلو أو ان يسمع ما يقوله لجواده .. واخذ يرقبه بهدوء ..

وكان بابلو يقول لجواده الكبير الضخم .. « انت يا مهري العزيز الغالي . انت يا ذا الوجه الصبوح الجميل ، وذا العنق الكبير ».. وبدأ الجواد يتضجر من الرجل وحديثه .. بينما مضى بابلو يقول : وانت لست بالمرأة أو الاحمق .. آه يا مهري العزيز .. انك لست امرأة كالصخرة المحترقة ، ولا فتاة صغيرة كالطفلة اجتث شعرها ، فأخذت تتحرك كالمهرة الصغيرة التي انطلقت من امها . وانت لا تهين ولا تكذب ولا تتقاعس عن الفهم .. آ ، يا لك من مهر عزيز غال .

وكان من الممتع لروبرت لو استمع الى بابلو وهو يحدث جواده على هذا الشكل ، ولكنه لم يسمعه . واقتنع روبرت الان ، ان بابلو ؛ يقوم بمجرد زيارة لخيوله لتعدادها ، وان الفرصة غير مواتية لقتله في هذا الوقت ، فنهض من مقعده ومضى الى الكهف .

أما الجواد ، فكان قد مل من حديث الرجل الذي يلهيه عن طعامه . بعد جوع النهار الطويل ، وان كان هذا الحديث لا يخرج عن حدود التحبب والتودد ، فمضى غير آبه بما يقوله صاحبه ، يرعى الكلأ .. أما بابلو .. فقد توقف عن الحديث .

٦

جلس روبرت ، على أريكة داخل الكهف ، على مقربة من النار ، يصغي الى ما تقوله زوجة بابلو . وكانت هذه تفسل الاطباق ، بينما تقوم ماريا بتجفيفها وتنشيفها ، واعادتها الى مكانها في الحفرة المثقوبة في الجدار .

وقالت المراة ـ من الغريب ان ايل سوردو لم يات . كان من الواجب ان ياتي قبل ساعة .

ـ وهل بعثت في طلبه ؟

كلا ، ولكنه ياتي كل ليلة .

ـ ربما كان يؤدي بعض الاعمال

ـ هذا ممكن . واذا لم يات ، فعلينا أن نذهب للقياه غداً .

ـ حتما . وهل هو بعيدعنا ؟

ـ لا ، ستكون رحلة ممتعة ، وانا في حاجة الى المشيء .

وقالت ماريا ـ وهل استطيع أن اذهب انا ايضا يا بيلار ؟

ـ اجل ايتها الجميلة .. او ليست جميلة يا روبرتو .. كيف تراها ؟

تحياة بعض الشيء ؟

ـ لا انها علـى ما يرام ..

وملأت ماريا قدحه بالخمر وهي تقول .. اشرب هذا ، فقد ينفعك ، فمن الضروري ان تكثر من الشراب حتى تراني جميلة .

ـ اذن يجب ان اتوقف عن الشراب . فانت تبدين لي جميلة واكثـر مـــن جميلة ..

ـ هذه هي الطريقة في الحديث . انك تتحدث كالطبيبين . وماذا يبدو لـك فيها ايضـا ؟

ـ ذكيــــة ...

وهزت المراة راسها وقالت بلهجة تنطق بالاسى .. لقد بدات بداية طيبة، ولكنك انتهيت نهاية سيئة .. كلا يا دون روبرتو .

ـ لا تسميني دون روبرتو .

ـ انني امزح ، فنحن هنا نسمي بابلو بالدون ، ونقول السنيوريتا ماريا..

ـ انا لا امزح على هذا الشكل ، فالرفاق ، رفاق ، ويجب ان نلقبهم بذلك بكل جد ، ابان هذه الحرب ، فالمزاح يؤدي الى التعفن .

ـ لا ريب في انك متعصب لعقائدك . او لا تمزح قط ؟

ـ اجل انني احب المزاح ، ولكن لا في طريقة الخطاب . فالطريقة مثل الرايــة التـــي نرفعها .

وضحكت المراة وهي تقول .. ولكنني استطيع ان اهزا بكـل راية . فالمزاح يجب ان يشمل كل شيء . وكنا نلقب الراية القديمة المؤلفة من الاصفر والذهبي بالصديد والدم ، اما راية الجمهورية التي اضيـف اليها اللون الارجواني فنسميها بالصديد والدم المطهر . انها نكتة .

وقالت ماريا .. انه شيوعي . وهم اناس جادون لا هازلون .

وقالت المراة ــ وهل انت شيوعي

ــ لا ، ولكنني مناوىء للفاشية .

ــ امنــذ امــد طويل ؟

ــ منــذ بدات افهم الفاشية .

ــ متى كــان ذلك ؟

ــ منذ عشر سنوات .

ــ هذا ليس بالامد الطويل ، لقد كنت جمهورية منذ عشرين عاما .

وقالت ماريا ــ كان والدي جمهوريا طيلة حياته ، وكذلك جدي .

ــ في اي بــلاد ؟

ــ في الولايات المتحدة

ــ وهــل قتلوه ؟

فقالت ماريا ــ يا الله ! ان الولايا تالمتحدة بلاد جمهوريــة . وهم لا يقتلون الرجل لارائه الجمهورية هناك .

وقالت المراة .. على كل حال ، من الخير ان يكون للمرء جــد مــن الجمهوريين ، فهذا دليل على عراقة الاصل .

وقال روبرت ... كان جدي عضوا في اللجنة القومية الجمهورية .

وقالت بيلار متسائلة .. وهل لا يزال والدك نشيطا في الجمهورية ؟

ــ كــلا ، لقد مات .

ــ هل لي وسعي ان اسال كيف مات ؟

ــلقــد انتحــر .

ــانتحر ، ليتجنب العذاب ؟

ــ أجل ، ليتجنب العــذاب .

وتطلعت اليه ماريا ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت .. لم يستطع والدي العثور على سلاح ينتحر به ، ويسرني ان والدك ، كان احسن حظا في العثور على السلاح .

ـ حقا ـ .. لقد كان احسن حظا ، لم لا نتحدث عن شيء آخر .

وقالت ماريا .. اذن نحن متشابهان .. ووضعت يدها على ذراعه ، واخذت تتطلع الى وجهه ، فرفع بصره الى وجهها الاسمر ، والى عينيها ، اللتين رأى انهما لم تعودا ، فتيتين كسائر اجزاء وجهها ، بل رأى فيها فجأة ، جوعا وفتوة ، ونداء .

وقالت المرأة .. في وسع من يراكما أن يقدر انكما اخوين ، ولكن من الخير انكما لستما اخوين .

وقالت ماريا .. عرفت الان سبب ذلك الشعور الذي احسست به ، لقد اتضح لي الان .

وقال روبرت ، وهو يضع يده على راسها .. آه .. لقد اراد ان يفعل ذلك طيلة النهار ، اما وقد تجرأ اخيرا ، فقد شعر باللهيب يحرق حلقه ، وحركت رأسها بنعومة تحت يده ، وابتسمت ، واحس بخشونة الشعر النامي ، تحز في اصابعه ، فرفع يده ووضعها على عنقها ، ثم هبط بها الى جانبه ..

وقالت ماريا .. اعد ، اعد .. كنت اريد منك ذلك طيلة النهار .

ـ فيما بعد .. ان الغصة ما زالت في حلقه .

وقالت زوجة بابلو .. وانا .. هل ينتظر مني ان ارى كل هذا ، وان لا اتحرك او اتاثر ؛ لا استطيع ، ويجب ان يعود بابلو .. مهما كان الثمن .

ولم تعد ماريا تكترث بها .. او بالآخرين الذين يلعبون بالورق على المائدة وقالت تسأل روبرت .. اتريد كأسا آخر .

ـ اجل ، ولم لا .

وقالت زوجة بابلو ـ سيكون لك رجل سكير كرجلي .. لقد شرب ذلك الشراب الغريب .. اسمع ايها الانكليزي .

ـ لست بالانكليزي ، انا امريكي .

ـ اذن اسمع ايها الامريكي .. اين تريد ان تنام ؟

ـ سأنام في الخارج .. عندي سرير من الحبال .

ـ حسنا .. فالليل ، رائق ، والجو صاف .

ـ وفيه بعض البرودة .

ـ اذن نم في الخارج ، وفي وسع حاجاتك أن تنام معي .

ـ حسنـــا .

ـ وقال روبرت للفتاة وهو يضع يده على كتفها .. اتركينا لحظة .

ـ لمــاذا ؟

ـ اريد أن اتحدث الى بيلار .

ـ هل من الضروري ان اذهب ؟

ـ اجـل .

ومضت الفتاة الى الطرف الآخر من الكهف ترقب اللاعبين ، وقالت بيلار .. ماذا دهــاك ؟

ـ لقد قال الغجري .. ان الواجب كان يدعوني ! ..

ـ لا ، انــه مخطىء .

وقال روبرت بهدوء مشفوع ببعض الصعوبة .. اذا كان من الضروري أن ..

ـ اعتقد انك ستقوم بذلك ، ولكن لا ، ليس ضروريا ، لقد كنــت ارقبك ، ولكن حكمك كان صحيحا .

ـ ولكن اذا اقتضى الامر . .

ـ لا اقول لك ، لا حاجة ، فدماغ الفجري عفن وتالف .

ـ ولكن الرجل فى ضعفه ، قد يصبح مصدرا للخطر .

ـ لا ، انك لا تفهم ، اما وقد اجتزنا ، مرحلة الخطر ، فقد نجونا مـــن كـــل خطـــر .

ـ انا لا افهـــم .

ـ انك ما زلت شابا ، ستفهم فيما بعد . . تعالي يا ماريا ، فقد انتهينا .

وعادت الفتاة ومد روبرت يده ، واخذ يربت على راسها ، وشرعت تهتز تحت يده ، كالفرخة الصغيرة . . واحس بانها تكاد تبكي . . ولكنها تمالكت نفسها وعـــادت تبتسم .

وقال بيلار لروبرت . . من الخير ان تذهب الى فراشك الان ، لقـــد كانت رحلتك شاقة طويلة .

ـ حسنا ، سأعد حاجاتي .

٧

كان لا يزال ينام في فراشه المصنوع من الحبال ، وقد خيل اليه ، انه قضى امدا طويلا ، يغط في نومه ، وعندما تقلب في نومه من ناحية الى ناحية ، احس بمسدسه المحشو ، الذي ثبته في يده ليكون على مقربة منه، وعندما افاق ، كان لا يدري اين هو ، ولكنه سرعان ما تذكر ، فأعاد مسدسه الى موضعه وكان قد تحرك من موضعه ، وعاد يضم الوسادة الى صدره ، واحس بيدها على كتفه وسرعان ما تناول مسدسه ، ملتفتا اليها ، بومضة خاطفة وقد تناول المسدس في يمناه ، وما عتم ان قال .. آ ه .. هو انت .

ومد لها يديه ، فاخذها في احضانه ، وطوقها بذراعه ، فشعر بانهـا ترتجف ، وقال .. ادخلي في الفراش ، فالطقس بارد للغاية .

ـ لا ، يجب ان لا ادخل .

ـ ادخلي ، وسنتحدث عن الموضوع فيما بعد .

كانت ترتعد ، وامسك بيدها باحدى يديه ، بينما طوقها بذراعه الاخر .. وكانت قد ادارت وجهها عنه .

فقال وهو يقبلها في عنقها .. ادخلي ايتها الارنبة .

ـ انـــا خائفة .

ـ لا تخافي ادخلي .

ـ وكيـــف ؟

ـ كل ما عليك أن تنسلي فى الفراش ، فهناك مكان فسيح ، اتريدين ان اساعـدك ؟

ـ لا . . ودلفت الى فراشه واحست به يضمها الى صدره ، ويحاول ان يعثر على شفتيها بشفتيه ، ولكنها كانت تخفي وجهها عنه بالوسادة ضاغطة عليها ، بينما احاطت عنقه بذراعيها ، وسرعان ما تراخت يداها ، وبدات ترتجف ثانيــة بين يديــه .

وقال لها ـ لا . . لا تخافي ، هذا هو المسدس .

وتناوله ووضعه خلفه فقالت . . انني خجلى .

ـ عليك أن لا تخجلي هنا ، وفي هذه الساعة .

ـ علي ان لا اخجل !! انني خجلة وخائفة .

ـ لا يا ارنبتي ، ارجوك !

ـ علي ان لا اخجل ولا اخاف اذا كنت حقا تحبني .

ـ انـــي احبك .

انني احبك ! آه ، احبك . ضع يدك على راسي .

ووضع يده على راسها ، واخذ يربت عليه بحنان ، وفجاة قذفت بنفسها بين احضانه ، واخذت تشد بنفسها عليه ، وتهصر جسدها بين يديه ، واقترب وجهها من وجهه ، لقد كانت تبكي .

وامسك بها يعصرها بين ذراعيه ، وهو يحس بهذا الجسد الفتي يكاد يلتصق بجسده ، وربت على راسها من جديد ، واخذ يفرق عينيـــها بقبلاته ، بينما يحس بصدرها الناهد ، المتفجر يكاد تقفز رمانتاه ، من القميص الذي تلبسه .

وقالت الفتاة .. لا استطيع ان اقبلك ، فانا لا اعرف كيف اقبل .

ـ لا حاجة بك الى تقبيلي .

ـ لا ، يجب ان اقبلك ، يجب ان افعل كل شيء .

ـ لا حاجة بك الى ان تفعلي شيئا ، فنحن على ما يرام ، ولكن خففي من ملابسك .

ـ وماذا يجب علي ان افعله ؟

ـ سأساعدك .

ـ وهل هذا افضل ؟

ـ اجل ، افضل بكثير . الا تشعرين بالفرق ؟

ـ اجل .. احس انني في وضع احسن . وهل في وسعي ان اذهب معك كما قالت بيلار ؟

ـ اجل .

ـ شريطة ان اذهب معك ، لا الى ملجأ .

ـ لا الى ملجأ ؟

ـ لا . لا . لا . معك ، لأكون امراتك .

وابعدا كل ما يفصل بينهما . فقد اختفت خشونة النسيج ، لتحل محله، نعومة ، وطراوة ، نعومة الجسدين الفائرين ، وقد التصقا ، في كل جزء من اجزائهما ، وسيطرت عليهما برودة دافئة ، برودة في الخارج ، ودفء في الداخل ، وعناق طويل تتخلله فترات من الضغط واخرى من الانسياب ، والسعادة تغمرهما ، بكل ما فيها من شباب عارم ، وحب دافق ، وحرارة ساحرة ، وتنهدات وآهات ، واحس روبرت ، انه لا يستطيع الصمود اكثر مما صمد فقال .. هل احببت آخرين ؟

ابدا .. ولكن مثل هذه الأمور ، مرت بي من قبل ، اذ فعلها الاخرون ،

ــ مـــن فعلهـا ؟

ــ عـدد كبير مختلف .

وكانت قد استلقت مسترخية الآن ، وكان جسدها ، قد مات ، وادارت وجهها عنه الى الناحية الاخرى ثم قالت .. والان ، فانت لن تحبني ؟

ــ انا احبك .

ولكن شيئا قد طرا عليه ، وقد احست بهذا الشيء وادركته ، وقالت ، وقد ضعف صوتها .. لا ، انك لن تحبني ، ولكنك قد تأخذني الى الملجأ . وساذهب اليه . ولن اكون امراتك ، او شيئا من هذا القبيل .

ــ ولكنني احبك يا ماريا .

ــ لا ، انك تكذب .. ولكنني لم اقبل رجلا قط في حياتي .

ــ اذن قبليني الآن .

ــ لقد اردت ان اقبلك . ولكنني لا اعرف . وعندما كانوا يمثلون ذلك الدوز معي ، كنت اقاوم ، حتى لا ارى . اجل كنت اقاوم حتى جلس احدهم على راسي فعضضته ، ثم كمموا فمي ، وربطوا يدي خلف راسي . وبداوا يتناوبون على العمل معي .

ــ انني احبك يا ماريا . ولم يعمل احد معك شيئا . فهم لا يستطيعون لمسك . لم يمسك احد ، ايتها الارنبة الصغيرة .

ــ او تصدق هـذا ؟

ــ انا اعرفـه .

. وهل في وسعك ان تحبني ؟

ــ استطيع ان احبك ، اكثر فأكثر .

ــ سأحاول ان اقبلك جيدا .

ــ قبليني قليلا .

ـ لا اعرف كيف ؟

ـ قبليني فقط ..

وقبلته على وجنتيه .. فقال لا ..

ـ ولكن اين يذهب الانفان ، لقد كنت اتساءل ، اين يذهب الانفان .

ـ اسمعي ، أديري راسك .

والتصقت الشفاه ، في قبلة طويلة حارة ، واحس بها تكاد تعصر نفسها بين ذراعيه ، واخذ فمها ينفرج شيئا فشيئا .. وفجاة احس به يضمها اليه ، فشعر بسعادة لم يسبق له ان احس بمثلها ، سعادة عارمة ، قوية ، عنيفة ، دافقة ، لا يساورها خوف ، او قلق ، او تعب ... وانما لذة ، ونشوة .. فانفجر يقول .. يا ارنبتي الصغيرة ، يا معبودتي ، يا جميلتي، يـا حبيبتي الوحيدة .

ـ ماذا تقول ؟.. كانت وكانها تعيش في حلم بعيد .

ـ يـا حبيبتي الوحيدة ..

واستلقيا على الفراش من جديد ، واحس بدقات فؤادها ، تقرع على صدره ، واخذت قدمها ، تعزف لحن السعادة على قدمه .

ـ وهل جئت حافية القدمين ؟

اجـل .

ـ اذن انك كنت تعرفين ، انك آتية إلى الفراش .

ـ نعـم .

ـ ولم تكوني خائفة .

ـ اجل ، ولكنني كنت اخشى من انتزاع حذائي .

ـ وكم الساعة الان ؛

ـ او ليس معك ساعة ؟

ـ اجل ، ولكنها وراء ظهرك .

ـ تناولها مـن هنـاك .

ـ لا .

ـ اذن ، انظر وراء كتفي .

كانت الساعة قد بلغت الواحدة ، ولمع عقربها مضيئا في هداة الليل .

ـ ذقنك ، تخمش كتفي . .

ـ عفوك ، ولكن ليس معي اية ادوات للحلاقة .

ـ انا احبها . وهل ذقنك شقراء ؟

ـ اجل .

ـ وهل ستكون طويلة ؟

ـ لن تطول قبل الجسر . اسمعي يا ماريا ، هل . .؟

ـ هل مـاذا ؟

ـ هل تريدين ؟

ـ اجل ، كل شيء ، ارجوك . واذا عملنا كل شيء معا ، فان اي احتمال آخـر لـن يوجد .

ـ وهل فكرت في ذلك ؟

ـ لا ، لقد كنت افكر ، ولكن بيلار ، قالت لي .

ـ انها حكيمة للغاية .

ـ وهناك شيء آخر ، لقد طلبت مني ان اقول لك ، انني لست مريضة . انها تعرف مثل هذه الامور ، وقد طلبت مني ان اقول لك .

ـ وهل طلبت منك ان تقولي لي ذلك .

ـ اجل . لقد تحدثت اليها ، واخبرتها انني احبك . لقد احببتك عندما

رايتك اليوم . وربما كنت احبك دائما ، ولكنني لم ارك من قبل . وقد ابلغت بيلار ، وطلبت الي : اذا حدثتك في اي موضوع ، عن اي شيء وقع لي ، ان اقول لك ، انني لست بالمريضة . اما الشيء الآخر ، فقد حدثتني به قبل امد طويل .. بعد حادث القطار مباشرة .

ـ ومـاذا قالت لك ؟

ـ قالت ، ان الانسان عندما يرغم على عمل شيء ، فكأنه لم يعمله قط .

وانني اذا احببت انسانا ، فان ذلك الماضي سيختفي ، ويضيع . لقد كنت اوثر الموت . ولا شك انك رايت ذلك .

ـ ان ما قالته ، حق وصدق .

ـ اما الآن ، فاني سعيدة لانني لم امت . انني سعيدة للغاية ، لانني لم امت فهل في وسعك ان تحبني ؟

ـ اجل انني احبك الان .

ـ وهل في وسعي ان أكون امراتك !

ـ لا استطيع ان اتزوج ، وانا أقوم ، بما اقوم به الآن . ولكنك امراتي الآن .

ـ اذا اصبحت امراتك مرة ، فسأظل الى الابد . فهل انا امراتك الآن ؛

ـ اجل يا ماريا . اجل يا أرنبتي الصغيرة .

ودنت منه ، فالتصقت به من جديد ، واخذت شفتاها تبحثان عـن شفتيه ، الى ان عثرتا عليهما ، فاجتمعا في قبلة طويلة ساخنة ، قبلـة جديدة ، رقيقة وفتية ، واحس بالدفء يعاوده ، طاردا البرودة مـن جسده .. وسمعها تقول .. وهي خائفة .. والآن ، لنسرع في عمل ما عملناه ، حتى يزول كل اثر للماضي البعيد .

ـ او تريديـن ؟

ـ نعـم . نعم . نعم ...

كان الليل شديد البرودة ، ونام روبرت جوردان ، نوما عميقا ، وقد استيقظ ذات مرة ، فادرك أن الفتاة ما زالت هناك ، تغط في نومهــا فى طرف الفراش ، وهي تتنفس تنفسا منتظما رتيبا ، واخرج راسه فى ظلمة الليل ، فراى السماء الصافية ، وقد امتلأت بالنجوم ، واحس ببــرودة الليل ، فى خياشيمه ، فعاد يخفي رأسه من جديد في دفء الفراش ، وقبل كتفها الرقيقة الناعمة ، ولم تستيقظ الفتاة ، فتدحرج بجسده من جديد الىالناحية الاخرى ، واخرج رأسه ، الى العراء ثانية ، مستيقظا ، وقد احس بالاجهاد ، بينما تدب احاسيس النشوة فى جسمه ، كلما لمــس جسدها الرقيق الناعم النائم الى جواره ، وعاد ليغفو .. من جديد .

واستيقظ ، مع بزوغ الفجر ، فراى ان الفتاة قد مضت ، لقد عــرف ذلك عندما مد ذراعه ، فأحس بالفراش الدافيء ، حيث كانت تنام ، وتطلع الى مدخل الكهف ، فرأى الدخان ينبعث منه ، مما يشير الى ان نيران المطبخ قد بدات فى الاتقاد .

وراى رجلا يخرج من الغابة ، وقد وضع « بطانية » فوق راسه ، لقد كان بابلو ، وكان يدخن لفافة من التبغ ، وتصور روبرت ان الرجل كان مع

جياده .. ورفع بابلو الستارة ثم دلف الى الكهف دون ان يتطلع الى روبرت

واحس روبرت بيده الصقيع الابيض المتجمع على الدثار الذي كان ينام تحته ، ثم ادار ظهره للناحية ، التي ستبزغ الشمس منها ، وخيل اليه ان في وسعه ان يعود الى النوم .

ونام فعلا ، ولم توقظه الا اصوات هدير طائرة .. كانت دورية فاشية مؤلفة من ثلاث طائرات من طراز فيات ، تعبر السماء مسرعة ، بهياكلها الصغيرة اللامعة .. ومرت الطائرات الثلاث لتتبعها تسع اخرى ، اكثر ارتفاعا وهي تحلق فى السماء في مجموعات ثلاثية .

وكان بابلو والغجري ، يقفان فى مدخل الكهف ، فى الظل ، يرقبان السماء، وبينما كان روبرت ، لا يزال نائما فى فراشه ، امتلأت السماء ، بهدير متعال من محركات الطائرات ، ورأى ثلاث طائرات جديدة ، تكاد تكون على علو الف قدم من الفرجة القائمة فى الغابة ، انها طائرات من طراز هينكس ، من القــاذفــات .

وادرك روبرت ، وقد اخفى راسه فى ظلال الصخور ، ان الطائرات لن تراه ، وانها اذا راته ، فلن تفعل شيئا ، وادرك انها قد ترى الجياد فــي مربطها ، اذا كانت تبحث عن شيء فى هذه الجبال . اما اذا كانت مجرد طائرات عابرة ، فانها ستحسب الجياد ، تابعة لفصيل مــــن فرسانها ، وسرعان ما سمع هدير عنيف ، يصم الآذان ، وشوهدت ثلاث طائــرات اخرى من طراز هينكل ، وهي تطير ، على ارتفاع خفيض للغابة ، مارة فوق الفرجــــة .

وشرع روبرت يرتدي ملابسه ، عندما سمع صوت هدير جديد ، ورأى ثلاث طائرات اخرى ، تقترب من المكان ، ولم تكد تمضي حتى كان قد اتم لباسه ، ووضع مسدسه الى جانبه ، وطوى فراشه ، وجلس الى جانب الصخر يربط حذاءه ، واذا بالهدير يشتد ثانية بشكل مخيف ، لم يسبق له مثيل ، وابصر بتسع طائرات اخرى من قاذفات القنابل من طراز هينكل تملأ السمــاء .

وزحف روبرت محاذيا الصخور ، الى مدخل الكهف ، حيث كان احد الاخوين ، وبابلو ، والغجري ، وانسيلمو ، واوغسطين ، وزوجة بابلو ، يقفون جميعا يتطلعون الى السماء .

وقال يسألهم ــ هل رايتم من قبل مثل هذا العدد الكبير من الطائرات ؟

ــ ابدا ، ادخل ، انها ستراك .

ولم تكن الشمس قد اصابت باشعتها مدخل الكهف بعد ، كانت الشمس لا تزال ترتفع تدريجيا فوق الافق ، ملقية باشعتها على المرج ، وعرف روبرت انها لن تستطيع أن تراه فى هذا الظل المعتم ، الذي تلقيه الاشجار والصخور ، ولكنه دلف الى الكهف ، ملبيا نداء بابلو ، مخافة اثارة اعصابه .

وقالت المراة ــ انها كثيرة العدد .

وقال روبرت ــ وسنرى طائرات اكثر عددا .

فقال بابلو ــ والشك يكاد يتضح في سؤاله ــ وكيف تعرف ؟

ــ ان هذه الطائرات التي مرت بنا من جديد ، الهدير المتعالي ، مــن الطائرات وهي تمر على ارتفاع خمسة الاف قدم ، وعد روبرت خمس عشرة طائرة من طراز فيات ، تطير في تشكيلات على رقم (٧) .

وبدت الخشية على جميع الوجوه ، وقال روبرت .. يبدو انكم لم تروا مثل هــذا العدد مــن الطائرات ؟

فقال بابلو ــ ابدا .

ــ او لم تكن هناك طائرات عدة فى سيفوفيا ؟

ــ ابدا لم نر في حياتنا مثل هذا العدد . كنا نرى ثلاث طائرات معا ، واحيانا ست طائرات ، ثلاثا من طراز يونكر الكبيرة ،ومعها ثلاث مطاردات، ولكننا لم نر قط مثل هذا العدد الكبير .

وخيل الى روبرت ان الوضع سيء ، بل وسيء للغاية ، فهذا الحشد من

الطائرات، يعني ان ثمة شيئا سيئا يعد ، وقال يحدث نفسه .. وعلي أن انتظر سماعها وهي تفرغ محمولها ، ولكن لا يعقل ان تكون جماعتنا قد اعدت بعد القوات اللازمة للهجوم ، اذ لا يمكن أن تتم هذه الاعدادات قبل هذه الليلة ، أو ليلة غد ، ولا ريب من انهم لا ينقلون ايا من القوات فى هذه اللحظـــة .

وكان في وسعه ان يسمع صوت الهدير المتباعد ، واخذ يتطلع الى ساعته. لا ريب فى أن الطائرات قد وصلت طلائعها فى هذه اللحظة الى خطوطنا ... لا ، ربما انها لم تصل بعد .. اما الان فلا ريب فى انها قد وصلت . ان هذه الطائرات تقطع مائتين وخمسين ميلا فى الساعة ، وبعد خمس دقائق ، ستكون هذه الطائرات هناك ، ولا شك فى انها قد مرت الان فوق قشتالة ، التي تنتشر فيها الطرق والقرى الصغيرة .

واخذ ينصت الى صوت ساعته ، وهي تدق . ان القنابل لم تتساقط . لعلها تتجه الى كولمينار او ايسكوريال ، او الى مطار مانزاناريس ايل ريال، حيث تقوم القلعة القديمة فوق البحيرة ، وقد انتشرت فيها طيور البط ، ووراءها يقوم المطار الكاذب وراء المطار وقد ظهرت فيه الطائرات الورقية الكاذبة تتحرك مع الريح . لا ريب فى انها تتجه الى هناك ، اذ لا يعقل ان يكون العدو قد عرف بالهجوم .. ولكن لماذا استبعد ذلك ، وقد سبق العدو أن عرف بما سبقه من هجمات .

وقال بابلو متسائلا ـ او تظن ان الطائرات رات الجياد ؟

فرد روبرت ـ انها لم تكن تبحث عن جياد .

ـ ولكن هل راتها ؟ ـ لا ، الا اذا كانت تتعمد البحث عنها .

ـ وهل كان في وسعها ان تراها ؟

ـ من المحتمل ان لا يكون فى وسعها ان تراها ، الا اذا كانت الشمس تلقي باضوائها على الاشجـــار .

ـ انها تصل اليها . منذ الصباح الباكر .

ـ أعتقد ان ثمة ما يشغل الطيارين اكثر من جيادك .

وقد انقضت ثماني دقائق منذ حدد الساعة تماما .. وها هو لا يسمع قصفـــا .

وقالت المراة ـ ماذا تفعل بساعتك ؟

ـ اصغي الى المكان الذي اتجهت الطائرات اليه .

ـ آه .

وعندما تجاوزت الساعة الدقائق العشر ، وادرك ، انها اصبحت بعيدة، بحيث اضحى من المتعذر عليه أن يسمع .. اتجه الى انسيلمو قائلا .. اريـد التحدث اليــك .

وخرج انسيلمو من الكهف ، وسار الرجلان معا ، من المدخل ، الى ان توقفا عند احدى اشجار الصنوبر . فقال روبرت .. كيف تسير الامور ؟

ـ حسنـــا .

ـ وهل اكلـت ؟

ـ كلا ، لم ياكل انسان بعد .

ـ اذن كل الان ، وخذ شيئا لتأكله عند الظهيرة . اريد منك ان تذهب لمراقبة الطريق ، وعليك ان تلاحظ ، كل ما يمر عليها ، صاعدا او هابطا .

ـ انــا لا اعرف الكتابة .

ـ لا حاجة بك اليها . خذ هذه الورقة . واذا مرت بك دبابة فارسم هذه الاشارة واذا اصبح الرقم اربع دبابات ، فضع هذه الاشارة لترمز الـى الخامسـة .

ـ وهكذا نعد عـدد الدبابات .

ـ اجل . وارسم صندوقا مع عجلتين للشاحنة . اذا كانت فارغة فضع دائرة . واذا كانت ملآى بالجنود ، فضع خطا مستقيما . وهذه اشارة

للمدافع الكبيرة ، وتلك للمدافع الصغيرة ، وهذه للسيارات ، وتلك لعربات الاسعاف . وهذه لفئة من جنود المشاة ، دائرة واشارة الى جانبها، أما الفرسان فهذه الاشارة ترمز اليهم ، انها كالحصان ، صندوق مع اربع ارجل . وجماعة من عشرين فارسا هذه هي اشارتها . هل فهمت ؟

ـ اجل انها اشارات رائعة .

ـ وهذه .. العجلات الضخمة والدوائر فوقها ، هي لعربات المدافع ، وهذه للمدافع المضادة للدبابات وتلك للمدافع المضادة للطائرات . هل فهمت ؟

ـ اجل ، لقد فهمت .. والصور واضحة .

ـ خذ الفجري معك ، ليساعدك في المراقبة . واختارا مكانا امينا ، لا يكون قريبا جدا ، ولكن في وسعكما ان ترقبا منه بهدوء . وحافظا على مركزكما حتى نبعث من يخلفكما فيه .

ـ فهمت .

ـ حسنا ، وعندما تعود ، يجب ان اعرف كل ما مر على تلك الطريق . واترك ورقة للوحدات الصاعدة واخرى الهابطة .

وسار الرجلان باتجاه الكهف ، وقال روبرت ،.. قل لرفائيل ، ان يأتي الي . وابصر بانسيلمو وهو يدلف الى الكهف ، ثم بالفجري وهو يخرج ، ماسحا فمه ، بكمه .. وقال للفجري ـ هل لهوت ليلة امس ؟

ـ لقد نمت .

ـ هذا اقل سوءا ، هل معك سيكارة ؟

ـ اسمع .. وناوله سيكاره ثم قال .. اريد منك ان تذهب مع انسيلمو الى مكان سيرقب الطريق منه . وستتركه هناك ، لتعود الي بعد ان تحدد المكان لتقودني او تقود اي شخص آخر ، ليحل محله . عليكما ان تذهبا الى مكان تستطيعان مراقبة الطاحونة منه . وعليك ان ترى اذا كان ثمة من جديد قد طرأ على المركز العسكري فيها .

ـ اي جديد يطرا ؟

ـ كم رجلا هناك الآن ؟

ـ ثمانية هذا آخر ما اعرفه .

ـ اذن راقب كم عدد الرجال فيه الان . وانظر في اي وقت يتم استبدال الحارس عند الجسر .

ـ في اي وقت ؟

ـ اجل ، كم ساعة يقضي الحارس عند الجسر ، ومتى وفي اي ساعة يستبدل .

ـ ليست معي ساعة .

ـ خذ ساعتي .. واخذ يفك رباط ساعته ..

ـ يا لها من ساعة رائعة ! انظر ما اروع التعقيدات فيها . ان مثل هذه الساعة تستطيع ان تقرا وان تكتب . ما اكثر ما فيها من تعقيدات الاحرف انها ساعة تختفي امامها الساعات .

ـ لا تضع عقلك فيها .. هل تستطيع معرفة الوقت ؟

ـ ولم لا ؟ ان الثانية عشرة ، هي منتصف النهار ، وهي ساعة الجوع ، والثانية عشرة هي منتصف الليل ، وهي ساعة النوم . وفي السادسة صباحا جوع ، وفي السادسة مساء ، شراب . وعندما تكون الفرصة مواتية ، فالعاشرة مساء ..

ـ اغلق فمك ! لست في حاجة لان تكون مهرجا . كل ما اريده منك ، ان تراقب الحارس عند الجسر الكبير والمركز القائم على الطريق ، والمركز والحرس عند الطاحونة والجسر الصغير .

ـ انها مهمة كبيرة ، وهل انت واثق ان ليس ثمة من هو اصلح مني لها ؟

ـ لا يا رافائيل ! انها مهمة خطيرة . وعليك ان تؤديها بحرص ، وان تكون حذرا فتظل بعيدا عن العيون .

ـ اعتقد ان بوسعي ان اختفي . لماذا تطلب الي أن اظل بعيدا عـن العيون ؟ هل تعتقد انهم سيقتلونني اذا راوني ؟

ـ خذ الامور على محمل الجد ، فالامر جدي .

ـ تطلب الي ان أحمل الامور على محمل الجد ؟ بعد كل ما فعلت ليلة امس ؟ عندما كنت في حاجة الى قتل رجل وبدلا من ان تقتله فعلت مـا فعلت ؟ كان المفروض فيك ان تخنق انسانا لا أن تنجب انسـانا ! وكل ذلك بعد ان راينا السماء ملأى بالطائرات الى الحد الذي يكفي ، لقتلنا وقتل جميع جدودنا واحفادنا الذين لم يولدوا بعد ، ومعنا كل ما في العالم من قطط وماعز ، وحشرات ، والطائرات تهدر هديرا يوقف الحليب في ضروع امك وتزار زئيرا كالاسود ، ثم تأتي الي لتطلب مني أن أكون جادا لا هازلا ، لقد حملت الموضوع على محمل الجد منذ امد طويل .

ـ حسنا .. اذن دع الجد جانبا الان ، وامض فاكمل فطورك ، ثـم اذهب .

ـ وانت ؟ ما الذي ستعمله ؟

ـ سامضي لأرى ايل سوردو .

ـ قد لا تجد بعد هذه الطائرات احدا في الجبال كلها . ولا ريب في ان العرق قد تصبب من جميع الاجساد في هذا الصباح ، عندما مرت بنـا الطائـرات .

ـ ان لهذه الطائرات مهام اخرى ، غير اصطياد رجال العصابات ،

ـ أجل .. ولكن اذا ارادت ان تهتم بهذا العمل ايضا .

ـ اسمع يا هذا ! ان هذه هي اجود انواع الطائرات الالمانية ، وهي ، لا تقـوم بمطاردة الغجر .

ـ ولكنها ترهبني .. اجل انني اخاف من مثل هذه الطائرات .

ـ انها ماضية لقصف احد المطارات .. وانا واثق من ذلك .

وناه روبرت بجملته الاخيرة ، وهو يدلف مع الفجري الى الكهف .. فقالت زوجة بابلو .. ماذا تقول ؟.. ثم صبت له قدحا من القهوة ،وناولته علبة من الحليب المكثف .

ـ عندكم حليب ؟ يا لها من رفاهية !!

ـ عندنا كل شيء . ولكن منذ جاءت الطائرات فعندنا خوف شديد ايضا .. اين قلت ان الطائرات قد مضت ؟

وصب روبرت شيئا من الحليب في قدحه ، ثم مزجه مع القهوة ، الى ان تبدل لون القدح ، ثم قال .. لقد مضت لتقصف مطارا ، كما اعتقد ، ومن المحتمل انها قد مضت الى ايسكوريال وكولمينار ، او الى المواقع الثلاثة معـــا .

وقال بابلو ـ ليذهبوا أين يشاءون ، وليظلوا بعيداً عنا هنا .

وقالت المراة ـ ولكن لم جاءوا الى هنا الان ؟ ما الذي اتى بهم ؟ اننا لم نرُ في حياتنا مثل هذا العدد من الطائرات ، هل يعدون لهجوم ؟

وقال روبرت متسائلا ـ وهل كانت ثمة حركة على الطريق ليلة امس ؟.. فكانت ماريا قد التصقت به ، ولكنه لم يعرها ادنى انتباه .

وقالت المراة ـ اسمع يا فيرناندو ، لقد كنت في لاغرانجا ليلة امس ، فاي تحركات رايت ؟

وقال رجل قصير القامة ، عريض الوجه ، في الخامسة والثلاثين . وفي عينه حول . ولم يكن روبرت قد رآه من قبل .. لا شيء ، رايت بعض الشاحنات ليس الا . وهي كالمعتاد . وبعض السيارات . ولم ار ايـــة تحركـــات للجنـــود .

وقال روبرت ـ هل تذهب الى لاغرانجا كل ليلة ؟

ـ اما انا او غيري . يجب ان يذهب واحد منا .

وقالت المراة ـ يذهبون بحثا عن الاخبار ، أو عـن الطباق ، او عـن اشياء صغيرة اخرى ..

ـ وهل لنـا رجال هناك ؟

ـ اجل ، ولم لا ؟ هناك عمال محطة التوليد وغيرهم .

ـ وماذا كانـت الاخبار ؟

ـ لا شيء هام . فالوضع ما زال سيئا في الشمال . وهذا ليس بالجديد ، فقد كان الوضع سيئا هناك منذ البداية .

ـ وهل سمعت شيئا من سيغوفيا ؟

ـ لا ، ايها الرجل ، فلم اسأل .

ـ وهل تذهب الى سيغوفيا ؟

ـ احيانا ، ولكن ثمة خطرا في الذهاب . فهناك دوريات تسألك عـن اوراقـك .

ـ وهل تعرف المطـار ؟

ـ لا ، يا رجل . اعرف اين يقع ، ولكني لم ادن منه قط . فهناك الكثير مـن السؤال عـن الاوراق .

ـ او لم تسمع احدا يتحدث عن هذه الطائرات ليلة امـس ؟

ـ لم اسمع شيئا في لاغرانجا . ولكنهم سيتحدثون عنها الليلة بكل تأكيد . كانوا يتحدثون عن اذاعة كيبو . ولا شيء غيره . اجل . كانوا يقولون ان الجمهـورية تعـد هجوما .

ـ مـاذا تعد ؟

ـ ان الجمهورية تعد هجوما .

ـ ايـن ؟

ـ لا يعرفون . ربما هنا ، وربما في ناحية أخرى من الجبال ، فهـل

سمعت بذلك ؟

ـ وهل يقولون هذا في لاغرانجا ؟

ـ نعم . لقد نسيت ذلك . ولكنهم يكثرون من الحديث دائما عن الهجمات .

ـ واين مصدر هذا الحديث ؟

ـ اين ؟ انه من عدة اشخاص . فالضباط يتحدثون في مقاهي سيغوفيا وافيلا ، والخدم يدونون ما يقولون . وسرعان ما تنتشر الشائعات . وقد بداوا في الحديث منذ مدة عن هجوم تقوم به الجمهورية في هذه البقاع .

ـ تقوم به الجمهورية او يقوم به الفاشيون ؟

ـ لا ـ تقوم به الجمهورية . ولو كان الهجوم فاشيا لعرف به الجميع فورا . لا ـ انه هجوم على درجة من الفخامة . ويقول البعض ان ثمة هجومين . احدهما هنا والاخر في آلتوديل ليون قرب الاسكوريال . هل سمعت شيئا عن هذا ؟

ـ وماذا سمعت ايضا ؟

ـ لا شيء يا رجل . آه . اجل . سمعت ان الجمهوريين قد يحاولون نسف الجسور ، اذا تقرر الهجوم . ولكن الحراسة شديدة على الجسور .

وقال روبرت وهو يرشف من قدح القهوة ـ هل تمزح يا رجل ؟

ـ لا

وقالت المراة ـ هذا الرجل لا يعرف المزاح . ومن سوء الحظ انه لا يمزح

فرد روبرت قائلا ـ اذن ، شكرا لك على كل هذه الانباء . فهل سمعت شيئا آخر ؟

ـ لا ، انهم يتحدثون عن قوات سيرسلونها لتطهير هذه الجبال . وقد سمعت ان القوات في طريقها اليها قادمة من فالادوليد . ولكنهم يكثرون دائما من مثل هذه الاحاديث ولا يجدر بنا ان نطلق عليها كبير اهمية .

وقالت المراة تحدث زوجها بابلو ـ وانت .. تاتي بعد ذلك ؛ فتتحدث عن السلامة . وتطلع اليها بابلو ، وحك ذقنه ثم قال ـ انت وجسورك .

وقال فرناندو ضاحكا ـ اية جسور ؟

وردت المراة ـ يا لك من بليد . جامد الرأس . خذ قدحا آخر من القهوة وحاول ان تتذكر انباء اخرى .

وقال فرناندو بهدوء .. وهو يبتسم .. لا تغضبي يا بيلار . يجب ان لا يفزع الانسان من الشائعات . انني لم اعرها قط اي انتباه .

ـ اذن كانت هناك شائعات اخرى ؟

ـ اجل . هذا ممكن . ولكنني لم اكترث بها . لقد انقضى اكثر من عام وانا لا اسمع الا شائعات .

وسمع روبرت ، صوت ضحكة مباغتة تنبعث من الفتاة ماريا التي كانت تقف وراءه . وقالت وهي تهز كتفيها .. اسرد لنا شائعة اخرى يا فرناندو .

ـ حتى ولو تذكرت ، فانني لن ارددها ، فما يعرض كرامة الانسان للمهانة ، ان يعلق اهمية كبرى على الشائعات .

وقالت المراة .. وهذه هي الطريقة المثلى لانقاذ الجمهورية .

فقال بابلو .. لا ـ ستنقذينها بنسف الجسور .

وتطلع روبرت الى انسيلمو ورافائيل ، وقال .. هيا اذهبا ، اذا كنتما قد فرغتما من الفطور .

وقال الرجل العجوز ، وقد نهض على قدميه ، سنذهب الاز .

واحس روبرت بيد توضع على كتفه كانت يد ماريا .. التي قالت .. ليك ان تاكل شيئا .. حتى تستطيع معدتك احتمال كل هذه الشائعات .

ـ لقد اتخمت بالشائعات بدل الطعام .

ـ لا . عليك ان لا تسمح بهذا . على كل حال ، كل هذا . قبل ان تصلنا

شائعـات جديـدة .

وقدمت اليـه صحيفة عليها بعض الطعام . .

وقال فرناندو . . لا تهزئي بي يا ماريا . فانا صديقك الصدوق .

ـ كلا انا لا اهزأ بك . ولكنني امزح معه وعليه ان ياكل . والا ظـل جائعا . وقال فرناندو ـ اجل يجب ان ناكل ، ماذا حدث يا بيلار . حتى ان الطعام لا يقدم الي .

ـ لا شيء يا رجل . خذ وكل . هذا كل ما تستطيع أن تعمله الآن . كل .

ـ انه طعام جيد يا بيلار .

ـ شكرا ، وشكرا لك ثانية .

ـ هل انت غاضبة منـي ؟

ـ لا . ولكن كل . وامض فى طعامك .

ـ حسبنا سآكل . شكرا لك .

وتطلع روبرت الى ماريا ، فارتعدت اوصالهـا ، وشعرت برعشة فى كتفيها ، فابتعدت بنظرها عنه . واخذ فيرناندو يتناول طعامه بهدوء وثبات وقد علت وجهه سحابة من الجد والكبرياء . . رغم الملعقة الكبيرة التي كان يستعملها في تناول حسائه ، ورغم انصباب الحساء على طرفي ذقنه .

وقالت زوجة بابلو تسأله ـ هل اعجبك الطعام ؟

ـ اجل يا بيلار ، انه شهي كالعادة .

واحس روبرت بيد ماريا على ذراعه ، وباصابعها تضغط عليه ، معبرة عـن الفـرح .

وقالت المراة تسأل فيرناندو ـ ولهذا ، فقد اعجبك ؟ . . اجل كالعادة ، فالحساء كالعادة ، والامور سيئة فى الشمال كالعادة ، والهجوم متـوقع كالعادة ، والقوات تاتي لمطاردتنا كالعادة ، وفي وسعك ، أن تكون جامدا كالتمثال دائما كالعادة .

ـ ولكن الشيئين الاخيرين ، مجرد شائعات يا بيلار .

وقالت المراة ـ انها اسبانيا .. والتفت الى روبرت جوردان وهي تقول .. وهل في البلاد الاخرى ، رجال من هذا الطراز ؟

ـ ليست هناك بلاد اخرى كاسبانيا ..

فقال فيرناندو ـ انك على حق . فليس ثمة بلاد في العالم كاسبانيا .

ـ وهل رايت بلادا اخرى غير اسبانيا ؟

ـ لا . ولا اريد ان ارى بلادا غيرها .

فقالت زوجة بابلو موجهة حديثها الى روبرت ـ اسمعت .. ؟

وقالت ماريا .. اسمع يا فيرناندو ، حدثنا عن المرة التي ذهبت فيها الى فالانسيا .

ـ لم احب فالانسيا .

ـ لم لم تحبها ؟

ـ ليس للناس فيها اخلاق . ولم استطع فهمهم . فكل ما يفعلونه ، هو ان يصرخ الواحد منهم ، على رفيقه .

ـ وهل استطاعوا ان يفهموك ؟

ـ تظاهروا بانهم لم يفهموني .

ـ وماذا فعلت هناك ؟

وصرخت زوجة بابلو ـ اوه ، اذهب من هنا ايها العجوز ، اذهب ، قبل ان يلحق بي الغثيان من حديثك . فقد قضيت اروع ايامي في فالانسيا . لا تقل شيئا عن فالانسيا .

وقالت ماريا متسائلة .. وماذا فعلت هناك ؟

وجلست زوجة بابلو الى المائدة ، وبيدها قدح من القهوة ، وقطعة من الخبز ، ووعاء مليء بالحساء .. ثم شرعت تقول .. آه ، ماذا عملت هناك؟

لقد كنت فيها عندما كان فينيتو مرتبطا بثلاثة عقود ، للمصارعة في فيريا . لم ار في حياتي مثل هذا الحشد الضخم من الناس . ولم ار مقاهي تعج بالناس كمقاهيها . فعليك ان تنتظر ساعات طويلة ، قبل ان تجد مقعدا تجلس عليه ، ويستحيل عليك ان تجد مكانا في حافلة الترام . فالحركة دائبة في فالانسيا ليلا نهارا .

وقالت ماريا .. ولكن ماذا عملت فيها ؟

ـ عملت كل شيء . ذهبنا الى الشاطىء ، ونمنا في الماء ، وفي القوارب التي تحمل الاشرعة والتي تجرها ، عند وصولها الى الساحل ، الثيران . اجل انهم يدفعون بالثيران الى الماء ، حتى يرغموها على السباحة ثم يدفعون بها الى القوارب . وعندما تضع عليها اقدامها ، تأخذ في الترنح فوق الرمال ، وترى عشرة رؤوس من الثيران ، تجر قاربا منطلق الاشرعة ، وهو يخرج من البحر في ساعات الصباح الباكر ، مع خط من الامواج الصغيرة التي تتكسر على الشاطىء . هذه هي فالانسيا .

ـ وماذا فعلت ايضا بالاضافة الى مراقبة الثيران ؟

ـ كنا نأكل في خيام منصوبة على الرمال . فطائر ، محشوة بالسمك التي ازيلت منه الاشواك . والبهارات الخضراء والحمراء ، واللوز ، كحبات الارز . انها فطائر لذيذة جديدة ، ولحم الاسماك فيها دسم ، وذو مذاق و « القريدس » وقد اشبع بعصير الليمون . وهي زرقاء اللون طعمها في منتهى الروعة . اجل كنا نأكل الكثير منها . وكنا نأكل اعشاب البحر ، وما تضمه الاصداف من لحم لذيذ المذاق ، والمحار ، وجراد البحر ، والرعاد (الحنكليس) . وكثيرا ما اكلنا بعض صغار الاسماك ، التي لا تكاد تضعها في فمك حتى تذوب فيه . ونشرب مع ما نأكل ، نبيذا ابيض ، شديد البرودة ، خفيف المذاق ... ثم نقبل بعد ذلك على البطيخ .. انها بلدة البطيخ .

وقال فيرناندو ـ ولكن بطيخ قشتالة ، خير من بطيخ فالانسيا .

ـ ان بطيخ قشتالة ، لا يصلح لشيء ، اما بطيخ فالانسيا ، فحلو المذاق . وعندما اذكر تلك البطيخات ، وهي طويلة كذراع الانسان

وخضراء كالبحر ، وهشة للتقطيع ، وحلوة المذاق ، كالاصباح الباكـرة في الصيف . . آه عندما اذكر كل ذلك ، واذكر تلك الاسماك الصغيرة التي كنا ناكلها ، واقداح الجعة التي كنا نتناولها ، طيلة الامسيات ، فتطفىء لهيب ظمئنا ببرودتها الثلجية ، وهي في تلك الجرار المصنوعة من الفخار . .

ـ وماذا كنت تعملين ، عندما لا تاكلين ولا تشربين . .

ـ كنا نمارس الحب في تلك الغرفة التي صنعت ستائرها من الخشب ، تنسدل عليها لتحول ، بين الداخل وبين نظرة متطفل من الشرفة . ويهب علينا نسيم عليل ، من الفرجة القائمة ، فوق الباب الذي يدور على نفسه. اجل كنا نمارس الحب هناك ، وقد تمتم الجو في وضح النهار ، من هـذه الستائر ، وتنطلق الى انوفنا ، روائح الزهور العطرة منطلقة من الشارع ، او اريج البارود المحترق ، من الاسهم النارية التي تنفجر في كل ناحية اثناء الاعياد . انه حبل طويل من الاسهم والالعاب النارية ، يمتد فوق المدينة باسرها ، والانفجارات تتوالى منتقلة من عمود الى عمود ، ومن حافلـة الـى حافلة . .

وبعد ان ننتهي من الحب ، كنا نطلب دفعة ثانية من كؤوس الجعة ، وقد انتشر حبابها ، وامتدت برودتها ، الى السطح الخارجي للقدح ، وكنت اتناول الاقداح من الفتاة ، من باب الغرفة ، واضع الكاس ، ببرودته ، وصقيعه على ظهر فينيتو ، الذي راح مستغرقا في سباته . . فيهتف بي قائلا . . لا يا بيلار ، لا ، يا امراة ، دعيني انام . . فارد عليه قائلة . . لا ، افق ، واشرب هذا ، وهو بارد . . فيتناول القدح ، ويجرعه ، وهو مغمض العينين ، ثم يعود الى النوم ، بينما استلقي انا في ذيل السرير ، ارقبه وهو نائم ، واشرب الجعة كلها . واستمع الى اصوات الموسيقى ، تعزفها فرقة عابرة . . ثم تطلعت الى بابلو وقالت . . وانت ، اتعرف شيئا من هذا ؟

فقال بابلو . . كثيراً ما عملنا اشياء معا .

ـ اجل ، ولم لا ؟ لقد كنت في وقتك ، اكثر رجولة من فينيتو . ولكننا لم نذهب قط الى فالانسيا . ولم يحدث ان نمنا معا في الفراش ، ونحن نستمع الى فرقة موسيقية عابرة .

فرد بابلو ـ كان هذا مستحيلا . فلم تتح لنا الفرصة للذهاب الـى فالانسيا . ولا ريب انك تدركين ، انك اذا كنت معقولة فقط .. ولكنك لم تنسفي قطارا مع فينيتو .

ـ لا . هذا ما بقي علينا . القطار . اجل . دائما القطار . وليس في وسع انسان أن ينتقد هذا . فهذا كل ما بقي لنا من الكسل والتراخي والفشل. وهو ما بقي من جبن هذه اللحظة .. لقد كانت ثمة أشياء أخرى ايضا . انا لا اريد ان اجفو الانصاف . ولكن ليس في وسع انسان ان ينتقـد فالانسيا ايضا . هل سمعتني ؟

فقال فيرناندو بهدوء ـ ولكنني لم احبها . اجل انها لم تعجبني .

فردت المراة ـ ثم يقولون عن البغل انه عنيد وحرون . هلمي يا ماريا ، نظفي الاوعية ، ودعينـا نذهب .

وعندما قالت هذا ، سمعوا اصوات الطائرات وهي تعود ..

٩

وقفوا في مدخل الكهف ، واخذوا يرقبون الطائرات . كانت القاذفات تحلق الآن على ارتفاع سامق ، وهي تغذ السيـــر مسرعة في طيرانها ، ومقدماتها البشعة التي تشبه السهام تضرب السماء ، بينما دوي هديرها يصم الاذان . ان تصميمها يشبه كلب البحر ، بانفه الدقيـــق الحاد ، وحراشفه العريضة . لكن هذه الطائرات الواسعة الاجنحة ، التي تهدر في السماء ، لا تتحرك كما تتحرك كلاب البحر . انها لا تتحرك ، كأي شيء آخر ، سبق له ان رآه ، وانما تتحرك ، كالقضاء الميكانيكي .

وتساءل لماذا لا يعود الى الكتابة ، انه سيعود اليها في يوم ما . واحس بماريا تمسك بيده وهي تتطلع الى السماء .. فقال موجها حديثه اليها .. « كيف تبدو لك هذه الطائرات ؟ »

ــ لا ادري . انها تبدو كالموت المحتوم .

وقالت زوجة بابلو ــ انها تبدو لي مجرد طائرات ليس الا ، اين الطائرات الصغيـــرة ؟

فقال روبرت ــ قد تكون متجهة الى ناحية اخرى . فهذه القاذفـــات

شديدة السرعة . وليس من المعقول ، ان تتريث لتنتظر الاخريات . ونحن لا نلحق بها عبر خطوط القتال ، فليس لدينا عدد كاف للقيام بمثل هذه المغامـــرة .

وسرعان ما ظهرت ثلاث طائرات مقاتلة من طراز هينكل تطير على شكل رقم (٧) ، وهي تطير على ارتفاع خفيض حتى لتكاد تصطدم باعالي الاشجار ومرت كاللعب المخيفة التي تدمدم وتزمجر . وكان انخفاضها كبيرا الى حد ان الجمع راى طياريها ، وهم يرتدون الخوذ .

وقال بابلو ـ لا ريب في ان هذه الطائرات تستطيع ان ترى الجياد .
فقالت المراة ـ في وسعها ان ترى عقب سيكارتك فأسدل ستارة الكهف .

ولم يسمعوا بعد ذلك أي هدير ، ويبدو ان الطائرات الاخرى ، ذهبت في اتجاه آخر . وعندما سكت الهدير ، خرجوا جميعا الى العراء ، وكانت السماء خالية ، وسامقة وزرقاء وصافية .

وقالت ماريا لروبرت ـ يبدو ، وكاننا كنا في حلم وافقنا منه .

وقالت بيلار ـ انها ليست حلما ، وعليك ان تعودي لتكملي عملك .. ثم التفتت الى روبرت وهي تقول .. وماذا نعمل الآن ، هل نذهب مشاة او راكبيـــــن ؟

وتطلع اليها بابلو ، ولم ينبس ببنت شفة .. وقال روبرت ـ كما تشائين .
ـ اذن دعنا نمشي فهذا انفع لكبدي .
ـ والركوب نافـــع للكبد .
ـ ولكنه مضر للعجز .. فسنذهب مشاة ، اما انت .. والتفتت الى زوجها ففي وسعك ان تهبط الى جيادك ، وتتاكد من انها لم تطر مـــــع الطائـــرات ..

وقال بابلو لروبرت ـ أو تريد جوادا تركبه ؟

ـ لا شكرا . . وماذا نفعل بالفتاة .

ـ خير لها أن تمشي . فقد يكتنز لحمها في اكثر من موضع ، وتغدو غير نافعـة لشيء .

واحمر وجه روبرت . . وقالت بيلار تسأله . . وهل نمت طيبا ؟ . . حقا انها ليست مريضة ، مع انه كان من الممكن ان تصاب بشيء من ذلك . ولا ادري كيف نجت . . ولكن من المحتمل أن يكون ثمة اله ، على الرغم من اننا قد اسقطناه من حسابنا . . هلم بنا . . والتفتت الى بابلو . . وقالت . . حديثنا لا شأن لك به . فهو يخص انسانا اصغر منك سنا ، وقد صنعوا من مادة تخالف المادة التي جبلت منها . . وعادت تقول الى روبرت . . وسيتولى اوغسطين العناية بكيسيك ، فسنمضي عندما يصل .

كان النهار صافيا ورائقا والجو دافئا من حرارة الشمس . وتطلع روبرت الى المرأة الضخمة السمراء الوجه ، وقد تألقت فيه عيناها الواسعتان ، فظهر فيهما شعور من المرح ، بينما سادت الوجه تغضنات الاسى . ونقل بصره بينها وبين الرجل الضخم البدين الذي ينتقل بين الاشجار ، في اتجاه الجياد ، ورأى أن المرأة ترنو اليه ايضا . . ثم قالت . .

ـ هل مارستما الحب ؟

ـ ماذا قالت لـك هي ؟

ـ لم ترض أن تقـول شيئا .

ـ وانـا كذلك .

ـ اذن فقد مارستماه . ارجوك كن شديد الحدب عليها ، الى اقصى حـد . .

ـ وماذا يحدث اذا حملت طفلا ؟

ـ هذا لن يضير ، بل قد يكون اقل ضررا .

ـ ولكن المكان لا يصلح لذلك .

ـ انها لن تظل هنا ، ستذهب معك .

ـ واين ساذهب انا ؟ ليس في وسعي أن آخذ امراة حيث اذهب .

ـ من يدري ؟ ربما اخذت امرأتين حيث تذهب .

ـ لا يليق بك ان تقولي هذا .

ـ اسمع ، انني لست بالجبانة ، الرعديدة ، ولكنني ارى الامور واضحة في الصباح الباكر ، واعتقد ان الكثيرين من الذين نعرف انهم احياء الان ، لن يعيشوا حتى يوم الاحد القادم .

ـ في اي يوم نحن الان ؟

ـ يوم الاحد ؟

ـ اذن فالاحد القادم ، موعد بعيد ، اذا عشنا حتى الاربعاء ، فهذا احسن ولكنني لا اريد منك ان تتحدثي بمثل هذا الحديث .

ـ كل انسان في حاجة الى الحديث الى اخر ، كنا نتعلق باهداب الدين وغيره من التفاهات ، اما الان ، فيجب ان يجد كل انسان من يستطيع الحديث اليه بصراحة ، اذ على الرغم مما قد يتصف به الانسان من شجاعة فقد يشعر احيانا بالوحدة .

ـ ولكننا لسنا وحيدين ، فنحن مجموع .

ـ ان منظر هذه الوحدات ترهب الانسان ، فنحن لا شيء امامها .

ـ ومع ذلك ، في وسعنا أن ننتصر عليها .

ـ اسمع ، انني اعترف لك ببعض الاسى ، ولكن لا يخيل اليك انني نتقر الى التصميم ، اذ لم يطرا على تصميمي شيء

ـ ولكن الاسى سرعان ما يتبدد عندما تشرق الشمس ، انه كالضباب .

ـ واضح ، اذا اردته على هذا الشكل ، ومن المحتمل ، ان يكون هذا

الاسى قد نجم عن ذلك الحديث الأحمق عن فالانسيا ، وعن فشل ذلك الانسان الذي مضى ليرى جياده ، فقد جرحته بتلك القصة ، وهو قد يحتمل القتل ، والسباب ، ولكنه لا يحتمل ان يجرح .

ـ وكيف قدر لك ان تلتقي به ؟

ـ بل كيف يقدر لانسان ان يلتقي بآخر ، لقد كان شيئا في الايام الاولى من الحركة وفي الايام التي سبقتها ، اجل لقد كان شيئا يحسب له حساب اما الان فقد انتهى ، لقد رفعت السدادة ، وانصب الخمر من الزق كله .

ـ انني لا احبـه .

ـ وهو لا يحبك ايضا ، وله عذره في ذلك ، فقد نمت معه ليلة امس .. قالت هذا وهي تبتسم ثم هزت راسها .. ومضت تقول .. وسألته .. لماذا لم تقتل الغريب يا بابلو ؟ فرد قائلا .. ولكنه شاب طيب يا بيلار .. اجل انه شاب طيب ، فقلت له .. اجل يا بابلو .. هذا ما قلته ، فهل فهمت الان انني الزعيمة ؟ .. فقال ، اجل ، يا بيلار اجل .. وسمعته في ساعة متأخرة من الليل يبكي ، كان يبكي بكاء قصيرا وبشعا كما يبكي انسان بداخله حيوان يهزه بعنف .. وقد امسكت به .. ماذا دهاك يا بابلو ؟ فقال .. لا شيء يا بيلار .. قلت .. ولكن شيئا قد حدث لك .. قال .. الناس ، الطريقة التي تخلو فيها عني .. قلت ، ولكنهم وقفوا معي ، وانا امرأتك .. قال بيلار ! اتذكرين حادث القطار .. ارجو ان يساعدك الله .. قلت .. ماذا تتحدث عن الله ؟ .. اية طريقة من الحديث هذه .. قال .. اجل ليكن الله والعذراء معك .. قلت .. الله والعذراء!!. وهل هذه طريقة الحديث ؟ قال .. انني اخشى الموت يا بيلار .. هل تفهمين ؟ قلت له .. اذن اترك فراشي ، فليس فيه مجال لي ولـك ، ولخوفك معا .. وخجل من نفسه ، وهدأت ثائرته ، ومضيت في سباتي ، ولكن الرجل ، قد تهدم ..

ولم ينبس روبرت ببنت شفة .

ومضت المرأة تقول .. لقد كنت اشعر بهذا الاسى في فترات طيلة حياتي

ولكنه ليس من نوع اسى بابلو ، انه لا يؤثر على عزيمتي .

ـ انني اصدقك .

ـ انه عادة طبيعية في المراة ، ولكنه قد لا يكون شيئا ، فانا اضع الكثير من الامل في الجمهورية ، انني أؤمن بها ، وعقيدتي فيها لا تتزعزع ، اجل انني أؤمن بها بحماس ، مثل اولئك الذين يؤمنون بالديـــن ويعتقدون بالغيبيات .

ـ اصدقــك .

ـ وهل تؤمن نفس الأيمان ؟

ـ بالجمهورية ؟

ـ اجـل .

ـ نعـم .

ـ انني سعيدة . أو لا تشعر بخوف ؟

ـ لا اشعر بخوف من الموت ؛

ـ او لا تخاف من شيء آخر ؟

ـ اخاف ان لا اؤدي واجبي كما يجب علي ان أؤديه .

ـ او لا تخاف من الاسر ، كالرجل الآخر ؟

ـ لا ، فمثل هذا الخوف ، يجعل الانسان منهمكا فيه بحيث يغدو تافها لا نفع فيــه .

ـ انك شاب شديد البرودة .

ـ لا . لست اعتقد ذلك .

ـ كلا . انك بارد في تفكيرك .

ـ لا ، ولكني اغرق في عملي .

ـ ولكنك لا تحب متع الحياة ؟

ــ بلى ، احبها ، على ان لا تتدخل في عملي .

ــ تحب الشراب هذا ما رايته .

ــ اجل . احبه كثيرا ، على ان لا تتدخل في عملي .

ــ والنســـاء ؟

ــ احبهم جم الحب ، ولكنني لا اعيرهن كثير التفات .

ــ او لا تهتم بهــن ؛

ــ نعم . ولكنني لم اعثر بعد على الفتاة التي تحركني كما يجب .

ــ اعتقـــد انك تكذب .

ــ ربما . قليــلا .

ــ اجل . فجاة والى حد كبير .

ــ وانا اهتم بها كثيرا . كثيرا جدا .

ــ وانا ايضا ، اجل ، انني اهتم بها كثيرا .

ــ ساتركك وحيدا معها ، بعد ان تجتمع بابل سوردو .

ــ وسكت روبرت . ثم قال .. ولكن هذا ليس بالضروري .

ــ اجل يا رجل . انه ضروري ، فليس ثمة وقت كثير .

ــ وهل رايت ذلك في طالعي ، في كفي ؟

ــ لا ، لا تذكر تلك السخافة عن الكف .

لقد ابعدت ما رانه ، مع الاشياء الاخرى التي تسيء الى الجمهورية . وكان روبرت صامتا وهو يتطلع الى ماريا ، تنقل الصحاف الى الكهف . ومسحت يديها ثم التفتت اليه وابتسمت . ولم تكن تستطيع ان تسمع ما تقوله بيلار ، ولكنها ابتسمت ، لانها تريد أن تبتسم له .

وقالت المراة .. ثم لا تنس النهار ايضا . حقا ان عندك الليل ، ولكن النهار متعة . وبالطبع لن تجد مكانا مرفها كفالانسيا . ولكن في

وسعك ان تلتقط بعض حبات التوت البري ..

ووضع روبرت يده على كتفها العريض وقال .. وانا اهتم بك ايضا ، اهتـم بـك كثيرا ..

وقالت وقد تلعثمت من الاضطراب ـ انك دون جوان .. نقد بدات تهتم بكل انسان .. وها هو اوغسـطين قادم .

ودلف روبرت الى الكهف ، وخطا نحو ماريا .. كانت ترقبه وهو يتجه اليها ، وقد اشرقت عيناها ، وامتدت حمرة الخجل الى وجنتيها وعنقها. وقال .. هالو .. ايتها الارنبة الصغيرة .. ثم قبلها في فمها .. وامسكت به تضمه الى صدرها بقوة وقالت .. هالو ، آه ، هالو .

وهب فيرناندو ، من المكان الذي كان يجلس اليه ، بجوار المائدة ، يدخن لفافته ، فهز راسه ، وخرج ، بعد ان تناول غدارته من المكان الذي تركها فيه .. وقال الرجل الى بيلار .. لقد ارتفعت الرسميات ، وانا لا احب ذلك .. عليك ان تهتمي بالفتاة .

ـ انني اهتم بها . وهذا الرفيق حبيبها .

ـ آه ، ما داما خطيبين ، فالوضع طبيعي اذن .

ـ كم يسرني ذلـك .

ـ وانا مسرور ايضا .. سلام عليك يا بيلار .

ـ الـى اين تمضي ؟

ـ الى المركز العلوي ، لاحل محل بريميتفو .

ـ وقال اوغسـطين ، وهو يقترب .. اين تذهب بحق الجحيم ؟

ـ الـى واجبي ..

ـ الى واجبك ؟ لعنة الله على واجبك .. ثم التفت الى المراة قائلا .. واين تلك القذارة التي يتحتم علي ان احرسها ؟

ـ انها في الكهف ـ في كيسين ، وقد مللت من قذارتك في تعبيرك .

ـ وقال اوغسطين ـ انني اسفه مللك .

ـ اذن اذهب ، واعمل بنفسك ما تشاء .

ـ بأمك ..

ـ لم تكن لك ام .. وهنا وصل الشاب حده .. وقال اوغسطين وماذا يفعلان في الكهف الآن ؟

ـ لا شيء يا رجل ، ثم لا تنس اننا في الربيع يا حيوان .

ـ حيوان ! حيوان ، وانت ! انك ابنة سيدة العاهرات .

وضربته بيلار على كتفه ثم قالت وهي تضحك .. انك تفتقر الى التغيير في سبابك ومع ذلك فانت قوي ، هل رايت الطائرات ؟

ـ لعنة الله عليها وعلى آلاتها .

ـ حسنا ، هذا شيء جديد ، جديد حقا ؛ ولكنه صعب على التحقيق .

ـ قد يصعب في الاعالي ، ولكن اليس من الافضل ان نهزل .

ـ اجل من الخير ان نهزل ، وانت رجل طيب ، وهزلك من النوع القوي .

ـ اسمعي يا بيلار ، لا شك ان شيئا في طريق الاعداد ، اليس كذلك ؟

ـ وكيف ترى انت ؟

ـ لا شيء اسوأ مما اراه ، لقد كانت طائرات كثر يا امراة ، طائرات اكثر !

ـ وقد خفت منها كالآخرين ؟

ـ وماذا يخيل اليك انهم يعدون ؟

ـ انهم من مجيء هذا الشا بالقادم لموضوع الجسر ان الجمهورية تعد لهجوم وانهم من هذه الطائرات ، ان الفاشيين يستعدون لمواجهته ، ولكن لماذا يظهرون طائراتهم ؟

ـ في هذه الحرب ، يقع الكثير من الحماقات ، اجل حماقات لا حد لها ولا حصر .

ـ بالطبع ، والا لما كنا هنا .

ـ اجل فنحن نسبح فى هذه الحماقات منذ عام ، ولكن بابلو رجل يفهم كثيرا ، وهو ماكر كثير الدهاء ..

ـ ماذا يحملك على هذا القول ؟

ـ مجرد قول .

ـ ولكن عليك ان تفهم ، فقد مضى وقت الانقاذ عن طريق الدهاء ، وقد فقد الان ميزة الفهم .

ـ آه فهمت ، اعرف ان علينا ان نمشي ، ولما كان يتحتم علينا ان نفوز لنعيش الى ما لا نهاية ، فمن الضروري ان تنسف الجسور ، ولكن بابلو ، على الرغم من جبنه الآن رجل شديد الصرامة .

ـ لا تنس انني صارمة .

ـ لا يا بيلار ، انت لست صارمة ، انك شجاعة ، وانت شديدة الولاء ، وقوية العزم والتصميم وحاضرة البديهة ، ولكنك لست صارمة .

ـ او تصدق ذلك ؟

ـ اجل يا بيلار .

ـ ان الشاب صارم ، انه صارم وبارد . بارد العقل .

ـ اجل ، لا ريب فى انه يحسن عمله ، والا لما عهدوا اليه بمثل هذه المهام ؛ ولكنه ليس بالانسان الصارم . اما بابلو فانسان صارم .

ولكنه غدا ولا خير فيه بسبب خوفه وعزوفه عن العمل .

ـ ومع ذلك فهو صارم .

ـ وماذا تقول ؟

ـ لا شيء ، احاول ان ادرس الموضوع بادراك . فنحن في حاجة الى الادراك الآن .

فبعد ان ننتهي من الجسر ، يتحتم علينا ان نذهب فورا ، ويجب ان نستعد جميعا وان نقرر منذ الآن الى اين سنمضي .

ـ طبعـــا .

ولهذا .. فبابلو مهم .. اذ يجب ان يتم العمل بصرامة .

ـ ولكنني لا اثـــق ببابلو .

ـ في وسعك ان تثقي به في هذا الصدد .

ـ لا ، انك لا تدري الى اي حد قد تحطم .

ـ ولكنه صارم . واذا لم ننفذ الأمر بصرامة ، ضعنا .

ـ سأفكر في الامر . معي يوم كامل للتفكير .

ـ الشاب للجسر . هذا واجبه . وهو يدركه ، انظري كيف رتب الآخر موضـــوع القطـــار .

ـ اجل . لقد كان هو الذي اعد كل شيء .

ـ وانت للحيوية والتصميم . وبابلو للحركة والتراجع . ارغميه على دراســـة الموضـــوع .

ـ انك رجـــل ذكـــي .

ـ انني ذكي ، ولكن هذا الموضوع لبابلو .

ـ بكل ما هو عليه من خوف ؟ ومن عيوب ؟

ـ اجل بخوفه وعيوبه .

ـ وما رايك في موضوع الجسر ؟

ـ لا ريب في انه ضروري . وهذا ما ادركه . يجب ان ننفذ الأمرين معا . يجب ان نترك المكان ، وان نفوز . والجسور ضرورة للفوز .

ـ واذا كان بابلو صارما كما تقول ، فلم لا يرى ذلك ؟

ـ انه يريد ان يكيف الأمور وفقا لهواه ، ونقاط ضعفه . انه يريد ان

يظل في دوامة ضعفه ولكن المد يعلو في النهر . واذا ما ارغم على تبدل وضعه ، فسيكون حازما في هذا التبدل .

ـ من الخير ان الشاب لم يقتله .

ـ اجل ، لقد اراد مني الغجري ان اقتله ليلة امس . ان الغجري حيوان

ـ وانت حيوان ايضا ولكنك من النوع الذكي .

ـ كلانا ذكي ، ولكن بابلو ، هو الموهبة الفائقة .

ـ ومع ذلك فمن الصعب الافادة من مواهبه . فانت لا تدري الى اي حد قد تحطم .

ـ اجل . ولكنه ما زال موهبة خارقة . اسمعي يا بيلار . ان ما تحتاجين اليه لتعلني الحرب ، هو مجرد الذكاء . ولكن لكي تفوزي في الحرب ، فانت في حاجة الى المواهب ، والمعدات .

ـ سافكر في الموضوع .. على كل حال ، يجب ان نمضي الآن . فقد تاخرنا .

ورفعت صوتها وهي تهتف .. يا انكليزي .. هلم بنا .. دعنا نمضي .

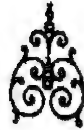

١٠

اتجهت بيلار الى روبرت تقول .. دعنا نستريح . اجلسي هنا يا ماريا، ولنسترح قليـلا .

فقال روبرت ـ ولكن علينا ان نواصل السير ، وسنستريح بعد الوصول، وبعـد ان ارى الرجل .

ـ ستراه . فليس ثمة من داع للسرعة . اجلسي يا ماريا .

ـ هلمي ، وسنستريح عند القمة .

ـ ولكنني سأستريح الآن . . وجلست المراة عند الجدول ، وعلى مقربة منها جلست الفتاة وقد انعكست اشعة الشمس على شعرها . وظـل روبرت واقفا وهو يتطلع عبر المرج الممتد على الجبل ، الى الجدول المنساب فيه . كان نبات الخليج ينمو ، حيث وقف الرجل . وكانت صخـور الجرانيت تعلو ، فوق الجانب الادنى من المرج ، ووراءها يقف صف طويل مـن اشجار الصنوبر . . وقال روبرت متسائلا . . وكـم يبعد ايـل سوردو عنـا ؟

فردت المراة ـ ليس بعيدا ، سنعبر هذه الارض المنبسطة ، ثم نهبط الى الوادي الثاني ، لنعود فنرتفع الى الاشجار التي تقوم في منبع النهير .

اجلس الآن وانس متاعبـك .

ــ اريد ان اراه وافرغ من الموضوع معه .

ــ ولكنني اريد أن اغسل قدمي .. ونزعت حذاءها وجوربها ووضعت قدمها في الماء ثم قالت .. يالله ، ما ابرد الماء .

ــ كان علينا ان نمتطي الجياد .

ــ لا ، هذا خير لي . فهذا ما كنت افتقده .. ماذا دهاك ؟

ــ لا شيء ، ولكنني على عجلة من امري ؟

ــ اذن هدىء من روعك . فمعنا وقت طويل . يا له من يوم رائع ، وكم يلذ لي ان لا اكون بين اشجار الصنوبر . وقد لا تدرك ، كم يمل الانسان احيانا من الصنوبر . او لم تملي من أشجار الصنوبر يا غابا ؟

ــ انا احبها . اجابت الفتاة .

ــ ماذا بوسعك ان تحبي فيها ؟

ــ احب اريجها ، واحب وخز الاقدام تحتها . واحب الرياح وهي تعصف باعاليها فتترنح متمايلة الواحدة منها على الإخرى

ــ وهل تحبين شيئا . انك عطية لكل انسان ، لو كنتي تجيدين الطهي بعض الشيء . لكن اشجار الصنوبر ، تخلق غابة من الملل والضجر . انك لم تعرفي فى حياتك غابة من الزان او البلوط او الكستناء . تلك هـــي الغابات . ففيها تختلف كل شجرة عن رفيقتها . وفيها يتوافر الجمال . وتظهر الشخصية . اما غابة الصنوبر ، فلا شيء فيها الا الملل .

ماذا تقول يـا انكليزي ؟

ــ احـب الصنوبر ايضا .

ــ انكما تحبأنه معا . وانا احب الصنوبر ايضا ، ولكنني مللت رفقته . وقد مللت الجبال ايضا . فليس فيها الا اتجاهان . اما الصعود وامـــا

الهبوط ،والاخير ، لا يحملك الا الى الطرق ، والمدن التي تكتظ بالفاشيين .

ـ وهل تذهبين احيانا الى سيفوفيا ؟

ـ ابهذا الوجه اذهب ؟ انه وجه يعرفه الجميع . أو تحبين ان تصبحي قبيحة ايتها الجميلة ؟ قالت لماريا .

ـ انـك لست بالقبيحة .

ـ مخاتلة ! انا لست بالقبيحة !! لقد ولدت قبيحة ، وعشت حياتي بطولها قبيحة الشكل . وانت ايها الانكليزي ، لا تعرف شيئا عن النساء . أو تدري شعور المراة القبيحة ؟ او تدري كيف تشعر المراة التي عاشت حياتها قبيحة الشكل ، مع شعورها في ذاتها انها جميلة ؟ انه شعور نادر . ووضعت المراة قدمها الاخرى في الماء وقالت .. يا الله ما ابردها . انظر الى هذا الطائر .. انه لا يصلح لشيء .. انه لا يصلح لا للغناء ولا للأكل ، وانما ليهز ذيله ذاهبا آيبا .. اعطني سيكارة يا انكليزي .. وتناولت منه لفافة تبغ واشعلتها بزناد أخرجته من جيبها ثم اخذت تنفخ دخان لفافتها وهي تتطلع الى روبرت وماريا .. وعادت تقول .. يا للحياة ما اغربها . كان بوسعي أن أكون رجلا ممتازا ، ولكنني امراة ، امراة في كل شيء . اجمع بين الانوثة والقبح . ومع ذلك ، فقد احبني عدد كبير من الرجال ، واحببتهم . انه لأمر غريب . اسمع يا انكليزي .. انه لأمر في منتهى الروعة . انظر الي ، على الرغم من قبحي .. امعن النظر يا انكليزي .

ـ انـك لست بالقبيحة .

ـ لا تكذبني .. اوه .. وضحكت ضحكة عالية ثم مضت تقول .. هل بدأت تفعل فعلها فيك ؟ لا ، انها نكتة ، لا انظر الى قبحي ، ومع ذلك فهناك شعور يعمي الانسان في داخله احيانا ، وهو يمارس الحب ، وبهذا الشعور يعمي الانسان نفسه ويعمي رفيقه ، ثم لا يلبث ان يحل يوم ، ودون اي سبب من الاسباب ، يرى القبح في رفيقه كما هو ، وتنفتح عيناه ، وسرعان

ما تنتقل العدوى الى الانسان نفسه ، فيرى قبحه ويعترف به ، فيخسر رفيقه كما يضيع شعوره ، افهمت يا جميلة ..

ـ لا لم افهم ، لانك لست بالقبيحة . اجابت ماريا

ـ حاولي ان تستعملي عقلك لا قلبك ، واصغي الي ، انني احدثك عن اشياء مهمة جدا ، او لا تلذ لك يا انكليزي ؟

ـ بلى ، ولكن يجب أن نذهب .

ـ في وسعك ان تذهب ، اما انا فمرتاحة هنا .

ومضت تتجه بحديثها الى روبرت ، وكأنها استاذ يتحدث الى طلابه .. وبعد مدة ، عندما تغدين قبيحة ، كما تغدو النساء .. وآنذاك يبدأ هذا الشعور ، الشعور الاحمق الغبي ، بأنك جميلة ، ينمو في نفسك بصورة تدريجية .. انه ينمو .. كما تنمو الكرنب .. ويغدو هذا الشعور ناميا وقويا . فيراك رجل آخر ، ويعتقد انك جميلة ، وتعود القصة تتكرر من جديد ، واعتقد انني قد جاوزت هذه المرحلة ، ولكنها قد تأتي من جديد ، ومن حظك انك لست بالقبيحة فقالت ماريا ، ولكني قبيحة .

ـ اسأليه ، ولا تضعي قدميك في الماء ، لئلا تجمدا .

ـ اذا قال روبرتو ان علينا ان نمضي ، فيجب ان نمضي .

ـ اسمعي يا فتاة ، ان اهتمامي لا يقل عن اهتمام روبرتو ، ومع ذلك ، فانا اقول ، اننا في وضع مريح هنا قرب الجدول ، وان معنا وقتا طويلا .. ثم اني احب ان اتحدث ، فالحديث هو المظهر الوحيد للمدنية الذي ظل لنا والا فما الذي سنشغل انفسنا به ؟ او لا تثير اهتمامك يا انكليزي ؟

ـ ان حديثك ممتع ، ولكن ثمة اموراً اهم في نظري من الحديث عن الجمال ، والقبح .

ـ اذن دعنا نتحدث عن الامور التي تهمك .

ـ اين كنت عندما بدأت الحركة ؟

ـ في بلدتي .

ـ افيـلا ؟

ـ افيـلا ؟

ـ قال بابلو انه مـن افيلا .

ـ انه يكذب ، لقد اراد ان يزعم مدينة كبيرة مسقطا لراسه .. هذه هي مدينته .. واسمت مدينة المدن .

ـ ومـاذا حدث ؟

ـ لقد حدث الكثير ، وكان كل ما حدث فى منتهى القبح ، حتى الاشياء المجيـدة .

ـ حدثيني بهـا !

ـ انها وحشية ، لا اريد ان اتحدث بها امام الفتاة .

ـ قولي ، حتى ولو كان لايليق بها سماعها .

وقالت ماريا ، وقد وضعت يدها ، على يد روبرت .. فى وسعي القول ان ليس ثمة من شيء ، لا استطيع سماعه .

ـ ليس الموضوع متعلقا بما اذا كنت تستطيعين السماع او لا ، وانما يتعلق بما اذا كنت اريد ان اتحدث به امامك .. واسبب لك احلاما مزعجة

ـ لن احلم احلاما مزعجة من مجرد الاستماع الى قصة ، وهل تظنين بعد كل ما حدث لنا ، انني ساحلم احلاما مزعجة من مجرد الاستماع الى قصة؟

ـ قد تسبب للانكليزي احلاما مزعجة ؟

ـ جربـي !

ـ لا يا انكليزي ، انا لا امزح ، هل رايت بداية الحركة فى اية بلدة صغيرة؟

ـ لا .

ـ اذن فانت لم تر شيئا . لقد رايت ذلك الحطام الذي اسمه بابلو الآن ،

وكان عليك ان ترى بابلو آنذاك .

ـ قولي .

ـ لا ، لا اريـد .

ـ ارجـو قولي :

ـ حسنا اذن ساقول . ساحدثك بالقصة كما وقعت . وانت يا صبية ، اذا وصلنا بها الى نقطة تزعجك ، فقولي .

ـ لن اصغي اليها ، اذا كانت تزعجني . انها لن تكون اسوأ من اشياء كثيـــرة .

ـ اعتقد انها اسوا ، اعطني لفافة ثانية يا انكليزي !

واضطجعت الفتاة على الحشائش قرب الجدول ، بينما استلقى روبرت وقد اسند كتفيه الى الارض ، ووضع راسه ، في كومة من الاعشاب . ومد يده فأمسك بيد ماريا ، واخذ يفرك اليدين على الحشائش . . .

وبدات بيلار قصتها تقول . . . كان الوقت مبكرا فى ساعات الصباح ، عندما استسلم رجال الحرس فى الثكنة .

وقال روبرت متسائلا . . . اذن هاجمتم الثكنة ؟

ـ اجل ، طوقها بابلو فى الظلام ، وقطع اسلاكها الهاتفية ، ووضـــع متفجرات تحت احد الاسوار ، ثم دعا رجال الحرس الى الاستسلام . ولكنهم رفضوا . وعندما طلع الفجر ، نسف السور ، ودار قتال عنيف قتل فيه رجلان من الحرس وجرح اربعة ، واستسلم اربعة .

وكنا جميعا ، قد اخذنا مواقعنا على الاسطحة . وعلى الارض ، وقرب الاسوار ، ولم يكن النقع الذي اثاره الانفجار ، قد هبط بعد ، وكنا نطلق النار على الجانب المتهدم من البناء ، والدخان المتصاعد ، يحول بيننا وبين الرؤية ، وفجاة سمعنا صوتا من الداخل ، ثم خروج الرجال الاربعة وقد

رفعوا ايديهم . لقد سقط جانب من السقف ، وانهار السور وخـــرج الرجال ليستسلموا .

ـ وهل ظل فى الداخل غيرهم ؟

ـ اجل ، كان هناك الجرحى ... وهتف بابلو باربعة من رفاقه ... احرسوا هؤلاء . ثم اصدر امره لرجال الحرس بالوقوف الى الجدار . فوقفوا ، قذرين يلفهم الغبار والدخان بينما وقف الرجال الاربعة يتولون حراستهم . ودلف بابلو وعدد من رجاله الى الداخل ، ليصفي امر الجرحى وعندما فرغ من مهمته ، ولم نعد نسمع انينهم او صراخهم ، أو صوت العيارات النارية تنطلق من الداخل ، خرج بابلو ورفاقه ، وكان قد وضع بندقيته على ظهره ، وحمل فى يده مسدسا من طراز موزر . وقال لـــي بابلو ... اسمعي يا بيلار ، لقد كان هذا المسدس فى يد الضابط الذي انتحر . انني لا اعرف استعمال المسدسات ... والتفت الى احد رجاله وقال ... ارني كيف تستعمله ... لا لا ترني ولكن قل لي .

« وكان الحراس الاربعة لا يزالون يقفون في اماكنهم ووجههم الى السور، ولم ينبسوا ببنت شفة ، الى ان هدا اطلاق النار فى الداخل . كانوا جميعا طوال القامة ، من الطراز المعروف فى رجال الحرس ... وقال بابلو لأقرب واحد منهم .. انت قل لي كيف يستعمل المسدس . وقال الرجل بصوت جاف ... انزل الصمام ، ثم اسحب الزناد واتركه فجاة يندفع الـــى الامام . وقال بابلو متسائلا ... واين هو الزناد ؟.. فقال الرجل انـه المكبس الواقع فى الاسفل ... وسحب بابلو الزناد فلم ينطلق فقال ... انه اخرس ... انك تكذبني . فقال الرجل : اسحبه بقوة الى الخلف ثم اطلقه ... فانطلق ... وكان الرجال الاربعة يرقبون صامتين ، ثم قال احدهم ... وماذا تنوي ان تعمل بنا ؟ فرد بابلو ساقتلكم ... ـ متى ؟ ـ الآن . ـ واين ؟ ـ هنا . هنا . الان . الديك اعتراض ؟ ـ لا ولكنه امر قبيح ... ـ وانت رجل قبيح . انت من قاتلي الفلاحين ... انت يا من تقتل امك ... ـ ولكنني لم اقتل احدا ، ثم ... لا تتحدث عن امي ...

ـ والان أرني كيف تموت ، يا من كنت تقتل دائما . . . ـ لا حاجة بك الى اهانتنا ، فنحن نعرف كيف نموت . ـ والان اركعوا أمام الجدار . . . وتطلع الحرس الى بعضهم البعض فهتف بهم بابلو . . . اركعـــوا . . . اركعوا . . . وقال احد الحراس لرفيقه وكان عريفا . . . ما رايك يا باكو . . فقال هذا . . . لا بأس من ان نركع ، فالامر لا يهم . فرد احدهم . . . اجل هذا اقرب الى الارض . . . فقال الاخر . . . اذن فلنركع . . . وركعوا جميعا ، ووقف بابلو وراءهم ، واخذ يطلق النار ، عليهم واحدا واحدا . . . بعد ان يضع المسدس في مؤخرة راسه . . . آه ما زلت اذكر المسدس ، وكيف كان ينطلق فتهبط راس الرجل آه لقد ضرب احدهم راسه بالجدار ثم هوى . . . وعاد الينا بابلو ، والمسدس في يده . ومد يده بالمسدس الي قائلا . . . امسكي لي هذا يا بيلار .

لقد ربحنا المعركة ، وسيطرنا على البلدة ، وكان النهار لا يزال في مطلعه ، ولم يكن احدنا قد تناول اي شيء من الطعام او الشراب . . كان الغبار يعلونا ، ونقع الانفجارات يحيط بنا ووقفت أحمل المسدس ، وانا اتطلع الى الاربعة القتلى ، وقد ابتلت ملابسهم بدمائهم . واشرقت الشمس من وراء الجبال البعيدة ، فالقت باضوائها على الطريق التي تقف عليها . . وكان الى جانبي فلاح ، تطلع الى القتلى ثم الى الشمس ، وعاد ببصره الي يقول . . . يا لها من بداية . . وقلت للجميع ، هلموا بنا نشرب القهوة . . فقال الرجل . . حسنا يا بيلار حسنا . . ومضينا جميعنا الى الميدان . . وكان هؤلاء الاربعة آخر من قتل بالرصاص في القرية .

وقال روبرت متسائلا . . وماذا حل بالآخرين ؟ أو لم يكن في القرية عدد آخـر مـن الفاشيين .

ـ ماذا ، الم يكن هناك فاشيون ؟ كان اكثر من عشرين ، ولكنهم لـم يقتلوا بالرصاص .

ـ وماذا حل بهم ؟

ـ امر بابلو بضربهم حتى الموت بالمدقات ثم القى بجثثهم الى النهر .

ـ العشرون ؟

ـ ساخبرك . ليست القصة على هذا الشكل من البساطة . انني لأرجو ان لا ارى منظر الدق حتى الموت ثانية ثم القذف من الصخور الى النهر .. تقوم البلدة على ضفة عالية فوق النهر . وهناك ميدان ، يضم نافورة ماء، وبعض المقاعد التي تظللها اشجار سامقة . وتطل شرفات البيوت على الميدان . وهناك ستة شوارع تصب في هذا الميدان ، كما ان ثمة اروقة مسقوفة ، تحيط بالميدان . يستطيع الانسان أن يفيء الى ظلها من وهج الشمس . ويمتد احد الشوارع الى الصخرة العالية التي تطل على النهر ، والتي يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدم .

« وكان بابلو قد اعد لكل شيء عدته ، فاغلق مداخل الشوارع المؤدية الى الميدان قبل ان يبدأ هجومه على الثكنة . ثم حشد جميع الفاشيين فى قاعة المدينة وهو أكبر بناء فى البلدة .

ـ ولكن هل استسلموا دون قتال ؟

ـ قبض عليهم بابلو فى الليل قبل ان يهاجم الثكنة ، وان كان قد طوقها ، وقد تم اعتقالهم جميعا فى بيوتهم ، ساعة بدء الهجوم .. كانت خطة في منتهى الذكاء ، وبابلو يجيد التنظيم ، والا فانه سيتعرض لهجمات على اجنحته وفي مؤخرته ، عندما يهاجم الثكنة ، وبابلو انسان ذكي ، ولكنه متوحش ، فقد اجاد الخطة التي وضعها لاحتلال القرية ، وبعد ان نجح الهجوم ، واستسلم رجال الحرس الاربعة ، فقتلهم ، وبعد ان تناولنا القهوة في احد المقاهي ، انتقلنا الى الميدان .. ثم امر بابلو احد رجال الدين بأن يسمع اعترافات الفاشيين ، ويقوم لهم بواجباتهم المقدسة الاخيرة .

وكان حشد كبير من الناس ، قد اجتمع فى الخارج ، وسمعنا صراخا شديدا وسبابا ولكن معظم الناس ، قابلوا الحادث بشعور هو مزيج من الجدية والاحترام ، اما الذين بدأوا يهزلون ، فهم أولئك الذين ثملوا بعد

النصر الذي حققناه في احتلال الثكنة ، ونظم بابلو الناس في صفين وكأنهم يشهدون مباراة في الملاكمة ، او نهاية سباق للدراجات .

« وكان الناس مسلحين بمدقات الحنطة ، وكأنهم على وشك ان يعملوا في حنطتهم ، ومع ان هذه المدقات لم تتوفر للجميع ، الا ان عددا كبيرا منها كان قد حشد في ايدي الناس ، بعد ان حملوها ، من حانوت يملكه فاشي يبيع الادوات الزراعية ، وكان الآخرون يحملـون هراوات ومساحـي ومحاريث ومذاري ، وغيرها من الادوات الزراعية».

« وهدأ المكان، وساد صمت وكان على رؤوس الجميع الطير ، واخذ النهار يصفو ، بينما امتدت السحب في السماء ، كان في وسعك ان تسمع صوت خرير الماء ، وهو يسيل من فم الاسد الحجري في النافورة».

« وكان الصراخ الوحيد منبعثا من المكان الذي يقوم فيه رجل الديـن بطقوسه مع الفاشيين ، اذ احتشد عدد من السكارى على النوافذ يسبون الفاشيين ويلعنونهم .. أما الرجال في الصفوف فكانوا واقفين بهـدوء ينتظرون اداء الواجب .. وسمعت احدهم يقول .. او يكون هناك نساء ؟

فرد آخر بقوله .. كم اتمنى ان لا يكون بينهم نساء ، وقال ثالث .. اسمعوا ها هي زوجة بابلو ، اسمعي يا بيلار ، أبين الفاشيين نساء .. فقلت له لا ، يا جواكان ، اننا لا نقتل النساء ، فلماذا نقتل نساءهم ؟ فقال شكرا لله ، ولكن متى سنبدأ .. قلت عندما ينتهي الكاهن ، وقال .. والكاهن ؟ قلت لا ادري .. وقال لم اقتل في حياتي رجلا .. واذا بفلاح يقف الى جواره يقول .. اذن ستتعلم ، ولكنني لا اعتقد ان ضربة مـن هذه تقتل رجلا .. فرد زميله .. وهذا هو الجمال في الطريقة .. يجب ان تكون ثمة عدة ضربات ، وقال ثالث لقد احتلوا فالادوليد وافيلا .. لقد سمعت هذا قبل ان آتي الى هنا .. فرد رفيقه ، ولكنهم لن يحتلوا هذه البلدة ، فهي لنا ، وقد سبقناهم ، وبابلو ليس من النوع الذي ينتظر .. وقال الاول .. ان بابلو كفء وقدير ، ولكنه كان انانيا في انفراده بقتل

الاربعة .. الا تعتقدين ذلك يا بيلار .. قلت .. أجل .. ولكنكم ستسهمون جميعا الآن .. قال اجل . وقد رتب كل شيء ترتيبا رائعا . ولكن لم لا نسمع شيئا عن الحركة .. فقلت .. قطع بابلو جميع الخطوط الهاتفية قبل أن يبدأ الهجوم ، ولما تصلح بعد .. وقال رجل متسائلا ، ولكن لم يا بيلار ، لجأ الى هذه الطريقة ؟ قلت .. لنوفر عيارات نارية ، وليشترك كل فرد في المسؤولية ، فقال وهو يبكي ... اذن لم نبدأ ، يجب ان نبدأ ، قلت ولم تبكي يا جوالين ؟ قال .. لانها المرة الاولى التي اقتل فيها انسانا.

« واذا كنت لم تر يوما ثورة في بلدة صغيرة ، حيث يعرف كل انسان ، جميع من في البلدة ، فانك لم تر شيئا في حياتك ، وكان معظم الرجـال الواقفين في الصفين يرتدون في ذلك اليوم عين الملابس التي يرتدونها عند العمل في الحقول ، لا سيما وانهم دلفوا الى المدينة على عجلة من امرهم ، بينما ارتدى اخرون الملابس التي يتزينون بها في ايام الاحاد او الاعياد ، ظنا منهم ، بأن هذا ما يجب ان يلبسوه في اول يوم للثورة ، وهكذا وقف الجميع ينتظرون بدء الحفلة .

« وهنا أزت الريح وتعالى الغبار في الميدان ، واخذ الناس يتصايحون .. الماء . الماء . وجاء الرجل المسؤول ، عن سقاية حديقة الميدان عادة يحمل خرطومه وبدأ يوجهه الى الميدان ، وتراجعت الصفوف بعض الشيء لتمكن الرجل من اداء عمله ، وعندما انتهى من عمله ، وانتشرت الرطوبة في المكان عادت الصفوف الى مكانها .. واخذ الناس يهتفون .. « متى سنتسلم الفاشي الاول ؟ متى سيصل اول فاشي .. ورد بابلو بصوت جهوري .. حالا ، سيصل اليكم فورا . وساله احدهم .. وما سبب التأخير ؟ فرد بابلو .. انهم منشغلون بالاعتراف بخطاياهم .. وقال احد الرجال .. لا ريب في انهم عشرون ! فقال ثان .. لا ! أكثر . وعلق ثالـث بقوله .. وخطايا العشرين كثيرة . فرد عليه جاره .. اجل ولكنها حيلة لكسب الوقت ، اذ لا يستطيع الانسان في ظروف طارئة كبيرة ان يذكر الا الخطايا

الكبيرة .. وقال الاول .. اذن اصبر . فهناك خطايا كبيرة كثيرة ،ارتكبها هؤلاء المشرون . ورد عليه زميله .. انني صابر ، ولكن من الخير لهم ولنا ، أن ننتهي من هذا الامر بسرعة . فنحن في تموز ولدينا عمل جم . لقد حصدنا ولكننا لم ندرس ما حصدناه بعد . ولم يحن زمن المعارض والاحتفالات . وقال زميله .. ولكنه عيد واحتفال .. انه عيد الحرية ، فمنذ اليوم ، وبعد ان نزيل هؤلاء من عالم الوجود ، ستغدو المدينة والارض كلها لنا .. واجابه رفيقه .. اجل سندرس الفاشيين اليوم ، وسنحصل من درسهم على ثمرة حرية الشعب . وقال ثالث .. علينا ان نحسن ادارة شؤوننا لنستحق الحرية .. اسمعي يا بيلار .. متى سنجتمع ، لنضع نظاما للبلدة .. فقلت فورا ، بعد ان ننتهي من هذا العمل .

« وكنت ارتدي احدى قبعات رجال الحرس الجلدية هزءا وسخرية ، وكنت احمل المسدس في يميني .. وقال احد الرجال .. اسمعي يا بيلار، يا بنيتي ، ان ذوقك سيء في ارتداء هذه القبعة ، فقد انتهينا من الحرس. فقلت اذن ساخلعها ، وخلعتها بالفعل ، فقال ، اعطنيها ، يجب ان نتخلص منها .

« وتناولها الرجل ، وكنا نقف في نهاية الصف على مقربة من الجرن ، فطرح بها في الهواء ، في اتجاه النهر . ورأيناها ، تختفي عن نواظرنا شيئا فشيئا . وتطلعت الى الميدان ، فرايت الناس يحتلون النوافذ والشرفات والاسطحة ، بالاضافة الى ذلك الحشد الكبير الواقف في الصف .

« وسرعان ما سمعت احدهم يهتف قائلا ... ها هو الفاشي الاول... كان الدون بنيتو غارسيا ، رئيس البلدية ، وقد خرج من الدار عاري الراس ، واخذ يسير ببطء وهدوء ، بين الصفين ، والرجال يحملون المدقات دون ان يعلموا شيئا . ومر برجلين ثم باربعة وثمانية وعشرة ، ولم يحدث شيء ... كان يسير بين الصفين وقد رفع راسه ، وشحب وجهه البدين ، وعيناه تنظران الى الامام ، وهو يخطو بثبات عجيب .

« وارتفع صوت من احدى الشرفات يقول ... ماذا دهاكم ايها الجبناء!

ومع ذلك فقد ظل الدون بنيتو يخطو بين الصفين ، دون ان يحدث له شيء. ورايت رجلا يبعد عني بثلاثة رجال ، يعض شفته السفلى وقد امسك بمدقته في يده ، يتطلع الى وجه الدون بنيتو ، ومع ذلك فلم يحدث شيء ... ووصل الدون امام الرجل ، فرفع مدقته وضربه بها في راسه وهو يقول : هذه لك ايها الوغد ، ثم عاد فضربه بها من جديد . وبدأ الرجال ينهالون عليه بمدقاتهم ، الى ان سقط ارضا ، ثم جاء ذلك الرجل ، يعاونه آخرون فحملوه الى ان وصلوا به الى الجرف وقذفوا به في النهر ...

ووقف الرجل يتطلع اليه وهو يهوي في الهواء ... ويقول الوغد ! الوغد . لقد كان هذا الرجل يعمل اجيرا في ارض الدون بنيتو ، ولم يكن في يوم ما على وفاق معه. وكان هناك خلاف على قطعة ارض قرب النهر كان بينتو قد اغتصبها من هذا الرجل واعطاها لغيره . وبدات الكراهية منذ ذلك اليوم . ولم يعد الرجل الى الصف ، وانما ظل جالسا قرب الجرف يتطلع الى المكان الذي هوى منه الدون بنيتو .

« ولم يخرج ثان بعد الدون بنيتو . وخيم الصمت على الميدان في انتظار الرجل الجديد ... وارتفع صوت مخمور يقول ... اطلقوا الثوار ، فرد عليه آخر يقف على النافذة متطلعا الى داخل القاعة . انهم لا يتحركون . انهم يصلون . وانطلق الصوت المخمور ثانية يقول ، جروهم . ادفعوا بهم الى الخارج . لقد انتهى وقت الصلاة .

« ثم رايت رجلا يخرج كان الدون فيدريكو غونزاليس ، صاحب المطحنة ومخزن الاطعمة ، واحد كبار الفاشيين . كان طويلا ونحيل البنية ، اصلع الراس ، تغطي صلعته شميرات تمتد من هذا الجانب الى ذاك ، من راسه. كان حافي القدمين ، في ملابس النوم ، تماما كما اخذ من فراشه عندما اعتقل ، وكان بابلو يسير وراءه ، وقد وضع فوهة بندقيته في خاصرته ، الى ان وصل الى الصف ، وتركه بابلو هناك وعاد الى القاعة ، فوقف الرجل في مكانه لا يستطيع حراكا ، وهو يتطلع الى السماء ، وقد رفع

يديه اليها وكانه يحاول التعلق بها . .

« وهتف أحدهم ، انه عاجز عن السير . . فقال اخر ، ماذا دهاك يا دون فيدريكو ، لم لا تسير ؟ ولكن هذا جمد في مكانه ، وقد رفع يديه الى السماء وصاح به بابلو ، وقد توقف عند السلم . . هيا ، تحرك ، ولكن فيدريكو جامد لا يتحرك ، وضربه احدهم بمدقته في خاصرته ، فوثب من مكانه ، ولكنه لم يتحرك . . كانت عيناه لا تزالان تتطلعان الى السماء .

« وسمعت الفلاح الذي يقف الى جانبي يقول : هذا فخر ، فليس لي شيء ضد هذا الرجل ، وعلينا ان نوقف هذا المنظر . . وتركني ومضى حتى وصل الى فيدريكو ، وقال « اسمح لي » ثم ضربه ضربة هائلة بهراوته على راسه وانزل فيدريكو يديه ووضعهما فوق راسه واخذ يركض والضربات تنهال عليه من كل جانب على ظهره وكتفيه حتى سقط اخيرا ، ثم رفعه الواقفون في نهاية الصف وقذفوا به من الجرف الى النهر . . انه لم ينطق ببنت شفة ، ولكن قدميه خانتاه .

« ورايت بعد الدون فيدريكو ، ان اغادر مكاني ، فذهبت الى الرواق حيث دفعت بمخمورين من مكانهما ، واخذت اتطلع من النافذة ، كانوا يركعون جميعا في نصف دائرة في القاعة الكبرى يصلون ، وقد ركع القس معهم يصلي ايضا ، وكان بابلو ، يقف منهم على مقربة ، ومعه ذو الاصابع الاربعة ، ورجلان اخران ، وتطلع بابلو الى القس وقال : « ولمن الدور الآن » ولكن القس مضى في صلاته دون ان يجيب .

« وقال بابلو للقس بصوته الأجش . . اسمع يا هذا ، من دوره الآن ؟ من على استعداد ؟ . . ولكن القس لا يجيب ، وكانه لم يسمع ما قاله بابلو ، ورايت الغضب يبدو في محياه . . وقال الدون ريكاردو مونتالفو ، من اصحاب الأملاك ، الى بابلو ، وقد رفع راسه ، دعونا نذهب سوية . . . فرد بابلو . . . لا ، ستذهبون واحدا اثر اخر .

« وقال الدون ريكاردو .. اذن سأذهب انا .. وباركه القس ، ثم نهض هذا فقبل الصليب الذي قدمه القس .. ثم عاد يقول .. هيا ايها الوغد .

دعنا نذهب . كان ريكاردو رجلا قصير القامة اشيب الشعر ، ذا عنق ضخم .. وقال لرفاقه الوداع ، لا تحزنوا ، فليس في الموت من ضير .

وكل ما فيه من سوء اننا سنموت على ايدي هؤلاء الاوغاد .. والتفت لبابلو يقول .. لا تلمسني ! لا تلمسني ببندقيتك .

« ومضى خارجا فوصل الى الصف ، ثم بصق على الارض . وقال لتسقط الجمهورية وعليكم وعلى ابائكم اللعنة وانهالوا عليه ضربا ، فمات بسرعة ، وقد اشترك الجميع في ضربه ، ثم حملوه الى الهاوية ليقذفوا به الى النهر ، وقد سالت دماؤه على ملابسهم ، وآمنوا ان هؤلاء الخارجين اعداء حقا ويجب أن يقتلوا .

« وكان كثيرون مترددين في الاشتراك في هذه العملية ، قبل ريكاردو ،

ولو هتف احد الناس قائلا ، دعونا نعفو عن الباقين ، لتجاوب مع هتافه الكثيرون ، أما الآن ، وبعد ريكاردو ، فقد تفجر الغضب ، وانتقل الشعب من مرحلة اداء الواجب الى مرحلة الثورة والغضب .

« وهتف احدهم .. ليخرج القس ، فتسير العملية بشكل اسرع ..

وتجاوب الجمع مع هتافه .. وانطلقوا صارخين .. لقد انتهينا من ثلاثة لصوص ، فهاتوا لنا القس .. وصاح فلاح قصير القامة .. لعان والرب.

فرد عليه آخر .. انه ليس ربي ، حتى ولا على سبيل المزاح ، ومن الخير لك ان تضبط لسانك اذا كنت لا تريد ان يكون مصيرك كمصيرهم . فقال الفلاح .. انني جمهوري متحرر مثلك . وقد ضربت الدون ريكاردو على فمه . وضربت الدون فيدريكو على ظهره . اما الدون بنينو ، فقد اخطأته وانني اقول الرب ، لان هذا مثل معروف مع اللصين .. فرد عليه رفيقه .. عليك اللعنة وعلى جمهوريتك ، انك تتحدث عن الدون كلما

والدون كذا .. فقال الفلاح ولكن هذا ما يطلقونه عليهم .. فرد صاحبه.. انا لا اطلق عليهم هذا الاسم ، ولا أستعمل كلمة الرب .. ها هو قـادم جديد .

« ورأينا منظرا مخزيا ، فقد خرج من الباب الدون فوستينو ريفيرو الولد الاكبر للدون سيليستينو ريفيرو ، احد كبار اصحاب الأملاك . كان رجلا طويلا ، ذا شعر اشقر ، وقد صفف بشكل انيق ، اذ انه يحمل مشطا في جيبه دائما ، فهو مخنث يزعج الصبايا ، وجبان وقد رغب دائما في ان يكون من مصارعي الثيران . وكان يكثر من رفقة الفجر ومصارعي الثيران والرعيان ، ويميل الى ارتداء ملابسهم الاندلسية ، ولكنه كان بعيدا عن الشجاعة ، وكثيرا ما اعتبر أضحوكة رفاقه ، ويقال انه ذات مرة ، اعلن انه سيشترك في مصارعة للهواة ، تقرر أن يكون ريعها لملجا العجزة في افيلا ، وانه سيقتل احد الثيران ، وهو على ظهر جواده ، طبقا للطريقة الاندلسية التي قضى وقتا طويلا في المران عليها ، ولكنه عندما رأى الثور الكبير ، الذي استبدل لمصارعته بالثور الصغير المقرر ، ادعى المرض ، ووضـع اصابعه في فمه ليرغم نفسه على التقيؤ .

« وعندما ظهر أمام الناس بدأوا يهتفون .. هولا ، دون فوستينو ، احذر من التقيؤ .. وقال احدهم .. اسمع يا دون فوستينو ، ثمة فتيـات جميلات، هناك تحت الهوة ، وقال رابع .. هل سمعت يا دون فوستينو بالمـوت مـن قبل .

« ومع ذلك ، ظل فوستينو محتفظا بشجاعة ورباطة جاشه ، فقد اعلن للآخرين انه سيخرج ، وما زال تحت تأثير تلك الشجاعة التي دعته الى هذا الاعلان ، وهي عين الشجاعة التي حملته في الماضي على اعلان عزمه على مصارعة الثور ، وعلى أن يصدق نفسه بانه غدا من المصارعين الهواة ، ووقف الآن وقد أستلهم شجاعته من موقف الدون ريكارد ، متحديا ،وعلى وجهه الجميل دلائل الاحتقار ، ولكنه عجز عن النطق ..

« وهتف به احدهم .. تقدم يا دون فوستينو ، تقدم .. هذا اكبر صراع شهدته في حياتك ، ودقق فوستينو ينظر ذات اليميـن وذات

الشمال ، فلم ير علامة اشفاق أو رثاء تبدو على اي انسان من الواقفين في الصف ، ولكنه ظل واقفا متحديا في جماله ، ولـكن لا سبيل له ، الا المضي في الطريق ..

« وقال احد الواقفين .. ماذا تنتظر يا دون فوستينو .. فرد عليه آخر بقوله .. انه ينتظر أن يتقيأ .. وصاح ثالث .. تقيأ يا دون فوستينو اذا كان يلذ لك ويريحك ، اما انا فسيان عندي تقيأت او لم تتقيأ ..

« وفجاة رأينا الدون فوستينو ، يتطلع الى صفوف الناس ، ثم يمر ببصره عبر الساحة الى الجرف ، وعند ا راى الهاوية ، وما تحتها من خواء عاد مسرعا ، يحاول الدخول الى القاعة .. فدوى هدير صاخب من الجموع ، وهتف احد الناس بصوت كالرعد .. الى اين تمضي يا دون فوستينو الـى ايـن ؟

« ورأينا فوستينو يعود ثانية وقد سار بابلو خلفه ، وفوهة بندقيته في ظهره ، لقد ذابت شجاعته وتبخرت الآن .. وكان يرسم علامة الصليب على صدره ، ويصلي ثم وضع يديه على عينيه ، وهبط الدرجات ليصل الصـــف ..

« وقال احدهم .. اتركوه .. لا تلمسوه .. وفهم الناس ، ما عنـاه الرجل فتركوه وشأنه ، ومضى الدون فوستينو فى طريقه وقد وضع يديه المرتجفتين على عينيه ، وتحركت شفاهه ، بعبارات غير مفهومة ، ثم اخذ يدب بين الصفين .

« ولم يلمسه احد ، كما لم يخاطبه احد ، ولكنه عندما قطع نصفالطريق تخاذلت ساقاه ، وعجز عن المسير ، فاقعي على ركبتيه .. لم يكن احد قد أصابه بشيء ، ورايت فلاحا ينحني عليه ويرفعه من ذراعه وهو يقول .. انهض يا دون فوستينو وواصل السير ، فالثور لما يأت .

« ولم يستطع فوستينو السير وحيدا ، فتناول الفلاح ذراعه ، كما تناوله فلاح آخر من ذراعه الثانية ، ومضى الدون فوستينو وقد اخفى عينيه ، وارتعدت شفتاه يسير بين الفلاحين ، وقد انهالت عليه سخرياتهم .. ونكاتهم حتى وصل به الرجلان الى شفير الهاوية ، وهنا رأي فوستينو

المنظر المرعب من شقوق اصابعه ، فهوى على ركبتيه ، يمسك بالارض ، ويقبض على الحشائش ويقول .. لا ، لا .. ارجوكم .. لا ، لا ، لا ...

« وسرعان ما اندفعت اليه الجموع ، فقذفت به من عل ليهوي الى الهاوية . وادركت انذاك أن الجماهير قد سيطرت عليها الوحشية متاثرة اولا باهانات الدون ريكاردو ، ومن ثم بجبن الدون فوستينو .

« وهتف فلاح ... ايتونا بآخر .. يا له من دون فوستينو .. فرد عليه ثان .. لقد رأى الثور الكبير اخيراً .. وقال ثالث .. قسما بحياتي لم ار انسانا كالدون فوستينو ، فعاد الاول يقول .. هناك مردة واقزام ، وهناك زنوج ووحوش نادرة من افريقيا .. ولكن فوستينو ، فريد في طرازه ونوعه .. هاتوا لنا اخر .. هلموا ادفعوا لنا شخصا جديدا .

« وبدأ السكيرون يتناقلون زجاجات اليانسون والكونياك التي نهبوها من حانة النادي الفاشي ، واخذوا يشربون محتوياتها وكأنها نبيذ ، وبدأ البعض منهم يثمل ، من الخمر ، ومن المناظر المثيرة التي راوها ، من الدون بنيتو والدون فيدريكو والدون ريكاردو والدون فوستينو ، وكان البعض الآخر يشرب من زقاق من الجلد ، مترعة بالنبيذ ، فناولني احدهم زقا اخذت منه جرعة كبيرة .

« وقال احد الرجال ، ان القتل ، يقود الانسان الى الظمأ .. فقلت له .. وهل قتلت ، قال متكبرا ، لقد قتلنا اربعة ، هذا اذا تجاهلنا حساب الحرب ، فهل صح ما يقال يا بيلار انك قتلت احد الحرس .. لم أقتل احدا ، وانما اطلقت النار عبر الدخان ، عندما سقط الجدار ، مثل الآخرين .. قال .. ومن اين اتيت بالمسدس يا بيلار ؟.. قلت من بابلو ، لقد اعطانيه بعد أن قتل الحرس .. قال وهل قتلتهم بالمسدس ؟.. قلت اجل ، ثم اعطانيه لاتسلح به .. قال .. هل لي ان اراه ، واحمله بعض الوقت .. قلت .. ولم لا ؟ .

« وناولته المسدس .. وكنت قد دهشت ، لان احدا لم يخرج من القاعة ثم راينا الدون غويلرمو مارتين ، صاحب المستودع ، الذي جاء منه المزارعون بما يحملونه من مدقات وهراوات ومذار . وكان هذا الرجل فاشيا ، وهذه هي كل وصمته .. اجل كان لا يدفع الا القليل لمن يصنعون له المدقات ولكنه كان يبيعها باسعار رخيصة ايضا .. وكان شرسا في حديثه ، ويؤم دائما نادي الفاشيين ؛ فيجلس على ارائكه الوثيرة يقرأ صحيفتهم « النقاش » ويلمع حذاءه ، ثم يحتسي الغيرفوت ، وياكل اللوز المحمص ، والقريديسي « والانشوا » .

ولكن جميع هذه الامور لا تكون سببا لقتل انسان ، وكنت واثقة انه لولا اهانات الدون ريكاردو ، واضحوكة الدون فوستينو ، واقبال الجماهير على الخمر ، لارتفع صوت احدهم يقول .. » يجب ان نطلق سراح غويلرمو هذا ، فقد اخذنا ما في حانوته وهذا يكفي .

« فاهل هذه المدينة ، رقيقو القلب بقدر ما هم جفاة غلاظ ؛ ولهم احساس شديد يدعوهم الى العدالة والى التمسك بكل ما هو حق . ولكن القسوة ، والخمر دخلا الان الى الصفوف . وانا لا اعرف ما يقع في البلاد الاخرى ، كما انني اعتقد ان ليس ثمة من يفوقني اهتماما بمتعة الشراب . ولكن السكر في اسبانيا ، عندما ينتج عن مشروبات اخرى غير النبيذ ، يكون قذرا وقبيحا ، ويقدم الناس على اعمال لا يقبلون عليها عادة . او ليست هذه هي الحالة في بلادك يا انكليزي ؟

فقال روبرت ــ انها نفس الحالة ، واذكر انني كنت في السابعة من عمري ، وكنت ذاهبا مع امي لحضور حفلة زواج في ولاية اوهايو ، حيث كان من المفروض ان احمل مع عدد من الصبيان والفتيات الزهور ..

وقاطعته ماريا تقول .. وهل قمت بذلك ؟ ما اروعه .

ــ اجل لقد علقوا في تلك البلدة زنجيا الى عمود الكهرباء ثم احرقوه حيا . كان اللهيب كالقوس ، وكان يتساقط من العمود الى الرصيف . وقد علقوه

اولا بآلة ، ثم انكسرت الالة ..

فعادت ماريا تقاطعه ــ زنجي ! يا لها من وحشية .

وقالت بيلار متسائلة ــ وهل كان الناس سكارى ليحرقوا زنجيا ؟

ــ لا ادري . فقد رأيت المنظر من وراء الستائر من نافذة بيت كان يقع في زاوية الشارع . وكانت الطريق مكتظة بالناس . وعندما رفعوا الزنجي الى العمــود ثانية ..

فقالت بيلار ــ اذا كنت فى السابعة من عمرك ، وكنت تنظر الى المنظر من نافذة احد المنازل ، فليس في وسعك ان تحكم عليهم اذا كانوا سكارى او لا .

ــ وعندما رفعوا الزَنجي ثانية جذبتني امي لتبعدني عن النافذة ، فلم اعد ارى شيئا . ولكن منذ ذلك اليوم مررت بتجارب تثبت أن حالات السكر مماثلة في بلادي . انها حالات قبيحة ووحشية .

وقالت ماريا ــ لقد كنت صغيرا في السابعة . كنت اصغر من ان احتمل رؤية مثل هذه المناظر . لم يسبق لي ان رأيت زنجيا الا في سيرك أو مدينة للملاهي الا اذا كنا نحسب المراكشيين من الزنوج .

فقالت بيلار ــ ان بعضهم من الزنوج ، والبعض الاخر ليسوا منهم . وفى وسعي ان احدثك طويلا عن المراكشيين .

فقالت ماريا ــ ليس بقدر ما استطيع انا ان احدثكم عنهم .

فقالت بيلار ــ لا تتحدثي بمثل هذه الامور ، انها لا تناسبك .. ايــن وصلنا فى قصتنا .

فرد روبرت ــ كنا نتحدث عن السكارى الواقفين في الصف .. اكملي .

وقالت بيلار ــ ليس من العدل ، ان نصفهم بالسكارى ، فقد كانوا ابعد ما يكونون عن السكر . ولكنهم كانوا قد تبدلوا تمام التبدل . وعندما خرج

الدون غويلرمو ، من القاعة ، بقامته المنتصبة ، ونظره القصير وشعره الاشيب وقامته المتوسطة ، يرسم شارة الصليب على صدره ، ويتطلع الى الامام دون أن يرى شيئا لان نظارتيه لم تكونا معه ، وبدأ يسير الى الامام بهدوء ، ومنظره يستثير الاشفاق . فهتف به احدهم يقول .. تعال هنا يا دون غويلرمو ، تعال في هذا الاتجاه ، فعندنا جميع منتجاتك . وكان هزؤهم بالدون فوستينو قد نجح الى الحد الذي حملهم على ان لا يروا ان غويلرمو يختلف كل الاختلاف عن سابقه ، وانه اذا كان من الواجب ان يقتل هذا الرجل ، فيجب ان يقتل بسرعة ، وبكرامة .

« وهتف أحد الناس قائلا .. دون غويلرمو .. هل نأتي لك بنظارتيك من المنزل .. ولم يكن منزل غويلرمو قصرا كالآخرين ، وانما كان بيتا عاديا يطل على الساحة ، اذ انه كان رجلا عاديا ، في كل شيء ، وان كان فاشيا .

وعندما شرع في هبوط السلم ليصل الى الصف انبعث صوت من الشرفة البعيدة ، يصرخ . كان صوت زوجته وهي تقول .. غويلرمو .. انتظر ، سأكون معك . والتفت غويلرمو الى المكان الذي سمع صوتها منه ، فلم يستطع أن يراه . واراد ان يقول شيئا فلم يتمكن . ثم لوح لها بيده ومضى يسير بين الصفين .. فصرخت ، غويلرمو .. آه .. يا غويلرمو ..

« وعاد غويلرمو يلوح لها بيده ثم سار بين الصفين وقد رفع رأسه ، دون ان يساوره شعور من أي نوع كان .. وهتف صوت مخمور .. مقلدا صوت المراة .. غويلرمو .. فهجم عليه هذا يحسبه امراته ، واذا بالرجل ينهال عليه بمدقته بضربة صاعقة ، اجبرته على الاقعاء على الارض . وهو يبكي لا من الخوف ، بينما واصل السكير ضربه .. وامتطى ثمل آخر كتفيه ، واخذ يضربه بزجاجة الخمر على أم راسه . وسرعان ما تخلى عدد من الناس ، عن اماكنهم في الصف ، ليحل محلهم ، عدد من السكيرين .

« وكنت قد شعرت ببعض الامتعاض من الطريقة التي قتل فيها بابلو الحراس الاربعة ، ولكنها على كل حال طريقة تخلو من الوحشية والفظاظة في استلاب الانسان حياته .. وكنت في بادىء الأمر مؤيدة لطريقة اشراك

جميع الناس في قتل الفاشيين ، وكنت اود ان اشترك فعلا في عملية القتل .. ولكنني بعد ما رايت الطريقة التي عومل بها الدون غويلرمو احسست بشعور من الخجل والسخط . وعندما رايت السكارى ينتقلون الى الصف، ليحلوا محل أولئك الذين انسحبوا احتجاجا ، وددت لو انتزعت نفسي من هذا المنظر ، فمشيت بعيدا عبر الميدان ، الى مقعد يقوم تحت شجرة كبيرة ، حيث جلست .

« ورأيت فلاحين يتركان الصف ، ويتحدثان ، وهتف بي احدهما يقول .. ماذا حدث لك يا بيلار .. قلت : لا شيء .. فرد .. قولي ، ماذا دهاك ؟.. قلت يبدو لي انني اكثرت من الاكل واتخمت . فرد قائلا .. ونحن كذلك ..ثم جلسا الى جانبي على المقعد الخشبي . وكان احدهما يحمل زقا جلديا مليئا بالنبيذ ، فقدمه الي قائلا ، اطفئي ظمأك .. واستأنف الرجل حديثه السابق فقال : ليس في وسع انسان ان يقول ان الطريقة التي استعملت مع الدون غويلرمو .. لن تجلب لنا سوء الطالع . ورد عليه رفيقه يقول .. اذا كانت ثمة حاجة لقتلهم جميعا ، وانا لست قانعا بوجود هذه الحاجة ، فمن الواجب أن يقتلوا بطريقة كريمة ، تخلو من الهزء والسخرية .. وقال الأول .. قد تجوز السخرية في حادث الدون فوستينو ، لانه كان دائما غرا ومدعيا وبعيدا عن الجد ، اما الهزء برجل وقور كالدون غويلرمو ، فأمر لا يحتمل .

« وقلت للرفيقين .. يبدو انني متخمة ، وفعلا ، فقد شعرت بالرغبة في التقيؤ ، وبألم شديد في المفاصل .. ورد احدهما .. لن نشترك بعد فى هذه الحوادث ولا ادري ما يقع فى المدن الاخرى .. فقلت .. ان خطوط الهاتف لم تصلح بعد ، وهو نقص يجب ان يسد فورا .. فرد الرجل .. أجل من يدري ، فقد نكون فى حاجة الى اعداد وسائل الدفاع عن المدينة بدلا من هذه المذبحة البطيئة التي نقوم بها .

« وقلت لهما ، انني سامضي الى بابلو ، للتحدث اليه .. وفعلا قمت من مقعدي ومضيت فى طريقي الى مدخل القاعة ، التي يمتد منها الصفان الطويلان . كان هذان الصفان قد فقدا كل نظام وسيطر عليهما السكر ،

ورأيت رجلين يسقطان على الارض وهما يتنازعان زجاجة خمر ، وازدرد احدهما جرعة كبيرة وقال : لتحيا الفوضى .. وكان يتدحرج على الارض كالمجنون وقد وضع منديلا احمر على عنقه .. وهتف الآخر .. لتحيا الحرية ، واخذ يضرب بقدمه في الهواء .. وكان يحمل منديلا يجتمع فيه السواد والحمرة ، في يده .. وهتفه فردي ، كان قد ابتعد عن الصف ،بعد ان شيعهما بنظرة من الزراية والاحتقار .. كان عليهما ان يهتفا لتحيـا الخمرة .. فهي كل ما يؤمنان به .. فرد عليه زميل له .. انهما لا يؤمنان حتى بالخمر ، انهما لا يؤمنان بأي شيء ، ولا يفهمان شيئا .

« وهب احد السكيرين واقفا على قدميه ورفع ذراعيه ، وقد ضـم قبضته فوق راسه واخذ يهتف .. لتحيا الفوضى ، ولتحيا الحرية .. ولعن الله الجمهورية .. وامسك به زميله الذي كان لا يزال مستلقيا على الارض على قدمه ، وجذبه نحوه، فأسقطه على الارض ، واخذا يتدحرجان معا ، ثم وضع احدهما يده على عنق الآخر ، وقبل منديله ، ووضع زجاجة الخمـر في فمـه .

« وانفجر دوي هائل في هذه اللحظة ، وادركت أن رجلا جديدا قـد خرج الى صفوف المخمورين ، ولكنني لم استطع رؤيته ، لان راسه لم يرتفع فوق اكتاف المكتظين امام باب القاعة . وكل ما رايت ان بابلو ورفيقه كاترو ديدوس كانا يدفعان امامهما برجل الى الصف .

« وكان الرجل الذي خرج الى الميدان الآن هو الدون اناستازيو ريفاس. وهو فاشي معروف واكثر رجل بدانة في المدينة . كان تاجر حنطة ،ووكيل عدد من شركات التامين ، ويقوم باقراض المال بفوائد كبيرة . ووقفت على احد المقاعد اتطلع ، فرأيته يهبط السلم ، متجها الى الصف ، وقـد انتفخت رقبته وتهدلت فوق قميصه ؛ واخذ راسه الاصلع يعكس اشعة الشمس المتساقطة عليه ، وانفجر هدير داو من كل مكان . كان صوتـا قبيحا صراخ السكارى وهم يتدافعون اليه . ورايته يرفع يديه فـوق رأسه ويتهادى ، ولم اعد ارى منه شيئا ؛ فقد انهالوا جميعا عليه ،وعندما عادوا الى اماكنهم ، كان الدون انستازيو ، قد انتهى .

« وقال احدهم .. سندخل اليهم .. سندخل لنتسلمهم .. وقال آخر ، انه اثقل من ان يحمل فلنتركه في مكانه .. وصاح ثالث .. سندخل ونقضي عليهم هناك .. سندخل سندخل .. فلم ننتظر طيلة النهار في الشمس .. هلموا بنا لندخل .

« وبدا الرعاع يزحفون ، كانوا يصرخون ، ويزارون ، كالحيوانات .. وهم يهتفون .. افتحوا ، افتحوا ، افتحوا .. ذلك لان الحرس كانوا قد اغلقوا ابواب القاعة .

« وتطلعت من النافذة الى داخل القاعة فرايت الوضع كما كان عليه . فالقس واقف ، وحوله يركع جميع من تبقى من الفاشيين وهم يصلون في نصف دائرة حوله . وكان بابلو يجلس الى المائدة الكبيرة ، امام مقعد رئيس البلدية ، حاملا بندقيته . وقد تدلى ساقاه ، ووضع لفافة في يده . اما كاترو ديدوس ، فقد جلس الى مقعد رئيس البلدية ووضع قدميه على المائدة يدخن لفافة اخرى . وكان رجال الحرس يجلسون في مقاعد مختلفة يحملون بنادقهم . اما مفتاح الباب الكبير فعلى المائدة ، أمام مقعد بابلو .

« وبدا الرعاع يصرخون .. افتحوا ، افتحوا ، افتحوا ، وكأنهم ينشدون نشيداً . اما بابلو ، فجالس وكأنه لا يسمع صراخهم .. وقال بضع كلمات للقس ولكنني لم استطع سماع ما قاله بسبب ضجة الرعاع .

« ولم يرد عليه القس ، بل واصل الصلاة ، واخذ الناس يحاولون الاندفاع الي والوقوف على نفس المقعد الذي اقف عليه ، وصرخت بالرجل .. سيتحطم المقعد ، فقال .. لا باس ، لا باس ، انظري اليهم ، وهم يطون

« وشممت رائحته القذرة على عنقي ، فشعرت بالرغبة في التقيؤ .. ومد راسه من القضبان الحديدية واخذ يصرخ .. افتحوا الباب ، افتحوا الباب .

« واخذ الرعاع يشددون ضغطهم على الباب . حتى ان الواقفين في الصفوف الامامية كادوا يتهاوون تحت وطأة الضغط من الجماهير التي

تقف خلفهم ، وهرع رجل ثمل ، وقد احاط عنقه بمنديل احمر ، يندفع بنفسه على ظهر الجماهير الضاغطة وهو يهتف ويصرخ « لأعش انا ، ولتحيا الفوضى » .

« واخذت ارقب الرجل ، ورأيته يعود من مكانه ويجلس الى مقعد ، ويحتسي الخمر من زجاجة يحملها ، ثم راى جثة الدون انستازيو ، وهو ملقى على وجهه ، فهب من مكانه ومضى الى الجثة يصب من زجاجةالخمر على راسها وعلى ملابس انستازيو ثم يتناول علبة الثقاب محاولا اشعال النار بالجثة . ولكن الريح المتعالية اخذت تطفىء عيدان الثقاب واحدة اثر اخرى حتى نفدت ، فجلس الثمل الى جانب الجثة ، يحتسي الخمر من الزجاجة ويهز الجثة من كتفيها بين فينة وفينة .

« وواصل الرعاع الصراخ والهتاف مطالبين بفتح الباب ، وكان الرجل الواقف الى جانبي على المقعد يمد راسه بين القضبان ويصرخ داعيا الى فتح الباب . واصم صراخه اذني ، واخذت اتطلع الى القاعة من جديد ، كانوا لا يزالون يصلون ، والرجال راكعون ، ورؤوسهم خاشعة ، يرفعون النظر بين الفينة والفينة ، ليتطلعوا الى الصليب والى القس ، بينما يوالي هذا صلواته بسرعة ، وبابلو جالس في مكانه على المائدة يدخن لفافته دون انقطاع ، ويلعب بالمفتاح في يده .

« ورايت بابلو يحدث القس من جديد ، ولم استطع سماع ما قاله ، بسبب الصراخ ، ولكن القس لم يجب ومضى في صلاته . وفجاة رايت رجلا من الراكعين يثب على قدمه ، ويتحرك وكانه يريد الخروج ، كان الدون جوزيه كاسترو الذي يلقبه الجميع الدون بيبي ، وهو فاشي معروف ، ويتاجر بالجياد ، وبعد ان قبل كاسترو الصليب وباركه القس مضى متجها الى الباب .

« وهز بابلو راسه ومضى يدخن لفافته ، ورايت الدون بيبي يقول شيئا لبابلو ولكني لم اسمع ما قاله ، ولم يرد بابلو وانما هز راسه واشار الىالباب

ثانية ، ورأيت الدون بيبي ، يتطلع الى الباب ، ليدرك لأول مرة ان الباب مغلق وعرض عليه بابلو المفتاح ، فعاد الرجل وركع ثانية مع المصلين . ورايت القس يلتفت الى بابلو ، فيشير اليه هذا بالمفتاح ، فيفهم ان الباب مغلق ، ويهز راسه ثم يعود الى استئناف صلاته .

« ولا ادري كيف لم يستطيعوا ان يفهموا منذ البداية ان الباب مغلق ، الا اذا كان استغراقهم في صلاتهم ، وافكارهم قد عزلهم عن كل ما حولهم . اما الآن فقد فهموا كل شيء ، وادركوا ما يعنيه الهتاف ، وتبدل كل شيء . ولكنهم ظلوا على الحالة التي كانوا عليها .

« وبلغ الصراخ الآن حدا لا يطاق ، والسكير الواقف الى جانبي يزار . افتحوا الباب ، حتى بح صوته .. ورأيت بابلو يحدث القس من جديد ، وهذا لا يجيبه ، ثم ابصرت بابلو ، وهو يرفع بندقيته ، ويتقدم من القس فيقرع بمؤخرتها على كتفه ، ولم يكترث به القس بل مضى في صلاته ، وهز بابلو راسه ، ورأيته بعد ذلك يحدث كاسترو ديدوس ، فيصدر هذا امره الى الحرس ويتراجعون الى نهاية القاعة حيث يرفعون بنادقهم .

« ورأيت بابلو يقول شيئا لكاترو فيدفع هذا منضدتين وبعض المقاعد ، ويقف وراءها الحرس ببنادقهم ، وكأنها حاجز عسكري ، وانحنى بابلو ، ليدق باصبعه على ظهر القس ، فلم يكترث هذا به ، بل مضى في صلاته . وهز بابلو رأسه ، وابصر بالدون يتطلع اليه ، فاشار براسه اليه ، واوما الى المفتاح الذي كان يمسكه بيده ، وفهم بابلو ، فخفض رأسه ، ومضى يسرع في صلاته .

« ونزل بابلو من مكانه ، ومضى الى مقعد رئيس البلدية الكبير فوق المنصة حيث جلس عليه ، واخذ لفافة تبغ جديدة شرع يدخنها ، وهو يرقب الفاشيين يصلون مع القس ، ولم يبد على وجهه اي تعبير ، اما المفتاح ، فعلى المائدة امامه ، واستدعى بابلو احد الحرس ، فمضى هذا الى الباب ، ورأيت الفاشيين يصلون جميعا ، وبسرعة ، وادركت انهم فهموا الموقف الآن .

« وقال بابلو شيئا للقس ، فلم يرد عليه هذا ، ثم التقط المفتاح ودفع به الى الحارس الواقف عند الباب ، والتقطه هذا ، فوضعه في الباب واداره ، ثم سحب الباب اليه مختفيا وراءه ، بينما اندفع الرعاع الى الداخل .

« اجل رايتهم يدخلون ، وابصرت بالمخمور الواقف الى جانبي يمد راسه الى الامام فيحجب عني المنظر ويصرخ .. اقتلوهم ، اضربوهم بالهراوات، اقتلوهم ، ثم دفعني بيديه جانبا ، فلم اعد ابصر شيئا ، وضربته بكوعي في بطنه وقلت .. ايها السكير ، لمن المقعد ؟ دعني ارى .

« ولكنه ظل يهز يديه وذراعيه امام القضبان الحديدية وهو يصرخ ، اقتلوهم ، اضربوهم بالهراوات ، اقتلوهم ، اضربوهم بالهراوات ، واصبته في بطنه من جديد .. وقلت ايها السكير القذر ، دعني ارى ... وسرعان ما وضع يديه على راسي ليدفعني عن المقعد .. واخذ يواصل صراخه .. اقتلوهم .. اجل ، هكذا .. ! اقتلوهم .

« وضربته في المكان الحساس الذي يتألم منه ، فانزل يديه عن راسي .. واخذ يصرخ : ايتها المراة ، لا حق لك فى هذا ، وتطلعت من النافذة ،فرايت حشد الرعاع ينهالون بمدقاتهم وهراواتهم ، ومذاريهم ، على الفاشيين الذين سالت دماؤهم ، بينما جلس بابلو فى مقعده ، يحمل بندقيته على ركبتيه ، وهو يرقب المشهد ، والصراخ ، والعويل يتعاليان في كل مكان ، ورايت القس يجلس على مقعد ، وقد انهالت عليه الضربات .. وهنا تهاوى المقعد تحتنا ، وسقطت انا والسكير متدحرجين على الرصيف الذي فاحت منه روائح الخمر والقيء ، والناس يقفزون فوقنا ليصلوا الى القاعة ، وكان كل ما اراه ، المخمور ، وقد جلس امامي يمسك الان بالمكان الذي اصبته فيه .

« وكانت هذه نهاية قتل الفاشيين في بلدتنا ، وكم كنت فرحة ، لانني لم ار اكثر من ذلك ، اذ لولا ذلك السكير لرايت كل شيء . وهكذا قدم لي

هذا السكير حدمه من حيث لا يدري ، اذ ان المشهد داخل القاعة ، كان اشد الما من ان يستطيع انسان ان يراه او يصفه .

« ورأيت السكير الثاني لا يزال يسكب من زجاجة الخمر على انستازيو ، ويحاول اشعال النار بجثته ، فمضيت اليه ، وقلت .. ماذا تفعل ايها الوقح ؟.. فقال .. لا يهمك دعيني وحدي .. ويبدو ان وقوفي امامه قد ساعده ، اذ اشتعلت عود الثقاب بكتفي الجثة ، وسرعان ما ارتفع لهيب ازرق يمتد الى عنقه .. وشرع السكير يصرخ .. انهم يحرقون الموتى ؟.. فقال احدهم .. من يحرقهم .. وقال آخر .. واين يحرقونهم .. فقال السكير .. هنـا .

« وسرعان ما تلقى السكير ضربة من احد الناس اسقطته ارضا ،وحملت جثة الدون انستازيو ، مع الجثث الاخرى فى عربة ، نقلتها الى الهاوية . وكان من الخير لو قذفوا بعشرين او ثلاثين ايضا من هؤلاء السكارى من ذوي المناديل الحمراء . ولو وقعت الثورة من جديد ، فان من الواجب التخلص من هؤلاء الناس منذ بدايتها . اما انذاك فلم نكن نعرف شيئا ، ولكن سرعان ما فهمنا الحقيقة بعد ايام .

« ولم نعرف تلك الليلة ، ما سيأتينا به الغد . فبعد المذبحة ، لم نستطع ان نعقد اجتماعا الليلة بسبب وفرة عدد السكارى ، اذ تعذر حفظ النظام وتقرر ارجاء الاجتماع الى اليوم التالي .

« ونمت تلك الليلة مع بابلو ؛ وليس لي من حاجة في ان اقول لك هذا ايها العزيز ، ولكن من الخير ان تعرف كل شيء ، لتدرك ان كل ما اقوله صحيح . فاسمع يا انكليزي فان ما سأقوله ، شيء غريب .

« اجل لقد أكلنا ، وكانت تلك الليلة غريبة . كنا جميعا كمن يخرج من عاصفة او طوفان او معركة ، فقد انهكنا الجهد ، وليست لدينا اية رغبة في الكلام كثيرا . وكنت اشعر بفراغ وخواء ، وضعف عام وبكثير من الخجل والاحساس بالخطيئة ، وشعرت بشيء من الظلم ومن الشر الذي تخفيه

لنا الايام ، وهو عين الشعور الذي احسست به هذا الصباح عندما رايت الطائرات وبالفعل فقد صدق تطيري ووقع الشر بعد ثلاثة ايام فقط .. ولم يتحد ثبابلو .. الا بالقليل ، اذ سالني قائلا .. هل اعجبك المنظر يا بيلار .. كنا فى الخان نتناول طعامنا وكان المكان مكتظا بالناس ، يهزجون ويغنــون ...

« قلت .. لا ، يا بابلو ، باستثناء الدون فوستينو .. قال اما انا فقد احببت العمل .. قلت متسائلة : كله ؟ قال اجل . كله ، باستثناء القس . قلت مستغربة فقد كنت اعرف كراهيته للقسس .. او لم يعجبك ما وقع للقس ؟ قال .. لا .. فقد انهارت احلامي .. قلت وانا اكاد اصرخ لاسمعه صوتي فى هذا الخضم من الضجيج والغناء والهدير .. ولم .. قال .. لانه كان جبانا فى موته ، وكان من الواجب ان يكون كريما .. قلت وكيف تريد ان يموت كريما ؟.. وهو يرى الرعاع يطاردونه . خيل الي انــه احتفظ بكرامته طيلة الوقت .. قال .. اجل ولكنه جبن فى اللحظــة الاخيرة .. قلت ومن لا يجبن ، او لم ترهم يطاردونه وهــم يحملون المذاري .. قال .. اجل لقد رايتهم ، ولكنني اعتقد انه مات ميتة سيئة.. قلت كل انسان يموت ميتة سيئة فى مثل هذه الظروف .. لقد كان كل شيء على اسوأ ما يرام .. قال اجل ، لقد كان النظام مفقودا ، ولكن من واجب القس ان يموت ميتة اكرم وان يكون مثلا للآخرين .. قلت .. ظننت انك تكره القسس .. قال اجل ، ولكن القس الاسباني يجب ان يموت كريما .. قلت .. لقد مات اكرم ميتة ، فقد حرم من كل طقس ديني . فقال بابلو .. لا .. لقد طاش حلمي ، فقد كنت طيلة اليوم انتظر دور القس . كنت اظن انه سيكون الاخير الذي يصل الى الصف ..وكنت انتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر .. كنت انتظر شيئا رائعا ، اذ لم ار فى حياتي قساً يموت .. قلت هازئة .. ما زال الوقت طويلًا امامك ، اذ لم تبدأ الحركة الا اليوم فحسب . قال : لا فقد طاشت احلامي .. قلت .. اذن فستفقد ايمانك الآن .. قال انك لا تفهمين يا بيلار ، لقد كان قسا اسبانيا .. قلت وماذا يعني انه اسباني !!.. يا لكم من شعب متعجرف !!»

وقاطعها روبرت جوردان بقوله .. يجب ان نمضي .. لقد حلت الظهيرة

ـ اجل ، سنمضي . ولكن دعني احدثك عن بابلو . لقد قال لي تلك الليلة .. اسمعي يا بيلار لن نعمل شيئا الليلة .. قلت حسنا .. هذا يسرني . قال .. انها قلة ذوق ، بعد قتل هؤلاء الناس .. قلت له : يا لك من قديس . او تظن انني عشت هذا العهد الطويل مع مصارعي الثيران ولا ادري كيف يشعرون بعد المعركة .. قال .. احقا يا بيلار .. قلت .. وهل كذبت عليك قط ؟ قال .. من الحق يا بيلار ، انني رجل متعب هذه الليلة ، لا تعتبي علي .. قلت .. لا ، يا رجل ، ولكن لا تقتل الناس كل يوم يا بابلو .

« ونام تلك الليلة كما ينام الطفل ، وايقظته في الصباح ، عند الفجر ، فقد عجزت عن النوم تلك الليلة ، وقد استيقظت وجلست على مقعد اتطلع من النافذة . الى الميدان وعبره الى الاشجار البعيدة في ضوء القمر ، وقد امتدت تحتها المقاعد ، ثم انتقل بصري الى الجرف الذي تهاوى من فوقه الفاشيون . ولم اسمع نغمة انسان الا خرير الماء في الحوض . واخذت افكر . لقد كانت بدايتنا سيئة .

« كانت النافذة مفتوحة . وسمعت في الميدان صوت امراة تبكي .. وخرجت الى الشرفة حافية القدمين ، اخطوبهما على الحديد البارد . كان القمر ساطعا يبعث بنوره على الابنية الممتدة على جوانب الميدان ، وادركت ان البكاء آت من ناحية شرفة مسكن الدون غويلرمو . كانت لا تزال على الشرفة راكعة تبكي .

« وعدت الى الغرفة ، فجلست على المقعد من جديد ، ولم ارغب في جديد . ولم ارغب في التفكير ، فقد كان ذلك اليوم اسوأ ايام حياتي ، حتى جاء يوم ثان كسفه .

وقالت ماريا تسالها ـ واي يوم كان الثاني ؟

ـ بعد ثلاثة ايام ، عندما احتل الفاشيون البلدة .

ـ ارجوك ، لا تقولي شيئا عن ذلك اليوم ، فانا لا اريد ان اسمع ، ويكفي ما سمعناه ، بل انه اكثر من الكفاية .

ـ لقد حذرتك فى البداية من ان تصغي لما اقول . اجل انني لم ارغب في ان تسمعي . فستعاودك الآن الاحلام السيئة .

ـ لا ولكنني لا اريد أن اسمع اكثر مما سمعت .

وقال روبرت ـ اود لو حدثتني عن ذلك اليوم مرة اخرى .

فقالت بيلار ـ سأحدثك ، ولكن هذه الاحاديث من السوء بمكان عظيم بالنسبة لماريا .

وقالت ماريا وهي تكاد تبكي .. لا اريد ان اسمع ، ارجوك يا بيلار ، ولا تروي له القصة اذا كنت موجودة . فقد استمع اليها على الرغم مني .

كانت شفتاها ترتعدان ، وخيل لروبرت انها ستبكي .. فقال .. ارجوك يا بيلار اجلي الحديث الى فرصة اخرى .

ـ اجل ، لا تنزعجي يا صغيرتي ، ولكنني سأروي القصة للانكليزي في يوم آخر .

ـ ولكنني اريد ان اكون معه دائما ، ارجوك يا بيلار ان تتركي هذا الموضوع .

ـ سأحدثه بها عندما تكونين مشغولة .

ـ لا . لا . ارجوك ، لنكف عن هذا الحديث ابدا .

ـ ان من العدل ، ان اصف ما عملوه ، بعد ان وصفت ما عملناه . ولكنك لن تسمعي ما سأقوله .

ـ اليست هناك ، مواضيع ممتعة نتحدث بها ؟ امقضي علينا ان نتحدث عن المفازع دائما ؟

ـ في وسعك انت والانكليزي ، بعد ظهر اليوم ، ان تتحدثا بما تشاءان .

ـ ليت بعد الظهر يأتي ! ليت له اجنحة طائرة .

ـ انه سياتي . . انه سياتي طائرا ، ثم سيمضي طائرا كذلك . . وسيطير الغـــد ايضا .

ـ بعد ظهر اليوم . .! ليته ياتي !!

١١

اخذوا يصعدون من جديد ، فى ظلال الصنوبر ، بعد ان هبطوا من المرج المرتفع الى الوادي الذي تغطيه الاشجار ، وكان ارتقاؤهم هذه المرة في طريق ضيقة ، تسير فى محاذاة الجدول ، ثم تخلوا عنها ثانية ، عندما وصلوا الى مجموعة من الصخور الشاهقة . ورأوا رجلا يخرج من وراء احدى الاشجار ، وبندقيته في يده .

وهتف الرجل .. قفوا .. آه .. اهلا بيلار .. من معك ؟..

ـ انكليزي ، يحمل اسما مسيحيا ، هو روبرتو .. يا له من مكان سحيق!

وقال الرجل لروبرت وهو يمد يده اليه .. تحية ايها الرفيق ، هل انت بخيـر ؟

ـ اجل ، وانت ؟

ـ تماما ..

كان الحارس شابا ضئيل الجسم ، رقيقه ، ذا انف معقوف ، ووجنات بارزة وعينين رماديتين . وكان عاري الرأس ، فبان شعره الاسود .. اما هزة يده عندما صافحه فكانت قوية وودودة ، وقد تجلى الود فى عينيه .

وقال الشاب ـ هالو ماريا !! الم تتعبي ؟

فردت الفتاة تقول .. لا يا جواكين ، فقد جلسنا ، وتحدثنا اكثر ممـا مشينـــا .

وقال الشاب ـ هل انت رجل الالغام ؟ لقد سمعنا انك هنا .

ـ اجل ، وقد قضيت الليل عند بابلو . اجل . انا رجل الالغام

يسرنا ان نراك ، هل جئت لنسف قطار ؟

ـ هل كنت فى حادث القطار الاخير ؟

ـ اولم اكن هناك ؟ لقد عثرنا عليها هناك .. لقد اصبحت جميلة يـا ماريا ، فهل ابلغوك كم انت جميلة ؟

ـ اغلق فمك يا جواكين وشكرا لك . يجدر بك ان تقصي شعرك .

ـ لقد حملتك ، حملتك فوق كتفي هذا .

فقالت بيلار ـ لكنك لم تكن الوحيد ، فقد حملها كثيرون . اين الرجل العجوز ؟

ـ فـــي المعسكـر .

ـ واين كـــان ليلة امس ؟

ـ فـــي سيغوفيـا .

ـ هل سمعت اية انبـــاء ؟

ـ اجل . هناك بعض الانباء .

ـ حسنة ام سيئـــة ؟

ـ اعتقد انهـــا سيئة .

ـ وهل رايت الطائـرات ؟

ـ اجـــل . لا تحدثني عنهـــا . ايها الرفيق الديناميتي ، أي نوع من الطائـرات كانـــت ؟

ـ هينكل ١١١ من قاذفات القنابل ، مع مطاردات من طراز هينكـــل

ونيـــات .

ـ وما نوع تلك الطائرات الكبيرة ذات الاجنحة الخفيفـة ؟

ـ هينكـل ١١١ .

ـ مهما كان اسمها ، فهي سيئة .. ولكن لماذا اعيقكم .. ساصل معكم الـــى القائـد .

فقالت بيلار ـ القائد ؟

ـ اجل ، افضل التسمية على الزعيم . انها اكثر عسكرية .

ـ يبدو انك تكيف نفسك عسكريا .

ـ لا ، ولكنني احب التعابير العسكرية ، لانها تجعل الاوامر أوضـح ، وتعطي معنى اصح للنظـام .

فقالت بيلار ـ هذا رجل يتفق مع ذوقك يا انكليزي .. انه ولد جاد .

ووضع جواكين يده على كتف الفتاة ، وابتسم لها وقال ، هل احملك ؟

ـ يكفي انك حملتني مرة . ومع ذلك ، فانا شاكرة لك .

ـ وهل لا زلت تذكرينها ؟

ـ اذكر انني حملت . اما من حملني فلا اذكر . ولكنني اذكر الغجري لانه اسقطني على الارض اكثر من مرة . ولكنني شاكرة لك يا جواكين ، وساحملك ذات يوم لارد لك دينك .

ـ ما زلت اذكر ذلك اليوم جيداً . فقد وضعت بطنك وساقيك علـى كتفي بينما كان راسك على ظهري ، وذراعاك مدليتين على ظهري .

ـ لا ريب فى انك قوي الذاكرة . انني لا اذكر شيئا من هذا . فلا اذكر شيئا من هذا . فلا اذكر ذراعيك ولا كتفيك ولا ظهرك .

وقال جواكين يسالها .. او تودين أن تعرفي شيئا ؟

ـ مـاذا ؟

ـكنت فرحا بانك على ظهري والعيارات النارية تنهال علينا من الخلف.

ـ يا لك من خنزير ! وهل هذا هو السبب ألذي دفع الغجري الى ان يحملني اطول مدة ممكنة ؟

ـ لهذا السبب ، وليمسك بساقيك ايضا .

ـ يا لكم من ابطال ، ومنقذين .

وقالت بيلار .. اسمعي يا حبيبة . لقد حملك هذا الشاب طويلا ، ولم تكن ساقاك فى تلك اللحظة تعنيان شيئا لاي انسان . ففي تلك اللحظة ، كانت العيارات النارية هي وحدها التي تتكلم بوضوح . ولو اسقطك ؛ لاصبح بمنجاة من الرصاص فى أسرع وقت ممكن .

فقالت ماريا .. لقد شكرته ، وسأحمله ذات يوم . اسمحي لنا ان نمزح قليلا ، اذ يجب ان لا ابكي ، لانه حملني .

ومضى جواكين يقول .. وكنت اريد ان اقذف بك ، لولا انني كنـت اخاف من بيلار أن تقتلني .

فقالت بيلار ـ انا لا اقتل احـدا .

ـ لست فى حاجة الى قتل انسان ، فانت ترعبين الرجل بسلاطة لسانك.

ـ يا لك من لعين ! ولقد كنت ذلك الولد المهذب . ماذا كنت تعمل قبل الحركـة ايهـا اشاب ؟

ـ لم اكن اعمل شيئا ، كنت فى السادسة عشرة من عمري .

ـ ولكن ، ماذا كنت تمتهن ؟

ـ بضعة ازواج من الاحذية من اونة الى اخرى .

ـ تصنـع احذيـة ؟

ـ لا ، المعهـا .

ـ لا ريب فى ان ثمة اكثر من هذا ، ولكن قل لي لماذا فشلت ؟

ـ فشلت فى مــاذا ؟

ـ ماذا ، انت تعرف فيم فشلت .. انك تزرع ذنب الخنزير الآن .

ـ اعتقــد انــه الخــوف .

ـ ان لك قواما رائعا ، اما الوجه فليس بالجميل جدا . اذن كان الخوف؟ لقد كنت على ما يرام عند القطــار .

ـ انا لا اخافهم الآن . وقد راينا ما هو اسوا واكثر خطرا من الثيران . فالثور ليس خطراً بقدر المدفع الرشاش . اما اذا عدت الى الحلبة مــن جديد ، فلا ادري اذا كنت استطيع الوقوف امام الثيران .

وقالت بيلار لروبرت .. لقد اراد ان يصبح مصارعا للثيران ، ولكنــه خــاف .

وقال جواكين لروبرت .. وهل تحب الثيران ايها الرفيق الديناميتي ؟

ـ اجل ، انني احبها كثيرا ، وكثيرا جدا .

ـ وهل رايت المصارعة فى فالادوليد ؟

ـ اجل فى ايلول ، فى فيريا .

ـ هذه بلدتي . يا لها من بلدة رائعة . ولكن كم قاسى اهل تلك المدينة الطيبون من هذه الحرب .. هناك قتلوا ابي . وقتلوا امي .. وقتلــوا صهري .. ثــم اختي ..

وقال روبرت .. يا لهم من قساة ، غلاظ القلوب !

كم مرة سمع هذا الوصف ؟ وكم من مرة راى الناس لا يكادون ينطقون هذه الكلمة الا بصعوبة ! وكم من مرة راى عيون الناس وهــي تغرورق بالدمع ، وحناجرهم وهي تحشرج ، وهم يقولون .. ابي .. اخي ، امي ، اختي ! انه لا يذكر كم من مرة سمعهم يتحدثون عن موتاهم على هذا الشكل

ولكن حديثهم لم يكن ليختلف ابدا عن حديث هذا الغلام .. انها نفس القصـــة تتكـرر .

ولكنك تسمع القصة فقط دون ان تراها . ان احدا لم يحدثك عن القصة كما وقعت تماما ، كما حدثتك بيلار ، عن قصة الفاشيين الذين قتلوا في تلك البلدة . فكل ما تعرفه ان الاب قد قتل في احدى الباحات ، أو على مقربة من جدار ، أو في حقل ، او حديقة ، او في الليل ، على اضواء سيارة شاحنة تمر بالطريق . وقد رأيت بنفسك ، ضوء السيارة من الجبال ، ثم سمعت اطلاق النار ، وعندما هبطت الى الطريق ، وجدت الجثث .ولكنك لم تر اما لك تقتل ،أو اختا او اخا . وانما سمعت هذه القصص ، وسمعت الطلقات ، ولكنك رايت الجثث .

ولكن بيلار ، جعلتك ترى كل شيء في تلك البلدة ، وكأنك تشهد الرواية

آه لو استطاعت تلك المراة ان تكتب ، سيحاول هو كتابتها ، اذا قدر له ان يعيش وان يتذكر : يالله ، ما اروعها من رواية للقصة ، انها اروع من كويفيدو ، انه لم يصف موت الدون فوستينو كما وصفته هي ، بودي لو كنت اجيد الكتابة لأروي تلك القصة كما روتها هي ، اريد ان اكتب مـا عملناه ، لا ما عمله الآخرون لنا ، فنحن نعرف الكثير عن هذا، أجل لقد عرف الكثير عما يجري وراء الخطوط .. ولكن كان عليه ان يعرف الناس كما كانـوا سابقا وكما كانوا يعيشون في قراهم .

وخيل اليه ، ان حركتهم المستمرة ، وانتقالهم من مكان الى آخر ، لـم تمكنهم من رؤية العقاب والنهاية .. وقال يحدث نفسه ، لقد عشت مـع فلاح واسرته فقد نزلت عليهم مع الليل ، وتناولت طعامك معهم ، واخفوك في النهار ، ثم عندما حل الظلام مضيت عنهم ، وقد اديت واجبك ، ونجوت وعندما مررت ثانية بنفس المكان ، قيل لك انهم قتلوا الفلاح واسرته .. انهـا مجرد قصة بسيطة .

ولكنك كنت دائما بعيداً ، عندما يقع أي شيء من هــذا ، فالمقاومون نفذوا خطتهم والحقوا الاضرار التي ارادوها ثم انسحبوا ، وظل الفلاحون ليلقوا العقاب ، اجل لقد كنت تعرف ما يحل بالآخرين ، وكنـتتعرف ما تمملونه فى البداية ، وتكرهه ، ثم نسمع من يذكره دون حياء او خجل ، ومن يتفاخر به ويزهو ، ويدافع عنه ويجد له المبررات والاعذار ، ولكن تلك المراة اللعينة جعلته يرى كل شيء ، وكأنه يعيش فيه .

ومضى روبرت في تصوراته .. فهو يرى ان هذه التجارب جزء من تعليم الانسان ، ولا ريب في انه سيكون متعلما احسن التعليم عندما ينتهي كل شيء فهذه الحرب ملأى بالدروس والعبر ، واخذ يحدث نفسه .. اجل لقد تعلمت يا هذا ، وكان من حسن حظك انك عشت شطرا من عمرك فى اسبانيا قبل الحرب ، فهم يثقون بك لانك تتقن لغتهم على الاقل ، انك تفهمها اجود الفهم وتتحدث بها حديثا صحيحا ينطبق على القواعد ، وانت تعرفــمعظم الاماكن فى البلاد ، فولاء الاسباني في النهاية الى قريته ، فهو اولا يمجد اسبانيا بالطبع ، ثم يمجد قبيلته ، فمقاطعته فقريته ، فاسرته، فعمله ، فاذا كنت تعرف اللغة الاسبانية احبك الاسباني ، اما اذا كنت تعرف مقاطعته ، فقد ازداد حبك فى قلبه ، لكنك اذا عرفت قريته ومهنته، فقد غدوت جزءا من فؤاده ، ولذا فانت لا تشعر بنفسك غريبا فى اسبانيا، وهم تبعا لذلك لا يعاملونك كما يعاملون الغرباء ، الا اذا نقموا عليك ..

وهم قد ينقمون عليك ، وقد نقموا عليك كثيرا ، اذ انهم ينقمون على كل انسان ، انهم قد ينقمون على انفسهم ايضا ، ولو كنتم ثلاثة ، اتحــد اثنان ضدك ، ثم سرعان ما ينقلب احدهما على الآخر .. وهذه ليست بالحالة العامة ولكنها شائعة ، وفي وسعك ان تجعل منها قاعدة توصلك الــى بعض النتائج .

ولم يكن يجدر به ان يفكر على هذا النحو ولكن من يرقب عليه افكاره ؟ ليس هناك من يرقبها الان ، انه لن يستطرد في افكاره لتصل به حــدود الانهزامية فالشيء الاول والاهم هو كسب هذه الحرب ، فاذا لم نكسبها

اضمنا كل شيء ، ولكنه يرى كل شيء ويصغي لكل شيء ويتذكر كل شيء، انه يخدم قضية في حرب ، يمحضها كل ما لديه من ولاء ، ويخدمها ما وسعه الجهد ، طالما انه في الميدان ، ولكنه انسان لا يستطيع ان يسيطر على عقله او يملكه ، ولا على حواسه التي يرى بها ويسمع ، اما اتخاذ القرارات فسيتركها الى موعد اخر ، ولديه الكثير من المواد لاستخلاص هذهالقرارات منها . ان لديه الكثير منها الان ، وقد يكون لديه اكثر من الكثير احيانا .

ومضى في تصوراته يحدث نفسه ... انظر الى بيلار ، هذه المرأة .. انني سارغمها ان تسرد علي بقية القصة ، مهما حدث . انظر اليها تسير مع هذين الفرين . ليس ثمة انتاج لاسبانيا افضل من هؤلاء الثلاثة . فهي كالطرد ، بينما الشاب والفتاة .. كالشجرتين الصغيرتين . انهما ما زالتا تنموان كاروع ما يكون . وعلى الرغم من كل ما حدث لهما من شقاء في الماضي ، فهما يبدوان بالفين ، رائعين وجديدين ، وكانهما لم يمسهما ضرر او يلحق بهما اذى . لكن ماريا ، قد عادت الى وعيها ، قبل قليل .. فهذه رواية بيلار ، وهي لا شك صادقة في روايتها . لا ريب في ان الفتاة كانت في وضـــع يائس .

انه لا يزال يذكر ذلك الغلام البلجيكي الذي تطوع في الكتيبة الحـادية عشرة ، مع خمسة غلمان من قريته ، انها قرية لا تضم اكثر من مائتـــي انســان ، ولم يسبق للغلام ، ان خرج من قريته من قبل . وعندما رأى الغلام لاول مرة في مقر قيادة الكتيبة ، كان رفاقه الخمسة قد قتلواجميعا وكان الغلام في اسوأ حالة .. وقد غدا خادما في مطعم الضباط . كـــان يحمل وجها فلمنكيا احمر كبيرا ، ويدين ضخمتين كايدي الفلاحين .. ولكنه كان يبكي طيلة الوقت .. اجل كان يبكي بكاء صامتا .

انك تنظر اليه فتراه يبكي ، واذا سألته ان يأتيك ببعض النبيذ بكى ، واذا ما اعطيته صحنا فارغا بكى ، وادار وجهه . وقد يتوقف عن البكاء ، ولكنك اذا عدت تنظر اليه ، عاد الى بكائه . وهو يبكي دائما في المطبخ . والكل يرفقون به ، ولكن رفقهم لم يجده شيئا . ان عليه ان يبحث عنه ،

ويرى اذا كان قد عاد الى وعيه ، وغدا صالحا من جديد للخدمة العسكرية.

ولا ريب في ان ماريا ، قد عادت الى وعيها الان . انها تبدو كذلك على الاقل ، ولكنه ليس طبيبا نفسانيا . اما بيلار ، فهي طبيبة نفسانية . ويبدو ان من الخير لها انها كانت معه ليلة أمس . أجل ، شريطة ان لا يتوقف العلاج . وبالطبع ، كانت الليلة رائعة بالنسبة له ، فهو يشعر على خير ما يرام اليوم من صحة وعافية وسعادة وطمانينة .. لقد كانت ليلة رائعة ، وكانت ماريا ممتعة ...

وقال يحدث نفسه .. أنظر اليها ، انظر إليها ...

وابصر بها تخطو سعيدة ، في الشمس وقد انفتح قميصها الخاكي عند عنقها . وخيل اليه انها تقفز كما يقفز المهر .. وليس من السهل ان يعثر الانسان على فتاة كهذه ، فمثلها نادر الوجود ، وقد لا يعثر على مثيلة لها ابدا . وقد يضع الانسان خطة يحكم وضعها فلا تتحقق ، وقد يحلم بشيء في النوم فلا يراه في دنيا الواقع . لقد كان اشبه بالحلم الذي يراه الانسان بعد ان يشهد شريطا سينمائيا ، فيرى بطلة الفلم تدنو من فراشه في الليل ، رائعة ، جميلة ، لطيفة .. وكثيرا ما نام مع بطلات من هذا النوع وعلى هذه الصورة من الاحلام . انه لا يزال يذكر غريتا غاربو وجين هارلو .. اجل لقد زارته هارلو في احلامه اكثر من مرة . لعل ما حدث ليلة امس لم يكن الا حلما من هذه الاحلام .

ولكنه لا زال يذكر ، عندما زارته غريتا غاربو في الليلة التي سبقت الهجوم على بوزو بلانكو ، وكانت ترتدي بلوزة من الحرير الممزوج بالصوف الناعم ووضع يده حول خصرها يطوقه فانحنت عليه ، وتساقط شعرها الغزير يغطي وجهه ، وسألته ، لماذا لم يبح لها بحبه من قبل ، مع انها كانت تحبه طيلة الوقت .. انها لم تكن خجلى ، ولا جامدة ، ولا نائية ، بل كانت رائعة في ضمها وعناقها ، تماما كأيامها الخاليات مع جاك جيلبرت .. وقد

احبها كثيرا ، اكثر من جين هارلو ، مع انها لم تزره الا مرة واحدة ، بينما زارته تلك مرات ومرات .. فهل كان ما وقع ليلة امس حلما من هـــذه الاحــــلام .

وقال يحدث نفسه .. انه قد لا يكون حلما . ففي وسعك ، في هذه اللحظة بالذات أن تمد يدك ، وان تمسك بماريا .. ولكنك تخشى ان تقوم بذلك ، مخافة ان لا تعثر عليها ، وان يكون كل ما رأيته منها حلما في حلم ، كاحلامك عن كواكب السينما ، أو عن صديقاتك القديمات عند ما يعـدن اليك في الحلم ، لينمن الى جانبك على الارض العارية ، أو على القش في العنابر والاسطبلات ، او في القابات والمراتب والسيارات الشاحنة والجبال انهن يأتين جميعا اليه في فراشه ، فيراهن امتع والذ مما عرفهن في عالـم الواقع والحقيقة .. اذن لم تخش ان تمسك بها ؟ الأنك لا تريد ان تفيق من الحلم الذي عشت فيه ؟

ووجد اخيرا الجرأة في نفسه ، فخطا بسرعة خلفها ووضع يده علـى ذراعها ، فأحس تحت أصابعه بنعومة هذا الذراع تحت قماش القميص . ونظرت اليـه فابتسمت ..

وقال .. هالو ! ماريـا !

ـ هالو يا انكليزي .. ورأى وجهها الأسمر الرائع وعينيها الرماديتين ، وشفتيها المكتنزتين وقد انفرجتا عن ابتسامة ساحرة ، وشعرها المقصوص الذي احرقته الشمس ، ورفعت رأسها اليه وابتسمت من جديد .. كلا انه ليس في حلم . انه يعيش في الحقيقة .

وغدوا الآن على مرأى من معسكر ايل سوردو ، الذي يقبع وراء الصنوبر .. انه صف طويل من الكهوف المتقاربة . ولكن هناك كهفين متقاربين ، تخفيهما الاشجار عن الانظار ، ان المعسكر ، يفضل مكان بابلو .

وكانت بيلار تسأل جواكين ـ وكيف قتلوا اسرتك ؟

ـ المسألة بسيطة يا امرأة ، لقد كانت اسرتي من اليساريين كغيرهم من اهل فالادوليد . وعندما شرع الفاشيون في تطهير المدينة ، قتلوا اولا ابي باطلاق النار عليه ، اذ اقترع الى جانب الاشتراكيين . ثم اطلقوا النار على امي ايضا فقتلوها ، لانها اقترعت مع الاشتراكيين ، وكانت المرة الاولى التي تقترع فيها . ثم قتلوا زوج احدى الاختين ، فقد كان عضوا في نقابة سائقي الترام ، وكان من الواضح انه لا يستطيع ان يصبح سائقا للترام الا اذا اصبح عضوا في النقابة ، ولكنه لم يكن يعمل في السياسة ، فقد عرفته خير معرفة . واني لأعتقد انه كان قليل الحياء ، ولم يكن رفيقا طيبا . ثم ارتحل زوج الاخت الاخرى ، الذي كان يعمل في الترام ايضا ، الى الجبال كما رحلت انا فخيل اليهم انها تعرف مكانه ، ولكنها لم تكن تعرف ، فقتلوها لانها لم تخبرهم بمكانه .

وقالت بيلار .. يا لهم من برابرة غلاظ القلوب ، اين ايل سوردو ؟ اني لا اراه .

ـ انه هنا ، قد يكون في الداخل .. اسمعي يا بيلار .. وانت يا ماريا ، اغفرا لي انني كدرتكما بالحديث عن الاسرة ، فانا اعرف ان لكل منا متاعبه وان من الخير ، عدم الحديث فيها ..

فردت عليه بيلار .. ولكن كان عليك ان تتحدث ، فقد خلقنا لنتعاون ومجرد الاصغاء دون عمل اي شيء ، سلبية في العون .

ـ ولكن حديثي قد اساء لماريا ، فلها مشاكلها الخاصة .

ـ فقالت ماريا ـ ان دلوي كبير بحيث يتسع الى مآسيك ايضا .. آسف يا جوالين وارجو ان تكون اختك بخير .

ـ لا زلت بخير ، ويبدو انهم لا يكثرون من الاساءة في معاملتها .

وقال روبرت ـ وهل ثمة اخرون في اسرتك ؟

ـ لا هذه هي اسرتي ، لم يبق منها الا انا وهي ، وذلك الصهر الـذي

مضى الى الجبال واعتقد انه مات .

فقالت ماريا .. قد يكون بخير ، وقد يكون مع احدى العصابات في جبال اخرى .

ـ لقد مات بالنسبة الي ، فهو لم يكن يحسن تصريف شؤونه ، وكان يمتهن قيادة حافلات الترام ، وهي ليست بالمهنة التي تؤهله لحياة الجبال واشك في انه يستطيع البقاء اكثر من عام لا سيما وقد كان مريضا في صدره

والقت ماريا بيدها على كتفه وهي تقول .. ولكن قد يكون ما زال على قيد الحياة .

ـ بالتاكيد يا فتاة ولم لا ؟

وبينما كان الفلام واقفا ، تقدمت منه ماريا وطوقت عنقه بذراعيها وقبلته ، وادار جواكين راسه ، فقد سالت عبراته .

وقالت ماريا ـ انني اقبلك كأخ لي .

وهز الفلام راسه وهو يبكي دون ان ينبس ببنت شفة .

ومضت ماريا تقول .. انني اختك ، وانني احبك ، وان لك اسرة ، فكلنا اسرتك .

وقالت بيلار .. حتى الانكليزي .. اليس كذلك يا انكليزي ؟

فرد روبرت ـ اجل ، كلنا اسرتك يا جواكين .

وقالت بيلار ـ انه اخوك .. اليس كذلك يا انكليزي ؟

ووضع روبرت يده على كتف الفلام وقال .. كلنا اخوة .. وهز الفلام راسه ثم قال .. لقد خجلت لانني تحدثت ، ان الحديث عن مثل هذه الامور يشق على الجميع ، وانه ليخجلني ، انني ابعث في نفوسكم الكآبة .

وقالت بيلار بصوتها العميق الجميل .. لعنة الله على خجلك . ولو عادت ماريا الى تقبيلك ، لشرعت انا في تقبيلك ايضا ، فقد انقضت سنوات عدة منذ قبلت أحد المصارعين ، حتى ولو كان فاشلا من طرازك ، اجل اني

احب ان اقبل مصارعا فاشلا أنقلب الى شيوعي ، امسكه يا انكليزي ، حتى استخلص قبلة رائعـة منه .

فقال الفلام ، وقد ادار رأسه بسرعة .. اتركني .. انني على ما يرام ، وانا خجـل مـن نفسي .

ووقف الفلام يحاول السيطرة على مشاعره . ووضعت ماريا يدها في يد روبرت . ووقفت بيلار ـ وقد وضعت يدها ، على خاصرتيها ، تتطلع الى الفلام بعين ساخرة الان .. وقالت .. وعندما اقبلك ، لن تكون قبلة اخت لاخيها ، فانا لا اؤمن بخرافة قبلة الاخت .

ـ لا حاجة بك الى السخرية مني ، قلت لك انني على ما يرام ، وآسف لانني قـد تحدثت .

فقالت بيلار .. اذن دعنا نمضي لرؤية الرجل العجوز . فقد اتعبتني هذه العواطف . ونظر اليها الفلام فجاة ، وفي نظرته ، صورة الانسـان الجريح ..

فقالت بيلار .. لم اعن عواطفك ، بل عواطفي انا . يا لك من انسان رقيق لا تصلح لان تكون مصارعا .

ـ كنت فاشلا . ولا حاجة بك الى الاصرار على ذلك .

ـ ولكنك ستعود اليها في يوم ما .

ـ اجل ، ولم لا ؟ فالقتال ، يكسب الانسان ذخيرة يوفرها .. والحرب تهيىء فرص العمل للكثيرين ، والدولة هي التي تشرف عليها . ومـن المحتمل انني لن اعود الى الشعور بالخوف .

ـ قد لا تخاف ، قد لا تخاف !!

وقالت ماريا ـ لماذا تتحدثين اليه يا بيلار ، بهذا الشكل الوحشي . انني احبك كثيراً ولكن تصرفك ينطوي على قسوة .

قد اكون قاسية .. ولكن اسمع يا الكليزي ، أتدري ما ستقوله لايـل سـوردو ؟

ـ اجل .

ـ انه رجل قليل الكلام ، خلافا لي ولك ولهذه الفتاة الجريئة العاطفية.

وقالت ماريا غاضبة ـ لم تتحدثين على هذا النحو ؟

ـ لا ادري . . ماذا تظنين انه السبب .

ـ لا ادري .

ـ احيانا ، قد اشعر بالتعب من امور عدة . افهمت ؟ ولعل من هذه الامور أن يبلغ الانسان الثامنة والاربعين . . هل سمعت ؟ ثمانية واربعون عاما ووجه قبيح . ثم ياتي هذا المصارع الفاشل ذو الميول الشيوعية ، فيبدو على وجهه الامتعاض والفزع ، عندما احدثه ساخرة بانني قد اقبله

فقال الغلام ـ انك تكذبين يا بيلار ، أذ لم تري فزعا في وجهي .

ـ من يقول اني اكذب . . لعنة الله عليكم جميعا . . آه ها هو . . هولا سانتياغو كيف حالك ؟

كان الرجل الذي تحدثت اليه بيلار قصيرا وبدينا ، ذا بشرة سمراء داكنة وشعر اشيب ، وعينين رماديتين واسعتين ، وانف معقوف ، وشفة عليا غليظة وفم كبير . كان حليق الذقن ، وقد خطا نحوهم ، قادما من الكهف ، وعلى الرغم من حرارة الطقس ، فقد كان يرتدي ملابس ثقيلة . ومد يده الضخمة الى بيلار . . وهو يقول . . « هولا . . يا امراة . . » ثم حيا روبرت وصافحه ، متطلعا الى وجهه بدقة وامعان . ورأى روبرت ان عينيه تشبهان عيني القطة في صفارهما والثمبان في استطالتهما . . ثم حيا ماريا وقد ربت على كتفها .

وقال يسال بيلار . . هل اكلت ؟ فهزت راسها نفيا .

ثم اتجه الى روبرت يساله . . هل اكلت ؟ او تود أن تشرب ؟

ـ اجل شكرا .

وقال ايل سوردو ـ حسنا . . ويسكي ؟

ـ الديك ويسكي ؟

ـ انكليزي ؟ لا روسي ؟

ـ اميركاني .

ـ عندنا بعض الامريكان هنـــا .

ـ كثر عددهم الآن .

ـ هذا اقل سوءا . امن الشمال ام الجنوب ؟

ـ مـن الشمـــال .

ـ مثل الانكليز .. متى ستنسف الجسر ؟

ـ أو تعرف عن الجسر ؟

فطاطا ايل سوردو راسه مؤيدا .

وقال ايل سوردو .. وبابلو ؟

فهزت بيلار راسها .. وقطب ايل سوردو جبينه .

وقال ايل سوردو .. وقد قطب ثانية ، موجها حديثه الى ماريا ، وقد اخرج من جيبه ساعة في بيت من الجلد .. اذهبي .. وعودي بعد نصف ساعـــة .

واشار لهما ان يجلسا على جذع شجرة أعد كمقعد ، ثم تطلع الى جواكين مشيرا الى الطريق التي جاءوا منها .. فقالت ماريا .. ساهبط مـــع جواكيـــن ثـــم اعـــود .

ودلف ايل سوردو الى الكهف ، ليعود منه حاملا زجاجة من الويسكي وثلاثة كؤوس ، وجرة ماء . فوضع الزجاجة والكؤوس على جذع الشجرة، وجـــرة المـــاء على الارض .

وقال وهو يقدم الزجاجة الى روبرت .. ليس عندنا ثلج ..
فقالت بيلار ـ ليست بي حاجة إلى الثلج .

وقال ايل سوردو وقد قطب جبينه من جديد . كان [illegible] ليلة امس

على الارض ، ثم ذاب ، وصل الثلج الى هنا ، وما زال موجودا هناك .. واشار الى قمة الجبل البعيـد .

واخذ روبرت يعد كاسا كبيرا له ، سرعان ما اترعه بالماء البارد ، وصب ايل سوردو لنفسه كأسا اخرى ثم قال موجها حديثه الى بيـلار ... اتريديـن نبيـذا ؟

ــ لا ، مـاء .

ــ خذي . انه ليس جيدا ، لقد عرفت عددا من الانكليز ، لا يشربون الا الويسكـي .

ــ وايـن عرفتهم ؟

ــ من المزرعة ، كانوا اصدقاء لصاحبها .

ــ من اين اتيت بالويسكي ؟

فقال ولم يستطع سماع السؤال .. ماذا ؟

وقالت بيلار .. عليك أن ترفع صوتك ، في الاذن الثانية .

واشار ايل سوردو الى الاذن الصالحة .. وقطب جبينه .

وصرخ روبرت .. من اين اتيت بالويسكي ؟

ــ صنعته .. كلا ، انني امزح ، يأتينا من لاغرانجا ، سمعت ليلة امس ان خبيرا انكليزيا بالالغام قد وصل ، حسنا ، هـل انت سعيد ، او تريد ويسكي . من اجلك ، أتحبه ؟

ــ احبه كثيرا ، انه من نوع جيد .

انا راض ، لقد جاء في ليلة أمس مع الاخبار .

ــ ايـة اخبـار ؟

ــ حركات واسعة للجنود .

ــ ايـن ؟

ـ في سيغوفيا ، هل رأيت الطائرات ؟

ـ أجـل .

ـ أليست دلائل سيئة ؟

ـ طبعـا .

ـ وحركات الجنود ؟

ـ حركات كبيرة بين فيلا كاستين وسيغوفيا ، على طريق فالادوليد ، وبين فيلا كاستين وسان رافائيل ، حركات واسعة

ـ مـاذا تعتقـد ؟

ـ هل نحن في طريق إعداد شيء ؟

ـ ربمـا .

ـ انهم يعرفون ، ويستعدون كذلك .

ـ هذا ممكـن .

ـ لم لا تنسف الجسر الليلة ؟

ـ الاوامـر .

ـ اوامر مـن ؟

ـ القيـادة العامـة .

ـ هكـذا .

وقالت بيلار .. وهل توقيت النسف هام ؟

ـ كـل الاهميـة .

ـ ولكن اذا كانوا يأتون بالقوات ؟

ـ سابعث انسيلمو بتقرير عن الحركات وحشد الجنود ، انه يرقب الطريـق .

فقال سوردو متسائلا .. ألديك انسان على الطريق ؟

لم يدر روبرت جوردان ان كان قد سمع ، ممن الصعب ان تعرف دائما

الحقيقة مع رجل اصم .. وقال .. اجل .

ـ ولي رجل يرقب الطريق ايضا ، لم لا تنسف الجسر الآن ؟

ـ لا تعجبني ، لا تعجبني هذه الاوامر .

ـ ولا انـا .

ـ وهز ايل سوردو راسه ورشف جرعة من الويسكي وقال .. وماذا تريـد منـي ؟

ـ كم رجلا عندك ؟

ـ ثمـانية .

ـ لقطع اسلاك الهاتف ، والهجوم على المركز القائم عند بيت مصلحي الطريق واحتلاله ثم الاندفاع نحو الجسر .

ـ هذا سهل .

ـ ساكتب لـك الخطة .

ـ لا تزعج نفسك . وبابلو ؟

ـ سيقطع اسلاك الهاتف فى اسفل الجبل ، ثم يهاجم المركز عنـد الطاحونة ويحتلها ويندفع الى الجسر .

وقال بيلار .. وماذا بعد ذاك بصدد الانسحاب ؟ نحن سبعة رجال وامراتان وخمسة جياد . وانتم ؟.. وصرخت الكلمة الاخيرة في اذن سوردو

ـ ثمانية رجال واربعة جياد . تنقصنا الخيل .

فقالت بيلار .. سبعة عشر رجلا وتسعة جياد . ولا اعتبار لوسائط النقـل .

ولـم يعلق سوردو بكلمـة .

وقال روبرت وهو يصرخ فى اذن سوردو ـ اليس ثمة مـن سبيل للحصول علـى جياد ؟

ـ لقد حصلنا في سنه على اربعه . ونحن نريد ثمانية غدا .

فقال روبرت ـ اجل . هذا اذا عرفت انك ستغادر هذه الاماكن ، وانه لم تعد بك حاجة للحذر فيها . اجل لم تعد حاجة الى الحرص . اوليس في وسعك ان تشن هجوما وتسرق ثمانية جياد ؟

ـ ربما ، قد نوفق بعدد اكبر ، او لا نوفق بجواد واحد .

ـ او معك بندقيه اوتوماتيكية ؟

فهز سوردو راسه مؤيـدا .

ـ ايـن هي ؟

ـ في اعلـى الجبـل .

ـ مـا نوعها ؟

ـ لا اعرف الاسم . لهـا خزانة للعيارات .

ـ وكـم عيارا عندك لهـا ؟

ـ خمسة صناديق .

ـ ايعرف احد رجالك استعمالها ؟

ـ انا ، بعض الشيء ، ولكنني لا استعملها كثيرا ، اذ لا اريد ان احدث ضجة في هذه الاماكن ، ولا اريد ان استنفد العتاد دون سبب .

ـ سأراها فيما بعد ، الديك قنابل يدوية ؟

ـ لدي الكثير منهـا .

ـ وكم عيارا لديك لكل بندقيـة ؟

ـ لدي الكثيـر .

ـ كـم ؟

ـ مائة وخمسون ، بل واكثـر .

ـ وما الموقف بالنسبة للآخرين ؟

ـ لأي شـــيء ؟

ـ لتكون لديهم القوة الكافية لاحتلال المواقع ، وحماية الجسر بينمـا اتولى نسفه ، يجب ان يكون لدينا ضعف العدد .

ـ لا تقلق من احتلال المراكز ، في اي ساعة من النهار ؟

ـ عنـد الفجـر .

ـ لا تقلـق .

ـفقال روبرت .. في وسعي أن أستخدم عشرين اخرين ، لنتـأكد مـن النتيجـة .

ـ ليس لدينا عدد طيب . اتريد اناسا لا يمكن الاعتماد عليهم ؟

ـ لا . كم رجلا يمكن الركون اليهم ؟

ـ ربما اربعة .

ـ لـماذا عددهم قليل ؟

ـ الافتقـار الـى الثقة .

ـ للامساك بالجيـاد ؟

ـ اجل يجب ان تتوافر الثقة للامساك بالجياد .

ـ بودي أن نحصل على عشرة آخرين .

ـ اربعـة .

ـ قال لي انسيلمو أن ثمة مائة رجل في هذه الجبال .

ـ انهم ليسوا بصالحين لشيء ...

وقال روبرت يحدث بيلار .. وقد ذكرت انت ان ثمة ثلاثين رجلا يمكن الـركون اليهـم .

فقالت بيلار وهي تصرخ في أذن سوردو .. وما رايك في رجال ايلياس ؟

فهز راسه وقال .. لا يصلحـون .

وسأل روبرت .. أوليس في وسعك أن تحصل على عشرة ..

فهز رأسه وقال .. اربعة فقط .

وقال روبرت يسأله .. ورجالك ؟ هل هم صالحون ؟

فهز سوردو رأسه موافقا . وقال .. في حدود الخطر .. هل هذا سيء؟

ـ ربمـا كان سيئا .

ـ سيان عندي . فاربعة يركن اليهم ، خير من عدد كبير لا نفع فيه . وفي هذه الحرب يكثر الطالحون ، ويقل الصالحون .. وفي كل يوم يقل عدد هؤلاء .. وكيـف بابلو ؟

فقالت بيلار .. انه يسوء يوما بعد آخر .

وهز سوردو كتفيه .. ثم قال .. اشرب ، سآتي برجالي ، واربعـة آخرين فيكون المجموع اثني عشر . وسنبحث الليلة فى الموضوع كاملا .. وعندي ستون قضيبا من المتفجرات ، هل تريدها ؟

ـ ايـة نسبة ؟

ـ لا ادري . من النوع العادي . سأريكها .

ـ سننسف الجسر الصغير بها . هذا رائع . اذن ستأتي الينا الليلة ؟ هاتها معـك .

وعلى الرغم من عدم وجود اوامر لدي بصدد الجسر الصغير ، فيجب ان ننسفـه .

ـ سآتي الليلة ، ثم نذهب لاصطياد الخيول .

ـ وما نسبة املك فى الجياد ؟

ـ ربمـا . والآن كل ...

وسأل روبرت نفسـه ، ترى هل هذه هي طريقته فى الحديث الى الجميع او انه يستخدمها مع الاجانب فقط فى محاولة لافهامهم .

وقالت بيلار وهي تصرخ فى اذن ايل سوردو... واين سنمضي بعد ان

ننجـز هـذا العمل ؟

فهز الرجل كتفيـــه .

وقالت المراة .. يجب ان نرتب هذا أيضا .

فقال سوردو ـ طبعا ، ولم لا ؟
ـ لا ريب ان هذا في منتهى السوء ، وعلينا أن نحسن الاعداد .
ـ اجل ، يا امراة ، مـا الذي يقلقك ؟

ـ كل شيء .

ـ لقد اختلفت مع بابلو ..

وقالت بيلار ـ واين تعتقد اننا يجب ان نمضي ؟

ـ ايـــن ؟

ـ اجـل ايـن ؟

ـ هناك اماكن عدة ، اماكن عدة . أتعرفين غريدوس ؟

ـ هناك عدد كبير من الناس فيها . ولا ريب انهم سيطهرون جميع هذه الاماكن عندما يتوفر لهم الوقـت .

ـ أجل ولكنها بلاد كبيرة ، ومتوحشة .

وقالت بيلار .. سيكون من الشاق علينا الوصول اليها .

ـ كل شيء صعب . في وسعنا ان نصل الى غريدوس كما نصل الى اي مكان آخر . نرحل في الليل . لقد غدا المكان هنا خطرا . لا ريب في انها معجزة ، أن نظل هنا طيلة هذا الوقت . وغريدوس بلاد اكثر أمنـا مـــن هنـا .

ـ او تعرف اين اريد ان اذهب ؟

ـ اين ؟ الى براميرا ؟ انها لا تصلح .

ـ لا ، ليس الى براميرا . اريد ان اذهب الى الجمهورية .

ـ هـذا ممكن .

ـ أويذهب رجالك الـى هناك ؟

ـ اجل ، اذا طلبت اليهم ذلك .

وقالت بيلار ـ اما بصدد رجالنا ، فلا ادري ، وقد لا يرغب بابلو فـي الذهاب على الرغم من انه قد يكون هناك ، اكثر امنا . انه اكبر سنا مـن ان يطلبوه الى الجندية الا اذا احتاجوا طبقات جديدة . وبالطبع لن يرغب الفجري في الذهاب . اما الآخرون فلا اعرف عنهم .

ـ لقد مضى عليهم وقت طويل هنا ، حتى انهم لم يعودوا يدركون الخطر

فقال روبرت ـ اما بعد الطائرات اليوم فسيرون الخطر اكثر فاكثر . وانا اعتقد انكم ستستطيعون تحقيق اعمال اكبر في غريدوس .

وقال ايل سوردو ، وقد خلت لهجته من الود . . . ماذا ؟

ـ في وسعكم ان تشنوا غارات أكثر من هناك .

ـ اذن فأنت تعرف غريدوس ؟

ـ أجل ، في وسعكم مهاجمة القطارات من هناك . وان تقطعوا الخط الحديدي كما تقطعه نحن الى الجنوب من السييرامادورا . ان العمل هناك خير من العودة الى الجمهورية واجدى .

وكان سوردو وبيلار ، قد قطبا جبينيهما وهو يتحدث ، وأخذ الواحد منهما يتطلع الى الآخـر .

وقال سوردو يسأله ـ أوتعرف غريدوس حقـا ؟

ـ طبعا ، بكـل تأكيـد .

ـ واين ذهبت ؟

ـ الى ما فوق باركودي افيلا . ان الاماكن هناك خير منهـا هنـا . والغارات ممكنة على الطريق الرئيسي وعلى السكة الحديدية بين بيجـار وبلازينسيـا .

ولكنهـا شاقـة .

ـ لقد عملنا في ظروف اكثر صعوبة ضد السكة فى ايسترا مادورا

ـ مـن انتـم ؟

ـ جماعات الانصار فى السيترامادورا .

ـ وهل انتم كثـر ؟

ـ نحو مـن اربعين .

وقالت بيلار تسأله ـ وهل كان ذلك الرجل ذو الاعصاب المنهارة والاسم الغريـب مـن هنـاك ؟

ـ اجـل .

ـ واين هو الآن ؟

ـ لقـد قلت لـك انه مات .

ـ وهل انت من هناك ايضا ؟

ـ اجـل .

وقالت بيلار تسأله ـ او فهمت ما اعنيه ؟

واخذ روبرت جوردان يسائل نفسه .. هل اخطأ في حديثه . لقـد تحدث للاسبانيين ان في وسعهم ، كاغراب ، ان يفعلوا احسن مما يفعلونه هم ، مع ان القاعدة تقضي بان لا يتحدث الغريب عن مغامراته وكفاءاته .. ومضى يقول .. كان علي ان اتملق لهم ، وان اصانعهم ، وبدلا من ذلك . فانا ارشدهم الى ما يجب عليهم أن يفعلوه .. وهذا ما اغضبهم .. وقد يتغلبون على سورة غضبهم او لا يتغلبون . حقا انهم اجدى وانفـع فى غريدوس منهم هنا .. والدليل على ذلك انهم منذ حادث القطار الذي نظمه كاشكين لم يقوموا باي عمل . ولم يكن الحادث كبيرا .. حقا لقد كلـف الفاشيين قاطرة وعددا من الجنود القتلى ، ولكنهم يتحدثون عنه وكأنه اكبر انتصار فى الحرب . انهم قد يخجلون من الذهاب الى غريدوس . اجل ، وقد يطردونني من هنا ايضا .. ان المنظر لا يبدو مشرقا بالنسبة الي .

وقالت بيلار .. اسمع يا انكليزي ! كيف حالة اعصابك ؟

ـ حسنـة للغايـة .

ـ كان الخبير الاخير الذي ارسلوه الينا على الرغم من مهارته وتفوقه في عمله ثائر الاعصاب .

ـ لدينا بعض ثائري الاعصاب .

ـ انا لا اقول انه كان جبانا ، فقد كان يتصرف تصرفا ممتازا . ولكنه كان يتكلم بطريقة غريبة وسريعة .. أو ليس صحيحا يا سانتياغو ، ان الديناميتي الاخير الذي كان معنا في القطار ، كان انسانا غريبا ..

فقال الرجل الأصم .. اجل لقد كان غريبا .

فصرخ روبرت .. لقد مات .

وقال الاصم يساله ـ وكيف وقع ذلك ؟

ـ لقد قتلته . كان مثخنا بالجـراح ، لا يستطيع السير ، فاطلقت النـار عليـه .

وقالت بيلار ـ لقد كان دائم الحديث عن هذه الضرورة . كانت اللعنة التـي ركبته دائمـا .

فقال روبرت .. اجل كان دائم الحديث عن هذه النهاية .. وكانـت اللعنـة التي لازمتـه .

وقال سوردو يساله .. اكنتما في حادث قطار ؟

ـ اجل كنا نعود من حادث قطار . لقد نجحنا فيه . وفي طريق الاوبة ، التقينا دورية فاشية ، فهربنا ، واطلقوا النار علينا فاصابوه في ظهره .وقد واصل السير مسافة طويلة ، ولكنه لم يستطع المضي في السير بسبب الجرح . وكان خائفا من ان اخلفه وحيدا فيقع في ايديهم ، فقتلته .

فقال ايل سوردو ـ هذا ليس بالامر السيء .

وقالت بيلار تساله ـ وهل انت واثق من اعصابك ؟

ـ اجل . انا واثق من ان أعصابي على ما يرام . واعتقد اننا عندما ننتهي من حادث الجسر ، فمن الخير ان تمضوا الى غريدوس .

وما كاد ينطق بهذه العبارة ، حتى بدات المراة تشتم وتسب ، وقـد انهالت عليه بسيل من اللعنات والسباب . وضحك ايل سوردو من المنظر ، وظل يرقب بيلار وهو فرح مبتهج بينما واصلت المراة شتائمها . وادرك روبرت انه كسب الجولة . وتوقفت بيلار عن السباب . ودنت من جرة الماء ، واخذت بعض الماء بهدوء .. وقالت .. اذن اغلق فمك يا انكليزي عما يجب ان نفعله فيما بعد . ففي وسعك أن تعود انت الى الجمهورية ، وان تأخذ معك فتاتك ، وتتركنا نحن هنا نقرر في اي جزء من الجبـال سنمـوت .

فقال ايل سوردو .. في أي جزء سنعيش يا بيلار ، لا نموت ، هدئي مـن روعـك .

ـ نعيش فيه ، ونموت فيه . ففي استطاعتي أن ارى النهاية تماما . انني احبك يا انكليزي ، ولكن اغلق فمك ، ولا تتحدث عما يجب ان نفعله بعد أن تنتهي مـن مهمتك .

ـ هذا شانكم ، ولا علاقة لي به ، ولن اتدخل فيه .

ـ ولكنك تدخلت . خذ عاهرتك الصغيرة المجزوزة الشعر ، وامض الى الجمهورية ولكن لا تغلق بابها في وجوه الاخرين الذين هم ليسوا اغراباعنها، والذين كانوا يحبونها ، عندما كنت انت ترضع من ثدي أمك .

وكانت ماريا ، قد عادت في تلك اللحظة وسمعت الجملة الاخيرة التي قالتها بيلار بصوت مرتفع موجهة كلامها الى روبرت جوردان . وهزت ماريا راسها بعنف وهي تشير الى روبرت محذرة اياه . ورأت بيـلار ، روبرت ينظر الى الفتاة ، ويبتسم لها . فالتفتت اليها تقول .. اجل لقد قلت انك عاهرة ، وانا اعني ما أقول . وافترض انكما ستذهبان معا الـى

فالانسيا ، بينما نجتر نحن كالماعز في جبال غريدوس .

وقالت ماريا ـ انني عاهر ، اذا شئت ذلك يا بيلار . وانني اوافقك على كل ما تقولينه لي ، ولكن هدئي روعك ، فماذا دهاك ؟

وجلست بيلار على المقعد ، وقالت بصوت هادىء خلا من كل غضب .. لا شيء . وأنا لا ادعوك عاهرة ، ولكن لي رغبة عارمة في الذهاب الى الجمهورية .

فقالت ماريا .. في وسعنا ان نذهب اليها جميعا .

وقال روبرت .. ولم لا ، ما دمت لا تحبين غريدوس .

وقطب سوردو جبينه وهو ينظر اليه .. ثم قالت بيلار .. حسنا سنرى . اعطني كأسا من اي شراب نادر . لقد جف حلقي من الغضب . سنرى . سنرى ما يحدث .

وقال ايل سوردو شارحا .. ارايت ايها الرفيق .. انه الصباح ، الذي يأتي بالمتاعب .. قال هذا في لهجة اسبانية سليمة ، وكان يتطلع في عيني روبرت بهدوء ، لا ينطوي على اي شك أو ريبة .. ثم مضى يقول .. انا افهم ما تريد ، واعرف ان المراكز يجب ان تزال من الوجود ، وان الجسر يجب ان يغطى تغطية كاملة وانت تقوم بعملك ، انني افهم هذا اصدق الفهم ، في وسعنا ان نفعل هذا عند الفجر أو قبيله .

وقال روبرت .. اجل .. ثم تطلع الى ماريا يقول .. ابعدي قليلا ارجوك ؟ ومضت الفتاة بعيدة عن مدى السماع وجلست وقد شبكت يديها فوق كاحليها ، وقال سوردو ارايت ؟ ليس في هذا اية مشكلة أولكن الرحيل بعد ذلك ، والخروج من هذه المنطقة في وضح النهار ، يؤلفان مشكلة مستعصية .

فرد روبرت ـ واضح ، لقد فكرت في الموضوع ، والنهار هو النهار

بالنسبة الي ايضا ، ولكنك واحد ، ونحن كثيرون .

فقالت بيلار ـ ثمة احتمال ، بان نعود الى معسكراتنا ، وان نرحل عند حلول الظلام .

فرد ايل سوردو بقوله .. ولكن هذا خطر ايضا ، بل لعله اكثر خطورة.

وقال روبرت ـ في وسعي أن ارى ما سيحدث .

فقال ايل سوردو ـ ان الانتهاء من عملية الجسر في الليل امر سهـــل للغاية . ولكنك تشترط ان تتم عند الفجر ، وهذا الاشتراط ، هو الذي يسبب نتائج خطيـرة .

ـ اعرف ذلـك .

ـ الا تستطيع انجاز المهمة في الليل ؟

ـ سأقتل اذا عملت ذلك .

ـ ولكن قد نقتل جميعنا اذا عملتها فى النهار .

ـ هذا ليس بالامر المهم لدي اذا نسف الجسر ، ولكنني ارى وجهـة نظرك او ليس في وسعك ان تؤمن التراجع في وضح النهار ؟

ـ حتما ، سنضع خطة لمثل هذا التراجع ، ولكنني اريد ان اشرح لك لماذا يغرق انسان فى عمله ، فيثور اخر ، انك تتحدث عن الذهاب الـــى غريدوس وكأنه مناورة عسكرية ، ان الوصول الى غريدوس معجزة مـــن المعجزات .

ولم يفه روبرت ببنت شفة .. ومضى الرجل الاصم فى حديثه .. اسمع، لقد تحدثت كثيرا ، ولكن هذا هو السبيل ليفهم احدنا رفيقه ، اننا نعيش هنا بمعجزة ، ان المعجزة تقوم في كسل الفاشيين وبلادتهم ، وهو ما قد يتخلصون منه فى الوقت المناسب ، وبالطبع ، نحن حذرون كل الحذر ، ولا

نثير اية متاعب او مشاكل في الجبـال .

ـ انا اعرف هذا .

ـ اما الآن ، وبعد عملية الجسر ، فعلينا ان نمضي ، وعلينا ان نفكـر كثيـرا في طريقة ذهابنا .

ـ هـذا واضح .

ـ اذن دعنا نأكل الآن ، لقد تحدثت كثيرا .

ـ وقالت بيلار ـ لم اسمعك في حياتي تكثر من الحديث كمـا اكثرت اليوم فهل هذا هو السبب ؟ واشارت بيدها الى الكأس .

ـ لا . انه ليس الويسكي هو الذي يتحدث . فهو لا يحملني ابدا على الاغراق في الحديث .

فقال روبرت ـ انني اقدر كل التقدير . عونك واخلاصك ، كما اقدر الصعوبة التي سيثيرها توقيت نسف الجسر .

ـ لا تقل هذا . فنحن هنا لنفعل ما نستطيع أن نفعله . ولكن هـذا الموضـوع معقـد .

ـ وهو سهل كل السهولة على الورق . فعلى الورق ، يجب ان ينسف الجسر في اللحظة التي يبدأ فيها الهجوم ، حتى لا تمر وحدات جـديدة على الطريق . اليس الموضوع على درجة كبيرة من السهولة ؟

ـ انهم يعهدون الينا بتنفيذ اشياء على الورق . انهم يريدون ان نعمل وان ننفـذ على الورق .

ـ ولكن الورق لا ينزف الدماء .

فقالت بيلار ـ ولكنه نافع ومجد . ان ما اريده هو ان استخدم اوامرك

لهـذا الفرض .

فرد روبرت ـ وانا كذلك . ولكن ليس في وسعك ان تفوزي بحـرب علـى هـذا الشكل .

ـ لا ، حتما لا . ولكن اتعرف ما اريد .

فقال ايل سوردو ـ تريدين ان تذهبي الى الجمهورية .. اذن علينا ان نربح هذه المعركة ، وستغدو المنطقة كلها جزءا من الجمهورية .

ـ حسنا . والآن ، بالله عليكم ، دعونا نأكل .

١٢

تركوا معسكر ايل سوردو ، ومضوا فى طريق العودة . وقد رافقهم ايل سوردو الى المركز السفلي فى حدود معسكره .. ثم قال .. وداعا . والى اللقاء في المســاء .

فقال روبرت .. وداعا .. وبدا الثلاثة يهبطون الطريق . والرجل الاصم، يقف على المرتفع ، يرقبهم ، وهم يهبطون . وادارت ماريا وجهها اليه ، تلوح له بيدها ، فرد لها ايل سوردو التحية على طريقة رفع الذراع ، التي يتبعها الاسبانيون فى التحيات التي لا تمت الى العمل بصلة . وكان طيلة وجبة الغداء ، كثير التهذيب معهم ، وكثير العناية بالاصغاء اليهم ، وكان يتحدث الى روبرت سائلا اياه عن الاحوال فى الجمهورية . ولكن كان مـن الواضح ، انه يريد الخلاص منهم .

وعندما فارقوه .. قالت بيلار ، حسنا يا سانتياغو .

فقال الرجل الاصم .. ليس ثمة من داع لكلمة حسنا يا امراة . فالامر على ما يرام ولكنني كنت افكر .

وقالت بيلار .. وانا كنت افكر ايضا ...

وهكذا بدأوا يهبطون الجبل ، عبر اشجار الصنوبر ، وظلـــت بيلار ، متمسكة باهداب الصمت . وسكت روبرت كما سكتت ماريا عن الحديث، وظلوا يغذون السير حتى انتهت الطريّق من الهبوط في الوادي المدغل ، لتعود الى الارتفاع ، وتصل الى المرج السامق .

وكان الطقس شديد الحرارة ، في ذلك اليوم القائظ من ايام أيار ، وعندما وصلوا في ارتقائهم نصف المسافة ، توقفت بيلار ، فوقف روبرت ونظر اليها فرأى العرق يتصبب منها . وخيل اليه ان وجهها الاسمر يبدو شاحبا وان بشرتها ، فقدت نقاءها ، وان هالتين سوداوين قد اطلتا تحت عينيها

.. فقال .. لنسترح هنيهة .. اننا نسرع السير كثيرا .

فقالت ـ لا ، لنواصل السير .

وقالت ماريا ـ استريحي يا بيلار ، فأنت تبدين تعبة .

ـ اغلقي فمك . فلم يطلب احد نصيحتك .

وواصلت الارتقاء ، ولكنها ما كادت تصل الى القمة ، حتى اضحت تتنفس تنفسا ثقيـلا ، وغطى العرق المتصبب وجهها، ولم يعد ثمة شـك في شحوبهـا .

وقالت ماريا .. اجلسي يا بيلار ، ارجوك أجلسي قليلا .

ـ حسنا سأجلس ، وجلس الثلاثة تحت شجرة صنوبـــر ، واخذوا يتطلعون عبر المرج الى قمم الجبال ، المتعالية في السماء ، وقد تكللـــت هاماتها بالثلوج ، تنعكس عليها الان شمس الظهيرة .

وقالت بيلار ـ يا للثلوج من قذارة ومع ذلك ، فهي تبدو جميلة رائعة.. اجل انها حلم جميل .. والتفتت الى ماريا تقول .. آسف يا حلوة ، انني كنت قاسية معك ، ولا ادري ماذا جثم على نفسي اليوم ، يسيطر علـي شعور شريـر .

وردت ماريا تقول .. انا لا اهتم بما تقولينه وانت غاضبة ، وكثيـرا مـــا تغضبين .

ـ ولكن ما احس به اسوأ من الغضب .

ـ هل انـت مريضة ؟

ـ لا تعالي يا حبيبتي ، وضعي راسك في حضني .

ودنت ماريا منها ووسدت راسها على ذراعيها في حضنها ، ورفعـت وجهها الى بيلار تبتســم ، ولكن هذه ظلت تنظر الى قمم الجبال البعيدة ، وربتت على راس الفتاة دون ان تنظر اليها ، ثم مرت باصبعها على جبهتها، وحول اذنها الى منبت الشعر في عنقها ، وقالت .. في وسعك ان تمتلكها بعد قليل يا انكليزي .. وكان هذا يجلس وراءها .

فقالت ماريا .. لا تتحدثي على هذا الشكل .

فردت بيلار ، وهي لا تنظر الى اي منهما .. اجل في وسعه ان يمتلكك .. لم ارغب قط فيك ، ولكنني غيورة .

فقالت ماريا ـ بالله عليك ، لا تتحدثي على هذا النحو يا بيلار .

ـ اجل في وسعه ان يمتلكك ، ولكنني غيورة جدا .

ـ ولكنك يا بيلار ، اوضحت لي ، ان ليس بيننا اي شيء .

ـ ثمة دائما امور من هذا النوع ، اجل ثمة امور من هذا النوع يجب ان لا تكون ، ولكن معي لا بأس ، فكل ما ارجوه هو سعادتك ولا شيء غيرها .

ولم تنبس ماريا بحرف واحد ، ولكنها ظلت مستلقية براسها ، محاولة ، ان تستريح في موضعه .

ومضت بيلار تقول .. وهي تمر باصابعها على وجنة الفتاة دون وعي اسمعي يا حبيبة .. اني احبك ، ولكن في وسعه ان يمتلكك . فانا لست بالسحاقية ، وانما امراة خلقت للرجال . وهذا حق وصدق . ولكن يلذ لي الآن ، وفي وضح النهار ، ان ابوح لك بحبي .

ـ وانا احبك ايضا يـا بيلار .

ـ لا تقولي هراء . فانت لا تفهمين حتى ما اقوله .

ـ اعــرف .

ـ ماذا تعرفين . انك للانكليزي . وهذا ما اراه ، وما يجب ان يكون . هذا اقبله . اما اي شيء آخر فلا اقبله . وانا لا اقوم باية انحرافات ،ولكن ما اقوله لك هو الحقيقة . ولن يحدثك بالحقيقة الا القليلون ، وكلهم من غير النساء . فانا غيرى ولكنني اقول الحقيقة . اجل انني اقولها .

ـ لا ، لا نقوليها يا بيلار ، لا تقوليها .

ـ لم لا اقولها ؟ سأمضي في قولها ، حتى اشعر بالضجر من قولها ..وقد حان الوقت الان ، حتى لا اقولها ، افهمت .

ـ لا تتحدثي على هذا النحو يا بيلار .

ـ انك ارنبة صغيرة ممتعة . وارفعي راسك الان ، فقد مرت هــذه اللحظة السمجة .

كلا لم تكن سمجة ، وان راسي يشعر بالراحة حيث هو .

ـ لا ، ارفعيه .. ومدت يديها فرفعت بهما رأس الفتاة .. وقالت ، وانت يا انكليزي ؟ اية قطة اكلت لسانك ؟

ـ لم تأكل لساني اية قطة .

ـ اذن اي حيــوان ؟

ـ ولا حيــوان ايضــا .

ـ اذن ابتلعته انت .

ـ يخيل الـي ذلـك .

ـ وهل اعجبك مذاقه ؟

ـ لا ليس كثيــرا .

ـ هذا ما لم يخيل الي ، ولكنني اعيد اليك ارنبتك ، ولم احاول ان آخذها منك ، هذا اسم جميل لها ، لقد سمعتك تطلقه عليها هذا الصباح.

وشعر روبرت بحمرة الخجل في وجهه .

فقالت بيلار ـ لا ، ولكنني على الرغم من ان بساطتي معقدة كل التعقيد ، فهل انت معقد يـا أنكليزي ؟

لا ولكني لست بسيطا للغاية .

ـ انك تسرني يا انكليزي . . وابتسمت ثم انحنت وهزت راسها ومضت تقول . . واذا استطعت ان اخلص الارنبة منك ، وان اخلصك من الارنبة ؟

ـ لـن تستطيعي .

ـ اعرف ذلك ، ولا احب ان افرق بينكما ، ولكني عندما كنت فتية كان في وسعـي ان افعل ذلـك .

ـ انا واثق مـن هذا .

ـ انـت واثق ؟

ـ بكل تاكيد ، ولكن مثل هذا الحديث هراء .

ـ وقالت ماريا ـ أنه لا يليق بك .

ـ انني تغيرت اليوم ، انني لا اشبه نفسي الا قليلا ، فلقد سببت لي قصة الجسر صداعا ايها الانكليزي .

ـ في وسعنا ان نسميه جسر الصداع . ولكنني ساقذف به في تلـك الهاوية كقفص محطـم .

ـ حسنا ، واصل الحديث على هذا النحو .

ـ ساحطمه كما تحطمين حبة الموز بعد أن ترفعي القشرة عنها .

ـ في وسعي ان آكل حبة من الموز الآن ، واصل الحديث يا انكليزي ، تحدث على هذا النحـو الرائع .

ـ لا حاجة بنا ، دعينا نعود الى المعسكر .

ـ الواجب . . سيحين وقته عاجلا ، قلت انني ساترككما وحيدين .

ـ لا فلدي الكثير لأعمله .

ـ وهذا عمل ايضا ، ولن ياخذ منك وقتا طويلا .

فقالت ماريا ـ اغلقي فمك يا بيلار . انك تتحدثين بغلظة .

ـ انني غليظة ، ولكنني رقيقة جدا ايضا . سأترككما معا . أما الحديث عن الغيرة فهراء . لقد غضبت من جواكين ، لانني رايت في نظرته الي مدى قبحي . وكل ما اغاره منك انك فى التاسعة عشرة الان . والان انا ذاهبة .

ونهضت على قدميها ، ووضعت يدها على خاصرتها ، وتطلعت الـــى روبرت الواقف ايضا . وجلست ماريا ، تحت الشجرة وقد خفضت راسها

وقال روبرت . . دعينا نعود الى المعسكر معا . هذا خير وابقى . . ثم ان لدينـــا الكثير لنعمله .

واشارت بيلار براسها الى ماريا . الجالسة بعيدا هناك وقد ادارت راسها عنهما معا دون ان تنبس ببنت شفة .

وابتسمت بيلار ، وهزت كتفيها وقالت . . انك تعرفين الطريق ؟

فقالت ماريا دون ان ترفع راسها . . اجل اعرفها .

ـ اذن فانا ذاهبة . سنعد لك شيئا دسما لتأكله يا انكليزي .

ومضت تعبر المرج باتجاه الجدول الذي ينساب هابطا نحو المعسكر .

وصرح روبرت . . قفي . . من الخير ان نذهب معا .

وظلت ماريا جالسة هناك لا تقول شيئا .

ولم تعد بيلار ، بل قالت . . ما معنى نذهب معا . سأراك فى المعسكر .

ووقف روبرت ، وقال . . هل هي على ما يرام ؟ كانت تبدو مريضة .

ـ دعهـــا تذهـــب .

ـ اعتقد ان علي ان اذهب معها .

فقالت ماريا ـ دعها تذهب . دعها تذهب !!

١٣

مشى روبرت وفتاته ، فوق اعشاب المرج ، واحس باحتكاك الاعشاب ، مع ساقه ، كما شعر بعبء مسدسه ، في قرابه على فخذه ، وبحرارة الشمس على راسه ، وبالنسيم البارد العليل يهب من القمم الثلجية على ظهره ، بينما لمس في يده ، يد ماريا ، وقد ضغطت عليها بقوة وعزم .

واحس روبرت ، تيارا يسري في هذه الكف الموضوعة في يده ، ومن هذه الاصابع المتشابكة مع اصابعه ، وفي هذا التيار من الجدة ، ما يشبه ، النسيم العليل ، وهو يهب متجها من البحر ، ليداعب شفتي الانسان ، او الورقة التي تسقط ، مع الريح خفيفة ناعمة لا تكاد الارض التي سقطت عليها تحس بها . ولكن في هذه اللمسة من اصابعها ، قوة تشتد ، ملحة ، ومحرقة وعنيفة ، حتى تصل حد الضغط ، على كفه ورسغه ، فيرتفع التيار ساريا في ذراعه ، ليملأ جسده ، بشعور من الخواء والاشتهاء . وفجاة امسك براسها ، وضمها الى صدره وقد انعكست اضواء الشمس على شعرها المحروق ، وعلى وجهها الجميل الناعم ، وعلى عنقها المشرئب ، وقبلها ، وشعر بها ترتعد بين ذراعيه وهو يقبلها ، كما احس ، بثدييها الناهدين يلتصقان بصدره وكانهما يريدان الانجذاب اليه ، فمد يده يفك ازرار قميصها ، ليقبلها قبلة ناعمة ، تلتهب بالدفء والحرارة فازدادت رعدتها ،

وهي مستسلمة بين ذراعيه .. ثم انطلقت تطوقه بيديها ، بعنف وقوة ، وتنتقل بشفتيها اللاهبتين على عنقه .. وهتف من اعماقه .. ماريا .. آه يا ماريا .. اين سنذهب ؟

ولم تنبس الفتاة ببنت شفة بل دست اصابعها عبر ازرار قميصه ، تجوس في صدره وهي تقول .. وانا اريد ان اقبلك كما قبلتني .

ـ لا يا ارنبتي الصغيـرة .

ـ بلى ، سأقبلك كما قبلتني ، تماما .

ـ لا ، هـذا مستحيل .

ـ اذن ، آه ، اذن آه ، اذن ، اه !

وتهشم العشب تحت راسها ، الذي أستلقى عليه ، وقد اغمضت عينيها وانطلقت شفاهها ، تقبل كل ما تقع عليه منه ، بينما تحول كل شيء امامه، الى لهب احمر ، ساطع كالنار ، وهو ينظر الى اشعة الشمس ، تنعكس على عينيها المغلقتين ، ويستمع الى آهاتها المتلاحقة ، نشوى من الامتلاك واللذة .. وسرعان ، ما تحول ، هذا الشعور من الخواء الذي كان يطغى عليه ، والذي لا يعرف له سبيلا او اتجاها ، ويحمله في شتى التيارات ومختلف الاعاصير ، الى احساس من الامتلاك ، وقد توقف الزمن .. عن الدوران ، بينما اخذت الارض التي ينامان فوقها ، تنأى عنهما ، بكل مـا فيها من خشونة وقسوة ..

واستلقى بعد قليل ، على ذراعه ، وقد غاص راسه في الحشائش يشمها، واندس في اريجها ، بكل ما في الارض من نعومة ، وفي الشمس من دفء ، والى جانبه فتاته وهي لا تزال مغمضة العينين ، وعندما فتحتهما ،ابتسمت اليه .. وسمعته يقول لها بصوت ودود متعب .. هالو .. يا ارنبة ، فترد عليه .. قريبة منه كل القرب .. هالو .. يا انكليزي .

فقال بتكاسل .. لست انكليزيا .

فمدت يديها تمسك باذنيه وتقبله في جبينه وهي تقول ، بلى انك انكليزي

.. كيف ابدات احسن ألتقبيل ؟

وسرعان ما عادا يسيران على ضفاف الجدول ، وقال لها .. ماريا أنني احبك .. فأنت جميلة ، ورائعة ، وعذبة ، واني لاشعر بكل ما في العالم من سعادة ، عندما اكون معك .. حتى انني لأود ان اموت ، ونحن نمارس الحب .

ـ انني اموت كل مرة ، اولا تموت انت ؟

ـ لا ، ولكنني اصبح قريبا من الموت ، او لم تشعري بالارض تتحرك ؟

ـ اجل ، شعرت بها عندما مت ، ضع يدك حولي ، ارجوك .

ـ لا انني امسك بيدك ، ويدك تكفيني .

ونظر اليها ، ثم انتقل ببصره عبر المرج ، فراى صقرا يصيد طعامه ، وراى السحب الكبيرة تتكاثف فوق الجبال .

وقالت له ويدها في يده .. او لا تحس بنفس الشعور مع الاخريات ؟

ـ لا ، ابـــدا .

ـ وهل عرفت الكثيرات من النساء ؟

ـ عرفت بعضهن ، ولكنهن لا يضاهيتك .

ـ او لم يكن شعورك معهن عين الشعور حقا ؟

ـ كنت اشعر بلذة ، وليس على هذا النحو .

ـ أو لم تحس بالارض تتحرك فى المرات السابقة ؟

ـ لا ، اصدقك القول ، ابدا .

ـ اجل ، وربما وقع هذا لنا مرة واحدة .

ـ ولم يرد عليها ، فقالت .. ولكنه وقع على الاقل ، او لا تحبني ؟ او لا تشعر بلذة معي ؟ قد ابدو احسن فى المستقبل .

ـ انك رائعة الان .

ـ لا ، ولكن ضع يدك على راسي .

ووضع يده على راسها ، واحس بشعرها المقصوص ، وقد اصبح ناعما وطريا بين يديه ، ثم امسك بها يقبلها من شعرها .

وقالت .. انا احب ان اقبلك دائما ، ولكنني لا احسن التقبيل .

ـ لا حاجة لك الـى التقبيل .

ـ كلا انني احتاج اليه ، فاذا قدر لي ان اكون امراتك ، فعلي ان اخلق لك المتعة في كل سبيل وطريق .

ـ انك تسعدينني ، وتخلقين لي المتعة كل المتعة ، ولن يكون في امكانك ان تسعديني اكثر ، وليس فى وسعي ان اعمل اكثر مما اعمله ، لو تمكنت حتـى مـن ذلك .

ـ ولكنك سترى ، فشعري يسليك الان لانه غريب في شكله ، لكنه آخذ فى النمو يوما بعد يوم ، وسيصبح طويلا ، وآنذاك لـن ابدو قبيحة ، وستحبني كثيرا .

ـ ان لك جسما رائعا ، بل اجمل جسم فى العالم .

ـ انه مجرد جسم فتي ورقيق .

ـ لا ، فى الجسم الرائع شيء من السحر ، ولا ادري ما العلة في وجود هذا السحر فى بعض الاجسام دون البعض الاخر ، ولكنه متوافر فيك .

ـ انه بالنسبة اليـك فقط .

ـ لا .

ـ اجل ، انه لك وحدك دون غيرك دائما وابدا ، وسأتعلم كيف اعنى بك، ولكن قل لي حقا ، الم تتحرك الارض تحتك من قبل .

ـ ابـدا .

ـ اذن فانا سعيدة ، اجل انني سعيدة الان .

وراته يفكر فراحت تسأله .. انك تفكر بشيء اخر الآن ..

ـ اجل افكر بعملي .

ـ كم وددت لو كانت لدينا جياد نركبها .. وفي سعادتي الحالية ، اود لو كان لدي جواد طيب امتطيه ، واغذ به السير ، وانت الى جانبي تسرع بجوادك ، فنمضي قدما ، نهرول خببا ، فلا نلحق بما اشعر به من سعادة .

ـ في وسعنا ان نحمل سعادتك فى طائرة .

ـ ونطير بها فى السماء ، كتلك الطائرات المطاردة الصغيرة التي تلمع تحت اشعة الشمس ، نهبط بها المطيات ونصمد .. فلا تقاس سعادتي بها

فقال وهو لا يكاد يسمع ما تقوله .. ان سعادتك تهضم كل شيء .

انه لم يكن معها الان ، اجل انه يسير بجانبها ، ولكن عقله يشتغل في مشكلة الجسر ، فقد اتضحت ، واصبحت قوية وظاهرة تماما كمايظهر اي شيء تحت عدسة المجهر ، عندما تضبط ابعادها ، ها هو يرى المركزين العسكريين امامه ، وانسيلمو والفجري يرقبان الطريق ، وهو يرى هذه الطريق خالية ، ولكن الحركة تسودها ، وهو يرى اين سيضع البندقيتين الاوتوماتيكيتين اللتين يملكهما ، حتى تحققا احسن ما يمكن من نتائج على صعيد اطلاق النار ، واخذ يفكر في من سيتولى ذلك فى النهاية ، ولكن من في البداية ؟ وراى انه قد وضع المتفجرات واعدها ، ومد اشرطته الـــى المكان الذي سيتولى التفجير منه ، واخذ يفكر في كل الاحتمالات التي يمكن لها ان تقع والتي قد تؤدي الى اخطاء .. وفجاة قال لنفسه .. لماذا هذا التفكير .. لقد مارست الحب مع هذه الفتاة ، وصفا فكرك الى حد كبير ، وسرعان ما عاودك القلق ، فهناك فرق بين التفكير بما يجب ان تفعله ، وبين القلق ، عليك ان لا تقلق ، اجل يجب ان لا تقلق فانت تعرف ما يتحتم عليك عمله ، وما قد يحدث .. اجل ما قد يحدث .

لقد اقحمت نفسك فيه ، لانك تعرف ما تقاتل فى سبيله ، فانت تقاتل تماما ضد ما تعمله الآن ، وضد ما ترغم على عمله ، لكي يكون ثمة امل في النصر ، وعليك الان ان تستخدم هؤلاء الناس الذين تحبهم ، كما تستخدم اية قوات تحت امرتك لا تشعر نحوها بأي شعور لتضمن النصر . لقد كان بابلو

اذكى واحد في المجموعة كلها ؛ فقد ادرك لتوه . ما تنطوي عليه المغامرة من شرور . وقد ايدتك المرأة وما زالت تؤيدك ، ولكن ادراكها حقيقة ما تنطوي عليه ، اخذ يتغلب عليها بصورة تدريجية ، وقد سبب لها الكثير من الالم . وسوردو ، يدرك الخطورة ايضا ، وقد ادركها بالفعل فورا ، ولكنه يرغم نفسه على القيام بها تماما كما ترغم انت نفسك .

وانت لا تفكر بما قد يحدث لك . ولكنك تفكر بما قد يحدث للمرأة وللفتاة ، والاخرين . حسنا . فماذا كان يحدث لهم ، لو لم تأت اليهم ؟ وماذا حدث لهم ، قبل ان تحل بين ظهرانيهم ؟ عليك ان لا تفكر بهذه الطريقة . فأنت لا تشعر بمسؤولية تجاههم ، الا مسؤولية العمل .

والاوامر ليست اوامرك ، انها اوامر غولز . ولكن من هو غولز هذا ؟ انه قائد ممتاز ، انه خير من عملت تحت امرته من قادة . ولكن امن واجب المرء ان ينفذ اوامر مستحيلة . وهو يدرك ما قد تؤدي اليه حتى ولو صدرت هذه الاوامر عن غولز الذي يمثل الحزب والجيش معا ؟ أجل .

عليه ان ينفذها ، لان تنفيذها هو السبيل الوحيد للبرهنة على استحالتها، وكيف يمكنك ان تدرك استحالتها ، اذا لم تحاول تنفيذها ؟ ولو جاز لكل انسان ان يقول ان هذه الاوامر مستحيلة ، حال تلقيه لها ، فأين تكون قد وصلت ؟ اجل اين تقف الامور ، لو تمكن كل من يتلقى الاوامر من القول بأنها مستحيلة .

وقد راى عددا كبيرا من القادة الذين تكون اوامرهم دائما مستحيلة . فذلك الخنزير غوميز مثلا في ايسترا مادورا . وقد راى هجمات كافية لم تتقدم فيها الاجنحة لان تقدمها كان مستحيلا . اذن فعليك ان تنفذ الاوامر ومن سوء حظك انك تحب الناس الذين تتعلق بهم الاوامر هذه المرة .

وفي جميع المغامرات التي يقوم بها هؤلاء الانصار ، يسببون للناس الذين يأوونهم ويعملون معهم الكثير من المتاعب ، وسوء الحظ . فلم كل هذا ؟ان الغاية هي زوال الخطر بصورة نهائية ، لكي تصبح البلاد مكانا امينا للعيش

فيه . هذا قول حق ، على الرغم مما فيه من رثاثة .

فاذا خسرت الجمهورية الحرب ، فسيصبح من المتعذر على أولئك الدين يؤمنون بها ، ان يعيشوا فى اسبانيا . ولكن هل يمكن لها ان تخسر الحرب؟ اجل من الممكن ، ان تخسرها اذا حكم على الامور وفقا لسير الحوادث في الاجزاء التي احتلها الفاشيون .

وبابلو ، خنزير ، وليس فى هذا شك . ولكن الاخرين فى منتهى الروعة ، اوليس من الخيانة لهم ارغامهم على ان يعملوا ما يريده منهم . اجل ، قد يكون هذا من الخيانة . ولكنهم اذا لم يقوموا بهذا العمل ، فان سريتين من الخيالة ستصلان الى هذه الجبال لاصطيادهم في غضون اسبوع .

لا . ليس ثمة من جدوى ، في العدول عن الموضوع ، وتركهم وحدهم . الا اذا كان الواجب ان يترك جميع الناس وشأنهم ، وان لا تتدخل مع اي انسان . اذن هو يؤمن بهذا ، فهل يؤمن حقا ؟ اجل انه يومن . اذن ماذا يحدث للمجتمع الموجه وما شاكل ذلك من نظريات ؟. هذا شأن الآخرين، وعليهم ان ينفذوه . فامامه واجبات كثيرة يجب ان يعملها بعد الانتهاء من هذه الحرب . انه يخوض غمارها الان لانها نشبت في بلاد يحبها ،ولانه يؤمن بالجمهورية ، ويؤمن انها اذا لحق بها الدمار والخراب ، فستضحي الحياة شاقة على كل من يؤمن بها . وهو يخضع طيلة هذه الحرب للنظام الشيوعي . والشيوعيون في اسبانيا يقدمون احسن انواع التنظيم ، واصحها شكلا ، واسلمها واقعا للمضي في الحرب . وقد قبل بهذا النظام مدة الحرب ، لان الشيوعيين ، في تسيير دفتها هم الحزب الوحيد ، الذي في وسعه ان يحترم برنامجه ونظامه .

اذن ما هي اراؤه السياسية ؟ ليست له آراء الان . ولكنه لا يريد ان يجهر بهذه الحقيقة لاي انسان . اجل انه لا يريد ان يعترف بها . ولكن ما عساه يعمل بعد انتهاء هذه الحرب ؟ انه سيعود ليكسب قوته من تعليم الاسبانية ، كما كان يفعل في الماضي ؟ وبالطبع سيقبل على وضع كتاب حقيقي صادق . ولا ريب في ان هذا العمل سيكون سهلا عليه ،

وشعر بان الواجب يقتضيه الحديث الى بابلو ، فى شؤون السياسة . ومن الممتع ، ان يرى كيف تطور هذا الانسان سياسيا وعقليا . هـل هو الانتقال التقليدي من اليسـار الى اليمين ، كما فعل ليرو العجوز من تبل . لكن بابلو يختلف كل الاختلاف عن ليرو . اما بريتو فيضاهيه فى السوء . ويثق بابلو وبريتو ، ثقة متعادلة فى النصر النهائي . وهما يعتنقان معـا سياسات لصوص الجياد . فهو يؤمن بالجمهورية كشكل من اشكال الحكم ولكن على الجمهورية ، ان تتخلص من جميع افراد هذه الزمرة من سارقي الجياد ، الذين عادوا بها الى الموقف الذي كانت عليه ، عندما بدات الثورة فهل هناك شعب ، يقوده اعداؤه ، كهذا الشعب ؟

اعداء الشعب . هذا تعبير فى وسعه الاستغناء عنه . انه تعبير استهلالي فى وسعه ان يتجاوز عنه . ولعل هذا من الامور التي اوصلته اليها ، علاقته الجنسية بماريا . لقد كان انسانا متطرفا فى سياساته ، كالانسان المعمداني المتصلب فى عقيدته . وكانت مثل هذه التعابير ، ترد الى فكره ، دون ان يحاول نقدها او التحقيق فيها . انها مجرد تعابير او كليشيهات ثـورية او وطنية . وقد الف فكره استخدامها دون تدقيق او تمحيص . وبالطبع، هي تعابير صادقة ، ولكنها على درجة كبيرة من الرشاقة وسرعة البديهة . ولكنه منذ ليلة امس ، وبعد ظهر اليوم ، اخذ فكره يصفو ، ويخلص مـن الشوائب المتعلقة بهذا الموضوع . فالتعصب والمغالاة فى التطرف ، أمران غريبان . ولكي تكون متعصبا ، عليك ان تكون واثقا من انك تقف الـى جانب الحق . ولا شيء ادعى الى ذلك . من العفة ، والعفة هي عـدو الهرطقة والكفـر .

ولو قام بدراسة هذه المقدمة ، فالى اين ستصل به دراسته . وهـل ستصمد هذه المقدمة للدرس . ولعل هذا هـو السبب الـذي يحمل الشيوعيين دائما على مهاجمة البوهيمية ، فعندما تثمل او تقترف الزنا والفجور ، فانك تعترف بخطيئتك الشخصية ، فى تقبل هذا البديـل المتقلب ، مستعصيا به عن انجيلك العقائدي ، وهو المخطط الحزبي . ولذا فهم يهتفون دائما بسقوط البوهيمية ، خطيئة ماياكوفسكي .

ولكن ماياكوفسكي ، ما عتم أن اصبح قديسا من جديد ؛ ولربما كـان السبب في ذلك انه قد مات . وستمو تانت ؛ وتصبح في منجاة ايضا ؛ فعليك ان تتوقف بتفكيرك عن مثل هذه المواضيع ، وان تفكـر بماريا ؛ المـوجودة الـى جانبك .

ولقد كانت ماريا شديدة على تعصبه . حقا انها حتى هذه اللحظة لـم تؤثر في تصميمه وعزمه ، ولكنه بدا يفضل ان لا يموت . فهو لا يريد ان يغدو شهيدا او بطلا ، وان يلقى نهايتهما بسرور . انه لا يريد ان يجعل من نفسه ثيرموبيلي أو هوراشيوس الواقف على الجسر ، ولا ذلك الولد الهولندي الذي وضع اصبعه في السد . انه يريد ان يقضي وقتا سعيدا اطول مع ماريا ؛ ولعل هذا هو ابسط تعبير بالنسبة اليه . انـه يريد ان يقضي اطول وقت معهـا .

انه لا يؤمن بأن الوقت قد يطول ، ولكنه ان طال ، فانه يريد ان يقضيه معها . وفي وسعه ان يذهب الى احد الفنادق ، ويسجل نفسه كالدكتور ليفينغستون وزوجته .

اذن لم لا تتزوجها ؟ حقا لم لا يتزوجها ؟ سيتزوجها ، وسيصبحان السيد والسيدة روبرت جوردان من بلدة وادي الشمس (سن فالي) في ايداهو ، او من كوربوس كريستي في تكساس أو بوتي في مونتانا .

والفتيات الاسبانيات زوجات رائعات . انه لم يعاشر قط فتاة مثلها . وعندما يعود الى عمله في الجامعة . ستصبح زوجة الاستاذ ، ولما يأتي الطلاب في الامسيات لزيارته ، والتحدث اليه عن ادباء اسبانيا عن امثال كويفيدو ولوبي دي فيغا وغيرهما ، في وسع ماريا ان تحدثهم ، عما مر بها من تجربة ، عندما قام ذوو القمصان الزرقاء ، بتكبيل يديها ولي ذراعيها ، ورفع ملابسها ، ليعتدوا عليها ، دفاعا عن عقيدتهم .

واخذ يسائل نفسه ، هل سيحبون ماريا في ميسولا ، في مونتانا ، هـذا

اذا حصل على عمل فيها . انه يشك فى انه سيعود اليها ، لانه اصبحموصوما بالوصمة الحمراء ، وادرج اسمه فى القائمة السوداء . ومع ذلك فمن يدري لا احد يدري . فليس لديهم من دليل . وكان تاريخ ذهابه الى اسبانيا ، سابقا لاصدار الاوامر بحظر الذهاب اليها .

ولن تتيسر له العودة قبل خريف عام ١٩٣٧ . فقد غادر في صيف عام ١٩٣٦ ولن تنتهي اجازة السنة التي نالها الا في خريف ٣٧ . وما زال ثمة وقت بينه وبين الخريف . اجل ما زال ثمة وقت طويل بين اليوم وبعد غد لا ، اذن فلا حاجة الى القلق ، بصدد تلك الجامعة ، وعليه ان يعود اليهـا فى الخريف ، ويسير كل شيء ، على ما يرام . اذن فعليه ان يحاول .

ولكن ها قد مضى عليه عهد طويل يعيش حياة غريبة . اجل انها غريبة، فاسبانيا هي مجال عمله ، ومحط مهنته ، ومن الطبيعي والمعقول ان يمضي اليها ، وقد تضى فصول الصيف في اعمال الهندسة وفى شق الطرق في الغابات ، وقد تعلم كيف يستخدم المتفجرات . اذن فقد غدت اعمـــال التخريب شيئا طبيعيا بالنسبة اليه . قد يكون فيها بعض السرعة ، ولكن فيها كل السلامة والصحة .

وعندما يرتضي الانسان الفكرة القائلة بان عملية النسف مشكلة ، تصبح حقا من المشاكل . ولكن اشياء كثيرة تسير معها جنبا الى جنب ، وتصبح سهلة بالنسبة اليه . فهناك المحاولات الدائمة لتحديد اوضاع عمليـات الاغتيال الناجحة التي ترافق عادة اعمال التخريب ، فهل تجعل الكلمات الفخمة من هذه العملية ، امرا يصلح الدفاع عنه ، وتحيل عملية القتـل الى شيء مستساغ ؟ واذا ما انتهت خدمتك للجمهورية ـ وهذا ما حدث نفسه به ـ فلا ادري ، اذا كنت ستصلح لاي عمل ، ولكنك ستتغلب حتما على كل شيء وتتخلص من عقدك ، بمجرد الكتابة عنها ، اجل . فانـت اذا كتبت ، انتهى كل شيء ، ولا ريب في ان الكتاب الذي تضعـه ، ان استطعت وضعه ، سيكون عظيما ، بل اعظم من كتابك السابق .

اما حياتك الآن . فلا تعدو ان تكون اليوم والليلة وغدا ؛ على ان يتكرر اليوم والليلة ، اذا شاء لك حظك ان تعيش . وعليك والحالة هذه ، انتقنع بما انت فيه الان وان تشكر ليومك هذا ما انت فيه . ولكن ماذا يحدث ، اذا لم تسر قضية الجسر على ما يرام ، لا سيما وان الظواهر ليست مشجعة الان .

ولكن ماريا ، كانت الخير كل الخير . أو لم تكن ؟ ربما كان هذا هو ما ستحصل عليه الان من حياته . ولربما تقلصت حياتك من سبعين عاما ، الى ثمان واربعين ساعة .. او سبعين ساعة .. وفي وسعك ان تعيش في سبعين ساعة ، ما تحياه في سبعين عاما ، شريطة ان تكون حياتك ملأى عندما بدات السبعون ساعة . وان تكون قد وصلت الى سن معين .

وخيل اليه ، ان ما يفكر فيه هراء في هراء . فما هي هذه التفاهات التي دابت على التفكير فيها . حقا انها لسخافات . ومع ذلك ، فقد يكون فيها شيء ما . فالافضل لك ان تنتظر وان تعود بفكرك الى الماضي .. كانت المرة الاخيرة ، التي نمت فيها مع فتاة في سرير واحد في مدريد . لا لم تكن في مدريد بل في ايسكوريال . وقد استيقظت في الليل ، وخيل اليك ان من تنام معها ، فتاة اخرى ، ولكنك سرعان ما عرفتها ، وعرفت انك لم تضع وقتك عبثا معها . فقد منحتك وقتا فيه امتاع . وكانت المرة التي سبقتها في مدريد ، وقد مررت بنفس التجربة ، الا انها كانت اقل امتاعا من لاحقتها .. ومن هذا يتبين لك انك لست بالانسان الخيالي ،الذي تمجد الغرام ، كما انك لست بالانسان الذي يقدس المراة الاسبانية لمجرد انها اسبانية ، ولم تكن ترى في المراة التي تمر في حياتك ، اكثر من مجرد عابرة سبيل . اما مع ماريا فشيء آخر ، فانت تحس وانت في ذروة عواطفك وكانك على عتبة الموت ، مع انك لم تكن قط لتصدق في امكان وقوع هذا في الماضي .

ولذا ، فان كانت حياتك قد قايضت اعوامها السبعين بمجرد سبعين ساعة ، فقد ربحت الثمن ، وحصلت على القيمة . واذا لم يكن ثمة من غد ، او امد طويل ، او بقية حياة ، او ما شابه ذلك من تعابير ، وانما هناك شيء

واحـد ، وهو الان ، والساعة ، فعليك ان تشكر قدرك على ساعتك ، وان تسعد بها .. ان الان كلمة مضحكة ، تعني عالما كاملا بل حياة بأسرها .. اجل الان ، وهذه الليلة ، والحياة والمرأة ، والموت ، والحرب ، والحب ، والمعبودة ... كلها الفاظ ، سيتخلى عنها في سبيل ماريا .. واسمهـا المحبب الـى نفسه .

حسنا ، سيقومون جميعا بتنفيذ العمل ، وقد حان وقته ، ولم يعد بعيدا انه كلما اقترب ، كلما ساء منظره وبدا كالحا . انه عمل لا تستطيع ان تنفذه في الصباح . ففي وضع يائس ، من الخير الانتظار حتى المساء ، لتتمكن مع رفاقك من النجاة . او ليس في وسعك ان تتأخر حتى المساء لتنجو . اجل فالنجاة ممكنة ، اذا تأخرت حتى هبوط الظلام . اما اذا اصررت على القيام به عند الفجر ، فماذا سيحدث ؟ وها هـو سوردو المسكين يحاول ان يشرح لك باسبانيته التي يتعمد « تكسيرها » لافهامك ولكنك لم تنقطع عن التفكير في هذا الموضوع منذ صدرت اليك اوامر غولز اجل لقد كانت أوامره ، طعاما لم تستسغه معدتك ، فظل فيها دون هضم منذ تلك الليلة .

يا له من عمل . فانت تقضي حياتك كلها ، مدركا انهم قد يعنون شيئا ثم يتبين لك في النهاية انهم لا يعنون اي شيء . فليس ثمة ما تتوقعه ، بل ليس ثمة ما يمكن لك أن تتأمل فيه . ثم فجأة .. وانت تقوم بمثل هذا العمل القذر ، من حشد قوى جماعتين من الانصار لمساعدتك في نسف جسر في اوضاع مستحيلة ، لمنع هجوم مضاد ، قد يكون في طور البداية عندما تقبل على عملك ، تلتقي صدفة بفتاة كماريا .. أجل لقد لقيتها عرضا وجاء لقاؤك متأخرا عن اوانه . وهذا كل شيء .

وبيلار ، هذه المراة ، هي التي دفعت بالفتاة الى احضانك . ثـم ماذا حدث ؟ اجل ماذا حدث ؟ قل ، ماذا حدث .. هذا هو ما حدث .

وعليك ان لا تخدع نفسك بصدد بيلار ، التي دفعت بالفتاة الى احضانك لقد وقعت في غرامها منذ اللحظة الاولى التي رأيتها فيها . فعندما حدثتك

اول مرة ، كنت قد اضحيت مولعا بها . وما دامت الحالة كهذه فلماذا تحاول الان ان تكذب نفسك ، وان تدفع عنها ، حقيقة ما شعرت به منـــذ رايتهـــا .

اجل لقد احببتها ، فلا تخادع نفسك . وكنت تحس بشعور غريب كلما تطلعت اليها . اذن فلم لا تعترف . حسنا ، يجب أن تعترف . اما بيلار ، فقد سلكت فى دفعها الى احضانك ، كما تسلك اية امراة ذكية عاقلة . كانت تعطف على الفتاة وتعنى بها ، وقد ادركت ما حدث تماما ، منذ اللحظــة الاولى التي عادت فيها الفتاة الى الكهف بعد ان راتك .

اذن فكل ما عملته بيلار ، هو انها سهلت الامور عليك . وقد ادى تسهيلها الى ما حدث ليلة امس ، وبعد ظهر اليوم . انما اكثر حضارة ومدنيــة منك ، وتعرف طبيعة العصر وحقيقته . وهي تدرك أيضا ، اهمية الوقت وعامل الزمن . لقد طواها الزمن ، ولم ترغب فى ان ترى غيرها يخسر ما خسرته هي ، وفجاة كبرت عليها فكرة الاعتراف بما خسرته . فلم تستطع ابتلاعهــا . وهذا ما سبب لها الألم ، عندما كانت معكما على الجبل .

هذا كل ما حدث ، وعليك أن تعترف بانك لن ترى ليلتين اخريين معها . اجل لن تعيش معها حياتك ، ولن تكون لكما المتع التي يشعر بها الناس عادة . لقد مرت ليلة ، ومر بعد ظهر ، وقد تمر ليلة اخرى . . هذا كل ما هنالك ، ربما . . ولكن لا . لا .

لن تشعر بسعادة الزمن ، ومتع الحياة ، لن تلهو معها ، ولن يكون لكما اطفال وبيت وحمام ، ولن ترتدي بيجامة نظيفة او تقرا صحيفة الصباح ، عندما تستيقظ ، وانت واثق من انها الى جانبك ، وانك لست وحيداً . اجل . . لقد انتهى كل هذا . ولكن لم كل هذا اليأس ؟ انك عندما تنتهي من مهمتى ، ستكون لك الحياة التي تريدها ، عندما تعثر عليها . فلـــم لا تقضي ليلة ثانية معها .

انك تطلب المستحيل . اجل انك ترجو المحال . فاذا كنت تحب الفتاة

حقا كما تقول ، فعليك ان تقسو على نفسك في حبك ، وان تستعيض بالوفرة والقوة ، عما تفتقر اليه العلاقة من امد واستمرار . هل سمعت ما اقول ؟ كان الناس في الماضي يكرسون حياتهم كلها لهذه الغاية . والآن بعد ان عثرت عليها ، فانك تستكثر على نفسك الحصول على ليلتين . أجل ليلتان . ليلتان من الحب ، والعبادة والقداسة ، ليلتان مهما كانت الظروف حتى ولو انطوت على المرض او الموت . لا ! لا تذكر الموت وقل حتى ولو انطوت على الصحة والمرض .. الى ان يشاء الموت التفريق بينكما . فقد يفرق بينكما بعد ليلتين . والان ، دع عنك هذا التفكير ، ففي وسعك ان تتوقف عنه الان . اذ لا خير لك فيه . انه لا يأتي لك بخير . وهذا ما يجب ان تتأكده .

هذا كان مدار حديث غولز . ولقد خيل اليك ان طيلة اقامة هذا الرجل هنا ، قد جعلت منه انسانا صارما . وهذا كل ما يطلبه الان . التعويض من خدمة غير نظامية . فهل كان هذا ما اراده غولز ، وما خلقه الزمن والظروف . وهل يقع بالنسبة لكل انسان يعيش في ظروف مماثلة . ولكن لا يجوز ان يكون قد ظن كل هذه الظنون لانها وقعت بالنسبة اليه ليس الا وهل كان غولز ، ينام على عجلة من امره عندما كان يقود ، كتيبة غير نظامية من فرسان الجيش الاحمر ، وهل كان تجمع الظروف والاوضاع يجعل من الفتيات جميعا يظهرن بمظهر ماريا .

من المحتمل ان يكون غولز ، قد عرف كل هذا ، وان يكون قد أراد تأكيد هذه النقطة التي تريد ان تعيش بها حياتك كلها في ليلتين ، وان تحشد فيهما كل ما كنت تتوق اليه من عيش طويل .

انه نظام طيب للعقيدة . ولكن الظروف لم تكن وحدها هي التي خلقت ماريا ، الا أذا كانت ترجيعا لظروفها هي ، ولظروفه هو . اما ظرفهاالخاص وحده ، فلم يكن طيبا .

واذا لم ترد ما يكون ، فليكن ما يكون . ولكن ليس ثمة من قانون يفرض

عليك ادعاء حب ما لا تحبه . فانت لا تعرف ، انك كنت ستشعر يوما ما ، بما تحس به الان . أو انه سيمر بك ، ما يمر في هذه اللحظة . انك تريد أن يدوم طيلة حياتك . وسيدوم ، هذا ما يقوله لك عقلك الباطن . انـك تملكه الان ، وحياتك كلها ، لا تعدو كلمة الان . فليس ثمة من شيء آخر ، الا الحاضر . فليس ثمة من امس ، ولا من غد . وكم يجب ان يكون عمرك حتى تدرك هذا وتعرفه ؟ هناك حاضر ، لا يعدو يومين ، فحياتـك اذن يومان ، وسيكون كل شيء فيها والحالة هذه نسبيا . هذه هي الطريقة المثلى للعيش يومين . واذا توقفت عن الشكوى ، وعن السؤال عمـا لا تستطيع الحصول عليه ، فستكون حياتك سعيدة . ولا تقاس الحياة السعيدة ، بما تنطوي عليل الاناجيل والتوراة .

اذن فلا تقلق ، وخذ ما بيدك ، وقم بواجبك ، وستعيش طويلا ، وتنعم بحياة سعيدة . أو لم تكن سعيدة حقا في الايام القليلة الماضية . وهل ثمة مجال لشكواك منها . هذه هي الحقيقة التي تتصل بهذا النوع من العمل .. وليس ما تتعلمه من الامور بمثل الاهمية التي تراها في من تجتمع اليهم مـــن الناس ..

وشعر بارتياح .. فعاد بافكاره الى الفتاة التي غاب عنها طويلا وقال .. احبك يا ارنبتي ، ماذا كنت تقولين ؟

ـ كنت اقول ، ان عليك ان لا تقلق على عملك ، لانني لن اضايقك ولن إتدخل فيه ، واذا كان بوسعي ، ان أقوم بأي عون ، فأرجو ان لا تتأخر فـــي ابـلاغي .

ـ لا داعي لذلك ، فالمهمة بسيطة للغاية .

ـ سأتعلم من بيلار ، طريقة العناية بالرجل ، وما يجب علي ان اعمله ؛ وعندما اتعلم ، ساكتشف الامور بنفسي ، وعليك ان لا تتاخر بدورك عن ارشـــادي .

ـ ليس ثمة ما يجب أن تعمليه .

ـ ماذا تعني ليس ثمة ما اعمله ؟ ففراشك مثلا هذا الصباح . كان علي ان انظفه وان اعرضه للشمس ، ثم اعود به الى ملجأ امين ، قبل هطول الندى

ـ استمري يـا ارنبه !

ـ وجواربك يجب ان تغسل وتجفف . وسأعمل على اعداد زوجين لك .

ـ ومـاذا ايضـا ؟

ـ واذا علمتني نظفت مسدسك ، وزيته .

ـ قبلينـي .

ـ لا . انني جادة ، الاتعلمني على مسدسك ؟ عند بيلار زيت ، وقطع للتنظيـف .

ـ طبعا ساعلمـك .

ـ واذا علمتني كيف استعمله ، كان في وسع الواحد منا ان يقتل نفسه او رفيقه ، اذا ما اصيب بجراح ، وكان من الضروري ، القيام بمثل هذا العمل لتجنب الوقوع في الاسر .

ـ فكرة ممتعة . الديك افكار كثيرة كهذه ؟

ـ لا ، ليست كثيرة ، ولكنها فكرة طيبة . وقد اعطتني بيلار هـذا ، وعلمتني على استعماله .. وقالت هذا واخرجت من جيـب صدرها ، مطواة ، في غمد من الجلد .. ثم استطردت تقول .. وانني احتفظ بهذه المطواة معي دائما . وتقول بيلار ان علي أن اجرح نفسي هنا تحت الاذن ثم أسحبه الى الاسفل . ففي هذه الجهة شريان كبير ، وليس في وسع المطواة ان تخطئه . وقد اكدت لي ان الانسان لا يشعر بألم ، وان كل مـا يجب عمله ، هو ان يكون الجرح عميقا . واضافت ان ليس في وسعهم وقف النزيف للحيلولة دون الموت مهما فعلوا .

ـ هذا حق ، فهذا هو الشريان السباتي .

واخذ يفكر بان الفتاة دائبة التفكير فى هذا الموضوع طيلة الوقت على اعتبار انه احتمال ممكن وواقعي .

ومضت الفتاة تقول .. ولكني اوثر ان تقتلني انت برصاصة من مسدسك فهل تعدني بانك ستطلق الرصاص علي وتقتلني ، فيما اذا وقع هـــذا الاحتمـــال .

ـ حتمـا ، اعـدك .

ـ اشكرك كل الشكر . وانا اعلم ان ليس من السهل عليك ذلك .

ـ طبعا ، فما تقولين حق .

وتصور انه قد نسي كل هذا ، ونسي كل شيء عن الجميلات فى الحرب الاهلية عندما ظل عقله مشغولا بعمله وواجبه . اجل لقد نسي هذا . ومن الممكن ان ينساه ، اما كاشكين فلم يستطع نسيانه وهذا ما اضاع عليه عمله . وهل كان ذلك الشاب يتلقى وحيا والهاما ؟ كان من الغريب انه لم يعان من اية عاطفة معينة ، عندما قرر اطلاق النار على كاشكين . وقد توقع ان يحل له نفس الشيء فى يوم ما ، ولكن مثل هذه التجربة لم يعانها بعـــد .

ومضت ماريا تقول .. وفي وسعي ان اقوم لك باشياء اخرى ..

ـ بالاضافة الى اطلاق النار علي .

ـ اجل ، في وسعي ان الف لك السكائر ، عندما تنفذ منك لفافتك هذه. وقد علمتني بيلار كيف الفها جيدا ، بشكل دقيق متقن .

ـ حسنا . وهل تلعقينها بلسانك ؟

ـ نعم . وعندما تصاب بجراح ، ساعنى بك واضمد جراحك ، واغسلك واطعمك ...

ـ قـد لا اصاب بجـراح ..

ـ اذن عندما تمرض ، فساعنى بك ، واطبخ لك الحساء ، وانظفـــك واقوم لك بكل شيء . واقرا لك .

ـ ولكـن قد لا امرض .

ـ اذن سآتي لك بالقهوة عندما تستيقظ في الصباح .

ـ وقد لا احب القهوة .

ـ ولكنك تحبها . فقد شربت اليوم قدحين منها .

ـ وقد اشعر بالضجر من القهوة ، وقد لا احتاج لكي تطلقي علي النار ، وقد لا اصاب بمرض أو جراح ، واتوقف عن التدخين واكتفي بزوج واحد من الجوارب ، واعلق فراشي بنفسي . فماذا تصنعين ابتها الارنبة ؟ ماذا تصنعيـن ؟

ـ اذن استعير مقص بيلار ، واقص لك شعرك .

ـ ولكني لا احب قص الشعر .

ـ ولا انا . احب شعري ان يكون كما هو . اما اذا لم يكن لي ما اعمله ، فساجلس بجانبك ، ارقبك ، وفي الليل ، امارس الحب معك .

ـ حسنا ، هذا هو المشروع المعقول .

ـ اما بالنسبة الي ، فالوضع واحد يا انكليزي .

ـ ان اسمي روبرتو .

ـ لا . ولكني ساسميك بالانكليزي ، كما تفعل بيلار .

ـ ولكنه روبرتو .

ـ لا انه انكليزي ، اثناء الليل واطراف النهار . والان هل في وسعي ان اعينك في عملك يـا انكليزي ؟

ـ لا ، فما اقوم به الان ، اقوم به وحدي ، وبكل برود ، في ذهني .

ـ حسنا ، ومتى ينتهي ؟

ـ هذه الليلة ، اذا حالفنا الحظ .

ـ حسنـا .

واشرفا على الاجمة الاخيرة التي تصل الى المعسكر .

وقال روبرت مشيرا الى شبح لاح امامهما .. من ذاك ؟

ـ انها بيلار .. لا ريب في انها بيلار .

كانت المراة تجلس وحيدة ، في طرف المرج ، وقد اسندت راسها على ذراعها . وكانت تبدو ككومة من السواد ، امام جذوع الاشجار السوداء .

وهرع روبرت نحوها وهو يقول .. هلمي ، اسرعي . وكان من الصعب ان يجري فى هذه الارض القاسية ، واخيرا وصل اليها ، وكان راسها متكئا على ذراعها فقال بحدة .. بيلار ..

ورفعت المراة بصرها ، ونظرت اليه . ثم قالت آه .. هل انتهيتما بسرعة ؟ وقال وهو ينحني عليها .. هل انت مريضة ؟

ـ لا ، لقد كنت نائمة .

وقالت ماريا ، وقد وصلت اليها وركعت الى جانبها .. بيلار ! كيف انت ؟ هل انت بخير ؟

ـ على احسن ما يرام .. اذن كنت تقوم بالعاب الرجال يا انكليزي .

وقال روبرت متسائلا .. هل انت بخير ؟

ـ ولم لا ؟ لقد نمت . هل نمتما ؟

ـ لا .

ـ حسنا ، يبدو ان عملية الحب توافقك ؟

واحمر وجه الفتاة ولم تحر جوابا .. وقال روبرت .. دعيها وشأنها .

وردت بيلار تقول .. لم يكن احد يحدثك .. اسمعي يا ماريا .

ولم ترفع الفتاة راسها ، ومضت بيلار تقول .. ماريا ، يبدو ان عملية الحب توافقك .

وقال روبرت ثانية .. دعيها وشأنها .

ـ اغلق فمك انت .. قولي يا ماريا ..

فقالت الفتـــاة .. لا .

ومضت بيلار ، تقول وقد تصلب صوتها كوجهها .. تحدثي الي بشيء بمحض اختيارك .

وهزت الفتـــاة راسها .

وخيل لروبرت انه سيهم بضرب هذه المراة على وجهها . ولكنه في حاجة الى العمل معها ، ومع زوجهـــا .

ومضت بيلار تلحف على الفتاة بالقول .. هيا واخبريني ..

ـ لا . لا .

وقال روبرت ، وقد عزم على ضربها ، وليكن ما يكون .. دعيها وشانها .

ولم ترد عليه بيلار ، وانما واصلت حديثها الى الفتاة ، وكأنها ثعبـــان يداعب طائراً ، او قطة تراود عصفورا عن نفسه . لم يكن هناك في الموضوع اي سلب او نهب . كما لم يكن اي التواء ، وانما كان تمدد ، كما يتمدد ثعبان الكوبرا تماما . وقد احس روبرت بذلك تمام الاحساس ، وشعر بخطورته . لكن الامتداد لم يكن بقصد الاذى بقدر ما كان يستهدف البحث وود لو انه لم ير هذا الامتداد الذي لا يصلح للضرب مطلقا ولا يستحقه .

وقالت بيلار ـ لن المسك يا ماريا ، ولكن تحدثي الي بمحض اختيارك .

وهزت الفتاة راسها .

ومضت بيلار تقول .. ماريا ، الان وبمحض اختيارك ، الا تسمعينني .. قولي اي شـــيء .

وردت الفتاة بنعومة .. لا . لا .

ـ ولكنك ستقولين .. اي شيء . أجل أي شيء . ستقولين ، وسترين كيف تقوليـــن .

وقالت ماريا .. دون ان تنظر الى المراة .. لقد تحركت الارض .. وكان

حقا شيئا لا استطيع ان اصنعه .

وعاد الى بيلار صوتها الدافىء الودود ، الخالي من الضغط وقالت .. هكذا . اذن . ولاحظ روبرت قطرات من العرق تتصبب على جبينهـا وعلى شفتيها وهي تقول .. آذن كان ثمة شيء من هذا . شيء مثل هذا .

وقالت ماريا وهي تعض شفتيها .. حقا ..

وقالت بيلار برقة .. طبعا انك صادقة ، ولكن لا تروي القصة لانسان ، فلن يصدقك احد .. افيك دم زنجي يا انكليزي ؟

ونهضت على قدميها ، واخذ روبرت بيدها يساعدها .
ـ لا . لا اعرف في دما من هذا النوع .

ـ ولا اعرف ان في ماريا دما من هذا النوع . وهنا موضع الغرابة .

وردت ماريا تقول .. ولكن هذا ما حدث فعلا . يا بيلار ..

ـ ولم لا يا ابنتي ، عندما كنت فتية كانت آلارض تتحرك في الفضاء ، وكنت اخشى ان تطير ، كان هذا يحدث في كل ليلة .

ـ ولكنك تكذبيـن .

ـ اجل ، انني اكذب ، فهي لا تتحرك اكثر من ثلاث مرات طيلة الحياة ، فهل تحركت فعـلا ؟

ـ اجل . وهذا حق وصدق .

ـ وانت ايها الانكليزي ، انك لا تكذب .

ـ اجل . لقد تحركت حقا .

ـ حسنا ، هذا يعني شيئا هاما ؟

وقالت ماريا .. ماذا عنيت بثلاث مرات ؟ لماذا قلت ذلك .

ـ ثلاث مرات . وقد مرت بك واحدة الان .

ـ ثلاث مـرات فقط ؟

ـ قد لا تحدث لمعظم الناس ولا مرة واحدة .. أانتما واثقان ؟

ـ لقد كدت اسقط .

ـ اذن فقد تحركت .. هلموا بنا نعود الى المعسكر .

وقال روبرت جوردان ، وهم يمشون بين اشجار الصنوبر .. ما هـذا الهراء عن المرات الثلاث ؟

ـ هراء ، لا تصف حديثي بهذا الوصف ايها الانكليزي الصغير .

ـ هل هو نوع من السحر ، كقراءة الكف ؟

ـ كلا ، بل معلومات موثوقة ، قام عليها الدليل والبرهان عند الفجر .

ـ ولكننا لسنـا مـن الفجر .

كلا ، ولكنك سعيد الطالع ، وقليل ما يلقى غير الفجر ، مثل هذا الطالع الحسـن .

ـ اذن فهل تعنين حقا المرات الثلاث ؟

فقالت وهي تنظر اليه نظرة غريبة .. اتركني يا انكليزي ، لا تتحرش بي ، فانت اصغر سنا من ان تتحدث الي .

وقالت ماريـا .. ولكن يا بيلار .

ـ اغلقي فمك . لقد حصلت لك مرة ، وما زالت امامك مرتان .

وقال روبرت متسائلا .. وانت ؟

ـ لقد وقعت لي مرتين ، ولن تحدث الثالثة .

فسألتها ماريا ـ ولكن لم لا .؟

ـ اغلقي فمك . اغلقيه ، فصغار السن من امثالك يزعجنني .

وقال روبرت ـ ولم لن تحدث الثالثة ؟

ـ اغلق فمك ، انت ايضا ، اغلقه !!

وقال روبرت لنفسه .. حسنا ساغلقه . ولكن انا ماذا دهاني ، لقـد

عرفت الكثير من الفجر وهو عجيبون حقا ، ولكننا عجيبون ايضا . والفرق بيننا وبينهم ان علينا ان نعمل لنكسب قوتنا بطريقة شريفة . وليس ثمة من يعرف القبائل التي ننتمي اليها ، ولا تراثنا القبلي ، ولا الخفايا التي كانت تعيش فيها فى الادغال ، هذه القبائل التي جئنا من صلبها . وكل ما نعرفه اننا لا نعرف . ونحن لا نعرف شيئا عما يقع لنا فى الليالي . اما ما يقع فى النهار ، فهذا شيء آخر . وما وقع قد وقع ، ولكن هذه المرأة ، تجيء فتصر على الفتاة ، لتحدثها بما وقع رغم رفضها ، ثم تسمع القصة منها وتتبناها ، وتجعل منها اسطورة غجرية . ظننت انها قد تألمت ، ونحن على الجبل ، ولكنها تعود الان الى سطوتها . ولو كان ما تقوله شرا لتحتم علي ان اقتلها ، ولكنه ليس بالشر ، وانما كل ما تريده هو ان تواصل سيطرتها على الحياة ، عن طريق ماريا .

وخيل اليه ان عليه ان يدرس النساء بعد انتهاء الحرب . وان في وسعه ان يبدأ ببيلار . فقد عرضت عليه يوما معقدا للغاية . ولم يحدث قط ان اوردت مواضيع الفجر من قبل ، باستثناء حادث الكف . انها لم تكن تهزل آنذاك ، اذ رفضت ان تحدثه بما رات . وهي تصدق حتما ما تراه ، ولكن هذا لا يقيم الدليل على أي شيء .

وقال لها .. اسمعي يا بيلار ..

وتطلعت اليه وهي تبتسم وقالت .. ماذا دهاك ؟

ـ لا تكوني غامضة ، فالغموض يزعجني جدا .

ـ انا لا أؤمن بالعرافة ، والكهانة والرجم بالغيب وقراءة الطوالع وسحر الفجر .

ـ حقا ؟

ـ لا ، وارجو ان تتركي الفتاة وشأنها .

ـ سأترك الفتاة وشأنها .

ـ وان تتركي الغموض ايضا . فامامنا عمل كثير يجب ان نؤديه . دون

ان نشغل انفسنا بهذه الخزعبلات . وارجو ان نقلل من الغموض ونكثر من العمـل .

وقالت بيلار وهي تهز راسها مؤيدة .. واسمع يا انكليزي ، هل تحركت الارض ؟

ـ اجل ، عليك اللعنة . لقد تحركت .

وضحكت بيلار ؛ ضحكت ، وهي تتطلع الى روبرت جوردان .. ثم قالت .. حقا انك لمضحك ، يا انكليزي . فعليك ان تكثر من العمل الان لتستعيد كـرامتـك .

وقال روبرت يحدث نفسه .. لتذهب هذه المراة الى الجحيم .. ولكنه لم يفه ببنت شفة . وكانت السحب قد انتشرت في هذه الآونة فى كبد السمـاء .

وقالت بيلار ـ لا ريب ان السماء ستمطر ثلجـا .

ـ ثلـج فى حزيران ؟

ـ اجل . فهذه الجبال ، لا تعرف اسماء الاشهر . ونحن في قمر شهر ايـــار .

ـ ولكنها لن تثلج ؛ لا يمكن ان تثلج .

ـ ولكنها ستثلج يا انكليزي .

ورفع روبرت نظره الى السماء ، فراى ان السماء قد اختفت باهتة وراء السحن ، وراى ا نلون هذه السحب الذي كان رماديا قبل قليل ، قد اغبر واشتدت كثافته ، لا سيما عند اصطدام هذه السحب بالجبال ..

وقال .. اجل اعتقد انك على حـق .

١٤

وعندما وصلوا الى المسكر ، كان الثلج يهطل بغزارة ، وكانت قطـراته تتساقط على الارض ، عبر اشجار الصنوبر . بهدوء ونعومة في البداية . سرعان ما تحولت الى عنف ، عندما اخذت الرياح الشديدة . تهبط من اعالي الجبال . مدومة فى السماء . ووقف روبرت في مدخل الكهف وهو يرقب هذا التطور الذي لم يكن ينتظره . وقد بان الغضب في وجهه .

وقال بابلو ، وقد أجش صوته ، واحمرت عيناه . . سيهطل الثلج بغزارة

وسأله روبرت . . هل عاد الفجري ؟

ـ كلا . كما لم يعد العجوز ايضا .

ـ الا تأتي معي الى المركز العلوي على الطريق ؟

ـ لا ، لن اشترك فى العمل .

ـ اذن سأعثر عليه بنفسي .

ـ ستضل طريقك في هذاالثلج الغزير ، ولو كنت مكانك لما ذهبت الان .

ـ انني سأهبط التل الى الطريق ، ثم اسير معها .

ـ قد تعثر عليها . ولكن حارسيك ، قد يكونان في طريق العودة الآن بعد

ان سقط الثلج . ولن تهتدي اليهما في الطريق .

ـ ان العجوز ينتظرني هنـاك .

ـ لا انه سيعود الان مع تساقط الثلج .

وتطلع بابلو الى العاصفة الثلجية التي كانت قد بلغت الان الذروة فـي العنف والشدة . . وقال . . اولا تحب الثلج يا انكليزي ؟

وانطلقت اللعنات منهالة من فم روبرت ، ووقف بابلو يتطلع اليه بعينين تغمرهما الدهشة ، ثم اخذ يضحك .

ـ سيعدل عن الهجوم في هذا الثلج ، تعال ادخل الى الكهف ، وسياتي رجـلاك بعـد قليل .

ودلف الى الكهف فوجد ماريا تشعل النار ، وبيلار تعد الطعام . وكـان اللهيب قد انطلق متصاعدا من النار التي اشعلتها الفتاة .

وقال روبرت . . وهذا الثلج ؟ او تظن ان هطوله سيطول ؟

ـ اجل . . ثم صاح محدثا بيلار . . وانت يا امراة ، طبعا ، ساءك هبوط الثلج ، بعد ان اصبحت القائدة ؟

فردت عليه تقول . . ما دام قد سقط فليسقط .

وقال بابلو . . اتشرب قليلا من النبيذ يا انكليزي ؟ لقد كنت اشرب طيلة النهار ، منتظرا هطول الثلج .

ـ اعطني قدحـا .

ـ لنشرب نخب الثلج . . وقرع قدحه بقدح روبرت .

وكظم روبرت غيظه . وقال يحدث نفسه . . علي ان احتمل ، وان احمل الامور محمل البساطة .

وقال بابلو ـ ان الثلج رائع وجميل ، وليست بك من حاجة الى النوم في الخارج وهو يتساقط بمثل هذه الغزارة .

وادرك روبرت لتوه ما يعنيه بابلو ، وان هذه القضية ايضا ، تشغل خاطره وقال له .. يبدو ان هناك الكثير من المشاكل التي تقلقك يا بابلو ؟

فرد هذا بقوله ـ لا . ولكن الطقس كثير البرودة والرطوبة ايضا .

ـ اذن يجب ان انام هنا ، في داخل الكهف .

ـ اجـل .

ـ شكرا ، ولكنني سأنام في الخارج .

ـ اتنام فى الثلج ؟

ـ اجل ، فى الثلج ومضى يقول لنفسه .. ولعنة الله على وجهك الذي يشبه وجه الخنزير .. اجل سأنام في هذا الثلج الملعون ، المخرب ، الموحي بالهزيمـة ...

ومضى الى حيث تقف ماريا ، وهي تغذي النار بقطعة جديدة من الخشب وقال لها .. لا ريب فى ان الثلج رائع ..

ـ ولكنه قد يؤخر عملك . اليس كذلك ؟ او لا تشعر بقلق ؟

ـ ما العمل ، ان القلق لا يجدي . متى يكون العشاء جاهزا ؟

فقالت بيلار ـ خيل الي انك جائع . أو تريد قطعة من الجبن الآن ؟

ـ شكـرا .

واقتطعت له قطعة من الجبن . من اللوح المعلق في سقف الكهف . وشرع يـأكل .

وهتف بابلو ، من المكان الذي كان يجلس اليه على المائدة .. ماريا ؟

ـ مــــاذا تريد ؟

ـ نظفي المائدة يا ماريا .

فقالت بيلار ـ نظف اولا قاذوراتك ، ثم اطلب تنظيف المائدة . نظف ذقنك وقميصـك اولا .

وهتف بابلو ـ مـاريا !

فقالت بيلار ـ لا تكترثي به . انه ثمل .

وعاد بابلو يهتف ـ ماريا . ان الثلج لا يزال يتساقط ، وهو شيء رائع .

واخذ روبرت يفكر ، ان هذا الرجل ، لا يعرف شيئاً عن فراشي الدافىء الوثير وملحفته الجلدية ، ودثاره ، ولا يعرف انني دفعت خمسة وستين دولارا ثمنا له .. آه كم وددت لو عاد الفجري . على اي حال ، عندما يعود ، سأمضي الى الرجل العجوز . قد اذهب الآن ، ولكنني قد اضيعهما لا سيما وانا اجهل اين يقفان .

وقال لبابلو ـ أو تريد ان نلعب بكرات الثلج ؟

ـ مـاذا ؟ ماذا تقترح ؟

ـ لا شيء . ولكن هل احسنت تغطية جيادك ؟

ـ اجـــل .

وقال روبرت بالانكليزية . وهل ستؤمن الطعام لجيادك ، او انك ستطلق سراحها وتتركها تبحث عما تأكله ؟

ـ مـاذا ؟

ـ لا شيء ، انها مشكلتك . سأمضي على قدمي .

ـ ولكن لم تتحدث بالانكليزية ؟

لا ادري ، عندما اشعر بالتعب احيانا ، ابدأ التحـدث بالانكليزية ، او عندما احس ببعض القرف . او عندما ارى الصعاب تقوم في طريقي ، اشرع في التحدث الى نفسي بالانكليزية لاسمع صوتها . فاحس ببعض الطمأنينة فلم لا تحاول ذلك احيانا .

وقالت بيلار .. ماذا تقول يا انكليزي ، يبدو ان حديثك ممتع ، ولكنني لا افهمـــه .

ـ لم اقل شيئا بالانكليزيـة .

فقالت بيلار ـ اذن تحدث بالاسبانية . فالحديث بها ، أقصر واسهل .

ـ تمـامـا . .

ومضى روبرت يفكر ، لقد مل نفسه ، ومل بابلو وبيلار وماريا ، وهذين الاخوين اللذين يجلسان فى الزاوية واللذين لا يذكر اسميهما .. لقد مل كل شيء ، ومل هذه الحرب . فلماذا قدر للثلج أن يتساقط الآن ، وان يهطل بمثل هذه الغزارة . كلا انه ليس بالغزير . وليس ثمة من شيء ، يمكن ان يعتبر غزيرا . . والآن عليك يا هذا ان تتوقف عن التفكير علـى هذا النحو ، وأن تأخذ الامور كما هي ، فالثلج يتساقط ، وعليك الان ، ان ترن هذا الفجري ، وان تمضي الى الرجل العجوز .. ولكن الثلج !! وفي مثل هذا الشهر .. على كل دع التفكير ، ولا تحاول تذكر ذلك القول المأثور ، او تلك الابيات من الشعر .. عليك ان تصلح من ذاكرتك ، او تتوقف عن محاولة تذكر الاقوال المأثورة ، لانها تظل ، اذا نسيتها ، مسيطرة على فكرك ، وكأنها اسم نسيته ، ولا تستطيع الخلاص منه . .

واخيرا قال بالاسبانية .. اعطني قدحا من النبيذ من فضلك ثم مضى يقول . . الثلج كثير . . اليس كذلك ؟

فتطلع اليه الرجل الثمل وقطب جبينه ، ثم قال .. لا هجـــوم ، ولا طائرات ولا جسر الآن .

ـ وهل تتوقع ، أن يستمر الثلج طويلا . . او تظن يا بابلو العجوز ان الثلج سيتساقط طيلة الصيف ؟

ـ طيلة الصيف ، لا . اما اليوم وغدا ، فأجل .

ـ وما يحملك على هذا الظن ؟

ـ هناك شكلان من اشكال العواصف احدهما يأتي من جبال البيرنيز ويأتي معه بالكثير من البرد والثلج ، ولكن هذه العواصف لا تاتي عادة في

مثل هذا الوقت المتأخر من السنة .

فقال روبرت ـ حسنا ! هذا شيء هام .

ـ اما هذه العاصفة ، وهي من النوع الثاني فتأتي من كانتا بريكو . انها قادمة من البحر . وهي عادة تكون مصحوبة بريح شديدة . وثلج كثير .

ـ واين تعلمت كل هذا أيها العجوز ؟

اما وقد انتهت سورة غضبه الآن ، فقد بدأ يتأثر بهذه العاصفة شأنه في ذلك دائما . اذ يتأثر بالعواصف . وسواء اكانت العاصفة ، رملية او ثلجية، بحرية او صحراوية ، استوائية ، او قطبية ، فهو يشعر ببالغ التأثـــر والانفعال منها . انه اشبه ما يكون بحمى القتال التي تلازم الانسان في المعارك ، ولكنه اصفى منها وانقى . فالرياح تهب في المعارك ، ولكنها تكون عادة حـــارة ساخنة ، اجل انها حارة وجافة كحلق الانسان تماما . وهي تهب ، ثقيلة وقذرة ، فترتفع وتهبط ، تبعا ، لسعد ذلك اليوم ونحسه . انه يعرف تلك الريح تمام المعرفة .

اما العاصفة الثلجية ، فهي على النقيض من كل هذا . ففيها تدنـــو الحيوانات المتوحشة الشرسة منك ، دون ان تخشاك . وهي ترتحل من مكان الى اخر في البلاد ، دون ان تعرف مكانها ، وكثيرا ، ما تعثر على غزال بري يقف امام دارك . وكثيرا ، ما تلتقي في عاصفة ثلجية ، وانت على ظهر جوادك ، وعلا من الوعول البرية ، فيسارع اليك ، وقد ظن ان جــوادك وعل مثله . وكثيراً ما تبدو العداوات وقد زالت في العواصف الثلجية . وقد يصحب العاصفة زوبعة عنيفة ، ولكنها لا تحمل الثلج الابيض ،وعندما تتوقف الزوبعة ، يعم الهدوء كل مكان . ولا ريب في إن عاصفة اليـــوم ، من النوع الضخـــم ، وفي وسعه ان يتمتع بها . انها قد تحطم له جميـــع خططه ، ولكن عليه ان يتمتع بهـــا.

وقال بابلو ، لقد كنت عبارا سنوات طويلة ، اجل كنت مكاريا نحمل

الشحنات الضخمة عبر الجبال ، على عرباتنا ، قبل ان تظهر الشاحنات والسيارات . وقد تعلمنا في عملنا ذاك أحوال الطقس .

ـ وكيف اشتركت في الحركة ؟

ـ لقد كنت دائما الى جانب اليسار . وكانت لنا اتصالات وثيقة باهل استوريا وهم من المتطورين سياسيا كل التطور . وكنت دائما من مؤيدي الجمهوريـة .

ـ ولكن ماذا كنت تعمل قبيل الحركة تماما ؟

ـ كنت أعمل مع تاجر خيول في سراقوسه . كان يزود الجيش وحلقات المصارعة باحتياجاتهما الى الجياد . وقد قابلت آنذاك بيلار ، التي كانت تعيش انذاك كما قالت لك ، مع المصارع فينيتو دي بالينسيا .

وانطلقت العبارة الاخيرة منه معبرة عن الكثير من الاعتزاز والكبرياء وقال احد الاخوين ، وكان يجلس الى المائدة ، وهو يتطلع الى ظهر بيلار الواقفة امام الموقد .. لم يكن بطلا كبيرا من ابطال المصارعة .

وادارت بيلار راسها والتفتت الى الرجل قائلة .. لا ؟ او لم يكن من ابطـال المصارعة ؟

وطافت بها الذكريات ، وهي واقفة امام الموقد ، فراته امامها ، قصير القامة ، اسمر الوجه ، وقـد لاحت امامها عيناه الحزينتان ، ووجنتاه الغائرتان ، وشعره المجعد الاسود تعلوه قبعة ابطال المصارعة ، التي تركت اثرا احمر على جبينه ، من كثرة ما ارتداها . أجل راته ، يقف وقد واجه الثور الذي بلغ الخامسة من عمره ، يقابل القرنين اللذين رفعا الحصان عاليا ، وقد حمل العنق الضخم . جواده وهو يعلوه ، ليقذف به بعنف على الحاجز الخشبي ، وجاءت ساقا الثور ، تكملان على ما بقي فيه من حياة . اجل رات فينيتو ، هذا المصارع ، الذي يصفونه الآن بانه لم يكن بطلا كبيرا ، يقف الان امام الثور ، وقد ادار له جانبه ، يحمل في يده ، تلك القطعـة

الحمراء من القماش ، وقد لفها حول عصاته . يديرها امام الثور وقد تلطخت بالدماء التي سالت من عنق الثور ، وينتضي سيفه من غمده ، ويرفعه الى ان حاذى كتفه ، ثم يريد ان يغمده ، في نقطة بين عيني الثور ، فلا يستطيع ، لان راس الثورما زال عاليا . ثم راته يحاول ان يخفض راس الثور بالقماش الاحمر الذي يحمله في يسراه ، ثم راته يلتفت الى الجماهير حول الحلقة ، ويصرخ عاليا ، دعونا نرى اذا كنا سنستطيع قتله على هـذا الشكل .

اجل انها تسمع صوته الآن ، وتراه وقد احنى ركبته ، لاول مرة ، ثم اخذ يتقدم بهدوء نحو قرني الثور ، الذي اخذ يخفض راسه الان ، مع حركة القماش الاحمر ، ثم راته يدفع سيفه بقبضته القوية ، شيئا فشيئا في راس الثور الذي سيطر عليه تمام السيطرة ، واخذ يترنح تحت قبضته القوية ، ليموت بالتدريج .

ها هو يقف امامها ، يرقب الثور الذي يحاول الصمود على قدميه ، وها هو الثور يترنح كالشجرة قبل سقوطها . انه يحاول البقاء على الارض ، ولكن يد الرجل القصير ترتفع لتعلن رسميا ، الانتصار . ورات علائم الارتياح تعلو وجهه فقد كسب المعركة ، ونجا من اخطارها ومخاوفها ؛ ثم بدا الثور يتهادى ، وسرعان ما انقلب ميتا ، وقد ارتفعت اقدامه الاربعة في الهواء . . ومضى الرجل القصير الاسمر ، يخطو ، غير مبتسم نحو سياج الحلبة .

وادركت انه لا يستطيع ان يركض عبر الحلبة ، حتى ولو كانت حياته مهددة ، وراته ، يسير الهوينا الى السياج ، فيمسح فمه بمنشفة ، ويتطلع اليها ثم يهز راسه ، ويعود فيمسح جبينه ووجهه ، ثم يبدا طوافه المنتصر حول الحلبة .

وراته يخطو ببطء وهو يجر قدميه ، يحني هامته ، ويبتسم ، وقد سار مساعدوه خلفه ، ينحنون ، فيلتقطون ما يقذف اليهم من لفائف السيكار والقبعات ثم ينتهي من طوافه امامها . ثم راته يجلس على السلم الخشبي

وقد اخفى فمه بمنشفة .

استعرضت بيلار ، كل هذه الرؤى في خاطرها ، وهي تقف امام النار ثم قالت . . اذن لم يكن بطلا كبيرا ؟ مع اي نوع من الناس اقضي حياتي الان .

فقال بابلو ـ لقد كان بطلا عظيما ، ولكن عيبه الوحيد قصر قامته .

وقال بريميتفو ـ وكان من الواضح ، انه مصاب بالتدرن .

فهتفت بيلار ـ التدرن الرئوي ؟ ومن لا يصاب بالتدرن اذا لقي العقاب الذي تعرض له ؟ في هذه البلاد حيث لا يطمع الفقير بان يجمع مالا الا اذا اصبح مجرما كجوان مارش ، او مصارعا للثيران ، او مغنيا في الاوبرا ؟ اذن لم لا يصاب بالتدرن الرئوي ؟ في هذه البلاد حيث يتخم البورجوازيون انفسهم ومعدهم ، بالطعام فيستعملون المهضمات (كربونات الصودا) . بعد كل وجبة . بينما يعيش الفقراء جياعا ، منذ اليوم الذي يولدون فيه الى اليوم الذي يموتون فيه ، لم لا يصاب مثله بالتدرن الرئوي ؟ واذا كنت قد تنقلت تحت المقاعد في عربات الدرجة الثالثة ، لتتخلص من الاجر ،وانت تلحق بالمعارض لتتعلم المصارعة في صباك ، فتجلس في الوحول والاقذار ، مع البصاق ، الا تصاب بالتدرن الرئوي ، اذا كانت قرون الثور ، قد مزقت رئتيك .

فقال بريميتيفو ـ طبعا . ما قصدت قوله ، هو انه كان مصابا بالتدرن الرئوي .

فردت بيلار وقد حملت الملعقة الخشبية الكبيرة في يدها تقول ـ طبعا ، كان مصابا بالدرن . لقد كان قصير القامة ، رقيق الصوت ، ويخشى الثيران كثيرا . ولم ارَ في حياتي رجلا ، نجا منها قبل الصراع مثله ، ثم يتخلى عنه خوفه اثناء صراعها . . . وادارت وجهها الى بابلو تقول . . فانت تخشى الموت الان ، وتعتقد ان هذا امر على جانب كبير من الاهمية والخطورة . اما فينيتو ، فقد كان دائم الخوف من الموت ، ولكنه في الحلبة اسد هصور .

وقال الاخ الثاني ـ كان مشهورا بشجاعته .

فقالت بيلار ـ لم ار في حياتي رجلا يخاف مثله . انه يكره ان يرى راس ثور في البيت . وفي ذات يوم ، قتل في معرض فالادوليد ثورا لبابلو روميرو .. فقا ل الاخ الاول ـ اذكر ذلك . ست بين النظارة . كان ثورا صابوني اللون ذا قرون مرتفعة. واعتقد انه كان الثور الاخير الذي قتله في فالادوليد

تماما . وبعد قليل ، اجتمع فريق الانصار في مقهى كولون . وقرروا ان يحمل ناديهم اسمه . كما اخذوا رأس الثور ، وقدموه اليه ، في مادبة اقاموها تكريما له في المقهى . واثناء الطعام ، كان راس الثور موضوعا على الحائط ، وقد غطوه بقطعة من القماش . وكنت في المادبة مع اخريات ، بينهن باستورا وهي اكثر بشاعة مني ونينا دي لوسي بيبن ، وعدد من الغجريات والعاهرات من كل صنف ولون . وعلى الرغم من صغر الوليمة، الا انها كانت ملأى بالحيوية والعنف ، اذ وقع خلاف بين باستورا ، وبين احدى العاهرات البارزات حول موضوع يتعلق بالاستحواذ والسيطرة . وكنت اجلس الى جانب فينيتو اكثر من سعيدة ، ولاحظت انه لا يتطلع الى راس الثور الذي غطته قطعة من المخمل الارجواني ، كما تغطي صور القديسين في الكنائس ، في اسبوع آلام ربنا السابق .

« ولم يكثر فينيتو من الطعام ، اذ كان قد اصيب قبل نحو من عام بضربة من قرن ثور كان قد اشرف على قتله في سراقوسه . مما جعله طريح الفراش مدة طويلة ، ولم يكن في وسع معدته ، ان تحمل الطعام الان . وكان يضع منديله على فمه ليمسح به الدم الذي يتفجر من صدره بين اونة واخرى .. آه ماذا كنت اريد ان اقول ؟

فقال بريمتيفو .. كنت تتحدثين عن راس الثور .

ـ اجل . اجل . ولكنني اسهب في الحديث ، لتفهموا الموضوع تماما . ولم يكن فينيتو قط بالانسان المرح . اذ كان دائما ميالا الى الكآبة ، حتى في ساعات وحدتنا وصفونا . وكان لا يضحك لاي شيء حتى ولو كان هذا الشيء مضحكا . فهو يتناول جميع الامور عادة بصورة جدية . اجل كان

جديا كفيرنادو . ولكن هذه المأدبة قد اقيمت تكريما له ، وكان عليه أن يتظاهر بالمرح والود والسرور . وهكذا ظل طيلة وقت الطعام يبتسم ، ويبدي ملاحظات ودوده ، وكنت الوحيدة التي ارى ما يضعه بمنديله . وكان يحمل ثلاثة مناديل ، امتلأت كلها بالدم ، ثم قال لي بصوت خفيض.. اشعر انني لا استطيع الاحتمال اكثر مما احتملت يا بيلار ، وان علي ان اغـــادر المكـــان .

« فقلت له . . اذن دعنا نذهب . . لقد رايته يعاني آلاما لا تطاق . وكان الضجيج قد عم المأدبة الان ، وسادها جو من المرح . . ولكنه رد قائلا . . لا . لا استطيع ان امضي ، فهذا النادي يحمل اسمي ، وعلي التـــزام ، تجاههم . فقلت له . . ولكنك مريض ، وعلينا ان نذهب . . فقال . . لا ، سأبقى ، اعطني قليلا مـن ذلك الشراب .

« وخيل الي ان الشراب سيؤذيه ، لا سيما وانه لم يكن قد اكل شيئا ، وانـه يعاني الاما عنيفة في معدته . ولكن يبدو انه لم يستطع احتمال هــذا الجو من المرح والصخب والضجيج دون ان يحتسي شيئا من الخمر . ورايته يشرب بسرعة ، زجاجة من الشراب . واخذ يستعيض الان . . بفوطة الطعام عن المناديل .

« وبلغت الحفلة الان مرحلة شديدة من الحماس والعنف ، واخذ بعض اعضاء النادي ، يطوفون حول المائدة ، وقد حملوا العاهرات على اكتافهم . وشرع ايل نينو يعزف على القيثار ، بينما اخذت باستورا تغني ، وساد المكان جو من المرح ، والود الشمل . . ومع ذلك لم نكن بعد ، قد وصلنا الى مرحلة ازاحة الغطاء ، عن راس الثور ، وهو المظهر الأساسي في الاحتفال

« وبدات اتمتع بالحفلة ، واخذت اصفق مع العازفين ، واغني مع المغنين ولم الاحظ ان فينيتو قد ملأ « فوطته » بالدم ، وتناول « فوطتي » . وكان لا يزال يواصل الشراب ، وقد ابرقت عيناه ، وبدا في وجهه مرح شديد ، فاخذ يحني راسه لكل انسان . وعلى الرغم من قلة حديثه الا انه بدا عليه، تمتعه بالحفلة حتى الذروة القصوى .

« ومضت الحفلة في سعادتها ، ورونقها ، وكان الرجل الجالس الى جانبي يحدثني عن انه كان مديرا لمسرح رافائيل ايل غالو .. وفي ذات يوم جاءه رافائيل يقول .. « انك اعز صديق لي في العالم ، وانبلهم . واني لاحبك كما احب اخي ، واود ان اقدم لك هدية » ثم قدم له رافائيل « دبوسا جميلا من الماس ونبله في وجنتيه ، ومضى ، فقال الرجل لصديق له يجلس الى جانبه ، اسمع ان الغجري القذر ، قد عقد اتفاقا مع مدير جديد فقال الصديق متسائلا ، ماذا تعني . قال : « لقد ادرت له مسرحه عشر سنوات ولم يعطني في غضونها اية هدية . فهديته اليوم ، لا تعني الا هذا » ؛وبالفعل كانت هذه الحادثة نهاية عمله مع ايل غالو .

« وتدخلت باستورا في هذه اللحظة في الحديث ، لا للدفاع عن رافائيل . فقد كانت من اشد المتحاملين عليه ، ولكن دفاعا عن الغجر ، الذين وصفهم المدير بالقذرين . وكان تدخلها عنيفا قويا ، مما حمل المدير على الصمت والسكوت . وتدخلت لاهدىء من ثائرة باستورا ، وتدخلت غيتانا ،لتهدىء من ثائرتي ، وبلغ الضجيج حدا لم يعد يسمع الانسان فيه شيئا الا كلمة عاهر ، تنطلق من هنا وهناك ، حتى هدانا ، واخذنا ثلاثتنا نرقب كؤوسنا، وفجاة رايت فينيتو يتطلع الى راس الثور الذي ما زال تحت الغطاء . وفي عينيه نظرة فزع شديدة .

« وبدا رئيس النادي في هذه اللحظة يلقي كلمته التي تسبق رفع الغطاء عن راس الثور ، وكنت طيلة الخطاب الذي قوطع كثيرا بالهتافات والقرع على المائدة . ارقب فينيتو ، الذي كان آنذاك ، يستعمل « فوطتي » في مسح الدماء من فمه . بينما اخذ يتراجع في مقعده ، ناظرا بفزع الى راس الثـور القائم قبالتـه .

« وعندما اشرف الخطاب على النهاية ، كان فينيتو يهز راسه . وقد تراجع كثيرا بمقعده .. فقلت له . كيف انت يا صغيري . ولكنه عندما تطلع الي لم يعرفني واكتفى بأن يهز راسه وهو يقول ... لا . لا . لا .

« ووصل رئيس النادي الى النهاية ، ثم وقف بين هتافات الحاضرين على احد المقاعد ، واخذ يفك الرباط ، عن قطعة المخمل الارجواني التي تغطي الراس . ثم رفعها ببطء ، فبدت قرون ذلك الثور الأصفر الضخم ، وكأن صاحبها ما زال على قيد الحياة ... يتطلع الى فينيتو .

وصرخ كل فرد منا وصفق البعض ، بينما كان فينيتو ، يتراجع في مقعده وهو يقول : .. لا . لا .. دون ان يرفع بصره عن الثور ، وفجأة تدفق الدم من فمه على ذقنه وقميصه ، واخذ يصرخ .. طيلة الفصل لا بأس ، ولجمع المال لا بأس وللأكل لا بأس . ولكن لا استطيع ان آكل . اتفهمونني؟ انني مريض في معدتي . لما الان وقد انتهى الفصل .. لا . لا ! ان معدتي مريضة .. وقد انتهى الفصل .. لا . لا . لا . وعاد يجلس الى مقعده ، وقد وضع المنديل على فمه يمنع تدفق الدم منه .. بينما ساد الحفلة وجـوم عابس .

وعاد بريمتيفو يسألها .. وكم انقضى عليه بعد هذه الحفلة ، قبل ان يمـــوت ؟

ـ ذلك الشتاء ليس الا . انه لم يشف قط من تلك الضربة القاتلة التي اصيب بها فى سراقوسه . كانت اصابة داخلية ، ولم يشف منها قط . وكانت تعاوده كلما مضى ليقتل ثورا من جديد . ولعل هذا هو السبب في فشله . وكان من الصعب ان يقفز فوق القرون نظرا لقصر قامته . وهذا ما يجعله يتعرض دائما للاصابة بطرف القرن .

وقال بريميتيفو .. ما دام قصيرا ، لم يكن يجدر به ان يزاول رياضة المصارعـــة .

وتطلعت بيلار الى روبرت ، ولم تقل شيئا ، ثم انحنت على قدرهـــا الحديدي الكبير القائم فوق النار ، واخذت تهز رأسها .. وهي تفكر .. يا لهؤلاء الناس . ما اشد غرابتهم . اي نوع من الناس هؤلاء الاسبان . اذا كان قصيرا ، يجب ان لا يزاول المصارعة . وهي تسمع هذا القول ، ولا ترد عليه . ما أسهل الامور على من يجهلها . فهؤلاء يجهلون وها هو احدهم

يقول ، انه لم يكن بطلا ، وها هو الثاني يقول ، انه كان مصابا بالتدرن الرئوي . وها هو الثالث يقول .. كان عليه نظرا لقصر قامته ان لا يزاول المصارعـــة .

وانحنت على نارها ، ورات على الفراش ، ذلك الجسد الاسمر العاري . وقد بانت فيه الندوب وآثار الجراح التي اصيب بها في فخذيه وصدره وكل جزء من اجزاء جسده . ورات عينيه المغمضتين ، والوجه الاسمر الكئيب ، والشعر الاسود المجعد ، وهي تجلس الى جانبه على الفراش ، تدلك له ساقيه ، وتحرك عضلاته .. ثم تربت عليه وتقول .. كيف تشعر الآن ؟ وكيف تحس بساقيك ؟ وتسمعه يقول لها دون ان يفتح عينيه .. على ما يرام يا بيلار .. فتقول .. اوتريد مني ان ادلك لك صدرك ؟ .. فيرد عليها .. لا . لا تلمسيه .. وتعود فتقول .. وفخذاك .. فيقول .. لا ايضا ، انهما يؤلمانني . وتقول .. ولكنني اذا دلكتهما ، دبت فيهما الحياة واحسا بالدفء ، وحسنت حالك ، فيقول .. لا يا بيلار ، شكرا ، افضل ان لا تلمسيهما . فقالت .. اذن سأغسلك بالكحول .. فقال اجل .. ولكن ترفقي بي ، فقالت .. لقد كنت رائعا في صراعك مــع الثــور .. فقال .. أجل لقد احسنت قتله .

« وبعد ان اتمت غسله ، غطته ، واستلقت الى جانبه على السرير ، فمد يده اليها وقال .. انك امرأة يا بيلار .. وكان بعد كل مصارعة ، يمضي الى النوم ، فتستلقي الى جانبه ، وقد وضعت يده بين يديها .

« وكان دائم الخوف في نومه ، وكثيرا ما احست بيده ترتعد ، وبالعرق يتصبب منه ، واذا ما افاق ، قالت له ، ليس ثمة من شيء ، فيعود الى النوم . وقد قضت معه خمس سنوات لم تخنه فيها مرة واحدة .. وبعد ان وارته التراب .. عاشت مع بابلو الذي كان يعمل في تجارة الخيل ، وكان يشبه الثيران التي كان فينيتو يقضي حياته في قتلها .. لكن قــوة الثــور قد انتهت ، وشجاعته قد مضت ، وهذا ما تعرفه الآن ، فماذا بقي منه .. لقد بقيت هي ليس الا .. أجل لقد بقيت ، ولكن دون غاية او هـــدف .

وقالت تخاطب ماريا .. انتبهي يا ماريا الى النار التي توقدينها . انها نار للطبخ لا لاحراق مدينــة .

ودلف الغجري في تلك اللحظة الى الكهف ، كانت الثلوج تغطيه ، وقـد وقف يحمل غدارته ، ويهز الثلج عن ملابسه وعن قدميه .

وهب روبرت على قدميه ومضى الى الباب يقول للغجري .. حسنا ؟

ـ الخفارة لمدة ست ساعات . رجلان على الجسر الكبير دائما ، وهناك ثمانية رجال وعريف في الكوخ . خذ هذه ساعتك .

ـ ومركز الطاحونــة ؟

ـ ان العجوز هناك . في وسعه ان يرقب المركز والطريق معا .

ـالطريـــق ؟

ـ نفس الحركة كالمعتاد . لا شيء غير المألوف . بضع سيارات فقط .

وبدا الغجري ، يكاد يتجمد من الثلج . وقد احمرت يداه . ونـــزع « جاكيتته » واخذ يهزها ، ليبعد الثلج عنها . ثم قال .. ظللت في مكاني حتى غيروا الخفارة . كان التغيير عند الظهر وفي السادسة مساء . انها خفارة كبيرة . يسرني أنني لست في جيشهم .

وقال روبرت وهو يرتدي معطفه الجلدي .. لنمض الى الرجل العجوز.

ـ لست بماض معك ، وانما سأمضي الى النار والحساء الساخن . في وسعي ان اخبر احد هذين . اين يوجد العجوز ، وان يأخذك اليه ... ثم هتف .. هي .. أيها الكسولان ، من منكما ، يريد ان يرشد الانكليزي الى المكان الذي يرقب فيه العجوز الطريق ؟

وقال فيرناندو ـ سأمضي انا . قل لي اين هو العجوز ؟

ـ اسمع . انــه هنا ..

وارشد فيرناندو ، الى المكان الذي يقف فيه انسيلمو .

١٥

كان انسيلمو يقعي في جذع شجرة كبيرة والثلوج تحيط به من جانبيه . وكان يكاد يلتصق بجسمه بالشجرة من شدة البرد ، وقد وضع يديه في كمي « جاكيته » ، وقد اغرق رأسه الى ابعد حد ممكن في « ياقتها » . وخيل اليه ، انه اذا ظل في مكانه مدة اطول ، فسيتجمد من شدة البرد ، ولكن هذا لن يهم كثيرا . فقد طلب اليه الانكليزي ان يظل في مكانه ، حتى يأتي من يخلفه ، وعندما صدر هذا الامر لم تكن العاصفة الثلجية قد هبت بعد او عرف بأمرها انسان . واكد لنفسه انه لم ير حركات عسكرية غير عادية في هذه الناحية التي يعرفها ادق معرفة ، ويعرف ما يحيط بها من حركات وعادات . وقال يحدث نفسه : يحسن بي ان اعود الان الى المعسكر ، فكل من يملك عقلا أو ذرة من منطق ، لا يتوقع مني البقاء في هذا المكان . ولكن من الخير ، ان ابقى فترة اطول ثم اعود . فهي خطيئة الاوامر على كل حال والاوامر صارمة متزمتة ، وغير مرنة . اذ انها لا تسمح بأي تبدل او تحول وفقا لتبدل الطوارىء والاحوال . وحك قدميه ببعضهما ثم اخرج يديه من الاكمام ، واخذ يدلك بهما ساقيه ، ويضرب على قدميه ، حتى تسير الدورة الدموية فيهما على ما يرام . وبالطبع كان المكان اكثر دفئا من العراك ، فجذع الشجرة يقيه من الريح القارصة ، ولكنه سيضطر الى

السير والعودة عما قريب .

وعندما اقعى من جديد في مكانه ، سمع صوت سيارة على الطريق .كانت لها سلاسل من الحديد ، وكانت السلاسل تحدث هديرا عنيفا . وعندما رمقها ببصره ، راها تصعد الطريق التي غطتها الثلوج ، وقد طليت باللونين الاخضر والبني ، وطلي زجاج نوافذها باللون الازرق ، ليحول بين المتطفلين وبين رؤية ما بداخل السيارة . وبالطبع كانت سيارة مدنية من سيارات الرولزرايس ، وقد اتخذت هذا الشكل المتخفي ليستخدمها اركان القيادة العامة . ولكن انسيلمو ، لم يكن يعرف هذا بالطبع . ولم يستطع ان يرى الضباط الثلاثة وهم جالسون في داخل السيارة وقد التفوا بمعاطفهم وكان اثنان منهم يجلسان في المقعد الخلفي . والثالث في المقعد الامامي الذي يطوى . وكان هذا الاخير يتطلع الى الخارج . من خصاصة صغيرة تركت بلا طلاء خصيصا لاعمال المراقبة . ولكن انسيلمو ، لم يدرِ بهذا طبعا . فكلا الرجلين لم ير احدهما الآخــر .

ومضت السيارة تقطع الثلوج المتراكمة على الطريق تحته ، وراى انسيلمو السائق ، بوجهه الاحمر ، وخوذته الفولاذية ، وقد ظهرا من وراء المعطف الذي يرتديه ، كما راى فوهة البندقية الاوتوماتيكية ، التي يحملها الجندي الجالس الى جواره . وعندما اختفت السيارة عن ناظريه صعدا مع الطريق مد انسيلمو يديه في جيوبه ، واخرج من احداهما الورقتين اللتين اعطاهما اياه ، روبرت من دفتر ملاحظاته . ورسم علامة السيارة . لقد كانــت العاشرة في ذلك اليوم . وقد عادت ست منها فهبطت الطريق ، اما الاربع الباقية فلم تعد . ولم يكن هذا الرقم غير عادي بالنسبة الى السيارات التي تصعد وتهبط ولكن انسيلمو لا يميز بين سيارات الفورد والفيات والاوبل والرينو وبين والسيتروان التي يستخدمها ضباط الفرقة الموكول اليها حماية الممرات وطريق الجبال ، وبين سيارات الرولزرايس واللانسيا والمرسيدس والايسوتا التي يستعملها رجال القيادة العامة . وكان في وسع روبرت جوردان ، ان يدرك مثل هذا التمييز . ولو كان هو هناك ، بــدلا من العجوز ، لقدر اهمية صعود هذه السيارات . ولكنه لم يكن هناك ،

وقد اكتفى العجوز بان يرسم صورة السيارة الصاعدة على الورق .

واحس انسيلمو بالبرد يقرصه ، حتى انه قرر العودة الى المعسكر قبل ان يخيم الظلام . ولم يكن يخشى ان يضل الطريق ، ولكنه راى ان من العبث ان يظل في مكانه بينما يشتد عصف الريح الباردة ، ولم يبد على الثلج اي ميل لتخفيف حدة الهطول . وعندما قرر ان يمضي ، واخذ ينفض قدميه مما تراكم عليهما من الثلوج ، لم يلبث ان عاد الى متكئه فى الشجرة.

وشرع يحدث نفسه .. لقد امرني الانكليزي بالبقاء ، وقد يكون الآن في طريقه الي ، فاذا تركت موضعي هنا ، فربما ضل طريقه وهو يبحث عني. لقد كانت مشكلتنا الرئيسية طيلة الحرب ، في الافتقار الى النظام ، وعدم اطاعة الاوامر ، اذن فعلي ان انتظر فترة اطول .. فلعله يأتي . ولكنه اذا تأخر فى المجيء ، مضيت على الرغم من جميع الاوامر اذ لدي تقرير يتحتم علي ان اقدمه الان ، وأمامي مهام كثيرة فى هذه الايام . والسماح لنفسي بالبقاء هنا ، والموت متجمدا ، مبالغة لا جدوى منها .

وراى الدخان يتصاعد من الطاحونة عبر الطريق ، وتدفقت رائحته الى انفه وقد حملتها الرياح . وقال يحدث نفسه . ان الفاشيين يشعرون بالدفء والراحة وسنقتلهم ليلة غد . ان هذا أمر غريب ، ولا اريد ان اطيل التفكير فيه . لقد قضيت النهار في مراقبتهم فرأيت انهم رجال لا يختلفون عنا في شيء ابدا . واعتقد ان في وسعي ، ان امضي الى الطاحونة واقرع بابها فيرحبون بي ، سوى ان لديهم اوامر ، باعتراض جميع المسافرين ، وطلب ابراز اوراقهم . انها الاوامر وحدها التي تفصل بيننا وبينهم . فهؤلاء الرجال ليسوا من الفاشيين على الرغم من انني القبهم بهذا الاسم . انهم من الفقراء امثالنا . وكان حريا بهم أن لا يحاربوننا ، ثم انني اكره مجرد فكرة القتل .

وهؤلاء الواقفون عند هذا المركز من الغاليين ، انني اعرف ذلك من حديثهم ، فقد سمعتهم يتحدثون بعد ظهر اليوم . وليس في وسعهم ، ان

يتركوا مراكزهم ، لانهم ان فعلوا ذلك . قتلوا افراد اسرهم ؛ والفاليون ، اما ان يكونوا من الاذكياء جدا ، او من البلداء والمتوحشين . وقد خبرت منهم النوعين . فليستر من الفاليين ومن نفس مدينة فرانكو . ويدهشني ما يفكر به هؤلاء الناس ، وقد رأوا الثلج يتساقط في مثل هذا الوقت من العام . فليست في بلادهم جبال عالية كهذه ، ولكن الامطار عندهم غزيرة ، وبلادهم دائمة الخضرة .

ورای نورا ينبعث من نافذة الطاحونة ، فارتعد انسيلموا ، وفكرا بهذا الانكليزي الملعون . فهناك الفاليون ينعمون بالدفء ، داخل المنزل ، في صميم بلادنا ، وانا اتجمد وراء شجرة ، ونعيش في ثقب من الصخور كما تعيش الوحوش في الجبال . ولكن الوحوش ستنطلق من عقالها في الغد ، وسيموت هؤلاء الناعمون الآن بالدفء والراحة وهم في فرأشهم ، كما مات ، رفاقهم في اوتيرو ، عندما هاجمناها تلك الليلة . كم ود لو لم يتذكر اوتيرو .

لقد قتل في أوتيرو للمرة الاولى في حياته ، وكم ود لو انه لا يشترك في القتل في مداهمة هذه المراكز . ففي أوتيرو ، طعن بابلو الحارس بموساه ، عندما وضع انسيلمو « البطانية » على راسه ، فامسك الحارس بقدم انسيلموا ، واخذ يصرخ ، مما ارغم انسيلمو على ان يطعنه من جديد بمطواته ، ليرغمه على التخلي عن قدمه .. وانتهى الرجل . وكان قد وضع ركبته على عنق الرجل لارغامه على السكوت وهو ينهال عليه بموساه ، بينما كان بابلو يقذف بقنبلته اليدوية من النافذة الى الغرفة التي ينام فيها رجال المركز . وعندما لمع الانفجار ، كانت قنبلتان اخريان ، قد سقطتا في قلب الغرفة . فقد قذف بهما بابلو بعد ان رفع صماميهما بسرعة ، حتى يموت الناجون من القنبلة الاولى . لقد كانت تلك الايام الرائعة في حياة بابلو ، عندما كان يجول ويصول في البلاد ، كقائد من المغول ، ولا يصمد امامه اي مركز من مراكز الفاشيين في الليل .

اما الآن فقد انتهى هذا الانسان ، كما ينتهي الخنزير البري الذي طرأ عليه التحول والتغير ؛ وعندما تم تحوله ، وانتهى تحويله ، يقذف الانسان بحجرين ، فيجري وراءهما ، الخنزير البري ، الذي لم يعد بريا لالتقاطهما ... لا ، ان بابلو لم يصل بعد الى هذه الدرجة من السوء ، ولكنه تغير كثيـــرا .

وخيل اليه ، ان البرد قد اشتد اكثر فاكثر .. وقال لنفسه ، كان على الانكليزي ان يصل .. وعلي أن لا اشترك في عملية القتل في هذه المراكز . وسيكون هؤلاء الفاليون الاربعة وعريفهم ، من نصيب المتعطشين الـــى القتل . لقد قال الانكليزي ذلك ، وبالطبع سأقتل ، اذا لم يكن ثمة مناص من القتل ، ولكنني كما قال الانكليزي ، سأكون معه عند الجسر ، ونترك الهجوم على المراكز للاخرين . وبالطبع ستنشب معركة عند الجسر ، واذا قدر لي ان اعيش بعد المعركة ، فانني اكون قد عملت كل ما يسع رجـلا عجوزاً مثلي ، ان يعمله في هذه الحرب . ولكن على الانكليزي ان يأتي الان ، فقد تصلبت أعضائي من البرد ، ومجرد رؤيتي للنور ينبعث مـن نافذة الطاحونة ، حيث ينعم الفاليون بالدفء ، تجعل احساسي بالبرد يشتد ، ويتضخم . كما وددت لو عدت الى بيتي وانتهت هذه الحرب . ولكنني لا املك بيتا الان . وعلينا أن نفوز بالحرب ، قبل أن اتمكن من العودة الـى البيـــت .

وكان احد الجنود يجلس في الطاحونة ، على عجزه ، وهو ينظف حذاءه بينما كان جندي آخر ينام على سريره . أما الثالث فكان يعد الطعام ، والعريف يقرأ صحيفة في يده . وكانت الخوذ معلقة على مسامير علـــى الحائط ، بينما ارتكزت البنادق علـى الجدار .

وقال الجندي المستلقي على سريره .. اية بلاد هذه ، يهطل فيها الثلج في شهـر حزيران ؟

فقال العريف .. انهـا ظاهرة طبيعية غريبة .

وقال الجندي الذي يتولى الطبخ .. نحن في شهر ايار القمري . فلم

ينته هـذا الشهر بعد .

فعاد الاول يقول .. ولكن اية بلاد هذه التي تتساقط الثلوج فيهـــا فـــي ايـار ؟

فقال العريف ـ ان سقوط الثلج في ايار ليس غريبا في هذه الجبال . وقد شعرت بالبرودة في مدريد في شهر ايار أكثر من اي شهر آخر .

فقال الطباخ ـ ولا ريب في انك تشعر بالحرارة فيها ايضا ، اكثر من اي مكـــان اخـر .

ورد العريف ـ ان ايار هو شهر المتناقضات في الطقس . وهنا في قشتالة، قد يكون شهر ايار من اشهر الحرارة القائظة ، ولكنه قد يكون ايضا من اشهر البرد القارص . وقال الجندي المستلقي .. وهو شهر امطار ايضا، فقد أمطرت السماء كثيرا في ايار الماضي ، حتى ان المطر ، كاد لا ينقطع اي يـــوم .

وقال الطباخ ـ اجل انه لم ينقطع . على كل حال ، كان ايار هو شهـر نيســـان القمري .

فرد العريف ـ ان الانسان يكاد يصاب بالجنون من الاصغاء الى حديثك عن هذه الاشهر القمرية . دع الاشهر القمرية للاقمار نفسها .

ـ كل من يعيش في البحار او في المزارع ، يدرك ان الشهور القمرية هي الامر الاهم . وها نحن قد بدانا شهر ايار القمري ، في خضم شهر حزيران

ـ اذن لم لا تتاخر الفصول .. ان كل هذا الموضوع يسبب لي صداعا .

ـ انك من اهل المدن . اجل انك من لوغو . فماذا تعرف عن البحـار والزراعـة ؟

ـ ولكن الانسان يتعلم في المدن اكثر بكثير مما تتعلم في بحـارك او في زراعتـك .

ـ في مثل هذا الشهر ، تتوافر اسماك « السردين » الصغيرة ، ويخرج الصيادون الى البحار ، بينما يتجه سمك « المكويل » الى الشمال .

ـ ولم لا تلتحق بالبحرية اذا كنت من نويا ؟

ـ ذلك لانني لم اتطوع في نويا بل نغريريا حيث ولدت ، ومن نغريريا ، لا يذهب المجند الى البحرية ، وانما الى الجيش .

ـ وهذا حظ اسوا .

وقال الجندي المستلقي : لا تظن ان البحرية ، اقل مخاطر من الجيش . حتى ولو افترضنا عدم وجود المعارك ، فالشاطىء شديد الخطر في الشتاء.

فرد العريف بقوله ـ ليس هناك ما هو اكثر خطورة وسوءا من الجيش

وقال الطباخ ـ انت العريف ، تقول هذا القول ؟ يا لها من طريقة .

ـ اجل لقد عنيت المخاطر ، من ناحية احتمال القصف الجوي ،والحاجة الى حياة الحواجز والاسلاك الشائكة .

فقال الجندي المستلقي ـ ولكن ليس لدينا هنا الاّ القليل مما تذكره .

فرد العريف ـ بحق الاله ، من يدري متى سنتعرض لها ثانية ؟ بالطبع لن تكون حياتنا كلها على هذا النحو من السهولة والبساطة .

ـ ولكن اتظن أن حياتنا على هذا الشكل ستطول ؟

ـ لا أدري . وكل ما ارجوه ان تطول مدة ما تبقى من الحرب .
وقال الطباخ ـ ولكن الخفارة ست ساعات ، أمر شاق وطويل .

ـ سنختصرها الى ثلاث طالما ان العاصفة مستمرة . وهذا شيء طبيعي ومألوف .

وقال المستلقي ـ وما رايك في سيارات ضباط الاركان هذه ؟ لم يعجبني منظرها وهي تمر بنا .

ـ ولا انا . فهذا المنظر يدل على شيء مشؤوم .

وقال الطباخ ـ وهذه الطائرات . اليست علامة سيئة ايضا ؟

فرد العريف ـ ولكن سلاحنا الجوي قوي لا يغلب . وليس لدى الحمر ،

سلاح يكفي لمواجهتنا . ولا ريب في ان منظر الطائرات اليوم ، يبعث في نفس كل انسان السعادة .

وقال المستلقي ـ لقد رايت طائرات الحمر ، وهي تجد في عملها ، اجل لقد رأيت هذه القاذفات من ذوات المحركين ، وكان احتمالها امرا مرعبا

ـ اجل ، ولكنها لا تضاهي في قوتها ، قوة سلاحنا الجوي . ان طائراتنا لا تقهر .

**

هذا ما كانوا يتحدثون به في الطاحونة ، عندما كان انسيلمو يرقب وسط الثلج ، الطريق ، والضوء المنبعث من نافذة الطاحونة .

وعاد انسيلمو يخاطب نفسه .. آمل ان لا يكون نصيبي القتل . واني لآمل بعد انتهاء الحرب ، ان يكون ثمة تكفير عظيم ، عن اعمال القتل التي ارتكبها الانسان . واذا اختفت الديانة من بلادنا بعد الحرب ، فيجب ان يكون ثمة تكفير مدني ، ينظم على أي شكل ، ليطهر الانسان من اعماله ، والا لما توفر لنا أساس انساني صادق للحياة ، وقد يكون القتل ضروريا ، وهذا ما ادركه . ولكن الاقدام عليه امر سيء على اي حال ، بالنسبة الى الانسان ، ولذا يتحتم ايجاد نظام صحيح بعد ان تنتهي هذه الحرب ونفوز فيها للتكفير ، واراحة ضميرنا .

كان انسيلمو رجلا طيبا ، وكانت هذه المشكلة التي تتعلق بالقتل تعاوده كلما كان وحيدا ، وكثيرا ما كان وحيد .

وعاد يفكر .. وهذا الانكليزي ، انه يبدو انسانا رقيقا وشديد الاحساس ، ومع ذلك فقد ذكر لي ، انه لا يكترث بأن يقتل . ويبدو ان الشبان لا يكترثون كثيرا بهذا الموضوع . ومن المحتمل ، ان لا يحمل الاغراب ، ولا سيما اولئك الذين يختلفون عنا في الدين نفس العواطف التي نحملها . ولكن كل من يقترف القتل يعتبر وحشا ، فهو خطيئة كبرى ، وعلينا ان نقوم بعمل ضخم وقوي في المستقبل للتكفير عنه .

وكان الظلام قد خيم تماما على المكان الآن ، ونظر عبر الطريق الى الضوء المنبعث من هناك . ثم اخذ يحرك يديه ليبعث فيهما الدفء والحرارة . وتصور ان عليه الان حتما ان يعود الى المعسكر . ولكن شيئا ما ، ظل يمسك به ويحمله على الوقوف الى جانب الشجرة فوق الطريق. وكان هطول الثلج قد اشتد ، وخيل لانسيلمو أن من الخير لو نسفوا الطريق الليلة . ففي مثل هذا الطقس من السهل اداء مثل هذا الواجب واحتلال المركزين .اجل ففي مثل هذه الليلة ، يستطيع الانسان ان يفعل كل شيء .

وعاد الى الوقوف الى جانب الشجرة ، يضرب الارض بقدمه ، ولم يعد يفكر في الجسر او موضوعه . كان دائما يحس بالوحدة عندما يهبط الظلام، اما الليلة ، فقد شعر بخواء في داخله يشبه الجوع . وكان في تلك الايام الخوالي يتغلب على هذا الاحساس بالوحدة بتلاوة الصلوات ، التي يتلوها عادة بعد عودته الى البيت من رحلات صيده ، فيشعر بالراحة والطمانينة ولكنه توقف عن الصلاة منذ بدء الحركة . وقد افتقد هذه الصلوات ،ولكنه وجد ان من غير اللائق بل ومن النفاق ان يعود الى تلاوتها ، ولم يكن يود أن يطلب أي احسان ،او اية معاملة خاصة متميزة عن تلك التي يلقاها سواه .

ومضى يخاطب نفسه .. اني رجل وحيد ، ولكن هذا شان جميع الجنود وزوجات الجنود ، وكل من فقد اسرته أو ابويه .. وليست لي زوجة ، ولكني سعيد لانها توفيت قبل الحركة .. اذ لو عاشت لما استطاعت ان تفهمها . وليس لي اطفال ، ولن ارزق قط باطفال . وقد اشعر بالوحدة في النهار ، عندما افتقر الى العمل ، اما الليل ، فهو وقت الوحدة القاتلة . ولكنني املك شيئا ، لا يستطيع اي انسان أو اله ان ينتزعه مني ، وهو انني خدمت الجمهورية خير خدمة . أجل لقد عملت في سبيل الخير الذي سنتقاسمه كلنا فيما بعد . وكان عملي رائعا منذ بدات الحركة ، ولم اعمل قط شيئا اخجل منه .

وكل ما يؤلمني هو ان اقتل . ولكن الفرصة ستتوفر للتكفير .. اذ ان

مثل هذه الخطيئة الكبرى التي يحملها الكثيرون ،تتطلب ايجاد حل او نوع من العزاء . واني لأشعر بالميل الى التحدث الى الانكليزي في هذا الصدد ، ولكن بالنظر الى صفر سنه فقد لا يفهمني .. حقا لقد ذكر موضوع القتل ذات مرة ، ولكن .. الم أكن انا الذي اثرت الموضوع ؟ لا ريب في انه قتل كثيرين ولكنه لا يبدي اية رغبة في القتل . فالذين يحبون القتل ، يبدون دائما وقد تغلبت عليهم طبيعتهم العفنــة .

ولا ريب في ان القتل خطيئة كبرى ، بل لعلها الخطيئة الوحيدة التي يجدر بنا ان لا نقترفها ، حتى ولو اقتضتها الضرورة . اما في اسبانيا ، فالقتل شيء سهل ، وكثيراً ما يقدمون عليه ، دون حاجة الى اقترافه ، وهنا يقع الغبن الهائل الذي لا يمكن اصلاحه فيما بعد . وكم كان بودي لو انني لم افكر فيه كل هذا التفكير ، وكم وددت لو توفرت الندامة والتكفير منذ هذه اللحظة ، لان هذه هي الخطيئة الوحيدة التي اجترمتها في حياتي والتي تعذب ضميري كثيراً ، عندما اكون وحيدا . اما الجرائر الاخرى ، ففي الامكان الصفح عنها ، او التكفير ، عن طريق العطف واللطف . امــا القتل ففي رايي جريرة كبيرة ، ويجب ان تعالج فورا . وقد تظهر فيما بعد ايام تتطلب من الانسان ان يعمل في سبيل الدولة ، او اشياء قد يعملها لازالة جرائره . فهي من الامور التي يجب على الانسان ان يقدم تماما الثمن للتكفير عنها كما كان يفعل في ايام انتمائه الى الكنيسة ، حقا أن الكنيسة نظمت شؤون الخطايا ادق تنظيم .. وسرته هذه الفكرة ، فابتسم في جنح الظلام ، عندما راى روبرت جوردان أمامه . لقد جاء بهدوء ولم يشعر به العجوز الا وهو يقف امامه .

وهمس روبرت في اذنه وهو يربت على ظهره .. كيف حال العجوز ؟

ـ قتله البرد ... وراى فيرناندو يقف على مقربة .

فقال روبرت هلم الى المعسكر ، لتتدفأ ، لقد كانت جريمة مني أن ابقيك هنا مثل هذا الوقت الطويل .

اشار انسيلمو ـ هذا ضوؤهم .

ـ وايـن الحرس ؟

ـ أنك لا تراه من هذا المكان . انه وراء المنعطف .

ـ عليهم اللعنة .. ستخبرني في المعسكر ، هلم بنا ولنذهب .

ـ دعنـي اريك .

ـ سأرى كل شيء في الصباح ، خذ جرعة من هذا .

ومد يده بزجاجة الابسنت الى الرجل العجوز ، فتناول هذا منها جرعة كبيرة . ثم قال وهو يمسح شفتيه بيده متلمظا .. آه ، انه كالنار .

وقال روبرت .. هيا بنا ، فلنذهب .

وكان الظلام قد اشتد تماما ، والعاصفة الثلجية ، قد وصلت ذروتها . وكان فيرناندو يقف على مبعدة منهما .. فقال روبرت ، وهو يمد يـده اليه بالزجاجة .. هي ، يا فيرناندو ! اليك في جرعة ..؟

ـ لا شكرا .

وقال روبرت يحدث نفسه ،ان من حسن حظه ان روبرت رفض ان يشرب ، اذ لم يبق في الزجاجة الا القليل .. وقد سعدت بلقاء هذا العجوز .. ثم اخذ يربت على ظهره ، وهما يصعدان الجبل .. وقال .. يسعدني ان اراك . فعندما اكون حزينا ، يعاودني السرور برؤيتك .. هيا لنعد الى مكـــان بابلـو .

وقابل انسيلمو .. الى قصر الخوف

ـ لا الى كهف البيضات الضائعات .

فتساءل فيرناندو ـ اية بيضات ؟

ـ انها مجرد نكتة عابرة . مجرد نكتة ..

ـ ولكن لماذا ضاعت البيوض ؟

ـ لا ادري . وعليك أن تبحث عنها في كتاب ، او عند بيلار .. ثم وضع روبرت يده على كتف انسيلمو وقال وهو يهزه .. اسمع انني سعيد برؤيتك اتسمع ؟ انك لا تدري ما يعنيه ان بجد الانسان رفيقه في هذه البلاد فى نفس المكان الذي تركه فيه .

ـ يسعدني ان اراك ، ولكنني كنت على وشك ان اغادر مكاني .

ـ كان من الافضل ان تغادر مكانك والا تجمدت فيه .

ـ وكيف الوضع ، في المكان البعيد ؟

ـ على احسن ما يرام ، كل شيء رائع .

كان يشعر بالسعادة تغمره ، وهو عين الاحساس النادر من السعادة الذي يحس به من يتولى مركز القيادة في اي جيش ثوري ، عندما يرى ان احد اجنحته قد صمد في موضعه . وخيل اليه ، ان سعادته ، ستزداد وتتضخم لو صمد الجناحان معا . ولكنه لا يدري ، من سيصمد في الجناح الثاني ، فمن المحتمل ، اذا مد هذا الجناح ، او اي جناح ، ان لا يتمخض الا عن رجل واحد . اجل رجل واحد ، وبالطبع ليس هذا بالمحور الذي يريده . ولكنه رجل طيب وطيب جدا . وخيل اليه ، أن هذا العجوزسيكون بمفرده الجناح الايسر عندما تنشب المعركة ، ولكنه لا يريد ان يبوح له بهذا السر منذ الان حقا انه رجل طيب ، وستكون المعركة ممتازة . وكم ود دائما لو خاض معركة يقودها هو . وكانت له فكرة دائما عن كل ما ارتكب من اخطاء فى كل المعارك السابقة . اذن يجب ان تكون المعركة المقبلة رائعة للغاية . انها ستكون صغيرة ولكنها منتقاة ومختارة .. ومضى يقول لنفسه .. اذا كنت سأنفذ ما اراه ، فانها ستكون معركة مختارة .

وقال يخاطب انسيلمو .. يسرني جدا ان اراك .

ـ وانا كذلك .

وشعر انسيلمو وهما يرتقيان الجبل في ظلمة الليل ، والرياح تعصف بظهورهم ، والزوبعة الثلجية ، تمر فوق رؤوسهم ، ان احساس الوحدة الذي سيطر عليه قبلا قد فارقه الان . فهو لم يعد وحيدا منذ ربت الانكليزي على كتفه . ولقد كان الانكليزي فرحا وسعيدا ، واخذا يتبادلان النكات . وقد ذكر الانكليزي ان الامور تسير على ما يرام ، وهو لهذا لا يشعر بأي قلق . واحس بالدفء من جرعة الخمر التي نالها ، تسري من معدته الى قدميه ، وقد اخذا في ارتقاء الجبل .. وقال يحدث الانكليزي .. لم ار الكثير على الطريق .

فقال الانكليزي ـ حسنا .. ستريني ما رسمت ، عندما نصل هناك .

وغمر شعور من الفرح ، انسيلمو ، لانه ظل في مركز المراقبة ولم يغادره

وخيل لروبرت جوردان ، أن انسيلمو لو عاد الى المعسكر ، لكان عين الصواب ، ولكان العمل الذي يجب عليه ان يقوم به في مثل هذه الظروف. ولكنه ظل في مركزه . وهذا شيء نادر في اسبانيا . ومجرد البقاء في هذه العاصفة يرمز الى الكثير . ولعل للألمان بعض الحق ، في تسمية الهجوم بالعاصفة . وقد اعثر على رجلين اخرين يمكن ان يظلا في مكانيهما . اجل في وسعي أن اعثر على آخرين . ولا ادري ، هل فيرناندو من هذا النوع او لا . من المحتمل ان يكونه ، فهو الذي اقترح أن يأتي معي قبل قليل . وهل في وسعي ان افترض انه سيبقى . او ليس هذا بالامر الحسن . انه من النوع العنيد . وعلي أن اقوم ببعض التحريات .. ترى ما الذي يدور في خلد هـذا الانسان ؟

وقال روبرت يسأله ـ بماذا تفكر يا فيرناندو ؟

ـ لماذا تسألني ؟

ـ بدافع الفضول ، فانا رجل كثير الفضول .

ـ كنت افكر بالعشاء .

ـ اوتحب الاكـل ؟

ـ اجـل كل الحب .

ـ مـا رايك فى طهو بيلار ؟

ـ معتـدل .

وسيطرت على روبرت جوردان حاسة غريبة ، بأن هذا الرجل من النوع الـذي يثبت في مركزه .

وانطلق الرجال الثلاثة صعدا في طريق الجبل يخوضون في الثلج .

١٦

قالت بيلار لروبرت عندما وصل .. كان ايل سوردو هنا . وكان روبرت ورفيقاه ، قد اندفعا من العاصفة الثلجية الى دفء الكهف ودخانه،فأشارت المراة براسها اليه .. فاتجه نحوها وهمست تقول .. لقد مضى يبحث عـــن الجيـــاد .

ـ حسنا ، وهل ترك لي اية رسالة ؟

ـ لا شيء سوى انه يمضي بحثا عن الجياد .

ـ ونحـــن ؟

ـ لا شيء .. انظر اليه .

وكان روبرت قد راىبابلو عندما دلف الى الكهف ، فقطب هذا جبينه وكان لا يزال يرقبه بعينيه ، من وراء المائدة الكبيرة ، ويحرك بيديه ، ثم سمعه يقول .. لا زالت السماء تهطل ثلجا يا انكليزي .

واحنى روبرت جوردان راسه دون أن ينبس ببنت شفة .

وقالت له ماريا ـ انزع حذاءيك ، ودعني آخذهما لاجففهما . سأعلقهما فـوق النـار .

ـ كوني حذرة ، بحيث لا تحرقيهما ، فانا لا ارغب في السير هنا عاري

القدمين .. ثم التفت الى بيلار وقال .. ما المشكلة ؟ اهذا اجتماع ؟ اليس ثمة في الخارج اي حراس ؟

ـ في مثل هذه العاصفـة ؟

كانوا ستة رجال يجلسون الى المائدة وقد ركنوا بظهورهم الى الحائط . وكان انسيلمو وفيرناندو ، لا يزالان ينظفان ملابسهما من الثلج ، ويضربان بحذاءيهما الحائط ..

وقالت ماريا .. اعطني جاكيتتك ، ولا تدع الثلج يذوب عليها ،

ونزع روبرت سترته ، وحل رباط حذائه ..

وقالت بيلار .. سيتبلل كل شيء هنا .

ـ انت التي استدعيتني اليك هنا .

ـ ومع ذلك ، فليس ثمة ما يعيقك عن العودة الى الباب لتنظيف نفسك

ـ عفوا .. ووقف على الارض القذرة بقدميه العاريتين وقال .. دبري لي يا ماريا زوجا من الجوارب .

ـ فهتفت بيلار ، وهي تضع حطبة جديدة في النار .. يا الله ، يا رب .

وقال روبرت ـ على الانسان ان يستغل وقته دائما .

وقالت ماريا ـ أن كيسك مغلق .

ـ هاك مفتاحه .

ـ انه لا يناسب هذا الكيس .

ـ انه مفتاح الكيس الآخر . والجوارب في الجزء العلوي منه .

وعثرت الفتاة على زوج من الجوارب ، واغلقت الكيس ، ثـم اعطته الجوارب مع المفتاح . وقالت ـ اجلس ، والبس الجوربين ، ثم ادلـك

قدميك جيـدا .

وتطلع اليها روبرت مقطبا ، وقال .. اليسِ في وسعك ، ان تجففيهما بشعـرك ..

وسمعته بيلار فقالت .. يا لك من خنزير .. ظهرت اولا بمظهر الرب ، وها انت تظهر الآن بمظهر الهنا السابق . اضربيه بقطعة من الخشب يا مـــاريـا .

فقال روبرت ـ لا ، انني امزح ، لانني سعيد

ـ اسعيد انت ؟

ـ كل السعادة . فكل شيء يسير على ما يرام .

وقالت ماريا .. اذهب يا روبرتو واجلس ثم جفف قدميك ، ودعني آتيك بشيء دافيء تشربه .

وقالت بيلار .. اوتظنين ان هذا الرجل لم يبلل قدمه من قبل ، او انه لم يـرَ في حياته ثلجا يهطل .

وجاءته ماريا بجلد خروف فوضعته تحت قدميه على الارض القذرة وقالت .. دع هذا تحت قدميك حتى يجف حذاؤك .

وكان الجلد ، حديث التجفيف ، ولم يكن مدبوغا ، وعندما وضع روبرت قدميه عليــه احس بخشونته .

واستمرت النار في الاشتعال ، وهتفت بيلار بماريا تقول .. انفخي على النار ايتها الفتاة التي لا نفع فيها . فقد امتلأ الكهف بالدخان .

وردت ماريا تقول .. انفخي انت ، انني ابحث عن الزجاجة التي تركها ايـل سوردو .

ـ انها وراء الكيسين ، هل يجب ان تعني به كالطفل .

ـ لا انني اعني به كرجل ، ابتل بالماء وشعر بالبرودة . انني اعني به كرجل عاد لتوه الى بيته . خذ ها هي الزجاجة . انها زجاجة الظهر ، وفي

وسع الانسان ان يعمل مصباحا جميلا من هذه الزجاجة . وعندما يتاح لنا ان نعود الى رؤية الكهرباء من جديد ، فان هذه الزجاجة ستصبح مصباحا جميلا . كيف تتناول ما فيها يا روبرتو ؟

ــ ظننت انني انكليزي ؟

ــ انني ادعوك روبرتو امام الآخرين .. كيف تريد ان تشرب يا روبرتو .

وقال بابلو وهو يهز راسه الثقيل .. روبرتو .. كيف تريده يا دون روبرتــو ؟

فقال روبرت ــ اتريد قليلا منــه ؟

وهز بابلو راسه .. انني اسكر نفسي بالنبيذ .

ــ اذن انت تعبد باخوس .

ــ ومــن هــو باخوس ؟

ــ انـه احد رفاقـك .

ــ لم اسمع باسمه من قبل فى هذه الجبال .

وقال روبرت لماريا .. اعط انسيلمو قدحا منه . انه هو الذي يحس بالبرد حقا . وكان قد بدأ يرتدي جوربيه الجافين ، واحس بالدفء مــن قدح الويسكي الذي مزجه بالماء . وخيل اليه ان الويسكي لا يتنقل دافئا فى الجسد كما يتنقل الابسنث . اذ لا شيء يضاهي الابسنث .

وبدأ يفكر . من يمكن له ان يصدق ، انهم يملكون الويسكي هنا . ولكن لاغرانجا ، هي اكثر مدينة فى اسبانيا يمكن ان يعثر على الويسكي فيها .. يالله ما اروع ايل سوردو هذا ، لقدْ قدم شيئا مــن زجاجته لزائــره الديناميتي ثم ما عتم ان تذكر انه يجب عليه ان يحملها اليه في المساء .. ان هذا اكثر من مجرد دماثة وكياسة . فالكياسة تقضي باخراج الزجاجة ، ودعوة الزائر الى كأس . وهذا ما كان يعمله الفرنسيون في حالة كهذه ؛ اذ يوفرون ما تبقى الى مناسبة ثانية . اما التفكير ، بأن الزائر قد احبها ، وانه قد يحتاج اليها ، في الوقت الذي يكون فيه هذا الانسان الذي فكر ،

مشغولا ، بامور اكثر اهمية وخطورة ، تتعلق به نفسه ، فهذا ما لا يمكن ان يجده الانسان الا عند الاسبانيين . انه طراز اسباني حتما . ولعل مثل هذا العمل ، هو من الاسباب التي تدعوه هو ـ اي روبرت ـ الى حب هذا الشعب ، ولكن لماذا الاغراق في الخيال حول هذا الموضوع . فهناك فصائل مختلفة من الناس عند الاسبان ، تماما مثل الاميركيين . ومع ذلك فان لفتة ايل سوردو ، ومجيئه بزجاجة الويسكي ، عمل رائع .

وقال يسأل انسيلمو ـ كيف وجدته ؟

وكان العجوز يجلس الى جانب النار وقد ضاعت الإبتسامة على وجهه ، وحمل القدح في يديه ، فهز راسه .

وقال روبرت يسأله ـ ماذا ؟ الا تحبه ؟

فرد انسيلمو ـ لقد مزجته الطفلة بالماء .

فقالت ماريا ـ تماما كما يفعل روبرتو . هل تختلف عنه ؟

ـ لا ، انا لا اختلف عنه ، ولكنني اود ان اشعر به وهو يحرق حلقي عندما يتسلل الى جوفي .

وقال روبرت للفتاة ـ اعطني هذا القدح . وصبي له قدحا آخر من النوع الذي يحرق .

وافرغ ما في الكأس في قدحه واعاده الى ماريا ، فارغا ، فصبت فيه من الزجاجة بهدوء وعناية .

وقال انسيلمو وقد تناول الكأس وافرغ ما فيه في جوفه .. آه . ثم تطلع الى ماريا الواقفة امامه والزجاجة في يدها ، فأومأ اليها ، والدموع تترقرق في عينيه .. آه ، هذا هو الشراب الذي يقتل ما فينا من حشرات

وقالت ماريا وهي تدنو من روبرت ، والزجاجة ما زالت في يديها .. روبرتو هل انت على استعداد لتأكل ؟

ـ وهل الطعام جاهز ؟

ـ انه جاهز في اللحظة التي تعينها .

ـ وهل اكل الآخرون ؟

ـ كلهم ما عداك . وانسيلمو وفيرناندو .

ـ اذن دعينا ناكل . وهل اكلت انت ؟

ـ سآكل فيما بعد مع بيلار .

ـ تعاليا وكلا معنا .

ـ لا ، لا يجوز لنا .

ـ تعاليا وكلا . نفي بلادنا لا ياكل الرجل قبل امراته .

ـ تلك بلادك ، اما هنا فمن الخير ان تأكل المراة بعد رجلها .

وقال بابلو وهو يهتف من مكانه عند المائدة .. كلي معه ، واشربي معه ، ونامي معه ، وموتي معه ، واعملي وفق عادات بلاده .

وقال روبرت ، وقد وقف امام بابلو .. هل انت ثمل ؟.. وتطلع اليه الرجل سعيدا ، بوجهه القذر .

فقال بابلو اجل .. واين بلادك يا انكليزي حيث تأكل النساء مع الرجال

ـ في الولايات المتحدة . في ولاية مونتانا .

ـ وهل يلبس الرجال هناك « تنورات » مثل النساء ؟

ـ لا ، ذاك في اسكوتلندا .

ـ ولكن قل لي ، متى ترتدون مثل هذه التنورات ؟

ـ انا لا ارتديها .

ـ وعندما ترتدي « التنورة » ، ماذا تلبس تحتها ؟

ـ لا ادري ما يلبسه الاسكوتلنديون . وكثيرا ما ساءلت نفسي

هـذا السؤال .

ــ ليس الاسكوتلنديين ، فمن يهتم بالاسكوتلنديين ، ومن يهتم بأناس يحملون مثل هذا الاسم الغريب ، انا لا اهتم بهم . انا اخاطبك يا انكليزي انت . ماذا تلبس تحت تنورتك في بلادكم ؟

ــ قلت لك مرتين اننا لا نلبس « التنورات » ، ولم اكن ثملا ولا هازلا .

ــ ولكن تحت تنورتك . فهذا أمر معروف انكم تلبسون التنورات . حتى الجنود منكم . وقد رايت صورا عدة ، كما رايتهم في « السيرك » . ماذا تلبس تحت تنورتك يا انكليزي .

فقال روبرت ــ نضع مظاهر رجولتنا . .

وضحك انسيلمو ، كما ضحك الاخرون باستثناء فيرناندو . فقد كـان النطق بتلك الكلمة الضخمة امام النساء ، امرأ اساءه .

وقال بابلو ــ هذا شيء طبيعي ، ولكن لو كان لديكم الكفاية منها لمـــا ارتديتم التنورات .

وقال بريمتيفو . . لا تدعه يبدأ من جديد يا انكليزي ، فهو ثمل ، . قل لي ، ماذا تربون في بـلادكم ؟

ــ الاغنام والابقار ، ونزرع الحنطة والفولاذ . والقصب لصناعة السكر .

وكان الثلاثة يجلسون على المائدة ، بينما يجلس الآخرون قريبا منهم ، باستثناء بابلو ، الذي كان يجلس وحيدا امام جفنة ملأى بالنبيذ . واخذ روبرت يلتهم طعامه بشهية .

وقال بريمتيفو بلهجة مهذبة . . لا ريب ان في بلادكم جبالا . .

ــ طبعاً جبال كثيرة ، وبالغة الارتفاع .

ــ وهل عندكم مراع عظيمة ؟

ــ من اجود المراعي . ففي الصيف المراعي العالية التي تملكها الحكومة .

وفي الخريف تهبط الماشية الى المراعي الخفيضة .

ــ وهل يملك الفلاحون الارض عندكم ؟

ــ معظم الاراضي ملك لمن يفلحونها . وكانت في السابق ملكا للدولة . ولكن اذا ما عاش فيها انسان واعلن عزمه على استصلاحها ، اصبح في امكانه ان يمتلك نحوا من مائة وخمسين هيكتارا .

وقال اوغسطين ــ قل لي كيف يتم ذلك . هذا اصلاح زراعي يعني اشياء كثيرة .

واخذ روبرت يشرح لهم عملية استصلاح الاراضي وامتلاكها . ولم يكن قد فكر في يوم من الايام بانها اصلاح زراعي .

وقال بريمتيفو ــ هذا رائع . اذن فالشيوعية موجودة في بلادكم .

ــ . ولكن هذا الاجراء يتم في ظل الجمهورية .

وقال اوغسطين ــ اعتقد ان في وسع الجمهورية ان تنفذ كل شيء ، فلا حاجة هناك الى اي نوع آخر من انواع الحكم .

وقال اندريه متسائلا . . او ليس عندكم عدد من كبار الملاك ؟

ــ عندنا الكثير منهم .

ــ اذن فلا ريب من وجود مساوىء كثيرة .

ــ اجل . عندنا مساوىء كثيرة .

ــ ولكن الا يسعكم القضاء عليها ؟

ــ اننا نحاول ذلك شيئا فشيئا . ولكن مع ذلك هناك مساوىء كثيرة .

ــ او ليست عندكم اقطاعيات كبيرة يجب تجزئتها ؟

ــ اجل . ولكن كثيرين يعتقدون ان في وسع الضرائب ان تتولى هي عملية التجزئة .

ــ وكيف ؟

واخذ روبرت يشرح لهم طريقة تنفيذ ضريبة الدخل وضريبة الارث . ثم قال .. ومع ذلك ، فهناك اقطاعيات كبيرة ، لا تزال قائمة . وهناك ايضـا ضرائب على الارض .

وقال بريمتيفو ـ ولكن كبار الملاكين والاغنياء سيثورون حتما على هذه الضرائب . فهذه الضرائب في نظري من النوع الثوري . وبالطبع سيثورون على الحكومة ، عندما يرون ان مصالحهم مهددة تماما كما فعل الفاشيون هنا

ـ هـذا ممكـن .

ـ وسيتحتم عليكم ان تحاربوا في بلادكم كما نحارب نحن هنا .

ـ طبعا سنحارب .

ـ ولكن اليس في بلادكم الكثير من الفاشيين ؟

ـ لا ريب في ان عندنا الكثيرين الذين لا يعرفون انهم فاشيون ، ولكنهم سيعرفون ذلك حتما في الوقت المناسب .

ولكن اليس في وسعكم القضاء عليهم قبل ان يثوروا ؟

ـ لا .. ليس في وسعنا ان نقضي عليهم . ولكن في وسعنا ان نثقف الشعب وان نحمله على الخوف من الفاشية ، وعلى تمييزها حال ظهورها لمناهضتهـا .

وقال اندريه ـ اتعرف بلاداً لا فاشيين فيها ؟

ـ ايـن ؟

ـ في بلـدة بابلـو .

وقال بريمتيفو ـ او تدري ما وقع في تلك القرية ؟

ـ اجل . لقـد سمعت القصة .

ـ مـن بيـلار ؟

ـ نعـم .

وقال بابلو ــ ليس في وسعك ان تسمع القصة كلها من المراة ، لانها لم تر نهايتها ، اذ سقطت عن المقعد الذي كانت تطل بواسطته من النافذة .

وقالت بيلار . . اذن قل له ما حدث . ما دمت لا اعرف القصة .

فقال بابلو ــ لا . لم يسبق لي ان تحدثت بما وقع .

فقالت بيلار ــ لا !. . ثم انت لا تريد ان تتحدث بها . . وانت تود الآن لو انها لم تقع .

فرد بابلو ــ لا . هذا كذب ومعيب . ولو قتل جميع الفاشيين كما فعلت انا ، لما وقعت هذه الحرب . ولكني كنت أوثر ان تقع في شكل آخر غير الذي وقعت فيه .

فقال بريمتيفو ــ لم تقول هذا ؟ هل غيرت آراءك السياسية ؟

ــ كلا ، ولكنها كانت وحشية . لقد كنت في تلك الايام وحشا .

وقالت بيلار ــ اما الآن ، فانت سكير .

ــ اجل ، اذا سمحت لي .

ــ ولكنني كنت احبك اكثر عندما كنت وحشا . فالسكير هو اقذر الرجال . فاللص عندما لا يسرق ؛ لا يختلف عن اي انسان آخر . والمبتز لا يغتصب اموال اهله وذويه . وفي وسع القاتل عندما يكون في بيته ان يغسل يديه . اما السكير ، فيتقيأ في فراشه ، وتفوح رائحته العفنة ، ثم تذوب اوصاله في الكحول .

فقال بابلو ــ ولكنك امراة ، ولا تستطيعين ان تفهمي . انني اثمل بالنبيذ . وقد اشعر بالسعادة لولا الناس الذين قتلتهم . فكلهم ، يوحون لي بالحزن .

وقالت بيلار . . اعطه قليلاً من الخمر التي جاء بها سوردو . اعطه شيئا ينعشه ، فقد غدا كثير الحزن ، لا يطاق .

وقال بابلو ــ لو استطعت ان اعيدهم الى الحياة لفعلت .

وقال اوغسطين ـ اذهب ، عليك اللعنة ، اي مكان هذا ؟

ـ اجل كنت اعيدهم جميعا الى الحياة ، كلهم دون استثناء .

وقال اوغسطين ـ وامك . اترك هذا الحديث او اخرج . لقد كان من قتلتهم مـن الفاشيين .

ورد بابلو ـ أسمعتم .. كنت اعيدهم جميعا الى الحيَاة .

وقالت بيلار ـ ثم تسير على الماء كالأنبياء . انني لم ارُ في حياتي رجلاً كهذا . كانت لك حتى الامس بقية من رجولة . اما اليوم ، فلم يبق لديك شيء منها .. ومع ذلك فانت سعيد في ان تسلق كالفرخة الصغيرة .

ورد بابلو ـ كان علينا ، اما ان نقتلهم جميعا ، او لا نقتل احدا منهم .

وقال اوغسطين ـ اسمع يا انكليزي ! وكيف جئت الى أسبانيا ؟ لا تكترث بما يقوله بابلو فهو ثمـل .

ـ لقد جئت قبل اثني عشر عاما لدراسة البلاد واللغة . فأنا ادرس الاسبانيـة فى جامعـة .

وقال بريمتيفو ـ انك تبدو كاستـاذ .

وقال بابلو ـ ولكنه لا يملك ذقنا . انظروا اليه ، فهو لا ذقن له .

وقال بريمتيفو ـ وهل انت استاذٌ حقا ؟

ـ انـا معيد فى الجامعة .

ـولكنـك تعلـم ؟

ـ اجـل .

وقال اندريه متسائلا .. ولكن لم تعلم الاسبانية ؟ او لم يكن اسهل عليك لو علمت الانكليزية ، لا سيما وانت انكليزي .

فرد انسيلمو ـ انه يتحدث الاسبانية مثلنا . فلم لا يعلم الاسبانية ؟

وقال فيرناندو ـ اجل ، ولكن من الضرور ان يقـوم اجنبي بتعليـم الاسبانية . انا لم اعن شيئا خاصا بالنسبة اليك يا دون روبرتو .

فقال بابلو .. انه استاذ مزور . ليست له لحية

وقال فيرناندو ـ لا ريب في انك تجيد الانكليزية احسن . أو لم يكن من الاسهل عليك ، والافضل والاوضح ، او علمت الانكليزية .

وشرعت بيلار تتدخل .. انه لا يعلمها للاسبانيين .

وقال فيرناندو ـ هذا ما اتمنـــاه .

فرد عليه بيلار ـ دعني اكمل حديثي ايها البغل . انه يعلم الاسبانية للامريكيين ـ الامريكيين الشماليين .

وقال فيرناندو ـ او ليس في وسعهـــم ان يتكلموا بالاسبانيـــة . ان الامريكيين الجنوبيين يتكلمونها .

فقالت بيلار ـ انه يعلم الاسبانية ايها البغل الى الامريكيين الشماليين الذين يتكلمون الانكليزية .

ومضى فيرناندو يقول .. ومع ذلك ، اظن ان من الاسهل عليه لو علم الانكليزية طالما انها اللغة التي يتحدث بها .

وقالت بيلار ـ وهي تهز راسها بقنوط الى روبرت جوردان ـ او لا ترى انـــه يتكلم الاسبانية ؟

ـ اجل انه يتكلمها ولكن بلهجة غريبة .

ـ لهجـــة ايـــة مقاطعـــة ؟

فقال فيرناندو ـ ايسترايمادورا .

وقالت بيلار ـ بحق امي .. يا له من شعب !!

ورد روبرت ـ قد يصح ما تقول ، فقد جئت الى هنا من هناك .

وقالت بيلار ـ انه يعرف ذلك .. ثم التفتت الى فيرناندو وقالت .. هل اكلت ما فيه الكفاية ؟

ـ في وسعي ان آكل اكثر مما اكلت ، لو وجدت كمية كافية . ولا تتصور يا دون روبرتو انني اود ان اقول شيئا ضدك .

وقال أوغسطين .. يا لها من رقة !! هل تظن اننا قمنا بثورتنا ، لنقول « يا دون روبرتو » الى احد الرفاق ؟

فرد فيرناندو .. أن الثورة تعني بالنسبة الي ، ان يستخدم كل انسان كلمة الدون عندما يخاطب انسانا آخر .. وهذا ما يجب تحقيقه في ظـل الجمهوريـة .

فقال اوغسطين .. رقيق .. رقيق جدا !!

وقال فيرناندو ـ ومع ذلك ما زلت اعتقد ان من الخير لدون روبرتو والاسهل له لو علم الانكليزية .

فقال بابلو ـ ليس للدون روبرتو ذقن ، ولذا فهو استاذ مزور .

وقال روبرت .. ماذا تعني ان ليس لي ذقن ؟ ما هذا اذن ؟.. واشار بيده الى ذقنه التي مضت عليها ايام ثلاثة دون حلاقة .

فرد بابلو وهو يهز راسه .. هذه ليست ذقنا ، انها ليست ذقنا .. وهو استـاذ مـزور .

وقال اوغسطين .. لعنة الله عليكم جميعا ، اذا لم يكن هذا المكان اشبه بمستشفى مجاذيب .

فقال بابلو ـ عليك ان تشرب . فكل شيء يبدو لي طبيعيا ، سوى ان ليست للدون روبرتو ذقن ..

ومد تماريا يدها تلمس وجنة روبرتو وقالت .. ان له ذقنا .

فقال بابلو .. يجب ان تعرفي انت ذلك .

وتطلع اليه روبرت ، وفكر ان الرجل ليس ثملا . أجل انه ليس بالثمل الى هذا الحد ، وخيل لروبرت ان عليه أن يحذر منه .. وقال يخاطب بابلو .. او تظن يا هذا ان الثلج سيستمر ؟

ـ مـاذا تظن ؟

ـ انا اسألـك .

ـ اسأل غيري ، انا لست بدائرة استعلاماتك . ولديك تعليماتك مـن

دائرة استعلامات رسمية . ثم اسأل المرأة فهي الآمرة هنا .

ــ ولكنني اسألك انــت .

ــ اذهب عليك اللعنة وعلى المرأة والفتاة .

وقال بريمتيفو ــ انه ثمل ، لا تهتم به يا انكليــزي .

ــ لا اعتقد انه على هذه الدرجة من السكر .

وكانت ماريا تقف خلفه ، ورأى روبرت ان بابلو يتطلع اليها .. وابصر بعينيه الصغيرتين كعيني الخنزير ، يرقبان الفتاة ، واخذ روبرت يحدث نفسه قائلا لها . لقد رأيت في حياتي عددا من القتلة ولا سيما في هــذه الحرب وقبلها ، وكانوا مختلفين ومتباينين فليس ثمة من مزية تجمعهم ، كما ليس هناك من طراز خاص هو طراز القتلة ، ولكن لا ريب فى ان بابلو ليس من النوع الجميل الشكــل .
وقال روبرت لبابلو ــ انا لا اصدق ان باستطاعتك ان تشرب ، كمــا لا اصدق بانك ثمــل الآن .

فقال بابلو معتزا .. ولكني ثمل ، والشراب ليس بالامر المهم ، ولكن المهم هو أن يثمل الانسان .

فرد عليه روبرت .. ولكني اشك في ذلك يا جبان .

وكان الهدوء يخيم على الكهف ، كله ، فجاة ، حتى انه استطاع ان يسمع اشتعال الحطب فى النار ، حيث تواصل بيلار العلهو . وسمع صوت الجليد يصر تحت قدميه . وخيل اليه ايضا ان في وسعه ان يسمع صوت الريح في الخارج وصوت سقوط الثلج .

وفكر روبرت ان من الخير لو قتله وانتهى من الموضوع . فهو لا يدري ما سيفعله هذا الرجل ، ولكنه واثق من ان ما سيفعله لن يكون امرا حسنا . فبعد غد ستتم عملية الجسر ، وهذا الرجل على هذا النحو من السوء ، وقد يؤلف خطرا على نجاح المشروع كله . وحزم امره على ان ينتهي منه .

وقطب بابلو جبينه ، ثم مد اصبعه في حلقه يمسحه . واخذ يهز راسه فوق عنقه الغليظ يمنة ويسرة ثم قال .. لا يا انكليـزي لا تستفزني ، فليست هذه بالطريقة المثلى للخلاص مني .

وقال روبرت .. وقد حزم امره .. ولكنك جبان .

ـ قد اكون جبانا ولكنك لن تستفزني . خذ شيئا واشربه يا انكليزي واشر الى المراة انك لم تنجح في استفزازي .

ـ اغلق فمك . فأنا استفزك لمصلحتي وحدها .

ـ ولكن لا جدوى من ازعاج نفسك ، فلن استفز .

ـ انك حيوان غريب ..

أراد روبرت ان لا يدع الفرصة تفوت للمرة الثانية ، لا سيما وقد ادرك انه قد مر بهذه المشكلة كلها من قبل . وخيل اليه ، انه يمثل دورا سبق له ان حفظه ووعاه ، وانه يردد الكلمات التي قرأها او حلم بها .. وشعر بانه يحـــوم في دوامـة .

فقال بابلو ــ انني غريب وثمل . فلأشرب نخبك يا انكليزي .

وادرك روبرت ، انه غريب ، ولكنه ذكي ومعقد .. وتناول قدحه ، وملأه بالخمـر ، ثم شربه وقال .. نخبك .

وقال بابلو .. دون روبرتو .

وقال روبرت .. دون بابلو .

فقال بابلو ــ انك لست باستاذ ، لان لا ذقن لك ، ولتتخلص مني عليك ان تغتالني ، وقد لا تكون لديك الجراة لذلك .

وكان بابلو يتطلع الـى روبرت ، وقد اغلق فمه وانطبقت شفتاه علـى بعضهما . وخيل لروبرت انه يشبه بذلك الراس الذي يحمله سمك الشيهم ، الذي يبتلع الهواء ، بعد صيده . فينتفخ .. وقال له وهو يرفع كأسه ..

نخبك يا بابلو . . فانا اتعلم الكثير منك .

ورد بابلو وهو يحني راسه . . انا اعلم الاستاذ ، تعال يا دون روبرتو . سنصبح اصدقاء .

فقال روبرتو ـ لقد غدونا أصدقاء منذ أمد .

ـ ولكننا سنغدو الآن صديقين حميمين .

ـ ولكننا غدونا صديقين حميمين منذ امد .

وقال اوغسطين ـ سأخرج من هذا المكان .

وقال بابلو ـ ماذا دهاك يا زنجي ، الا تريد ان ترى صداقة تقوم بيني وبين الدون روبرتو ؟

فقال اوغسطين وهو يدنو منه ، ويقف امامه . . انتبه الى ما تقول ، ولا تسمني زنجيا .

ـ ولكن هذا ما يطلقونه عليك .

ـ لكني لا اسمح لك به .

ـ اذن ايها الابيض . .

ـ ولا هذا اللقب ايضا . .

ـ اذن ما انت ؟ احمر ؟

ـ اجل . احمر . احمل شارة الجيش الحمراء واؤيد الجمهورية واسمي اوغسطين .

ـ يا لك من مواطن صادق . . . انظر اليه يا انكليزي ، انه مواطن مثالي .

وضربه اوغسطين بيده اليسرى على فمه . فجلس بابلو . وكانت الخمر قد لطخت شفتيه . . ولم يطرأ على وجهه اي تبدل ، ولكن روبرت راى عينيه تضيقان كعيني القط . . عندما يسطع عليهما ضوء قوي .

وقال بابلو ـ ولا هذا ايضا ، فلا تركني الى هـــذا يا امراة . انني لـن استفز .

وعاد اوغسطين فضربه ثانية ، على فمة بجماع يده . وكـان روبرت يمسك بمسدسه بيده تحت المائدة . وكان قد أبعد ماريا عنه . ثم رفع صمام الامان ، وقد ابتعدت ماريا قليلا ولكنها ظلت على مقربة ، فدفعها في خاصرتها بيده اليسرى ليبعدها فعلا . وابتعدت هذه المرة حقا . ورآها بزاوية عينيه ، تقترب من النار ، بينما كان روبرت يرقب وجه بابلو .

وظل الرجل ذو الراس المدور جالسا ، يتطلع الى اوغسطين بعينيـه المسطحتين . وقد ضاقت عيناه الآن ، واخذ يلعق شفتيه ، ثم مسح فمه بمؤخرة يده ، ورای الدم وقد صبغ يده . ومر بلسانه على شفتيه ثـم بصق . وقال .. ولا هذه الضربة ايضا ، فانا لست بالاحمق ، ولـــن تستفزنـي .

وقال اوغسطين .. امـراه .

فرد بابلو .. انك تعرف .. وتعرف من المراة .

وضربه اوغسطين للمرة الثالثة على فمه ، وضحك بابلو ، وقد انكسر احد اسنانه الصفراء النخرة .. فقال .. وهو يمد يده ليتناول قدحا .. ليس مع احدكم سلاح ليقتلني اما الضرب ، بالايدي فامر سخيف .

وقال اوغسطين .. جبان .

ورد بابلو .. وهو يبصق على الارض .. والكلمات لا تقتل ايضا ، فقد اجتزت مرحلة التأثر من الكلمات .

ووقف اوغسطين امامه ، وهو يشتمه . يتكلم بهدوء ووضوح ، وازدراء والم ، والسباب يتدفق من فمه .. فقال بابلو .. ولا هذا السباب .. ايضا ، دعك منه يا أوغسطين ، ولا تضربني من جديد .. فستؤذي يديك

وادار اوغسطين وجهه ثم مضى نحو الباب .

وقال بابلو ـ لا تخرج ان الثلج يتساقط .. فأبق هنا مرتاحا ..

والتفت أليه اوغسطين ، وهو بالباب يقول وقد ضمن قوله كل مـــا تنطوي عليه نفسه من زراية واحتقار .. وانت .. انت .

فرد بابلو ـ اجل انا .. سأظل حيا ، عندما تموت ..

وملأ كأسه بالنبيذ من جديد ، ورفعه الى روبرت يقول .. نخب الاستاذ .. ثم التفت الى بيلار وقال .. الى السنيورة القائدة .. ثم اشار الـــى الجميع .. نخب جميع المخدوعين ..

وعاد اليه اوغسطين وضربه بيده من جديد ، فأطار الكأس من يده .

وقال بابلو .. هذا تبذير .. انه سخف منك .

وشتمه اوغسطين شتيمة شنيعة .

فقال بابلو وهو يملأ كأسا جديدا .. لا !! ألا ترى اني ثمل ؟ انني عندما اثمل ، لا استطيع الكلام . وبالطبع لم تسمعوني قط اكثر من الكـــلام . ولكن الرجل الذكي يضطر احيانا الى ان يصبح ثملا ، ليقضي وقته مع المجانيـــن .

وقالت له بيلار .. عليك اللعنة وعلى جبنك ، فأنا اعرف الكثير عنك وعـــن جبنـــك .

وقال بابلو .. اسمعوا المراة تتكلم ، سأخرج لأرى الجياد .

وقال اوغسطين .. اذهب ودنسها .. او ليس الدنس من شيمك ؟

فرد بابلو وهو يهز راسه .. لا .. ثم مضى وتناول معطفه المعلق على الحائط وتطلع الى اوغسطين وقال .. انت ، وعنفك .

وقال اوغسطين .. ماذا تريد ان تعمل بالجياد ؟

ـ اريد أن اشاهدهـــا .

ـ اتريد أن تدنسها ، يا ناكح الخيول .

ـ انني احبها . ومنظرها من الخلف ، اكثر جمالا ، وعقلا من هـؤلاء الناس . والآن .. خذوا راحتكم ، وحدثهم يا انكليزي عن الجسر ، وعن واجباتهم عند الهجوم .. اخبرهم ، كيف سيتم التراجع .. واين ستاخذهم بعد أن ينتهي موضوع الجسر . اجل .. اين ستأخذ هؤلاء المواطنين الصادقين ؟ لقد كنت دائم التفكير بالموضوع طيلة اليوم ، وانا اتنـــاول الخمــر .

وقال اوغسطين يسائله .. وماذا فكرت ؟

ـ ماذا فكرت ؟ ايهمك ما فكرت فيه ؟

ـ قــل ماذا فكرت ؟

ـ لقد فكرت كثيرا .. واغرق راسه داخل معطفه وهو يقول .. لقــد فكرت كثيــرا .

وقال اوغسطين .. ماذا ؟ مــاذا ؟

ـ فكرت بانكم جماعة من المخدوعين ، تقودكم امراة تضع عقلها بيـن فخذيها ، واجنبي جاء اليكم ليقضي عليكم .

وصرخت به بيلار ـ اخرج ، اخرج من هنا يا قذر ، فلعل الثلوج تغسلك اخرج بقذارتك من هنا ، يا خدن الخيل .

وقال اوغسطين وقد اعجب بسبابها ، ولكن مع فكر تائه ، اذ ظل مـا يشغله .. هكذا يكون الحديث ، والا ، فلا لا ..

فقال بابلو ـ اجل سأمضي ، ولكني سأعود بعد قليل .. ورفع الستارة عن باب الكهف ومضى خارجا .. ثم التفت براسه يقول .. ما زال الثلج متساقطا يا انكليزي .

١٧

خيم على جميع من في الكهف صمت ثقيل ، لا يقطعه ، الا صوت هطول الثلج من الكوة القائمة فى السقف .. وقال فيرناندو .. بيلار .. الديك كميـــة اخرى مـــن الطعام ؟

فصرخت بيلار .. اغلق فمك . ولكن ماريا ، حملت صحن فيرناندو الى القدر الكبير الموضوع على النار ، فملأته له ، وعادت تضعه أمامه . وربتت بيدها على كتفه ، ثم وقفت بجانبه فترة ، وقد وضعت يدها على كتفه ، ولم يرفع فيرناندو راسه اليها ، وانما واصل ازدراد طعامه .

ووقف اوغسطين بجانب النار . بينما ظل الاخرون جالسين . واقتعدت بيلار مكانا على المائدة امام روبرث جوردان .. ثم قالت .. والآن ، يـــا انكليزي .. ارايته على حقيقته .

فقال روبرت متسائلا .. وماذا سيعمل الآن ؟

ـ قد يعمل اي شيء . انه قادر على ان يعمل كل شيء .

وقال روبرت .. واين البندقية الاوتوماتيكية ؟

فقال بريمتيفو ـ انها في الزاوية ، ملفوفة في « بطانية » . اتريدها ؟

ـ فيما بعد . اردت أن اعرف فقط اين هي .

ـ انها هناك ، وقد عدت بها ولففتها لاحفظها جافة . اما امشاطهـــا فموجودة في ذلك الكيس .

وقالت بيلار .. انه لن يفعل ذلك . انه لن يفعل اي شيء بالبندقية .

فقال روبرت ـ ظننت انك قلت ، بانه قد يفعل كل شيء .

ـ قد يفعل ولكنه غير متمرن عليها . في وسعه ان يقذف قنبلة فهـذا اسلوبـه .

وقال الغجري ـ كان من الحمق والضعف ان لا يقتل ... كان علـــى روبرت ان يقتله ليلة امس .

وقالت بيلار ، وقد اسود وجهها وبان عليه الاعياء .. اقتله . انني اؤيد ذلـك الآن .

وقال اوغسطين ، وهو واقف امام النار وقد تدلى ذراعاه الى جانبيه . وسطعت النار على وجنتيه .. لقد كنت ضد قتله .. اما الآن فانا موافق فقد غدا انسانا ساما . وكم يسره ان يرانا جميعنا ، وقد ابدنا ولحق بنا الدمــــار .

وقالت بيلار .. وقد ظهر الاجهاد في صوتها .. ليقل كل منكم رايه . ما رايك يا اندريه ؟

ـ مـوافق .

ـ وانـت يـا ايلاديو ؟

ـ موافق ، يبدو لي انه غدا خطرا كبيرا ، ولم يعد يصلح لشيء .

ـ وانت يا بريميتفو ؟

ـ مـوافق .

ـ وانت يـا فيرناندو ؟

ـ الا نستطيع الاحتفاظ به سجينا ؟

وقال بريميتفو .. ومن سيعني بالسجين ؟ إن العناية به تحتاج الى

رجلين ، ثم ماذا نفعل به في النهاية ؟

وقال الفجري ـ في وسعنا ان نشي به الى الفاشيين .

فقال اوغسطين .. لا ، لا شيء مـن هذه القذارة .

فقال الفجري .. كانت مجرد فكرة . ويبدو لي أن الفاشيين سيفرحون اذا حصلوا عليـه .

فقال اوغسطين .. دع هذه الفكرة .. انها قذرة .

فقال الفجري مدافعا عن نفسـه .. ولكنها ليست اقذر من بابلو .

فرد اوغسطين .. ان القذارة لا تبررها قذارة . هذا كـل شيء .. باستثناء الرجل العجوز والانكليزي .

فقالت بيلار .. لا شأن لهما في الموضوع ، اذا لم يكن قط قائدا لهما .

وقال فيرناندو .. دقيقة واحدة .. لم اكمل كلامي .

فقالت بيلار .. اكمل كلامك .. قل كل ما تريد حتى يعود .. قل مـا تشاء حتى يقذفنا بقنبلة يدوية من وراء الستارة . فينفجر المكان بنا بكل مـا فيه من متفجرات .

فقال فيرناندو .. اعتقد انك تبالغين يا بيلار .. ولا اظن انه يحمل مثل هذه الفكرة .

وقال اوغسطين .. وانا لا اظن ذلك أيضا .. اذ ان عمله ، سيدمـر النبيذ أيضا .. وسيعود بعد قليل ، ليشرب اقداحا اخرى منه .

وقال رافائيل الفجري .. لماذا لا نسلمه الى ايل سوردو فيتولى هـو تسليمه الى الفاشيين . في وسعنا ان نضع عصابة على عينيـــه ، وان نتصرف به بسهولـة .

وقالت بيلار .. اغلق فمك .. فانا اشعر بالضيق عندما تتحدث .

وقال بريمتيفو .. على كل حال لن يدفع الفاشيون فيه شيئا ، وقـد حاول غيرنا مثل هذا السبيل . انهم سيقتلون من يوصله اليهم ايضا .

ورد رافائيل ـ ومع ذلك ، اذا عصبنا عينيه ففي وسعنا ان نبيعـــه مقابــل ثمــن .

فصرخت بيلار ــ أغلق فمك ، اذا تحدثت عن عصب العينين ثانية كان مصيرك مثل مصيره .

واصر رافائيل على رايه فمضى يقول .. ولكنه عصب عيون رجـــال الحرس الجرحى ثم قتلهم . انسيت ذلك ؟

فصرخت بيلار من جديد .. اغلق فمك يا هذا .. لقد ضقت ذرعـا بكثرة حديثه عن العصابات .

وقال فيرناندو .. لم يسمح لي باكمال حديثي .

فقالت بيلار ــ اكمل حديثك .. هيا ، اكمله .

لما كان أعتقال بابلو امرا غير عملي ، ولما كان من المستنكر تسليمه .

فقالت بيلار تقاطعه .. اكمل ، اكمل ، بحق الاله ، اكمل .

فمضى فيرناندو يقول بهدوء .. فانني أوافق ، انه قد يكون من الافضل ازالته من الوجود . حتى تسير العملية المقترحة ، في اكثر ما يمكن من النجـــاح .

وتطلعت ، بيلار الى الرجل الضئيل ، وعضت شفتها ، وهزت راسها ولكنها لم تنبس ببنـــت شفـــة .

ومضى فيرناندو يقول .. هذا رايي ، واعتقد ان لنا الحق في ان نعتمد بانه يؤلف خطرا على الجمهورية ..

وقالت بيلار .. يا أم يسوع .. حتى في هذا المكان يستطيع انسان ان يخلق بيروقراطية بأقواله .

ومضى فيرناندو يقول .. وهذا جزاء يستحقه بالنسبة لاقواله واعماله الاخيرة .. وبينما يستحق شكرنا وتقديرنا على أعماله في الايام الاولى من الحركة ، وحتى الزمن الاخير ..

وسارعت بيلار الى النار ثم عادت الى المائدة وهي تقدم صحفة مــلأى

بالطعام .. خذ يا فيرناندو ، هذا الطعام ، واحش به فمك بكل وقار ، وكف عن الحديث فقد عرفنا رايك .

وقال بريميتفو .. ولكن كيف .. او لم يكمل جملته ، بل توقف .

فقال روبرت .. انا على أستعداد للتنفيذ ، ما دمتم قد اتخذتم قراركم جميعا ، بوجوب القيام بهذا العمــل .

وقال يحدث نفسه .. ماذا دهاني ، لقد بدات اتحدث كفيرناندو ، من مجرد الاستماع اليه . لا ريب في ان هذه اللغة سارية العدوى . فالفرنسية هي لغة الدبلوماسية اما الاسبانية فلغة البيرقراطية .

وقالت ماريا .. لا . لا .

فصاحت بها بيلار ــ هذا ليس شانك . اغلقي فمك .

فقال روبرت ــ اذن سأقتله الليلة .

وراى بيلار تنظر اليه وقد وضعت اصبعها على شفتيها ، واتجهت عيناهــا الى البــاب .

وارتفعت الستارة ، واطل بابلو براسه منها . وقطب حاجبيه امامهم جميعا ، ثم جذب الستارة ودلف الى الكهف . واخذ يلتفت يمنة ويسرة ، ورفع معطفه فوق راسه وشرع يقذف بالثلج عنه . ثم قال .. كنتم تتحدثون عني ؟ فهل قطعت عليكم حديثكم ؟

ولم يرد عليه احدهم ، فعلق معطفه ثم مضى الى المائدة . ورفع كأسه الفارغة واراد ان يملأها بالخمر ، ثم قال لماريا .. لم يبق خمر ، املئيه مــن الــزق .

وحملت ماريا الوعاء ومضت به الى الزق ، ففتحت طرفه ، وانصب النبيذ الاحمر فى الوعاء .. وقال بابلو .. احذري . يكاد الوعاء يطفــح مــن الخمــر .

ولم يتكلم اي من الموجودين .. ومضى بابلو يقول .. لقد شربت كثيرا اليوم . ماذا دهاكم ؟. هل فقدتم السنتكم ؟

ولم ينبس احد ببنت شفــة .

وصاح بابلو ـ توقفي يا ماريا .. فالنبيذ يتدفق الى الارض .

وقال اوغسطين ـ ستجد الكثير من الخمر ، وسيكون في وسعك ان تثمل .

وقال بابلو .. لقد عثر واحد اخيرا على لسانه . تهاني يا اوغسطين . لقد ظننت انك قد غدوت ابكم .

وقال اوغسطين .. وماذا يبكمني ؟

ـ دخولي .

ـ او تعتقد ان دخولك ينطوي على اية اهمية ؟

وخيل لروبرت جوردان ، ان اوغسطين ، بدا فى اثارة الوضع المناسب . وربما اقدم هذا على قتله ، فهو يكرهه كل الكراهية . اما انا فلا اكرهه . على الرغم من ان موضوع تعصيب العينين يضعه فى طبقة خاصة من الناس ومع ذلك ، فهذه هي حربهم . ولكن يجب ان لا يكون هنا في غضون اليومين القادمين .. ربما اتيح لي ان اظل بعيدا عن الموضوع . فلقد اصبحت موضع الهزء والسخرية مرة في هذه الليلة ، وكم كنت أود لو خلصت منه . ولكنني لن امزح معه الآن . ولن اسمح بمباريات في اطلاق النار او اي شيء من هذا النوع هنا ، مع وجود هذه المتفجرات . ولا ريب ان بابلو قد فكر في ذلك طبعا ، فهل فكرت فيه انا ؟ لا . ولا اوغسطين .. ولا ريب في انني استحق كل ما يحدث .

وقال روبرت .. اوغسطين .

فقال هذا .. نعم .

فقال روبرت .. اود ان اتحدث اليك .

ـ فيما بعد .

ـ لا . الآن .

ومضى روبرت الى باب الكهف ، وبابلو يلاحقه بنظره . ومضى اوغسطين بقامته الفارعة يسير وراءه .. انه يسير مترددا وعلى وجهه علامات الازدراء .

وقال روبرت في صوت يشبه الهمس .. انسيت ما في الكيسين ..

فقال اوغسطين .. اللعنة .. ان الانسان لينسى .

ـ وانا نسيت ايضـا .

ـ اللعنة .. يا لنا من اغبياء .. وعاد الى المائدة . وقال .. اشرب قدحا يا بابلو ، كيف حال الجيـاد ؟

ـ في احسن حال . وقد بدأ تساقط الثلج يخف تدريجيا .

ـ او تظن انه سيتوقف ؟

ـ اجل .. لقد بدأ يخف .. ان الريح ستستمر ، ولكن الثلج سيتوقف. وقد تبدل اتجاه الرياح .

وقال روبرت يسأله .. اوتظن ان السماء ستكون صاحية في الغد .

ـ اجل .. سيكون الطقس باردا .. والسماء صافية . فقد تغيـر اتجـاه الريح .

واخذ روبرت يفكر .. انظر اليه ، انه انسان ودود الآن . لقد تغير كما تغيرت الريح . ان له وجه خنزير وجسمه ، وانا أعرف انه قاتل مـن الطراز الاول ، ولكنه شديد الحساسية كمقياس المعادن . ولا ريب في ان الخنزير حيوان ذكي ايضا . وبابلو يكرهنا ، أو يكره مشاريعنا على الأقل، ويندفع مع كراهيته هذه مشفوعة بالاهانات . الى الحد الذي يحمـل الانسان على التفكير بالخلاص منه ، وعندما يرى انه قد وصل الى تلـك النقطة ، سرعان ما يتراجع ، ويعود من جديد .

وقال بابلو .. سيكون الطقس حسنا لنا يا انكليزي .

فقالت بيلار .. لنا ! لنـا ؟

فرد بابلو ـ اجل لنا .. ولم لا ؟ لقد فكرت في الموضوع ونحن في الخارج فلـم لا نتفـق ؟

وقالت المراة تساله .. نتفق على ماذا ؟ على ماذا ؟

ـ على كل شيء .. حول موضوع الجسر . فانا معكم الآن .

وقال اوغسطين ـ انت معنا الان ؟ بعد كل ما قلت ؟

ـ اجل مع تغير الطقس ، تغيرت ، واصبحت معكم .

وهز اوغسطين راسه . وقال .. الطقس .. وبعد ان ضربتك في وجهك؟

فقال بابلو مقطبا . وقد رفع اصابعه الى شفتيه .. آجل وبعد ذلك .

وكان روبرت يراقب بيلار الآن وهي تتطلع الى بابلو ، وكأنها تتطلع الى حيوان غريب . وما زالت على ملامحها بعض التعبيرات التي اثارتها عبارات عصابة العينين . ثم هزت راسها وكأنها تريد ان تخلص افكارها ، وقالت لبابلـو .. اسمع ..

ـ اجـل ، يـا امراة .

ـ مـاذا دهـاك ؟

ـ لا شيء ، لقد بدلت رأيي ، هذا كل ما هنالك .

ـ هل كنت تصغي لما نقول عند الباب ؟

ـ اجل ، ولكنني لم ا ستطع أن اسمع شيئا .

ـ اذن فأنت خائف من ان نقتلك .

ـ لا ، انا لا اخاف ذلك ، وانت خير من يعرف هذا .

فقال اوغسطين ـ اذن ماذا دهاك ؟ فقبل قليل كنت ثملا ، وكنت تتجه بالاهانات المتدفقة من فمك الينا جميعا ، معلنا عزمك على عدم الارتباط بعملنا ومتحدثا عن موتنا بطريقة قذرة ، ومزدريا النساء ، ومعترضا على ما يجب ان يعمل ..

ـ كنـت ثمـلا .

والآن ..

ـ لست ثملا . وقد غيرت رايي .

فقال اوغسطين ـ دع الآخرين يثقون بك ، اما انا فلا اثق .

ـ سواء وثقت او لم تثق ، ولكن ليس فيكم من يستطيع ان ينقلكم الى غريدوس كمـا انقلكـم .

ـ غريدوس ؟

ـانه المكان الوحيد الذي يجب ان نذهب اليه بعد الجسر .

وكان روبرت ، لا يزال يتطلع الى بيلار ، محاولا استطلاع رايها . فأحنت المراة راسها ، ثم عادت تحنيه ثانية ، ثم همست في اذن ماريا التي جاءت الى جانب روبرت . وهمست في اذنه .. تقول .. انه لا ريب قد سمع حديثهـم .

وقال فيرناندو بلهجة القاضي ـ اذن فانت معنا الان يا بابلو ، وتؤيد عمليـة الجسـر ؟

ـ اجـل .. يـا رجل ..

وقا لبريمتيفو ـ وهل انت صادق ؟

ـ اقسم .

وقال فيرناندو ـ وتعتقد ان العملية ناجحة ، واصبحت مؤمنا بها .

ـ ولم لا ؟ الستم واثقين ؟

فقال فيرناندو ـ اجل ، ولكنني دائم الثقة .

وقال اوغسطين .. انا خارج من هذا المكان .

وقال بابلو بلهجة ودودة .. ان الطقس شديد البرودة فى الخارج .

ـ محتمل . ولكنني لا استطيع البقاء في هذا المستشفى الذي للمجانين

فقال فيرناندو ـ لا تطلق على هذا الكهف اسم مستشفى المجاذيب .

ـ انه مستشفى للمجنونين بالجريمة ، وساخرج قبل ان اجن انا ايضا .

وبدا روبرت جوردان يفكر .. انها اشبه ما تكون بـــدوارة الافراس الخشبية ، ولكنها ليست من النوع المرح ، الذي يطوف بسرعة . حاملا صفيرا موسيقيا . والاطفال يمتطون صهوات ابقار خشبية لها قرون من الذهب ، وهناك حلقات يمسك بها اللاعبون بعصيهم ، وهناك ايضا شارع دي مين الذي تضيئه مصابيح غازية باهتة اللون ، ورائحة السمك المشوي تنبعث من الكشك القائم فيه ، وعجلة الحظ تدور بطياتها الجلدية واسهمها مشيرة الى عدد من المراكز ، وقد وضعت السكاكر فى اكوام كالاهرامات لتقدم كجوائز للاعبين . لا انها ليست من هذا النوع ؛ على الرغم من ان الناس ، رجالا ونساء ، ينتظرون دورهم في تجربة عجلة الحظ . انهم نفس الناس ، ولكن العجلة تختلف هذه المرة . فهي من النوع الذي يدور دورات الى الاعلى والاسفل بدلا من الجوانب .

وقد دارت العجلة حتى الآن دورتين . أنها عجلة ضخمة ، اقيمت على زاوية معينة ، وهي تعود بعد كل دورة الى النقطة التي بدات منها . واحد الجانبين اعلى من الجانب الاخر . والدورة التي تقوم بها تعود الى الوراء

والى الاسفل ، الى نفس نقطة البداية . وليست ثمة جوائز هنا . ولــن يختار أحد الموجودين ركوب العجلة . ولكن الانسان يستقلها في كل مرة ، ويقوم بالدورة دون ان يكون مصمما على الركوب . أنها دورة واحدة ليس الا ، دورة كبيرة ، اهليلجية ترتفع وتنخفض ثم تعود الى نقطة البداية . . وقال لنفسه . ها قد عدنا الان الى نقطة البداية ، ولم نحزم امرنا على شيء

كان الطقس قد اصبح حاراً في الكهف ، وكانت الرياح قــد خفت في الخارج . وكان يجلس الان الى المائدة وامامه دفتر ملاحظاته ، وقد ظهرت فيه جميع الرسوم المتعلقة بالناحية الفنية لنسف الجسر . ورسم ثلاث صور ، ثم حسب أرقامها . ووضع خطة النسف في رسمين ، تماما كرسوم الاطفال حتى يتمكن انسيلمو من اكمالها في حالة وقوع حادث له ، اثناء عملية النسف . وبعد ان اتم الرسوم شرع يدرسها .

وكانت ماريا تجلس الى جانبه ترقبه وهو يعمل . وكان يحس ببابلو الذي يجلس عبر المائدة وبالاخرين الذين يتحدثون ويلعبون الورق ، وشم روائح الكهف التي تبدلت الان بسبب الطعام والطبخ والنار ووفرة عدد الرجال ودخانهم والنبيذ الاحمر ، ورائحة عرق اجسادهم النحاسية ، وعندما وضعت ماريا يدها على المائدة ، بعد ان رأته ينتهي من أحد رسومه، تناول يدها بيسراه ورفعها الى وجهه ليشم رائحة الماء والصابون التي علقت بها بعد تنظيفها للاطباق . وبعد أن وضع يدها ، على المائدة ، عاد الى عمله من جديد ، دون أن ينظر اليها ، وان يرى حمرة الخجل وقد انعكست على وجهها . وأرخت يدها في مكانها على مقربة من يده ، ولكنه لم يعد الــى رفعهـا .

وكان قد اتم الآن تصميم عملية التدمير ففتح صفحة جديدة من دفتره، وشرع في كتابة اوامر العملية . وكان يكثر من التفكير في هذه الاوامر التي يضعها ، وقد سره ما كتبه . وبعد أن كتب صفحتين كاملتين من الدفتر ، شرع في قراءة ما كتبه بعناية .

واخذ يحدث نفسه .. اعتقد ان ما عملته فيه الكفاية ، واعتقد انه واضح الان تمام الوضوح . وليس فيه اية ثغرات . سنقوم بنسف المركز بن والجسر تنفيذا لاوامر غولز ، وهذه هي مسؤوليتي كلها . اما موضوع بابلو هذا ، فأمر كان يجب ان لا يحدث وسيحدث عن هذا السبيل او ذاك . فقد يكون بابلو او لا يكون ، وهذالا يهمني في قليل او كثير . ولكنني لن اعود الى تلك العجلة من جديد . لقد امتطيتها مرتين . وفي المرتين عادت بي بعد دورانها الى النقطة التي بدات منها ، ولذا فلن اعود الى استقلالها من جديد .

واغلق دفتره وتطلع الى ماريا وقال .. هولا ، يا حلوه ، هل فهمت شيئا من كل هذا ؟

فقالت ماريا وقد وضعت يدها على يده التي ما زالت تحمل القلم .. لا يا روبرتو .. هل انتهيت ؟

ـ اجل . لقد اعددت كل شيء ، ورتبت اوامري .

وقال بابلو يسأله ، وقد لمعت عيناه من جديد .. ماذا كنت تعمل يا انكليزي ؟

وتطلع روبرت اليه ، عن كثب ، ثم خاطب نفسه قائلا .. أبعد عن تلك العجلة ، ولا تستقلها ، اعتقد انها ستدور من جديد .. ثم قال .. كنت اعد موضوع الجسر .

وقال بابلو .. وما رأيك ؟

ـ على ما يرام .. كل شيء على ما يرام .

ـ اما انا فكنت افكر ، في موضوع التراجع بعد العملية .. وتطلع روبرت الى عينيه الثملتين اللتين تشبهان عيني الخنزير ، والى وعاء الخمر فراى ان الوعاء قد اشرف على الفراغ .. ثم قال لنفسه .. ابعد عن العجلة .. انه عاد الى الشراب ، وهذا مؤكد . ولكن ، عليك ان تنأى بنفسك عن تلك العجلة . ولكن .. الم يكن يقال ان غرانت كان يقضي معظم

اوقاته ثملا ابان الحرب الاهلية .. اجل ، لقد كان يسكر دائما . ولكن غرانت سيثور من هذه المقارنة مع بابلو لو رآه . كان الجنرال غرانت من مدمني السيكار ايضا . فلم لا يؤمن لبابلو سيكارا . هذا ما يحتاج اليه وجهه لاستكمال صورته ، سيكار تآكل نصفه . ولكن اين تستطيع العثور على سيكار لبابلو ؟

وقال روبرت يسأله بدماثة ولطف .. وكيف سارت العملية معك ؟

فرد بابلو وهو يحني راسه الثقيل .. على ما يرام .

وقال اوغسطين يسأله ، من المكان الذي كان يلعب فيه الورق ، هل فكرت بشيء ؟

فقال بابلو ـ اجل ، فكرت باشياء كثيرة .

ـ واين وجدتها ؟ هل وجدتها في وعاء الخمر ؟

ـ ربما ، من يدري ؟ املأي يا ماريا الوعاء ، ارجوك ؟

فقال اوغسطين وهو يعود الى لعبة الورق .. في الزق افكار رائعة .. فلم لا تزحف اليه ، وتبحث عنها فى داخله ؟

ـ لا .. انني ابحث عنها فى الوعاء .

وعاد روبرت الى افكاره ، انه لا يستقل العجلة ، ولكنها تدور من نفسها. وانا افترض ، ان ليس في وسعك ان تستقل هذه العجلة طويلا . لا ريب انها عجلة قاتلة . وكم يسرني ، اننا قد نجونا منها . فقد احسست بالدوران في راسي منها مرتين على الاقل . ولكنها ذلك الشيء الذي يستقله السكيرون والوضيعون حقا والفظيعون حتى يموتوا . فهل تظل تدور بهم عاليا وسافلا ، الى ان تتوقف .. اذن فلتدر هذه المرة كما تشاء ، فلن استقلها ثانية . لا يا سيدي ، لا يا جنرال غرانت ، فقد خرجت من العجلة ولن اعود اليها .

وكانت بيلار تجلس الى جانب النار وقد استدارت بمقعدها لتتمكن من مراقبة لعبة الورق ، من وراء اكتاف اللاعبين اللذين ادارا لها ظهريهما . انها ترقب اللعب .

وخيل لروبرت .. أن هذا الوضع انتقال من القتلية الى الحياة العائلية العادية ، وهو اغرب شيء . وليس في وسع العجلة اللعينة ان تصل اليك الا اذا هبطت ، ولكنني قد بعدت عنها الان ؛ وليس في وسع انسان ان يحملني اليها مـن جديد .

وقبل يومين لم اكن اعرف بوجود بيلار وبابلو والبقية . ولم يكن ثمـة شيء اسمه ماريا في العالم . لقد كان عالما اكثر بساطة . وقـد تلقيت تعليمات في غاية الوضوح من غولز ، وبدت لي قابلة التنفيذ ، على الرغم من الصعوبات المعينة التي انطوت عليها ، والنتائج التي قد تتمخض عنها . ولكن بعد ان ننسف الجسر ، كنت اتوقع اما ان اعود الى الخطوط او لا اعود ، ولو قدر لي ان اعود ، كنت سأطلب قضاء بعض الوقت في مدريد . وبالطبع ليس ثمة من اجازات في هذه الحرب ، ولكنني واثق من انـي سأقضي يومين او ثلاثة في مدريد .

اجل كنت اريد ان ابتاع بعض الكتب في مدريد ، وان امضي الى فندق فلوريدا ، حيث اتناول حماما ساخنا . وكنت سأبعث بالبواب لويز ، ليأتي لي بزجاجة من الابسنت من احد الحوانيت اذا استطاع الحصول عليها ، وان استلقي في سريري اقرأ بعد الحمام الساخن واشرب قدحين مـن الابسنت ، ثم اهتف الى مطعم جيلورد ، لارى اذا كان في وسعي ان امضي الى هناك لتناول الطعام .

انني لا احب طعام « الغران فيا » فهو سيء ، وعلى الانسان ان يصل الى المطعم في وقت مبكر ، ليحصل على شيء يأكله . وهناك يجتمع عادة عدد كبير من الصحفيين ولم يكن يرغب فى آن يظل فمه مغلقا . اجل انه يريد ان يشرب قدحي الابسنت وان يشعر بالرغبة فى الحديث ، ثم يذهب الى جيلورد حيث يتناول الطعام مع كاركوف ، فهناك الطعام الجيد والجعة الحقيقية ، وهو يريد أن يعرف حقيقة ما يدور فى الحرب .

وعندما ذهب الى جيلورد لاول مرة ، لم يعجبه ؛ فقد كان هذا الفندق

الذي وضع الروس ايديهم عليه في مدريد ، كثير الفخامة ، وكان الطعام فيه أكثر جودة من ان تحتمله مدينة محاصرة ، والحديث فيه اكثر تشاؤما من ان يدور في حرب . ولكنّه سرعان ما فسد .. وقال لنفسه .. ولم لا تسمح لنفسك بان تتناول هذا الطعام الجيد عندما تزور المدينة مرة ثانية .. والحديث الذي سمعته اول مرة ، وخيل اليك انه متشائم ، او لم تتأكد من صحته . هذا ما يجب ان تقوله في جيلورد ، عندما تمضي اليه بعد انتهاء الحرب .

ولكن هل في وسعك ان تأخذ ماريا الى جيلورد ؟ لا ، لن تستطيع . ولكن في وسعك ان تتركها في الفندق ، حيث تأخذ حماما ساخنا في فترة غيابك عنها في جيلورد . اجل في وسعك ان تفعل هذا ، وبعد ان تحدث كاركوف بأمرها . يمكنك ان تأخذها الى هناك ، اذ انهـــم سيكونون متشوقين لرؤيتهـــا .

ولكنك قد لا تذهب الى جيلورد ابدا . فقد تتناول طعامك بسرعة في غران فيا ثم تعود الى فلوريدا بسرعة . ولكنك تعرف انك ستعود حتما الى جيلورد ، لانك ترغب في ان ترى كل شيء فيه ثانية من جديد . فأنت تود ان تتذوق طعامه من جديد وان ترى كل ما فيه من متع ، ووسائل للراحة . ثم تعود الى فلوريدا ، حيث تجد ماريا في انتظار اوبتك . اجل انها ستكون هناك ، بعد ان تنتهي مما انت فيه . اجل بعد ان تنتهي من مهمتك . ولو انجزت عملك بدقة ، فأنت تستحق وجبة ضخمة في جيلورد .

وكان جيلورد هو المكان الذي اجتمعت فيه الى القادة الاسبانيين البارزين من الفلاحين والعمال ، الذين انتضوا السلاح عند بدء الحركة ، دون ان تكون لهم اية خبرة سابقة في شؤون القتال ، او ان يمروا بأي تدريـــب عسكري ، ولكن معظمهم يعرفون الروسية . وكان هذا هو بدء انهيـــار آماله منذ بضعة اشهر ، عندما شرع يتشاءم . ولكنه عندما ادرك الحقيقة تبينت له صحتها . لقد كانوا عمالا وفلاحين . فقد نشطوا في ثورة عـــام ١٩٣٤ ، وعندما فشلت اضطروا الى الهرب من البلاد الى روسيا التي بعثت بهم الى الكلية العسكرية ، والى مؤسسة لينين التابعة للكومينترن ،

حتى يتم اعدادهم ، حتى اذا نشب القتال من جديد ، كانوا متاهبين له ، ولتولي شؤون القيادة .

لقد ثقفتهم الكومينترن هناك . ففي اية ثورة ، لا تستطيع الاعتراف بالدور الذي يقوم به الاجانب الذين يساعدونك ، ولا يستطيع اي فرد ان يدعي معرفة اكثر مما يعرف حقيقة . وقد تعلم هو هذه الحقيقه . واذا كان الامر صحيحا في اساسه ، فليس الكذب بالشيء المهم . ومع ذلك فهناك الكثير من الكذب . ولم يكن ليكترث به في البداية ، ولكنه كـــان يكرهه . وسرعان ما بدأ يحبه . اذ انه جزء من عملية ان يصبح الواحد فــردا من حلقة داخلية . ولكنه مع ذلك امر معيب فاسد .

وقد عرفت في جيلورد ان فالانتين غونزاليس ، المسمى بالفلاح ، لم يكن فلاحا في حياته ، وانما كان عريفا سابقا في الفرقة الاسبانية الاجنبية . ثم فر من فرقته وانضم الى عبد الكريم الثائر المغربي . ولا ريب في ان هذا العمل محمود ، فلم لا يقع ؟ ومن الواجب ان يخوض هؤلاء الفلاحـــون الحرب ، وان يتولوا شؤون القيادة ولكن الكثيرين منهم ، قد لا يعدون ان يكونوا مثل بابلو . وليس في وسعك ان تنتظر ظهور القائد الفـــلاح الحقيقي ، الذي يتصف بالكثير من خصال الفلاحين . اذن عليك ان تصنع هذا القائد بنفسك . لقد رأى ان في وسع الفلاح غونزاليس ، بانيــــا استنتاجاته على ما رآه فيه ، ان يخلق الكثير من المتاعب كزعيم حقيقي وكانت المرة الاخيرة التي رآه فيها ، قد اثبتت هذا التحول ، فقد غـدا غونزاليس ، يصدق هالة الدعاية التي نشرها حول نفسه في الماضي ويؤمن بانه فلاح . انه رجل شجاع ، وقاس ، وليس في العالم من هو اشجع منه. ولكنه يكثر من الحديث . وعندما يثور ، يتدفق الكلام منه ، مهما كانت نتائج اقواله ، او الاسرار التي يبوح بهـا . ولقد كانت هذه النتائج كثيرة فعلا . انه قائد كتيبة من الطراز الاول ، على الرغم من قيادته في وضـع يبدو اقرب الى اليائس . وهو لا يستطيع فهم الفشل ، فاذا خسر المعركة تمكن من القتال ، حتى يشق طريقه ناجيا منها .

وقد قابلت في جيلورد ايضا ، عامل البناء الساذج هنريك ليستر ، من مقاطعة غاليسيا ، الذي اضحى الآن يقود احدى الفرق ويتحدث الروسية بطلاقة ايضا . وقابلت ايضا العامل الاندلسي خوان موديستو ، الذي اصبح يتولى قيادة فيلق . وبالطبع لم يتعلم الروسية في قريته الا اذا كان في هذه القرية مدرسة لتعلم اللغات يؤمها العمال امثاله . وهو اكثر الجنود الشبان ثقة عند الروس ، لانه من اعضاء الحزب الصادقين مائة في المائة . ولا ريب في أنه اكثر ذكاء من ليستر او من الفلاح .

ولا ريب في ان جيلورد هو المكان الذي تحتاج اليه لاستكمال تعلمك . فهناك عرفت كيف تساس الامور حقا ، لا كيف يجب ان تساس . وها انت قد بدات في التعلم . ولا ادري اذا كنت ستستمر فيه طويلا . فجيلورد هو المكان الصحيح المناسب الذي تريده وتحتاج اليه . وكنت قد شعرت بصدمة في البداية عندما كنت لا تزال تؤمن بتلك السخافات . اما الان فقد وصلت معلوماتك الى الحد الذي صرت تؤمن فيه بضرورة الخداع ، وكل ما تعلمته في جيلورد قد قوى من اعتقادك في الامور التي كنت تؤمن بصحتها ولكنك تريد ان تعرفها على حقيقة وجودها لا كما يجب ان تكون . ففي الحرب يكثر الكذب عادة . ولكن حقائق ليستر وموديستو والفلاح هي افضل بكثير من الاكاذيب والاساطير . وسيحل اليوم الذي تقال فيه الحقائق لكل انسان اما الان فان مما يسرك ان هناك جيلورد حيث تستطيع ان تتعلـم .

ومضى روبرت في تفكيره على هذا النحو ، فقرر ان جيلورد هو المكان الذي يجب ان يؤمه بعد ان يبتاع كتبه وبعد ان ينتهي من حمامه الساخن ويتناول كاسين من الابسنت يشربهما اثناء قيامه ببعض المطالعة . ولكن هذه الخطة كانت قبل أن تظهر ماريا في الصورة . حسنا . في وسعه ان يستاجر غرفتين في الفندق ، وسيكون في امكانها ان تفعل مـا تشاء في غرفتها اثناء تنفيذه لخطته السابقة وذهابه الى جيلورد قبل ان يعود اليها لقد تعودت الانتظار طويلا في الجبال كل هذا الوقت وفي وسعها ان تنتظر

مدة اطول ، في فندق فلوريدا . وقرر ان يقضيا ثلاثة ايام في مدريد ، وهي ليست بالوقت القصير . انه سيأخذها الى الاوبرا لتشهـــد « اخوان ماركس » ، فقد انقضى على هذه الرواية ثلاثة اشهر وهي تمثل على مسرح الاوبرا وستنقضي ثلاثة اشهر اخرى عليها . ولا ريب في انها ستحب هذه الرواية كل الحب .

ومع ذلك فالمسافة بعيدة بين الكهف وبين جيلورد . لا ، لم تكن المسافة طويلة في المجيء ، ولكنها ستكون كذلك في الاياب . وقد اخذه كاشكين اول مرة الى المكان فلم يعجبه . وكان كاشكين قد صرح له بان عليه ان يلقى كاركوف لان هذا يحب الامريكان ، ولانه من اشد المعجبين بلوبي دي فيغا. لكنه لا يوافق كاركوف على هذا الراي .

ولقد احب كاركوف ، ولكنه لم يحب المكان . فكاركوف اذكى انسان عرفه في حياته ، وعندما رآه اول مرة ، كان يبدو مضحكا في حذائـــي الركوب اللذين يضعهما في قدميه ، وسراويل « البريدجز » والصديرية الرمادية ، ويديه الصغيرتين وقدميه ، ووجهه الشاحب ، وطريقته في الحديث التي يقذف بها الكلمات قذفا من فمه . ولكنه يتمتع بعقل لماح ، وبشخصية مؤثرة ، وسلاطة لسان يصل الى النكتة والمزاح اكثر من اي انسان آخر عرفه في حياتـه .

ولا ريب في ان مطعم جيلورد يبدو كثير الفخامة ، فاسدا كل الفساد . ولكن الا يجوز لممثلي دولة تحكم سدس العالم ، ان يتمتعوا بعض الشيء بحياتهم ؟ انهم يتمتعون كل التمتع وقد عافت نفس روبرت في البداية هذا الوضع ، ولكن سرعان ما تقبله على انه حقيقة واقعة واستساغه . وكـان كاشكين قد امتدحه كثيرا ، ولذا فقد سلك كاركوف معه سلوكا مهذبا كل التهذيب الى حد الزراية ، وعندما راى اخيرا ان روبرت لا يمثل دور البطل ، وانه لا يتردد في سرد الملح القذرة والنكات ، تخلى كاركوف عن تهذيبه ، وانطلق على سجيته في الحمق والمزاح ، فاصبحا صديقين .

وكانوا يتسامحون مع كاشكين هناك . ولا ريب في ان هذا الانسان كان

يشعر ببعض النقص ، وقد بدا شعوره هـذا في تصرفاته في اسبانيا . وبالطبع لم يكونوا ليصارحوه برايهم في حقيقته ، اما وقد مات الآن ، فانهم لا يتورعون الان عن ابداء هذا الراي . على كل حال ، كان كاشكين قد غدا صديقا لكاركوف ، كما غدا صديقا لزوجته النحيلة السمراء الجميلة ، المتوترة الاعصاب والمحرومة من الحياة ، ذات الجسم الرقيق المهمل والشعر الابيض المقصوص ، والتي كانت تقوم بدور المترجم لرجال فرقة الدبابات. وكان ايضا صديقا لخليلة كاركوف ذات العينين اللتين تشبهان عيون القطط والشعر الذهبي الاحمر ، والجسم المشتهى الكسول ، والفم الذي خلـق للقبل ، والعقل الوفي الطموح البليد . وكانت هذه الخليلة تحب الاشاعات وتسر بالارتباك الذي يسيطر عليه احيانا والذي يخلق التسلية لكاركوف. ويقال ان لهذا الرجل زوجة او زوجتين اخريين ، ولكن احدا لا يعلم عنهما شيئا . اما روبرت فقد كان يستملح الزوجة التي يعرفها والخليلة . ولا ريب في انه سيحب الزوجة الاخرى ان وجدت ، فان لكاركوف ذوقـا رائعا في النســاء .

ويقيم الحرس على مداخل جيلورد ببنادقهم وقد اشرعت الحراب في رؤوسها ، ولا ريب في ان هذا المكان هو اكثر الاماكنة امتاعا الليلة في مدريد المحاصرة . وكم ود لو كان هناك هذه الليلة بدلا من أن يكون هنا في هذا الكهف . ولكن الوضع قد تحسن هنا الان ، بعد ان توقفوا عـــن ادارة العجلة ، كما توقف الثلج عن السقوط ايضا .

وهو يود ان يعرض فتاته ماريا على كاركوف ، ولكنه لن يجرؤ على اخذها الى هناك ، الا بعد الاستئذان ، وبعد أن يعرف كيف سيستقبلونه بعد هذه الرحلة . ولا ريب في أن غولز سيكون هناك بعد ان ينتهي هذا الهجوم ، واذا كان قد اجاد القيام بمهمته فسيعرفون ذلك من غولز نفسه . وبالطبع سيضحك غولز منه حول موضوع ماريا ، لا سيما بعد الذي ذكره لـه عن عـدم وجـود فتيـات .

ومد يده الى وعاء الخمر الموجود امام بابلو ، واترع لـه كأسا وهـــو

يقـول .. باذن منك .

فاحنى بابلو راسه . وخيل لروبرت ان بابلو مشغول بدراساته العسكرية عن الوضـع . انه لا يبحث عن حلول المشاكل في افواه المدافع بل في اوعية الخمر . ولكن لا ريب في انه على جانب كبير من القدرة حتى انه استطاع قيادة هذه العصابة بنجاح هذه المدة الطويلة . واخذ يتطلع الى بابلو ويتصور اي نوع من قادة حرب العصابات سيكون لو قدر له ان يعيش في الحرب الاهلية الامريكية . ولا ريب في ان الحرب قد ضمت عددا كبيرا من امثاله ، ولكننا لا نعرف عنهم شيئا .. ثم موضوع الاغراق في السكر .. فهل حقا كان الجنرال غرانت انسانا سكيرا ، وكثيراً ما سمع من جده ان غرانت كان يكثر من الشراب . وانه كان يبدا الشراب في الرابعة بعد الظهر ، وكثيرا ما امتد سكره يومين على الاقل . ولكن هذا الجد اكد له ايضا ، ان غرانت كان يعمل بنجاح دائما . مهما كانت كمية الخمر التي شربها ، لكن الصعوبة الوحيدة كانت في ايقاظه من نومه احيانا . اما اذا استيقظ فهو انسان طبيعـي عـادي .

ولم يظهر اي من امثال غرانت او شيرمان او ستونوول جاكسون عند اي من الفريقين في هذه الحرب . ولكن ظهر فيها عدد من صغار القادة مـن امثـال ماكليـلان .

وبالطبع لم يرَ ايا من العباقرة في هذه الحرب ، حتى ولا عبقري واحد ، او انسان يشبه العباقرة . وقد قام كليبر ولوكاز وهانز بدور رائع في الدفاع عن مدريد مع الكتائب الدولية . ثم قام مياجا الذي جعلت الدعاية منه المدافع عن مدريد ، والانسان الاصلع ، ذو النظارتين ، والمغرور والبليد والابله والشجاع ، احساسا منه بالغيرة من كليبر ، باقناع الروس ، بنقل كليبر من مدريد الى فالانسيا . وكان هذا جنديا ممتازا ، ولكنه محدود المعلومات العسكرية ، وكثير الكلام عن المهام التي يقوم بها . وكان غولز قائدا ممتازا وجنديا بارزا ولكنهم كانوا دائما يعهدون اليه بالمهام الثانوية ولا يطلقون يده في اي عمل من الاعمال . ولعل هذا الهجوم هو اكبر ما قام

به من اعمال حتى الان ، ولم يعجب روبرت بما سمعه عن هذا الهجوم من انباء حتى الان . وهناك ايضا غول المجري ، الذي يجب ان يقتل رميا بالرصاص اذا صدق الانسان نصف ما يسمعه في جيلورد .

وكمود لو شهد القتال الذي دار على الهضبة القائمة وراء كوادا لاجارا عندما انتصرت قوات الجمهورية على الايطاليين . ولكنه كان انذاك في ايسترا مادورا . وقد حدثه هانز قبل نحو من اسبوعين في جيلورد ، عن هذه المعركة ، وصورها له ، وكأنه يشهدنا . وقد حلت لحظة واحدة ، كادت قوات الجمهورية تخسر المعركة عندما اخترق الايطاليون خطوط الدفاع ، وهددوا قواتنا بالتطويق ، ولكننا كما قال هانز « لما كنا نعرف انهم من الايطاليين ، فقد قمنا بمناورة ، لم تكن حتما ناجحة ، لو كانت القوات التي تواجهنا من غير الطليان . وقد نجحت مناورتنا » .

وقد عرض عليه هانز المعركة بحذافيرها على الخرائط . وكان يحملها في حقيبته والسرور يفعم فؤاده من نجاح الخطة وتحقق المعجزة . وكان هانز جنديا ممتازا ورفيقا رائعا . وقد حاربت القوات الاسبانية بقيادة ليستر وموديستو والفلاح ، أروع حرب في هذه المعركة ، والفضل في ذلك يعود الى القادة والى تحليهم بالنظام الرائع . ولكن هؤلاء الثلاثة ما كانوا ليعملوا اي عمل الا وفقا لمشورة مستشاريهم الروس .. أجل انهم اشبه ما يكونون بالطلاب الذين يتدربون على الطيران في طائرات مزدوجة الضوابط ، بحيث يستطيع الطيار الذي يتولى تدريبهم السيطرة على الطائرة ، اذا ما اخطأ الطالب في قيادتها . ولكن سرعان ما تختفي الضوابط المزدوجة ، وسيترك اليهم تصريف الامور وقيادة الفرق والفيالق .

وهم من الشيوعيين . ومن المؤمنين بالانضباط الحزبي . ولا ريب في ان النظام الذي سيفرضوه ، سيجعل من جنودهم ، رجالا من خيرة الجنود وكان ليستر يؤمن بالنظام الى حد القتل . وكان متعصبا لعقيدته ، ويملك

افتقار الاسبانيين الى احترام الحياة . ولم يعدم عدد من الرجال بالجملة لمجرد اسباب تافهة صغيرة ، منذ ايام غزو التتار للغرب في اي جيش ، كما كان يعدم الجنود في ظل قيادته . ولكنه كان ماهرا في صوغ الفرقة وجعلها وحدة مقاتلة ، تحسن الاحتفاظ بالمواقع ، والهجوم على مواقع العدو وتدريب الجيش على المناورة في الميدان . واخذ روبرت يسائل نفسه عن الصورة التي سيكون عليها ليستر ، عندما تنتهي القيادة المزدوجة . ولكن هل تنتهي هذه القيادة ؟ وهل يذهب الروس ؟ او انهم سيزدادون قوة ؟ وما هي حقيقة موقف الروس من هذا الموضوع . ان جيلورد هو المكان المثالي الذي يستطيع ان يدرس فيه جميع هذه الامور . فهناك اشياء كثيرة . يريد ان يتعلمها ، ولن يتيسر له تعلمها الا في جيلورد .

وكثيرا ما خيل اليه ان جيلورد مكان لا يناسبه . فهـــو يختلف كـــل الاختلاف عن فيلاسكويز ٦٣ ، القصر المدريدي ، الذي غدا مقر الشيوعية الدينية المتطهرة ، ومقر قيادة الفيلق الدولي في العاصمة . ففي فيلاسكويز يشعر المرء ، بانه عضو في رهبنة دينية ، وهو يختلف كل الاختلاف عن الشعور الذي يحس به في جيلورد او في مقر قيادة الفوج الخامس قبـــل تجزئته الى كتائب تؤلف الجيش الجديد .

وفي اي من هذه الاماكن يشعر المرء ، بانه يشترك في حرب صليبية . ولعل هذه الكلمة هي التي يجب استخدامها ، على الرغم مما لحق بها من تحريف من جراء سوء استعمالها ، حتى انها لم تعد تعطي المعنى الحقيقي منها . فانت تشعر في هذه الاماكن ، على الرغم من بيروقراطيتها ، ونضالها الحزبي ، وافتقارها الى الكفاءة ، نفس الشعور الذي كنت تتوقعه، والذي لم يكن جزءاً منك ، عندما « تعمدت » لاول مرة . انه شعور التكريس للواجب ، نحو جميع المضطهدين في العالم . وليس في أستطاعتك ان تصفه او تتحدث عنه ، كشعور ديني على الرغم من واقعيته ، وتشابهه مـــع الشعور الذي تحس به عندما تستمع الى موسيقى باخ ، او تقف امـــام احدى الكاتدرائيات لترى النور ينبعث من نوافذها العالية . انه يضفي

عليك شيئا من الايمان بشيء ستطيع ، ان تعتقد به اعتقادا كاملا وشاملا ؛ وتشعر نحوه بشعور الاخوة مع الاخرين الذين يرتبطون فيه معك بنفس المصير . ولعلك لم تحس بمثل هذا الشعور من قبل ؛ ولكنك تجربه الان ، وتضفي عليه وعلى مسبباته اهمية بالغة قصوى ، يختفي امامها تعلقك بالحياة ، ولا يصبح لها اي معنى في نظرك ، سوى انك تريد ان تتجنب الموت لانه يؤخرك عن اداء واجبك . ولكن خير ما فى الامر ، ان في وسعك ان تعمل شيئا تجاه هذا الشعور ، وتجاه تلك الحاجة . وهذا الشيء هـــو ان تقاتـــل وتناضـــل .

وهكذا فقد قاتلت ، ولكن طهر الشعور بالواجب ، قد زال بالنسبة الى اولئك الذين عاشوا بعد انتهاء القتال وابلوا فيه البلاء الحسن . وكان ذلك بعد ستة اشهـــر ليس الا .

والدفاع عن موقع او مدينة هو جزء من الحرب التي تحس فيها لاول مرة بمثل هذا الشعور . ولقد كان القتال في الجبال ، من هذا النوع حتما فقد قاتل المناضلون فيها تجمعهم رابطة من الزمالة الثورية الصادقة . وعندما اقتضت الحاجة للمرة الاولى ، فرض النظام ، وافق على فرضه ، وفهمه خير فهم . فعند اطلاق نيران المدافع ، جبن بعض الرجال وفروا . وقد رآهم يقتلون ، وتترك جثثهم تنتفخ على مقربة من الطريق ، لا يكترث بهم انسان ، الا طامع فى سلبهم ما يحملون من عتاد ومتاع . ولا ريب في ان سلبهم عتادهم ، واحذيتهم ، ومعاطفهم الجلدية ، أمر واجب ، امـــا سلبهم ما يحملون من غوال فأمر واقعي ، اذ انه يحرم الفوضويين مـــن الحصول عليهـــا .

وكان يرى من الحق والعدل والضرورة ، ان يقتل الفارون . فلا ضير في ذلك ولا جناح . ففرارهم مظهر من مظاهر الانانية . فعندما هاجـــم الفاشيون ، وتمكنا من وقف هجومهم عند منحدرات الصخور الشهباء ، وتمكنا من الصمود امام المدافع التي والت قصف مواقعنا من السهل ، وامام الطائرات ، ثم قمنا بهجومنا المعاكس ، فأخرجنا العدو من المواقع

التي احتلها . وكانوا قد حاولوا القيام بحركة لتطويقنا ، ونجحوا فيها الى حد بعيد لولا الهجوم المعاكس الذي شنناه والذي دحرهم الى مواقعهم الاصلية ، ولولا هذا الهجوم ، لادركنا ما يعنيه التطويق من ويل .

وفي كل هذا ، وفى خضم هذا الخوف الذي يجفف الحلق والفم ، وفي الفزع الناجم عن تهاوي جدار ، وتعطيل مدفع رشاش ، قتل القائمون عليه ، تقدم على حمل المدفع من جديد ، فتضعه فى مكان آخر ، وتخرج صندوق عتاده وتشرع في اطلاق النار منه على الطريق . ولقد تعلمت ما توحي به المعارك ، من تنكر للخوف ، عندما حاربت طيلة الصيف والخريف دفاعا عن فقراء العالم ، ضد الطغيان ، ودفاعا عن كل ما تؤمن به لايجاد العالم الجديد الذي شببت على تعلمه . وقد تعلمت فى ذلك الخريف كيف تحتمل ، وكيف تتجاهل الالم فى اوقات البرد والقر والمطر ، وكيف تقيم الخنادق والمتاريس . وقد دفنت جميع مشاعرك في ذلك الصيف وهـذا الخريف ، تحت غطاء من التعب والارق ، والهياج العصبي والافتقار الى الراحة . لكن كل ما مرر تبه من تجارب ، قد جعلت لما تؤمن به قيما ، غالية ، خلقت عندك نوعا من الكبرياء والاعتزاز الذي صيرك وحشا قاتلا فــــي جيلــورد .

ولكن لا ، انك لم تكن ذلك المثالي في جيلورد وانما كنت انسانا في منتهى الطيبة والسذاجة . ولكن جيلورد لم يكن نفس المكان الذي اصحبه الان . لا . ان جيلورد آنذاك هو غير جيلورد الآن .

وقد حدثه كاركوف عن تلك الايام . فقد كان الروس الموجودون في المدينة يعيشون في فندق بالاس . ولم يكن روبرت يعرف ايا منهم آنذاك كان هذا قبل تشكيل اول وحدة من وحدات الغدائيين ، وقبل ان يلتقي كاشكين او غيره من زملائه . وكان كاشكين هذا في سان سيباستيان فى الشمال ، ولم يصل الى مدريد الا في كانون الثاني وبعد ان كان روبرت قد قاتل في كارابانشيل وعسيرا ، في تلك الايام الثلاثة التي تمكنوا فيها من

وقف الجناح الايمن من الهجوم الفاشي على مدريد . واخرجوا المغاربة ، من الاماكن التي احتلوها ، بعد معارك دارت من بيت الى بيت ، الى ان تم تطهير الضاحية التي تشرف على مدريد .

ولم يكن كاركوف يحس بالتشاؤم ، حتى في تلك الايام العصيبة . اجل كانت اياما عصيبة . اشترك الجميع فيها ، عندما احسوا ، بأن كل شيء قد اشرف على الضياع ، واخذ الواحد منهم ، يفكر بالطريقة التي يجب ان يتصرف فيها فعلا عندما ينتهي كل شيء . وقد تخلت الحكومة عن العاصمة واخذت معها جميع السيارات ، واضطر مياجا العجوز ، عندما قام بالتفتيش على حصون المدينة الدفاعية ، الى امتطاء دراجة هوائية . ولم يستطع تصور مياجا وهو يركب دراجة . ولكنه كان قد كتبها الى الصحف الروسية ، ولعله اراد ان يصدق واقعها ، بعد ان كتبها .

وكانت ثمة قصة اخرى لم يكتبها كاركوف . فقد كان عنده في فندق بالاس ثلاثة من الجرحى الروس ، كان عليه ان يعنى بهم ، وكان اثنان منهم من سائقي الدبابات اما الثالث فطيار ، وقد اصيبوا بجراح بالغة تجعل نقلهم متعذرا . وكان من المهم جدا ان لا يسقط هؤلاء الجرحى في ايدي العدو في حالة سقوط المدينة ، مخافة اقامة الدليل على التدخل الروسي لتبرير التدخل المكشوف من جانب الدول الفاشية ، ولذا فقد القيت مسؤولية عدم وقوعهم في ايدي العدو على اكتاف كاركوف .

وتقرر في حالة الجلاء عن العاصمة ان يقوم كاركوف بتسميمهم ، وان ينزع منهم كل اوراق هوياتهم ، قبل ان يغادر الفندق . ولم يكن من السهل على الاعداء ، ان يميزوا ان هؤلاء الثلاثة المصابين بجراح بالغة ثخينة في رؤوسهم وبطونهم وصدورهم من الروس . اجل ليس في وسع اي انسان ان يعرف ان هذا القتيل العاري البدن الملقى في سريره ، هو روسي . فعندما يموت الانسان تختفي بموته جنسيته ، وهويته واراؤه السياسية .

وكان روبرت قد سأل كاركوف عن شعوره تجـاه ضرورة قيامه بهذا الواجب ، فرد عليه هذا ، بأنه لا يستطيع حتى الان ان يقرر هذا الشعور . . وعندما سأله . . وكيف ستنفذ الامر ، لا سيما وانت تعرف ان ليس من السهل تسميم الناس ؟ فقال كاركوف . . اجل أن هذا الحادث سهل كل السهولة ، ولا سيما عندما تنفذه ، تحقيقا لاغراضك . . وسرعان ما فتح صندوق سكائره واطلع روبرت على ما يحمله من جانب منها .

فقال له روبرت . . ولكن اول ما يفعله الناس ان اخذوك اسيرا ، هـو الاستيلاء على علبة سكائرك . وتكون يداك قد ارتفعتا الى ما فوق راسك .

ورد عليه كاركوف قائلا . . ولكن معي منها هنا ايضا ، وكل ما يطلب اليك هو ان تضع هذه القطعة في فمك ثم تبتلعها . . قال هذا واشار الى طيـة سترتـه .

ـ هذا افضل . . ولكن قل لي . . هل ان مذاقه شديد المرارة كاللوز المر ، كما نقرأ دائما في القصص البوليسية .

ـ لا ادري . لم اذق طعمه بعد . اتريد ان نحطم زجاجة صغيرة منه لشمهـا ؟

ـ لا . الافضل ان تحافظ عليها .

ـ اجل . انني لست بالانسان الانهزامي . ولا ريب انك تفهم هذا ،ولكن اياما عصيبة قد تعود ، ولا يسهل على الانسان الحصول على هذا الشيء . أرأيت البلاغ الرسمي الصادر عن جبهة قرطبة ؟ انه رائع . وقد صرت افضله على جميع البلاغات الاخرى .

ـ وماذا قال البلاغ ؟ قل لي ؟.. وكان روبرت ، قد وصل الى مدريد قادما لتوه مـن قرطبة .

ـ تواصل قواتنا الظافرة تقدمها ، دون ان تخسر شبرا واحدا مـن

الارض . هذا ما قاله البلاغ .

ـ لا . انه لم يقل هذا .

وتذكر روبرت الرجال الذين قتلوا في المعركة التي دارت حول بوزوبلانكو، ولكن هذا البلاغ ، من النكات التي تروى في جيلورد .

اذن فهذه هي الحالة فى جيلورد . ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل شيء ، فهو يود لو كان ثانية فى جيلورد .. وطافت افكاره بذكرياته عن سييرا وكارابانشيل وعسيرا .. ثم قال لنفسه .. لا ريب في انك سريع الفساد والعطب . ولكن هل انت فاسد حقا او انك تخليت عن شعور السذاجة الذي كان يسيطر عليك فى البداية ؟ او لا يمكن ان تشعر بنفس الشعور في كل شيء ؟ وهل يمكن للانسان ان يحتفظ بنفس المشاعر من الطهارة التي يبدأ فيها عمله . كما يبدأ الاطباء الفتيان او القسس الشبان ، أو الجنود الحديثو السن . لا ريب في ان القسس يحافظون على نفس المشاعر ، والا فانهم يتخلون حتما عن عملهم . ولا ريب في ان النازيين يحتفظون بها وكذلك الشيوعيون الذين يظلون خاضعين للانضباط الحزبي . ولكن كاركوف ..!!

انه لا يشعر قط بالتعب أو الملل من دراسة قضية كاركوف . ففي المرة الاخيرة التي زار فيها جيلورد ، كان كاركوف رائعا في حديثه عن عالم اقتصادي بريطاني قضى وقتا طويلا في اسبانيا . وكان روبرت قد قرأ ما كتبه هذا الرجل طيلة سنوات عدة ، واحترمه بالغ الاحترام دون ان يعرف شيئا عنه ولم يكن ليهتم ، بما كتبه هذا الرجل ، فقد كانت كتاباته في غاية الوضوح والبساطة والصراحة . وكانت بعض الارقام التي اوردها قائمة على اساس التمنيات . لكن الانسان يجب ان يحترم على كل حال بالنسبة الى نواياه .

واخيرا فقد رأى هذا الرجل ، في نفس اليوم الذي وقع فيه الهجوم على كارابانشيل . كانوا يجلسون في حلبة المصارعة ، وكان صوت العيارات النارية ينطلق من الشوارع القريبة ، موحيا ، بقرب الهجوم . وكانت القيادة قد

وعدتهم بارسال دبابة ولكن الدبابة لم تصل ، وقد جلس مونتيرو واضعا راسه بين ذراعيه يقول ... « لم تأتِ الدبابة . لم تاتِ الدبابة » .

كان اليوم شديد البرودة ، وكان الغبار الاصفر يهب على الشارع ، وكان مونتيرو قد اصيب فى ذراعه اليسرى .. وكان يردد القول .. يجب ان تكون لدينا دبابة ، وعلينا أن ننتظرها ، ولكننا لا نستطيع الانتظار .

وكان روبرت جوردان ، قد مضى ليرى اذا كانت الدبابة قد وصلت ، وطاف حول البناية القائمة فى نهاية خط الترام ، فرآها هناك . لكنها لم تكن دبابة ، وانما سيارة مصفحة . وكان الاسبانيون يطلقون على كل شيء في تلك الايام اسم الدبابة . انها سيارة قديمة . ولم يرضَ سائقها ان يترك الزاوية التي اقام فيها ليذهب فيها الى حلبة المصارعة . وكان يقف وراء سيارته ، وقد طوى يديه وراء دروع السيارة واخفى راسه في الخوذة الفولاذية . وعندما حدثه روبرت . هز راسه وظل فى مكانه . وعاد روبرت يحادثه .. فقال .. ليست لدي اوامر بالذهاب الى هناك .

واخرج روبرت مسدسه ، ووضعه فى ظهر السائق وقال .. هذه اوامرك . ولكن الرجل هز راسه وقال .. ليس معي ذخيرة للمدفع الرشاش .

ـ عندنا ذخيرة في حلبة المصارعة . هيا بنا ، دعنا نذهب . سنملأ امشاط السلاح هناك . هيا .

ـ ولكن ليس ثمة من يستطيع أطلاق المدفع الرشاش .

ـ واين هو المدفعي ؟ اين رفيقك ؟

ـ لقد مات . داخل السيارة .

ـ اخرجه . هيا اخرجه من داخلها .

ـ لا اريد ان المسه ، وهو محصور بين المدفع ومقود السيارة ، ولا استطيع تخطيه .

ـ هيا بنا ، سنخرجه معا .

وعندما صعد روبرت الى السيارة المصفحة ، اصطدم راسه بطرفها ، فجرح وسال الدم على جبينه ووجهه . وكان القتيل ، بدينا ثقيل الجسم، واضطر الى ان يطرق راسه حتى يخرجه من المكان الضيق الذي حشر فيه وتمكن اخيرا من انتزاعه ودفع به الى ان وصل الباب . وقال للسائق .. ساعدنـي في اخراجـه .

ـ لا اريـد ان المسـه ..

وراى روبرت الدموع تنساب على وجنتي السائق ، وعلى انفه ..وتمكن اخيرا ، من دفع الجثة حتى قذف بها الى الشارع .

وقال له .. هيا ، ادخل الى السيارة ، عليك اللعنة .. ادخل .. واخذ يهدده بالمسدس .

وراى رجلا ، يخرج من وراء منعطف البناء ؛ وقد ارتدى معطفا طويلاً ، وكان عاري الراس اشيب الشعر ، عريض الوجه ، عميق العينين . وكان يحمل في يده علبة من سكائر « الشسترفيلد » ، فاخرج سيكارة قدمها الى روبرت الذي كان يدفع السائق الى السيارة المصفحة مهددا اياه بالمسدس.

وقال الرجل الجديد القادم .. دقيقة ايها الرفيق .. هل تستطيع ان تشرح لي شيئا عـن القتال ؟

وتناول روبرت السيكارة ووضعها في جيب قميصه . وقد عرف هذا الرجل من صورته . انه العالم الاقتصادي البريطاني .

فرد روبرت عليه قائلا .. اذهب الى الجحيم .. ثم قال لسائق السيارة المصفحة .. هيا الى الحلبة ، اتراها ؟ ثم دخل الى السيارة وجلس بجانب السائق ، وبدات العيارات النارية تنهال على السيارة من كل جانب فتصيب فولاذها ، محدثة صوتا شديدا .. ووصلت السيارة الى مدخل الحلبة ، وفي الحال فتحت صناديق الذخيرة والعتاد ، وخرج الرفاق ببنادقهـم

وقنابلهم اليدويه ، وهتف مونتيرو قائلا .. حسنا ، ها هي الدبابة ، في وسعنا الآن ان نبدأ الهجوم .

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، وبعد ان كانوا قد احتلوا آخر بيت على الجبل ، استلقى روبرت مرتاحا وراء جدار من الآجر ، وقد عمل فيه ثقبا ، يرقب منه عبر الارض المنبسطة الصخور التي تراجع اليها الفاشيون ، والتي اخذوا يطلقون من ورائها النار بعد تراجعهم ، وكان قد انبطح على كومة من القش في ملابسه التي بللها العرق ، واحاط نفسه بحرام من الصوف ، منتظراً جفاف العرق . وبينما كان منبطحا في مكانه ، عادت الى خياله صورة العالم البريطاني ، فضحك ، ثم احس بالألم لأنه كان فظا معه ولكنه تذكر انه فى تلك اللحظة ، عندما مد يده يقدم اليه لفافة التبغ ، انفجرت في صدره جميع مشاعر الكراهية التي يحس بها المحاربون عادة لغير المحاربين .

وها هو يذكر الان جيلورد ، ويذكر كاركوف متحدثا عن نفس هذا الانسان . ويذكر قوله له . اذن فقد لقيته هناك . اجل فقد ذهب الى الجبهة . اما انا فلم استطع المضي بعيدا عن طليطله . وكان ذلك اليوم ، الاخير من أيام شجاعته كما اعتقد . فقد غادر مدريد في اليوم التالي . لقد كان في طليطله في ذروة الشجاعة ، وكان احد الذين ابلوا البلاء الحسن في احتلال القصر . آه ، لو رايته فى طليطله ، فقد كانت جهوده ونصائحه هي التي أدت الى نجاحنا في الحصار الذي فرضناه . ولقد كان هذا الجزء هو اسخف ما مر في الحرب من أحداث ، وقد بلغ الذروة فى السخف .. ولكن قل لي ما رايهم فيه في امريكا ؟ » .

فقال روبرت .. انهم يعتقدون في امريكا انه قريب جدا من موسكو .

فقال كاركوف ــ لا . انه ليس كذلك ، ولكن له وجها رائعا ، وعن طريق وجهه واخلاقه يستطيع ان يحقق النجاح الذي يريد . أما انا فلا استطيع ان افعل شيئا بهذا الوجه الذي احمله . وان القليل الذي حققته ، قد تم

على الرغم من وجهي ، الذي لا يوحي للناس بحبي ولا يحملهم على الثقة بي . اما ميتشيل هذا ، فيملك وجها يستطيع ان يجمع ثروة عن طريقه . انه وجه متآمر . وكل من قرا عن المتامرين في الكتب ، يثق به على الفور . وهو يسلك ايضا سلوك المتامرين الصادقين . وعندما يدخل الى اية غرفة، يظن كل من في داخلها ، انه على الفور في حضرة متآمر من الطراز الاول . وجميع مواطنيك الاثرياء ، الذين يودون عاطفيا ان يساعدوا الاتحـــاد السوفياتي عن عقيدة وايمان او رغبة في ضمان انفسهم في حالة نجــاح الحزب ، يرون فورا في وجه هذا الرجل ، وفي سلوكه ، انه لا يمكن له ان يكون الا عميلا موثوقا من عملاء الكومنترن .

ـ او ليست له اية علاقات بموسكو ؟

ـ لا ابدا . اسمع ايها الرفيق جوردان . هــل تعــرف شيئا عـــن طرازي المجانين ؟

ـ البسيط ، والشرس ؟

ـ لا ، وانما اعني الطرازين الموجودين عندنا في روسيا . فهناك اولا مجنون الشتاء . وهذا يأتي الى باب بيتك ويقرعه بعنف . فتمضي الى الباب وتراه واقفا عنده . انك لا تعرفه ولا يسبق لك ان رايته من قبل . ومنظره مؤثر كل التاثير ، فهو ضخم الجسم ، يرتدي احذية عالية ومعطفا من الفراء وقبعة من الفراء ، وقد غطت الثلوج جسمه كله . وهو يهـــز حذاءيه اولا فيتساقط الثلج عنهما ، ثم ينزع معطفه ، فتتساقط الثلوج عنه ايضا . ثم يخلع قبعته . ويضر ببها الباب ، فيسقط الثلج عنهــا . ثم يعود فيضرب الارض بقدميه ويدخل الى الغرفة ، وبعد ذلك تتطلــع اليه فترى انه مخبول . هذا هو مجنون الشتاء .

.. اما في الصيف فانك ترى مخبولا يسير في الشارع وهو يحرك ذراعيه ويهز راسه ذات اليمين وذات الشمال ،ويستطيع كل من يراه من مسافة مائتي

باردة ، ان يعرف انه مخبول . وهذا هو مجنون الصيـــف . وعالمنـا الاقتصادي من مجانين الشتـاء .

ــ ولكن لماذا يثق به الناس هنا ؟

ــ الوجه الذي يحمله . وجه المتآمرين . والحيلة التي يستخدمها ، في انه قد جاء من مكان اخر ، حيث يثق الناس فيه ، ويعتبرونه انسانـا هاما . وبالطبع عليه أن يسافر كثيرا ، حتى تفعل هذه الخدعة فعلها . ولا ريب فى انك تعرف ان الاسبانيين غريبو الطباع . فهذه الحكومة تملـك الكثير من المال ، من الذهب . وهي لا تعطي أصدقاءها شيئا . فانت صديق ، هذا حسن . فعليك ان تقوم بعملك بدافع الصداقة ، دون ان تنال اية مكافأة . ولكنها تعطي الاخرين الذين يمثلون بلادا او شركة غير صديقة لانها تريد أن تؤثر عليهم . انها تغدق على هؤلاء العطاء . ولعل من الممتع ان تتابع حديثي بدقة وعناية .

ــ انني لا احب هذه الطريقة ، فالمال ، ملك للعمال الاسبانيين .

ــ لا يفترض فيك ان تحب جميع الامور وانما عليك ان تفهمها مجرد فهم ، وانا اعلمك بعض الامور في كل مرة القاك فيها . ولا ريب في انـك ستصبح مثقفا في النهاية ، ولعل من الممتع ان يتعلم الاستاذ .

ــ لا ادري اذا كنت استطيع ان اعمل استاذا عند عودتي ، فمن المحتمل انهم سيصمونني باللون الاحمر .

ــ قد يكون في امكانك أن تأتي الى الاتحاد السوفياتي لمواصلة دراستك هناك . واعتقد ان هذا خير ما تفعله .

ــ ولكن الاسبانية هي ميداني .

ــ هناك بلاد كثيرة تتحدث بالاسبانية . ولن يكون من الصعب ان تعمل في ايها بقدر ما يصعب العمل فى اسبانيا . وعليك ان تذكر ايضا انك منذ

تسعة اشهر لم تعد استاذا . وكان في وسعك في غضون هذه الاشهر التسعة ان تتعلم حرفة ثانية . كم عدد الكتب الفلسفية الشيوعية التي قراتها ؟

ـ قرات « الموجز عن الماركسية » الذي وضعه اميل بيرنز . وهذا كل ما قراته .

ـ اذا كنت قد قراته كله ، فهذا لا يعني الا القليل . فهو لا يتجاوزالالف والخمسمائة صفحة ، وفي وسعك ان تقضي وقتا في قراءة كل صفحة . ولكن ثمة اشياء اخرى عليك ان تطالعها .

ـ ليس لدي وقت للمطالعة الآن .

فقال كاركوف ـ اعرف ذلك ، ولكنني اعني قريبا . هناك اشياء كثيرة يجب ان تقراها فهي تعينك على فهم ما يحدث . ولكن من جميع هذه الكتب ، يمكن ان يخرج كتاب واحد ، ضروري كل الضرورة ، يوضح الامور التي يجب أن يعرفها الانسان ويفسرها ، ومن المحتمل ان اكتب هذا الكتاب . وفعلا فكلي امل ، ان اقوم انا بكتابته .

ـ لا استطيع ان ارى من هو خير منك لهذه المهمة .

ـ لا تصانعني . ناما صحفي . ولكن شأني كشأن الصحفيين عامة ، احب الكتابة في الادب . وانا الآن مشغول بوضع كتاب عن كالفوسوتيلو . لقد كان فاشستيا صادقا ، فاشتيا اسبانيا صادقا . أما فرانكو والآخرون فليسوا من الفاشيين . وكنت ادرس جميع كتابات سوتيلو وخطبه . لقد كان انسانا ذكيا ، ولعل من الذكاء حقا انه قتل هذا الشهر .

ـ خيل الي انك لا تؤمن بالاغتيال السياسي .

ـ انه يطبق على نطاق واسع .

ـ ولكن ...

ـ نحن لا نؤمن باعمال الارهاب الفردي ، وبالطبع اعمال الارهابيين

المجرمين والمنظمات المناهضة الثورية . ونحن نزدري بفزع ، غدر الضباع وازدواجيتهم من القتلة من امثال المخرب بوخارين ، وحثالات البشرية من امثال زينوفييف وكامينيف ورايكوف ، واشباههم من القتلة . فنحن نكره ونزدري امثال هؤلاء الابالسة الحقيقيين ، ومع ذلك فما زلت اؤمن ان الاغتيال السياسي يطبق الآن على نطاق واسع .

ـ هـل تعني ...

ـ لا اعني شيئا . ولكننا نعدم ونقضي على الشياطين والحثالات والكلاب الغادرة من الجنرالات والاميرالات الذين يخونون الامانة الموكولة اليهم . هؤلاء يجب أن يقضى عليهم ، انهم لا يغتالون . فهل رايت الفرق ؟

ـ اجـل رايته .

ـ ولما كنت اهزل احيانا ، وانت تعرف ما ينطوي عليه الهزل احيانـا من خطورة . اجل لما كنت اهزل احيانا ، فلا تظن اني امزح عندما اقول ان الشعب الاسباني لن يعيش حتى يندم لانه لم يقتل عددا من الجنرالات الذين يتولون القيادة الان . وانا لا احب القتل ، ولعلك تعرف هذا ؟

ـ لا يهمني امرهم . انا لا احبهم ، ولكني لا يهمني امرهم ابدا .

فقال كاركوف ـ اعرف هذا ، فقد اخبرني به بعضهم .

ـ وهل هو على هذا النحو من الاهمية ؟ لقـد كنت احاول ان اكون صادقـا ليس الا .

ـ هذا شيء مؤسف . ولكنه من الامور التي تحمل الناس على اعتبار من يقوم بهذه المحاولة على انه انسان موثوق يركن اليه ، مع انه في ظروف اخرى قد لا يستطيع الوصول الى هذه المرتبة الا بعد لأي وجهد .

ـ وهل من المفروض انني من الموثوقين الذين يركن اليهم ؟

ـ من المفروض انك في عملك من الموثوقين جدا . وعلي ان اتحدث اليك

احيانا لارى ما تمتاز به من مواهب عقلية . ومن المؤسف اننا لا نتحدث ابـدا احاديث جديـة .

ـ لقد توقف عقلي عن التفكير ، في هذه الفترة الى ان نكسب الحرب .

ـ اذن فقد لا تحتاج اليه الى فترة طويلة . ولكن عليك ان لا تهمل تمرينه في هذه الفترة ، مرات قليلة .

ـ انا اقرا العالم الغريـب .

ـ حسنا . . انها نكتة ولكن في هذا العالم الغريب بعض الاشياء الصحيحة الصادقة التي سجلتها وقائع هذه الحرب .

ـ اجل ، انا اتفق معك ، ولكن للحصول على صورة كاملة لـما يقع ، لا تستطيع ان تقصر قراءتك على صحيفة الحزب .

ـ لا .

ـ ولكنك لا تحصل على هذه الصورة اذا قرات عشرين صفحة ، ثم اذا حدث وحصلت على ما تريد ، فلا تدري ما تفعل بهذه الصورة . فانا مثلا، احصل عليها بصورة دائمة ، وكل ما افعله هو انني احاول دائما نسيانها .

ـ او تظن انها على هذا النحو من السوء ؟

ـ انها افضل مما كانت عليه . ونحن الآن نتخلص من بعض الامور التي هي في منتهى السوء . لكن الامور عفنة منتنة ، فنحن نقوم الان ببناءجيش ضخم ، وبعض العناصر من امثال بوديستو والفلاح وليستر وديوران ، موثوقة يركن اليها . اجل انها اكثر من موثوقة . انها رائعة . وسترى ذلك بنفسك . وما زالت لدينا الكتائب ، مع ان الدور الذي كانت تقوم به قد تغير الان . ولكن الجيش المؤلف من عناصر طيبة وسيئة لا يمكن له ان يكسب حربا ، فمن الواجب ان تصل كلها الى مستوى معين من التطور السياسي ، ويجب ان يعرف الجميع لماذا يحاربون ، واهمية هذه الحرب بالنسبة اليهم .اجل يجب ان يؤمن الكل بالحرب التي يخوضونها ، وان يقبلوا بالنظام الذي يفرض عليهم . فنحن نقوم الان ببناء جيش ضخم من

المجندين ، دون ان يتوفر لنا الوقت لتلقين جنود هذا الجيش النظام الذي يجب ان يتوفر فيه ، والطريقة التي يجب ان يسلكها في المعركة . ونحن ندعوه بجيش الشعب ، ولكنه سيظل مفتقرا الى كل « موجودات »الجيوش الشعبية الصحيحة ، والى النظام الفولاذي الذي يتوفر في كل جيش نظامي سترى . انها عملية خطرة جدا .

ـ ارى انك متشائم اليوم .

ـ لا ، لقد جئت لتوي من فالانسيا حيث اجتمعت الى عدد كبير من الناس . ولا يعود الانسان عادة من فالانسيا ، متفائلا . وفي مدريد لا تشع الا بالقوة ، والنظافة وتوقع النصر . اما فالانسيا فشيء آخر . فالجبناء الذين فروا من مدريد ما زالوا هم الحاكمين هناك . وقد هداوا هناك الى بيروقراطية الحكم وترهله . وهم ينظرون الى جماعة مدريد نظرة ازدراء . واللعنة المسيطرة عليهم الان هي اضعاف قوميسارية الشؤون الحربية . وبرشلونه ، يجب ان تراها .

ـ وكيف هي ؟

ـ انها لا زالت مسرحية هزلية . وقد كانت في البداية فردوس المجانين، والثوريين الخياليين . أما الان فقد غدت فردوس الجنود المزيفين ، الذين لا هم لهم الا ارتداء البزات العسكرية والتخطر في الشوارع ، ووضع الاوشحة الحمراء والسوداء على اعناقهم . وهم يحبون كل ما يتعلق بالحرب الا شيئا واحدا وهو القتال . ففالانسيا تحمل الانسان على التقيؤ ، وبرشلونه ترغمه على الضحك .

ـ وما رايك في المحاولة الانقلابية ؟

ـ لم تكن المحاولة الانقلابية جدية . بل كانت هرطقة قام بها المجانين والاشقياء ولكنها لم تكن اكثر من مجرد لعبة صبيانية . وكان بين الذين قاموا بالمحاولة عدد من المضللين الشرفاء . وكان بينهم عقل مفكر واحد ،

وتلقوا بعض الاموال الفاشية ولكنها لم تكن كثيرة . يـا لهـا من حركة فاشلـة سخيفـة .

ــ ولكن هل قتل فى المحاولة الانقلابية عدد كبير من الناس ؟

ــ لم يكن القتلى كثيرون بقدر من قتلوا فيما بعد ، او من ستنفذ فيهم احكام الاعدام . آه هذه الحركة ، انها مثل اسمها لا يمكن ان تحمل على محمل الجد . وكان من الاحرى ان يطلق عليها اسم آخر . كالحصبة او النكاف . ولكن الحصبة شيء خطر . وقد تؤثر على النظر والسمع . ولكنهم تآمروا كما تعرف على قتلي وقتل ولتر ومودیستـو وبريیتو . ارايت الى اي حد بلغت الفوضى عندهم ؟ اننا لسنا متشابهين . يا لها من حركة تافهة لم تستطع ان تقتل احدا ، لا في الجبهة ولا في اي مكان آخر . كل ما استطاعت ان تفعله هو ان تقتل بعض الناس في برشلونه ليس الا .

ــ وهل كنت هنـاك ؟

ــ اجل ، وكنت قد ابرقت اشرح شراسة تلك المنظمة المخزية من القتلة التروتسكيين واساليبهم الفاشية ، وقد ضمنت برقيتي كل احتقـار وازدراء ، ولكن المحاولة كانت سخيفة وتافهة . وكان « نين » الرجل الوحيد فيها ، وقد اعتقلناه ولكنه فر من ايدينا .

ــ واين هـو الآن ؟

ــ في باريس . اننا نقول انه فى باريس . لقد كان رجلا ممتعا ولكنـه يحمل الكثير من الانحراف السياسي .

ــ ولكنهم كانوا على اتصال بالفاشيين ، الم يكونوا علىاتصال ؟

ــ ومـن لـم يتصل بهم ؟

ــ نحن لسنا على اتصال بهم .

ــ ومن يدري ؟ آمل ان لا نكون على اتصال . فأنت تذهب كثيرا الى ما وراء خطوطهم . ولكن شقيق احد سكرتيري سفارة الجمهورية فىباريس

سافر فى الاسبوع الماضي الى سنت جاندي لوز لمقابلة اناس من بيرغوس .

ـ انا افضل الجبهة . كلما كان الناس اقرب الى الجبهة ، كلما كانوا افضـل واحسن .

ـ وما رايك بالوضع وراء خطوط الفاشيين !

ـ على ما يرام ، لدينا الكثيرون من الناس هناك .

ـ ارايت ؟ لا ريب في ان لهم كثيرين من انصارهم ايضا وراء خطوطنا . واذا عثرنا عليهم قتلناهم ، كما انهم اذا عثروا على رجالنا قتلوهم . وعليك ان تفكر عندما تكون في بلادهم ، في عدد الرجال الذين يبعثون بهم الـى مـا وراء خطوطنـا .

ـ لقد فكرت فى هـذا الموضوع .

ـ حسنا ، اعتقد انك فكرت اليوم بما فيه الكفاية . ولذا اشرب الآن ما امامك من جعة ، وهيا امض عنا ، فعلي ان اصعد الى الطابق العلوي لأرى بعض الناس . انهم فى الطابق العلوي ، وعد الي عما قريب .

اجل .. هذا ما فكر به روبرت جوردان .. لقد تعلمت كثيرا فـي جيلورد وقد قرا كاركوف الكتاب الوحيد الذي طبعه . لم يكن الكتاب ناجحا . ولم تتجاوز صفحاته المائتي صفحة .. ولا اعتقد ان اكثر من الفي شخص قد قراوه . فقد ضمنه جميع اكتشافاته في اسبانيا اثناء عشر سنوات من الترحال فيها مشيا على الاقدام او في عربات الدرجة الثالثة او فى سيارات الباص ، او على ظهور الخيل والبغال ، او في السيارات الشاحنة . انه يعرف بلاد الباسك ، ونافـار ، واراغون ، وغاليسيا ، والقشتاليين ، وايسترامادورا خير معرفة . وكانت قـد صدرت عن الموضوع عدة كتب ممتازة وضعها بورو وفورد واضرابهما حتى انه لم يستطع ان يضيف الى ما كتبوه شيئا . ولكن كاركوف ذكر ، بأن الكتاب رائـع .

ولقد قال له كاركوف ذات يوم .. هذا هو السبب الذي يحملني على الاهتمام بك ، فانا اعتقد انك تكتب كتابة صادقة ، وهذا شيء نـــادر الوجود . ولهذا فانا اريد ان تعرف الكثير .

حسنا . سيكتب كتابا جديدا عندما ينتهي من هذه الحرب . ولكـــن الكتاب سيكون مقصورا على الاشياء التي عرفها تمام المعرفة . وقـال يحدث نفسه .. ومع ذلك علي ان اكون مجيدا للكتابة اكثر من الماضي ، لأستطيع تناول هذه المواضيع . فالأمور التي تعلمتها في هذه الحرب ليست على درجة كبيرة من السهولة .

١٩

قالت ماريا تسأله : ماذا تفعل هناك ؟.. وادار لها راسه فراى انها تقف مبتسمـة الـى جانبه .

ـ لا شيء . كنت افكر .

ـ بم كنت تفكر ؟ ابالجسر ؟

ـ لا . لقد تقرر امره . كنت افكر بك ، وبفندق في مدريد اعرف بعض الروس فيه وبكتاب اعتزم كتابته فى يوم ما .

ـ وهل هناك عدد كبير من الروس فى مدريد ؟

ـ لا . ان عـددهم قليـل .

ـ ولكن الصحف الفاشية تقول انهم يعدون بالمئات والالوف .

ـ هذه اكاذيب . فعددهم قليل .

ـ وهل تحب الروس ؟ فالرجل الذي كان معنا هنا ، كان روسيا .

ـ وهـل اعجبـك ؟

ـ أجل . كنت مريضة آنذاك . ولكني اعتقد انه كان جميل الصـورة

وشجاعـا .

وقالت بيلار ــ يا له من سخف . جميل !! كان انفه منبسطا كيـدي هذه ، وكانت عظام وجنتيه بارزة كعظام الغنم .

فقال روبرت ــ لقد كان من خيرة اصدقائي ورفاقي ، وكنت احبه كثيرا

فقالت بيلار ــ حقا . ولكنك قتلته .

وعندما فاهت بهذه العبارة ، توقف لاعبو الورق عن اللعب ، ورفعوا ابصارهم واخذ بابلو ، يتطلع الى روبر تمحملقا فيه . ولم يفه احدهم ببنت شفة ، الى ان وجد الفجري الشجاعة ليوجه السؤال قائلا .. اما تقوله حق يا روبرتـو ؟

ــ اجل .. وود لو ان بيلار لم تثر هذا الموضوع ، ولو انه لم يبح به لها عند ايل سوردو .. ثم استطرد يقول .. اجل .. يطلب منه ، فقد كان جريحا جرحا بالغـا .

وقال الفجري .. كان دائم الحديث عندنا ، عن مثل هذا الاحتمال . ولا ادري كم مرة وعدته باداء مثل هذا الواجب . يا له من شيء غريب .

وقال بريمتيڤو ... كان هو في حد ذاته ، رجلا غريبا فذا .

وقال اندريه .. احد الاخوين . اسمع . انت ايها الاستاذ . اتعتقد ان بامكان الانسان ان يرى ما يخبئه له القدر .

فقال روبرت ، وكان بابلو ، يتطلع اليه بنظرة فيها استغراب وفضول ، وبيلار ترقبه دون ان يبدو على وجهها اي تعبير .. اعتقد ان الانسان لا يستطيع أن يرى مستقبله . اما بصدد هذا الرفيق الروسي ، فقد كـان شديد العصبية من طول المدة التي قضاها في الجبهة . فلقد قاتل في ايرون وكلكم ، تعرفون ما حدث فيها من سوء . اجل كانت معركة سيئة . ثم قاتل في الشمال . ومنذ اللحظة الاولى التي تم فيها تشكيل هذه الوحدات التي تعمل وراء الخطوط ، كان يعمل فيها في ايسترامادورا والاندلس .

وأعتقد انه غدا منهمكا متوتر الاعصاب ، يتصور دائما أشياء بشعة .

وقال فيرناندو ـ لا ريب في انه كان يرى اشياء سيئة كثيرة .

فقال اندريه ـ انه كغيره من الناس . ولكن اصغ الي يا انكليزي . هل تعتقد ان بامكان الانسان ان يعرف مسبقا ما سيحدث له ؟

ـ لا . هذا مجرد جهل وخرافة .

وقالت بيلار ـ وكأنها تتحدث الى طفل نضج مبكرا .. اكمل .. دعنا نسمع راي الاستـاذ .

فقال روبرت ـ اعتقد ان الخوف يوحي بالرؤى السيئة ، كأن يـرى الانسان النذر التي توحي بالتطير ..

وقاطعه بريمتيفو بقوله .. كطائرات اليوم مثلا ..

وقال بابلو برقة .. او كوصولك الينا .

وتطلع روبرت اليه عبر المائدة ، فادرك ، انه لم يقصد بقوله الاستفزاز وانما مجرد التعبير عن فكرة .. ثم مضى يقول .. « وعندما يرى الانسان الخائف ، العلامات والنذر التي يتطير منها ، يأخذ في تصور نهايته ،ويعتقد ان هذا الخيال قد جاء عن طريق الوحي ، وانا لا اعتقد ان الامر يعدو ما قلت . فانا لا اؤمن بالعرافة او الرجم بالغيب او الغيبيات كلها . »

وقال الغجري .. ولكن هذا الرجل ذا الاسم الغريب ، راى نهايته بوضوح ، وهذا مـا تـم فعلا .

ـ انه لم يرها . انما كان يخشى من هذا الاحتمال . واصبحت خشيته هوسا يسيطر عليه . وليس في وسع أحدكم ان يقول ، انه قد راى شيئا ابـــدا .

وقالت بيلار ، وقد التقطت بعض الرماد من النار ، ووضعته في يدها ، ثم نفخته بفمها .. حتى ولا انا ؟ او لا استطيع ان اقول انا شيئا .

ـ حتى ولا انت بكل سحر كوشعوذتك وغجريتك ..

ـ ذلك لانك معجزة من معجزات الصمم . فانت لست بالانسان البليد . ولكنك اصم . والاصم لا يستطيع سماع الموسيقى ، او الانصات الى المذياع ولانه لم يستمع اليهما ، فانه يقول ، ان مثل هذه الامور لا توجد . اليس كذلك يا انكليزي . لقد رايت موت ذلك الرجل ذي الاسم الغريب في وجهه، وكأنه موسوم عليه بقطعة من الحديد الملتهب .

فقال روبرت مصرا على رايه ـ كلا انك لم تر ، موته ، وانما رايت خوفه وقلقه ، وقد نجم الخوف عن المحن التي مر بها . اما القلق فمن احتمال وقوع الشر الذي تصوره .

فردت بيلار .. لا لقد رايت الموت يجثم هناك بوضوح وكأنه يجلس على كتفيه . واكثر من هذا لقد شممت رائحة الموت .

شممت رائحة الموت ؟ لعلك شممت رائحة الخوف . فللخوف رائحة .

ـ اسمع . عندما كان بلانكيت ، وهو اكبر العرافين ، يعمل تحت امرة غرانيرو ، قال لي انه في يوم موت مانولو غرانيرو المصارع المشهور ، كانت رائحة الموت تنبعث من الصباح . فعندما توقفا في الكنيسة في طريقهما الى الحلبة ، كانت رائحة الموت من العنف والشدة بحيث احس بلانكيت بالحاجة الى التقيؤ . ولقد كان مع مانولو عندما استحم وارتدى ملابسه في الفندق، قبل المضي الى الحلبة . ثم اختفت الرائحة في السيارة عندما جلسا ملتصقين في الطريق . ولم يحس بالرائحة في الكنيسة الا خوان لويس دي لاروزا ، اما المساعدان الاخران وهما مارسيال وشيكوكو فلم يحسا بها . وقال لي بلانكيت ، انه راى وجه خوان لويس شاحبا فقال له .. وهل شممت الرائحة ايضا ؟ فقال خوان .. اجل حتى انني لا استطيع ان اتنفس فقال بلانكيت .. ليس في وسعنا ان نعمل شيئا سوى الامل بان نكون مخطئين .. وفي نفس ذلك اليوم قضى الثور على مانولو غرانيرو وحمله على قرنيه قاذفا به الى الحاجز امام الجماهير النظارة في مدريد . وقد كنت هناك مع فينيتو .

فقال فيرناندو ــ ولكن هل شممت شيئا ؟

ــ لا . كنت بعيدة . فقد كنا في الصف السابع . ولكنني كنت في موقف الذي يستطيع أن يرى كل شيء . . وبلانكيت هذا ، الذي انتقل الى خدمة جوسيليتو فيما بعد ، ابلغ فينيتو ، بالقصة في فورنوس مستشهدا بخوان لويس دي لاروزا الذي ايد القصة تمام التأييد . كنت حاضرة وسمعت كل شيء . ومن هذا يبدو يا انكليزي انك اصم ، ولا تسمع بعض الامور ، أو لا تشمها مثل مارسيال وشيكولو . ولكن خوان لويس وبلانكيت لم يكونا اصمين . وانا لست بالصماء .

وقال فيرناندو ــ ولماذا تطلقين عليه لفظ الصمم بينما هو امر يتعلق بالانــف .

ــ يجب ان تكون انت الاستاذ بدلا من الانكليزي . . ولكن في وسعي يــا انكليزي ان احدثك عن امور اخرى ، وعليك ان لا تشك فيها لمجرد انك لا تستطيع أن ترى او تسمع . فانت لا تستطيع ان تسمع ما يسمعــه الكلب ، ولا تستطيع ان تشم ما يشمه الكلب ايضا . وانت حتى الآن ؛ لم تمر ، الا بالقليل من التجارب التي تمر بالرجل عادة .

ووضعت ماريا يدها على كتف روبرت جوردان ، وارختها هناك ، وخيل اليه ان من الواجب ان يضع حدا لكل هذه السخافات وان يغتنم فرصة الوقت المتبقي ليعمل شيئا . ولكن الوقت ما زال مبكرا ، ويجب قضاء هذا الشطر من الليل بأي شكل من الاشكال . . ولذا فقد التفت الى بابلو قائلا . . وهل تؤمن انت بهذه الشعوذة ؟

فقال بابلو . . لا ادري . انني اميل الى رايك . ولم يحدث لي حتى الآن اي شيء غريب او غيبي . ولكنني اعرف بلانكيت هذا ، فقد كان رجلا في منتهى الجد والتقوى . وهو ليس بالغجري ، وانما هو بورجوازي من اهل فالانسيا . او لم تجتمع اليه ؟

ــ أجل لقد رايته عدة مرات . انه رجل قصير ، ابيض الوجه ، يحسن

الضرب براسه . وسريع في العدو كالأرنب .

وقالت بيلار .. تماما ، لقد كان له وجه شاحب بسبب بعض المشاكل التي يعانيها في قلبه ، وكان الغجر يقولون انه يحمل الموت معه في ثيابه ولكنه يستطيع ان يطرحه جانبا كما يقذف الانسان بالغبار عن المائدة . ومع ذلك، فانه . وهو ليس بالغجري ، اشتم رائحة الموت في جوسيلينو عندما حارب في تالافيرا . ولا ادري كيف ان هذه الرائحة تدفقت الى انفه اكثر من رائحة الخمر . وقد تحدث بلانكيت عن هذا الامر فيما بعد ، ولكن الذين استمعوا الى حديثه قالوا عنه انه مجرد خيال ، وان ما شمه لم يكـن الا الحياة التي كان يعيشها جوزيه آنذاك . خارجة مع العرق ، من تحت ابطيه ثم جاءت قصة مانولو غرانيرد التي اشترك فيها ايضا خوان لويس دي لاروزا . ومن الواضح ان خوان لويس لم يكن رجلا كثير الاحترام ، ولكنه شديد الاحساس في عمله وكان ايضا زير نساء . اما بلانكيت ، فرجل كثير الجد والهدوء ، ولا يعرف الكذب . وانني لاقول لك انني شممت رائحة الموت في زميلك الذي كان هنا

وقال روبرت .. انا لا اصدق هذا ، وقد قلت ان بلانكيت شم نفس الرائحة قبل مصارعة الثيران . وقد نجحتم انتم وكاشكين في قضية القطار ولكنه لم يقتل فيها . فكيف كان في وسعك ان تشمي الرائحة آنذاك وهو لـــم يقتـــل ؟..

فردت بيلار موضحة .. لا شأن لهذا بالموضوع . ففي الدورة الاخيرة التي اشترك فيها اغناسيو سانشيز ميجياس ، كانت رائحة الموت تنطلق منه بقـوة حتى ان الكثيرين رفضوا الجلوس معه . وقد عرف جميع الغجـر هذه الحقيقة .

فقال روبرت .. تخترع هذه الروايات بعد ان يموت الانسان . فكل فرد كان يعرف ان سانشيز ميجياس كان في طريقه الى الموت اذ انه كان يفتقر الى التدريب منذ امد طويل ، ولان اسلوبه كان ثقيلا وخطرا ، ولان قوته والمرونة في ساقيه كانتا قد ذهبتا ولم تكن انعكاساته على ما كانت عليه .

ـ طبعا ، كل ما تقوله صحيح . ولكن جميع الغجر كانوا يعرفون ان رائحة الموت تنبعث منه ، وعندما وصل الى « فيلا الزهور » رايت اشخاصاً من امثال ريكاردو وفيليب غونزاليس ، يغادرون المكان من الباب الخلفي ، وراء البـــار .

ـ ربما كانوا مدينين له ببعض المال .

ـ هذا ممكن . ممكن جدا . ولكنهم شموا رائحة الموت ، وكلهم عرفوا هـذه الحقيقـة .

وقال رافائيل الغجري ـ ان ما تقوله هو الحقيقة يا انكليزي . وكلنـا نعرف هذه الأمور .

ـ انـا لا اصدق شيئا منها .

ـ وقال انسيلمو ـ اسمع يا انكليزي . . انا ضد السحر والشعوذة ، ولكن بيلار هذه مشهورة بتقدمها في مثل هذه الامور .

وقال فيرناندو متسائلا . . ولكن ما هي رائحة الموت ؟ اية رائحة له ؟ اذا كانت له رائحة ، فانها يجب ان تكون معروفة ومحدودة .

وقالت بيلار وهي تبتسم ـ او تريد ان نعرف يا فيرناندو ؟ او تظن ان في وسعك ان تشمهـا ؟

ـ اذا كانت موجودة حقا ، فلم لا استطيع ان اشمها كما يشمها الاخرون؟

ـ وقالت بيلار ، وهي تسخر به . . ولم لا ؟ اسبق لك ان استقللـت باخرة يـا فيرناندو ؟

ـ لا . ولا اريد ان اركب متون البحر .

ـ اذن فلن يكون في وسعك ، ان تميزها . اذ أن جزءا من الرائحة ، يشبه تلك التي تهب على باخرة ما عندما تكون هناك عاصفة . وتغلق جميع كوات

الباخرة ، فاذا وضعت انفك في درفة احدى هذه الكوات ، وكانت الباخرة تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ،فانك تحس ، بنوع من الاغماء والخواء في معدتك ، وتشم شيئا من هذه الرائحة .

ـ اذن سيكون من المستحيل علي ان اتعرف الى هذه الرائحة ، لانني لن استقل اية باخرة .

وقالت بيلار ـ اما انا فقد ركبت البواخر عدة مرات عندما كنت اسافر الى المكسيك وفنزويلا .

وقال روبرت متسائلا .. وما هو الجزء الباقي من هذه الرائحة ؟..

وتطلعت اليه بيلار هازئة ، وقد تذكرت الان باعتزاز رحلاتها البحرية . وقالت : اسمع يا انكليزي .. حسنا ، تعلم . هذا هو الموضوع . بعد ان تشم رائحة الباخرة ، عليك ان تهبط التل من مدريد ، الى ساحة طليطله في الصباح ، وتقف على الرصيف الرطب من الضباب ، وتنتظر رؤية النساء العجائز ، وهن في طريقهن قبل الفجر لشرب دماء الحيوانات التي تم ذبحها وعندما تبصر باحدى هاته النسوة وقد التفت بوشاحها ، وشحب وجهها وغارت عيناها ، وبدت غضون السن وتجعداته على وجهها ، وذقنها ، فعليك ان تطوقها بذراعك يا انكليزي وان تضمها الى صدرك ، وتقبلها في فمها ، وآنذاك تعرف الشطر الباقي من تلك الرائحة .

فقال الفجري .. لقد تقززت نفسي من هذا الوصف .

وقالت بيلار تسأل روبرت .. أو تريد ان تسمع اكثر ؟.

ـ اجل ، اذا كان من الضروري ان نتعلم ، فلنتعلم .

فقال الفجري ـ لا تتحدثي يا بيلار ، عن تلك الشقوق في وجه العجائز . فلم تتشقق وجوه النساء عندما يشخن . ولا يحدث لنا هذا .

فقالت بيلار تهزا به .. لا ، انها تحدث لنا معشر النساء اللائي كن في

شبابهن رقيقات الاجسام ، ولكنها لا تحدث طبعا ، بالنسبة للغجريات الحوامل ، اللائي يدفعن بطونهن امامهن دليلا على رضى ازواجهن ..

فقال رافائيل .. لا تتحدثي على هذا النحو المعيب يا بيلار ..

ـ اذن فقد استأت . هل رايت في حياتك غجرية ليست على وشك الوضع؟

ـ انست .

ـ دعك من هذا . فليس هناك ، من لا يتألم . وما اردت قوله هو ان السن يأتي بصورة القبح الى الجميع . ولا ارى لي حاجة الى الافاضة والاسهاب . اما اذا اراد الانكليزي ان يتعلم تلك الرائحة التي يشكك بوجودها ، فعليه ان يذهب الى حيث قلت في الصباح الباكر .

فقال روبرت ـ سأذهب . ولكني سأشم الرائحة عندما يمررن بي دون حاجة الى القبل . انني اخشى الاخاديد والشقوق في الوجه .

فقالت بيلار ـ قبل واحدة يا انكليزي ، بقصد التعلم ، ثم عد وهذه الرائحة في انفك الى المدينة ، وعندما ترى وعاء فيه بعض الازاهير الميتة اغرق انفك في هذه الازاهير واستنشق بعمق ، حتى يختلط الاريج الجديد بالرائحة الموجودة في انفك .

ـ ولو فرضنا انني قمت بذلك ، فأي نوع من الازاهير هي ؟

ـ الاقحوان .

ـ اكملي ، ولو فرضنا انني شممتها .

ـ حينذاك ، من المهم ان يكون اليوم من ايام الخريف الماطرة ، او التي يكثر فيها الضباب على الاقل ، او في مطلع الشتاء ، وآنذاك . عليك ان تواصل السير في المدينة ، وان تشم كل ما تستطيع شمه من روائح عندما يكنسون الشوارع ، او يجمعون القاذورات من امام البيوت ، واذا ما

مزجت هذه الروائح . بالماء والصابون ورائحة اقماع السكائر ، مضيت الى حديقة يوتانيكو ، حيث تواصل الفتيات اللائي عجزن عن مزاولة العمل في البيوت . عملهن مع الرجال ، على الابواب الحديدية او الاسوار او الممرات فترى العديد منهن ينفذن كل ما يطلبه الرجل من رغبات جامحة ويتناولن اجرا على ما يعملنه يتراوح من عشرة سنتات الى بيزيتا ، مقابل العمل الرئيسي الذي خلقنا نحن معشر النساء لتنفيذه ، وذلك على اكوام مـن الزهور الميتة التي اجتثت من مكانها ، واعيد وضعها في الارض في مكـان آخر ، لتكسبها ليونة ونعومة . وتجد كمية هائلة من الروائح العبقة مـن الارض الندية والزهور الميتة ، وأعمال الحب . وفي هذه الروائح تستطيع ان تشم تلك الرائحة التي تشير الى موت انسان وولادة آخر . وحاول ان تشم تلك الرائحة شما عميقا بعد ان تدفن راسك في تلك الروائح .

ـ لا .

ـ اجل . عليك ان تدفن راسك وان تستنشق بعمق . اذا كنت لم تفقد الروائح التي سبق لـك جمعها ، وآنذاك ستشم رائحة المـوت القادم كمـا نعرفها نحن .

ـ حسنا . وانت تقولين ان كاشكين ، كانت تنبعث منه رائحة الموت عندما اتى الـى هنا .

ـ اجـل .

ـ حسنا ، اذا صح ما تقولين ، فان من الخير اني قد قتلته .

وهتف الفجري ، وضحك الآخرون .

وقال بريمتيفو مستحسنا .. حسن جدا . لا ريب ان هذا سيحملها على التفكير بعض الوقت .

وقال فيرناندو ـ ولكن يا بيلار ، لا ريب انك لا تتوقعين من انسان مثقف كالدون روبرتو ، ان يفعل كل ما طلبت اليه فعله .

ـ طبعـا لا .

ـ لان كل ما قلته يبعث التقزز في النفس .

ـ اجـل .

ـ وبالطبع ، لن تتوقعي منه ان ينفذ كل هذه الاعمال المشينة ؟

ـ لا . اذهب الى فراشك . . الا تذهب .

ـ ولـكن يـا بيلار . .

ـ اغلق فمك . . ولا تحاول ، ان تجعل من نفسك اضحوكة ، وسأحاول ان لا اجعل من نفسي اضحوكة في الحديث الى اناس لا يفهمون ما يقال لهم

فقال فيرناندو ـ انا اعترف انني لا افهم .

فقالت بيلار ـ لا تعترف ولا تحاول الفهم . اما زال الثلج يتساقط في الخارج .

ومضى روبرت الى مدخل الكهف ورفع الستار . كان الثلج قد توقف عن الهطول وان كان الطقس ما زال شديد البرودة . وتطلع الى جذوع الاشجار حيث تراكمت الثلوج ، والى السماء الصافية . واخذ نفسا عميقا مـن الهواء البارد .

وخيل اليه ان ايل سوردو سيترك الكثير من الاثار التي تدل عليه ، اذا كان قد سرق عددا من الجياد تلك الليلة .

واسدل الستار وعاد الى الكهف الذي يغمره الدخان وهو يقول . . السماء صافية . فقد هدات العاصفة .

٢٠

واستلقى في فراشه ، في ظلمة الليل ، واخذ ينتظر مجيء الفتاة اليه ، وقد توقفت الرياح ، وهدات اشجار الصنوبر عن الحركة .واخذت جذوع الاشجار تبرز امامه من الثلج الذي يغطي جميع الارض ، واحس بلين الفراش ، ودفئه فمد رجليه ، بينما كان الهواء البارد يهب على راسه ، وانفه . واحس تحت راسه بكومة الملابس التي جمعها ليجعل منها وسادة ، والى جانبه يقبع مسدسه الاوتوماتيكي الضخم.الذي اخرجه من قرابه ووضعه الى جانبه شادا اباه الى رسغه الايمن . وازاح المسدس بعيدا عنه واخذ يرقب عبر الثلوج ، مدخل الكهف . وكانت السماء صافية ، والنور المنعكس على الثلج كافيا لرؤية جذوع الاشجار ، وكومة الصخور التي يقوم الكهف تحتها .

وكان في ساعة مبكرة من المساء ، قد حمل الفأس ، ومضى الى خارج الكهف ماشيا فوق الثلج ، الى حافة الفرجة القائمة بين الاشجار فقطع شجرة صغيرة من التنوب . وسحب الشجيرة التي اقتطعها في وهدة الدجى الى ان وصل بها الى الجدار الصخري ، ثم اوقفها ممسكا بجذعها بثبات بيد واحدة ثم اخذ يقتطع باليد الاخرى جميع فروعها واغصانها الى ان صنع منها كومة عالية . وعاد ثانية الى الكهف لياتي بقطعة من الخشب كان قد رآها مرتكزة الى الجدار . وتمكن بواسطة هذه القطعة

من ازاحة الثلوج عن الارض التي اقام فوقها سريره فوق الاغصان التي اقتطعها ، بعد ان ثبت قوائمه في الارض .
وحمل الفأس وقطعة الخشب عائدا بهما الى الكهف فسمع بيلار تسائله ... مـاذا تعمل في الخارج ؟

ـ عملت سريـرا لي .

ـ ولكن لا تقتطع اجزاء من وقّي الخشبي لتقيم سريرك .

ـ آسـف .

ـ لا اهمية لذلك . فهناك الواح خشبية في الطاحونة . اي نـوع من الأسرة اقمت ؟

ـ من النوع الذي نقيمه في بلادي عادة .

ـ اذن نـم فيه مرتاحا .

واراد ان يحمل الكيسين الى الخارج ، فقالت له بيلار .. في وسعهما ان يظلا في رعايتي تماما كليلة الامس .

ـ او لا تريدين ان تبعثي بالحرس . فالليل صاف وقد انتهت العاصفة.
ـ سيذهب فيرناندو .

وكانت ماريا في مؤخرة الكهف ، فلم يستطع ان يراها .
ـ اذن طبتم مساء جميعا .. فانا ذاهب الى النوم .

وكان الباقون يهيئون الفراش الذي سينامون فيه على الارض قرب الموقد ، فتطلع اليه بريمتيفو واندريه وقالا : اسعدت مساء .

اما انسيلمو ، فكان قد اغفى في زاوية ، بينما نام بابلو على مقعده .

وقالت بيلار .. اوتريد جلدا لسريرك .
ـ لا . شكرا . لست في حاجة اليه .
ـ اذن نم جيدا ، وسأعني باشيائك .

وخرج فيرناندو معه ، حيث وقف لحظة واحدة في المكان الذي اعد

روبرت سريره فيه وقال .. ان فكرتك غريبة في النوم في العراء يا دون روبــرتو .

ـ انا متعود على هذا الشكل . اسعدت مساء .

ـ مـا دمت متعودا عليه ..

ـ ومتى تنتهي نوبتك ؟

ـ في الرابعــة صباحـا .

ـ ستشبع بردا ،من الآن حتى الرابعة .

ـ لقد تعودت عليــه .

وقال روبرت بدماثة .. ما دمت متعودا عليه ..

ـ اجل ، يجب ان امضي الآن الى مركزي . مساء الخير ، يا دون روبرتو

ـ مساء الخير يا فيرناندو .

ودخل روبرت في فراشه ، واحس بالدفء وبحركة الاغصان تحته واخذ يرقب مدخل الكهف ، عبر الثلوج ، وهو يكاد يستمع الى نبضات فؤاده .

كان الليل صافيا ، واحس بصفاء نكري يشبه صفاء الهواء وبرودته . وشم رائحة اغصان الصنوبر تحته . واخذ يفكر ببيلار ، ورائحة الموت التي حدثته عنها . وقال هذه الرائحة هي التي احبها ، رائحة الاغصان التـي اقتطعت حديثا ، كما احب رائحة الشواء والاخشاب التي تحترق .ورائحة اوراق الخريف التي تلتهمها النيران . لا ريب في انها رائحة الحنين الـى الاوطان التي تملأ انفه .. واخذ يسائل نفسه .. اية رائحة تفضل يـا ترى ؟ اتفضل رائحة الاعشاب الحلوة التي يستخدمها الهنود في سلالهم ؟ او هل تؤثر رائحة الجلد المدخن ، او رائحة الارض في الربيع بعد المطر او رائحة البحر وانت تسير على الشاطىء في غاليسيا ، او الريح عندمـا تقترب الى الساحل في كوبا ؟ انها رائحة ازهــار الصبار ، او الميموزا او اعشاب البحر . وقد تؤثر ان تشم رائحة شواء شرائح الخنزير في الصباح والجوع يعصر احشاءك ، او رائحة القهوة في الصباح ، او تفاحة تقضمها او الشمبانيا وهي تعصر او الخبز يخرج طازجا من الفرن . وقال لنفسه .. لا ريب في انك جائع .. ثـم استلقى على جانبه ومضى يرقب مدخل

الكهف ، على ضوء اشعة النجوم المنعكسة على الثلج .

ورای شبحا يخرج من الكهف ، ويقف بين الصخور التي تؤلف المدخل. ثم سرعان ما سمع صوتا غريبا ورای ذلك الشبح ، يعود فيدخل الــى الكهــف .

واخذ يفكر ، انها لن تأتي ، قبل ان ينام الجميع . ولعله يضيع وقته ، فقد مضى نصف الليل . آه ، يا ماريا ، تعالي الي سراعا الآن . تعالي يـا ماريا فالوقت قصير . وسمع صوت كومة من الثلج تسقط من فوق احد الاغصان على الارض . وارتفعت الريح . واحس بها تعصف في وجهه . واحس فجاة بهلع شديد من انها قد لا تأتي . وذكره ارتفاع الرياح ، بان الصباح قد اوشك على المجيء . وتساقطت الثلوج من الاوراق العالية على الارض مع هبوب الريح .

تعالي ، يا ماريا ، ارجوك تعالي بسرعة ، اجل تعالي الي لا تنتظري . فليس من ضرورة لانتظ رك حتى يناموا جميعا .

ورآها تخرج من وراء الستارة التي تغطي باب الكهف . ثم ابصر بهـا تتوقف لحظة لا يدري ما كانت تعمله فيها . وصفر لها بفمه صفيرا خفيفا ناعما ، ولكنها ظلت في مدخل الكهف ، لا يدري ما تصنعه في ظل الصخور المظلمة . ثم رآهـا ، تركض متجهة اليه ، وهي تحمل شيئا في يديها . وسرعان ما كانت الى جانبه ، فقد دفنت راسها في صدره ، وهي تقذف بالثلج عن قدميها . وقبلته ، ثم اعطته الرزمة التي تحملها .

وقالت . . ضعها في وسادتك . لقد اتيت بها من الداخل انقاذا للوقت .

ـ وهل جئت حافية القدمين في الثلج ؟

ـ اجل ، ولا البس الا قميص عرسي .

وضمها بعنف اليه ، واخذت تفرك راسها في ذقنه . وقالت . . لا تلمس قدمي ، انهما باردتان يا روبرتو .

ـ ضعيهما هنـا ، ليدفئا .

ـ لا ، سينتقل اليهما الدفء سريعا . ولكن قل لي بسرعة الآن انك تحبني

ـ احبك .

ـ حسنا . حسنا . حسنا .

ـ احبك ، يا ارنبتي الصغيرة .

ـ وهل اعجبك قميص عرسي ؟

ـ انه نفس الـرداء .

ـ اجل . انه الذي كنت ارتديه ليلة امس . فهو قميص عرس .

ـ ضمي قدميك هنا .

ـ لا . هذا معيب . انهما ستدفآن وحدهما . انني احس بدفئهما . وكان الثلج وحده ، هو الذي جعلك تشعر ببرودتهما . قل ثانية .

ـ احبك . يـا ارنبتي الصغيرة .

ـ وانا احبك ، وانا زوجتك .

ـ وهل ناموا ؟

ـ لا . ولكني لم استطع الاحتمال مدة اطول . واية اهمية فى ذلك ؟

ـ لا اهمية مطلقا ، ما دمت‌انت الى جانبي .

ـ ضع يديك على راسي . ودعني ارى اذا كان في وسعي ان اقبلك .. وقبلته ثم قالت .. هل كانت قبلة رائعة ؟

ـ اجل . اخلعي قميص عرسك .

ـ او من الضروري ان اخلعه ؟

ـاجل ، اذا كنت لا تحسين بالبرد .

ـ اية برودة !!.. انني اكاد التهب .

ـ وانا احترق . ولكن ، الن تحسي بالبرد فيما بعد ؟

ـ لا ، فسنغدو فيما بعد معا كحيوان الغاب ، وسنكون قريبين من بعضنا الى الحد الذي لا يستطيع الانسان ان يميز بيننا . او ليس في وسعك ان

تشعر ان قلبي قد غدا قلبك ؟

ـ اجل ، لا فرق بينهما .

ـ اذن فاشعر . انا انت .. وانت انا ، وكلانا واحد . وانا احبك.. آه. انا احبك للغاية . أو لسنا شخصا واحدا ؟ الا يمكنك ان تشعر بهذا ؟

ـ اجل ، انني اشعر به .

ـ اذن فانت لا قلب لك الا قلبي .

ـ ولا يدين ولا رجلين ، ولا جسم .

ـ ولكننا مختلفان . وكنت أفضل ان نكون متشابهين .

ـ انك لا تعنين ما تقولين .

ـ بل اعنيه . اعنيه . هذا امر اود ان احدثك به .

ـ انك لا تعنينه ..

ـ قد لا اعنيه ، ولكنني احببت قوله . ولما كنا مختلفين ، فانا سعيدة لانك روبرتو ولأني ماريا . ولكن اذا راق لك التغيير ، فكم يسعدني ان نتبادل . انني احب ان اكونك ، لانني احبك كل الحب .

ـ انا لا احب التغيير ، ومن الخير ان يظل الانسان كما هو .

ـ ولكننا سنكون شيئا واحدا ، ولن يفرق بيننا شيء . وساكون انت عندما لا تكون انت موجودا . آه ، كم احبك ، ولذا علي ان اعني بك .

ـ ماريا !

ـ نعم .

ـ ماريا !

ـ نعم .

ـ ماريا !

ـ نعم .. من فضلك .

ـ هل تحسين ببرد ؟

ـ لا . . ارفع الغطاء فوق كتفيك .

ـ ماريـــا !

ـ لا استطيع الكلام .

ـ آه . ماريا ! ماريا . .! ماريا . .!

ورقدت هادئة سعيدة بين ذراعيه ، وقد التصقت به تشعـــر بدفء الفراش ، امام برد الجو القارص . . وقالت . . وانت ؟

ـ وهـــل اتيـــت ؟

ـ اجل . ولكن ليس كبعد الظهر .

ـ لا .

ـ ولكنني كنت سعيدة كل السعادة . فلا حاجة الى الموت كل مرة .

ـ لا . ارجو . لا .

ـ لـــم اعن ذلـــك .

ـ اعرف ما تعنينه . فنحن نعني شيئا واحدا .

ـ اذن لم خالفتنـــي ؟

ـ يختلف الرجل عن المراة .

ـ اذن يسعدني اننا مختلفان .

ـ وانا كذلك . ولكنني فهمت عن الموت ، كما يفهم الرجـــل . امـــا الاحساس والشعور ، فلا اختلف فيه عنك .

ـ مهما فكرت . ومهما قلت ، فهذا ما اريدك ان تكونه .

ـ وانا احبك ، واحب اسمك يا ماريا .

ـ انـــه اسم شائع .

ـ لا . انـــه ليس شائعا .

ـ الا ننام الآن ؟ في وسعي ان انام بسهولة .

ـ دعينا ننام . واحس بالجسم الطويل الناعم : دافئا بقربه ، يبعث في نفسه السعادة ويطرح عنها شعور الوحدة ، من مجرد لمسة من كتف ، او مسة من قدم . ويتحالف معه على الموت .. وقال .. نامي يا ارنبتي الصغيرة .

ـ لقد نمت فعلا ..

ـ وسانام انا . نامي يا حبيبتي .

واغمض عينيه ، ونام وادعا هانئا سعيدا .

وافاق في الليل ، وضمها بقوة اليه ، وكانها كل ما له في هذه الحياة . وانها ، توشك ان تمضي عنه . اجل ضمها ، وكانها الحياة نفسها ، الحياة الحقيقية التي يريدها . ولكنها كانت نائمة نوما عميقا ، ولم تستيقظ . فانكفا الى جانبه ، ورفع الغطاء فوق راسها ، وقبلها في عنقها . ثم رفع المسدس ووضعه الى جانبه في متناول يده ، واضطجع في وهدة الليل وهو يفكر .

٢١

وهبت ريح دافئة مع طلوع الصباح ، وسمع صوت ذوبان الثلوج ، على اوراق الاشجار ، وهي تتهاوى الى الارض . كان يوما من ايام الربيع المتاخر وادرك عندما سحب اول نفس عميق ، ان الثلج ، كان عاصفة موقوتة في الجبال ، وانه سيذوب قبيل الظهر ، وسمع وقع حوافر جواد على الثلج، يركض خببا . وسمع صوت غدارة تتأهب للانطلاق . .

وقال . . ماريا . . وهو يهزها من كتفها ليوقظها . . ماريا ، اخفي راسك تحت الغطاء ، وسرعان ما زرر قميصه بيده ، وحمل مسدسه باليد الاخرى وراى راس الفتاة يختفي ، ثم ابصر ، بالفارس يقترب من وراء الاشجار . وامسك بالمسدس بيديه وصوبه الى الرجل الذي لم يكن قد رآه من قبل .

كان الفارس يقف امامه الآن تقريبا ، وقد استقل جوادا اشهب ضخما ، وعلى راسه قبعة من الخاكي ، وفي قدميه حذاءان اسودان ثقيلان . وظهرت من جانب السرج فوهة بندقية اوتوماتيكية . وكان وجهه فتيا وقاسيا ، وفي هذه اللحظة لمح روبرت جوردان .

ومد يده يريد التقاط البندقية ، وابصر روبرت بالاشارة الرسمية التي

يحملها على الجانب الايسر من قميصه ، فصوب مسدسه الى صدره ، واطلق النار ...

وانطلقت الرصاصة داوية فى الغابة الملأى بالثلوج .. وهوى الحصان ، وانزلق الرجل الى الارض وقد ظلت رجله معلقة فى السرج . واندفع الحصان مهرولا وهو يجر الرجل الذي اخذ راسه يصطدم بالارض ، ووقف روبرت جوردان ، وهو يحمل مسدسه في يده . ومضى الحصان مهرولا بين الاشجار ، بينما اندفع الجمع خارجين من الكهف . وتناول روبرت سرواله وبدأ يلبسه . وقال لماريا .. البسي ..

وسمع ازيز طائرة تحلق على ارتفاع عال . وراى عبر الاشجار ، المكان الذي توقف فيه الحصان . بينما كان فارسه ، لا يزال معلقا من رجله في السرج ، ووجهه على الارض .

وقال لبريمتيفو .. امضي فامسك الجواد .. ثم قال ..ومن كان يتولى الحراسة في المرتفع ؟

فقالت بيلار من الكهف .. رافائيل .. وكان شعرها لا يزال منسدلا على كتفيها .

وقال روبرت .. في المكان فرسان .. هيا اخرجوا مدفعكم اللعين .

وسمع بيلار تهتف الى داخل الكهف .. اوغسطين !.. ودلفت الى الداخل وسرعان ما راى رجلين يندفعان منه وقد حمل احدهما البندقية الرشاشة على كتفه ، بينما حمل الآخر كيسا مليئا بالامشاط .

وقال روبرت لانسيلمو .. امضي معهما . وانبطح قرب المدفع الرشاش وامسك برجليه .

واندفع الرجال الثلاثة في الطريق الممتد عبر الغابة ، يصعدون الجبل . ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد على قمم الجبال . ووقف روبرت ، يزرر

بسرواله ، ويثبت حزامه ، وقد تدلى المسدس الضخم من وسطه . ووضع المسدس في قرابه ، بعد ان اعاد رصاصة جديدة اليه ، بدل الرصاصة التي انطلقت منه .

وتطلع عبر الاشجار ، الى حيث يقف بريميتيفو وقد امسك بعنان الجواد واخذ يخرج ، قدم الفارس من الركاب ، بينما كان لا يزال يبحث في جيوبه فقال له .. هيا .. هات الجواد .

وانحنى روبرت يلبس حذاءه ، واحس بماريا عند ركبتيه وهي ترتدي ملابسها في السرير . انها لم تعد الآن جزءاً من حياته .

وخيل اليه ان ذلك الفارس لم يكن يتوقع شيئا . انه لم يكن يسير فى الطريق ، التي تطرقها الخيل عادة ، ولم يكن حذرا . او متخذا احتياطاته . ولا ريب في انه ينتمي الى دورية متفرقة في الجبال . ولكن عندما ستفتقده الدورية ستلحق باثره . الى هنا الا اذا ذاب الثلج اولا . والا اذا حدث شيء للدورية ثانيا .

وقال لبابلو – من الخير ان تهبط من هنا الى الاسفل .

وكان الجميع قد خرجوا من الكهف الآن وقد حملوا غداراتهم وقنابلهم اليدوية . ورفعت بيلار كيسا من القنابل اليدوية لروبرت فاخذ ثلاثا منها وضعها في جيبه . ودلف الى الكهف ففتح احد الكيسين ، واخرج البندقية نصف الاوتوماتيكية وتناول عددا من المعتاد لها ، وضع بعضه فيها والباقي في جيبه ، ثم اغلق الكيس وخرج من الكهف .. وقال لبابلو .. سأصعد الى المرتفع . افي وسع اوغسطين ان يطلق ذلك المدفع الرشاش ؟

فقال بابلو وهو يرقب بريميتيفو يسحب الجواد .. اجل .. انظروا ما اجمل هذا الجواد .

وكان الحصان يرتعد بعض الشيء ، فربت روبرت على رقبته .. وقال بابلو .. سأضمه الى باقي الجياد .

فقال روبرت .. لا . لقد ترك اثارا تقود الى هذا المكان يجب ان نمسحها

وقال بابلو ـ حقا .. سأمتطيه ، واخفيه في مكان ثم اعود به بعد ان يذوب الثلج . انك وافر التفكير اليوم يا انكليزي .

فقال روبرت .. ابعث واحداً الى الاسفل . اما نحن فعلينا ان نصمد .

ورد بابلو ـ لا ارى ضرورة ، فالفرسان لا يستطيعون الصعود من الاسفل ولكن في وسعنا ، ان نمضي من هناك ، ومن مكانين آخرين . ومن الافضل ان لا نترك اثاراً لا سيما اذا كانت الطائرات ستأتي .. اعطني يا بيلار ، زمزمية املأها بالخمر .

فقالت بيلار ـ لتسكر بها . خذ هذه بدلا منها .. ومد يده واخذ قنبلتين يدويتين وضعهما في جيبه . ثم قالت .. ما معنى ان اسكر .. ان الوضع خطر . ولكن اعطني زمزمية . فانا لا اريد ان اعيش على الماء .

وارتقى صهوة الجواد ، وربت على رقبته . ورآه روبرت يحك ساقه على جناح الجواد بحب وعطف . وقال بابلو .. هيا .. كلما اسرعنا كان افضل واجدى . ومد يده واخرج البندقية الاوتوماتيكية الخفيفة الموضوعة في جيب السرج وقال انظروا .. تسلحهم . هذا سلاح الفرسان العصري .

فقال روبرت .. ان منظر الفرسان العصري يتراءى في وجهه .

ـ امض يا اندريه ، فاسرج الجياد ، ولتكن على استعداد . واذا سمعت صوت عيارات نارية ، فسر بها الى الغابة القائمة وراء المضيق . تعال بذراعيك ودع النساء يمسكن بالجياد . اما انت يا فيرناندو ، فاحمل الكيسين ، وكن رفيقا بهما شديد العناية . اما انت يا بيلار ، فعليك ان تعني بالكيسين ايضا . وان تتأكدي من انهما سيلحقان بنا مع الجياد .. هيا فلنذهب .

وقالت بيلار .. سأستعد انا وماريا للذهاب .. ثم قالت لروبرت وهي

تشير ألى بابلو الذي يستقل صهوة الجواد .. انظر اليه . لقد بدله الجواد تمـام التبديـل .

فقال روبرت بحماس ـ كنت اود ان يكون لي جوادان .

ـ ان الخطـر جوادك .

ـ اذن اعطني بغلا .. وقال لبيلار، وهو يشير براسه الـى الرجـل المنكفىء على وجهه في الثلج .. انزعي عنه هذه . وانزعي من جيبه كل ما فيها من اوراق ورسائل ، وضعيها في الكيس . كل شيء . افهمت .

ـ اجـل .

ومضى بابلو في المقدمة ، يتبعه الرجلان ، كل على انفراد ، لئلا نتركا اثرا مشتركا على الثلج ، وحمل روبرت البندقية نصف الاوتوماتيكية مـــن مقبضها . وود لو ان نفس العتاد الذي يصلح لبندقية الفارس يصلح لها . ولكنه لا يصلح لها . فهذه بندقية المانية ، وكانت لكاشكين .

وبدات الشمس تشرق الآن على قمم الجبال . وبدات ريح دافئة تهب . واخذ الثلج في الذوبان . لقد كان صباحا رائعا من ايام الربيع المتاخر .

والتفت روبرت وراءه ، فراى ماريا تقف الآن مع بيلار .. ثم جاءت تركض على الطريق وراءه ، فتأخر وراء بريمتيفو ليحدثها .

وقالت .. انت .. هل استطيع ان آتي معك ؟

ـ لا ، ساعدي بيـلار .

وسارت وراءه ووضعت يدها على ذراعه .

ـ سآتي معـك .

ـ لا .

ولكنها ظلت تسير خلفه .

فقالت ـ في وسعي ان امسك بقائمتي المدفع الرشاش ، على النحو الذي

امـرت بـه انسيلمو .
ـ لن تمسكي اية قوائم ، لا قوائم مدفع ولا قوائم اي شيء آخر .

وسارت بجانبه ، ومدت يدها في جيبه .

فقال لها .. لا .. ولكن انتبهي الى قميص عرسك .
ـ اذن قبلني .. اذا كنت ذاهبا .
ـ اجل .. كل القبل .. اما الآن فعودي . هناك عمل كثير . وقـد نضطر الى القتال هنا اذا اقتفوا اثر الجواد .
ـ اسمع ، ارايت ما كان يلبسه على صدره ؟
ـ اجل . ولم لا ؟
ـ كـان يضـع القلب المقدس
ـ اجل . جميع سكان نافار يحملونه .
ـ وهل اطلقت النار على القلب ؟
ـ لا . تحته . عودي الآن .
ـ اسمع ، لقد رايت كل شيء .
ـ لم تر شيئا . كل ما رايته رجلا على جواد . ارجعي الآن .
ـ قـل انك تحبني .
ـ لا . ليـس الان .
ـ الا تحبنـي الآن ؟
ـ اوه . ارجعي الان ، ان الانسان لا يقوم بكل هذه الاعمال ويحب في نفس الوقـت .
ـ اريد ان امضي معك ، وان امسك بقوائم المدفع ، وعندما يتكلم المدفع اريد ان احبك في نفس اللحظـة .
ـ انك مجنونة . ارجعي الآن .
ـ انا لست بمجنونة . ولكني احبك .

ـ اذن عـــودي .

ـ حسنا ساعود . واذا كنت لا تحبني ، فان حبي لك بكفينا معا .

ونظر اليها وابتسم وهو في خضم افكاره . ثم قال .. وعندما تسمعين صوت اطلاق النار ، تعالي مع الجياد ، وساعدي بيلار في حمل الاكياس . من المحتمل ان لا يقع شيء ، وهذا ما آمله .

ـ ساعود . انظر الجواد الذي يمتطيه باباو .

وكان الجواد الاشهب يسير حثيثا على الطريق .

ـ اجل ولكــن عودي .

ـ انــا عائدة .

والتصقت يدها بجيبه . وضربت على فخذه . ورأى الدموع تنهمر من عينيها . واخرجت يدها ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وقبلته .

ـ انا ذاهبة ، انا ذاهبــة .

ونظر وراءه ، فرآها ما زالت واقفة ، وقد انعكست اشعة الشمس الاولى على وجهها الاسمر ، وعلى شعرها المقصوص . ورفع يده باتجاهها فاستدارت وعادت من حيث اتت ورأسها خفيض الى الامام .

وتطلع بريمتيفو خلفه ، ونظر اليها . وقال .. لو لم يقصوا شعرها على ذلك النحو لكانت فتاة رائعة الجمال .

وقال روبرت وهو يفكر في شيء آخر .. اجل .

وقال بريمتيفو يسأله .. وكيف هي في الفراش ؟

ـ مــــاذا ؟

ـ فــــي الفراش ؟

ـ أغلــق فمــك

ـ على الانسان ان لا يسىء عندما ...

فقال روبرت .. دع عنك هذا الحديث ..

٢٢

قال روبرت جوردان لبريمتيفو .. اقتطع لي بعض اغصان الصنوبر ، واتيني بهـا بسرعة .. ثم التفت الى اوغسطين وقال .. لا يعجبنـي موضع المدفع الرشاش هناك .

ـ ولـم ؟

ـ ضعه هناك ، وساخبرك فيما بعد .

وقال وهو يساعده .. هنا .. هنا .. اجل هنا ..

وتطلع عبر المضيق الضيق ، ملاحظا ارتفاع الصخور على جانبيه ثم قال .. يجب ان يكون على مسافة ابعد . اجل هنا . هذا مكان مناسب موقتا له ، الى ان نعثر له على مكان افضل . اجل ضع الحجارة هنا . خذ هذا حجر . ضع حجرا آخر على هذا الجانب . واترك مكانا للفوهة لتدور . ابعد الحجر من هذا الجانب يا انسيلمو . انزل الى الكهف وآتني بفاس بسرعة . ثم قال يسال اوغسطين .. أو لم يسبق لكم ، ان وضعتم المدفع الرشاش في مكان مناسب ؟

ـ نضعه دائمـا هنـا .

ـ او لم يقل لكم كاشكين ابدا ان تضعوه هناك ؟

ـ لا ، ان المدفع الرشاش لم يصلنا الا بعد ذهابه .

ـ او لم يكن الذي اتى به يعرف استعماله ؟

ـ لا ، فقد كان الذين اتوا به من الحمالين .

ـ يا لها من طريقة في تنفيذ الامور . اذن فقد سلم اليكم دون اية تعليمات ؟

ـ تماما كما تعطى الهدية . مدفع لنا ومدفع لايل سوردو . جاء بهما اربعة من الرجال كان انسيلمو يدلهم على الطريق .

ـ لا ريب في انها معجزة ، ان المدفعين قد تمكنا من المرور عبر الخطوط مع الرجال الاربعة .

وقال اوغسطين ـ وقد استغربت انا نفسي من ذلك . فقد خيل الي ان من بعثوا بالمدفعين ارادوا لهما الضياع ، ولكن أنسيلمو كانْ بارعا في عمله .

ـ اتعرف كيف تتصرف بالمدفع ؟

ـ اجل . فقد جربته ، ونجحت . وبابلو يعرف ايضا ، وكذلك بريمتيفو وفيرناندو . وقد درسنا تجزئته كله . ثم اعدنا تركيبه على المائدة في الكهف . ومرة فككناه ، ولم نستطع اعادة تركيبه الا بعد يومين . ومنذ ذلك الحين ، لم نجرؤ على اعادة التجربة .

ـ وهل هو صالح للاطلاق الآن ؟

ـ اجل ، ولكننا لا نسمح للفجري او الاخرين بان يمسوه .

ـ ارايت ؟ لقد كان هناك ، لا نفع فيه مطلقا . انظر . ان هذه الصخور التي يجب ان تحمي جناحيك كان من المقدر ان تكون صالحة لتغطية من يهاجمك . فبمثل هذا المدفع ؛ عليك ان تبحث عن منبسط لاطلاق النار . ثم عليك ان تأخذ مهاجميك من الناحية الجانبية . ارايت . انظر الان . انه يسيطر على كل ناحية .

ـ اجل لقد رايت . ولكننا لم نشترك قط في اية حرب دفاعية الا عندما احتلت مدينتنا . اما في القطار ، فقد كان الجنود هم الذين يحملون الرشاش

ـ اذن فسنتعلم معا ، وعلينا ان نلاحظ اشياء معينة . واين هو الفجري الذي كان يجب ان يكون هنا ؟

ـ لا ادري .

ـ ايـن يمكن ان يكون ؟

ـ لا ادري .

وكان بابلو ، قد مر عبر المضيق ، ثم مضى بجواده يسير فى دائرة عبر المنبسط الذي كان واقعا تحت هدف المدفع الرشاش . ورآه روبرت الان وهو يهبط المنحدر ، على نفس الاثار التي كان الجواد قد تركها فى الارض، عندما مر من المكان بفارسه للمرة الاولى ، ثم اختفى وراء الاشجار بعد ان استدار ناحية الشمال .

وقال روبرت جوردان يحدث نفسه ـ آمل ، ان لا يقع فى ايدي الفرسان. وهو يكثر من التجوال على هذه الصورة .

وجاء بريميتيفو يحمل كومة من اغصان الصنوبر وثبتها روبرت فى الثلج ، تحت الارض غير المتجمدة ، واضعا اياها على شكل قوس فوق المدفع .. ثم قال .. آتنا باغصان اخرى .. يجب أن تكون التغطية شاملة للرجلين اللذين يطلقان النار من المدفع . وبالطبع هذه التغطية ليست متقنة ،ولكنها تنفع الى أن يصل الفاس . واذا سمعتم اي صوت ؛ فانطرحوا حيث انتم بين الصخور او فى ظلالها . اما انا فسأظل مع المدفع الرشاش .

وكانت الشمس قد ارتفعت الآن في كبد السماء واخذت الريح الدافئة تهب ؛ وكان المكان الذي تشرق الشمس فيه على الصخور ممتعا .. وبدا روبرت يفكر .. انها اربعة جياد . وهناك المراتان وانا وانسيلمو وبريميتيفو وفيرناندو واوغسطين ؛ والأخ الآخر .. آه لقد نسيت اسمـه ! . اذن فالمجموع ثمانية . وهناك الفجري ؛ أذن تسعة . وهناك بابلو وقد مضى مع احد الجياد فالمجموع عشرة .. آه أن اسم الأخ اندريه .. واخـــوه ايلاديو .. اذن فالمجموع عشرة . وهذا يعني اقل من نصف حصان لكل فرد . في وسع ثلاثة رجال الاحتفاظ بهذا الموقع . ويمضي الخمســة

الباقون ومعهم بابلو مع الجياد . يظل هناك رجلان . . بل ثلاثة مع ايلاديو فايــن هــو بحق الجحيم ؟

ولا يعرف الا الله ، ماذا سيقع لسوردو اليوم اذا تابعوا اثار الجياد في الثلج . ولا ريب في ان سقوط الثلج قد عقد الامور ، ولكن ذوبانه اليوم ، سيعيد الامور الى نصابها الصحيح . ولكن لا بالنسبة الى سوردو ، فان ما اخشاه ، ان يكون الوقت قد تأخر لاصلاح الوضع بالنسبة لسوردو .

واذا تمكنا من الصمود اليوم ، دون ان نضطر الى خوض المعركة فقد ننجح فى الموضوع كله غدا ، بما يتوفر لدينا من رجال وعتاد . اجل فى وسعنا ان نقوم بالمهمة . وقد لا يكون اتمامنا لها على الوجه الصحيح ، او كما كان يجب ان يكون ، ولكن العملية ستتم حتما . كل ما نحتاج اليه ان لا نحارب اليوم . اما اذا حاربنا اليوم ، فليكن الله فى عوننا .

ولا اعرف مكانا نستطيع ان نقيم فيه الآن خيرا من هذا . واذا تحركنا الان فكل ما نفعله اننا سنترك آثارا تدل علينا . وليس هذا المكان بأسوأمن سواه ، اما اذا ساءت الامور الى اقصى حد ممكن ، فهناك ثلاثة سبــل للخلاص من هذا المكان ، وعلينا على كل حال ان ننتظر حلــول الظلام ، وحيثما كنا في هذه الجبال ، كان في وسعي ان اصل الى الجسر لانسفه عند الفجر . ولا ادري ما الذي اقلقني حول هذا الموضوع فى البداية . ان الموضوع سهل للغاية . وكل ما آمله ان تصل الطائرات في الوقت المناسب. اجل هذا كل ما آمله . فغدا ، يوم سينتشر فيه الغبار على الطريق .

اما اليوم ، فاما ان يكون من الايام الممتعة أو البليدة . ولنشكر الله ، ان تلك الفئة من الفرسان ، قد مضت بعيدا عن هذه الناحية . ولا اعتقد مع ذلك انهم لو جاءوا فسيسيرون على الطريق المعهودة . انهم سيعتقدون ان زميلهم توقف ودار على نفسه ، ثم يتابعون اثر بابلو . ولا ادري اين ذهب الخنزير العجوز . لا ريب انه سيكون ماهرا في اخفاء الاثر . ولا ريب في

ان ذلك الجواد ، صنع له المعجزات . على كل حال ، عليه ان يعني بنفسه، وهو خبير بهذه الامور منذ امد طويل . اما انا فلا استطيع الركون اليه .

افترض ان من الاجدر استخدام هذه الصخور بدلا من بناء مكان ثابت لها . فقد تضطر الى الحفر ، ثم يأتون فيمسكون بك او تأتي الطائرات فتراك . وفي وسع هذه الصخور ان تكون صالحة لاستخدام المدفع الرشاش ، يضاف الى هذا انني لن استطيع البقاء هنا لمواصلة القتال ؛ فعلي أن اغادر المكان مع متفجراتي ، وسآخذ انسيلمو معي . ومن يستطيع البقاء هنا لحمايتنا ونحن نمضي لاداء المهمة ؟

وفجأة راى الغجري يندفع من وراء الصخور . وكان يسير سيرامتراخيا وئيدا ، وقد وضع غدارته على ظهره ، وقد حمل في يديه ارنبين .

وهتف مرحا .. هولا .. روبرتو .

ووضع روبرتو يده على فمه موعزا له بالصمت ، وتوقف الغجري ذاهلا. وحبا وراء الصخرة الى المكان الذي كان يقبع فيه روبرت قرب المدفع الرشاش . وتطلع اليه روبرت وقال بنعومة .. اين كنت عليك اللعنة ؟

ـ تبعت أثر الارنبين ، وامسكت بهما على الثلج وهما يمارسان عمل الحب .

ـ ومركزك ؟

ـ لم اغب عنه طويلا . هل وقع شيء .

ـ هناك فرسان يطوفون بالجبال .
يـا للجحيم ، وهل رايتهم ؟.

ـ هناك احدهم عندنا في المعسكر ، جاء يتناول افطاره ..

ـ ظننت انني سمعت صوت عيار ناري . هل جاء من هنا .

ـ اجل من هنا . عبر مركزك .

ـ يا لي من رجل مسكين تعيس الحظ .

ـ لو لم تكن غجريا لقتلتك .

ـ لا يا روبرتو ، لا تقل هذا . انا اسف . الذنب ذنب الارنبين . سمعت صوت الذكر ، قبيل الفجر ، يركض على الثلج . لا تستطيع ان تتصور الحالة التي وجدتهما عليها . ومضيت نحو الصوت ، ولكنهما كانا قد مضيا وتبعت اثرهما على الثلج ، ثم وجدتهما معا فذبحتهما . ارايت ما اثقلهما . تصور ما تستطيع بيلار أن تفعله بهما . انا اسف يا روبرتو . آسـف كأسفك . وهل قتل الفارس ؟

ـ اجـل .

ـ وانت قتلتـه ؟

ـ نعـم .

ـ لا ريب في انك ظاهرة غريبة حقيقية .

ـ اذهب الى المعسكر ، وخذ الارنبين معك ، وهات لنا شيئا ناكله .

ثم وضع يده على الارنبين وقال . . حقا ان فيهما لحما كثيرا .

ـ لحم كثير . . لم ارَ في حياتي ما يضاهيهما بدانة .

ـ اذن امضِ وعد مسرعا بالفطور ، واطلب من بيلار بعض الوثائق التي اعطيتها لهـا .

ـ ارجو ان لا تكون غاضبا مني يا روبرتو .

ـ انني لست بغاضب . ولكنني ثائر لانك تركت مركزك . افترض انهم كانوا جماعة من الفرسان .

ـ يا للشيطان ! حقا انك عاقل .

ـ اسمع . ليس في وسعك ، أن تترك مركزك مرة ثانية . ابدا . وانا لا اكون هازلا عندما اتحدث عن القتل .

ـ طبعا لا . ثم شيء آخر . ان فرصة الارنبين لن تحل ثانية ، انها لـن تقع ثانية في حياة اي انسان .

ـ هيـا ، وعد بسرعة .

والتقط الفجري ارنبيه ومضى بين الصخور ، وتطلع روبرت عبر المضيق الى المنحدر العميق . وطاف غراب فوق راسه ثم هبط على احـــدى الاشجار . وطاف غراب ثان وهبط قرب رفيقه ، وتطلع روبرت اليهما بهدوء وقال لنفسه : هذان حارساي . وما داما هادئين ، فهـذا يعنـي ان كـل شيء هادىء .

وهذا الفجري ، لا ريب في أنه لا يصلح لشيء مطلقا . فهو غير متطور سياسيا ، ولا يحس بأي نظام ، وليس في وسع الانسان ان يتكل عليه بأي شيء من الاشياء . ولكنني في حاجة اليه غداً . وفي امكاني ان استخدمه غدا . ومن الغريب حقا أن تجد غجريا يشترك في حرب . اذ من الواجب ان يستثنوا منها كالمارضين عن وعي وادراك ، أو كالناقصين عقليا او بدنيا فهم لا يصلحون لشيء . لكن المعارضين وعيا لم يستثنوا من هذه الحرب التي لم يستثن منهااحد وانما دهمت الجميع بصورة متساوية . وها هي تواجه الآن مثل هذا « الطاقم » المتكاسل .

وعاد اوغسطين وبريميتيفو ، يحملان مجموعة كبيرة من الاغصان الصغيرة وسرعان ما اقام روبرت ستارا واقيا للمدفع الرشاش ، ستارا يقيه من الرؤية من الجو ، ويبدو طبيعيا للناظر اليه من الغابة . وبين لهما اين يجب ان يقف الرجل منهما عاليا في الصخور الى اليمين ، بحيث يتمكن من رؤية جميع المنطقة الواقعة امامه الى اليمين واين يقف الى اليســار بحيث يسيطر على المنبطح الواقع تحت الصخور الشاهقة .

وقال روبرت .. لا تطلق النار ، اذا رايت شخصا ياتي من هذه الناحية واشار الى اليسار ، وانما دحرج صخرة صغيرة كانذار ، واشر لنا هكذا ببندقيتك .. ورفع البندقية فوق راسه . واغمل هذه الاشارة بالنسبة الى عدد الرجال حركة من البندقية لكل رجل ، واذا كانوا مشاة فوجه فوهة البندقية الى الارض . وهكذا لا تطلق النار من مكانك الا اذا سمعت نا رالمدفع الرشاش . وعندما تطلق النار من مكان عال ، صوب على ركبتي الخصم . واذا سمعتني اصفر بهذه الصافرة مرتين ، فاهبط مختفيـا وراء الصخور ، وتعال ، الى مكان المدفع الرشاش .

قال بريمتيفو وهو يحمل البندقية .. لقد فهمت انها اشارة بسيطة .

ـ ارسل اولا الصخرة الصغيرة كانذار .. وبين الاتجاه والعدد وتأكد من ان احدا لا يـراك .

فقال بريمتيفو .. حسنا .. واذا تمكنت من قذف قنبلة ؟

ـ لا تقذف شيئا قبل ان تسمع صوت الرشاش . فقد يحاول الفرسان المجيء بحثا عن رفيقهم ولا يحاولون الدخول . وقد يقتفون اثر بابلو .نحن لا نريد خوض المعركة اذا تمكنا من تجنبها فعلينا ان نحاول كل سبيل لتجنبهـا . والان هيا الى مكانك .

وقال بريمتيفو .. حاضر .. ثم مضى يتسلق الصخور حاملا غدارته .

وقال روبرت .. وانت يا اوغسطين .. اتعرف شيئا عن المدفع ؟

ـ اعرف تعبيمه ، وتحديد الهدف ، واطلاق النار ولا شيء غير هذا .

ـ عليك ان لا تطلق النار ، الا اذا اصبحوا على بعد خمسين مترا واصبحت متأكدا من انهم سيأتون الى الممر المؤدي الى الكهف .

ـ اجل .. وعلى اي مدى يقع هذا ؟

ـ عند تلك الصخرة .. واذا كان معهم ضابط ، فاقتله اولا ، ثم ادر النار على الآخرين . وتحرك ببطء ، فالحركة بسيطة . وسأعلم فيرناندو ، كيف يملؤه لك . وامسك بالمدفع بشدة حتى لا يقفز من يديك . وحاول ان لا تطلق اكثر من ست طلقات في كل مرة . لان نيران المدفع تميل الـى الارتفاع . ولذا وجه هدفك كل مرة الى رجل ثم انتقل منه الى اخر . واذا كان هدفك فارسا ، فاستهدف بطنه .

ـ حسنـا .

ـ ويجب ان يمسك انسان بقوائم المدفع ، لئلا يقفز هكذا . ويقوم هو في نفس الوقت ، بوضع العتاد فيه .

ـ واين ستكون انـت ؟

ـ هنا الى اليسار على الصخور ، حيث استطيع ان ارى وان احمـي جناحـك الايسر بهذا المدفع الاوتوماتيكي الصغير . سأقف هنا . فـاذا

جاءوا امكننا ان نقيم مذبحة . ولكن لا تطلق النار حتى يقتربوا من المكان الذي حددته لـك .

ـ اعتقد اننا سنقيم مذبحة .

ـ ولكنني ارجو ان لا يأتوا .

ـ لو لم يكن ثمة موضوع الجسر . لذبحناهم هنا ومضينا عن هذهالجبال

ـ ان مثل هذه المذبحة لا تؤدي الى شيء ، ولا تحقق غرضا . اما الجسر فجزء من خطة عامة للفوز بالحرب . اما مثل هذه المذبحة فشيء عارض ليس الا . شيء لا قيمة له .

ـ ماذا تعني لا شيء ؟ ان كل فاشي يقتل ، يعني نقص فاشي في المعركة

ـ أجل ، ولكننا عن طريق الجسر قد نحتل سيغوفيا ، وهي عاصمة مقاطعة . فكر بهذا . ستكون اول عاصمة نحتلها .

ـ اتؤمن بهذا حقا ؟ اتعتقد اننا سنتمكن من احتلال سيغوفيا ؟

ـ اجل . ان احتلالها ممكن ، اذا نسف الجسر بطريقة صحيحة .

ـ اود ان تقع المذبحة هنا ، وان ننسف الجسر ايضا .

ـ يبدو ان شهيتك مفتوحة تماما .

وكان روبرت يرقب الغرابين طيلة الوقت . ورای ان احدهما كان يرقب شيئا ، ثم نعق وطار . اما الثاني فقد ظل في مكانه على الشجرة . وتطلع روبرت الى المكان الذي يقف فيه بريميتيفو فوق الصخور فرآه يرقب الارض تحته دون ان يعمل اية اشارة . ومد روبرت يده ففتح القفل عن المدفع الرشاش ، وتأكد من تعبئته . كان الغراب لا يزال على الشجرة امـــا الثاني ، فدار دورة واسعة فوق الثلوج ثم عاد الى مكانه . وكانت الثلوج تتهاوى من اوراق الاشجار تحت وطأة اشعة الشمس والريح الدافئة .

وقال روبرت . . لقد اعددت لك مذبحة صباح غد . فمن الضروري ان نزيل من الوجود ، المركز الموجود عند الطاحونة .

انـا مستعد .

ـ وكذلك المركز الثاني عند الكوخ تحت الجسر .

ـ انا على استعداد لهذا او ذاك او لكليهما معا .

لن يمكنك ان تقوم بالعمليتين في آن واحد . اذ انهما يجب ان تتما في وقـت واحـد .

ـ اذن فعلي ان اكون بأمن منهما . كم وددت ان اقوم بعمل في هـذه الحرب منذ امد طويل . وقد أصبحنا اقرب الى التعفن بفضل بابلو وكسله

ووصل انسيلمو يحمل الفأس .. وقال يسأله .. اتريد اغصانا اخرى ، يبدو لي ان التعمية اصبحت رائعة .

ـ لا أريد اغصانا ، وانما اريد شجرتين صغيرتين نزرعهما هنا وهناك حتى يبدو المكان طبيعيا اكثر فاكثر . وليس ثمة أشجار كثيرة هنا تجعله يبدو طبيعيـا .

ـ سآتـي لـك بشجرتين .

ـ اقطعهما جيدا من جذعهما ، حتى لا يبدو الجذع .

وسمع روبرت صوت الفأس يقطع فى الغابة الواقعة خلفه . ونظر الى بريميتيفو فى مكانه المرتفع فوق الصخور ، والى اشجار الصنوبر في الاسفل عبر الفرجة . ما زال احد الغرابين فى مكانه ، وسرعان ما سمع هدير أول طائرة تقترب . فرفع راسه الى السماء ، ورآها تحلق على ارتفاع عال ، وهي تلمع بلونها الفضي فى اشعة الشمس . وكأنها لا تكاد تتحرك ..

وقال لاوغسطين .. لا تستطيع هذه الطائرة ان ترانا ، ومع ذلك فمن الخير ان ننبطح . هذه طائرة الاستطلاع الثانية اليوم .

ـ وما شأن طائرات الأمس ؟

ـ لقد مرت كحلم سيء .

ـ لا ريب فى انها كانت قادمة من سيفوفيا . فالحلم السيء ينتظر دوره هناك ليصبح حقيقة .

واختفت الطائرة عن النظر الآن : فوق الجبال ، وان كان هديرها لا يزال يسمع .

وعندما رفع روبرت راسه ، راى الغراب يطير ، من مكانه دون ان ينعق

٢٣

همس روبرت جوردان في اذن أوغسطين ان اهبط الى الارض ، ثم اشار بيده الى انسيلمو طالبا اليه الهبوط ، وكان هذا ، يندفع خارجا من الفجوة وهو يحمل شجرة صنوبر على كتفه وكأنها شجرة عيد الميلاد . وراى الرجل يلقي بشجرته وراء صخرةثم يختفي عن النظر وراء الصخور ، واخذ روبرت يتطلع الى الفراغ القائم باتجاه الغابة ، فلم ير شيئا ولم يسمع شيئا ، ولكنه احس بخفقان فؤاده ، وسرعان ما سمع حجرا يضرب على حجر . وابصر بصخرة صغيرة تتهادى . وأدار راسه الى اليمين ورفع عينيه ، فراى بندقية بريمتيفو ترتفع وتنخفض بشكل افقي اربع مرات . ولم يعد يرى شيئا الا الارض البيضاء امامه وقد بانت عليها اثار الجياد تحلق في دائرة ، والاشجار تمتد وراءها .

وقال هامسا في اذن اوغسطين .. الفرسان .

وتطلع اوغسطين اليه : واتسعت عيناه وهو ينظر اليه . وراى روبرت ان العرق يتصبب من الرجل . فمد يده ووضعها على كتفه . وكانت يده لا تزال في موضعها عندما رايا الفرسان الاربعة يخرجون من الغابة ، وشعر

بعضلات اوغسطين تنكمش تحت راحته .

كان احد الفرسان يتقدم رفاقه الثلاثة وهو يتابع اثر الجواد ويتطلع الى الارض . وجاء الثلاثة الآخرون وراءه وقد انتشروا على شكل مروحة عبر الاشجار . كانوا يقتفون الاثار بعناية . واحس روبرت بفؤاده يخفق بعنف وهو منبطح ، يراقبهم من وراء المدفع الرشاش .

ومضى الفارس المتقدم فى الطريق الى النقطة التي دار فيها بابلو ثـم توقف . واقترب منه الثلاثة الباقون وتوقفوا .

ورأى روبرت جوردان ، وجوههم بوضوح ، وبنادقهم الاوتوماتيكية ، والجياد التي تصبب العرق منها ؛ وملابس النافاريين العسكرية التـي يرتدونها . وادار القائد جواده مباشرة الى الفجوة القائمة فى الصخور حيث اقيم المدفع الرشاش ، ورأى روبرت وجهه الفتي الذي لفحته الشمس ، وحاجبيه المقوفين وانفه الذي يشبه انف الصقر وذقنه الطويلة .

واشار القائد بيده الى الفجوة التي وضع فيها المدفع ، وغرز روبرت كوعيه فى الارض وتطلع من وراء فوهة المدفع الى الرجال الاربعة وقد وقفوا بجيادهم فوق الثلج . وكان ثلاثة منهم يحملون بنادقهـم الاوتوماتيكية بايديهم . اما الرابع ، فقد وضعها في جيب السرج .

واخذ روبرت يحدث نفسه ، انه لم يرهم قط على هذا الشكل ، ومن مثل هذه المسافة القريبة ، لقد رأى الكثيرين منهم في الماضي ولكن مـن مسافات بعيدة . ولم يحدث قط ان رآهم في هذا الشكل الا في القطارات .. ووضع يده على الزناد الآن ، وقال ستموت انت فى هذه اللحظة ، وسيموت رفيقك والثالث والرابع ، وكلكم في شرخ الشباب . ولكن حسنا تفعلون لو وفرتم على انفسكم هذه الميتة . اجل وفروها على انفسكم .

واحس باوغسطين الى جانبه وقد جاءته نوبة من السعال . ولكنه سيطر عليها وخنقها ثم ابتلعها . وسرعان ما رأى قائد المفرزة يستدير بفرسه

مشيراً الى الغابة التي مضى فيها بابلو ، ومضى الفرسان الاربعة خبباً في ذلك الاتجاه .

وتطلع روبرت الى المكان الذي القى انسيلمو بشجرته فيه بين الصخور ، وابصر بالفجري ، رافائيل ، يخرج منها وهو يحمل بيديه كيسين مضفورين من القماش وقد وضع بندقيته على ظهره . فاشار اليه روبرت بالاختفاء ، وسرعان ما اختفى .

وقال اوغسطين بهدوء .. كان في وسعنا ان نقتل الرجال الاربعة .. وكان العرق لا يزال يتصبب منه .

فهمس روبرت .. اجل . ولكن يعلم الله ، ماذا كان سينتج عن اطلاق النار . وسمع صوت صخرة ثانية تسقط ، وتطلع حوله ، فراى ان الفجري وانسيلمو قد اختفيا عن النظر . وتطلع الى ساعته ، ثم رفع راسه ، وراى بريميتيفو يرفع بندقيته ويخفضها في اشارات قصيرة لا تنتهي . لقد سبقهم بابلو بخمس واربعين دقيقة . وسرعان ما سمع روبرت صوت مجموعة من الفرسان تقترب .

وهمس يقول لاوغسطين .. لا تخشَ شيئاً ، سيمرون كما مر الاخرون

وراى عشرين فارسا يتقدمون ، يسيرون مثنى متقدمين من الغابة وهم يرتدون نفس الملابس ، وسلاحهم نفس السلاح ، وسرعان ما انكفأوا في نفس الطريق الذي مشى فيه الآخرون .

وقال روبرت جوردان .. ارايت ؟

ـ كان عددهم كبيرا هذه المرة .

ـ كان علينا ان نصطدم بهؤلاء ، لو قتلنا الاربعة الاول .. واحس بفؤاده يهدا الآن ، وبالقميص وقد تبلل على صدره من الثلج الذائب . واحس بفراغ ..

كانت الشمس مشرقة ، وقد اخذ الثلج في الذوبان بسرعة .

ورفع روبرت عينيه الى بريمتيفو ، فلم ير اية اشارة ، وانما وقف هادئا

وارتفع راس انسيلمو من وراء احدى الصخور ، فأشار اليه روبرت ان ينهض من مكانه . واخذ الرجل العجوز يقفز من مكان الى اخر حتى وصل الى جانب المدفع وقال .. انهم كثيرون .

ـ لم نعد بحاجة الى الاشجار . فقد انتهينا من التعمية . ومن الخطر ان نقوم بزراعة الاشجار الآن ، فقد يعود هؤلاء الرجال .. وبالطبع هـم ليسوا شديدي الغبـاء .

وقال .. على كل حال ، كانت التعمية ناجحة .

فقال اوغسطين .. اجل ، وعلى الفاشيين تنصب اللعنة . كان في وسعنا ان نقتل اربعة منهم . ارايت يا انسيلمو ؟

اجل لقـد رايت .

وقال روبرت لانسيلمو ـ عليك ان تذهب الى مركزك امس أو اي مركز جيد آخر تختاره وان تراقب الطريق . وتنقل لي ما يقع عليها من حركات كالامس . وقد تاخرنا كثيرا حتى الآن . ابقَ في مكانك حتى يهبط الظلام. ثم تعال فنرسل آخر يحل محلك .

ـ وماذا افعل بالآثار التي اتركها ؟

ـ انزل من الطريق الاسفل عندما يذوب الثلج . وبالطبع ستكون الطريق مغطاة بالوحول من الثلوج الذائبة . ولا خطر ، اذا كانت على الثلج آثار سيارات كثيرة أو دبابات . هذا كل ما بوسعنا ان نفعله حتى تأخذ محلك لمـراقبة الطريق .

ـ اتسمح لـــي ؟

ـ بالتأكيـد .

ـ اتسمح لي ان ابدي رايا ؟ الا ترى ان من الافضل لو ذهبت انـا الى

لاغرانجا لاستفهم عن السيارات التي مرت ليلة امس . كما ادبر امر ارسال من يراقب الطريق اليوم بدلا مني على غرار ما علمتنيه بالامس . وفي وسع هذا الرجل ان يعود اليك بتقريره الليلة ، بينما استطيع انا ان امضي ثانية الى لاغرانجا لآتي بالتقرير .

ــ اولا تخش ان تقابل الفرسان في طريقك ؟

ــ انا لا اخافهم اذا ذاب الثلج .

ــ وهل هناك في لاغرانجا من يستطيع اداء هذه المهمة ؟

ــ اجل . لهذه المهمة فقط . انها امراة . ان ثمةَ عددا كبيرا من النساء الموثوقات في لاغرانجا .

وقال اوغسطين ــ انا اصدق ما يقول . بل واعرفه ، واعرف الكثيرات اللائي يمكن استخدامهن في اهداف اخرى . اتريد مني ان اذهب الى هناك؟

ــ لا ، دع الرجل العجوز يذهب . فانت تعرف كيف تطلق المدفع الرشاش . ولم ينته النهار بعد .

ــ سأذهب فور ذوبان الثلج . وها هو الثلج يذوب بسرعة .

وقال روبرت يسأل اوغسطين .. ما رايك ؟ هل يستطيعون القبض على بابلو ؟

ــ ان بابلو في منتهى الذكاء . وهل في وسع الصيادين الامساك بوعل حكيم دون استخدام كلاب الاثر ؟

ــ احيانا .

اما بابلو فلا . ولو انه الآن ، نفاية ما كان عليه . ولكن هذا يفسر لك سبب بقائه سعيدا وحيا في هذه الجبال ، قادرا على ان يثمل حتى الموت، بينما مات كثيرون غيره .

ــ وهل هو ذكي كما يقولون ؟

ـ انه اذكى ممـا تتصوز .

ـ ولكن لم تبدِ عليه اية كفاءة هنا .

ـ لو لم يكن كفؤًا لمات ليلة امس . يبدو لي انك لا تفهم السياسة ايها الانكليزي ، ولا تعرف شيئا عن حرب الانصار . ففي السياسة وحـرب الانصار ، ان اهم ما يحتاج اليه الانسان هو الاستمرار فى البقاء . انظر كيف استطاع أن يستمر فى الوجود ليلة امس ، على الرغم من الاهانات الكثيرة التي تلقاها مني ومنك .

وشعر روبرت بالامتعاض من الحديث عن بابلو ، على هذا النحو ، لا سيما وان الرجل ، قد عاد الى العمل فى الحركة . فقد كان هو يدرك تمام الادراك ما عليه بابلو من ذكاء . اذ كان بابلو ، هو الذي ادرك على التو ، ما ينطوي عليه امر تدمير الجسر من اخطاء . وقد انبعثت ملاحظته عـن كراهية ، ولكنها كانت في محلهـا تماما . فقد كانت جزءاً من حديث طويل بعـد اجهاد ..

ونظر روبرت الى انسيلمو وقال .. وهل ستذهب الـى لاغرانجا في وضح النهـار ؟

ـ لا بأس في ذلك ، وبالطبع لن تعزف امامي جوقة موسيقية .

ـ وقال اوغسطين .. ولن يحمل جرساً في عنقه ، او يحمل راية في يده.

ـ وكيـف ستذهب ؟

ـ سأصعد واهبط في الغابة الى ان اصل .

ـ ولكن اذا وقعت فى أيديهم ؟

ـ معـي اوراقي .

ـ كلنا نحمل اوراقا مثلك . ولكن عليك ان تأكل الاوراق المغلوطة بسرعة.

وضرب انسيلمو بيده على الجيب الموجود فى صدر سترته وقال .. كم تصورت انني سأرغم على ذلك ، ومع ذلك ، لم أرغب يوما ما في ان ابتلع ورقـا .

فقال روبرت ـ يجب ان تحمل قليلا من الخردل ، لتستسيغ طعمها معه فانا احمل اوراقا في جيبي الايسر والاوراق الفاشية في الجيب الايمن . وهكذا لا يقع الانسان في اي خطأ عند الضرورة .

وخيل لروبرت ، انهم يكثرون من الحديث الآن . وقال اوغسطين .. اسمع يا روبرتو يقولون ان الحكومة تتجه بسرعة الى اليمين كل يوم . ففي الجمهورية عدلوا عن استعمال كلمة الرفيق ، واخذوا يستعملون كلمة السنيور ، والسنيورة . اولا تستطيع ان تحول جيوبك من اليمين الى اليسار .

فقال روبرت .. عندما تميل الجمهورية كثيراً الى اليمين ، سأحمل اوراقها في جيبي الخلفي ثم اخيطها في الوسط .

وقال اوغسطين .. حتى لا تخرج عن قميصك . فهل يقدر لنا ان نكسب هذه الحرب وان نخسر الثورة ؟
ـ لا . ولكننا اذا لم نكسب هذه الحرب ، فلن تكون ثمة ثورة او جمهورية ولا انت او انا ، بل السادة العظام .
ـ وقال انسيلمو .. وهذا رايي . يجب ان نربح هذه الحرب اولا .

وقال اوغسطين .. وبعد ان نربح الحرب نقتل الفوضويين والشيوعيين ومن على شاكلتهم ؛ ولا نُبقي الا على الجمهوريين الطيبين .

فقال انسيلمو ـ يجب ان نربح هذه الحرب دون ان نقتل احدا . اذ علينا ان نجعل حكمنا عادلا ، وان يسهم الجميع في المنافع بقدر جهودهم في الثورة . وعلينا ان نعلم اولئك الذين حاربونا ليعرفوا اخطاءهم .

فقال اوغسطين .. علينا ان نقتل الكثيرين .. اجل كثيرين .
ـ لا ؛ يجب ان لا نقتل احدا ، حتى القادة . بل يجب ان نصلحهم بالعمل
ـ اعرف العمل الذي سنكلهم اليه .

فقال روبرت جوردان يسأله .. اي عمل ؟

ـ مهنتان من اروع المهن .

ـ مـا همـا ؟

فوضع أوغسطين قليلا من الثلج في فمه ، وتطلع الى الارض العراء التي مرَّ منها الفرسان وقذف الثلج من فمه وقال .. يا له من فطور ؟ ايـــن الغجــري القــذر ؟

وقال روبرت يسأله .. اية مهنة ؟ قل ايها الفم القذر .

ـ القفز من الطائرات بلا مظلات ، هذا بالنسبة الى من نعني بامرهم . ووضع الآخرين على « الخوازيق » .

فقال انسيلمو ـ ان هذه الطريقة في الحديث مخزية . اذ لن نستطيع اقامة جمهورية على هذا النحو .

ـ اود ان اسبح عشرة اميال في حساء مصنوع من لحوم هؤلاء الخنازير وعندما رايت هؤلاء الفاشيين الاربعة ، كنت كالفرس التي تبحث عن جوادها

وقال روبرت بهدوء .. ومع ذلك ، فانت تعرف لم لم نقتلهم .

ـ اجل . اجل . ولكني كنت اشعر بالشبق لقتلهم تماما كالفرس الشبقة في الصيف . انك لا تدرك معنى ذلك .

ـ كنت ارى العرق يتصبب منك . وظننتك خائفا .

ـ اجل . الخوف ، والشبق . وليس ثمة ما هو اقوى من الشبق في هــذه الحياة .

وقال روبرت يحدث نفسه .. حقا .. فنحن نقتل ببرود وتصميم . اما هم فلا . انه قربانهم المقدس الاضافي . اما قربانهم القديم ، الذي كانوا يتمسكون به قبل ان يأتيهم هذا الدين الجديد ، من وراء الطرف القصي من البحر المتوسط ، فقد اخفوه دون ان يتخلوا عنه ابدا ، ليعود فيظهر الى الوجود في صورة الحروب ومحاكم التفتيش . انهم الشعب الذي يؤمـن بالقتل : والقتل واجب احيانا ، ولكن ايماننا يختلف عن ايمانهم . اما انت .. يا روبرت ، فلم تفسد روحك بهذا التفكير .. انك لم تشعر بشعورهم

وانت معهم في الجبـــال او في عسيرا ، ولا في ايسترامادورا .. ولا في اي مكــان آخــر .

ولكن لِمَ هذه الفلسفات عن التاريخ .. اعترف بانك اصبحت تحـــت القتل كالآخرين ، كالجنود ، الذين يتطوعون في الجندية ، اما انسيلمو ، فلا يحب القتل لانه صياد لا جندي . ولكن لا تجعل منه مثلا أعلى ايضا . فالصيادون يقتلون الحيوانات والجنود يقتلون الرجال . ولا تكذب على نفسك . او تحاول ان تكتب رسالة ادبية عن الموضوع . ان فكرة القتل تراودك منذمدة الان . ولا تفكر بانسيلمو ايضا ، فهو مسيحي ، بل هو مسيحي نادر في بلاد كاثوليكية .

اما بالنسبة الى اوغسطين ؛ فقد ظننته خائفا . الخوف الذي يسبق العمل . اذن فقد كان الشبق لا الخوف . ومن المحتمل انه قد يتبجح الان فالخوف كان قائما على اي حال . وقد شعر به تحت يدي . ومن الخير ان يقف الانسان عن الكلام .

وقال لانسيلمو .. انظر اذا كان الغجري قد جاءنا بالطعام . ولا تتركه يصعد الى هنا . انه مجنون . هات الطعام بنفسك . ومهما تكن الكمية التي جاء بها ؛ فارسل بطلب كمية اخرى . فانا جائع .

٢٤

كان الصباح ، من الايام المتأخرة فى شهر ايار ، وكانت السماء زرقاء صافية والريح الدافئة تهب على اكتاف روبرت جوردان ، واخذ الثلج يذوب بسرعة ، بينما جلس الجميع يتناولون طعام افطارهم . وكانت بيلار قد اعدت لهم شطائر كبيرة من اللحم والجبن مع قطع كبيرة من البصل . واخذ روبرت يتناول قطعا كبيرة من البصل .

وقال اوغسطين وقد امتلأ فمه بالطعام .. ستبعث منك رائحة ، تصل الى انوف الفاشيين .

فقال روبرت ــ اعطني زق الخمر ، لاغسل فمي .. وكان فمه مملوءا باللحم والجبن والبصل .

ولم يكن قد شعر قط بالجوع كما شعر اليوم . وملأ فمه بجرعة كبيرة من النبيذ ثم ابتلعها . وسرعان ما ملأ فمه بجرعة ثانية صبها في حلقه ، بعد ان رفع الزق عاليا ليصل الخمر الى جوفه .

وقال اوغسطين وهو يناوله شطيرة اخرى .. الا تريد هذه الشطيرة ايضا .

ــ لا ، اشكرك . كلها انت .

ـ لا استطيع . فما الفت الاكل في الصباح قط .

ـ الا تريدهـا حقـا ؟

ـ . خذهـا .

وتناولها روبرت منه ، ووضعها في حضنه ، ثم اخذ راسا من البصل واخذ يقطع منه شرائح صغيرة بمديته ، يضعها داخل الشطيرة .

وقال اوغسطين ـ اتاكل البصل دائما في الفطور ؟

ـاذا توفـر لـي .

ـ وهل ياكل الجميع في بلادك البصل ؟

ـ لا ، انهم يكرهونه هناك .

ـ يسرني هذا . فقد كنت اعتبر امريكا دائما ، بلادا متمدنة .

ـ ولماذا تكره البصل ؟

ـ اكره رائحته . لا شيء الا رائحته . والا فهو عندي كالورد تماما .

وقطب روبرت حاجبيه وقال .. كالورد ! قويا كالورد ؟ الورد ، ورد والبصل بصـل .

ـ لا ريب في ان البصل قد بدا يؤثر على عقلك . انتبه .

ـ البصل . بصـل ..

ـ نظف فمك بالنبيذ . انك غريب يا انكليزي . والفرق كبير بينـك وبين الديناميتي الاخير الذي كان يعمل معنا .

ـ هناك فرق وحيد ليس الا .

ـ هل لك في ان تقولـه ؟

ـ انني حـي وهـو ميت .

وشرع روبرت يفكر ، ما هذا الذي حدث له ؟ وماذا دهاه ؟ هل هذه هي الطريقة في الحديث ؟ وهل يجعلك الطعام سعيداً ؟ ماذا ؟ هل سكرت

من البصل ؟ هل هذا كل ما يعنيه لك الآن ؟ انه لم يكن يعني لك شيئا . لقد حاولت ان تجعله يعني شيئا لك ولكنه لم يعنه . ولا ضرورة لك للنوم في ما تبقى من الوقت .

وقال لاوغسطين .. لا . لقد كان ذلك الرجل ، انسانا . تألم اشد الالم

ـ وانت ، الم تتألم ؟

ـ لا . انني انسان قليل التألم .

ـ وانا كذلك . فهناك من يتألمون كثيرا ، وهناك من لا يتألم ابدا ، اما انا فاتألم قليلا .

ـ هذا اقل سوءا .

ـ ولكنني اشعر بالألم بالنسبة الى الآخرين .

ـ هذه شيمة جميع الناس الطيبين .

ـ اما لنفسي فلا اتألم الا القليل .

ـ وهل انت متزوج ؟

ـ لا .

ولا انا .

ـ ولكن لك ماريا الآن .

ـ اجل .

ـ هناك شيء غريب . فمنذ اللحظة الاولى التي حلت فيها عندنا ، ابعدتها بيلار عنا جميعا بغلظة وقسوة ، وكأنها تعيش في دير للراهبات الكرمليات . وليس في وسعك ان تتصور الضراوة التي كانت تحميها فيها. ثم تأتي انت ، فتقدمها اليك كهدية . ماذا تفهم من هذا ؟

ـ ليس الأمر كما تصورت .

ـ اذن كيف كان الوضع ؟

ـ لقد عهدت بها الي لأعني بها .

ـ وهل العناية ، ان تتمتع بها طيلة الليل ؟

ـ هذا مـن حسن حظي .

ـ يا لها مـن طريقة للرعاية بانسان .

ـ الا تستطيع ان تفهم ان بوسع الانسان ان يعني بآخر على هذا النحو ؟

ـ ولكن كان في وسع اي منا ان يقدم لها هذا النوع من الرعاية .

ـ دعنا لا نخوض في هذا الحديث . فانا احبها جديا .

ـ اتحبها جديـا ؟

ـ لا شيء اكثر جدية من حبي لها .

ـ وماذا بعـد ؟ بعد ان ننتهي من الجسر ؟

ـ سآخذها معـي .

ـ اذن ، يجب ان لا يتحدث اي منا عن هذا الموضوع ، وان نرجو لكما حظـا سعيـدا .

وتناول اوغسطين زق الخمر وامتص جرعة كبيرة ثم ناولها الى روبرت وقال .. نقطة اخرى يا انكليزي ..؟

ـ قـل مـا تريـد .

ـ لقد كنت احبها كثيـرا ايضا .

ووضع روبرت جوردان يده على كتفه .. وقال اوغسطين .. اجل لقد أحببتها ، اكثر مما يستطيع انسان ان يتصور .

ـ في وسعي ان اتصور .

ـ لقد تركت في نفسي اثرا لا يمحى قط .

ـ استطيع ان اتصور .

ـ اسمع . انني احدثك بمنتهى الجد .

ـ قـل مـا تشاء .

ـ انني لم المسها قط . ولم يقع بيننا اي شيء ، ومع ذلك ، اكاد اعبدها اسمع يا انكليزي . لا تستهزىء بها ، ولا تعتبرها عاهرة ، لانها تنام معك.

ـ سأعنى بهـا .

ـ انا اصدقك . ولكن ما اريده هو ان تعنى بها اكثر واكثر . ليس في وسعك ان تفهم ما كانت ستغدو عليه الفتاة لو لم تقع الثورة . فعليـك مسؤولية كبيرة . لقد عانت الفتاة كثيراً . انها ليست مثلنا .

ـ سأتزوجهـا .

ـ لا . لا . ليست ثمة من حاجة للزواج في ظل الثورة .. ولكن ، قد يكون فى هذا بعض الخير .

ـ انني عازم على الزواج منها ، فانا احبها كثيرا .

ـ فيما بعد . عندما تصبح الظروف مواتية . المهم هو ان تتوافر لديك النيـــة .

ـ النيـة متوافرة لدي .

ـ اسمع . انني اتحدث كثيرا عن موضوع لا حق لي في الحديث عنه او التدخل فيه ، ولكن ، قل لي ، اعرفت الكثيرات فى هذه البلاد ؟

ـ عرفت بعضهن .

ـ مـن العاهرات ؟

ـ بعضهن لم يكنَ عاهرات .

ـ كـم عددهن ؟

ـ لا ادري .

ـ وهل نمـت معهـن ؟

ـ لا .

ـ ارأيت ؟

ـ اجـل .

ـ ما اردت قوله : هو ان ماريا ليست سهلة المنال .

ـ ولا انـا ايضـا .

ـ او كنت إعرفك غير جاد في موضوعها ؛ لقتلتك ليلة امس : عندماكنت نائما معها . فنحن كثيرا ما نقتل فى هذه البلاد لدوافع من هذا النوع .

ـ اسمع . ان افتقارنا الى الوقت ، هو الذي يجعلنا ننبو عن الرسميات فنحن نفتقر فعلا الي الوقت . وعلينا ان نحارب غدا . اما بالنسبة الـي فالامر ليس كبير الاهمية . اما بالنسبة الى ماريا ولي . فاننا قد نعيش كل حياتنا هذيـن اليومين .

ـ ولا ريب في أن يوما وليلة : وقت قصير .

ـ اجل . ولكن كان لنا الامس والليلة السابقة .

ـ اسمع . اذا كان في وسعي ان اساعدك .

ـ لا . فنحن علـى مـا يرام .

ـ اذا كان في وسعي ان اعمل شيئا لك ؛ أو لذات الشعر المقصوص . .

ـ لا .

ـ حقا فهناك القليل ، مما يستطيع الانسان ان يعمله لآخر .

ـ لا . . هنـاك الكثير .

ـ مـاذا ؟

ـ مهما حدث اليوم وغدا بالنسبة الى المعركة ، امنحني ثقتك ؛ واطع اوامري حتى ولو بدت لك خطأ

ـ لقد وضعت ثقتي فيك ولا سيما بعد حادث الفرسان وابعاد الجواد .

ـ هذه امور لا تستحق الذكر . فانت ترى اننا نعمل لشيء واحد وهو ان نربح الحرب . وما لم نكسب هذه الحرب . فكل امر لا جدوى منه . وغدا سنواجه عملا كبير الاهمية وصادقها . وسنخوض معركة . وفي مثل هذه المعركة يجب ان يتوافر النظام . ولا تكون معظم الامور دائما كما تبدو في ظاهرها . والنظام لا ينبع الا من الثقة والاطمئنان .

وبصق اوغسطين على الارض وقال : « يجب ان نفصل بين موضوع ماريا وبين الامور الاخرى . فعليك انت وماريا ان تفيدا من الوقت المتوافر لكما، كانسانين . واذا كان في وسعي ان اساعدك ، فأنا تحت تصرفك . امـا بالنسبة الى موضوع الغد ، فساطيعك طاعة عمياء . واذا كان من الضروري ان يموت الانسان في سبيل معركة الغد ، فانه يمضي الى الموت بقلب فرح.

ـ وهذا ما اشعر به انا ، اما ان اسمعه منك ، فهذا ما يغمر قلبـــي بالسرور .

ـ وشيء آخر ، فهذا الانسان الواقف في المرتفع ـ واشار الى بريمتيفو ـ انسان يمكن الركون اليه والاعتماد عليه . اما بيلار ، فهي اكثر مما تتصور. وكذلك الرجل العجوز انسيلمو . واندريه وايلاديو ، وهما مـــن النوع الهادىء ، ولكن الموثوق . اما فيرناندو ، فلا اعرف رايك فيه . لكنه اثقل من الزئبق . وهو يبعث الملل في نفس الانسان ، ولكنه مقاتل وينفذ مـا يؤمـر بـه .

ـ فنحـن سعـداء .

ـ لا . ولكن بيننا عنصرين ، الفجري وبابلو . اما عصابة بابلو فأحسن من جماعتنا بكثير بنفس النسبة التي نتفوق فيها نحن على روث الماعز .

ـ اذن فالأمور على ما يرام .

ـ اجل . ولكن كنت اود لو وقعت المعركة اليوم .

ـ وانا ايضا . فأنا راغب في الانتهاء من الموضوع . ولكنه لم يتم اليوم

ـ وهل تظن ان المعركة ستكون شاقة ؟

ـ ربمـا .

ـ ولكنك مرح الآن يــا انكليزي .

ـ اجــل .

ـ وانا كذلك على الرغم من تعلقي بماريا .

ـ او تعــرف لمــاذا ؟

ـ لا .

ـ ولا انا ادري . ربما كان السبب اشراق النهار الآن .

ـ من يدري . او لعله اقترابنا من ساعة العمل .

ـ اعتقد ان هذا هو السبب . ولكننا لن نخوض المعركة اليوم . بـل يجب ان نتجنبها بكل ثمن وهذا امر في منتهى الأهمية .

وسمع وهو يتحدث شيئا . انه صوت بعيد يعلو على صوت الريح التي تهب على الاشجار . ولم يستطع التأكد من الصوت ، ففتح فمه واخذ يصغي ، متطلعا الى بريمتيفو في مرتفعه . وخيل اليه انه سمع الصوت ثانية ولكن سرعان ما انقضى . واخذت الريح تهب على اشجار الصنوبر، وبذل روبرت غاية جهده لينصت . ثم عاد يسمع الصوت الخافت قادما مــع الريح .

وسمع اوغسطين يقول .. ان الامر لا يعتبر مأساة بالنسبة الي اذا لم احصل قط على ماريا ، فسأعود الى العاهرات كما كنت سابقا .

وقال روبرت .. اغلق فمك .

ـ مــاذا حدث ؟

ووضع روبرت يده على فمه ومضى يصغي . وجاء الصوت من جديد . كان خافتا وبعيدا . ولكنه لم يخطىء فيه الآن . انه صوت الاسلحــــة الاوتوماتيكية بكل دقة . وكان الصوت يتوالى وكأنه اطلاق صواريخ الالعاب النارية من مكــان بعيد .

وتطلع روبرت الى بريمتيفو فرآه يرفع راسه الان ووجهه يتجه نحــوه،

وقد وضع يده على اذنه . واشار بريمتيفو الى الجبل ، الى المكان المرتفع.

وقال روبرت .. ان المعركة دائرة مع ايل سوردو .

ـ اذن فلنمضِ لمساعدته . اجمع الرجال . وهيا .

ـ لا . اننا باقــون هنا .

٢٥

تطلع روبرت الى المكان الذي يقف فيه بريمتيفو في مركزه ، وهو يحمل بندقية ويشير بها . واحنى روبرت راسه ، ولكن بريمتيفو ظل يشير ، وهو يضع يده على اذنه ، ويعود الى الاشارة ، ليوضح انه واثق من ان روبرت لم يفهمه بعـد .

وقال روبرت لاوغسطين .. قف بجانب المدفع ، وما لم تتأكد من انهم قادمون ، فلا تطلق النار حتى يصلوا الى تلك الشجيرة الصغيرة . افهمت؟

ـ اجـل ولكن ..

ـ ليس هناك ولكن . سأوضح لك فيما بعد . سأذهب الى بريمتيفو .

وكان انسيلمو يقف الى جانبه فقال للرجل العجوز .. قف انت مـع اوغسطين عند المدفع الرشاش ، وعليه ان لا يطلق النار الى ان يتأكد من ان الفرسان يتوغلون .. اما اذا رآهم مجرد رؤية فعليه ان يتركهم وشأنهم ، كما عملنا فى المرة الاولى . واذا تحتم عليه ان يطلق النار فأمسك بقوائم المدفع الرشاش ، وسلم اليه امشاط العتاد .

ـ حسنا ، ولاغرانجا ؟

ـ فيما بعـد .

وارتقى روبرت الصخور ، وكانت الشمس مستمرة في اذابتها الثلوج ،

واخذت قمم الصخور تجف شيئاً فشيئاً من البلل الذي نخلفه الثلوج. وتطلع الى ما حوله ، فراى غابات الصنوبر الشاسعة الفسيحة ، والجبال التي ترتفع وراءها . ووصل الى جانب بريمتيفو وراء صخرتين ضخمتين وقال الرجل القصير الاسمر الوجه .. انهم يهاجمون سوردو . فماذا يجـب ان نفعل ؟

ـ لا شـيء .

واضحى يسمع اطلاق النار بوضوح ، وعندما جال ببصره في الاراضي الفسيحة المنبسطة امامه . حيث ترتفع الجبال وراءها . راى جماعة من الفرسان يخرجون من بين الاشجار ويعبرون الارض الثلجية . صاعدين في الجبل في اتجاه اطلاق النار . وابصر بالصف المزدوج من الخيالة وهم يصعدون ثم يدخلون الغابة البعيدة .

وقال بريمتيفو ـ علينا ان نساعدهم .. كان صوته جافا اجشاً .

ـ هذا مستحيل . لقد كنت اتوقع هذا طيلة الصباح .

ـ كيـف ؟

ـ لقد ذهبوا لسرقة الجياد ليلة امس ، وقد توقف الثلج ، فاستطاعوا اقتفـاء اثرهـم .

ـ ولكن يجب ان نساعدهم . ليس في وسعنا ان نتركهم لوحدهم دون مساعدة ! انهم رفاقنـا .

والقى روبرت بيده على كتف الرجل وقال .. ليس في وسعنا ان نفعل شيئا . لو كان في استطاعتنا لما تأخرت لحظة واحدة .

ـ هناك طريق للوصول اليهم من ورائهم . في وسعنا ان نصعد في تلك الطريق مع الجياد والمدفعين . المدفع الاسفل ومدفعك . وآنذاك في وسعنا ان نساعدهـم .

ـ اسمـع .
ـ هـذا مـا استمع اليه .

كان اطلاق النار مستمرا في موجات متعاقبة . ثم سمعوا صوت انفجار القنابل اليدوية ممزوجة مع نيران الرشاشات .

وقال روبرت .. لقد ضاعوا . لقد ضاعوا منذ توقف الثلج . واذا ذهبنا اليهم ضعنا معهم ايضا . فمن المستحيل ان نجزىء ما نملكه من قوة .

وبدت لحية بريمتيفو البيضاء ترتعد من الغضب . وشفتاه تهتزان . ورقبته ترتجف . وبان انفه الافطس المستوي وعيناه العميقتان في وجهه الاسمر ، وهو يقول .. اسامع انت ؟ انها مذبحة .

ـ اذا كانوا قد نجحوا في تطويق المعسكر ، غدت مذبحة . اما اذا تمكن عـدد مـن النجاة .

ـ في وسعنا ان نداهمهم من الوراء . دع اربعة منا يذهبون مع الجياد .
ـ وماذا يحدث بعد ذلك ؟ ماذا يحدث بعد ان نداهمهم من الوراء ؟
ـ ننضـم الـى سوردو .
ـ لنموت معه . انظر الى الشمس . ما زال النهار طويلا .

وكانت السماء عالية لا غيوم فيها والشمس المحرقة تلفح ظهريهما . وكان الثلج قد تساقط جميعه عن اوراق اشجار الصنوبر . واخذت الصخور التي كانت قبل قليل تبدو مبتلة من مياه الثلوج تجف بسرعة في الشمس الدافئـــة .

وقال روبرت .. عليك ان تحتمل الصدمة . فكثيرا مـا يقع مثل هذا في الحـروب .

ـ ولكن اليس في وسعنا ان نفعل شيئا ؟ حقا ؟ الا نستطيع ان توفدني مع رجل آخر ومعنا المدفع الصغير ؟

سيكون مثل هذا الايفاد عديم الجدوى .. اجل لا فائدة حـتـى ولو

ذهبنـا جميعنا ..

ورای صقرا يسير مع الرياح طائرا فوق الغابات ، واشتد صوت اطلاق النار ، ودوي القنابل اليدوية .. وقال بريمتيفو ـ عليهم اللعنة. .وانهالت الدموع من عينيه .. آه يا الله . يا عذراء .. عليهم اللعنة .

ـ هدىء من روعك . ستحاربهم بعد قليل . ها قد جاءت المراة .

كانت بيلار ترتقي الصخور صاعدة اليهما ، وظل بريمتيفو ، يسـب ويشتم كلما انطلقت دفعة من الرصاص ، تحمل الرياح صوتها . وصعد روبرت ، ليساعد بيلار على الصعود ، وقال .. ماذا حدث يا امراة .

ـ خذ منظارك .. اذن فقد داهموا سوردو .

ـ نعـم .

ـ يا لسوردو المسكين .

كانت تتنفس بصعوبة ، وقد امسكت يد روبرت بيديها ، تشدها ، وهي تنظر الى البعيد . وقالت .. كيف تبدو المعركة ؟

ـ سيئة . سيئة جـدا .

ـ لقد وقع في الفخ .

ـ اعتقـد ذلـك .

ـ مسكين .. لا ريب في ان ا لجياد هي السبب .

ـ ربمـا .

ـ مسكين . لقد جاء رافائيل وحدثني عن قصة الفرسان الذين اتـوا فمـاذا حدث ؟

ـ كانت دورية وجزءا مـن سرية .

ـ الى اي حـد وصلوا ؟

واشار روبرت الى النقطة التي وصلت اليها الدورية وتوقفت عندها ، ثم

اومأ لها الى المكان الذي يختفي فيه المدفع الرشاش ، حيث بدا احد حذائي اوغسطين . خارجا من وراء غطاء التعمية .

وقالت بيلار ـ قال لي الغجري انهم اقتربوا الى الحد الذي اصابت فوهة المدفع صدر قائد الدورية . يا له من شعب ! كان منظارك في الكهف.

ـ وهل حزمت متاعك واعددته ؟

ـ اعددت كل ما يمكن اخذه . هل هناك انباء عن بابلو ؟

كان يسبق الفرسان باربعين دقيقة . وقد اقتفوا اثره .

ونظرت اليه وقد قطبت جبينها . وكانت لا تزال تمسك بيده ، فتخلت عنها ، وقالت . . لن يروه في حياتهم . . والان بصدد سوردو ، الا نستطيع ان نفعـل شيئـا ؟

ـ لا شـيء .

ـ يا للمسكين . كنت احبه كثيرا . هل انت واثق انهم طوقوه .

ـ اجل . فقد رايت الكثيرين من الفرسان .

ـ اكثر مـن الذين كانوا هنا ؟

ـ كانت فئة كاملة في طريقها اليـه .

ـ انصت . . اسمع . . مسكين سوردو !!

واخذا يصغيان الى اطلاق النار . . وقال روبرت . . لقد اراد بريمتيفو ان يمضـي الى هناك .

فقالت بيلار للرجل المنبسط الوجه . . هل انت مجنون ؟ اي نوع مـن الناس نجد حولنا هنـا ؟

ـ اردت مساعدتهم ؟

ـ اية مساعدة ؟ مغامرة مجنونة . الا تعتقد انك ستموت بسرعة هنا دون الحاجة الى رحلات لا جدوى منها .

وتطلع اليها روبرت جوردان . الى وجهها الاسمر ، بوجنتيها اللتين تشبهان وجنات الهنود ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وفمها الضاحك، وشفتها العليا الغليظة .

وقالت لبريمتيفو ـ عليك ان تسلك سلوك الرجال . الرجال الكبار . وانت تحمل مثل هذا الشعر الأشيب .

ـ لا تهزئي بي . اذا كان الرجل يملك قلبا صغيرا وخيالا صغيرا ..

ـ عليه ان يعرف كيف يتحكم بهما .. ستموت قريبا معنا . فلا تبحث عن الموت مع الاغراب . اما بالنسبة الى الخيال ، فان الفجري يملك خيالا يكفينا جميعا . يا لها من قصة رائعة سردها علي .

فقال بريمتيفو ـ لو رايت الوضع ، لما قلت انها قصة . كانت لحظة حرجة للغاية .

ـ اية حراجة ! جاء بعض الفرسان الى هنا ، ثم مضوا . وكلكم تريدون ان تأخذوا لانفسكم دور البطولة . لا ريب فى ان هذا الوضع ، هو الذي اذى بنا الى هذا الكسل .

ـ او ليس موضوع سوردو حرجا ايضا ؟ كان بريمتيفو يشعر بالألم كلما وصلت الى اذنيه أصوات الرصاص . فهو يريد احد امرين اما ان يمضي الى المعركة ، او تنسحب بيلار تاركة اياه وشأنه .

وقالت بيلار ـ ما وقع قد وقع . فلا تفقد عقلك منجراء متاعب الآخرين

وقال بريمتيفو ـ اذهبي عليك اللعنة . ففي النسوة بلادة ووحشية لا تطاق .

ـ اجل لمساعدة اولئك الرجال المفتقرين الى عنصر الرجولة .. واذا لم يكن ثمة ما اراه ، فانا ماضية .
وسمع روبرت آنذاك صوت طائرة فى كبد السماء . كانت على ارتفاع عال، وبدت وكأنها طائرة الاستطلاع الاولى التي رآها فى الصباح . انها الان في

طريق العودة من الخطوط ، وهي تتجه الى المنطقة الجبلية التي يقع فيها الهجوم على ايــل سوردو .

وقالت بيلار ــ هذه هي طائرة الشؤم . افي وسعها ان ترى ما يـدور هنــاك ؟

فقال روبرت ــ حتما . . الا اذا كان ملاحوها من العميان . .

وظلوا يرقبون الطائرة وهي تمضي في طريقها على ذلك الارتفاع الهائل في وهج الشمس . انها قادمة من ناحية اليسار ، وكان في وسعهم ان يروا فراشتيها تشرقان في اشعة الشمس المنعكسة عليهما .

وقال روبرت . . اهبطا الى الارض .

وسرعان ما كانت الطائرة تحلق فوقهم وراوا ظلها على الارض ، واشتد دويها حتى وصل الذروة . وراوها تختفي عن انظارهم ، لتعود محلقة في دائرة واسعة ، فوق المنطقة الجبلية العالية ، ثم تختفي باتجاه سيغوفيا .

وتطّلع روبرت الى بيلار . كان العرق يتصبب من جبهتها ، وهي تهز راسها ، وتعض على شفتها السفلى باسنانها .

وقالت . . لكل انسان ما يخافه . ولا اخاف الا من هذه .

وقال بريمتيفو هازئا . . لعل عدوى خوفي لم تسر اليك ؟

فوضعت يدها على كتفه وقالت . . لا . انـــك لا تخاف حتى تسري عدواك . وانا اعرف هذا . ويؤسفني ان مزاحي معك كان قاسيا عنيفا . اننا جميعنا في نفس القدر . . والتفتت الى روبرت تقول . . سأبعث لكم بالطعام والنبيذ . فهل تحتاج شيئا آخر .

ــ لا ، لا احتاج شيئا في هذه اللحظة . اين الآخرون ؟

ــ ان قوتك الاحتياطية سليمة عند الجياد . لقد تم اخفاء كل شيء وتم اعداد كل شيء للرحيل . وماريا تقف الى جانب حاجياتك .

ـ اذا قدر وجاءت الطائرات ، فدعيها تظل داخل الكهف .

فقالت بيلار .. امرك يا سيدي الانكليزي . اما غجريك ، فقد بعثت به ليجمع لنا بعض الفطر ، لنطبخه مع الارنبين . فهناك الان الكثير من الفطر ، وقد خيل الي ان في وسعنا ان ناكل الارنبين اليوم بدلا مـن ان نتركهما للغد او بعده .

ـ أعتقد ان من الخير ان نأكلهما اليوم .

ووضعت بيلار يدها الضخمة على كتفه واحست ببندقيته الممتدة على صدره ، واخذت تداعب شعر راسه بيدها وقالت .. يا لك من انكليزي !! سأبعث اليك بماريا ، تحمل الطعام بعد ان ينتهي اعداده .

وتوقف اطلاق النار من المكان المرتفع ، باستثناء بعض العيارات النارية المتقطعة مـن وقت الى آخـر .

وقالت بيلار تساله .. او تظن ان الأمر قد انتهى ؟

فقال روبرت .. لا . على ضوء الاصوات التي سمعناها نستطيع ان نقول ، ان الهجوم قد وقع ، وقد صد . ولكن في وسعنا ان نقـول ان المهاجمين قد طوقوهم . وقد اركن المهاجمون الان الى الراحة ، في انتظار وصول الطائرات .

وقالت بيلار لبريمتيفو ـ الا تفهم يا هذا انني لم اكن اقصد اهانتك ؟

ـ اجل . ولكني تعودت على ما هو اسوا من هذا منك . فلك لسان سام. ولكن عليك ان تتحفظي في كلامك فلقد كان سوردو زميلا طيبا لي .

فقالت بيلار ـ اولم يكن زميلا لي ايضا « اسمع » يا هذا . ليس في وسع الانسان في ايام الحروب ان يتحدث بما يشعر به . فتكفينا الآن مشاكلنا . لنبحث في مشاكل الاخرين .

وخيـم الوجوم على بريمتيفو .

وقالت بيلار .. عليك ان تأخذ بعض الدواء .. وسأذهب الآن لاعداد الطعام .

وقال روبرت .. هل اتيت بالوثائق ؟

ــ يا لي من بليدة . لقد نسيتها . سأبعث ماريا بها .

٢٦

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر عندما جاءت الطائرات ثانية . وكان الثلج قد اختفى تماما ، وغدت الصخور حامية من أشعة الشمس . وكانت السحب قد اختفت من السماء . وجلس روبرت جوردان فوق الصخور ، ولهيب الشمس ، يلفح ظهره ، يقرأ الرسائل التي كانت في جيب الفارس القتيل . وكان يرفع رأسه من وقت الى آخر ، فيتوقف عن القراءة ويتطلع الى الارض الفضاء القائمة امام الغابة ، ثم ينظر الى المرتفع البعيد، ويعود بنظره بعد ذلك الى الرسائل . ولم يبد أي اثر للفرسان من جديد . وكانت رصاصة عابرة يسمع صداها من وقت الى آخر من اتجاه معسكر أيل سوردو . ولكن هذه الرصاصات كانت فرادى .

وتبين له من دراسة اوراق الفارس ، انه ينتمي الى تافالا في نافار ، ويبلغ الواحدة والعشرين من عمره . وهو غير متزوج ، ويعمل والده حدادا . أما الكتيبة التي ينتمي اليها فهي كتيبة الفرسان التاسعة وهذا ما ادهش روبرت ، اذ كان يعتقد ان هذه الكتيبة تعمل في الشمال . وتبين له ايضا ان الشاب كان قد اصيب بجراح في معركة ايرون في مطلع الحرب.

وراح روبرت يفكر ، فلعله كان قد رأى هذا الغلام ، يركض في الشوارع

امام الثيران في حلبة بامبلونا . ولكن الانسان لا يقتل في الحرب الرجل الذي يود قتله .

وكانت الرسائل الاولى التي قراها ذات طابع رسمي ، وقد كتبت بعناية شديدة ، وتعالج الاحداث المحلية ، وقد بعثت بها شقيقة الشاب من تافالا، تبلغه ان كل شيء على ما يرام ، وان والده بخير . وان والدته كشانها دائما ، وان كانت تشكو احيانا من ظهرها ، واعربت عن املها في ان يكون بخير ، وان لا يكون معرضا للخطر ، وان يكون سعيدا بادائه لواجبه في تحرير اسبانيا من الوحوش الماركسيين . ثم سردت له اسماء ابناء تافالا الذين قتلوا او جرحوا جراحا بالغة منذ كتبت اليه آخر مرة . وذكرت اسماء عشرة قتلوا . وهذه نسبة كبيرة بالنسبة الى بلدة صغيرة كتافالا.

وكانت الرسالة تتضمن الكثير من التعبد والديانة ، فقد صلت للقديس انطونيوس ، والعذراء والقديسين الآخرين لحمايته ، وطلبت اليه ان لا ينسى انه فى حماية القلب المقدس الذي يضمه على صدره والذي تؤمن به، وبقدرته على منع العيارات النارية من الوصول الى قلبه . وانهت رسالتها بالتأكد على انها دائما شقيقته المحبة كونشا .

وكانت هذه الرسالة قد تلوثت ببعض الدماء ، فضمها الى اوراق الشاب العسكرية ، ثم فتح رسالة اخرى . وكانت من خطيبة الشاب ، وقد تضمنت عبارات مجنونة هستيرية ، تعلن القلق عليه وعلى سلامته . وبعد ان انتهى روبرت من الرسالة ضمها الى الاوراق الاخرى ووضعها كلها في جيب سرواله الخلفي . وشعر بالعزوف عن قراءة الرسائل الاخرى .

وقال يحدث نفسه ، لا ريب أنني قمت بما فيه الكفاية اليوم .

وقال بريمتيفو يسأله : ماذا كنت تقرا ؟

ـ الوثائق والرسائل التي وجدناها مع الفارس الذي قتلناه هـذا الصباح ، اتريد ان تراها ؟

ـ لا اعرف القراءة . افيها شيء مهم ؟

ـ لا . كلهـا رسائل شخصية .

ـ وكيف تسير الأمور في مسقط راسه ؟ هل في وسعك ان تحكم على الاوضاع من الرسائل ؟

ـ يبدو انها تسير سيرا عاديا . وقد خسرت بلدته العديد من شبابها .

ـ والى اي بلدة ينتمـي ؟

ـ تـافالا .

وقال يحدث نفسه .. لا بأس ، انا آسف ، اذا كان هذا القول يصلح الامور ولكنه لا يصلحها .. اذن فاترك الامور تجري في اعنتها ..

ولكن هل في وسعه ان يترك الامور تسير على هذا النحو من السهولة .. كم عدد الذين قتلتهم حتى الان ؟.. لا ادري . اتعتقد ان من حقك انتقتل اي انسان ؟ لا .. ولكن هذا واجب . وكم من الذين قتلتهم كانوا حقا من الفاشيين ؟ لا ريب في انهم قليلون . ولكنهم يمتون على كل حال الى قوة العدو التي نحاربها . ولكنك تحب اهل نافار اكثر من اية مقاطعة اخـرى في اسبانيا . اجل ، ومع ذلك فانت تقتلهم . واذا كنت لا تصدق ذلك ، فاهبط الى المعسكر . أو لا تعرف ان من الخطأ ان يقتل الانسان شخصا آخر . اجل . ولكنك مع ذلك تلجأ الى القتل . اجل . ومع ذلك ، فانت ما زلت تؤمـن بأن قضيتك عادلة . أجل .

اجل انها عادلة .. وهو يشعر بالاعتزاز لعدالتها . فانا أؤمن بالشعب وبحقه فى ان يحكم نفسه كما يشاء . ولكن عليك ان لا تؤمن بالقتل . واذا قدر عليك ان تقتل ، فيجب ان تفعل ذلك كواجب دون ان تؤمن به . اما اذا كنت تؤمن به ، فكل شيء يكون خاطئا .

ولكن كم عدد الذين تعتقد انك قتلتهم حقا ؟ لا ادري ، فانا لا احفظ سجلا . ولكن فكر ، كم عددهم ؟ اجل . كم عددهم ؟ ليس في وسعك ان

تتأكد من الرقم ، فعند نسفك اي قطار ، تقتل الكثيرين ، ولكنك لا تعرف الرقم ، ولكنك واثق من عدد ما اكبر من عشرين . ومن بين هؤلاء العشرين كم كان عدد الفاشيين . اثنان على الاقل . اذ تحتم علي ان اطلق النار عليهما عندما اخذناهما اسيرين في عسيرا . وبالطبع لم تكترث بذلك ؟ لا ولكنك لم تكن مسرورا منه ايضا . لا . وقد قررت ان لا تفعلها ثانيـة . وقد تجنبت حتى الان قتل غير المسلحين .

ومضى يحدث نفسه .. اليس من الافضل أن تترك هذه الهواجس . انها تسيء اليك والى عملك .. ولكن نفسه اخذت ترد عليه قائلة : اسمع الي ، انك تقوم بعمل خطير في هذه الآونة وعليك ان تكون متاهبا للفهم دائما . لذا يجب ان ابقيك دائما محتفظا بقوة تفكيرك . فاذا لم تكن محتفظا بقوة تفكيرك . فليس لك من حق في ان تفعل ما تفعله ، اذ ان كل ما تفعله لا يعدو ان يكون من الجرائم ، وليس من حق انسان ان ينتزع حيـاة انسان آخر ، الا اذا كان عمله هذا يحول دون وقوع ما يسوء الآخرين . ولذا كن صريحا ولا تكذب على نفسك .

ولكنني لن استمر في محاولة حساب من قتلت من الناس . وكأنه سجل فخار لي ، او عمل ممتاز . ان من حقي ان استمر في الحساب ومن حقي ايضا أن انسى .

فقالت له نفسه .. لا . ليس من حقك أن تنسى شيئا ، وليس من حقك ان تغلق عينيك على اي شيء منه ، ولا من حقك ان تنساه او تخفف من غلوائه او تبدلـه .

فقال لنفسه .. اغلقي فمك .. لقد غدوت كثيرة الغرور .. فردت عليه قائلة ، وليس من حقك ايضا ان تخدع نفسك .

فقال لها .. حسنا ، شكرا لك على نصائحك ، وهل من حقي ان احب ماريا ؟

فردت عليه نفسه تقول ... اجل ، حتى ولو لم يكن هناك ما يدعى بالحب في اي مفهوم مادي للمجتمع .

وراحت نفسه تسأله : ولكن متى كانت لك هذه المفاهيم ؟ لم تكن لديك ابدا ولن تستطيع ان تحملها ايضا . فأنت لست بالماركسي الصادق ، وهذا شيء تعرفه . فأنت تؤمن بالحرية والمساواة والاخاء ، وتؤمن بالحياة والحرية والبحث عن السعادة . فلا تتعب نفسك بالاغراق في البحث عن الجدليات . فهي قد تصلح لغيرك ولكنها لا تصلح لك . وعليك ان تعرفها لئلا تكون غرا كالولد الرضيع . وقد تجاهلت الكثير من مفاهيمك رغبة منك في اكتساب الحرب اولا . اذ ان خسارة الحرب تؤدي الى ضياع الكثير من هذه المفاهيم .

ولكن عندما تنتهي الحرب ، في وسعك ان تنبذ جانبا كل ما لا تؤمن به . فهناك الكثير مما تؤمن به والكثير مما لا تؤمن به .

وشيء آخر . لا تخدع نفسك بالحديث عن الحب . فالموضوع لا يتعدى تنعمك بشيء حرم منه الاخرون . وانت لم تحس بمثل هذا الشعور من قبل ، ولكنك تشعر به الان فعلاقتك بماريا سواء امتدت اليوم وجزءا من الغد فحسب ، او امتدت الى اجل بعيد ، هي اهم ما يمكن ان يقع لانسان وستجد اناسا يتحدثون دائما عن عدم وجود ما يسمى بالحب ، لمجرد انهم لا يستطيعون ان يجعلوا منه جزءا من حياتهم . ولكنني اؤكد لك انهحقيقي وانه موجود فيك ، وانك سعيد الحظ ، حتى ولو مت في الغد .

وقال يخاطب نفسه .. ولكن دعي عنك حديث الموت . فليس بالحديث الذي يلذ للانسان ان يخوض فيه . انه الموضوع الذي يؤثره اصدقاؤنا الفوضويون على سواه . وعندما تسوء الاوضاع حقا ، فهم يريدون ان يلهبوا النار بشيء ما وان يموتوا . فعقولهم في منتهى الغرابة . أجل انها في منتهى الغرابة . على كل حال لقد اجتزنا النهار اليوم . فها هي الساعة

تقرب من الثالثة . وسيصل الينا الطعام ان عاجلا وان آجلا . انهم ما زالوا يطلقون النار على مقر سوردو ، وهذا يعني انهم قد نجحوا في تطويقه وانهم ينتظرون وصول نجدات جديدة . لكن عليهم ان يقوموا بالهجوم قبـــل هبـــوط الظلام .

واني لأكاد اجهل الوضع عند سوردو . على اي حال ، انه ليس بالوضـع السار ابدا . ولا ريب فى اننا اوقعنا سوردو فى تلك المشكلة بسبب موضوع الجياد ؟.. اجل لقد وضعناه فى مأزق يصعب الخروج منه . اعتقد ان بوسعي ان امضي في الخطة على ما يرام . وكل ما عليك هو ان تنفذ الموضوع مرة ، وان تتجرا فتنجح . ولكن اليس من الاسراف ان يواصل الانسان القتال فى الوقت الذي يستطيع فيه اذا ما طوق ، ان يستسلم ؟ نحـــن محصورون !! هذا هو النداء المفزع الرهيب فى هذه الحـــرب . اذ ان التطويق يعقبه الاعدام . دون ان يسبقه اي شيء آخر . هذا اذا كنـــت محظوظا . وبالطبع لن يكون سوردو سعيدا على هذا النحو . ولن نكون سعداء نحن اذا ما طوقنا ايضا .

كانت الساعة قد بلغت الثالثة . وسمع هديرا من بعيد ، وعندما رفـــع راسه كانت الطائرات قد حلقت فى السماء .

٢٧

كان ايل سوردو يقاتل على رابية . ولم يكن يحب هذا التل ولكنه كان مرغما على خوض غمار المعركة عليه . فقد وجد عندما دوهم ، انه خير مكان يمكن أن يلجأ اليه ، فمضى اليه خببا على ظهر جواده ، وقد ثقل المدفع على ظهره ، بينما اثقلت الحمولة من القنابل اليدوية وامشاط العتاد ظهر الجواد وكان جواكين واغناسيو ، يتوقفان ويطلقان النار ليعطياه الفرصة لينصب مدفعه الرشاش في وضع يمكنه من استخدامه .

وكان الثلج لا يزال يغطي الارض آنذاك ، وهو الثلج الذي دمر عليهم حياتهم ، وعندما اصيب جواده ، واخذ يعرج في مشيته ، وهو يصعد الجزء الباقي من القمة ، كان سوردو قد امسك بعنانه فوق كتفه واخذ يتسلق الجبل ، والرصاص يتطاير من حوله ، عندما يسقط على الصخور . وهو يحمل الكيسين على ظهره ويمسك بعرف الجواد . ثم اطلق النار على الحصان بيد خبيرة في المكان الذي اراده ، فوقع الحصان في الثغرة بين صخرتين . ونصب سوردو مدفعه الرشاش فوق الجواد . واطلق دفعتين منه على مطارديه من الفرسان ، فارغمهم على محاولة العثور على مخبأ يقيهم من رصاصه . واحس سوردو بقشعريرة في ظهره دون ان يعرف سببها . ولكن لما وصل آخر رجاله الخمسة الى الرابية ، زالت القشعريرة

واخذ يوفر ما يملكه من امشاط العتاد حتى يحتاج اليها .

وكان جوادان قد نفقا على المنحدر ، ونفق الثلاثة الباقون على الرابية . ولم يكن قد نجح الا في سرقة ثلاثة جياد ليلة امس ، جمح واحد منها ، عندما حاولوا امتطاءه عاري الظهر في الحظيرة عند المعسكر . عندما بدا اطلاق النار .

وكان بين الرجال الخمسة الذين تمكنوا من الوصول الى الرابية ثلاثة من الجرحى . واصيب سوردو بجرح في بطن ساقه وفي مكانين في ذراعه الايسر واحس بالعطش الجديد ، وبدات جراحه تتصلب ، وشعر بألم شديد في ذراعه . وشعر بصداع شديد ايضا . وعندما استلقى منتظرا وصول الطائرات ، خطرت بباله نكتة تقال عادة بالاسبانية وهي « ان على الانسان ان يتناول الموت وكانه قرص من الاسبرين » . ولكنه لم يضحك على هذه النكتة عاليا . وقطب جبينه عندما احس بالألم في راسه . وفي ذراعه عندما يحركها . واخذ ينظر الى من بقي من رجاله .

وكان الرجال الخمسة منتشرين وكأنهم نقاط في نجمة خماسية الاضلع وقدحفروا الارض بأرجلهم وايديهم ،واقاموا متاريس من التراب والحجارة وشرعوا يصلون بين هذه المتاريس بسياج من الاستحكامات اقاموه من الطين والحجارة ايضا . واستخدم جواكين خوذته الفولاذية في الحفر ونقل الطمي .

وكان قد حصل على هذه الخوذة في الغارة التي قاموا بها على القطار ، وفي الخوذة ، ثقب من عيار ناري ، وكان الجميع يهزأون منه لانه يحتفظ بها ، فقام بسد الثقب بقطعة من الخشب .

وعندما بدا اطلاق النار . وضع الخوذة على راسه . وانزلها عليه ، ومضى في تلك الرحلة الشاقة المتعبة ، التي اضناها ازيز الرصاص ودوي الانفجارات ، يصعد الرابية مع رفاقه ، واحس بثقل الخوذة على راسه ، ولكنه احتفظ بها ولم يعمل على الخلاص منها ، فأفاد منها الآن في عملية

الحفر وكأنها آلة نافعة ولم يكن الفتى قد اصيب بجراح بعد ؛ فسمع ايل سوردو يقول له بصوته العميق .. لقد نفعتك اخيرا في عمل من الاعمال .

فقال جواكين ، وقد امتلأ فمه بالجفاف النابع من الخوف والذي يفوق عادة العطش الناجم عن المعركة .. حافظ على مركزك ، وحصن نفسك . وستكون الرابح حتمـا .

وتطلع سوردو من الرابية نحو المنخفض ، حيث كان احـد الفرسان مختفيا وراء صخرة يواصل اعمال القناصة ، وقـال للفتى الذي كـان يحبه كل الحب .. وقال .. ماذا تقول ؟

والتفت احد الرجال ، وكان مشغولا في عملية الحفر والبناء ، ويداه تعملان في وضع صخرة في مكانها المناسب في استحكاماته .. وقال للغلام .. ماذا كانت الكلمة الاخيرة ؟.

فقال جواكين .. الرابح حتمـا .

فقـال الرجل .. اللعنـة .

وقال جواكين .. هناك حكمة شيوعية اخرى قد تكون اكثر صلاحا لهذا الموقف .. فقد قالت باسيوناريا .. من الخير لك ان تموت واقفا على قدميك على ان تعيش راكعا على ركبتيك .

فقال الرجل .. اللعنة ثانية .. وقال رجل ثالث .. نحن على بطوننا لا على ركبنا الآن .

وقال آخر .. اسمع ايها الشيوعي . اتعرف ان لباسيوناريا ولدا في مثل عمرك ، بعثت به الى روسيا منذ بدء الحركة ؟

فقـال جواكين .. انهـا اكذوبة .

وقال رفيقه .. ماذا تعني انها اكذوبة . لقد حدثني بها الديناميتي ذو الاسم الغريب .. انه من الحزب ايضا . فلماذا يكذب ؟

فرد جواكين .. انها اكذوبة . لا يمكن لباسيوناريا ان تفعل ذلك . وان تخفي ولدها في روسيا لتبعده عن الحرب .

وقال احد الرجال .. كم وددت لو كنت في روسيا . اولا يمكن لهذه الباسيوناريا ان تبعث بي من هنا الى روسيا ايها الشيوعي ؟

وقال ثان .. اذا كنت حقا تؤمن كثيرا بباسيوناريا ، فاحملها على ان تنقلنا من هذه الرابية .

وقال آخر .. ان الفاشيين سينقلوننا من هنا .

ورد جواكين .. لا تقل مثل هذا القول .

فرد عليه الرجل قائلا .. امسح حليب امك عن شفتيك واعطني قليلا من الطمي .. لن يرى احد منا مغيب الشمس هذه الليلة .

وكان ايل سوردو غارقا في افكاره .. ان هذا المرتفع على شكل قرحة او على شكل ثدي فتاة لا حلمة له ، او على شكل فوهة بركان . ومضى يحدث نفسه ..ولكنك لم ترَ قط في حياتك بركانا . ولن تراه . اذن فهذه الرابية قرحة لا اكثر ولا اقل . واترك البراكين جانبا . لقد فات الوقت للحديث عن البراكين .

ونظر بعناية الى الجواد الذي جعل منه متراسا ، وسمع دفقة قوية من الرصاص تنصب من وراء احد الجلاميد الصخرية . على الجواد . وشرع ينظر من الزاوية القائمة بين الجواد وبين الصخرة . فرای ثلاث جثث على المنحدر . تحته ، وقد سقطت عندما هاجمهم الفاشيون تحت ستار نيران المدافع الرشاشة الخفيفة ، فاضطر مع رفاقه الى تحطيم هذا الهجوم بقذف سيل من القنابل اليدوية . وكانت هناك جثث اخرى لم يستطع رؤيتها على الجوانب الاخرى من منحدر الرابية . وليس ثمة مكان يستطيع ان ينفذ اليه الفاشيون منه . وادرك انه طالما ظل لديه العتاد والقنابل اليدوية واربعة من الرجال فلن يستطيع الفاشيون الوصول اليه ، الا اذا جاءوا بمدفع هاون . ولم يكن يعرف اذا كانوا قد بعثوا الى لاغرانجا ،

يطلبون مدفعا . ومن المحتمل ان لا يكونوا قد فعلوا ذلك ، ولكن الطائرات ستصل حتما عما قريب . فقد مضت أربع ساعات ، منذ حلقت طائـرة الاستطلاع فوق رؤوسهم .

ومضى سوردو يهجس لنفسه ، لا ريب فى أن هذه الرابية قرحة . ونحن صديدها . ولكننا قتلنا عددا كبيرا منهم . عندما شنوا هجومهم علينا . كيف خيل اليهم أن بوسعهم مداهمتنا على هذا النحو . ان اسلحتهـم الحديثة ، تجعلهم يفقدون عقولهم بالاغراق بالثقة فيها . وهو واثق من انه قتل الضابط الشاب الذي قاد الهجوم ، فقد رآه يتدحرج من منتصف الرابية الى سفحها ، بعد ان قضى عليه بقنبلة يدوية .

ولا ريب انهم شجعان ، ولكنهم على جانب كبير من الغباء والبلادة . أما الآن فاعتقد ان عقلهم سيردعهم عن محاولة الهجوم من جديد الى ان تصل الطائرات أو يصل اليهم مدفع هاون . والهاون هو الشيء الطبيعي المألوف لكنه عندما تصور الطائرات قادمة ، رأى نفسه عاريا أمامها ، وكأنها نزعت عنه ملابسه .. ومضى يحدث نفسه .. ولكن لم يأتون بالطائـرات وفي وسعهم ان يخرجونا من مواقعنا بمدفع هاون . ولكن الفاشيين يعتزون بطائراتهم وسيأتون بها حتمـــا ، تماما كمـــا كانوا معتزين باسلحتهم الاوتوماتيكية فاندفعوا يقومون بذلك الهجوم الذي ينطوي على الغباء .. اولا يحتمل ان يكونوا في انتظار الطائرات ومدفع الهاون فى آن واحد .

واطلق احد رجاله عيارا ناريا اتبعه بثان بسرعة .. فقال له سوردو .. وفـر عتادك .

فقال الرجل .. حاول احد اولاد الزانية ان يصل الى ذلك الجلمود .

ـ وهـل وصل ؟

ـ لا لان الفاسق عـاد الـى مكانه .

وقال الرجل الذي وضع ذقنه في الطمي .. ان بيلار هي عاهرة العواهر

فهي تعرف اننا نموت هنا .

فرد عليه سوردو .. ليس في وسعها ان تعمل لنا شيئا . ماذا تستطيع ان تعمـل ؟

ــ تهاجم هؤلاء الكلاب من الخلف .

ــ كيف . انهم منتشرون حول رابية . فكيف تداهمهم من الخلف ؟ ان عددهم لا يقل عن المائة والخمسين فارسا . ولربما اربى على ذلك الآن .

وقال جواكين ــ ولكن اذا تمكنا من الصمود حتى هبوط الظلام .

فقال الرجل ذو الذقن المدفونة في الطمى ... واذا جاء عيد الميــلاد مـــع الفصح .

وقال له ثان .. واذا كان لعمتك خصيتان فانها تصبح عمك .. ابعث في طلب باسيوناريا . انها الوحيدة التي تستطيع مساعدتنا .

فرد جواكين .. انا لا اصدق قصة ولدها . واذا وجد حقا في موسكو ، فهو يدرس حتما الطيران أو شيئا من هذا القبيل .

ــ لا ، انه يختفي هناك طلبا للسلامة .

وقال ثان .. لا انه يدرس الجدليات . وقد كانت باسيوناريا تك هناك . كما كان ليستر وموديستو وغيرهما . وهذا مـــا حدثني به الرجل ذو الإســـم الغريـــب .

فقال جواكين .. انهم يذهبون ليعودوا الينا لمساعدتنا .

ــ لماذا لا يساعدوننا الآن . على هؤلاء المدلسين الروس ان يساعدونا الان

واطلق الرجل رصاصة اخرى وقال .. لقد اخطأته ثانية .

فقال سوردو .. وفر عتادك ، لا تكثر من الحديث . لئلا تعطش . فليس لدينـا مـاء على هذه الرابية .

فقال الرجل ، وهو يمد يده بزق من الخمر الى سوردو .. خذ هذه ، وأغسل فمك بها . ايها العجوز . لا ريب انك شديد العطش الان من اثر جـــراحك .

فقال سوردو .. ليشرب الجميع منها .

فقال صاحبها .. اذن ابدا انا .. وتناول جرعة كبيرة ، ثم ناولها الى من بجانبـــه .

وقال الرجل ذو الذقن المدفونة .. متى تعتقد يا سوردو ان الطائرات ستصــــل ؟

ـ في اي وقت ، كان من المنتظر ان تصل قبل هذا الوقت .

ـ وهل تعتقد ان اولاد الزانية سيعودون الى الهجوم ؟

ـ اذا جاءت الطائرات .

ولم يشعر بالحاجة الى الحديث عن مدفع الهاون ، فسيعرفون ذلك بانفسهم عندما يصل المدفع .

وقال الرجل .. لا ريب في ان لديهم الكثير من الطائرات . بعد الذي رايناه بالامس .

فرد سوردو .. عندهم اكثر مـــن اللزوم .

وكان راسه قد ثقل ، وتصلبت ذراعه ، حتى باتت اية حركة تؤلمها . وتطلع الى السماء الزرقاء المشرقة الصافية وهو يرفع زق الخمر بيــده السليمة . انه في الثانية والخمسين ، وقد ادرك ان هذه هي المرة الاخيرة التي يرى السماء فيهـــا .

ولم يكن سوردو خائفا من الموت ، ولكنه تضايق ، من ان يحصل ذلك على هذه الرابية ، التي يرى انها مكان لا يصلح لان يموت فيه الانسان . ومضى يفكر .. آه لو استطعنا النجاة .. لو تمكنا من حملهم على اللحاق بنا في

الوادي ، او من الاندفاع الى الطريق . اما هذه الفرحة في قمة الجبل ، فعلينا ان نفيد منها الى اقصى ما نستطيع ، وقد افدنا منها فعلا حتى الان

ولو عرف كم يعي التاريخ من الرجال الذين اضطروا الى استخدام قمم الروابي الموت فيها ، لما عزته هذه المعرفة ، لأن الانسان في مثل هـــذه الظروف التي يجتازها هو الان ، لا يتاثر كثيرا بما يقع للاخرين الذيــن وجدوا في ظروف مماثلة ، تماما كالارملة التي لا يعزيها ادراكها ان ازواجا محبوبين لاخريات قد ماتوا ايضا . ومن الصعب على الانسان ان يتقبل موته ، سواء اكان يخاف الموت او لا يخافه . وقد قبل سوردو حقيقة الموت لكن هذا التقبل ، كان يخلو من كل حلاوة على الرغم من اعوامسه الاثنين والخمسين وجراحه الثلاثة ، ووقوعه في شراك التطويق .

وهزء بالموت . ولكنه عبمن الخمر ، ثم تطلع الى الافق البعيد . وقــال لنفسه ، اذا كان لا بد من الموت ، فليمت ، ولكنه يكرهه .

وهو لا يخشى الموت ، اذ ليست لديه اية صورة واضحة عنه . ما الحياة فلم تكن تعدو حقلا من القمح تذروه الرياح ، على سفح جبل عال . اجل ان الحياة كالصقر الذي يحلق في كبد السماء . وليست الحياة الا جرة من الماء ، في جو قاتم تذروه الرياح من كل جانب . وما الحياة الا جواد تحت ساقيك ، وغدارة في حضنك وامامك الجبل والوادي والجدول والاشجار .

واعاد سوردو زق الخمر واحنى راسه شاكرا . وانبطح الى الامام وربت على كتف الجواد الميت حيث احرقت الرصاصة جلده . انه ما زال يشم رائحة الشعر المحترق . وفكر بالطريقة الناجحة التي امسك بها بعرف الجواد ، في هذا المكان والعيارات النارية تنهال عليه من كل جانب ، واطلق عليه رصاصة في نقطة التقاطع بين الخطين الواصلين بين العينين والاذنين . ثم تذكر كيف جعل من جسد هذا الجواد متراسه .

وكان ابل سوردو مستلقيا الان على جانبه السليم ، يتطلع الى السماء .

وقد حمت الصخرة راسه ، بينما اقامت جثة الجواد ستارا امام جسده. وكان الالم من جراحه يكاد يعصره ، لا سيما عندما تصدر منه اية حركة .

وقال الرجل المنبطح الى جانبه . . بماذا تفكر ايها العجوز . .؟

ـ لا شيء . . ولكني استريح بعض الشيء .

ـ نـم ، فستفيق عندما يأتون .

وسمعوا صوتا ينادي من المنحدر قائلا . . اسمعوا ايها اللصوص . . استسلموا الان قبل ان تمزقكم الطائرات .

فقال سوردو . . ماذا يقول الرجل ؟

ونقل اليه جوأكين ما قاله ، وانكفأ سوردو الى جانبه ورفع نفسه قليلا بحيث اصبح وراء المدفع تماما . وقال . . ربما لا تأتي الطائرات . فـلا تردوا عليهم ، ولا تطلقوا النار . وقد ندفعهم الى مهاجمتنا ثانية .

وقال احد الرجال . . لو سمحت لنا بتحقيرهم قليلا !

ـ لا ، اعطني مسدسا كبيرا . من يحمل مسدسا كبيراً !

ـ هاكـه .

ـ اعطني المسدس . . وتناوله بيده ، واطلق عيارا واحدا ، قرب الجواد ثم انتظر قليلا ، واطلق اربعة عيارات اخرى في فترات غير منتظمة . ثم انتظر قليلا حتى عد الى الستين ، واطلق العيار الاخير في جسم الحصان . واعاد المسدس الى صاحبه وهو يهمس . . املأه ثانية، واغلقوا جميعكم افواهكم ، ولا تطلقوا طلقة واحدة .

وسمعوا الصوت ينطلق ثانية . . ايها اللصوص . . .

ولم يرد عليـه احـد .

ـ اسمعوا . . واستسلموا ، قبل ان نمزقكم .

وهمس سوردو . . أنهم يستفزوننا . .

وبينما كان يراقب من موضعه راى احد الفاشيين يرفع راسه فوق صخرة . ولم تصدر طلقة عن الرابية . فعاد الراس يهبط وراء صخرته . وانتظر ابل سوردو بعض الوقت ولكن لم يقع اي تطور جديد . والتفت الى رفاقه الذين يراقبون قطاعات الرابية كلها ، فلم يتلقَّ من احدهم اية اشارة ..

وهمس قائلا .. لا تتحركوا ..

وطلع الصوت ثانية .. يا ابناء العاهرة الكبرى .. ايها الخنازير الحمر .. يا معتدين على امهاتكم ، يا شاربين حليب آبائكم ..
وخيل لسوردو ان هذه الاهانات خير من الاسبرين .. كم اهانة سنسمع ايضا .. هل سيكونون من الحمقى .

وتوقف الصوت ثانية ومضت ثلاث دقائق دون ان يسمعوا شيئا جديدا ثم راوا الرجل القابع وراء الصخرة القريبة ، التي تبعد عن مكانهم نحوا من مائة ياردة ، يرفع راسه ويطلق النار . وراى رجلا آخر ينطلق من المكان الذي كان فيه الى الصخرة القريبة ليكون بجانب رفيقه .

وتطلع سوردو الى رفاقه ، فاشاروا اليه بانهم لا يرون أية حركة . وابتسم سوردو وهز راسه . لا ريب فى انها احسن من الاسبرين . وانتظر وهو يشعر بالسعادة كالصياد .

وسمع الرجل الذي وصل الى الصخرة القريبة يحدث رفيقه ويقول .. هل تصدق ؟

ـ لا ادري .

فقال الرجل ، وهو ضابط الفريق .. انه منطقي . فهم مطوقون . وليس لهم ما ينتظرونه الا الموت .

ولم يفه الرجل الثاني بكلمة .

وقال الضابط يسأله .. ما رايك ؟

ـ لا راي لـي .
ـ هل رايت اية حركة بعد الطلقات ،
ـ ولا حركـة .

ونظر الضابط الى ساعته . كانت الثانية والخمسين دقيقة . وقال .. كان على الطائرات ان تصل قبل ساعة .

وسرعان ما انضم الى الرجلين ضابط آخر وراء الجلمود .

وقال الضابط الاول .. ما رايك يا باكو ؟

وكان الضابط الثاني يتنفس بصعوبة من ارتقائه الجبل راكضـا .. فقال .. اعتقد انهـا خدعـة .

ـ ولكن اذا لم تكن خدعة ؟ الا نكون هزءا وسخرية للناس ونحن نطوق جماعـة مـن الموتى .

ـ لقد قمنا حتى الان باكثر مما يثير الهزء والسخرية . الا ترى ذلك المنحـدر ؟

واشار الضابط الى جثث القتلى المنتشرة على سفح الرابية .

وقال الضابط الثاني .. وماذا حدث لمدافع الهاون ؟
ـ كان عليها ان تكون هنا قبل ساعة ، ان لم يكن اكثر .
ـ اذن انتظر ، فقد كفانا ما قمنا به من عناء وبلادة حتى الان .

وصرخ الضابط الاول هاتفا من جديد .. وقد وقف على قدميه ، رافعا راسه في الجلمود .. ايها اللصوص ، ايها الخنازير الحمر ، ايها الجبناء .

وتطلع الضابط الثاني الى الجندي الواقف بجانبه وهز راسه .

ووقف الضابط الاول ويده على مسدسه يسب ويشتم ، فلا يسمع ردا ثم خرج عن الصخرة ووقف في العراء وهو يقول .. اطلقوا النار ايهـا الجبناء ، اذا كنتم احياء .. اطلقوا النار على رجل لا يخاف اي احمـر خرج مـن بطن عاهرة .

وكانت الجملة طويلة ، فاحمر وجه الضابط قبل ان يكملها .. امـــا الضابط الثاني فكان رقيق البنية ، لفحته الشمس ، بعينين هادئتين وفم طويـل الشفتيـن .

وكان الضابط الاول هو الذي اصدر امره بالهجوم الاول ، وكان الملازم القتيل صديقا لهذا الضابط الثاني الذي يدعى باكو بيريندو .

ومضى الرئيس يقول .. هؤلاء الخنازير هم الذين قتلوا شقيقي وامي.. وعاد يصرخ وهو يكاد يتفجر من الغيظ .. ايها الحمر ، ايها الجبناء .

ووقف الرئيس الآن عاريا تماما واطلق عيارا من مسدسه ، على الجواد الذي يقع سوردو وراءه ، فاصاب الطمى على بعد خمس عشرة ياردة من الجواد . واطلق عيارا ناريا ثانيا إصاب الصخرة .

ووقف الرئيس يتطلع الى الرابية ، بينما اخذ الملازم بيريندو يتطلع الى جثة صديقه الملازم الثاني تحت القمة ، اما الجندي ، فاخذ ينظر الــى الارض بين قدميه ، ثم رفع راسه الى الرئيس .

وقال الرئيس .. ليس هناك من رجل حي على الرابية .. امضِ ايها الجندي وانظر ..

وخفض الجندي رأسه ، ولم يحرْ جوابا .

وعاد الرئيس يهتف .. أو لا تسمعني ؟

ـ اجل ، يا سيدي الرئيس .

ـ اذن هيا الى الرابية ، الا تسمعني

ـ اجل يـا رئيس .

ـ إذن لـم لا تذهـب .؟

ـ لانني لا اريـد يـا رئيسي .

ووضع الرئيس فوهة مسدسه في ظهر الرجل وصرخ .. الا تريـد ؟ الا تريـد ان تذهب ؟

فقال الجندي .. انا خائف يا رئيسي .

واعتقد الملازم بيريندو ، وهو يرقب وجه الرئيس وعينيه ، انه سيقتل الجندي فورا فقال .. ايها الرئيس مورا !

ـ نعم يا ملازم بيريندو ؟

ـ من المحتمل ان يكون الجندي على حق .

ـ أمن حقه ان يقول انه خائف؟ أمن حقه أن يقول انه لا يريد اطاعة الامر؟

ـ لا . ولكنه قد يكون على حق في انها مجرد خدعة .

ـ لقد ماتوا جميعا . الا تسمعني اقول انهم قد ماتوا ؟

ـ اذا كنت تعني رفاقنا على منحدر الرابية ، فانا اوافقك .

ـ لا تكن مجنونا يا باكو . اتعتقد انك الوحيد الذي احب جوليان ؟ اؤكد لك ان الحمر قد ماتوا . انظر !!

ووقف على قدميه ثم وضع يديه على الصخر ورفع نفسه عليه وصرخ.. اطلقوا النار علي ، اقتلوني !

وكان ايل سوردو ، يضحك وراء جواده ..

وانطلق الصوت ثانية .. ايها الحمر ، ايها الرعاع .. اقتلوني ! اطلقوا النار علي .

ورآه سوردو يقف فوق الجلمود ، ثم راى ضابطا آخر يقف قرب الصخرة . بينما يقف الجندي من الناحية الأخرى . وظل يرقب ما امامه ، وقد غمره السرور .. وقال لنفسه .. اطلقوا النار علي ، اقتلوني .

وهبط الرئيس مورا من الصخرة .. وقال .. هل صدقتني يا باكو ؟

ـ لا .

ـ اللعنة .. ليس بيننا الا الحمقى والجبناء .

وكان الجندي قد اختفى من جديد وراء الصخرة ، وهبط الملازم بجانبه

وعاد الرئيس ، الى شتائمه وسبابه ، دون ان يترك تعبيرا من السباب في الاسبانية لم يستخدمه . اما الملازم ، فكان كاثوليكيا تقيا . وكذلك شان الجندي . وكان كلاهما يعتبران السباب خطيئة ، يعترفـان للقس اذا اقترفاها لينالا الغفران .

وعندما اقعى الرجلان وراء الصخرة ، فصمما كل ما يربطهما برئيسهما ، اذ لم يرغبا في ان يتحمل ضميراهما وزر هذه الشتائم التي ينهال بها في يوم كهذا قد يموتان فيه . وخيل للجندي ان مثل هذه السباب جالـب للشؤم ، لا سيما وانه يقحم اسم العذراء في سبابه الذي تفوق فيه علـى سبـاب الحمـر .

وكان الملازم بريندو غارقاً في افكاره . فصديقه جوليان قد مات . وها هي جثته على المنحدر ، وهذا الانسان الكافر ، ينطلق في سبابه ، وشتائمه ليجلب لهم جميعا سوء الحظ

وتوقف الرئيس الآن عن شتائمه والتفت الى الملازم بيريندو وقد بدت عيناه غريبتين كل الغرابة .. وقال .. باكو .. سنصعد انا وانت الى الـرابية .

ـ لن اصعـد .

فقال الرئيس وقد اشهر مسدسه ثانية .. ماذا ؟

وفكر الملازم .. انه يكره هؤلاء الذين يشهرون المسدسات . انهم لا يستطيعون اصدار اي امر دون التلويح بمسدساتهم .

وقال بيريندو .. سأذهب اذا امرتني ، رغما عني ومع الاحتجاج .

فقال الرئيس .. اذن سأمضي وحيدا ، فرائحة الجبن قوية هنا .

ورفع الرجل مسدسه في يده ، وشرع يخطو صاعدا المنحدر . ووقف بيريندو والجندي يرقبانه . كان يصعد عاريا من كل دفاع او محاولة لاخفاء نفسه ، وهو ينظر الى الامام الى الجواد الميت . واخذ ايل سوردو يرقب الرئيس وهو يصعد الرابية .

وفكر سوردو .. اذن فالنتيجة لا تعدو رجلا واحدا .. ولكنه كما يبدو

هو الرئيس .. انظر الى مشيته .. يا له من حيوان .. انظر اليه يخطو الى الامام .. هذا الرجل من نصيبي ، وسأحمله معه في رحلتي . اجل انه سيسافر معي .. تعال ايها المسافر الرفيق .. تعال بخطواتك الواسعة .. اسرع .. تعال قابل النهاية .. واصل سيرك .. واسرع خطوك .. تعال كما نسير دون تمهل .. لا تتوقف وتتطلع الى رفاقك .. حسنا تفعل .. لا تنظر الى الخلف .. واصل السير وعيناك الى الامام .. انظر اليه ان له شاربا .. ما رايك فيه ؟ آه .. انه يحمل رتبة رئيس .. انظر الى كميه .. ان له وجه انكليزي .. انظر اليه .. ان له وجها احمر ، وشعرا اشقر وعينين زرقاوين .. انه لا يضع شيئا على راسه .. وشاربه اشقر .. وعيناه زرقاوان .. ان في عينيه عيبا .. آه . أقترب .. ايها الرفيق المسافر .. خذها ايها الرفيق .

وانطلقت العيارات من مدفعه الرشاش ، وسقط الرئيس على وجهه وقد انكفأ على ذراعه اليسرى . اما يده اليمنى التي تحمل المسدس ، فقد امتدت امامه . وسرعان ما انطلقت العيارات النارية من كل مكان من السفح .

واقعى الملازم وراء الصخرة ، وهو يفكر في الطريقة التي سيعود فيها الى موقعه الاول تحت النيران ، وسمع صوت سوردو الأجش وهو يصرخ على الرابية .. ايها اللصوص ، اطلقوا النار علي ! اقتلوني ..!!

ومضى ايل سوردو ، يضحك ويضحك وراء مدفعه الرشاش ، واحس بأن راسه يكاد ينفجر من الضحك .. وعاد يصرخ ثانية .. اقتلوني ايها اللصوص .. وسيحاول قتل الضابط الآخر ، عندما يترك مكانه وراء الصخرة .. فعليه أن يتركها .. اذ ليس في وسعه ان يتولى القيادة وهو في مكانه .. اذن فسيكون فريسة سائغة له .

وفي تلك اللحظة سمع الرجال اصوات الهدير الاول للطائرات . اما ايل سوردو فلم يسمعها . وانما كان يرقب المنحدر ويفكر ، مخافة ان يتمكن الضابط من النجاة . علي ان أسدد النار عليه والى امامه . واحد بيد تلمس ذراعه ، فأدار راسه وراى وجه جواكين الخائف الذعر وهو يشير

بيده الى السماء .. فتطلع الى العلى ورأى ثلاث طائرات .

وفي تلك اللحظة ، خرج الملازم بيريندو من وراء صخرته ، وهرول الى مكانه الآمن وراء المدفع الرشاش . ولم يره ايل سوردو فقد كان يرقب الطائــرات .

وقال ايل سوردو لجواكين .. ساعدني في سحب هذا .. وجر جواكين المدفع الرشاش مــن مكانه ..

وكانت الطائرات تدنو بثبات .. وفي كل لحظة يرتفع هديرها ، ويتسع حجمهـــا .

وقال سوردو .. استلقوا على ظهوركم لتطلقوا النار عليها .. اطلقوا النار امامها عندما تأتي ..

وقال سوردو .. اغناسيو .. ضع المدفع على كتف الغلام .. وانت يا جواكين .. اجلس هناك ولا تتحرك .. اهبط اكثر ..

واستلقى على ظهره يرقب الطائرات وهي تقترب .. وقال .. وانت يا اغناسيو .. امسك قوائم المدفع الثلاث .. وانت يا جواكين ، اخفض راســك .

وكان جواكين يحدث نفسه .. « تقول يا سيوناريا ان من الافضــــل أن .. » .. وانتقل من ذلك الى القول وهو يرى الطائرات تقترب .. تحية يا مريم ، ايها العذراء ، بورك الرب معك ، وطوبى لك بين النساء بابنك يسوع .. صلي لنا معشر الخاطئين في ساعة موتنا .. آمين .. وعــاد يقول .. « ايها الرب ، كم انا آسف لانني اغضبتك .. وانت يا من احبه واصلــي اليه » .

وسمع دوي انفجارات تمر وراء اذنيه ، واحس بحرارة فوهة المدفع على كتفه . وعاد الدوي يصم اذنيه . وواصل اغناسيو الامساك بالمدفع وشده الى الخلف بينما كانت حرارته تحرق ظهره .

وكل ما أستطاع ان يذكره في ساعة الموت ، هو كلمة « آميـــن اجل آمين .. امين .. اما الآخرون فيواصلو اطلاق النار .

وبدات القنابل تنهال على قمة الرابية وتعالت الانفجارات ، وتحطمت الصخور .. وعادت الطائرات ثلاث مرات تقذف بحممها . ولكن لم يبقَ احد على الرابية يحس بمجيئها .. وقامت الطائرات ، بآخر عملية انقضاض واصلت القمة وابلا من نيران مدافعها الرشاشة ومضـــت الطائرات في طريقها وقد شكلت رقم (٧) .

وواصل الملازم بيريندو ، اطلاق نيرانه الشديدة على الرابية ، ثم دفع باحدى دورياته ، الى نقطة تستطيع ان تقذف منها بالقنابل اليدوية على القمة . وبالطبع كان لا يريد ان يتعرض للخطر من جراء وجود احدهم حيا في القمة . فألقى باربع قنابل يدوية على الحطام المتبقي من الرجال القتلى والجياد الميتة ، فكسرت الصخور وحطمتها شر تحطيم ،ثم تقدم الى القمة ليلقي بنظرة على الموقع .

ولم يكن احد حيا على القمة سوى الغلام جواكين ، الذي كان فاقدا لوعيه تحت وطأة جثة اغناسيو ، وكانت الدماء تنزف من انفه واذنيه . وكان قد فقد الوعي فلم يشعر بشيء منذ وجد نفسه فجاة في قلب دوي المعركة وهديرها ، ولكن نفسه تعالى الآن ، فرسم الملازم بيريندو شارة الصليب على صدره واطلق رصاصة من مسدسه على مؤخرة راس الغلام ، فقضت عليه ، تماما كما فعل سوردو مع الجواد .

ووقف الملازم على قمة الرابية ورمى ببصره الى السفح ، الى القتلى من رجاله ، ثم راح نظره الى المكان الذي بدات منه مطاردة سوردو ورجاله . وبعد ان لاحظ تفرق قواته ، اصدر امره بربط جثث القتلى من رجاله الى الخيل ، لنقلها الى لاغرانجا .

وقال .. خذوا ذلك الرجل الذي يضع يديه على المدفع الرشاش ، فلا

بد انه سوردو . وهو اكبر الموجودين سنا .. ولكن لا .. اقطعوا راسه ولفوه في وشاح .. وبعد ان فكر لحظة واحدة عاد يقول . وفي وسعكم ان تأخذوا بقية الرؤوس من قتلاهم هنا وهناك حيث لقيناهم اول مرة . ثم اجمعوا البنادق والمسدسات والمدفع الرشاش .

ومشى هابطا الى المكان الذي توجد فيه جثة صديقه الملازم الذي قتل في الهجوم الاول ، ونظر اليه دون ان يلمسه .. ثم قال يحدث نفسه .. يــا للحرب ما اسوأها .

وبعد ان رسم شارة الصليب ، على صدره ثانية ، اخذ يهبط الجبل وهو يصلي على روح صديقه الراحل . ولم يرغب في البقاء لحظة واحدة ليرى ان كان جنوده قد نفذوا اوامره بحذافيرها .

٢٨

وبعد ان مضت الطائرات عن ميدان المعركة ، سمع روبرت جوردان وبريمتيفو صوت الرصاص ينطلق من جديد ، فكاد فؤاده يقفز من صدره. ورأى سحابة من الدخان تغطي المرتفع الاخير في المنطقة الجبلية ، ثم ابصر الطائرات الثلاث وهي تنكفىء بعيداً في السماء .

وقال روبرت جوردان يحدث نفسه .. من المحتمل ان تكون الطائرات قد قصفت فرسانها ولم تصب سوردو ورجاله بأذى . ان الطائرات تخيفك الى حدود الموت ولكنها لا تقتلك .

وقال بريمتيفو .. ان المعركة مستمرة .. واخذ يعلق شفتيه الجافتين بلسانـــــه .

ـ ولِمَ لا ؟ ان الطائرات لا تقتل احــدا .

وسرعان ما توقف اطلاق النار بصورة نهائية ، ولم يعد يسمع صوت طلقة واحدة . فان صوت طلقة مسدس الملازم بيريندو لم تصل الى اذنيه

ولم يتأثر عندما توقف اطلاق النار للمرة الاولى . ولكن لما استمر الهدوء سيطر عليه شعور من الخوف . وسمع بعد قليل انفجار القنابل اليدوية

فعاوده الأمــل . واخيــرا عــاد الهدوء من جديد .. وظل مدة طويلة ، فادرك ان كل شيء قد انتهى .

وجاءت ماريا من المعسكر ، تحمل الطعام ، من الارانب المطبوخة ،والفطر وكيسا من الخبز ، وزقا من الخمر ، وبعض الصحاف ، وكاسين واربع ملاعق . وتوقفت عند المدفع فوضعت صحنين لاوغسطين وايلاديو الذي كان قد حل محل انسيلمو ، الذي مضى فى مهمته ، وملأت لهما قدحين مــــن النبيذ .

وراقبها روبرت وهي تصعد اليه ، فى مركز مراقبته ، وقد حملت الكيس على ظهرها ، وانعكست اشعة الشمس على شعرها القصير . وسرعان ما هبط ليساعدها على ارتقاء ما تبقى من الصخور الباقية وقالت تسالــه وقد بدا الخوف فى عينيها .. ماذا صنعت الطائرات ؟

ـ لقد قصفت بقنابلها سوردو .

وكان قد بدا يصب الطعام له ولرفيقه ، فقالت .. أما زالت المعركة دائـــرة ؟

ـ لا ، لقــد انتهت .

ـ آه .. وعضت بنواجذها على شفتها وتطلعت الى الامام ، الى المرتفع

وقال بريمتيفو ـ ليست لدي شهية للطعام .

ـ يجب ان تاكل على كل حـــال .

ـ لا استطيع ان ازدرد لقمة واحدة .

فقال روبرت وهو يمد يده اليه بزجاجة الخمر .. خذ قليلا من هــذا . ثــم كــل شيئا .

فرد بريمتيفو ـ لقد سلبني موضوع سوردو كل شهية . كل انت ، فليست لدي رغبة فى الطعــام .

ومضت ماريا اليه ووضعت يديها حول عنقه وقبلته ، وقالت .. كل

أيهـا العجوز ... يجب ان تحافظ على قواك .

وادار بريمنيفو راسه منها . وتناول زجاجة الخمر ، وسب شيئا منها في جوفه وسرعان ما ازدرده . وملأ صحنه بالطعام واخذ ياكل .

وتطلع روبرت جوردان الى ماريا ، وهز راسه . وجلست بجانبه ووضعت ذراعها حول كتفه . وكان كل منهما يعرف حقيقة مشاعر رفيقه . وجلس روبرت جوردان ، يزدرد طعامه ، معجبا بالفطر ، ومحتسيا النبيذ بشراهة

وقال بعد صمت طويل ، وبعد ان انتهى من الطعام .. في وسعك ان تظلي هنا ، يا صبية اذا شئت ؟

ـ لا ، يجب ان اعود الى بيلاد .

ـ في وسعك ان تظلي هنا . فلا اعتقد ان شيئا سيحدث الآن .

ـ لا ، يجب ان اعود الى بيلار ؛ فهي تعظني ..

ـ مـاذا ؟

ـ تعظني .. وابتسمت قليلا ، ثم قبلته .. او لم تسمع قط بالعظات الدينية ؟ انها من هذا النوع ، ولكن من طراز مختلف .

ـ اذن امضي الى عظاتك .. وربت على راسها فابتسمت ثانية ، وقالت لبريمتيفو .. او تريد شيئا من المعسكر ؟

ـ لا يا ابنتي .. وادركت ماريا كما ادرك روبرت انه لـم يعد الـى طبيعته المرحـة .

ـ هون عليـك ايها العجوز ..

ـ اسمعي يا ابنتي .. انني لا اخشى الموت .. ولكن لن نتركهم يواجهون المـوت وحدهم هكذا ..

فقال روبرت .. لم يكن لنا خيار في ذلك .

ـ اعرف ذلـك . ولكن ..

لم يكن لنا خيار فى ذلــك . ومن الخير ان لا نعود الآن الى الحديــث فى هــذا . .

ـ اجل . . ولكن ان يظلوا وحيدين دون ان نساعدهم . .

ـ من الافضل ان نترك هذا الحديث . . والآن اذهبي يا صبية الىعظائك

ورآها وهي تنزل الصخور . . ثم جلس الى نفسه يفكر ويتطلع الــى الجبــال العاليــة .

لقد تحدث اليه بريمتيفو ولكنه لم يرد عليه . وكانت الشمس حارة .فلم يعبئا بحرارتها بينما جلس فى مكانه يرقب سفوح الجبال ، والمسافات الطويلة من اشجار الصنوبر الممتدة عليها . ومضت ساعة . وكانت الشمس قد انتقلت الى الناحية اليسرى منه ، عندما رآهم ، فوق قمة المنحدر ، فالتقط منظاره .

وبدت الجياد صغيرة ودقيقة ، عندما ظهر الفارسان الأولان فى قمـه المنحدر . ثم راى اربعة فرسان آخرين انتشروا على الجبال ، ثم رأى وراءهم عددا كبيرا من الفرسان والجياد يسيرون فى رتل طويل . وبينما كان يراقبهم شعر بالعرق يتصبب منه . وكان هناك رجل يسير في مقدمة الرتل . وتلت ذلك جياد لا حصر لها ، لا فرسان لها ، وفى ذيل الرتل فارسان . ثم جاء الجرحى ، وقد سار بجانبهم فرسان آخرون . وانتهى الرتل بعدد آخر من الفرسان .

ورآهم روبرت جوردان ينحدرون . . ثم يختفون بين الاشجار . ولــم يستطع روبرت تمييز الاوشحة التي كانت تضم رؤوس سوردو ورفاقه ولا المدفع الرشاش الذي كان يستخدمه .

ولم يشعر الملازم بيريندو ، الذي كان يسير في مقدمة الرتل ، بأيــة غطرسة او تعجرف ، وانما كان يحس بالخواء الذي يعقب العمل عادة . . كان يفكر فيما عمله . . او ليس قطع الرؤوس من الاعمال المتناهية فــي الوحشية . ولكنه يريد ان يقيم الدليل ، وان يعرف القتلى . وقال يحدث

نفسه .. لا ريب في انني سألقي بعض العنت حول ما فعلت . فمن يدري؟ ولكن قطع الرؤوس قد تعجبهم ، فبينهم من يحب مثل هذا العمل . ومن المحتمل ان يبعثوا بالرؤوس المقطوعة كلها الى بورغوس انه عمل متوحش . وكانت الطائرات في منتهى القسوة والبطش . مع انه كان في وسعنا ان ننتهي من العملية كلها ، بمدفع واحد من مدافع الهاون ، ودون ان نمنى بأية خسائر . كل ما كنا نحتاجه بغلان يحملان القنابل ، وبغل ثالث يحمل المدفع نفسه . يا لنا من جيش ! كل هذه القوة النارية لدينا .. ثم مدفع هاون .. ولكن دع عنك هذا الحديث .. انك تبني لنفسك جيشا . وستكون عما قريب بحاجة الى مدفع جبلي .

وراح فكره الى صديقه جوليان ، الذي مات على الرابية ، والذي ربطت جثته الآن الى احد الجياد ، التي تسير في المقدمة ، والتي بلغت الان حدود الغابة لتخوض في ظلامها ، تاركة ضوء الشمس الساطع وراءها على الجبل .. وسرعان ما شرع يصلي على روحه .

وقال .. « طوباك .. يا أم يسوع .. انت رمز حياتنا وآمالنا واحلامنا .. اليك نتطلع باناتنا واحزاننا وبكائنا في هذا البحران من الدموع .. »

ومضى يواصل صلاته ، والجياد تضرب بحوافرها فروع الصنوبر المنتشرة هنا وهناك ، والضوء يتسلل من بين الاغصان العالية ، وكأنه يتسلل من اعمدة احدى الكاتدرائيات .

واجتاز الغابة ليصل الى الطريق الصفراء الممتدة الى لاغرانجا . وارتفعت سحابة من الغبار ، من حوافر الجياد ، نغطت الموتى والاحياء على حد سواء

وهنا رآهم انسيلمو يمرون به . فعد الموتى والجرحى ، وتعرف على بندقية سوردو ، الاوتوماتيكية . ولم يدر ما تنطوي عليه تلك الاوشحة المحزومة ، الموضوعة على ظهور الجياد ، ولكنه في طريق العودة ، مر بالارض التي حارب عليها سوردو فادرك لتوه ما تضمه تلك الاوشحة . وبعد ان عد القتلي مضي في طريقه الى معسكر بابلو .

ومضى انسيلمو يسير وحيدا في الظلام ، فاحس بخوف يتسلل الى فؤاده . كلما لمست قدماه الفجوات التي تركتها القنابل في الارض . وكان هذا الخوف نابعا عن اثر القنابل نفسها . وعما رآه على الرابية .. ومضى يغذ السير لينقل الانباء الى رفاقه . واخذ وهو في الطريق ، يصلي على ارواح سوردو ورفاقه . ولقد كانت هذه هي المرة الاولى التي يصلي فيها منذ بدأت الحركة .

ولم يستطع ان يحول بين فكره ، وبين ما يتوقع حدوثه في اليوم التالي.. ومضى يخاطب نفسه .. ولكن لم التفكير ، وسأنفذ ما يقوله لي الانكليزي وعلى الشكل الذي يحدده لي . ولكن يجب ان اظل قريبا منه ، واني لأرجو ان تكون تعليماته دقيقة واضحة ، اذ انني لا استطيع السيطرة على نفسي تحت وطأة القنابل الهابطة من الجو ..واني لابتهل اليك يا رب ان تساعدني غدا ، لاسلك سلوك الرجل الصامد في هذه الساعات الاخيرة .. ساعدني يا رب على تفهم احتياجات اليوم .. ساعدني يا رب على السيطرة على حركات ساقي ، حتى لا افر عندما تحين الساعة .. ساعدني يا رب .. على ان اكون رجلا في ميدان المعركة .. ولما كنت قد ابتهلت اليك يا رب.. طالبا هذا العون ، فأرجو ان تمنحني اياه ، واثقا من انني ما كنت لأطلبه لو لم يكن الامر جدا ، ومن انني لن اطلب شيئا آخر منك فيما بعد .

واحس بشعور من الراحة يغمره بعد هذه الصلاة ، وهو يسير منفردا في حلكة الليل . وغدا واثقا من انه سيسلك سلوكا رائعاً عندما تحين ساعة المعركة .. وبدا يهبط الآن من المنطقة الجبلية العالية .. وعاد يصلي لأرواح سوردو ورفاقه ، وسرعان ما وصل الى مركز الخفارة الاعلى عندما سمع صوت فيرناندو ينتهره ..

فقال .. انه انا .. انسيلمو .

ـ حسنا .

ـ هل عرفتم ما حل بسوردو ؟

ـ اجل . . فقد اخبرنا بابلو .

ـ وهل كان هناك ؟

ـ ولم لا . لقد ذهب الى الرابية ، بعد عودة الفرسان .

ـ هل قـال لكـم . .

ـ لقد قال لنا كل شيء . . يالهم من وحوش هؤلاء الفاشيون . يجب ان نقضي على كل هؤلاء الوحوش فى اسبانيا . فهم يفتقرون الى كل مفاهيـم الكـرامـة .

وقطب انسيلمو جبينه فى الظلام . وقبل ساعة ، لم يكن يتصور قط ان في وسعه أن يبتسم من جديد . . يا له من اعجوبة هذا الانسان ، فيرناندو

فقال لفيرناندو ـ اجل . يجب ان نعلمهم . يجب ان نستولي علـى طائراتهم واسلحتهم الاوتوماتيكية ، ودباباتهم ومدافعهم ، وان نعلمهـم الكرامـة .

ـ تماما . انـا سعيد لموافقتك .

وتركه انسيلمو واقفا وحده بكبريائه في الظلام ومضى هابطا الى الكهف.

٢٩

ووجد انسيلمو ، روبرت جالسا الى المائدة داخل الكهف ، وامامه بابلو . وكان بينهما وعاء امتلأ بالخمر ، وأمام كل منهما كأس مترعة . ورأى ان روبرت يحمل قلمه بيده ، وقد اخرج دفتره امامه . أما بيلار وماريا فكانتا في مؤخرة الكهف . ولم يكن انسيلمو يعرف ان بيلار ، احتفظت بالفتاة هناك لتحول بينها وبين سماع ما يتحدث به الرجلان ، وخيل اليه ان من الغرابة بمكان ، ان لا تكون بيلار معهما على المائدة .

ورفع روبرت بصره عندما دخل انسيلمو ، بعد ان رفع الستارة عن مدخل الكهف . اما بابلو ، فقد ظل محملقا ببصره الى الامام ، يتطلع الى وعاء الخمر دون ان يراه .

وقال انسيلمو ـ لقد اتيت من الطريق العلوي . .

فقال روبرت . . اخبرنا بابلو كل شيء .

ـ كان هناك ستة من القتلى على الجبل ، وقد قطعوا رؤوسهم . وقد رايتهم في الظلام .

فاحني روبرت راسه . وجلس بابلو في مكانه لا ينبس ببنت شفة . ولم

يبدِ على وجهه أي تعبير ، وانما ظلت عيناه تحملقان في وعاء الخمر ، وكأنه لـم ير وعاء مـن قبل .

فقال روبرت جوردان لانسيلمو ـ اجلس .

وجلس الرجل العجوز الى المائدة ، ومد روبرت يده فحمل زجاجة الويسكي التي كان قد اهداه اياها سوردو . كانت الزجاجة لا تزال ملأى حتى نصفها . ومد روبرت يده فتناول قدحا ، وصب من الزجاجة فيه ثم ناوله لانسيلمو قائلا .. اشرب هذا ايها العجوز .

ورفع بابلو بصره عن وعاء الخمر ، وتطلع الى وجه انسيلمو وهو يحتسي الويسكي ثم عاد الى نظرته الذاهلة .

واحس انسيلمو وهو يبتلع الويسكي بَشيء يحرق انفه وعينيه وفمه ، ثم احس بدفء لذيذ في معدته . ومسح شفتيه بمؤخرة يده .. وتطلع الى روبرت قائلا .. اني وسعي أن اتناول كأسا اخرى ؟

ـ طبعا .. وصب له روبرت قدحا ثانيا .

ولم يحس انسيلمو بالنار تحرقه هذه المرة ، وانما احس بالدفء الشديد يتضاعف . وتطلع العجوز الى الزجاجة ثانية .. فقال روبرت .. البقية للغد .. ماذا حدث على الطريق ايها العجوز ؟

ـ كانت هناك حركة ضخمة . وقد دونتها كلها كما علمتني . وقد اوكلت امر المراقبة الى امراة من جماعتنا ، وساعود اليها لآخذ تقريرها .

ـ وهل رايت مدافع مضادة للدبابات ؟ هذه المدافع التي تحملها عجلات ولهـا فوهات طويلة ؟

ـ اجل . مرت اربع شاحنات على الطريق ، في كل منها مدفع من هذا النوع وقد غطوها باغصان الصنوبر . وفي كل شاحنة ستة رجال ، ومع كل منهم بندقيته .

ـ اربعـــة مدافـــع ؟

ـ اجــل اربعـــة .

ـ قل لي ، وماذا مر على الطريق ايضا ؟

وشرع انسيلمو ينقل اليه كل ما رآه على الطريق ، من البداية حتـــى النهاية ، مستعينا بذاكرته الممتازة ، وهي الذاكرة التي يعتمد عليها كل من يجهلون القراءة والكتابة ، وفي غضون ذلك ، مد بابلو يده فملأ لنفسه قدحا آخر مـــن الخمـــر .

ومضى انسيلمو يقول .. وكان هناك الفرسان الذين وصلوا الى لاغرانجا من المنطقة الجبلية ، حيث قاتل ايل سوردو .. ثم ذكر له عدد الجرحى الذين رآهم وعدد القتلى .. ومضى يقول .. وكانت هناك ربطات لـــم اعرف محتوياتها اولا ، ولكنني عرفتها فيما بعد . لقد كانت الرؤوس . كانت القوة سرية من الخيالة ، لم يبق فيها الا ضابط واحد . ولم يكن الضابط الذي رايناه فى الصباح . عندما وصلوا الى هنا . لا ريب في ان ذاك قد قتل . وقد رايت بين القتلى ضابطين ، ورأيت مدفـــع سوردو الرشـاش .. هذا كل شيء .

ـ يكفي .. ولكن قل لي ، من سبق له من جماعتنا ، أن مر بالخطوط .

ـ اندريه وايلاديـــو .

ـ ايهمـــا الافضل ؟

ـ اندريـــه .

ـ كم يحمله الوصول الى نافاسيرادا من الوقت ؟

ـ اذا لم يكن يحمل شيئا وكان حذرا ، فانه يستطيع الوصول في ثلاث ساعات . اما نحن فقد سلكنا طريقا اطول ، ولكنها اكثر امنا بسبـــب مـــا نحملـــه .

ـ انت واثق من انه يستطيع القيام بالرحلة ؟

ـ ليس هناك من شيء مؤكـد .

ـ حتى ولا انت ايضـا ؟

ولا انـــا .

وقال روبرت يحدث نفسه .. هذا هو القرار ، لو قال انه يستطيع القيام بالرحلة بكل تأكيد ، لما توانى عن ارساله .

ـ اذن هل في وسع اندريه ان يصل الى هناك بنفس سرعتك ؟

ـ قد يكون اسرع مني ، فهو اكثر شبابا .

ـ ولكن يجب ان تصل هذه الرسالة الى هناك .

ـ اذا لم يحدث له شيء فسيصل . اما اذا حدث شيء ، فان ما يحدث قـد يقـع لكل انسان .

ـ اذن سأكتب رسالة ، وابعث بها معه . سأشرح له اين يجد الجنرال سيكون في مقـر قائد الفرقة .

ـ انه لـن يفهم اي شيء عن الفرق . فطالما كان هذا الموضوع يربكني . يجب ان تعطيه اسم الجنرال وان تبين له اين يلقاه .

ـ ولكنه سيعثر عليه في مقر قائد الفرقة .

ـ ولكن هل هذا اسم مكان ؟

ـ طبعا ايها العجوز . انه المكان الذي اختاره الجنرال . انه المكان الذي قرر ان يجعل منه مقر قيادته للمعركة المقبلة .

وقال انسيلمو ، وقد بدا الاعياء عليه بحيث ظهر بليدا لا يفهم الكلمات .. اذن اين هذا المكان ؟. ان الاصطلاحات تربكه فهو يخلط بين الكتائب والفرق والفيالق . لقد كـان اولا الارتال ، ثـم جاءت الكتائب فالالوية ثـم ظهـرت الفرق ..

وقال روبرت .. على رسلك ايها العجوز .. وقد تبين لروبرت أن انسيلمو اذا كان عاجزا عن الفهم ، فسيعجز اندريه كذلك . ومضى يقول .. ان هذا المكان ، هو المقر الذي اختاره الجنرال لقيادة فرقته . والفرقة تتألف من لوائين . وقد يكون المكان كهفا او نفقا او ملجأ .. على اندريه ان يسأل عن الجنرال .. وعن مقره ، وعلى اندريه أن يسلم الرسالة الى الجنرال او الى رئيس اركان حربه او الى شخص آخر سأكتب اسمه . سيكون واحد من الثلاثة هناك حتما ، حتى اذا كان الآخران قد مضيا للتفتيش على استعدادات الهجوم . افهمت الان ؟

ـ اجـل .

ـ اذن استدع اندريه ، وسأكتب الرسالة الآن ، واختمها بهذا الختم .. واخرج ختمه الرسمي .. وقال .. انهم يحترمون هذا الختم .. استدع اندريه وسأشرح له ايضا .. يجب ان يذهب بسرعة ، ولكن عليه ان يفهم اولا

ـ اذا كنت انا قد فهمت ، فسيفهم هو حتما . ولكن يجب ان توضح له ايضاحا كافيا ، فموضوع الفرق واركان الحرب لغز بالنسبة الينا . لقد كنت دائما امضي الى مكان معين . الى بيت مثلا . ففي نافاسيرادا ، كانت القيادة فى فندق عتيق . اما فى غوادارام ، فهي فى بيت تحيط به حديقـــة .

فقال روبرت .. اما بالنسبة الى هذا الجنرال ، فستكون فى مكان قريب من الخطوط . ولا ريب فى انه مكان تحت الارض لوقايته من الطائرات . وسيتمكن اندريه من العثور عليه بسهولة اذا سأل ، واذا عرف كيف يسأل وعليه اولا ان يكشف عن الرسالة التي يحملها . ولكن امض الآن وابحث عنه ، اذ يجب ان تصل هذه الرسالة بسرعة .

وخرج انسيلمو .. وشرع روبرت يدون فى دفتره .

فقال بابلو وهو لا يزال يتطلع الى الوعاء .. اسمع يا انكليزي .

فقال روبرت دون ان يرفع راسه .. انني اكتب الآن .

فعاد بابلو يقول .. اسمع يا انكليزي . لا حاجة بك الى اليأس . فبدون

سوردو لدينا عدد كاف من الرجال لاحتلال المراكز ونسف الجسر .

وقال روبرت دون ان يتوقف عن الكتابة .. حسنا .

ـ لدينا الكثير . لقد اعجبت بصواب احكامك اليوم يا انكليزي . واعتقد ان لديك دماغا كبيرا . وانك اذكى مني . ولذا فقد وضعت ثقتي فيك .

وظل روبرت يحصر تفكيره في تقريره الى غولز ، محاولا ان يضمه في اقل ما يمكن من العبارات المقنعة . انه يحاول اقناعه بالعدول عن الهجوم . موضحا ، أن السبب لا يعود الى خوفه من خطر مهمته ، ولكنه يريد ان يبسط له الحقائق كاملة .

وعاد بابلو يقول .. يا انكليزي !

ـ انني اكتب الان .

وخيل اليه ان واجبه يدعوه الى ارسال صورتين من التقرير . ولكن اذا بعث برجلين ، من رجاله ، نقص العدد اللازم للمهمة .. ومضى يحدث نفسه .. ترى لماذا هذا الهجوم ؟ انه قد يكون هجوما بقصد الحيلولة دون هجوم معاد .. او انه قد يستهدف سحب هذه الفرق المعادية الى هذه الجبهة من جبهة اخرى . وقد تكون الغاية منه المجيء بطائرات العدو من الشمال .. ومن المحتمل أن لا تكون القيادة العامة تتوقع له النجاح . ما يدريني ؟ على كل حال ، هذا تقريري الى غولز . انني لن انسف الجسر قبل ان يبدأ الهجوم . فالاوامر لدي واضحة . واذا توقف الهجوم ولم يحدث ، لن انسف شيئا . ولكن علي ان احتفظ هنا بأقل عدد ممكن من الرجال ، يكفي لتنفيذ الاوامر .

وقال يسأل بابلو .. ماذا قلت ؟

ـ قلت انني اثق فيك يا انكليزي .

وفكر روبرت .. كم كنت اتمنى لو كانت لي الثقة بنفسي .. ومضى يواصل كتابته .

٣٠

وهكذا تم تلك الليلة ، اعداد كل ما يجب اعداده . وقد اصدر روبرت اوامره كلها . ومضى إندريه في مهمته منذ ثلاث ساعات . وعرف كل انسان واجبه في الصباح .. وهو لا يدري .. هل يبدأ الهجوم مع الفجر ، او لا يبدأ .. لكنه يعتقد انه سيبدأ .. بهذا كان يحدث نفسه ، وهو يعود من المركز العلوي حيث مضى يتحدث الى بريمتيفو .

وشرع يحدث نفسه .. ان غولز هو الذي سيقوم بالهجوم ، ولكنه لا يملك صلاحية الغائه . اما اوامر الالغاء فيجب ان تصدر عن مدريد . وليس ثمة مجال ، في ايقاظ احد من نومه في مدريد ، وحتى اذا استيقظوا، فانهم لن يستطيعوا التفكير تحت وطأة النعاس الشديد .. وكان علي ان ابعث بتقريري الى غولز قبل هذا الوقت ، ولكن .. كيف كان في امكاني ان اعرف اي شيء قبل وقوعه ؟ انهم لم ينقلوا هذه المعدات الا بعد هبوط الظلام . ولم يكونوا يرغبون في ان ترى الطائرات شيئا من حركات قواتهم . ولكن ما قصة كل هذه الطائرات الفاشية ؟

ولا ريب في ان جماعتنا ، قد تلقوا انذارا كافيا من هذه الطائرات ..

ولكن الا يحتمل ان يكون الفاشيون يحاولون تغطية هجوم آخر يشنونه فى كوادالاجارا . فهناك كما هو المعروف : قوات ايطالية كبيرة محتشدة في سوريا وفى سيغونيزا ، بالاضافة الى تلك العاملة فى الشمال . وليس في وسعهم أن يشنوا هجومين كبيرين فى آن واحد ، اذ يفتقرون الى الجنود والى المعدات اللازمة .. هذا مستحيل .. اذن فلا ريب في انها خدعة .

ولكننا نعرف عدد القوات الايطالية التي نزلت الى البر في قادش فى هذا الشهر والشهر الذي سبقه .. وقد يحاول الفاشيون الكر من جديد فى كوادالاجارا ، في خطة لا تنطوي على السخف كخطتهم السابقة . وفي وسعهم ان يقوموا بهجوم ناجح هناك ، فقد افهمه هانس هذا الاحتمال . وقد اقترفوا الكثير من الاخطاء فى المرة السابقة . وكان الهجوم فى مجموعه فاشلا ، ولكنهم لم يستخدموا نفس القوات التي استخدموها في هجوم ارغاندا ، على طريق مدريد ـ فالانسيا . اذن لم لم يحاولوا هذا الهجوم في نفس الوقت . لم ؟ متى نعرف ؟!

ومع ذلك فقد تمكنا من صدهم فى المرتين بنفس ما نملكه من قوات . ولو شنوا الهجومين فى وقت واحد لما تمكنا من صدهم .. ولكن لم اقلق انا .. انظر الى المعجزة السابقة . وعليك اما أن تنسف هذا الجسر فى الصباح أو لا تنسفه . وقد تنسفه فى يوم آخر أو لا تنسفه ابدا ، فقد تضطر الى نسف جسر آخر . وانت لست الذي تقرر .. وانما تنفذ الاوامر .. اذن فعليك ان تنفذ دون ان تفكر بما وراء هذه الاوامر .

والاوامر لديك الآن واضحة كل الوضوح . أجل انها واضحة .. ولكن لا تجزع ولا تخف .. اذ ان عدوى الخوف قد تنتقل الى من يعملون معك ،

ولكن قصة هذه الرؤوس التي قطعوها .. والرجل العجوز .. يصل بمفرده الى القمة ، ليرى اجسادا بلا رؤوس . هل كان هذا المنظر يعجبك لو وقعت عينك عليه ! لقد اثر عليك هذا ، اجل لقد اثر عليك . وقد تأثرت

اليوم اكثر مستمرة . ومع ذلك فقد سلكت حتى الآن سلوكا ممتازا . لقد سلكت حتى الان على ما يرام .

ومضى يضحك .. انك تصلح معيدا للاسبانية في جامعة مونتانا . ولا ريب في انك تتقن هذا العمل . ولكن لا تفكر ، بانك شيء غريب . فانت لم تمض بعيدا في عملك هذا .. وهل تذكر دوران .. الذي لم يتلق اي تدريب عسكري ، وكان ملحنا موسيقيا قبل بدء الحركة .. وقد غدا الآن قائدا ممتازا .. فقد كان من السهل على دوران ان يتعلم كما يتعلم لاعب الشطرنج حل احجية .. وانت . لقد درست فن الحرب منذ كنت صبيا ، وكان جدك قد لقنك دروسا عن الحرب الاهلية الامريكية .. آه لقــد تذكرت دوران . وكم يكون رائعا لو رأيته من جديد .. لا ريب في انك ستراه في جيلورد بعد ان تنتهي من موضوع الجسر هذا .. اجل بعد ان تنتهي . لترى ما حققه من اعمال .

اجل سأراه في جيلورد ، بعد ان انتهي . ولكن لا تخدع نفسك ، انــك ستنجز عملك وتتقنه ، دون ان تخدع نفسك . وقد لا ترى دوران ثانية .. ولكن هل رؤية دوران امر مهم .. دع عنك هذه الخيالات ولا تتعلق بمثل هـــذه التفاهــات .

ثم دع عنك هذه العزلة البطولية ايضا ، فنحن لسنا بحاجة الى رجال يحملون مثل هذه الافكار في هذه الجبال . لقد حارب جدك اربع سنوات في الحرب الاهلية ، وها انت تنهي السنة الاولى من حربك هنا الآن . وما زال امامك وقت طويل تقضيه ، وانت لائق تماما لهذا العمل . وهنــاك ماريا معك الان . لقد تم لك كل شيء . فعليك ان لا تجعل القلق رائدك . فما قيمة احتكاك بسيط بين عصابة من الثائرين وسرية من الفرسان ؟ انها لا شيء في مقياس الحروب . وماذا يضيرك اذا كانوا قد قطعوا الرؤوس ؟ فهل يزعجك هذا ؟ يجب ان لا تهتم به مطلقا .

كان الهنود الحمر يقطعون الرؤوس أيضا عندما كان جدك يحارب في الحرب الاهلية . او لا تذكر الخزانة الموجودة فى مكتب والدك ، وما فيها من اثار تلك الحرب من رؤوس السهام ، ورياش كانت على الهنود الحمر ، واقواس وغير ذلك من وسائل الحرب البدائية عند الهنود .

لماذا تتذكر هذه الاشياء ؟ كان اعليك ان تذكر اشياء اخرى اكثر دقة وعملية . او لا تذكر سيف جدك الابيض الصقيل فى غمده ، وقد رق طرفه من كثرة استعماله . او تذكر بندقية جدك ومسدسه . لقد كان هـذا المسدس اروع ما امسكت به يدك من سلاح ، على الرغم من قدمه واهتراء « ماسورتـه »

وكان في وسعك دائما ، ان تأخذ المسدس من الدرج وان تمسك به فيقول لك جدك .. امسكه بحرية وانطلاق .. ولكن لم يكن في وسعك ان تلهو به لأنه كان سلاحا خطيرا .

وقد سالت جدك ذات مرة ، اذا كان قد قتل انسانا بهذا المسدس فكان رده بالإيجاب . وعندما سألته ان يحدد الوقت ، قال « في حرب الثورة وبعدها » . فقلت لجدك .. اولا تروي لي القصة يا جدي ؟ قال : لا يهمني الحديث عنهـا يـا روبرت .

وبعد ان قتل والدك نفسه بهذا المسدس ، وعدت الى بيتك من المدرسة، ومضيت مع الجثمان الى مقره الاخير ، ثم رجعت الى البيت ، اعاد لك قاضي التحقيق المسدس وهو يقول .. اظنك يا بوب تريد الاحتفـاظ بالمسدس . ان الواجب كان يحتم علي الاحتفاظ به ، ولكن والدك كان يعتز به فهو من مخلفات ابيه الذي استخدمه فى حروبه . يا له من سلاح . لقد جربته الليلة . وهو ما زال صالحا للاستعمال .

الا تذكر انك أعدت المسدس الى موضعه في الدرج ، ولكنك عدت فحملته عندما مضت مع احد رفاقك الى الهضبة التي لا ينقطع الثلج عنها ابدا . وفيها مستنقع كبير .. او لا تذكر انك اخذت المسدس ووقفت على طرف

البحيرة تتطلع الى صورتك في الماء وانت تحمل المسدس ، ثم اسقطته في الماء . اترى الدوائر التي احدثها سقوطه .. وقال لك صاحبك .. انا اعرف يا بوب ، لماذاقذفت بالمسدس .. فرددت عليه قائلا من الخير ان لا نتحدث عن هذا الموضوع ثانية .

ترى .. ماذا يفكر جدك ، لو عاش الآن . وعرف ما فعلته باسلحته التي لم يبق منها الا سيفه . لقد كان جدك جنديا من خيرة الجنود .. وهذا ما يقوله جميع النـــاس عنه ..

آه .. كم اود لو كان جدي هنا فى مكاني .. ولكن قد التقي به ليلة غد .. هذا اذا صح ان هناك حياة اخرى كما يقولون ، وان كنت واثقا ، ان ليست هناك مثل هذه الحياة .. ولكنني اود الحديث اليه . فهناك الكثير مـن المسائل التي اود سؤاله عنها . ومن حقي ان اسأله عنها الآن ، بعد ان اصبحت اقوم بنفسي بما كان يقوم به من عمل . ولا ريب عندي في انه لن يكترث اذا ما سألته الان . اما من قبل فلم يكن لي حق فى مثل هذه الاسئلة وقد كنت افهم ، ان لا يرد علي ، لانه لا يعرفني . اما الآن فسنصبـــح صديقين حتما .. آه كم بودي لو تحدثت اليه الان وسألته المشورة . حتى ولو لم اسأله المشورة ، فاني ارغب فى الحديث اليه .. ولعل من العار ، ان تكون مثل هذه القفزات فى الزمن بين رجلين .. مـــن طراز كطرازي وطـراز جـدي .

وبينما مضى روبرت فى مثل هذه الافكار ، ادرك ، انه اذا قدر له لقاء جده ، فانهما معا ، سينزعجان من حضور والده هذا اللقاء .. ولكن من حق كل انسان ان يحضر هذا اللقاء ، وان كان مثل هذا الحق امر سيء الغاية .. ثم راح يقول .. وانني افهم هذه الحقيقة ، ولكنني لا اوافق عليها .. فقد يحدث تأخير في موعد اللقاء .. اجل يجب ان يحدث . وهذا مـا افهمه .. اجل .. ولكنك مشغول بنفسك الى الحد الذي لا تستطيع ان تقوم فيه بعمل كهـذا .

آه ، يا للجحيم ، كم كنت اود ان يكون جدي هنا . ولو لمدة ساعة على

الاقل . ولعله قد بعث لي بما احمله من مواهب عن طريق ذلك الرجل ، الذي اساء استعمال البندقية . ولعل هذا هو الاتصال الوحيد الذي قام بيننا .. ولكن لم لا يطول الزمن فاتعلم منه اشياء كثيرة غير التي تعلمتها من ذاك .. ثم ذلك الخوف الذي شعر به جدي في البداية . قبل ان يقضي تلك السنوات الاربع في القتال ، قد انتقل عبر ذلك الوسيط ، لكن العصارة الطيبة من شجاعته قد انتقلت الي ايضا عن طريق ذلك الجبان .

وانني لن انسى ما شعرت به من الم عندما عرفت انه جبان .. اجل فلقد جئت من جبان ، اما هو ، فلم يجيء من جبان . لقد كان جبانا وهذا اسوأ ما يمكن للانسان ان يتصف به من صفات . ولو لم يكن جبانا لصمد لتلك المراة ، ولم يدعها تخدعه .. ترى كيف كنت ساكون ، لو تزوج امراة مختلفة .. هذا شيء لن اعرفه قط .. ولكن لم كل هذا الحديث الان ، عن العصارة الطيبة وما شابه ذلك ، قبل ان تنتهي من مهمتك في الغد . لا تتعجل الامور يا هذا .. وانتظر حتى الغد ، لترى اية عصارة تملكها حقا

وعاد يفكر بجده من جديد .. لقد قال له ذات مرة .. أسمع يا روبرت. ان جورج كاسترو لم يكن قائدا بارزا من قادة الفرسان ، بل لم يكن رجلا ذكيا بالمرة .. ولكنه كان قادرا على الخلاص من الورطات دائما .. واخيرا وقع في ورطة ولم يستطع النجاة منها . اما فيل شيريدان فقد كان رجلا ذكيا وكذلك كان جيب ستيوارت . اما جون موسبي ، فقد كان أروع قائد للفرسان وجد حتى الآن ..

ومضى روبرت يحدث نفسه .. علي ان احدث غولز عن جدي . لا ريب في انه لم يسمع به قط . ولعله لم يسمع ابدا بجون موسبي . امـــا البريطانيون فقد سمعوا بهما حتما ، اذ انهم كانوا اكثر اهتماما باحداث حربنا الاهلية من غيرهم من الاوروبيين . ولقد قال كاركون : ان في وسعي بعد انتهاء هذه الحرب ان امضي الى مؤسسة لينين في موسكو ، اذا رغبت

في ذلك . وقال لي ايضا ، ان في وسعي دخول الكلية العسكرية التابعة للجيش الاحمر ... لا ادري ماذا يرى جدي في هذا الموضوع ، وهو الجد الذي لم يتنازل قط في حياته ، ان يجلس مع اي ديمقراطي على مائده واحـــدة .

حسنا انني لا اريد ان اكون جنديا . وهذا ما اعرفه تماما . اذن فلنترك هذا الموضوع بصورة نهائية . وكل ما اريده هو ان نكسب هذه الحرب . واني لاعتقد ان الجنود الممتازين حقا لا يصلحون لأي شيء آخر ابدا .. ولكن هل هذا هو الراي الصحيح .. لندرس حياة نابليون وولنغتون فلماذا ، لا تنفكعن ترديد هذه السخافات ؟

ومن عادة عقلك ، ان يكون رفيقا طيبا .. فما شأنه الليلة .. لقد كان طيبا فقط ، عندما كنت تتحدث عن جدك . ولكن حديثك عن والدك ، قذف بك بعيدا في مهامه الفكر .. لقد فهمت قضية والدك ، وقد غفرت له كل شيء ، واشفقت عليه . ولكنكتخجل منه .

من الخير ان لا تفكر ابدا .. وعما قريب ستكون مع ماريا ، وستتوقف عن التفكير . وهذا خير حل الآن .. وعندما تركز تفكيرك على موضوع من المواضيع ، فانك لا تتوقف ابدا .. ومن الخير ان لا تفكر ابدا

ولكن لم لا تفترض ان الطائرات عندما تقذف بحممها ستحطم تلك المدافع المضادة للدبابات ، وتمضي دبابات غولز في طريقها تشقه امام الإبطال من وحدات اللواء الرابع عشر ، ووحدات لواء دوران ، فتحتل قواتنا سيغوفيا ليلـــة امس .

ولكن عليك ان تنسف الجسر غدا . ولن يكون هناك تأجيل في موضوعه . ولا ريب في ان افكارك الاخيرة ، هي الصورة الحقيقية للموقف كما هو . وعليك ان تنسف الجسر مهما حدث لاندريه .

وعندما عاودته هذه الفكرة ، وهو يقطع الجزء الاخير من الطريق ، شعر بالراحة تعاوده . . فقد اختفى منه ذلك الشعور بالقلق ، وعدم التأكد من الموعد ، الذي لازمه منذ بعث باندريه الى غولز حاملا اليه تقريره . وقد اصبح واثقا الآن ان الوليمة المقررة الغد تكفي . . وقال لنفسه . . من الخير للانسان ان يكون واثقا دائما .

٣١

واجتمعا في الفراش ثانية ، وكانت الساعة متأخرة في الليلة الاخيرة . وكانت ماريا تكاد تلتصق به ، وقد احس بنعومة جسدها وهي تلمس جسده كما شعر بثدييها الناهدين وكأنهما تلان صغيران يبرزان فوق السهل الفسيح المنبسط . ويفصل بينهما واد ؛ بينما يمتد وراءهما ريف فسيح هو عنقها ؛ الذي الصق شفتيه به . يقبله ذات اليمين وذات الشمال . وكان يستلقي الى جانبها هادئا دون ان يفكر بشيء ، فربتت على راسه بيدها .. وهي تقول .. اذ تقبله بنعومة .. روبرتو .. انني خجلة .. فانا لا اريد ان اخيب املك الليلة ، ولكنني اشعر بمغض شديد والم كبير .. ولا اعتقد انني اصلح لك الليلة .

ـ ولكن المغص والألم موجودان دائما . لا يا ارنبتي . هذا لا يهم . فلن نعمل شيئا يسبب لك الما .

ـ ليس هذا ما عنيت يا روبرت . ولكني لا اصلح الليلة لاستقبالك كما اريد .

ـ هذا ليس بالأمر المهم ؛ وانما هو شيء عارض . فنحن معا ما دمنا الى جانب بعض .

ـ اجل ولكنني خجلة . واعتقد ان هذا الالم ناجم عما فعله بي الوحوش؛ لا مما حــدث بيني وبينك .

ـ اتركي هــذا الموضوع .

ـ لا اريد الحديث فيه . ولكنني اشعر بأني عاجزة عن ارضائك الليلة . فأردت الاعتذار اليــك .

ـ اسمعي يا ارنبتي ، تمر جميع هذه الامور ، ولا يبقى منها اية مشكلة .. ولكنه فكر قليلا .. وخيل اليه ان ما قالته ليس بالفال الطيب فى الليلة الاخيرة .. واحس بالخجل من نفسه .. وعاد يقول .. نامي الى جانبي يــا ارنبتي ، انني احبك ، سواءً كنت تنامين الى جانبي فى هداة الليل ، او كنا نمارس عبادة الحب معا .

ـ ولكنني خجلة جدا ، فقد ظننت انه سيحدث لنا الليلة ، ما حدث لنا على الجبل ، عندما كنا عند سوردو .

ـ ماذا تعنين ؛ ليس المهم ان نمارس الحب كل يوم . فأنا احبك هكذا ، كما لو كنا نعبد الحب معا . اذن فسننام هادئين . دعينا نتحدث الــى بعضنا . فأنا لا اعرفك من حديثك الا بعض المعرفة .

ـ هل نتحدث عن الغد وعن عملك ؟ اريد ان افهم عملك .

فقال وقد استرخى بجسمه واركن وجنته الى كتفها ووضع ذراعــــه اليسرى تحت راسها .. لا ، ان خير ما نفعله ، هو ان لا نتحدث عــن الغد ، وعما وقع الليلة . فنحن في هذا لن نثير موضوع خسارتنا ، ولا موضوع ما سنفعله غدا . هل انت خائفة ؟

ـ خائفة ؟ انا دائما خائفة . ولكنني الآن اخاف عليك كثيرا . حتى انني بت لا اخشى شيئا على نفسي .

وقال وهو يكذب عليها ـ عليك ان لا تخافي يا ارنبة . لقــــد مررت بمخاطر كثيرة اسوا من هذه المخاطرة .

واحس نحاه بالرغبة في الاذعان لغير الواقع معك .. دعينا نتحدث عن مدريد وعن حياتنا في مدريد .

ــ حسنا . . ولكن انا آسفة يا روبرتو ، إنني خيبت ظنك الليلة . اليس في وسعي ان افعل شيئا آخر لك ؟

وربت على راسها وقبلها ، ثم استلقى مسترخيا الى جانبها وهو يصغي الى هداة الليل . . وقال يحدث نفسه . . لن تستطيع الحديث عن مدريد، وعليك ان تترك كل مدخر في نفسك للغد . فأنت في حاجة اليه الغد . اجل ستكون بحاجة الى كل شيء غدا . . فمن هو ذاك الذي قذف ببذرته على الارض في التوراة ؟ انه يونان . ولكن كيف انتهى يونان . انا لا اذكر انني سمعت شيئا آخر عن يونان .

وعاد يذعن من جديد ، وهو يحس بالرغبة الحارقة في الاذعان لغير الواقع ، وكأنه خاضع لشعور جنسي عارم يدعوه الى قبول اي شيء ، في الوقت الذي لا يحس فيه الا بما ينطوي عليه القبول من لذة . . وقال . . اسمعي يا حبيبتي . . لقد كنت افكر تلك الليلة في مدريد . . وكيف سنمضي اليها ، واتركك في الفندق ، لامضي فاقابل الروس في الفندق . ولكن هذا محال ، فلن اتركك في اي فندق .

ــ ولكــن لم لا ؟

ــ لانني ساعني بك . لن اتركك ابدا . وسامضي معك الى سيغويرداد للحصول على بعض الاوراق ، ثم نذهب لنبتاع بعض الملابس الضرورية .

ــ انها قليلة ، وفي وسعي ان ابتاعها .

ــ لا ، انها كثيرة ، وسنمضي معا لشرائها . من اجود الانواع ، وستبدين جميلــة فيهــا .

ــ اوثر ان نظل في الفندق ، ونبعث في طلب الملابس . اين الفندق ؟

ـ انه في ميدان كالاو . سنكون دائما في الغرفة معا في الفندق . ففيها سرير ابيض وعليه ملاءات ناصعة البياض ، وفي الغرفة ماء جار ساخن ، وخزانتان ، اضع في احداهما ملابسي ، وتضعين في الاخرى ملابسك . وللغرفة نوافذ طويلة واسعة ، اما في الخارج فالشوارع حيث يوجد الربيع واعرف اماكن طيبة نستطيع ان نأكل فيها احسن الطعام باسعار السوق السوداء . واعرف حوانيت لا يزال فيها النبيذ والويسكي . وبالطبع ، سنحشد في غرفتنا الكثير مما يؤكل ، وكذلك الويسكي ، وبعض الشراب لك ، لنأكل ونشرب عندما نريد .

ـ اود ان اجرب الويسكي ؟

ـ ولكن لما كان من الصعب الحصول عليه ، واذا كنت تحبين الشراب الخفيـف .

ـ دع الويسكي لك يا روبرت . آه . كم احبك ، اجل احبك واحـب الويسكي الذي لا تسمح لي بشربه . يا لك من خنزير .

ـ لا ، سأسمح لك بأن تجربيه . ولكنه لا يصلح للنسـاء .

ـ اذن فلن تسمح لي الا بما يصلح للنسـاء . اما في الفراش فسأظل في قميص عرسـي .

ـ لا ، ساشتري لك بعض اردية النوم « والبيجامات » اذا كنت تؤثرينها

ـ سأبتاع سبع قمصان للعرس . واحد لكل يوم من ايام الاسبوع . وسأبتاع لك قميصا نظيفا . الا تغسل قميصك يا روبرتو ؟

ـ احيـانـا .

ـ سأترك كل شيء نظيفا لك ، وسأصب لك الويسكي واصب عليه الماء كما فعلت عند سوردو . وسأحصل لك على الزيتون ، والسمك المملح ، واللوز ، لتأكلها وانت تشرب وسنظل في الغرفة شهرا لا نغادرها ابدا . .

هذا اذا كنت صالحة .. لاستقبالك جنسيا .

ـ لا تهتمي بهذا . حقا لا تهتمي به . يبدو انك اصبت بجرح آنذاك ترك ندبة ، وهذه الندبة ، تسبب لك الالم . وهذا امر ممكن . لكنه شيء عارض يمر . ثم هناك عدد من خيرة الاطباء في مدريد .

ـ ولكن لم يكن بي شيء من قبل .

ـ الا تعرفين الوعد ، بأن يعود كل شيء كما كان .

ـ اذن دعنا نتحدث عن مدريد .. ووضعت ساقيها بين ساقيه واخذت تمر براسها على كتفه وهي تقول .. ولكن ، الن اكون بشعة بهذا الشعر المقصوص ، او لا تخجل مني هناك ؟

ـ لا ، انك جميلة . فوجهك جميل ، وجسمك اجمل . وجلدك ناعم من لون الذهب المحروق ، وسيحاول كل انسان ان يسلبك مني .

ـ ماذا تعني ! يأخذني منك ! لن يمسني رجل آخر حتـــى اموت .. يأخذنـــي منـــك !!

ـ ولكن الكثيرين سيحاولون ، وسترين هذا بنفسك .

ـ سيرون اني احبك الى الحد الذي يجعلهم يدركون ان محاولة لمسي اشبه ما تكون بمن يضع يده في وعاء من الرصاص الذائب . ولكن انت ؟ عندما ترى الجميلات الاخريات اللائي يحملن نفس ثقافتك ؟ الن تخجل منـــي ؟

ـ ابـدا . وسأتزوجك

ـ اذا رغبت ، ولكن لما كنا ، لا كنيسة لنا ، فهذا امر لا يهمنا .

ـ ولكنني اريد ان نتزوج

ـ اذا رغبت . ولكن اسمع . اذا ذهبنا الى بلد آخر ، لا تزال الكنيسة فيه مكانها ، فبوسعنا ان نتزوج هناك .

ـ لا تزال الكنيسة قائمة في بلادي . في وسعنا ان نتزوج هناك . فأنا لم يسبق لي الزواج . ولن تكون امامنا اية مشكلة .

ـ كم يسرني انك لم تتزوج من قبل . ولكن يسرني انك تدرك جميع تلك الأمور التي حدثتني بها . مما يشير الى انك عرفت الكثير من النساء . وقد قالت لي بيلار . ان مثل هؤلاء الرجال يصلحون ازواجا . اما بعد الآن فلن تلحق بنساء اخريات ؟ لانني اموت من غيرتي .

ـ لم تكن النساء كثيرات في حياتي ؛ ولم اعتقد قبلك . ان بوسعي ان احـــب .

ـ وربتت على وجنتيه .. وقالت .. ولكنك عرفت كثيرات ..

ـ عرفتهن ، لا لأحبهــن .

ـ اسمع .. قالت لي بيلار شيئا ..

ـ قوليه . مــا هــو .

ـ لا . من الافضل ان لا اقوله . لنعد الى الحديث عن مدريد .

ـ ماذا كنت تريدين ان تقولي ؟

ـ لا ارغب في ان اقوله .

ـ ربما من الافضل انتقوليه اذا كان هاما .

ـ وهل تظن انه مهم ؟

ـ اجــل .

ـ ولكن كيف بوسعك ان تعرف ، وانت لا تعرف شيئا عنه .

ـ من طريقة حديثــك .

ـ انني لن اخفيه عنك . لقد قالت بيلار ، اننا سنموت جميعا غدا ، وانك تعرف هذا كما تعرفه هي ؛ ولكنك لا تكترث به . وقد قالت لي هذا لتعرب عن اعجابها بك لا لتنتقدك .

ـ هل قالت لك هذا ؟.. وقال يحدث نفسه .. يا لها من مجنونة ،ولكن هذه هي طبيعتها الفجرية ، وهذه هي طريقة نساء الشارع والجبناء .. واحس بالعرق يتصبب منه ثم قال لها .. اذن فقد خفت ؟ ولكن لا تخافي انها عاهرة تؤمن بالخرافات .. دعينا نتحدث عن مدريد ثانية .

ـ اذن فانت لا تعرف شيئا من هذا ؟

ـ ابدا . ولا اريد منك ان تنطقي بمثل هذه القذارة .

ولكنه عندما عاد الى الحديث عن مدريد هذه المرة ، لم يعد في حديثه رنة من يصدق نفسه . كان يكذب على فتاته وعلى نفسه في الليلة التي تسبق المعركة ، وكان يدرك هذا . وقد احب هذا الكذب ، ولكن متعة القبول ، زالت من نفسه الآن .. وعاد يقول .. لقد فكرت في موضوع شعرك . وماذا نستطيع ان نعمل به فهو ينمو في جميع اجزاء راسك . وانني ليلذ لي ان المسه بيدي واحبه كثيرا . اذ انه كحقل الحنطة النامية في الريح .

ـ مر بيدك عليه .

ومر بيده على شعرها ، وتركها قليلا فوقه . ومضى يحدثها .. ولكن في وسعنا ان نذهب في مدريد الى « الحلاق » ، وسيشذبه لك ، تماما كما يشذب شعري في الوقت الذي ينمو فيه .

ـ اذن سأبدو مثلك تماما .. وآنذاك لن ارغب ابدا في تبدله .

ـ لا ، انه سينمو طيلة الوقت . ولكن ما عنيته ان يظل مرتبا انيقا وهو في مرحلة النمو .

ـ اذن سيصبح طويلا ؟

ـ لا . ولكنه سيغدو طويلا حتى كتفيك . وهذا ما احبه ان يكون .

ـ مثل غاربو على الشاشة .

ـ اجل .

واحس بالرغبة من جديد تداهمه في محاولة تصديق نفسه . وسرعان ما اذعن لها . ومضى يقول .. « وهكذا سيمتد شعرك الى كتفيك ،ويتماوج في نهايته كما يتماوج البحر . وسيكون لونه كلون الحنطة الناضجة . اما وجهك ففي لون الذهب المحروق . بينما عيناك ، برموشهما السوداء الطويلة ، براقتان .. فامسك براسك وادفعه الى الوراء ، واتطلع في عينيك واذا اضمك الي ..

ـ ايـن ؟

ـ في كل مكان . حيثما وجدنا . وكم تعتقدين ان نمو شعرك سيستغرق؟

ـ لا ادري . اذن لم يسبق له ان قطع من قبل . ولكن في ستة اشهر سيصل الى ما تحت اذني ، وفي غضون سنة سيصل الى الحد الذي تحبه ولكن اتعرف ما سيقع اولا ؟

ـ لا . قولـي .

ـ سنكون في ذلك السرير النظيف الكبير في غرفتك المشهورة ، في فندقنا المشهور ، وسنجلس الى بعضنا في الفراش ، ونتطلع الى المرآة ، فأراك وتراني ، ثم التفت اليك هكذا ، واضع ذراعي حول عنقك على هذا النحـو ، ثم اقبلك هكذا ..

وتمددا على السرير ، هادئين ، وقد التصق جسداهما ، وهما يشهدان الليل الساجي على حبهما .. واصر روبرت على الحديث عن جميع تلك الامور التي كان يعرف تماما انها لن تحدث . ومضى في عناد يقول لها .. اسمعي يا ارنبتي .. اننا لن نظل في الفندق الى الابد .

ـ ولـم لا ؟

ـ في وسعنا ان ناخذ شقة مفروشة في مدريد . وقد كنت اعرف امراة امريكية تؤجر بعض الشقق المفروشة قبل الحركة . وسيكون في وسعي الحصول على احداها . وهناك مساكن جميلة تطل على الميدان وحديقته

الغناء بسياجها الحديدي الجميل ، وممراتها ، المفروشة ارضها بالحصى ، ومنبسطاتها التي تكسوها الاعشاب ، واشجارها الباسقة . ونافورات المياه فيها وشجيرات الكستناء فيها التي لا بد انها ازدهرت الان . وفي وسعنا ان نتمشى في الحديقة ، وان نجذف في البحيرة اذا كان الماء قد عاد اليها .

ـ ولـم ذهب المـاء منها ؟

ـ لقد جمعوه في شهر تشرين الثاني ، لأن المياه كانت تشير بوضوح لطائرات العدو عندما تأتي لقصف المدينة . ولكنني اعتقد ان الماء قد عاد اليها الآن ، وان كنت غير واثق من ذلك . وحتى لو لم يكن فيها ماء . فان في وسعنا أن نمشي في الحديقة بعيدا عن البحيرة . وهناك جزء منها يشبه الغابة تماما وقد امتلأ بالاشجار من كل نوع في العالم وقد كتبت اسماؤها على لوحات علقت عليها تدل على نوعها ومنشئها .

ـ ولكنني احب ان امضي الى السينما فور وصولنا الى مدريد . ومع ذلك فان هذه الاشجار تبدو رائعة . وستعلمني اسماءها .

ـ انها ليست كالاشجار الموجودة في متحف ، بل هي تنمو نموا طبيعيا ، وهناك تلال في الحديقة . ويشبه احد اجزائها ادغال افريقيا السوداء . وهناك معرض الكتب المستعملة ، منتشرة في الاكشاك العديدة معروضة للبيع ، بعد ان سرقت من البيوت التي نهبت اثناء الغارات الجوية ، او من بيوت الفاشيين . وفي وسعي ان اقضي اياما طويلة وانا بجانب هذه الكتب اتطلع اليها ، تماما كما كنت افعل قبل بدء الحركة ، عندما اجد متسعا من الوقـت في مدريد .

ـ وبينما تقوم انت بزيارة المعرض ، ساشتغل انا في اعداد شقتنا . قل لي ، ايتوفر لنا المال للحصول على خادمة ؟

ـ طبعا في وسعي ان آخذ بيترا الموجودة في الفندق اذا كانت ترضيك . انها تتقن الطهي ، وهي نظيفة جدا . وقد اكلت هناك مع عدد من الصحفيين

الذين تتولى الطبخ لهم ، ولديهم افران كهربائية في مساكنهم .

ـ اذا كنت تريدها ، فسناخذها ، والا فسأعثر على واحدة اخرى : ولكن الن تكون بعيدا كثيرا عني بسبب اعمالك ؟ بالطبع لن يسمحوا لي ان اذهب معك في مهمات كهذه ؟

ـ قد اعثر على عمل في مدريد . وقد مضى علي وقت طويل وانا في هذا العمل ، كما اشتركت في الحرب منذ بدء الحركة . ومن المحتمل ، أن يعهدوا الي الآن بعمل في مدريد . انني لم اطلب منهم ذلك حتى الان . فقد كنت اعمل دائما اما في الجبهة او في مثل هذه المهام .

اتعرفين انني الى ان لقيتك ، ما كنت اطلب شيئا ، ولا اريد شيئا ابدا . ولم اكن افكر بأي شيء سوى بالحركة ، وبكسب هذه الحرب . حقا لقد كنت طاهرا دائما في جميع مطامحي . وقد جاهدت كثيرا .. ولكنني الان احبك .. وحبي لك ، يبلغ حبي لكل ما نحارب من اجله . اجل احبك كما احب الحرية والكرامة ، وحق جميع الناس في العمل والامان من الجوع . انني احبك كما احببت مدريد التي دافعنا عنها ، وكما احببت جميع الرفاق الذين قضوا نحبهم دفاعا عنها . ولقد مات منهم الكثيرون .. اجل الكثيرون . وليس في وسعك ان تتصوري عددهم .. ولكنني احبك كما احب اكثر شيء اتعلق به في العالم واكثر . احبك كثيراً يا ارنبتي . احبك اكثر مما استطيع قوله . ولكنني افصح لك الان عن حبي لانقل اليك بعضه لم تكن لي قط زوجة في حياتي . وها انت قد غدوت زوجتي ، واصبحت سعيدا كل السعادة .

ـ سأكون خير زوجة لك يا روبرتو . طبعا لست مدربة او متعلمة ، ولكنني سأحاول ما وسعني الجهد ، ان اسدَّ هذا النقص . فاذا عشنا في مدريد ، فهذا خير ، وان قدر لنا ان نعيش في مكان آخر ، فهـذا حسن ايضا . واذا لم يكن لنا بيت وكان في وسعي ان اصحبك ، فهذا انفع وابقى واذا ذهبنا الى بلادك فسأتعلم الانكليزية ، واتحدث بها كما يتحدث الانكليز

وسأتعلم عادات بلادكم ، فاعمل كما يعملون .

ـ لا ريب في انك ستكونين مضحكة .

ـ طبعا . سأرتكب هفوات ، ولكنك سترشدني ، ولن أعود الى الخطأ ثانية ، واذا عدت ثانية فلن اعود ثالثة . واذا كنت وحيدا في بلادك فسأطهي لك طعامك . وسأذهب الى المدرسة لاتعلم كيف اصبح زوجة مثالية ، هذا اذا كانت هناك مثل هذه المدارس .

ـ طبعا هناك مثل هذه المدارس . ولكنك لست بحاجة اليها .

ـ لقد قالت لي بيلار . ان هذه المدارس موجدة في بلادك وقد قرات عنها في احدى المجلات . وقد قالت لي ايضا أن علي ان اتعلم الانكليزية ، وان أجيدها حتى لا تخجل مني .

ـ متى قالت لك ذلك ؟

ـ اليوم ، عندما كنا نحزم امتعتنا . وفي الحال اخذت تحدثني عما يجب أن افعله لأغدو زوجتك .

وقال روبرت لنفسه . . . لا ريب في انها تريد الذهاب الى مدريد ايضا . . ثم عاد يسأل ماريا . . وماذا قالت لك ايضا ؟

ـ قالت ان علي ان اعني بجسدي ، واهتم بقوامي وكأنني مصارعة ثيران وقالت ان هذا امر في منتهى الاهمية .

ـ حقا انه موضوع مهم ، ولكنه لن يقلقك لعدة سنين قادمة .

ـ لا . فقد قالت ان السمنة تداهم النساء الاسبانيات فجأة . وقد حدثتني انها كانت في يوم ما في مثل قوامي ، ولكن النساء آنذاك لم يكن يعرفن التمارين الرياضية . وقد علمتني التمارين التي يجب ان اقوم بها ، كما نصحتني بعدم الاكثار من الاكل ، وارشدتني الى الاطعمة التي يجب ان لا آكلها . ولكني نسيت كل ذلك ، وعلي ان اعود الى سؤالها .

ـ عليك ان لا تأكلي البطاطا .

ـ اجل البطاطا ، والامور المقلية . وعندما حدثتها عن هذا الألم ،نصحتني بتحمله وان لا اخبرك عنه . ولكنني اخبرتك لانني لا اريد قط ان اكذب عليك . ولانني خفت ان تعتقد انني لا اشاركك لذتك ، على النحو الذي شاركتك اياها عندما كنا على الجبل .

ـ كان جميلا منك انك قد ابلغتني .

ـ احقا ؟ انني خجلة منك ، وعلى استعداد لعمل ما تشتهيه . لقد حدثتني بيلار عن اشياء يمكن للمرأة ان تعملها لزوجها .

ـ ليس ثمة من حاجة لعمل اي شيء . فما نعمله ، نعمله معا ، ونحتفظ به معا . وكل ما احبه منك هو ان تنامي الى جانبي ، وان المسك بيدي ، وان احس حقا انك معي .. وعندما تصبحين قادرة ، سيكون لنا كل شيء

ـ ولكن اليست لديك من ضرورات استطيع ان البيها لك ؟ لقد اوضحت لي ذلك .

ـ لا . سنلبي ضروراتنا معا . فليست لدي ضرورات منفصلة عنك .

ـ هذا افضل لي . ولكن عليك ان تفهم دائما انني على استعداد لتلبية جميع رغباتك . وعليك ايضا ان تبلغني ما تريد فانا جاهلة ، ولم افهم الكثير مما علمتنيه . وكنت خجلة من ان اعيد عليها السؤال ، وهي تتمتع بحكمة عظيمة .

ـ انك رائعة يا ارنبتي .

ـ ولكنني احاول ان اتعلم كل ما يمت الى الزواج في يوم واحد ونحن نحزم امتعتنا ، ونستعد للمعركة ، واذا ما اخطات فعليك ان تنبهني الى اخطائي لأني احبك . ومن المحتمل ، انني قد اعي بعض ما قالته بصورة خاطئة ، لا سيما وان بعض ما قالته كان كثير التعقيد .

ـ وماذا قالت لك ايضا ؟

ـ لقد قالت لي اشياء كثيرة لم اعد اذكرها . قالت ان بوسعي ان احدثك عما فعله الوحوش بي . اذا عدت لتذكره ، لانك رجل طيب . ولانك اصبحت تفهم كل شيء . ولكنها استطردت ان من الافضل ان لا اتحدث عنه الا اذا عاودتني السوبداء . لان الحديث قد يخفف مما اشعر بـه .

ـ وهل لا زلت تشعرين بهذه السويداء ؟

ـ لا ، انني اشعر ، وكأنها لم تقع لي ابدا . وذلك منذ اللحظة الاولى التي اجتمعت فيها اليك ، لكنني لا زلت احس بالالم على والدي . ولكن الانسان يتعرض دائما لمثل هذه الامور . وقد صممت . اعتزازا مني بك . ان ابلغك كما يجب ان تعرفه . كنت دائما اناضل . وكان رجلان على الاقل يجتمعان علي حتى يستطيعا ان يفعلا بي شيئا . احدهما يجلس على راسي ويمسك بيدي . . وانني اقول لك ذلك حرصا على كبريائك .

ـ ان كبريائي معك . . دع عنك هذا الحديث .

ـ لا . انني اتحدث به اليك حتى لا تفقد كبرياءك في زوجتك . ثم هناك شيء آخر . لقد كان والدي رئيس بلدية القرية وكان رجلا محترما . وكانت امي سيدة فاضلة وكاثوليكية تقية ، ولكنهم قتلوها مع ابي . بسبب ميوله السياسية . فقد كان جمهوريا . وقد رأيتهما يقتلان معا ، وسمعت والدي يهتف . . يحيا الجمهورية . . وهم يطلقون عليه النار بعد ان اوقفوه على جدار مسلخ القريـة .

« وهتفت امي عندما اوقفوها في نفس المكان . . » يعيش زوجي الذي كان رئيسا لبلدية القرية . وكنت اتمنى لو قتلوني ايضا ، وكنت اعتزم ان اهتف بدوري ، تحيا الجمهورية ، ويحيا والدي . . ولكنهم لم يقتلوني . وانما فعلوا بي ما فعلوه بدلا من القتل .

اسمع ساحدثك عن شيء ، ما دام يؤثر علينا . لقد نعلونا نحن اقارب

الذين قتلوهم ، الى ساحة البلدة . وكنا نبكي جميعا تقريبا ، ولكن بعضنا اصابه الوجوم مما وقع ، وجفت الدموع في عيون البعض . ولم استطع انا ان ابكي . ولم استطع ان الاحظ شيئا مما يدور حولنا ، ولم يكن امامي الا صورة ابي وامي وقد وقفا على الجدار . ولم اكن اسمع الا صوت امي وهي تقول .. يحيا زوجي رئيس بلدية هذه القرية .. كان هذا القول يدوي في راسي ، كهتاف لا ينقطع . لان امي لم تكن جمهورية ولم تكن لتهتف تحيا الجمهورية ، وانما تهتف بحياة ابي الذي قتلوه ، والذي انبطح على وجهه عند قدميهـا .

ولكنها قالت ما قالته بصوت عال وكأنه الزعيق ، ثم اطلقوا عليها النار فقتلوها . وحاولت ان اصل اليها ، ولكنهم كانوا قد احكموا وثاقنا جميعا فلم اتمكن . وقد قام رجال الحرس الوطني باطلاق النار ، وظلوا واقفين ينتظرون صدور الامر اليهم باطلاق النار على آخرين ، ولكن الفالانج .. ابعدونا ، وتركوا رجال الحرس في مواضعهم ، كما تركوا القتلى في اماكنهم ، وكنا صفا طويلا من النساء والفتيات ، وقد شددنا الى بعضنا بحبال ربطوها في ايدينا ، ومروا بنا في الشوارع الى الميدان ، حيث وقفنا امام حانـوت الحلاق .

وتطلع الينا رجلان من الفلانج ، وقال احدهما .. هذه ابنة رئيس البلدية .. لنبدأ بهـا ..

وقطعوا الحبل المثبت في رسغ يدي ، ودفع بي الرجلان الى حانوت الحلاق حيث اجلسوني الى المقعد . ورايت وجهي في المرآة ، كما رايت وجوه من يمسكون بي ، ولم اكن اعرف احدا منهم . وخيل الي انني مريضة في عيادة طبيب للاسنان ، وان عددا من الاطباء يحيط بي وكلهم مـن المجانين . ولم استطع ان اميز نفسي بسبب ما كنت احس به من حزن ، ولكنني رايت وجهي اخيرا فعرفت نفسي . وكان الحزن طاغيا علي حتى انني لم اعرف شعوراً آخر الا الحزن .

وكانت لي في ذلك الوقت ضفيرتان من الشعر . ورايت احد الرجلين ، يرفع احدى الضفيرتين فيكاد يخلعها ثم حلقها بموساه . ورايت راسي بضفيرة واحدة ، وبجرح في راسي في المكان الذي كانت فيه الضفيرة الثانية . وسرعان ما قطع الثانية . وجرحني الموسى في اذني ورايت الدم ينفجر منها . الا تستطيع ان تلمس الندبة باصبعك ؟

فقال روبرت .. اليس من الافضل ان تكفي عن هذا الكلام ؟

ـ هـذا ليس بشيء اذا ما قيس بما وقع لي فيما بعـد . ولكنني لن احدثك عن الامور السيئة التي حلت بي . وضحك الرجل ، بعد ان قطع ضفيرتي بموساه . ثم وقف امامي وضربني في وجهي وهو يقول .. هذه طريقتنا في تحويل الحمراوات الى راهبات . وسيعلمك هذا كيف ستتحدين مع اخوانك من العمال . يا عروس المسيح ، المسيح الاحمر .

وضربني ثانية وثالثة في وجهي بالضفيرتين ، ثم وضعهما في فمي وربطهما حول عنقي ليجعل منهما انشوطة ، والجميع يضحكون .. وعندما رايتهم يضحكون .. شرعت ابكي ، اذ كان الدمع قد تجمد في عينيّ حتى تلـك اللحظـة .

وشرع الرجل يمر « بكلابة » على راسي من جميع نواحيه واطرافه ووراء اذني ، وانا انظر الى نفسي في المرآة ، ولا اصدق ما يقومون به ؛ وابكي ثم ابكي ، ولا من مشفق ولا من معين ، فاديز راسي فزعا .

وبعد ان فرغ الرجل من عمله ، تناول زجاجة من « اليود » من الرف ، وكانوا قد قتلوا الحلاق ، لانه عضو في نقابة ، واخذ يضع « اليود » على راسي فاشعر بالنار تحرقني . وبعد ان فرغ شرع يكتب على راسي باليود حروف (U. H. P.) بشكل بارز ، بينما كنت انا قد توقفت عن البكاء ، اذ تجمد فؤادي مما حل بي وبامي وابي .

وعندما انتهى من الكتابة ، عاد الفالانجي الى الوراء ليفحص نتيجة عمله .. وعاد فوضع زجاجة « اليود » وتناول الكلابة ، وقال .. هاتوا

غيرها .. ثم اخرجوني من حانوت الحلاق وهم يمسكون بذراعي ، وكدت اعثر بجثة الحلاق الملقاة على الباب ، وكدت اصطدم بصديقتي غراسيا ، التي كانوا يمسكون بها ليدخلوها الى الحانوت . وعندما راتني لم تعرفني لأول وهلة ، وعندما عرفتني صرخت ، وظللت اسمع صراخها طيلة الوقت الذي كانوا يدفعونني فيه الى الميدان ثم عبرت السلم الى قاعة المدينة والى مكتب والدي حيث قذفوا بي على الاريكة . وشرعوا يعملون بي تلك العملية السيئة .

فقال روبرت وقد ضمها الى صدره برقة وعناية ، وقد غمره شعور من الكراهية .. يا ارنبتي لا تتحدثي اكثر مما تحدثت . لا تقولي لي شيئا فقد بلغت الكراهية عندي ذروتها الآن .

وكانت متصلبة بين ذراعيه وقد جمدت اطرافها وقالت .. لا لن اتحدث عن هذه القضية ثانية . ولكنهم فى منتهى الوحشية ، وكم اود لو سمحت لي بقتل بعضهم معك . وكل ما قصدته من سردي القصة عليك انني اردت ان تشعر بالكبرياء لانني زوجتك ، ولتفهم كل شيء .

ـ كم يسرني انك حدثتني هذا الحديث ففي الغد ، اذا ساعدنا الحظ سنقتل عددا كبيرا منهم .

ـ ولكن هل سنقتل من الفلانج ؟ انهم هم الذين عملوا معي كل هذا .

ـ ان الفلانج لا يحاربون . وانما يقتلون في المؤخرة . وفي المعركة لا يقاتل الفلانج ابدا .

ـ ولكن اليس في وسعنا ان نقتلهم بأي شكل من الاشكال ؟ اريد ان اقتل عددا منهم .

ـ لقد قتلت منهم عددا ، وسنقتل ايضا . اجل كنا نقتلهم في القطارات.

ـ اود ان اذهب معك الى احد القطارات . وكنت مجنونة تقريبا في حادث القطار ، الذي انقذتني منه بيلار . هل اخبرتك كيف كنت ؟

ـ اجل . ارجوك ان تكفي عن هذا الحديث .

ـ كنت مصابة بتبلد في راسي ، وكل ما أفعله هو البكاء . ولكن ثمة شيئا آخر يجب ان احدثك عنه . اجل يجب ان احدثك عنه . فقد تمتنع عن الزواج بي . او ليس في وسعنا يا روبرتو ، ان نظل معا ، حتى اذا لم ترغب في الزواج مني .

ـ سأتزوج .

ـ لا . لقد نسيت هذا . وقد تعدل عن الزواج بي اذا عرفته . فمن المحتمل انني لن احمل منك ابدا ولدا او بنتا ، فقد ذكرت لي بيلار ، ان من المستحيل ان احمل بعد ان وقع لي ما وقع .

ـ هذا ليس بالامر المهم يا ارنبتي . وقد لا يصدق قول بيلار . ان الطبيب هو الذي يقرر هذا الموضوع وحده . ثم اني لا اريد ان آتي بطفل او طفلة الى مثل هذا العالم . واخيرا ، فان حبي سيظل محصورا كله فيك .

ـ ولكنني احب ان احمل لك ولدا وبنتا . وكيف يمكن ان يكون للعالم صلاح اذا لم يكن فيه اطفال منا نحن الذين نقاتل الفاشيين ؟

ـ انني احبك ، اتسمعين ؟ والان يجب ان ننام يا ارنبة . اذ يجب علي ان استيقظ قبل الفجر بمدة طويلة ، والفجر يأتي باكرا في هذا الشهر .

ـ اذن فلا ضير مما حدثتك به . . وهل في وسعنا ان نتزوج ؟

ـ اننا متزوجان الان . وانت زوجتي . ولكن هيا نامي يا ارنبتي ، فالوقت ضيق الان .

ـ اذن فهل سنتزوج حقا ؟ وهل يكون زواجنا فعلا لا قولا ؟

ـ اجل .

ـ اذن سأنام وسأفكر في هذا اذا استيقظت .

ـ وانـا كذلك .

ـ اسعدت مساءً يا زوجي .

ـ اسعدت مساءً . يا زوجي .

وبدا يسمعها تتنفس بانتظام وهدوء ، وعرفت انها راحت في سبات عميق اما هو فلم يطف النوم بجفنيه ، وان ظل حريصا على ان لا يوقظها بحركة تصدر منه . وتصور الجزء الذي لم تسرده عليه من قصتها ، فأحس بالكراهية وشعر بالرضى ، لان الصباح سيأتي له بمن يقتله من هؤلاء الوحوش .. ولكنه سرعان ما اخذ يؤكد على نفسه وجوب امتناعها عن الاشتراك في القتل .

ولكن هل في وسعي ان امتنع عن الاشتراك بعد ما سمعت منها ما سمعت؟ وانا اعرف أننا ارتكبنا معهم ايضا بعض الاعمال المخيفة . ولكننا كنا غير مثقفين ، اما هم ، فيقومون باعمالهم عن سابق قصد وتصميم . والذين يقومون بهذه الاعمال منهم ، هم آخر الزهرات التي انتجتها ثقافتهم .اجل انهم زهرات الفروسية الاسبانية . ما اعظم هذا الشعب في ماضيه .. ولكنه سرعان ما انحدر الى ابناء العواهر من امثال كورتيز وبيزارو ومينينديز دي افيلا الى أن وصل الى هنريك ليستر وبابلو . ولكنه مع ذلك شعب رائع . وليس احسن من هذا الشعب .ومن يستطيع ان يفهمه ؟ انني لا افهمه . اذ لو فهمته لغفرت له . فالفهم يعني الغفران .. ولكن هذا ليس صحيحا .. فالغفران فكرة بولغ فيها كل المبالغة . والغفران فكرة مسيحية ، ولم تكن اسبانيا في يوم من ايامها بالبلد المسيحي فقد كان لها دائما الصنم الذي تعبده داخل الكنيسة .. وهذا هو السبب الذي حدا بهم الى الاعتداء على عذارى اعدائهم . لانهم لا يريدون الا عذراء واحدة . ولا ريب في ان هذه الظاهرة اعمق جذورا في التعصب الديني المسيحي منها في نفوس ابناء الشعب . وقد الف الشعب الابتعاد عن الكنيسة لان الكنيسة غدت جزءا من الحكومة ، وهذه في نظرهم رمز للتعفن

فاسبانيا هي البلاد الوحيدة التي لم يصل الاصلاح اليها ، وهـا هو الشعب الاسباني يدفع الان الثمن غاليا ، لما قامت به محاكم التفتيش .

هذا موضوع يستحق التفكير ، وهو خليق بأن يقلقك ، وان يبعـد تفكيرك ، عن عملك . انه اسلم عاقبة من التظاهر .. يا لله ، كم اغرق في التظاهر هذه الليلة .. وكانت بيلار ، تتظاهر طيلة النهار . اجل .. فماذا يحدث لو قتلوا غدا ؟.. وماذا يهم طالما انهم سينفذون مهمة الجسر على اتم وجه ؟ هذا هو كل ما يجب ان يفعلوه في الغد .

ولكنها تهمة ايضا . فليس في وسع الانسان ان يقوم بمثل هذه الامور دائما . ولكن هل من المفروض ان تعيش الى ابد الابدين . ولربما انحصرت حياتي كلها في هذه الايام الثلاثة التي عشتها . ولو كان هذا حقا ، كم كان بودي لو قضينا الليلة الاخيرة في شكل مغاير . ولكن الليالي الاخيرة ليست طيبة ابدا . وكل شيء في آخره يصبح سيئا .. ولكن الكلمات الاخيرة ،قد تكون طيبة احيانا .. أو لم تكن عبارة « يحيا زوجي الذي كان رئيســا لبلدية هذه البلدة » عبارة رائعة .

انه يعرف انها كانت عبارة رائعة ، فقد سرى في جسمه تيار كالكهرباء عندما سمعها .. وانحنى على ماريا يقبلها فلم تستيقظ .. وهمس في اذنها بالانكليزية قائلا ..«اود ان اتزوجك يا ارنبتي .. فانا اشعر بالاعتزاز باسرتـك » .

٣٢

واكتظ فندق جيلورد في مدريد في تلك الليلة نفسها . بالناس . ووقفت سيارة عند مدخل الفندق ، وهبط منها رجل يرتدي حذاء ركوب اسود ، وسروالا من سراويل الركوب ، وجاكيتة رمادية ، ورد تحية الحارسين الواقفين في الباب ، وحيا رجل البوليس السري الذي كان جالسا الى مكتب موظف الاستعلامات . ثم استقل المصعد . وكان هناك حارسان في الداخل يجلسان الى مقعدين وقد رفعا بصريهما ، عندما مر بهما الرجل القصير متجها الى باب المصعد . وكانت مهمتهما ان يفتشا جيوب كل من لا يعرفانه ليبحثا عما اذا كان يحمل مسدسا ، ليطلبا اليه وضعه عند موظف الاستعلامات . ولكنهما كانا يعرفان هذا الرجل القصير الذي مر بهما ، ولم ينظرا اليه .

وعندما دخل الى الشقة التي يعيش فيها في جيلورد ، وجد انها مكتظة بالناس . فقد كان هناك عدد كبير منهم يقفون ويجلسون هنا وهناك ، ويتحدثون وكأنهم في اي قاعة ، وكان الرجال والنساء يشربون «الفودكا» والويسكي والصودا والجعة من الاقداح المترعة المنتشرة على الصحاف . وكان اربعة من الرجال يرتدون البزة العسكرية . بينما كان الآخرون في ملابس عادية تتألف معظمها من الجاكيتات الجلدية ، اما النساء فكان

معظمهن في ازياء عادية بينما لبست واحدة فقط ، الزي العسكري .

وعندما وصل كاركوف الى الغرفة ، مضى فورا الى المراة التي تلبس الزي العسكري فأحنى راسه لها وصافحها . انها زوجته . وقد حدثها بضع كلمات بالروسية بصوت خافت لم يسمعه انسان ، وسرعان ما اختفى ما في عينيه من علائم الغطرسة . ولكن هذه العلائم عادت اليه عندما راى وجه عشيقته ذات الشعر الاسمر والوجه التواق الى الحب . ومضى اليهـا ، فأحنى راسه ثم صافحها وكأنه يصافح زوجته . ولم تكن زوجته تنظر اليه عندما مضى الى عشيقته بل ظلت واقفة مع ضابط اسباني طويل القامة جميل الصورة ، يتحدثان بالاسبانية .

وقال كاركوف للفتاة . . ان حبيبك العظيم ، بدا يميل الى البدانة .وها نحن ندخل العام الثاني من الحرب ، واخذ ابطالنا يميلون الى البدانة .

فقالت الفتاة وهي تبتسم . . يا لك من انسان بشع ، تفار من سلحفاة . . هل في استطاعتي ان امضي معك الى الهجوم في الغد .

ــ لا ، ولكن ليس ثمة هجوم .

ــ كل انسان يعرف بالهجوم . . لا تحاول ان تكون غامضا . ان دولوريس ذاهبة . ساذهب معها أو مع كارمين . وهناك الكثيرون سيذهبون .

فقال كاركوف ــ اذهبي مع من تشائين . انا لن آخذك .

وعاد يلتفت الى الفتاة ويقول جادا . . ولكن قولي ، من ابلغك ذلك ؟

فقالت بكل جد ــ ريشارد .

وسمع صوت رجل متوسط القامة ذي وجه شاحب . . كاركوف ! هل سمعت الانباء السارة ؟

ومضى كاركوف الى الرجل فقال هذا له . . لقد سمعت بها الآن ، قبل عشر دقائق . انها انباء رائعة . قضى الفاشيون طيلة النهار ، يحاربـون

بعضهم البعض عند سيغوفيا . وقد اضطروا لاخماد الفتنة الى استعمال الاسلحة الاوتوماتيكية والمدافع الرشاشة . وبعد الظهر بعثوا بالطائرات لتقذف قواتهم بحممهـا .

ـ حقـا ؟

ـ اجل . وقد جاءت لنا دولوريس نفسها بهذه الانباء . كانت هنا تحمل هذه الانباء ، ورايت على وجهها علائم الفرح الطاغي . وكان في وسعك ان ترى الانباء السارة في وجهها .. الوجه العظيم .

وقال كاركوف .. الوجه العظيم ..

ـ آه لو سمعتها . كانت الانباء تشرق منها والضوء ينبعث منها وكأنه لا يمت الى هذا العالم . وفي وسعك ان تحكم على الصدق في قولها مـن لهجتهـا . وبالطبع سأبعث بالقصة الى الازفستيا ، لقد كانت لحظة من اعظم لحظات الحرب عندما استمعت الى التقرير صادرا عن ذلك الصوت العظيم الذي يجمع بين الاشفاق والعطف والصدق . ان الطيبة والصدق ينبعثان من قديس . ولهذا فهي تدعى لا باسيوناريا .

وقال كاركوف بصوت جامد ـ اجل . من الخير ان تكتب القصـة للازفستيا الآن ، قبل ان تنسى مقدمتها الرائعة .

ـ اسمع ان هذه المراة ، لا يصح المزاح في موضوعها ، حتى ولا من انسان متشائم مثلك . آه لو كنت هنا واستمعت اليها وهي تتحدث ، ورايت وجههـا .

ـ ذلك الصوت العظيم . ذلك الوجه العظيم . اكتب القصة . ولكن لا تضع وقتك في التحدث الي ، اذهب واكتب ما تشاء .

ـ لا لـن اكتبها الان .

فقال كاركوف .. اعتقد ان من الخير ان تكتبها الان .. واطاعه الرجل فابتلع ما في كأسه من الفودكا وخرج من الغرفة .

ومضى كاركوف الى رجل آخر فى نحو الثامنة والاربعين من عمره ،وكان قصير القامة ، بدينا ، ويبدو على وجهه المرح ، مع عينين شاحبتين ،وشعر اشقر خفيف ، وفم دائم الابتسام يغطيه شارب اصفر لامع . وكان هذا الرجل في ملابسه العسكرية . وهو من اصل مجري ويتولى قيادة احدى الفـرق .

وقال كاركوف يسأل الرجل .. هل كنت هنا عندما جاءت دولوريس ؟

ـ اجـل .

ـ مـاذا روت ؟

ـ شيئا عن قتال دار بين الفاشيين . انها قصة رائعة ان صحت .

ـ هل سمعت كثيرا عما سيحدث غـدا ؟

ـ لا ريب انه من الخزي والعار ان يدور كل هذا اللغط ومن الواجب قتل جميع الصحفيين ومعظم الموجودين فى هذه الغرفة ولا سيما ذلـك الالماني الدساس الذي يدعو نفسه ريتشارد . ومن الواجب اعدام كل من امر باسناد قيادة كتيبة الى هذا الانسان . ولربما كان من الواجب اعدامنا انا وانت ايضا .. وهذا ممكن .. ولكن لا تقترحه .

ـ انني لا احب الخوض فى موضوع كهذا . اتعرف انذلك الامريكي الذي يأتي احيانا الى هنا ، موجود هناك . لا ريب انك تعرفه ، جوردان ، الذي يعمل مع مجموعة الفدائيين . انه هناك ، في المكان الذي يقال ان العمل سيقـع فيـه .

فقال الجنرال .. اذن فسيبعث بتقرير هذا المساء . انهم لا يحبونني هناك ، والا فاني امضي لاعرف لك الحقيقة . انه يعمل مع غولز فى هذا الموضوع ، اليس كذلك ؟ لا ريب في انك سترى غولز غدا ؟

ـ سأراه فى ساعات الصباح الباكر .

ـ ابعد عن طريقه حتى يسير الهجوم سيرا مرضيا . انه يكرهكم ايها الزناديق كما اكرهكم انا ، وان كان يتميز عني بهدوء الطبع .

ـ ولكـن بصدد هـذا ..

ـ ربما كان الفاشيون يقومون بمناورات . سنرى اذا كان في وسع غولز ان يحملهم على المناورة . على كل حال يجب ان يجرب غولز حظه . فقد سبق لنا ان جربنا حظنا فى كوادالاجارا .

فقال كاركوف وهو يبتسم .. سمعت انك مسافر أيضا .. وفجأة ثار غضب الجنرال .. وقال .. اذن فقد انتقل الحديث الي ، وتناولني ، ان هذه الهمسات والوشوشات لا تنتهي ابدا . وفى وسع الانسان اذا اغلق فمه ان ينقذ البلاد ، ولكنه لا يغلقه .

ـ ان صديقك بريمتيفو يحسن اغلاق فمه .

ـ ولكنه لا يستطيع ان يؤمن بالنصر . وكيف يمكن لك ان تنتصر اذا كنت لا تؤمـن بالشعب .

فقال كاركوف .. هل قررت هذا ، سأمضي الى النوم .

ومضى كاركوف ، تاركا القاعة الملأى بالدخان والشائعات والهمسات ، ودلف الى غرفة نومه واخذ ينزع جزمته وملابسه . وكانت اصوات الجمع الحاشد ما زالت تصل الى اذنيه ، فاغلق الباب وفتح النافذة .. ولـم يحاول نزع ملابسه لأنه كان فى الساعة الثانية سيستقل السيارة الـى كولمينار ومنها الى سيرسيدا ، فنافاسيرادا ، فالجبهة ، حيث سيشرع غـولز في هجومـه .

٣٣

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا ، عندما ايقظته بيلار . وعندما لمسته يد المراة ، خيل اليه انها يد ماريا فاستدار اليها وقال .. « يـــا ارنبة » . ثم هزت المراة كتفه بيدها الكبيرة ، واستيقظ فجاة ، فوضع يده على مقبض مسدسه ، الذي امده فوراً بالطمأنينة والثقة .

وراى بيلار فى حلكة الدجى ، وتطلع الى ساعته ، فراى انها الثانية .. وقال ماذا دهاك يا امرأة ؟

ـ لقد ذهب بابلـو .

وارتدى روبرت سراويله وحذاءه . ولم تكن ماريا قد افاقت بعد .. وقــال ..متـى ؟

ـ منـذ نحـو من ساعــة .

ـ ومــاذا ايضا ؟

فقالت المراة بيأس مرير .. وقد اخذ بعض متفجراتك .

ـ اذن . مــاذا ؟

ـ لا ادري . تعــال انظر .

وسارا في ظلمة الليل الى مدخل الكهف ، ودلفا اليه . ومضى روبرت جوردان خلفها ، في هذا الجو العابق برائحة النائمين في الكهف ، وهو يضيء مصباحه الكهربائي ، حتى لا يدوس بقدميه احد النائمين . وافاق انسيلمو فقال .. هل حـان الوقت ؟

فرد عليه روبرت .. لا . واصل النوم .

وكان الكيسان على مقربة من راس سرير بيلار ، الذي فصلته المراة عن بقية الكهف بستار اقامته من « البطانيات » . وشم روبرت . رائحة العرق الجاف وهو يجلس على السرير ، وينظر في داخل الكيسين . وراى شقا طويلا في كل من الكيسين يمتد من الراس الى القعر . ومد روبرت يده ، داخل الكيس الاول ، فراى ان صندوق المتفجرات الخشبي قد اختفى كما اختفت علبة السيكار التي تضم المفرقعات . وكذلك اختفى الصنـدوق الذي يضم الكبسولات والفتائل .

ومد روبرت يده في الكيس الثاني ، فوجد انه لا يزال مليئا بالمتفجرات . ولم تنقص منه الا رزمة واحدة .

ووقف مستديرا بوجهه الى المراة . وكان يحس بفراغ في صدره ، يشعر به كل انسان يرى بانه قد اوقظ قبل الاوان ، وهو نوع من الشعور بالكارثة ولكنه تضاعف معه عشرات المرات .. وقال .. هل هذا ما تسمينه حراسة حاجات الانســان .

فقالت بيلار ـ لقد نمت وقد وضعت راسي على الكيسين ، ويــدي تلمسهمـا .

ـ اذن فقـد نمت جيدا .

ـ واسمع ، لقد استيقظ في الليل ، فقلت له .. اين تمضي يا بابلو ؟ فقال .. ذاهب الى الخارج لاقضي حاجة يا امراة .. وعدت الى النوم . وعندما افقت ثانية لم ادر كم مر من الوقت ، وخيل الي انه قد مضى الى الجياد ليطمئن عليها كعادته .. وعندما لم يعد ، احسست بالقلق ، فمددت يدي الى الكيسين احسسهما ، فرايت الفراغ ، واتيت اليك .

ـ تعالـي ..

وخرجا الى العراء ، وكان الوقت لا يزال قريباً من منتصف الليل ، ولم تكن تباشير الصباح قد لاحت بعد .

ـ افي استطاعته المضي بالجياد ، الا عن طريق الحرس ؟

ـ هنـاك طريقـان .

ـ مـن في المركز العلوي ؟

ـ ايلاديو .

ولم يقل روبرت شيئا الى ان وصلا المرج ، حيث كانت الجياد ، فوجد ثلاثة منها ، اما المهر الكبير ، والمهر الاشهب فقد اختفيا .

ـ كم مضى من الوقت فى رايك منذ تركك ؟

ـ لا بـد ساعة .

ـ اذن ما وقع قد وقع . سأعود لآخذ ما تبقى في الكيسين واعود الـى النـوم .

ـ ساحرسهما .

ـ تحرسينهما !! لقد حرستهما مرة .. وفى هذا الكفاية .

ـ اسمع يا انكليزي ، انني اشعر تجاه هذا الموضوع تماما كما تشعر انت وليس ثمة من شيء استطيع أن اعمله ، لاعيد اليك ما فقدته ، واتردد في عمله . وليس ثمة من ضرورة لاهانتي . لقد خدعنا بابلو معا وخاننا .

وهنا ادرك روبرت ، انه لا يستطيع ان يكون قاسيا معها ، وانه لا يستطيع ان يخاصمها . فعليه ان يتعاون معها فى ذلك اليوم الذي مر منه حتـى الآن نحو من ساعتين او يزيد .

ووضع يده على كتفها وقال .. لا بأس يا بيلار ، ان ما اخذه ليس بالامر

المهم . وسأبتكر طريقة تعوض علينا ما فقدناه .

ـ ولكـن ماذا اخـذ ؟

ـ لا شيء ، سوى بعض الكماليات التي في وسعنا الاستغناء عنها .

ـ هل كان ما اخذه جزءاً هاما من عملية تفجيرك ؟

ـ اجل . ولكن هناك وسائل اخرى لاكمال التفجير . قولي لي الم يكن عند بابلو كبسولات وفتائل ؟ لا ريب انهم قد اعطوه مثل هذه .

ـ لقد اخذها . وقد بحثت عنها مرة فلم اجدها . لقد اخذها .

وعادا يسيران عبر الغابات الى مدخل الكهف .. وقال .. اذهبي ونامي فمن الخير لنا ان بابلو قد مضى .

ـ لا ريب في انه ذهب من طريق آخر .

ـ على اي حال ، سأذهب فقد خدعتك ببلاهتي .

ـ لا ، اذهبي ونامي ، وسنبدأ سيرنا في الرابعة .

ومضى معها الى الكهف فحمل الكيسين معا بيديه ، حتى لا يسقط من الشقين اي شيء . وقالت .. دعني اخيطهما .

ـ قبل أن نسير .. اسمعي لقد حملتهما لا خوفا منك ، ولكن تأكدا مني حتـى انـام .

ـ يجب ان يكونا معي باكرا .. لاخيطهما .

ـ سيكونان معك باكرا .. نامي قليلا .

ـ لا . لقد الحقت بك وبالجمهورية الاذى .

ـ فقال لها برقة .. اذهبي ونامي قليلا ..

٣٤

كان الفاشيون يحتلون قمة الجبل هنا . وامام هذا الجبل ، واد لا يحتله أحد ، وليس فيه الا مركز خفارة فاشي . اقاموه في مخزن الغلال في احد المزارع وحصنوه ، كما حصنوا الابنية المجاورة للمخزن . وقام اندريه فى طريقه الى غولز حاملا رسالة روبرت جوردان بدورة كبيرة حول هذا المركز ليتجنبه . وكان يعرف بوجود سلك متصل ببندقية ، تطلق النار اذا مس السلك انسان ، فتجنبه فى الظلام . ومر فوقه ، ثم عبر الجدول الصغير الذي تحيط به اشجار الحور ، التي اهتزت اوراقها مع الريح . وصاح ديك فى المزرعة ، وتطلع اندريه عبر جذوع اشجار الحور . فرأى نورا ينبعث من احدى نوافذ المزرعة . وكان الليل هادئا وصافيا . فترك اندريه الجدول ومضى يعبر المرج .

وكانت هناك اربعة من اكياس القش في المرج ، ما زالت في مكانها منذ دار القتال فيه قبل نحو من عام . ولم يحمل اي من الفريقين الاكياس على الرغم من مرور اربعة فصول ، اذ ان الفاشيين لم يكونوا فى حاجة اليها ، بينما كان الجمهوريون مشغولين باشياء اخرى .

ومضى اندريه يفكر وهو في طريقه .. ان الفاشيين يملكون كل شيء ، الحنطة والتبن والقش .. ولكننا سنوجه اليهم ضربة قاصمة فى الغد ..

اجل سنثأر لسوردو في الصباح .. يا لهم من قساة ، غلاظ القلوب . وسيشهد الصباح غبارا على الطريق .

انه يريد ان يسلم الرسالة ويعود للاشتراك في الهجوم في الصباح . او يريد حقا ان يعود او انه يتظاهر بهذه الرغبة ؟ وكان قد احس بشعور من الارتياح . عندما ابلغه الانكليزي ، انه سيمضي بالرسالة وكان قد واجه احتمالات صباح الغد بهدوء ، فهذا ما يجب ان يقع . لقد اقترع الى جانب الاشتراك في العملية ، وعليه ان يشترك فيها . وكان القضاء على سوردو ورفاقه قد اثر عليه ابلغ التاثير . ولكن ما وقع كان لسوردو لا لهم . وان عليهم ان ينفذوا ما عهد اليهم بتنفيذه .

ولكن عندما ابلغه الانكليزي . موضوع الرسالة ، احس بنفس الشعور الذي كان يحس به عندما كان صبيا ، وعندما كان يستيقظ في الصباح في يوم العيد في القرية ، فيرى ان السماء تمطر بشدة ، مما يشير الى الغاء الاحتفالات والعدول عن حفلة مصارعة الثيران .

كان يحب مصارعة الثيران وهو طفل . وكان يتوق الى مشاهدتها دائما والى اللحظة التي يقف فيها في الساحة العامة ، في الشمس الدافئة . وقد اغلقت منافذها ، لينزل اليها الثور من المكان المحصور فيه . وكان يتطلع بحماس وسرور ، الى اللحظة التي يرى فيها الثور خارجا من محبسه . ويسمع فيها صوت قرونه وهي تضرب هنا وهناك . وقد رفع راسه . واتسعت فوهتا انفه ، وارتفعت اذناه ، وحملقت عيناه جائلة في ما حوله .

اجل كان يرقب طيلة العام ، دنو تلك اللحظة التي يرى فيها الثور ، يخرج الى الحلبة ، يبحث عن الانسان الذي يختاره لمهاجمته . وها هو يحس وقد اصدر الانكليزي امره بالمضي بالرسالة ، بنفس شعور الارتياح. عندما يستيقظ في صباح ذلك اليوم فيرى ان المطر قد يحول دون الحفلة. التي قد يتعرض فيها لغضب قرون الثور .

ولكنه كان دائما من الشجعان ، في تحدي الثيران ، في القرية ، كغيره من ابنائها ، ولم يكن ليتأخر عن حضور اية حفلة من الحفلات في قريته . وان كان لا يرغب في الاشتراك في حفلات القرى الاخرى . وكان دائمـــا يتريث حتى يهاجمه الثور فيبتعد عن طريقه في اللحظة الاخيره . وكان يشترك دائما في الهجوم على الثور مع الآخرين ، لانقاذ ، من يقع تحت وطـأة قـرونه .

وانه ليذكر ، انه شد مرة الثور من ذيله ، لبعده عن انسان اوقعه ارضا . واخذ يلوي ذيله بشدة ، حتى رفع الثور راسه عن الشخص . وادار نفسه لمهاجمته ، ففر من طريقه ، وهو يدور مع الثور ، ولا يزال ممسكا بذيله حتى اجتمع الناس على الثور فقتلوه بمداهم . وكان دائما . وسط النقع والحرارة ، والهياج والصراخ ، في طليعة الرجال الذين يهاجمون الثور ، ويمسكون بقرونه ويعضون اذنيه .

وانه ليذكر ان ابناء قريته كانوا ينظرون اليه دائما نظرة التجلة والاحترام وكانوا يتوقعون منه في كل عام ان يبلي البلاء الحسن في قتال الثور وصراعه .. ولكنه بعد ان تنتهي المعركة ، ويسقط الحيوان قتيلا ، وقد اثخنته الجراح ، كان اندريه يسير في الحلبة ، وقد احنى هامته خجلا من عضه اذن الثور ، مع الاعتزاز بالدور الذي مثله كرجل كامل .. وكان يمضي الى نافورة الماء ليغسل يديه ووجهه ، فتلتف حوله النسوة يربتن علـى كتفه هاتفات بحياتـه .

وكان اندريه يحس بالخجل منهن ، فيبعدهن عنه ، ويغسل يديه وذراعه ومديته ، ثم يتناول من احدى الفتيات قليلا من الخمر ، يديرها في فمه ليغسله من طعم اذن الثور ثم يلقي بما في فمه من الخمر على ارض الشارع، قبل ان يتناول جرعة كبيرة منه .

حقا ، لقد كان بطل الحلبة ، ولم يكن ليتقاعس عن المعركة ، في اي عام . لكـن شعـور الارتياح كان يغمره دائما ، عندمـا يهطل المطـر ، فتلغى الحفلة في ذلـك العام .

ومضى يحدث نفسه .. ولكن يجب ان اعود ، اجل يجب ان اعـــود لأشترك في عملية الجسر والمركزين فاخي ايلاديو هناك . وهو من دمـي ولحمي . وهناك انسيلمو وبريمتيفو وفيرناندو واوغسطين ورافائيل ، مع ان هذا الاخير هازل لا جاد ، وهناك ايضا المراتان وبابلو والانكليزي . لكن الاخير ، ليس له حساب ، فهو اجنبي وخاضع للأوامر التي يتلقاها .. انهم كلهم على استعداد لخوض المعركة ، ومن المستحيل علي ، ان انجو منها بفضل هذه الرسالة .. ولذا يجب ان اسلم الرسالة بسرعة ، ثم اعود بأقصى ما يمكنني من العجلة ، لاشترك في الهجوم . ومن العار علي ان لا اشترك فيه بسبب هذه الرسالة .. يضاف الى هذا ، انني سأشعر ببالغ المتعة من قتل عدد من الفاشيين ، فقد مضى علينا عهد طويل ، لم نقتل فيه احدا منهم . ولا ريب في ان الغد سيكون من الاعمال الباهرة المحدودة فالغد يوم من الايام الجديرة بالذكر .. فمتى يأتي الغد واكون قد عدت الـى جماعتـي .

وكان الآن ، قد تسلق المنحدر العميق الذي يؤدي الىخطوط الجمهوريين واحس بطائر من طيور الحجل ، يرتفع عن الارض من بين قدميه ، فشعر بخوف زائد . كانت مفاجأة الحركة هي التي ارعبته . فكيف يسع هذه الطيور ان تخفق باجنحتها بمثل هذه السرعة . لا ريب في انها تفرخ الآن ، وقد اصبحت قريبا من بيوضها . آه لو لم تكن الحرب ، لوضعت علامةعلى المكان ، فأعود فى الغد ، وآخذ البيوض ، واضعها تحت احدى الدجاجات، لتفرخ وتنمو .. فهل اسمل عينيها .

وهل تطيعني نفسي على القيام بمثل هذا العمل ، بعد ان اكون قـــد ربيتها . فى وسعي ان اقص اجنحتها او اربط رجليها . ولو لم تكن الحرب قائمة ، لمضيت مع ايلاديو الى ذلك الجدول القائم قرب المركز الفاشـي لنصيد السمك منه . واني لاذكر اننا صدنا مرة عددا كبيرا من هذا السمك الصغير فى يوم واحد . ولو مضينا بعد الانتهاء من عملية الجسر الى جبال غريدوس . فهناك الكثير من الاسماك الصغيرة . كم اود ان نمضي الى غريدوس فهناك الحياة ممتعة في الصيف والخريف ، ولكنها مضنية فى

الشتاء القارس . ولكن عندما يحل الشتاء ، فقد تكون الحرب قد انتهت، وغدونا المنتصرين فيهـــا .

ولو لم يكن ابي جمهوريا ، لكنت انا وايلاديو الآن جنديين في الجيش الفاشي . ولا يجد الجندي الفاشي عنتا او مشقة ، فعليه ان يطيع الاوامر، وقد يحيا او يموت ، فالنتيجة واحدة . ومن الاسهل على الانسان ان يعيش في ظل نظام ، بدلا من ان يحاربه .

ولكن هذا القتال غير المنظم ، يحمل الانسان مسؤولية ثقيلة . وفي وسع الانسان اذا كان من النوع القلق ، ان يشتد قلقه ، وايلاديو يفكر اكثـــر مني بكثير ، وهو من النوع القلق . اما انا فأومن حقا بقضيتنا ولذا فلا اشعر بقلق . لكن حياتنا تنطوي على مسؤولية ضخمة .

واعتقد اننا ولدنا في عهد مليء بالمصاعب والمشقات . ولا ريب في ان الاوقات الماضية كانت خيرا من وقتنا . وقد لا يشعر الواحد منا بالالم ، لاننا تعودنا عليه . فالناس الذين يحسون بالآلام لا يصلحون لمثل هذه الاجواء التي نعيش فيها . ولكن الوقت قد حان للقرارات القاسية الصعبة. وقد هاجمنا الفاشيون وهم الذين ارغمونا على اتخاذ القرار . اننا نحارب لنعيش .. ولكن كم اود لو تركت علامة على تلك الشجرة وعدت في النهار لجمع تلك البيوض . فأنا ميال الى مثل هذه الاشياء الصغيرة .

ولكنك لا تملك بيتا ولا حديقة . وليست لك عائلة ، سوى هذا الاخ الذي يمضي غدا الى المعركة ، وانت لا تملك شيئا الا الرياح والشمس والمعدة الخاوية . اما الريح فخفيضة اليوم ، واما الشمس فلا وجود لها . وفي جيبك اربع قنابل يدوية ولكنها لا تصلح لشيء الا لالقائها . وعلى ظهرك غدارة ، ولكنها لا تصلح الا لاطلاق النار . وفي جيبك رسالة ، ولكن عليك ان تسلمها . وجسدك مليء بالقاذورات التي يجب ان تبرزها ، والبول الذي يجب ان تخرجه . انك لا شيء ، الا ما تقدمه . وانت ظاهرة مـــن

ظواهر الفلسفة ، ورجل شقي تعيس .

وعلى الرغم من جميع هذه الافكار السامية ، فقد كان لا يزال يحس بنفس ذلك الشعور الذي كان يراوده عندما يستيقظ فى صباحه فيرى ان المطر قد يحول دون حفلة المصارعة . وامامه الآن يقوم المركز الحكومي الذي كان يعرف ان الحارس القائم فيه سيتحداه .

٣٥

استلقى روبرت جوردان في الفراش الى جانب الفتاة ماريا التي كانت لا تزال تغط في نومها العميق . وكان قد ادار لها ظهره . واحس بجسمها اللدن الطويل ملتصقا به ؛ فخيل اليه ان الحياة كلها سخرية .. واخذ يعنف نفسه .. ويقول .. الا تذكر انك عندما رايته المرة الاولى ، قلت لنفسك ان خيانته ستبدا عندما يشرع في التظاهر بالصداقة . يا لك من انسان مخبول .. على كل ، ما فات مات ، وعليك ان لا تفكر في هذا الآن .

هل يمكن ان يكون بابلو قد اخفاها في مكان ما ، او قذف بها بعيدا ؟ لا . هذا مستحيل . ثم هل في وسعك ان تعثر عليها في الظلام . كان في وسعه ان يخفيها . لقد اخذ معه بعض المتفجرات . يا له من وغد سافل قذر . يا له من عفونة نتنة . الم يكن في وسعه ان يفر ، دون ان ياخذ ما اخذ ؟ ولماذا كنت من الحماقة على ذلك النحو ، الذي اترك فيه هذه المواد في عهدة هذه المراة ؟ يا له من وغد مخادع ذكي .. وجبان قذر .

وشرع يحدث نفسه .. ولكن علام الضجيج ، خذ الامور ببساطة ، كان عليك ان تغامر ، وقد غامرت . وكانت النتيجة انك خدعت . اجل لقد خدعت ، على كل حال ؛ عليك ان تبقي راسك مرفوعا ، وان تطرد الغضب

عنك ، وان تتوقف عن العويل على هذا الشكل . فقد مضى بما اخذه .. لقد مضى الخنزير القذر الى الجحيم . وفي وسعك ان تصلح الأمور .. وهذا واجبك الآن .. لماذا لا تعود الى جدك تسأله رأيه ؟

ولكن اللعنة على جدك وعلى هذه البلاد المخادعة الملعونة وعلى كل اسباني فيها يحارب الى جانب اي من الفريقين . وليمض كل شيء الى الجحيم . اجل لتنصب اللعنة عليهم جميعا . لارغو وبريتو واسينسيو ومياجا وروجو وغيرهم ، عليهم اللعنة جميعا حتى الموت . واللعنة على جميع هذه البلاد التي لا تعرف الا الغش والخداع . اللعنة على انانية اهلها وحبهم لذاتهم وغرورهم وخياناتهم . ليذهبوا جميعا الى الجحيم . ليذهبوا قبل ان نموت من اجلهم ، أو بعد ان نموت . اجل عليهم اللعنة حتى يموتوا ويمضوا الى الجحيم ، ليلعن الله بابلو ، فهو يمثلهم كلهم ، وليشفق الله على الشعب الاسباني ، فكل من يتولى قيادتهم سيلعنهم . انهم لم يعرفوا شخصا طيبا يحكمهم منذ الفي سنة الا بابلو ايغلينوياس ، اما الآخرون فكانوا يسومونهم الخسف دائما . ليتنا نعرف ، كيف كان سيسلك هذا الانسان لو عاش في هذه الحرب ؟ واني لاذكر الوضع في لارغو .. كان دوروتي قائدا ممتازا ، وقد قتله رجاله في ساحة البلدة ، لانه اراد منهم ان يهجموا . لقد قتلوه ، في منتهى النظام الذي يسود الفوضى عادة . يا لهم من خنازير جبناء . ليذهبوا الى الجحيم وعليهم اللعنة . وبابلو هذا الذي مضى الآن بحاجياتي .. ليذهب الى اعماق الجحيم .. ولكن لا ، فهو الذي خدعنا . وهذا شأنهم دائما من ايام كورتيز حتى عهد مياجا الحالي . او لم تر ما فعله مياجا بكليبر . انه خنزير اناني اصلع . ان راسه كالبيضة . واللعنة على جميع الخنازير المجانين والانانيين والمخادعين الذين حكموا اسبانيا ، وقادوا جيوشها . اللعنة على الجميع باستثناء الشعب ، ولكن حذار من هذا الشعب ايضا عندما يتسلم السلطة .

وبدا غضبه يهدأ شيئا فشيئا . عندما غالى في سبابه وشتائمه ، واخذ ينشر ازدراءه واحتكاره بشكل واسع شمل الكثيرين ظلما وحيفا ، حتى

انه هو لم يعد يصدق نفسه .. واذا كان حقا فلماذا جئت الى هنا ؟ انـه ليس صحيحا ، وهو يعرف هذا تماما .. انظر الى جميع الناس الطيبين ، والخيرين انه لا يستطيع ان يكون غير منصف . انه يكره الاجحاف كما يكره القسوة .. وظل مستلقيا فى مكانه والغضب يعمي عقله ، حتى اخـذ ينجلي عنه شيئا فشيئا . وغدا غضبه الان هادئا ، متلبدا ، باردا ، تماما كالرجل الذي انتهى من عملية جنسية مع امراة لا يحبها .

واتكأ على مرفقه وتطلع الى ماريا التي كانت تبتسم في نومها وقال لها .. وانت ايتها الارنبة المسكينة .. لو تكلمت لضربتك وانت نائمة . يا للرجل من حيوان متوحش عندما يثور غضبه .

وكان يضمها الى صدره الان . وهو مستلق الى جوارها ، وقد ضمها اليه ، ووضع ذقنه على كتفها ، وشرع يفكر فى الطريقة التي يجب ان يعمل فيها وكيف يجب عليه ان يعمل .

وقال يحدث نفسه .. ان الوضع لم يعد سيئا للغاية . اجل انه ليس بالوضع السيء . ولا ادري ان كان انسان ما قد قام بمثل هذا العمل من قبل . ولكن منذ الان سيقوم باحتذاء حذوه كل من يجد نفسه فى ورطة كالورطة التي وقع هو فيها . ولكن الشرط الاولي ان يسمعوا بمشكلته ، وكيف تخلص منها . هذا هو الشرط . اما اذا لم يسمعوا بها فكيف يمكن لهم ان يتعلموها .. وعدد الرجال معنا قليل ، ولكن هذا لا يقلقني ابـدا وفي وسعي ان انفذ موضوع الجسر بهذا العدد القليل من الرجال .. يـا لله كم انا سعيد لانني تغلبت على غضبي . لقد كنت لا اكاد استطيع التنفس كالانسان فى عاصفة .. والغضب متعة لا نستطيع ان نتمتع بها .

وقال يهمس على كتف ماريا .. لقد اعددت كل شيء يا حلوة . طبعا انك لم تزعجي نفسك بأي شيء منه . وانت ما زلت تجهلين كل ما حدث . سنقتل ، ولكننا سننسف الجسر . فعليك ان لا تقلقي .. قد لا يصلح ما

اقوله كهدية عرس اليك . ولكن اليست الراحة التي نعمت بها فى هـذه الليلة ، جديرة بان تمضي بلا ثمن ؟ لقد نمت نوما هادئا .. انظري اذا كان في وسعك ان تجعلي من هذا النوم خاتما تضعينه فى اصبعك . نامي ، يا حلوة . نامي يا حبيبتي . انني لن اوقظك . وهذا كل ما استطيع ان افعله مـــن اجلك .

وظل مستلقيا الى جانبها ، وهو يحس بتنفسها العميق ، وبدقـــات فؤادها ، متطلعا بين آونة واخرى الى الساعة فى يسراه .

عندما وصل اندريه ، الى المركز ، اطلق الهتاف المعتاد بالتحدي . وكان في امكانه ان يمر حول المركز دون ان يشعر به اي انسان ، لعدم وجود خط دفاعي كامل ، ولكنه راى ان من الخير ان ينتهي من الموضوع فورا . .وكان اندريه قد هتف . . تحية ايها المتطوع . .!!

وسمع صوت زناد البندقية يتحرك . وانطلق عيار ناري . وهبط اندريه برأسه الى الارض . . وصرخ . . لا تطلقوا النار يا رفاق . . لا تطلقوا النار ، فأنا قادم اليكم .

وانطلق صوت من وراء الحاجز يقول . . كم عددكم ؟

ـ انا واحد . واحد ليس الا .

ـ ومن انت ؟

ـ اندريه لوبيز من قرية فيلا سونيجوز ، ومن افراد عصابة بابلو . احمل رسالة .

ـ وهل تحمل بندقية وعتادها ؟

ـ اجل ، يا رجل .

ـ ليس في وسعنا ان نقبل رجلا لا يحمل بندقية وعتـادا ، وليس في وسعنا ان نقبل اكثر من ثلاثة رجال .

ـ انا رجل واحد . والموضوع مهم . دعوني امر .

وسمعهم يتحدثون من وراء الحاجز ، ولكنه لم يفهم من حديثهم شيئا . وعاد الصوت ينطلق ثانيا .. كم عددكم !

ـ قلت اني شخص واحد . انا واحد ، بحق الاله .

وعادوا يتحدثون وراء الحاجز ثانية . ثم سمع الصوت يقول .. اسمع ايهـا الفاشي .

فقال اندريه ـ انا لست فاشيا . انا من المناضلين من عصابة بابلو . جئت احمل رسالة الى الاركان العامة .

وسمع احدهم يقول .. لا ريب في انه مجنون . اقذفه بقنبلة .

وصرخ اندريه .. اسمعوا ، انا وحيد . وعاقل كل العقل واللعنة على جميع الاعيان فأنا وحيد . دعوني ادخل .

وسمع أحدهم يتحدث ويضحك ثم يقول .. انه يتحدث كالمسيحيين .

فرد عليه آخر يقول .. ان افضل طريقة ان نقذفه بقنبلة .

فصرخ اندريه .. لا . هذا خطأ فاضح . أن الموضوع هام . دعوني ادخـــل .

وهذا هو السبب الذي كان يحمل اندريه على كره الرحلات بين الخطوط الحربية . وقد تكون هذه الرحلات احيانا خيرا من مهام غيرها ، ولكنها على الغالب ما تكون سيئة .

وعا دالصوت يقول .. هل انه وحيد؟

فصرخ اندريه .. كم مرة يجب ان اكرر القول باني وحيد .

ـ اذن ، اذا كنت وحيدا ، قف ، وارفع بندقيتك فوق راسك .

ووقف اندريه ، ورفع غدارته فوق راسه ، بيديه الاثنتين .

ـ اذن ، ادخل الان السلك ، وتأكد ان المدفع الرشاش مسلط عليك .

ووصل اندريه الى المنعرج الاول بين خطوط الاسلاك الشائكة فصرخ يقول .. احتاج الى يدي للمرور عبر الاسلاك .

فهتف به الصوت آمرا .. دع يديك مرفوعتين .

وصرخ اندريه .. ولكن الشريط قد امسك بي .

وقال صوت .. كان من الاسهل لو قذفناه بقنبلة .

وقال صوت ثان .. دعه يقذف بندقيته . انه لن يستطيع المرور من ذلك المكان ويداه مرفوعتان .. استعمل عقلك .

فقال الصوت الاول .. ان جميع الفاشيين متشابهون . انهم يطلبون شرطا اثر آخر .

فصرخ اندريه .. اسمعوا ، انا لست فاشيا ولكني مناضل من عصابة بابلو . قتلنا من الفاشيين اكثر مما قتل التيفوس منهم .

وقال الرجل ، الذي يبدو عليه انه آمر المركز .. لم اسمع قط بعصابة بابلو ، ولا ببطرس او بولس او غيرهما من القديسين والحواريين ، او عصاباتهم . ضع بندقيتك على كتفك واستخدم يديك في المرور من الشريط .

وقال الرجل الثاني .. قبل ان تنطلق نيران المدفع الرشاش عليك .

فصرخ اندريه .. انكم لستم بالودودين .

وكان مشغولا فى شق طريقه عبر الاسلاك .

وسمع صوتا يقول .. ودودون ! اننا فى حرب يا رجل .

ـ هذا مـا بدا لي الآن .

ـ مـاذا يقول ؟

وسمع اندريه صوت الزناد ثانية . فصرخ .. لا شيء . لم اقل شيئا .

لا تطلق النار قبل ان انتهي من هذه الاسلاك .

ـ لا تتحدث بالسوء عن اسلاكنا ، والا قذفناك بقنبلة .

فصرخ اندريه . . يا له من سلك رائع . انه له في بيت خلاء . يا له من سلك جميل . سأكون معكم بعد قليل يا اخوان .

وسمع الصوت يقول . . اقذفوه بقنبلة فهذه هي الطريقة المعقولة لمعالجة هـذا الموضوع .

فصرخ اندريه وقد غمره العرق ، اذ كان يدرك ان حامل نظرية القنبلة يستطيع ان يقذف بها في كل لحظة . . اسمعوا يا اخوان ، انـا لسـت بالانسان المهـم .

فقال نفس الرجل . . انا اصدقك .

ورد اندريه ـ انك على حق . . وكان الان يشق طريقه في الطوق الثالث من الاسلاك ، واصبح قريبا جدا من الحاجز ، وقال . . انا لست بالانسان المهم بأية صورة من الصور . ولكن الموضوع مهم وخطير .

فقال نفس الرجل . . ليس هناك ما هو اخطر من الحرية . اتعتقد ان ثمة ما هو اخطر مـن الحرية ؟

ـ لا يـا رجل .

وادرك انه قد وصل الان الى جماعة المجانين من ذوي الاوشحة الحمراء والسوداء ثم هتف بصوت عال . تحيا الحرية .

فردوا عليه . . تحيا النقابات الفوضوية ، وتحيا الحرية .

وقال اندريه . . نحيا نحن جميعا .

وقال الرجل صاحب فكرة القنبلة . . انه من اتباع مذهبنا ، وقد كدنا نقتله بهـذه القنبلة .

وتطلع الرجل الى القنبلة اليدوية في يده ، وقد بلغ التأثر منه مبلغا كبيرا

عندما راى اندريه يتسلق الحاجز . وعندما تلقاه الرجل بعناق حار وقبله ذات اليمين وذات الشمال في وجنتيه . ثم قال .. انا سعيد ، لان شيئا لم يحدث لك ايها الاخ . انا سعيد جدا .

وقال اندريه .. اين ضابطكم ؟

فقال الرجل .. انا الآمر هنا . ارني اوراقك .

وانتقل الى حفرة ، واخذ يتطلع في الاوراق ، على ضوء شمعة . وراى اشارات الجمهورية وختم القيادة العامة ، كما راى شهادة حسن السلوك وفيها اسمه وعمره وطوله ، ومكان ولادته ، كما راى رسالة روبرت وقد اغلقت وختمت .

وقال الآمر ، وهو يعيد اليه اوراقه .. لقد رايت كل هذه العلامات ، ولكن حيازتك لها لا تعني شيئا بدون هذه الورقة .. واخذ يلوح بشهادة حسن السلوك .. ثم قال .. اين ولدت ؟

ـ في فيلاكو نيجوز .

ـ وماذا يزرعون هناك ؟

ـ البطيخ .. وهذا ما يعرفه الجميع .

ـ من تعرف هناك ؟

ـ لماذا ؟ هل انت من هناك ؟

ـ لا ، ولكنني كنت فيها . انا من ارانجويز .

ـ اسألني عمن تريد .

ـ صف لي جوزيه رينكون .

ـ انه ذو راس حليق ، وبطن كبير ، في عين واحدة .

ـ اذن فاوراقك صحيحة .. ولكن قل لي ماذا تعمل في ذلك الجانب ؟

ـ كان والدي قد اقام في فيلاكاستين قبل بدء الحركة . هناك وراء

الجبال في السهل . وهناك داهمتنا الحركة . ومنذ ذلك الحين ، وانـــا اقاتل مع عصابة بابلو . ولكنني في سرعة من امري ، لنقل هذه الرسالة .

وقال آمر المركز يسأله : وكيف الوضع في بلاد الفاشيين ؟

فقال اندريه .. لقد وقعت لنا مشاكل كثيرة اليوم . وقد مرت سيارات كثيرة على الطريق ، وابادوا عصابة سوردو .

وقال الرجل باستنكار .. ومن هو سوردو هذا ؟

قائد احسن عصابة في الجبال كلها .

وقال الآمر ... يجب ان تأتوا جميعا الى الجمهورية ، وتنضموا الــى الجيش فهناك الكثير من اعمال العصابات السخيفة هذه . يجب ان تأتوا جميعا وتخضعوا لنظامنا العسكري المتحرر .. وعندما نرغب في ارسال العصابات فاننا نبعث بها حسب الحاجة اليها .

وكان اندريه رجلا يمتاز بقوة الصبر . وكان قد احتمل اجتياز السياج بهدوء . ولم يتألم من كل ما تبع ذلك من تحقيقات عن الهوية وما شابه ذلك وقد وجد أن من المألوف تماما ان مثل هذا الرجل قد لا يفهمهم ولا يعرف ما يعملونه ولذا فان من الطبيعي ان يصدر عنه مثل هذا السخف . وكان يتوقع أيضا ان تسير كل هذه الاجراءات ببطء ولكنه اراد ان يذهب الان. فقال .. اسمع ايها الرفيق .. من الممكن ان يكون كل ما تقوله حقا . ولكن لدي اوامر بان اسلم هذه الرسالة الى الجنرال الذي يقود الفرقة الخامسة والثلاثين التي ستقوم بالهجوم عند فجر غد في هذه المنطقة ، وها قد اصبح الوقت متأخرا هذه الليلة ، ويجب ان اعود .

ـ اي هجـوم ؟ ماذا تعرف عن الهجـوم ؟

ـ لا اعرف شيئا . ولكن يجب ان اذهب الان الـى نافاسيرادا . وان امضي من هناك . فهل لك ان تبعث بي الى قائدك الذي يؤمن لي واسطة للنقل لامضي بها الى هناك ؟ هل لك ان تبعث معي احد رجالك الان الى

قائدك حتى لا يكون اي تأخير ؟

ـ انني لا اثق بكل ما تقول . كان من الافضل لو قتلناك عندما اقتربت مـن الاسلاك الشـائكـة .

ـ لقد رأيت أوراقي أيها الرفيق . وقد اوضحت لك مهمتي .

ـ في الامكان تزوير الاوراق . وفي وسع اي فاشي ان يخترع مهمة كهذه سأذهب معك بنفسي الى القائد .

فقال اندريه ـ حسنا . اذن هيا بنا ولنسرع .

ـ اسمع يا سانشيز . ستتولى القيادة في غيابي فانت تعرف واجبك كما اعرفه . وانا سأتولى نقل هذا الرفيق المزعوم الى القائد .

وشرعا يهبطان الخندق الضحل القائم وراء قمة التل . وشم اندريه في الظلام الروائح الكريهة المنبعثة من براز المدافعين عن هذا التل . انه لم يحب هؤلاء الناس الذين لا يختلفون عن اطفال خطرين وقذرين ووسخين ومفتقرين الى النظام وجهلاء وسمجاء ،ولكنهم خطرون دائما لانهم مسلحون ولم يكن اندريه يحمل اية آراء سياسية معينة . باستثناء انــه انسان جمهوري وقد سمع هؤلاء الناس يتحدثون اكثر من مرة ، وقد خيل اليه ان ما يتحدثون عنه جميل ورائع ، ولكنه لا يحبهم . فليس من الحرية في شيء . ان لا يدفن الانسان ما يبرزه من غائط . وليس هناك من حيوان اكثر ميلا الى الحرية من القط ، ولكنه يدفن برازه دائما . ان القط هو خير حيــوان فوضوي والى ان يتعلموا ذلك من القط فلا يستطيـــع ان يحترمهم .

وكان الضابط يسير امامه ثم توقف فجأة وقال .. الا زلت تحمــل غـدارتـك ؟

ـ اجل . ولم لا احملهــا ؟

ـ اعطنيها في وسعك ان تقتلني باطلاق النار على ظهري .

ـ لماذا . لماذا اقتلك ؟

ـ لا يستطيع المرء ان يعرف . فانا لا اثق بانسان . اعطني الغدارة .

وناولها اندريه للضابط وهو يقول .. خذها ، أذا كان يسرك ان تحملها

ـ هذا خير وابقى .. فقد اصبحت اكثر امنا الان .

ومضيا في طريقهما يهبطان التل .

٣٧

كان روبرت جوردان لا يزال مستلقيا الى جانب الفتاة ، وهو يتطلع الى ساعته ، فيرى الوقت يمر ببطء لا يكاد يلاحظه ، لان ساعته كانت صغيرة ، ولم يكن في وسعه ان يرى عقرب الثواني . ولكنه كان يستطيع ان يضبط مرور الثواني ، من مراقبته لحركة عقرب الدقائق . وكان راس الفتاة تحت ذقنه . وعندما ادار راسه ليرى الساعة احس بشعرها المقصوص ، يلمس خده فشعر بما فيه من نعومة وحيوية . واخذ يمرغ وجنتيه على شعرها فيحس بفراغ يمتد من خلفه الى جميع اطراف جسمه وسقط رأسه واغمض عينيه ، وهو ينصت الى صوت حركة الساعة بينما كان يضم ماريا شيئا فشيئا الى صدره . ولم يكن راغبا في ايقاظها ، ولكن لم يكن في وسعه ان يتركها وحيدة ، في هذه الساعات الاخيرة ووضع شفتيه وراء اذنها . ثم اخذ ينتقل بهما على عنقها وهو يحس بنعومة جلدها وشدد من ضمه لها الى صدره ، وسرعان ما اخذ يجري برأس لسانه على وجنتيها وعلى دائرة اذنها ، واحس بلسانه يرتجف . واخذت الرعدة تنتقل من لسانه الى ما يحس به من فراغ في صدره ، بينما ظل يرقب عقربي الساعة وهما يتحركان . وادار راسها اليه ووضع شفتيه على شفتيها . واخذ يحركهما بنعومة ورقة . وادار نفسه اليها ،

فاحس برعدة تسري في اوصالها . وسرعان ما صدرت عنها تنهدة عميقة، وامسكت به وقد وضعت شفتيها على شفتيه ، بقوة وتصميم ..

وقـال لها .. والألم ؟

فقالت .. لم يعد هناك ألـم

ـ يـا ارنبة !

لا . لا تتكلـم .

ـ يا ارنبتي .

لا . لا تتكلـم .

وسرعان ما اصبحا جسدا واحدا . بينما اخذ عقربا الساعة يتحركـان وادركا معا ان ليس في وسع اي شيء ان يحدث لاحدهما دون ان يحدث الى الاخر ، وأن ليس هناك ما يمكن ان يحدث ، الا ما حدث ، ويحدث الان . وان هذا هو كل شيء .وسيظل كل شيء . وانه كان كل شيء في الماضي ، وسيظل كل شيء بالنسبة لهما فى المستقبل ايضا .. وتحقق لهما ما يريدان وما اراداه ، وما سيريدانه .. الان .. اجـل الان ، الان ، ولا شيء غير الان .. الان هو كل شيء بالنسبة اليهما .. الان ولا شـيء غيـر الان ..

وقال لها .. آه يا ماريا ، احبك .. واشكرك على هذا ..

فقالت ماريا .. لا تتكلم .. من الخير ان لا تتكلم .

ـ ولكن من واجبي ان اقول لك ، انه كان شيئا عظيما .

ـ لا .

ـ يـا ارنبتي ..

وامسكت به تضمه الى صدرها ، وادارت عنه وجهها فقال بنعومة .. ماذا هل تألمت يا ارنبتي ؟

ـ لا ، ولكني شاكرة ، لانني حلقت في النعيم مرة ثانية .

وعادا يستلقيان الى جانب بعضهما ، وروبرت دالب على النظر الـى

ساعته .. وقال : لقد كان حظنا رائعا ..

ـ اجل . فنحن انسانان محظوظان .

ـ اولم يبق وقت للنـوم ؟

ـ لا . ان العملية ستبدا حالا الان .

ـ اذن ما دمنا سنستيقظ ، فلنمضِ لنأتي بشيء نأكله .

ـ حسنا .

ـ قل لي اتشعر بقلق من أي شيء ؟

ـ لا .

ـ حقـا ؟

ـ لا . ليس الان .

ولكنك كنت قلقا مـن قبل ؟

ـ لفتـرة قصيرة .

ـ هل في وسعي ان اقدم اي عـون ؟

ـ لا . لقد اعنتني ما فيه الكفايـة .

ـ لقد كان ما عملناه مـن اجلي .

ـ لا من اجلنا معا . فليس هناك من انسان لوحده . هيا يا ارنبة . دعينـا نلبس .

وكان عقله ، وهو رفيقه الامثل ، قد بدا يعمل الان ، لقد استعملت كلمة النعيم ، وهي كلمةتختلف كل الاختلاف عن كلمة المجد . وهي موجودة في كل مكان ، عند الهنود ، وعند الاغريق وفى سان خوان دي لاكروز .. اذن لم التشاؤم ، وقد كانا فى النعيم . وهل يستطيع ان ينكر انه النعيم ، الا اذا كان جاهلا ، أو الا اذا ود ان ينكر كل شيء ، حتى دوران الارض حول الشمس او وجود كواكب اخرى .

ومضى يفكر .. يا لنا من جهلاء ، بما يقع حقا .. آه كم كنت اود ان احيا مدة اطول ، بدلا من الموت اليوم ، فقد تعلمت الكثير من حقائق الحياة في هذه الايام الاربعة . اجل لقد تعلمت فيها اكثر من اي وقت مضى . وكم اود لو اصبحت عجوزا ، وعرفت الحياة حقا . لا ادري ، اذا كان الانسان يستمر في التعلم ، او ان هناك حدودا للمعرفة يتوقف عندها الانسان . كثيرا ما خيل الي انني اعرف اشياء كثيرة ، بينما انا لا اعرف عنها شيئا ابـدا . كم وددت لو طال بنا الزمن .

وقال لها بالانكليزية اخيرا .. لقد علمتني كثيرا يا حلوة .

ــ مـاذا قلت ؟

ــ قلت اني تعلمت الكثير منك .

ــ ماذا تعني .. انك انت المثقف .

ثقافة .. لقد عاد الى التفكير .. انه لا يعرف الا مبادىء الثقافة .. مبادئها البسيطة الضئيلة .. واذا مت الان ، فالخسارة في انني قد بدات اعرف بعض الاشياء . لا ادري اذا كان سبب اقبالك على التعلم . انك مغرق في الاحساس بقصر الوقت . ومع ذلك فليس ثمة هناك ، ما يدعى بقصر الوقت . وعليك ان تدرك هذا . وقد كنت طيلة حياتك مذ جئت الى هذه البلاد تعيش في هذه الجبال . وانسيلمو هو اقدم اصدقائي . واني لاعرفه خيرا مما اعرف شارل او شاب او غاي او مايك ، مع انني اعرفهم طيبا جميعا . واوغسطين بلسانه السليط اخ لي ، مع اني لم يكن لي اخ من قبل . وما ماريا الا حبيبتي الحقيقية وزوجتي . ولم تكن لي حبيبة حقيقية من قبل . ولم تكن لي زوجة . انها ايضا اختي ، ولم تكن لي اخت من قبل . وهي ابنتي ،ولن يكون لي ابنة ابدا . انني اكره ان اترك حياة كهـــذه .

وعاد يقول لماريا .. انني اجد الحياة ممتعة .

وكانت تجلس الى جانبه على السرير ، وقد تشابكت يداها حول ركبتيها

ورأيا شخصا يرفع الستارة عن مدخل الكهف وبصيصا من النور يتسرب الى الخارج . كان الليل لا يزال داجيا ، ولم تكن تباشير الصباح قد لاحت بعد ، سوى ان النجوم قد تضاءلت .. ولا ريب في أن الفجر قد بدا يقترب

وقالت ماريــا .. روبرتو !

ـ نعـم يـا حلوة

ـ سنكون معا في عمل اليوم اليس كذلك ؟

ـ بعـد البداية .

ـ اذن فلن نكون معا عند البداية .

ـ لا . ستكونين مع الجياد .

ـ الا استطيع ان اكون معك ؟

ـ لا . فلدي عمل ، لا يستطيع غيري ان يقوم به . وساكون قلقا عليك .

ـ ولكنك ستعود سراعا بعد انجازه ؟

ـ اجل ساعود بسرعة كبيرة . تعالي يا حلوة ولنأكل شيئا .

ـ وسريرك ؟

ـ الفقيه ، اذا كان هذا يرضيك .

ـ انـه يرضيني .

ـ ساساعدك .

ـ لا دعني اقوم بالعمل وحدي .

وشرعت تعد السرير ، بينما التقط روبرت الكيسين بعناية مخافة ان ينتثر منهما شيء ، من الغرقين اللذين عملهما بابلو ، ومضى الى الكهف .

وكانت الساعة قد قاربت الثالثة عندما دلف الي الكهف .

٣٨

كانوا يقفون جميعا امام النار التي تشعلها ماريا . وقد اعدت بيلار القهوة ولم تكن قد عادت الى الفراش ابدا منذ ايقظت روبرت ؛ وها هي الآن تخيط الخروق في كيسي جوردان . وانعكس لهيب النار على وجهها .

وقالت تخاطب فيرناندو .. خذ كمية اخرى من الحساء . لا باس اذا امتلات معدتك . وليس هناك من طبيب لاجراء عملية جراحية اذا اصبت بانتفـاخ .

فقال اوغسطين .. لا تتحدثي على هذا النحو يا امراة . ان لسانـك اسلط من لسان اكبر العاهرات .

وكان هذا يتكىء على المدفع الرشاش ، وقد امتلات جيوبه بالقنابل اليدوية وقد تدلت على كتفيه امشاط العتاد . وكان يدخن لفافة من التبغ وقـد امسك بقدح من القهوة في احدى يديه .

وقالت بيلار تخاطبه .. انك مخزن متنقل من السلاح . لن تستطيع السير مائة ياردة بكل ما تحمله .

ماذا تعنين يا امراة .. ان الطريق كلها هبوط ..

وقال فيرناندو .. ولكن هناك الصعود الى المركز ، قبل البدء بالهبوط.

ـ سارتقي هذه المسافة كالعنز .

وتطلع الى ايلاديو وقال .. وماذا حل باخيك ؟ آه ، لقد فر اخوك الشهير

وكان ايلاديو يتكىء بنفسه الى الجدار .. فقال .. اغلق فمك .

كان متوتر الاعصاب حاد المزاج قبل الشروع في العمل . وانتقل من الجدار الى المائدة ، حيث شرع يملأ جيوبه بالقنابل اليدوية .

واقترب روبرت منه ، وتناول اربع قنابل يدوية ، ثلاثا منها من طراز ميلز ، وقال يخاطب ايلاديو... من اين اتيتم بهذه القنابل ؟

ـ من اين ؟ من الجمهورية . لقد جاء بها الرجل العجوز .

ـ وما رايك فيها ؟

ـ ان الواحدة منها ، تعادل ثروة بكاملها .

وقال انسيلمو .. لقد جئت بها يا انكليزي .. ستون في كل كيس يزن تسعين رطلا .

وقال روبرت لبيلار .. وهل استخدمتم هذه القنابل ؟

ـ ماذا تعني استخدمناها ؟ لقد كانت السلاح الذي اعتمده بابلو في مداهمة مركز اوتيرو .

وعندما ذكرت اسم بابلو ، شرع اوغسطين يكيل له السباب والشتائم .. ونظر روبرت الى وجه بيلار في ضوء النار ، فرأى نظرتها الغريبة ..وقالت المراة .. دع عنك هذا الحديث فليس من الخير ان نتحدث به .

وقال روبرت .. وهل كانت تنفجر دائما معكم ؟

فرد ايلاديو .. دائما ، ولم يحدث ان توقفت احداها عن الانفجار .

ـ وهل يتم انفجارها بسرعة ؟

ـ مسافة الرمي ليس الا . انها سريعة الانفجار .

ـ وهذه ؟.. وامسك بقنبلة من طراز آخر ..

ـ فرد ايلاديو .. انها نفاية .. انفجار بدون شظايا ..

ـ ولكن هل تنفجر دائما ؟

فقالت بيلار .. ماذا تعني دائما .. ليس هناك من كلمة دائما ، لا في عتادنا ولا فـي عتادهم .

ولكنكم قلتم أن الاخرى تنفجر دائما ؟

فردت بيلار .. انا لم اقل هذا . لقد سالت غيري . اما انا فقد رايت كلمة دائما غير موجودة احيانا .

فاصر ايلاديو على رايه .. ولكنها كانت تنفجر دائما .. قولي الحقيقة يـــا امراة .

ـ وكيف في وسعك ان تقول انها انفجرت كلها ؟ لقد كان بابلو هو الذي قذف بها . فانت لم تقتل احدا في اوتيرو .

وقال اوغسطين .. يا له من ابن اكبر عاهرة !

فقالت بيلار بحدة .. دعك من هذا .. ومضت تقول .. انها متشابهة كلها يا انكليزي . ولكن المفضضة منها اسهل تناولا وعملا .

وخيل لروبرت أن من الخير ان يستخدم من النوعين ، ولكن المسنن ايسر واكثـر امنا .

وقال اوغسطين .. وهل ستقذف بالقنابل يا انكليزي ؟

ـ ولِـمَ لا .

وجلس روبرت ، وشرع يفكر ، وهو يخرج القنابل ، وخيل اليه ان

التي وضعها في الليل ، يستحيل تنفيذها ، وانه كان يخدع نفسه . فقد قضى عليهم منذ هاجم الفرسان سوردو ، كما قضي على سوردو منذ توقف الثلج عن النزول من السماء . هذه حقيقة لا يستطيع ان ينكرها . فكيف يضع خطة يشعر انه عاجز عن تنفيذها . لقد ادرك الآن ان الخطة التي وضعها غير صالحة . أجل انها غير صالحة في الصباح ؛ فليس في وسعه ان يقتحم المركزين معا بهذه القوة الضئيلة من الرجال . قد يكون في وسعه، اقتحام مركز واحد . اما اقتحام المركزين فلا . اذن فلا تخدع نفسك . حتى ولا عندما يأتي الصباح .

فمن المستحيل محاولة اقتحام المركزين . وقد ادرك بابلو هذه الاستحالة منذ امد بعيد . . ومضى روبرت يفكر . . واعتقد انه كان دائما يضع خطته على اساس عدم الاشتراك معهم ؛ ولكنه حزم امره بعد مهاجمة سوردو . ومضى يحدث نفسه : ليس في وسعك ان تضع خطة عملية على اساس توقع حدوث المعجزات . وقد يكون في وسعك ان تقتلهم جميعا . ولكن الجسر لن ينسف في هذه الحالة . أجل ستضحي ببيلار ، وانسيلمو واوغسطين وبريميتيفو وايلاديو وهذا الغجري الذي لا ينفع شيئا وفيرناندو ولن تتمكن من نسف الجسر . فهل تحدث المعجزة ، ويتلقى غولز رسالتك من اندريه ويأمر بوقف الهجوم . اما اذا لم تحدث . فان اوامرك ستقضي عليهم جميعا ، ومعهم ماريا ايضا . . أجل ستقتلها باوامرك . اولا تستطيع اخراجها من هذه القضية ؟ . . اللعنة على بابلو . .

لا . لا تغضب ، فالغضب مضر كالخوف سواء بسواء . ولكن ألم يكن من الافضل بدلا من قضاء الليل مع فتاتك ، أن تطوف بالجبال طيلة الليل، مع المرأة بحثا عن الرجال ، للاشتراك معك في العمل . أجل كان هذا هو الافضل ولكن اذا حدث لك شيء فلن ينسف الجسر ؛ وهذا ما حال بينك وبين الذهاب . ولم يكن في وسعك ، ان تبعث برسول آخر ، لانك لا تريد ان تجازف برجل اخر ، تفقد . كان عليك ان تحتفظ بمن معك . وان تضع

خطتك على اساس عددهم .

ولكن خطتك فاشلة . انها فاشلة لا ريب ، لقد كانت من هلوسات الليل، وها قد طلع النهار . ان احلام الليل كثيرا ما تنهار عند الصباح ، وطريقة التفكير في الليل لا تصلح مطلقا في الصباح . وهكذا فانت تعرف الان أن خطتك مقضي عليها بالفشل .

ومضى يفكر .. ماذا كان يحدث لجون موزبي ، لو واجه مشاكل معقدة كمشكلته هذه . لا ريب في ان موزبي قد واجه مثل هذه المشاكل ، بل أكثر منها صعوبة ، ومضى يقول لنفسه : ولماذا تقلل من قيمة عنصر المباغتة.. ولماذا التشاؤم .. عليك ان تضع خطتك على أساس ثابت .. ولكن انظر.. كيف مضت الامور حتى الآن .. لقد كانت خاطئة منذ البداية .

ورفع نظره عن المائدة فرأى ماريا ترنو اليه وهي تبتسم ، فعاد يقطب جبينه واختار اربع قنابل اخرى وضعها في جيبه .. ومضى يفكر ..اليس في وسعك أن ترفع « كبسولات » التفجير وان تستعملها . لكن التجزئة قد لا تجدي نفعا ابدا . انها ستاتي فورا مع التفجير . ولكني لا اعتقد انها لن تحدث .. وانا واثق من هذا .

لم هذا التردد ، وكل هذا الشك .. ألم تكن تحدث نفسك ليلة امس وتتحدث الى جدك ، وتتهم اباك بالجبن .. اذن عليك ان تكون اكثر ثقة بنفسك الآن .

وقطب جبينه ، وهو ينظر الى ماريا ثانية ، ولكن تقطيبته لم تكن اكثر من مجرد حركة ظاهرة .. انها تفكر بانك انسان رائع ، بينما انت بدأت تجبن .. ولكن الا تذكر النعيم بالامس . لقد كانت افكارك رائعة .. فالى الجحيم بكل هذه المخاوف ..

خذ الامور ببساطة ولا تغضب .. فهناك سبل للخلاص من كل ازمة . وعليك ان تقضي على نواجذك الان . ولكن لا تنكر وجود كل شيء ، لمجرد

انك توشك ان تفقده . ولا تكن كالثعبان الذي كسر ظهره ، واخذ يحاول ان يعض نفسه . فظهرك لم يكسر بعد .. ولماذا لا تنتظر ان يحل بك الاذى قبل ان تشرع في البكاء .. اجل انتظر حتى يبدأ القتال . ثم اغضب . فهناك مجال فسيح للغضب في المعركة . وقد يكون نافعا لك فيها .

وجاءت بيلار اليه تحمل الكيس وقالت .. لقد غدا الان ثابتا .. وهذه القنابل جيدة . يا انكليزي . وفي وسعك ان تثق بها .

ـ وكيف تشعرين يا امرأة ؟

فتطلعت اليه وهزت راسها وابتسمت ثم قالت .. حسنا .. ولكن ما شعورك انت ، وانت على وشك البدء بالمعركة ؟

ـ اشعر اننا قلة .

هذا ما احسُ به انا ايضا .

وقالت تهمس اليه .. في وسع ماريا وحدها ان تمسك بالجياد . وليس بي من حاجة الى البقاء معها . سنحجلها وهي جياد فرسان ، معتادة على اطلاق النار . سأمضي انا الى المركز الاسفل ، فأقوم بالواجب الذي كان من المفروض ان يقوم به بابلو .. وهكذا يزيد عددنا واحدا .

حسنا .. ظننت انك لا ترغبين في ذلك .

ـ لا تقلق يا انكليزي ، فستسير الامور على ما يرام . تذكر عنصر المباغتة

ـ اجل .

ـ وهناك شيء آخر يا انكليزي .. في ذلك الشيء المتعلق بالكف ..

ـ اي شيء يتعلق بالكف ؟

ـ لا . اصغ الي . لا تغضب ايها الولد الصغير .. بالنسبة الى الكف ، وهو من سخافات الغجر التي اهتم بها . ليس هناك من شيء من هذا النوع

ـ دعي عنك هذه الاقوال .

فردت عليه بقسوة مشوبة بالحب . . لا . انها مجرد سخافة ليس الا . . ولا يجدر بك أن تكون قلقا في يوم المعركة .

ــ انا لســت بقلــق . .

ــ لا يا انكليزي . انك في منتهى القلق ، وهناك ما يبرر ذلك . ولكن كل شيء سيتم على ما يرام . ولا ريب في اننا خلقنا من اجل هذا .

فقال روبرت . . لست في حاجة الى مفوض (قوميسار) سياسي يرشدني

فابتسمت ابتسامة عريضة وصادقة وقالت . . انني احبك كل الحب يــا انكليزي . .

ــ انا لا أريد حبك الآن .

ــ اجل اعرف ذلك . ولكنني وددت ان ابلغك ذلك . فلا تقلق ، وسنقوم بالعمل على احسن مــا يرام .

ــ ولِمَ لا ؟ طبعا . . سينتهي كل شيء كما نروم .

وقالت بيلار ــ ومتى نشرع في السير ؟

وتطلع روبرت الى ساعته وقال . . في اية لحظة .

وسلم احد الكيسين لانسيلمو وهو يقول . . كيف تشعر ايها العجوز ؟

وكان هذا ينقل رسما وضعه له روبرت . . فقال : حسنا حتى الآن . . انظر الى يدي . . انهما ثابتتان .

فقال روبرت . . في وسعي دائما ان احافظ على ثبات يدي . مد اصبعك

ومد انسيلمو اصبعه . كان الاصبع يرتعد . فتطلع الى روبرت وهز راسه

ومد روبرت اصبعه وقال . . واصبعي كذلك . دائما . هذا امر مألوف

فقال فيرناندو . . اما انا فلا . . ومد اصبعه الايمن . . ثم الايسر .

وقال اوغسطين لفيرناندو . . افي وسعك ان تبصق ؟

وبصق فيرناندو بصقة كبيرة على ارض الكهف ثم مسحها بقدمه .

وقالت بيلار .. يا لك من بغل قذر .. ابصق بالنار اذا اردت ان تبرهن على شجاعتك .

وقال فيرناندو .. ما كنت لابصق على ارض الكهف لو لم نكن على وشك مغادرته يا بيلار .

فردت عليه بيلار .. كن حريصا اين تبصق اليوم . فقد تبصق في مكان لن تتركه .

وقال اوغسطين .. انها تتكلم كقطة سوداء ..

فقالت بيلار .. انني امزح .
ـ وانا ايضا ، ولكنني سأكون سعيدا عندما تبدا المعركة .

وقال روبرت يسأل ايلاديو .. واين الغجري ؟
ـ مع الجياد . في وسعك ان تراه من مدخل الكهف .
ـ وكيف هو ؟
ـ شديد الخوف . ولكنه يشعر بالطمانينة عندما يتحدث عن مخاوف الآخرين .

وقالت بيلار .. اسمع يا انكليزي .. فرفع روبرت راسه اليها ، ورآها وقد فتحت فمها ، وبانت في عينيها نظرة من عدم التصديق . وسارع بيده الى مسدسه يلتقطه . وكان بابلو ، يقف وقد رفع طرف الستارة عن مدخل الكهف ومد فوهة بندقيته الاوتوماتيكية .

وقالت بيلار وهي لا تصدق نفسها .. انت .. انت .

اجل انا .. ودخل الى الكهف .. ثم قال .. هالو .. يا انكليزي .. لقد جئت بخمسة رجال من عصابة الياس واليجاندور مع جيادهم . وهم في الخارج .

وقال روبرت .. ولكن ماذا فعلت باداة الانفجار والكبسولات والفتائل وغيرها مـن المعدات .

ـ قذفت بها من المضيق الى النهر . ولكني عثرت على طريقة للتفجير عن طريق استخدام القنابل اليدوية .

فقال روبرت .. وقد وجدت انا عين الطريقة .

وقال بابلو .. الديكم شراب من اي نوع .

ومد روبرت يده اليه بالزجاجة ، فازدرد منها جرعة سريعة ثم مسح فمه بمؤخرة يـده .

وقالت بيلار .. وماذا دهاك ؟

فقال .. لا شيء . لقد عدت .

ـ ولكـن لم ؟

ـ لا شيء .. كانت لحظة ضعف . وقد ذهبت ، ولكنني عدت .

والتفت الى روبرت وقال .. اسمع انني في دخيلة نفسي لست جبانا .

وقال روبرت يحدث نفسه .. ولكنك في طويتك اسوا من الجبان ، ومع ذلك فانا سعيد بعودتك يا ابن العاهرة .

وقال بابلو .. لم استطع ان احصل على اكثر من خمسة رجال . وقد ظللت ممتطيا صهوة الجواد ، مذ تركت هذا المكان . كنت اعرف ان تسعة لا يكفون للعمل . فقد فهمت ذلك ، عندما سرح الانكليزي العملية ليلةامس ان العدد لا يكفي . فهناك سبعة جنود وعريف في المركز الاسفل .ولنفترض وقوع انذار ، ، واضطرارنا لخوض المعركة ؟

وتطلع روبرت الان .. وقال .. وعندما تركتكم خيل الي انك ستدرك استحالةالقيام بالعمل ، فتعدل عنه . وبعد أن قذفت بالمعدات في النهر ، عدت ففكرت في الموضوع بطريقة اخرى .

فقال روبرت .. يسرني ان اراك .. وسار متجها اليه .. ان القنابل اليدوية ستنجز العمل . ولا تهمني تلك المواد الآن .

ـ لا . انا لم اعمل شيئا من اجلك . فانت رمز للفال السيء . فكل مـا أصابنا من شركان بسببك وليست قضية سوردو ببعيدة . ولكن بعد ان قذفت المواد في النهر ، وجدت نفسي وحيدا ..

فقالت بيلار .. كانت امك ..

ـ ولهذا مضيت الى الاخرين ، لاجعل العملية ممكنة . وقد اتيت باكبر عدد ممكن . وقد تركتهم عند القمة ، لاتحدث اليك اولا . وهم يعتقدون أنـــي القائـــد .

فقالت بيلار .. انك القائد اذا اردت .

ونظر اليها بابلو ، ولم يقل شيئا ، ثم مضى يتحدث بهدوء . لقد اطلت التفكير منذ حادث سوردو . واني لاعتقد انه اذا قدر لنا ان نموت ،فيجب ان نمـــوت معا . اما انت يا انكليزي ، فانا اكرهك ، لانك جئتنا بكـــل هـــذه الشرور .

وقال فيرناندو وقد انتفخت جيوبه بالقنابل اليدوية ، وعلقت امشاط العتاد على كتفيه ، وهو لا يزال يمسح ما تبقى من صحنه مـــن الحساء بكسرة من الخبز .. ولكن يا بابلو ، الا تعتقد ان العملية ستنجح ؟ لقد قلت قبل ليلتين ، انها ناجحة .

وقالت بيلار لماريا .. اعطني قليلا من الحساء .. ثم تطلعت الى بابلو وقالت .. وهكذا عدت ..

ـ اجل يـــا امراة .

ـ اذن فمرحبا بك . وما كنت اعتقد يوما بانك ذلك الحطام من الانسان الذي كنت تبدو فيه

فقال لها بابلو بسرعة .. ان الانسان بعد مثل هذا العمل يشعر بفراغ ووحدة لا يستطيع احتمالها .

ـ انك لا تستطيع احتمالها ربع ساعة .

ـ لا تهزئي بي يا امراة . لقد عدت .

ـ وانا ارحب بك . اولم تسمعني ارحب بك اول مرة . اشرب قهوتك ودعنا نمضي .. لقد مللت من هذه المسرحية .

فقال بابلو .. اهذه هي القهوة ؟

ـ طبعـا .

ـ اذن اعطني قليلا منها يا ماريا .. كيف حالك ؟

ـ على ما يرام . اتريد بعض الحساء ؟

فهز بابلو راسه نفيا .. ومضى يقول .. انا لا احب الوحدة .. ولـم استطع احتمال ليلة امس .

فقالت بيلار ـ لقد شنق سلفك يهوذا الاسخريوطي نفسه .

فرد بابلو .. لا تحدثيني على هذا النحو يا امراة . الم تري ؟ لقد عدت . فلا تحدثي عن يهوذا وامثاله . لقد عدت .

وقلت بيلار تسأله .. وكيف ترى هؤلاء الرجال الذين اتيت بهم ؟ اهم خليقون بأن تأتي بهـم ؟

ـ لا بأس بهـم ؟

ـ لا ريب انهم صالحون ولكن بلداء . انهم على استعداد للموت بالطريقة التي تريدينهم ان يموتوا فيهـا .

ورفع بابلو راسه اليها ، ونظر في عينيها . ولم يبعد نظره عنها هذه المرة، بل ظل يتطلع اليها ، فقالت بود ظاهر .. انت .. افترض ان الانسان اذا

كان يتمتع بميزة من المزايا فانه لا يفقدها بسرعة ، وسيظل منها شيء فيه

فقال بابلو .. انا على أتم الاهبة لكل ما يتمخض عنه النهار .

فردت بيلار .. انني اصدقك ، ما دمت قد عدت .. ولكنك بعـدت كثيـرا يـا رجل .

وقال بابلو لروبرت .. اعطني جرعة ثانية من تلك الزجاجة .. ثـــم دعنا نسير .

٣٩

وارتقوا في حلكة الدجى التل ، صعدا عبر الاشجار ، الى الممر الضيق في القمة . وكانوا جميعا مثقلين بما يحملونه ، ولذا فقد كان ارتقاؤهم بطيئا. وكانت الجياد ايضا محملة بالاعباء على اسرجتها .

وقالت بيلار .. في وسعنا ان نخفف من هذه الاعباء ، اذا اقتضت الضرورة ، اما اذا تمكنا من نقلها كلها ، كان في امكاننا ان نقيم منها معسكرا جديداً .

وسأل روبرت جوردان .. واين بقية العتاد ؟

ـ في جيوب اسرجة الجياد .

واحس روبرت بثقل ما يحمله على ظهره . وفي جيوبه الملأى بالقنابل اليدوية ، وبمسدسه المشدود الى فخذه ، وبأمشاط العتاد لبندقيته الاوتوماتيكية في جيوب سرواله . وكان لا يزال يتذوق طعم القهوة في فمه. وفي يمناه بندقيته الاوتوماتيكية .

وقال بابلو الذي يسير خلفه تماما في الظلام .. اسمع يا انكليزي !

ـ نعم يا رجل ؟

ان الرجال الذين اتيت بهم يعتقدون ان العملية ناجحة ، فلا تقل امامهم

شيئا ينبط مـن عزائمهم .

ـ حسنا ، ولكن يجب ان تنجح العملية .

ـ فقال بابلو ـ ان معهم خمسة جياد .

ـ حسنا ، سنجمع الجياد الى بعضها .

ـ اجـل .

وطافت الأفكار بمخيلة روبرت جوردان فقال يحدث نفسه .. لا اعتقد انك مررت بمرحلة الهداية الكاملة في طريقك الى طرطوس يا بابلو . ولكن عودتك معجزة حقا . ولا ارى انه ستكون هناك اية مشكلة في المستقبل في تطويبك قديســا .

وقال بابلو .. سأتمكن بواسطة هؤلاء الخمسة من انهاء قضية المركز الاسفل تماما كما كان سوردو سيفعل . وسأقطع السلك واعود الــى الجسر كما هو متفق عليــه .

وطافت الشكوك في راس روبرت .. فلقد بحث هذا الموضوع مع بابلو قبل عشر دقائق ، فلم العودة اليه من جديد الآن ..

ومضى بابلو يقول .. هناك امكان فى ان نتمكن من الوصول الى غريدوس وقد فكرت طويلا فى هذا الموضوع .

وقال روبرت يحدث نفسه .. لا ريب عندي فى ان شيئا آخر قد ومض في فكرك فى اللحظة الاخيرة .. وقد تكشفت لك رؤيا جديدة ، ولكنك لن تستطيع ان تقنعني بانني مدعو الى الذهاب معكم الى غريدوس . لا يــا بابلو . لا تطلب الي ان اصدقك اكثر من اللزوم .

وكان روبرت ، منذ عودة بابلو ، واعلانه وجود الرجال الخمسة ، قد شعر بتحسن في معنوياته . ولم يكن يؤمن بالحظ ، ولذا لم يؤمن بـأن طالعه قد تحسن ، وانما اعتقد بان سيئ الامور كلها قد بدا فى الاتجاه نحو

الاصلح وان العملية اضحت ممكنة . وبدلا من ذلك الشعور الاكيد بالفشل الذي كان يغمره من قبل ، اخذ يحس الان بالامل والثقة يتسربان الى نفسه تماما كما يتسرب الهواء الى اطار بواسطة منفاخ بطيء .. وسرعان ما اخذت هذه الثقة تتحول الى سلبية الفهم ، التي تتحول غالبا الى سعادة حقيقية قبل بدء العمل .

وكانت الموهبة العظيمة فيه ، والتي تصلح لهذه الحرب ، قدرته على عدم تجاهل الامور وانما احتقار النتائج السيئة مهما كانت . وقد تحطمت هذه الموهبة من جراء تبعيته للاخرين او اضطراره للقيام باعمال اسيء تخطيطها ، او وضعها . اذ ان العاقبة السيئة وهي الفشل ، في مثل هذه الامور لا يمكن تجاهلها مطلقا . وليست القضية متعلقة بضرر يصيب الانسان نفسه حتى يتجاهله . فهو يعرف ان لا قيمة له ، وان الموت لا قيمة له ايضا . وهو يدرك هذا حقا كما يدرك اي شيء آخر . ولكنه عرف في الايام القليلة الاخيرة ، أن في وسعه أن يكون مع شخص آخر . شيئا له قيمته ، ولكنه كان يعرف في قرارة نفسه ان هذا الوضع استثناء وشذوذ. فكل ما نملكه حصلنا عليه . وكان من حسن طالعي انني قد حققته . ومن المحتمل انني حصلت عليه لانني لم انشده ابدا . وليس في وسع انسان ان ينتزعه الان مني كما ليس في وسعي أن افقده . ولكن هذا الامر ، قد انتهى الان ، مع هذا الصباح ، وعلينا في هذه اللحظة ان نعود الى عملنا .

ومضى يحدث نفسه .. ويسرني انك قد استمدت شيئا كنت تفقده امدا من الزمن . لقد اخجلتني ، بمملك هذا فترة من الوقت ، ذلك لاني كنت انت ، ولم يكن لدي قدرة على الحكم عليك . أجل لقد كنا جميعا في وضع سيء ، انت وأنا . فتعال الآن وتوقف عن التفكير كانسان مصاب بازدواج الشخصية . ولنكن منفردين ، الان . لقد عدت الى طبيعتك . ولكن عليك ان لا تفكر بالفتاة طيلة النهار . وليس في وسعك ان تفعل شيئا لحمايتها ، الا بابقائها بعيدة عن المعركة التي تخوضها انت . وسيكون هناك مدد وافر

من الجياد اذا كنت تؤمن حقا بالبشائر . ولعل افضل ما تعمله لها ، هو ان تتقن القيام بواجبك وان تسرع به وان تخرج منه . اما التفكير فيهـــا فسيعيقك عن عملك . اذن فلا تفكر فيها مطلقا .

وعندما وصل بتفكيره الى هذا الحد ، انتظر وصول ماريا مع بيـــلار ورافائيل والجياد . وقال لها .. هي يا حلوة .. كيف انت ؟

ـ انـا بخير يـا روبرتو .

ـ لا تقلقي من شيء .. ووضع يده على كتفها .

ـ لا يقلقني شـيء .

ـ لقد تم تنظيم كل شيء . وسيكون رافائيل معك ومع الجياد .

ـ كنت اؤثر ان اكون معك .

وصهل احد الجياد ، فرد عليه جواد آخر من الثغرة الواقعـــة وراء الصخور .. واشتد الصهيل .

ورأى روبرت جوردان مجموعة الجياد الجديدة في الظلام .واندفع سريعا ليلحق ببابلو . وكان الرجال على صهواتها .

فقال روبرت .. تحية .

فردوا في ظلمة الليل .. تحية .

ولم يستطع تمييز وجوههم ..

وقال بابلو .. هذا هو الانكليزي القادم معنا .. انه الديناميتي .

ولم ينبس احدهم ببنت شفة .. ثم قال احدهم .. هيا بنا يا بابلـو ، فسيدهمنا الفجر عما قريب .

وقال آخر .. هل اتيت بكمية اخرى من القنابل اليدوية ؟

ـ كمية كبيرة ، وستتزودون بها عندما نترك الجياد .

فقال ثالث .. اذن دعنا نسير . لقد مضى علينا نصف الليل ونحن ننتظر

وقال آخـر .. هولا .. بيلار ..

فقالت بيلار بصوت جاف .. علي اللعنة أن لم يكن بيب ..! كيف انت ايهـا الراعي .

فقال الرجل .. على احسن ما يرام .

وقالت بيلار .. مـاذا تركب ؟

ــ جواد بابلو الاشهب . انه حصان رائع .

وقال رجل آخر .. هيا بنا ، دعونا نسير . فليس من الخير ان نظل نهمس هنـا .

وقالت بيلار .. وكيف انت يا ايليكيو ؟

فقال بفظاظة .. وكيف يمكن ان اكون ؟ هيا يا امراة ، فأمامنا عمل كثير

وامتطى بابلو الحصان الكبير .. وقال اغلقوا افواهكم والحقوا بي .. وسأقودكم الى المكان الذي تتركون فيه الجياد .

وفي الوقت الذي قضاه روبرت جوردان نائما تلك الليلة ، أو قائما على تخطيط مشروعه لتدمير الجسر ، كان اندريه ، يخطو خطوات بطيئة ، الى ان وصل الخطوط الجمهورية ، قد ارتحل عبر مساحات شاسعة من الارض ، وعبر الخطوط الفاشية ، باسرع ما يمكن لرجل ريفي ، يتمتع بوضع صحي ممتاز ، ويعـرف البلاد خير معرفة تمكنه من السير في حلكة الظلام . ولكنه لما وصل الى الخطوط الجمهورية ، اخذت حركته تبطيء شيئـا فشيئا .

وكان في امكانه من الناحية النظرية ، ان يبرز جواز المرور الذي اعطاه اياه روبرت جوردان والمختوم بختم القيادة العامة ، والرسالة التي يحملها، والتي تحمل نفس الختم ، لكي يمر عبر الخطوط بمنتهى السرعة الممكنة، الى المكان الذي يقصده ، ولكنه قابل اول ما قابل ، قائد الفئة في الخـط الأمامي ، الذي نظر الى موضوع الرسالة كلها بعين الشك والريبة .

وكان قد سار مع قائد الفئة الى مقر قائد السرية ، الذي كان حلاقا قبل بدء الحركة ، والذي اشتعل حماسا عندما سمع بموضوع مهمته . وقد شتم هذا القائد ، قائد الفئة لبلادته ، وربت على ظهر اندريه ، وقدم له كأسا من الكونياك الرديء ، وقال له انه هو كان يتمنى لو اصبح مـن

رجال العصابات . وسرعان ما ايقظ مساعده وسلمه قيادة السرية ،وبعث بتابعه ليوقظ له الجندي المولع بالدراجة النارية . وقرر غوميز ، وهو لسم هذا الضابط ، ان يأخذ اندريه بنفسه الى مقر قيادة الكتيبتين ، ليسرع في مهمته ، وراحا بعد ان استقلا الدراجة النارية ، يقطعان الطريق التـي تحيط بها الاشجار ، الى ان وصلا الى مقر القيادة في البلدة القريبة ، حيث وجدا حارسا يغط فى نومه . امام بيت عتيق مهدم ، وعندما افاق الحارس ليؤدي التحية لغوميز كان هذا يدفعه بيده ويدخل مع اندريه الى غرفة كبيرة غطيت جدرانها بالخرائط حيث وجدا ضابطا غلب النعاس عليـه يجلس الى مكتب عليه مصباح وجهازا هاتف ، ونسخة من الصحيفة اليومية

وتطلع الضابط الي غوميز وقال .. ما الذي اتى بك الى هنا ؟ الم تسمع في حياتك بوجـود الهاتف ؟

فقال غوميز .. يجب ان ارى المقدم فورا .

ــ انه نائم . وكان في امكاني ان ارى انوار دراجتك على مسافة ميـل وهي تهبط الطريق . اتريد ان تنصب علينا القذائف ؟

ــ ايقظ المقدم ، فالموضوع في منتهى الخطورة .

ــ قلت لك انه نائم ، من هو هذا اللص ، الذي جئت به معك ؟

ــ انه من مناضلي العصابات . يعمل فى الجانب الآخر من الخطوط ، ويحمل رسالة فى منتهى الاهمية الى الجنرال غولز ، الذي يتولى قيادة الهجوم الذي سيقع فجر غد وراء نافاسيرادا . ايقظ المقدم .. بحـق السمـاء .

وتطلع اليه الضابط بعينين تبدو فيهما البلاهة وقال .. كلكم مجانين . لا اعرف انسانا باسم الجنرال غولز ، او هجوما سيقع فى الغد . خذ هذا الرياضي وعد به الى سريتك .

فقال غوميز ، واسنانه ترتعد .. ارجوك ايقظ المقدم .

ـ أذهب عليك اللعنــة .

وانتضى غوميز مسدسه من جيبه ووجهه الى الضابط ، وهو يقول .. إيقظ المقدم ايها الوغد الفاشي ، والا قتلتك .

فقال الضابط .. هدىء من روعك . انكم جميعا معشر الحلاقين ، شديدو الهيــاج .

ورا ىاندريه الكراهية تتجلى في اوضح صورها فى وجـــه غوميز .. وقــال .. ايقظــه .

وهتف الضابط بصوت يشوبه الاحتقار .. المراسلة !

وجاء جندي الى الباب وادى التحية ثم خرج .

وقال الضابط ان خطيبته معه .. ثم عاد يقرا في صحيفته ويقول .. لا ريب في انه سيكون مسرورا من رؤيتك .

فقال غوميز للضابط .. لا ريب في ان الضباط من امثالك ، هم الذين يحولون بيننا وبين كسب هذه الحرب .

ولم يكترث به الضابط . ومضى يقرا فى صحيفته . وقال وكأنه يحدث نفسه .. يا لها من صحيفة غريبة !!

فقال له غوميز .. لماذا لا تقرا « الديبيت » ؟ انها صحيفتك المفضلة .. وكانت هذه الصحيفة هي لسان حال الحزب الكاثوليكي المحافظ في مدريد قبــل الحركــة .

وقال الضابط دون ان يرفع بصره .. لا تنسَ انني رئيسك ، وان لتقرير مني عنك وزنه . انني لم أقرا فى حياتي تلك الصحيفة . فلا توجه الــي تهمــا باطلــة .

فقال غوميز .. انك ما زلت تتهجأ في قراءتك . وقد مني الجيش برجال مــن امثالك . اجل من امثالك المحترفين . ونحن واقعون بين الجهلاء

والاوغـاد . ولكننا سنثقف الاولين ، ونبيد الآخرين .

فرد الضابط دون أن يرفع بصره . . ان كلمة نطهر ، هي المثلى التي كان من الواجب عليك ان تستعملها ، فها هو مقال ، عن حركات تطهير اخرى يقوم بها الروس المشهورون . ولا ريب في أنهم يقومون فى هذه الحقبـة بحركات تطهير اكثر مما تقوم به شربات « الملح الانكليزي » .

فقال غوميز . . مهما كانت الكلمة التي تستعملها ، فان ما يجب استعماله من كلمة لامثالك هي « التصفية » .

ـ التصفية ! لا ريب في انها كلمة جديدة ، فيها بعض التعابير القشتالية.

ـ القتل بالرصاص . هذه قشتالية . هل فهمت ؟

اجل ، ولكن لم ترفع صوتك ، فهناك آخرون غير المقدم ينامون في هذه القيادة . وقد ازعجني حماسك . وهذا هو السبب الذي كان يدفعنـي دائما الى الحلاقة بيدي . أنني لم اكن ارغب في الحلاقين .

وتطلع غوميز الى اندريه وهز راسه ، وقد امتلأت عيناه ، بتلك الرطوبة التي تحدث عن الغضب والكراهية معا . ولكنه هز راسه ولم يقل شيئا ، اذ اختزن ما في نفسه الى فرصة تالية في المستقبل . وكان قد اختزن في صدره الكثير في هذه السنة ونصف السنة من غمله فى الحركة وارتقائه الى قيادة السرية . ودخل المقدم الآن الى الغرفة في « منامته » ، فوقف غوميز يؤدي التحيـــة .

وكان المقدم ميراندا ، رجلا قصير القامة ، شاحب الوجه ، قضى حياته في الخدمة فى الجيش ، وقد نقد حبه لزوجته فى مدريد ،عندما فقد قدرته على الهضم وهو يعمل فى خدمة الجيش فى مراكش ، فانتقل الى صفوف الجمهوريين لانه لا يستطيع طلاق امراته ، واشترك فى الحرب الاهلية برتبة مقدم . وكان طموحه ان ينتهي من هذه الحرب ، وهو ما زال فى رتبته ، وقد دافع عن منطقته فأبلى في دفاعه بلاء حسنا ، وكان كل ما يريده ان

يقوم بالدفاع كل ما هوجمت هذه المنطقة . وقد شعر بتحسن احوالـه الصحية بسبب توافر الاطعمة في الحرب ، وكان لديه مخزون ضخم من أملاح «الصودا» ، وفي مكنته ان يتناول حاجته من اقداح الويسكي كـل مساء . اما خليلته البالغة الثالثة والعشرين من عمرها ، فقد حملت منه وهي على وشك الوضع . كغيرها من الفتيات اللائي انضممن الى الجيش في البداية كمتطوعات ..

وعندما دخل الغرفة . رد تحية غوميز ومد يده قائلا .. ماذا اتى بك يا غوميز ؟ اعطني سيكارة يا بيب ..

واطلعه غوميز على اوراق اندريه ورسالته ، ونظر المقدم في جواز المرور بسرعة ، ثم رفع راسه ليرى صورة أندريه ، ويطابقها على وجهه ، وابتسم ثم احنى راسه ، ثم اخذ ينظر الى رسالته بشوق . وبعد ان لمس الختم باصابعه وفحصه اعاد الاوراق كلها الى اندريه . وقال .. وهل الحياة قاسية هناك في الجبال !

فقال اندريه .. لا يا سيدي المقدم .

ـ هل ابلغوك عن اقرب نقطة قد تعثر فيها على مقر قيادة الجنرال غولز ؟

ـ نافاسيرادا . يا سيدي المقدم . قال لي الانكليزي انها ستكون في مكان قريب من نافا سيرادا ، وراء الخطوط ، الى اليمين من هنا .

فقال المقدم ـ اي انكليزي ؟

ـ الانكليزي الذي يعمل معنا في المتفجرات .

واحنى المقدم راسه . كانت مفاجئة جديدة لا يعرف تفسيرها مـن مفاجئات هذه الحرب وغرائبها .

فقال المقدم ـ من الخير ان تحمله يا غوميز معك على دراجتك .. اما انت يا بيب فمرهم بكتابة جواز مرور صريح الى مقر قيادة الجنرال غولز لاوقعه انا . اسرع واطبعه على الآلة الكاتبة . وضع عليه ختمين .. ولا

ريب في انك يا غوميز تحتاج الى شراب قوي الليلة . وهذا ما يحتاجه الناس في ليلة الهجوم . ساعطيك شرابا قويا .. وتطلع الى اندريه وقال له بلطف .. اتريد شيئا تأكله او تشربه .

ـ لا يا سيدي المقدم . انا لست جائعا . وقد اعطوني بعض الكونياك في المركز الاخير ، واخشى اذا شربت اكثر ان يؤثر علي .

فقال المقدم يسأله .. ارايت حركة او نشاطا من العدو في الجبهة المقابلة لجبهتي ؟

ـ كانت كالمعتاد يا سيدي المقدم . هادئة كل الهدوء .

وقال المقدم يسأله .. أو لم اقابلك في سير سيديلا قبل نحو من ثلاثة اشهر ؟

ـ اجل يا سيدي المقدم .

ـ هذا ما ظننته .. ثم ربت على كتفه وقال .. لقد كنت مع العجوز انسيلمو . كيف هو ؟

ـ انه بخير يا سيدي المقدم .

ـ حسنا ، هذا يسعدني .. وجاء اليه الضابط بالورقة التي طبعها ، فقراها ووقعها ، ثم قال لغوميز واندريه .. عليكما ان تبادرا بالذهاب . احرصا على الدراجة ، واستعملا الضوء . ولن يحدث شيء من مجرد دراجة نارية . تحياتي الى الرفيق الجنرال غولز . فقد اجتمعت اليه بعد معركة بيفويرينوس . وبعد ان صافحهما قال .. احرصا على الاوراق ، فالريح شديدة في الطريق .

وبعد أن خرجا ، فتح خزانته ، واخرج زجاجة وقدحا .. وصب لنفسه كأسا من الويسكي ، ثم ملأه بالماء من جرة قرب الحائط . واخذ يمتص الشراب بهدوء وبطء ، وقد وقف امام الخريطة الكبيرة المنشورة على الحائط ، يدرس احتمالات الهجوم في المنطقة الواقعة وراء نافاسيرادا .

وقال أخيرا للضابط .. يسرني ان غولز هو الذي سيقوم بالهجوم لا انا

.. ولم يرد عليه الضابط ، فتطلع اليه المقدم . ورآه نائما ، وقد وضع راسه على ذراعيه . وبعد ان وضع المقدم جهازي الهاتف الى جانبي راس الضابط ، مشى الى الخزانة فملأ كأسا ثانيا . وعاد الى خريطته من جديد

وامسك اندريه بفوميز الذي ادار محرك الدراجة ، وشق الضـــوء المنبعث منها حلكة الليل ، ومضت بهما تنهب الارض على طرف ساقية صغيـــرة ؛ وعندما وصلا الى مفترق الطرق ، رايا مجموعة من الشاحنات الفارغة تهبط من الجبل .

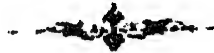

٤١

اوقف بابلو جواده في الدجى ، وترجل عنه . وسرعان ما تبعه الباقون يترجلون عن جيادهم . واصغى روبرت جوردان الى قرقعة حوافر الجياد وصهيلها . وشم رائحة القذارة تنبعث من الجياد ومن القادمين حديثا . وكان بابلو يقف الى جانبه وقد انبعثت منه رائحة الخمر التي ظل طيلة النهار يحتسيها . واشعل سيكارة . وقد اخفاها في يده ، لئلا ينبعث الضوء منها ، وجر منها نفسا عميقا ، وسمع بابلو يقول بنعومة .. هاتي جراب القنابل اليدوية يا بيلار بينما نربط الجياد .

وقال روبرت هامسا .. اوغسطين ، تعال انت وانسيلمو الآن معي الى الجسر . اسمع احمل معك جراب العتاد للمدفع الرشاش .

فقال اوغسطين .. اجل ولمَ لا .

ومضى روبرت الى المكان الذي تقف فيه بيلار ، كانت تنزع حمولة أحد الجياد بمعونة بريمتيفو فقال لها بنعومة .. اسمعي يا امرأة .

فهمست .. ماذا حصل ؟

لا شك انك تفهمين ان الهجوم لن يبدأ على المركز ، الى ان تسمعي صوت

القنابل وهـي تتساقط .؟

ـ كم مرة يجب أن تعيد علي هذا القول ؟ لقد اصبحت كالمراة الثرثارة العجوز يـا انكليزي .

ـ ان ما ارمي اليه هو التأكد ليس الا . وبعد ان تدمروا الموقع تنسحبون الى الجسر ، وتقيمون غطاء واقيا من النار على الطريق ، على جناحي الايسر

ـ لقد فهمت هذا من المرة الاولى التي شرحت لي فيها الخطة .. فسر فى مهمتـك .

ـ يجب أن لا يتحرك اي انسان او يطلق اية رصاصة ، او يقذف ايـة قنبلة ؛ حتى يبدا القصف الجوي .

ـ لا تمتهني اكثر . لقد فهمت كل هذا مذ كنا فى معسكر سوردو .

ومضى روبرت الى بابلو ، وكان هذا يربط الجياد وسمعه يقول .. لقد كممت افواه الجياد التي يؤثر عليها الفزع فقط . اما هذه فقد ربطتها ، بحيث تكفي جرة من الحبل لاطلاق سراحها .

ـ حسنـا .

ـ وسأفهم الفتاة والغجري ؛ كيف يعملون مع الجياد . وكان رجاله الجدد . يقفون فى مجموعة واحدة وقد اتكأوا على بنادقهم .

وقال روبرت .. هل فهمت كلْ شيء ؟

فرد بابلو ـ اجل . علينا أن ندمر الموقع ؛ ونقطع اسلاك الهاتف ، ثـم ننسحب باتجاه الجسر ، لنلقي عليه غطاء من النار ؛ حتى تكون قد نسفته .

ـ على ان لا يبدا اي شيء . حتى بداية القصف الجوي .

ـ هذا مـا سيقع ..

ـ اذن اتمنى لكم حظا سعيدا .

وقال بابلو هامسا .. وانت ستقوم بتغطيتنا بالمدفع الرشاش . والمدفع الصغير ؛ اثناء تراجعنا . اليس كذلك . يا انكليزي ؟

ـ هـذا اول شيء ؛

ـ اذن فلم يعد هناك شيء . ولكن عليك ان تكون شديد الحرص في تلك اللحظة يا انكليزي ؛ ليس مـن السهل ان تقوم بهذا الا اذا كنت حريصا كـــل الحرص .

ـ سأقوم انا باطلاق النار من المدفع الرشاش .

ـ وهل أنت خبير به ؟ اذ انني لا ارغب في ان اموت على يدي اوغسطين الذي يمتلىء بطنه بالنوايا الطيبة .

ـ انني واسع التجربة والخبرة به . وهذا قول حق . واذا قـــدر لاوغسطين ان يطلق النار من احد المدفعين فسأتأكد بنفسي ؛ من ان نيرانه ستكون فوق رؤوسكم .

ـ اذن لم يبقَ شيء .. وعاد يقول بنعومة وهمس .. ما زلنا بحاجة الـى بعض الجياد .

وقال روبرت يحدث نفسه .. يا له من ابن زانية . اويظن اني لم افهمه منذ المرة الاولى . ثم قال روبرت .. سأسير على قدمي . فالجياد من شأنـــك .

فقال بابلو بنعومة .. لا . سيكون لك جواد يا انكليزي . وسيكـون لكـل منـا جواده .

فقال روبرت .. هذا شأنك . على كل حال يجب ان لا تحسب حسابي . او لديك عتاد كاف لمدفعك الرشاش الجديد ؟

ـ اجل ؛ كل ما يمكن للفارس ان يحمله . ولم اطلق منه الا اربع عيارات لاجربه . وقد جربته امس في الجبال العالية .

ـ اذن فلنمض الان . وعلينا أن نكون في مواقعنا في ساعة مبكرة وان نجيد الاختفـاء .

فرد بابلو .. اذن فسنمضي جميعا .. تحية يا انكليزي ..

وقال روبرت جوردان لنفسه .. لا ادري ماذا يخطط هذا الوغد .ولكنني على ثقة من انني اعرف . على كل حال . هذا شانه وليس شاني . وشكرا لله ، انني لا اعرف هؤلاء الرجال الجدد .

ومد روبرت يده اليه يصافحه وهو يقول .. تحية يا بابلو .. وتماسكت يداهما في الظلام .

وكان روبرت ينتظر عندما مد يده ليصافحه ؛ انه سيلمس شيئا كالثعبان أو الأفعى . ولم يكن يعرف حقيقة يد بابلو . ولكن بابلو امسك بيده بقوة ، وضغط عليها بشدة ، فرد عليه بقوة مثلها . كانت يد بابلو طيبة في الظلام، واحس روبرت عندما امسك بها بشعور غريب ينتابه ذلك الصباح . فمن الواجب ان نكون حلفاء الان . والمصافحة دائما من شأن الحلفاء ، هذا اذا لم نذكر الاوسمة والقبل على الوجنات .. آه كم يسرني انني لم ارغم على تقبيلـه . ويقينا أن جميع الحلفاء ، هم على هذه الشاكلة ، يكرهون بعضهم البعض . لكن بابلو رجل غريب على كل حال .

وقال روبرت وهو يشد يد بابلو .. تحية يا بابلو . لا تخف . فسأؤمن لك الغطاء الناري اللازم .

ـ يؤسفني انني اخذت اشياءك .. كانت مجرد مغالطة .

ـ ولكنك اتيت بما نحتاج اليـه .

ـ انا لا احمل ضغينة تجاهك في موضوع الجسر يا انكليزي . فقد بدات ارى نهاية ظافـرة لـه .

وقالت بيلار . وقد ظهرت فجاة الى جانبهما في الظلام .. ماذا تفعلان ؟

لقد اصبحتما عشيقين . هذا كل ما كنتما تفتقران اليه .. هيا يا انكليزي واختصر وداعك ، قبل ان يسرق هذا ما تبقى من متفجراتك .

ـ انت لا تفهمينني يا امراة . ولكنني والانكليزي ، نفهم بعضنا بعضا .

ـ فقالت بيلار : لا يستطيع انسان ان يفهمك حتى الله . او حتى امك . ولا انا ايضا .. هيا يا انكليزي ، ودع حبيبتك ، وامض في طريقك ، والا فقد بدات اشك في انك قد اصبحت تخاف من خروج الثور .

فقال روبرت .. امه .؟؟

فهمست بيلار ضاحكة .. لم تكن له ام . اما الان فاذهب ، فبي توق زائد الى البدء بهذا الامر والخلاص منه .. وانت يا بابلو ، امض مع رجالك فلا يدري احد الى متى يدوم تصميمهم . فمعك رجلان لا اشتريهما بقرش خذهم واذهب .

وحمل روبرت جرابه الى ظهره ، ومضى باتجاه الجياد يبحث عن ماريا .

وقال .. وداعا يا حلوة .. ساراك قريبا .

واحس بشيء غير واقعي ، يساوره ، وكأنه يقف امام قطار على وشك المسير ، اجل وكأنه يقف امام القطار على رصيف المحطة .

فقالت ماريا .. وداعا يا روبرتو .. واحرص على نفسك .

ـ طبعا واحنى راسه ليقبلها فتدحرج الجراب على مؤخرة راسه ، حتى انه اصطدم بها بعنف ..

وقال .. لا تبكي ..

ـ وانا لا ابكي ، ولكن عد سريعا .

ـ لا تخافي عندما تسمعين اطلاق النار . فمن المتوقع ان تشتد المعركة.

ـ لا . ولكن عد سريعا .

ـ وداعا يـا حلـوة ..

ـ وداعا يـا روبرتو .

ولم يكن روبرت جوردان ، قد احس بما يحس به الان من شباب ، منذ استقل القطار لاول مرة في « ريد اودج » ماضيا الى المدرسة . كان خائفا من الذهاب الى المدرسة ولم يكن يرغب في ان يعرف احد بأنه ماض اليها ، وعندما وصل الى المحطة ، ورفع موظف القطار السلم ، قبله والده وهـو يقول « ليرعَ الله ما بيننا ونحن بعيدان عن بعضنا » . لقد كان ابوه رجلا متدينا للغاية ، وكان ينطق بهذه الاقوال ، في منتهى البساطة والاخلاص . وراى روبرت وقد امتلات عينا والده وشواربه بالدموع ، فاحتار روبرت من هذه الصلاة ، ومن هذه العواطف ، ومن تلك القبلة الوداعية التي زوده بها والده ، واحس فجاة ، انه اكبر من سنه بكثير ، واكبر من والده ، الـذي رثـى لحالته .

وعندما تحرك القطار ، وقف في مؤخرة العربة . يرقب المحطة ، واخذ خزان الماء يتضاءل أمامه شيئا فشيئا الى ان اصبحت المحطة كلها بما فيها نقطة صغيرة في ألافق . وسمع عامل الفرملة يقول .. يبدو يا بوب ان والدك قد تأثر كثيرا لفراقك .

فقال وهو ينظر الى اعمدة البرق ، تمر به مسرعة .. اجل ..

فقال العامل .. اولا يزعجك الذهاب الى المدرسة يا بوب ؟

ـ لا .

لقد كان صادقا في قوله آنذاك ، وقد احسَّ الآن ، في هذه اللحظة من الفراق ، بنفس الاحساس الذي شعر به في المحطة ، وراى نفسه فتيا من جديد .. اجل لقد احس بالشباب يتدفق في عروقه ، وشعر بشيء مـن الخجل والتردد ، وهو يودع ماريا ، تماما ، كما يفعل الصبي عندما يودع فتياته ، فلا يدري اذا كان من واجبه ان يقبلها اولا . وسرعان ما عرف ان

الوداع لم يكن العامل فى هذا الحياء والخجل ، وانما كان اللقاء الذي سيمضي اليه ، فالوداع لا يعدو ان يكون جزءاً من اللقاء الذي ينتظره .

وقال لنفسه .. ها قد عدت الى افكارك من جديد .. ولكني افترض ان ليس ثمة من انسان لا يشعر بالفتوة فى مثل هذا الوضع .. وعاد يقول لنفسه .. هيا . هيا .. ما زال الوقت مبكرا على طفولتك الثانية .

وقال لماريا .. وداعا يا حلوة ، وداعا يا ارنبة !

فقالت ماريا .. وداعا يا روبرتي .

ومضى الى حيث يقف انسيلمو واوغسطين ، وقال لهما .. هيا .. وحمل انسيلمو حمله الثقيل ، بينما كان اوغسطين قد وضع حمله الثقيل ومدفعه الرشاش يتكىء على شجرة بجانبه .

فقال اوغسطين .. حسنا ! هيا .

وبدا الثلاثة يهبطون التل .

وقال فيرناندو .. عندما رآهم يمرون به بين الاشجار .. اسعدتم مساء

فقال روبرت .. اسعدت مساء يا فيرناندو .

وقال اوغسطين .. وحظ سعيد في كل ما تعمله .

فقال فيرناندو .. شكرا يا دون روبرتو ..

وهمس اوغسطين .. لا ريب في ان ذلك الانسان ظاهرة طبيعية قائمة بنفسهـــا .

فقال روبرت .. انك صادق .. هل باستطاعتي ان اساعدك ؟ انـــك مثقل بالاعباء كالحصان .

وقال انسيلمو .. لا ترفعا صوتيكما . فمنذ الآن ، اقصرا حديثكما على الضروري جدا ، ولا ترفعا الصوت .

واخذوا يسيرون بحرص بالغ ، وانسيلمو في المقدمة ، يتبعه اوغسطين ، فروبرت . الذي كان ينقل خطوه بحرص بالغ ، مستخدما يده اليسرى في الاتكاء على جذوع الاشجار ، حتى وصلوا الى النقطة القائمة فوق الجسر، حيث كان روبرت جوردان ، وانسيلمو ، يرقبان الطريق في اليوم الاول .

وتوقف انسيلمو عند شجرة صنوبر ، وامسك بمعصم روبرت جوردان، وهمس بصوت خفيض لا يكاد يسمعه روبرت .. انظر لقد اشعل النار في وعائه النحاســي .

كانت هناك شعلة من النار ، عند نقطة التقاء الجسر بالطريق .

وقال انسيلمو .. لقد كنا نرقبهم من هذه النقطة . وعاد يمسك بمعصم روبرت ، وينحني معه الى الارض ، ليلمس ، جذع شجرة وهو يقول .. لقد تركت هذه الاشارة ، عندما كنت تراقب الطريق في المرة الماضية .والى اليمين ، يوجد المكان الذي اردت ان تنصب فيه المدفع الرشاش .

ـ سنضعه هنــاك .

ـ حسنا .

وانزلوا ما يحملونه وراء جذع الشجرة . ولحق الرجلان بانسيلمو ، الى المنبسط الذي توجد فيه بعض الفروع من شجيرات الصنوبر . وقــال انسيلمو .. انه هنا . هنا تماما .

وقال روبرت هامسا في اذن اوغسطين .. من هذه النقطة عندما يطلع الضوء ، سترى جزءاً من الطريق ، ومدخل الجسر من هذه الناحية ، ثم ترى الجسر كله وجزءاً من الطريق من الجانب الآخر ، قبل ان تلتفت حول المنعطف وراء الصخور .

ولم يحرّ اوغسطين جوابا .. ومضى روبرت يقول .. وعليك ان تنبطح هنــا ، وان تطلق النار على كل من يأتي صاعدا او هابطا ، بينما نعد نحن المتفجـرات .

وسأل اوغسطين .. واين ذلك الضوء الظاهر ؟

فهمس روبرت .. انه في ملاذ الحارس في هذا الطرف من الجسر .

ــ ومن سيعالج موضوع الحارسين ؟

ــ انا والرجل العجوز ، كما قلت لك. واذا لم نستطع ، فعليك ان تطلق النار على ملاذيهما ، او عليهما اذا رايتهما .

ــ اجل . لقد افهمتني ذلك .

ــ وبعد الانفجار ، عندما تصل جماعة بابلو ، الى تلك الزاوية ، عليك ان تطلق النار فوق رؤوسهم ، عندما يظهرون ، حتى لا يصل اليهم اي اعداء . هل فهمت ؟

ــ لم لا ؟ انه كما قلت ليلة امس .

ــ الديك سؤال ؟

ــ لا . معي جرابان . في وسعي ان احملهما من المكان العلوي وان آتي بهما الى هنا .

ــ ولكن لا تقم بحفر اي شيء . وعليك ان تظل مختفيا تماما كما كنا عند القمة .

ــ لا . سآتي بالطمي فيهما والدنيا لا تزال مظلمة . وسترى بنفسك . لن يظهرا ابدا عندما اثبتهما في الارض .

ــ انك قريب جدا . وستظهر الكومة التي تعتزم اقامتها عند طلوع النهار

ــ لا تقلق يا انكليزي . اين تذهب انت .

ــ ساهبط الى مكان قريب ، مع مدفعي الرشاش الصغير . اما العجوز، فسيعبر المضيق الان الى الناحية الاخرى ليكون على استعداد للملاذ الاخر ان الملاذ يتجه الى الناحية الاخرى .

ــ اذن لقد انتهينا ، تحية يا انكليزي . الديك بعض الطباق ؟

ـ لا تستطيع أن تدخن هنا . أن المكان قريب جداً .

ـ لا . لن ادخن . ولكن اضع اللفافة في فمي . وادخنها فيما بعد .

وناوله روبرت علبة لفائفه . فتناول منها ثلاثا . وضعها في قلنسوته . ثم شرع يضع كل شيء في المكان الذي يريده .. ثم قال .. اهناك شيء آخر؟

وتركه انسيلمو وروبرت في مكانه ، وعادا الى حيث تركا متاعهما .

وهمس روبرت .. اي مكان افضل لنترك هذه الحاجيات فيه .

ـ اعتقد أن هذا هو المكان الافضل . ولكن هل تستطيع التأكد من اصابة الحارس بمدفعك الصغير من هذا المكان ؟

ـ اهذا هو المكان الذي كنا فيه في ذلك اليوم ؟

ـ اجل هذه هي الشجرة عينها . وقد وضعت فيها علامة بمطواتي .

واحس روبرت جوردان من جديد ، بذلك الشعور من الاعادة والتكرار يعاوده ، وكان مصدر الشعور في هذه المرة مجرد السؤال الذي وجهه الى انسيلمو ، ورد هذا عليه . وكان نفس هذا الموقف قد حدث مع اوغسطين الذي اعاد السؤال عن الحرس ، مع انه يعرف الرد عليه .

وقال روبرت .. انه قريب جدا ، بل اقرب من اللزوم ، ولكن الضوء يقف وراءنا . فالمكان مناسب جداً .

ـ اذن فسامضي الآن لعبور المضيق ، ولاتخذ مركزي في الطرف الاخر .. ثم قال : اسمع لي يا انكليزي ، حتى لا يقع أي خطأ . مخافة أن لا اكون بليداً .

ـ قل ، ماذا ؟

ـ مجرد التكرار ، حتى لا اقع في خطأ .

عندما اطلق انا النار ، تطلقها انت . وعندما يقضى على رجلك ، اعبر

الجسر الي . وستكون معدات التفجير هناك ، وتنفذ انت ما اطلبه منك ، في وضع المتفجرات . سأفهمك كل شيء ، فأكمل التفجير انت كما علمتك. واحرص على ان يكون العمل متقنا .

ـ لقد غدا كل شيء واضحا لي . وانا اذكر كل شيء . اذن فسأذهب الآن . حافظ على ان يروك عندما يطلع النهار ، يا انكليزي .

وعندما تطلق النار ، تريث برهة ، وتأكد من اصابتك للرجل . لا تفكر به كرجل وانما كهدف . ولا تطلق النار على كل مكان فيه ، بل على نقطة معينة . اذا كان يواجهك فاستهدف منتصف بطنه . واذا كان وجهه الى الناحية الاخرى ، فاطلق النار على وسط ظهره . اسمع ايها الرجل العجوز: عندما اطلق النار ، اذا كان رجلك جالسا ، فسيقف قبل ان يركض او ينبطح . اطلق النار تلك اللحظة . اما اذا ظل جالسا فاطلق عليه النار ولا تنتظر . ولكن تأكد . اقترب الى مسافة خمسين ياردة ، وانت صياد ماهر ولن تجد مشكلة .

ـ سأنفذ اوامرك بحذافيرها .

ـ اجل ، فأنا آمرك بذلـك .

وطافت فكرة في راس روبرت .. لقد سره انه تذكر موضوع الامر . فهذا الموضوع يساعده كثيرا ، اذ ينقذ العجوز من بعض متاعبه .. ومضى يقول لنفسه .. آمل ان الامر سيساعده . فقد نسيت ما حدثني به عن موضوع القتل في ذلك اليوم .

ثم عاد روبرت يقول .. هذه اوامري . والآن هيا .

ـ الى اللقـاء القريب يا انكليزي .

وتذكر روبرت وداع والده في المحطة والدموع في عينيه ، ولم ينبس ببنت شفة .. ولكنه عاد يقول .. وهل مسحت الزيت عن بندقيتك ايها العجوز .. حتى لا يرتفع صوتها .

ـ اجل في الكهف .. لقد نظفتها تماماً ،

ـ اذن فالـى اللقـاء .

ومضى العجوز ، بين الاشجار .. وانبطح روبرت على أرض الغابة ، واخذ ينصت الى اول نأمة بين فروع الصنوبر ، من الرياح التي ستهب مع الفجر . واخذ يجرب حركة مدفعه الصغير ، ثم شرع ينفخ فى فوهته ، واحس بالزيت على لسانه . ووضع البندقية على ذراعه . واخرج العيارات فوضعها فى منديل اخرجه من جيبه . واخس يحس كل طلقة بيده مـن جميع جوانبها ، ويدخلها في مكانها باصابعه فى المشط . وثقل المشط في يده ، فوضعه داخل البندقية . وانبطح على بطنه وراء الشجرة ، وقـد حمل البندقية فى ذراعه ،يرقب الضوء المنبعث من الطريق .. وظل روبرت جوردان ينتظـر طلوع النهار .

٤٢

كان أندريه في غضون ذلك كله ، يسارع في طريقه الى مقر قيادة غولز ، وقد استقل الدراجة النارية مع غوميز . ولقيا في الطريق دورية خفارة ، فاطلع غوميز افرادها على جواز المرور الموقع من المقدم ميراندا ، فسمحوا لهما بالمرور ، على ان تسير الدراجة بلا ضوء .

وواصلت الدراجة سيرها صاعدة مع الطريق ، بينما كانت الشاحنات هابطة دون ان تضيء انوارها في قافلة طويلة . وكان ثمة بعض الشاحنات الصاعدة ايضا ، وقد اثارت جميعها سحبا كثيفة من النقع ، حتى تعذر على اندريــه ان يــرى .

واجتاز غوميز شاحنة صاعدة ، فثانية ، فثالثة ، بينما كانت الشاحنات الهابطة تسير الى شماله . ومر غوميز بعدد من السيارات الصغيرة : وسيارات الاسعاف ، وسيارات اركان الحرب ، والسيارات المدرعة . ووصلا الى دورية جديدة ، في مكان وقع فيه اصطدام ، بين شاحنتين ، اذ وقفت الامامية فجأة فجاءت الثانية وصدمتها من مؤخرتها ، وحطمته ، ونثرت ما تحمله من صناديق العتاد على الطريق . وتوقفت مئات السيارات في خط طويل ، الى ان يتم اخراج الشاحنة المحطمة عن الطريق . وكـان

هناك ضابط ، يركض صاعدا مع الطريق ، وهو يحمل مصباحه الكهربائي بيده ، يحذر السيارات مـن المضي في سيرها ويأمرها بالوقوف ، بينما الشاحنات مستمرة في المجيء .

وامسك احد رجال الدورية بجواز المرور الذي يحمله غوميز ، ينظر فيه، ثم مضى عندما راى سيارة الى الجانب الاخر من الطريق ، فطلب الـى سائقها . ان ينقل الى الدورية الاولى ما حدث ، وان يطلب اليها وقف سير الشاحنات الى ان يتم الخلاص من هذه المشكلة . وعاد الجندي وهو يحمل الجواز بيده ، وصرخ بسائق السيارة التي تبعثرت صناديق العتاد منها قائلا .. اترك كل شيء ، بحق الاله ، حتى ننظف الطريق ، وواصل السيـــر .

ـ لقد توقف جهاز الارسال معي .

ـ لعنة الله على جهاز ارسالك ، اكمل السير .

فقال السائق .. ولكنها لا تسير ..

ـ اذن اطلب الى السيارة الامامية ان تسحبك ، حتى نخرج السيارة المهشمـــة مـــن الطريق .

ووقف السائق جامدا في مكانه .. فهتف به الجندي ، وجواز المرور ما زال في يده دون ان ينظر اليه .. هيا ، تحرك ..

وقال غوميز .. واوراقي .. جواز مروري .. نحن في مهمة مستعجلة .

ـ خذ جواز مرورك الى الجحيم .

ومد الجندي يده بالجواز اليه ، وركض الى الجانب الاخر من الطريق ، حيث كانت هناك سيارة هابطة .. وقال لسائقها .. عندما تصل الى مفترق الطريق ، ادر سيارتك وقف في عرض الطريق ..

ـ ولكـــن اوامري ..

ـ لعنة الله على اوامرك .. اعمل كما اقول .

وادار السائق محرك سيارته ، ومضى يغذ سيره في الطريق ، وقد لفه الغبـــار .

وعاد غوميز يدير محرك دراجته ، فانطلقت بهما ألان مسرعة ، في الجزء الخالي من الطريق بعد السيارة المهشمة . ومضيا يصعدان الجبل .كانت السيارات الهابطة تسير وحدها الان ، وغذت الدراجة سيرها الـى ان لحقت بالشاحنات التي كانت قد مرت قبل وقوع الحادث .

ومرت الدراجة باربع سيارات مصفحة ، وبعدد من الشاحنات التي تقل الجنود . وكان هؤلاء الجنود يملأون السيارات ، وقد خيم عليهم الصمت ورأى اندريه سيارة من سيارات الضباط ، امام هذه الشاحنات ، وهي تبعث بنورها فرأى على ضوئها الجنود بخوذاتهم الفولاذية ، يحملـــون البنادق بشكل افقي ، وقد أتجهت مدافعهم الرشاشة الى السماء . ورأى على ملامح الجنود ، آثار الاسى ، اذ انهم يعرفون وحدهم انهم يسيرون الى الهجوم ، فكان كل واحد منهم ، يفكر في مشاكله الخاصة .. ولكن هذا التفكير سينتهي حتما عندما يبدأ القصف الجوي ، ويشرع في الهجوم .

واستمر اندريه ، يمر بهذه الشاحنات واحدة اثر اخرى ، وهو يسبق سيارة القيادة .. وشرع اندريه يحدث نفسه .. يا له من جيش ، ويا لها من معدات ، ومن قوات آلية . أنظر الـى هؤلاء الناس ، انهـــم جيش الجمهورية . انظر اليهم . انهم في شاحنة وراء شاحنة . لباسهم واحد ، وخوذهم الفولاذية واحدة ، ومدافعهم الرشاشة تتجه الى السماء لمقابلة الطائرات عند مجيئها . هذا هو الجيش العظيم الذي اقامته الجمهورية .

ورأى سيارات اخرى ، تختلف عن سابقتها ، وكلها ، تمضي في طريقها صاعدة الجبل ، والدراجة تنطلق بهما مارة بهذه السيارات ، وادرك أن ركوبه لهذه الدراجة قد مكنه من رؤية اشياء ما كان يتوقع في حياته ان يراها . وايقن الان انه لن يستطيع العودة هذه الليلة الى رفاقه للاشتراك

في المعركة ، وسط هذا الضجيج والعجيج ، وانه سيكون سعيدا اذا ما تمكن من العودة في ليلة الغد . انه لم يسبق له أن راى قط هجوما ، او اية استعدادات من هذا النوع للهجوم . وقد اعجب بقوة هـذا الجيش وضخامتـه .

ووصلت الدراجة الى قمة الجبل ، واضطر الى الهبوط عنها ، والسير الى جوارها . وبعد ان مرا بالقمة ، كان هناك منعطف ، ومكان تستطيع السيارات أن تدور فيه على نفسها ، ورايا بناء ضخما تنبعث منه بعض الاضواء . وقال غوميز . . دعنا نمضي الى هناك لنسأل عن مقر القيادة . . ووصلا الى مكان يقف فيه حارسان أمام باب مغلق في البناء . واركن غوميز الدراجة الى الحائط . عندما رايا ، جندي مراسلة من راكبي الدراجات النارية ، يخرج من الباب المغلق ، وهو مرتد ملابس من الجلد ، وعلى كتفه حقيبة رسائل ، والى جانبه مسدس « موزر » ومضى الجندي الى دراجته فاستقلها ومضى صاعدا في الطريق .

وتحدث غوميز الى احد الحارسين . فقال . . انا الرئيس غوميز مـن الكتيبة الخامسة والستين . هل في وسعك ان تدلني على مقـر قيادة الجنرال غولز الذي يقود الفرقة الخامسة والثلاثين ؟

فقال الحارس . . انها ليست هنا .

ـ اذن مـا هذا المكان ؟

ـ القيـادة .

ـ ايـة قيادة ؟

ـ القيـادة .

ـ قيادة مـاذا ؟

ـ لماذا تسأل كل هذه الاسئلة ؟

ـ انا الرئيس روجيليو غوميز قائد السرية الاولى في الكتيبة الخامسة والستين ، وانا اطلب اليك ان تدلني على مقر قيادة الجنرال غولز .

وفتح الحارس الباب قليلا . وقال : « استدعو عريف الحرس » .

ووصلت في تلك اللحظة سيارة كبيرة من سيارات القيادة واستدارت متجهة الى البناء الضخم الذي يقف غوميز واندريه ، في مدخله . في انتظار عريف الخفر . واتجهت السيارة نحوهما . ووقفت .

وخرج من السيارة رجل ضخم الجسم ، كبير السن ، يضع على راسه « بيريه » من الخاكي . وعليه معطف ، وفي يده حقيبة خرائط ، والى جانبه مسدس ، ومعه رجلان في زي ضباط اللواء الاجنبي .

وكان يتحدث بالفرنسية التي لا يفهمها اندريه ، ولا يفهم غوميز منها الا بضع كلمات . ويخاطب سائقه ، طالبا ابعاد السيارة عن المدخل ، ونقلها الى الملجأ .

وعندما وصل الى الباب مع الضابطين الآخرين ، راى غوميز وجهه بوضوح في الضوء فعرفه اذ سبق له ان رآه في بعض الاجتماعات السياسية وقرا له بعض المقالات المترجمة من الفرنسية في صحيفة الجمهورية . اجل لقد عرفه غوميز بحاجبيه الكثين ، وعينيه الرماديتين ، وذقنه المزدوجة . وعرف فيه الشخصية الثورية الفرنسية المعاصرة والعظيمة التي قادت عصيان الاسطول الفرنسي في البحر الاسود . وكان غوميز يعرف مكانة هذا الرجل في اللواء الدولي ، ويعرف انه يعلم تماما مقر قيادة غولز . فيستطيع ارشاده اليه . ولم يكن قد عرف ما صنعه الزمن والفشل والمرارة في الداخل وفي السياسة ايضا ، والطموح الفاشل بهذا الرجل ، وأن مجرد سؤاله ، قد يكون امرا خطيرا كل الخطورة . ولما كان يجهل كل شيء عن ذلك ، فقد تقدم اليه ، وادى التحية وقال : ايها الرفيق ماسارت ، اننا نحمل رسالة هامة الى الجنرال غولز . فهل لك أن ترشدنا الى مقر قيادته أن الرسالة في منتهى الاهمية والالحاف .

وتطلع الرجل الطويل الضخم ، الى غوميز ، واخذ يفحصه بنظره

بعناية .. وكانت تبدو على وجهه آثار الانهيار والضعف .

وقال لغوميز بلهجة اهل كاتالونيا .. ماذا معك ايها الرفيق .. ؟ وادار نظره بصورة خاطفة الى اندريه ثم عاد الى غوميز .

ـ معنا رسالة الى الجنرال غولز ، يجب ان نسلمها في مقر قيادته ايها الرفيــق ماسارت .

ومن اين جاءت الرسالة ؟

ـ من وراء الخطوط الفاشية .

ومد اندريه ماسارت يده ، فتناول الرسالة والاوراق الاخرى ، وتطلع اليها ثم وضعها في جيبه . وقال لعريف الحرس : اعتقلهما معا . وفتشهما ثم ابعث بهما الي عندما اطلبهما .

ومضى ماسارت يدخل البناء الفخم والرسالة في جيبه .

وقام رجال الحرس بتفتيش غوميز واندريه في غرفة الحرس الخارجية

وقال غوميز .. ماذا دها ذلك الرجل ؟

فقال الحارس .. انه مجنون .

فقال غوميز .. لا . انه شخصية سياسية ذات أهمية بالغة . انه رئيس القومسيارين السياسيين للكتائب الدولية .

فقال عريف الحرس .. ومع ذلك فهو مجنون . وماذا تعملون وراء الخطوط الفاشية ؟

ـ هذا الرفيق من مناضلي العصابات هناك . انه يحمل رسالة الـى الجنرال غولز .. انتبه الى اوراقي والى نقودي ، والى تلك الرصاصــة المربوطة بالشريط . انها من الجرح الاول الذي اصبت به في غوادارما .

فقال العريف .. لا تخف سيكون كل شيء في هذا الدرج . لماذا لــم تسألني عن مكان وجود غولز ؟

ـ لقد حاولنا . وقد سألت الحارس واستدعاك .

ـ ولكن جاء آنذاك ذلك الرجل المجنون ، فسألته . يجب ان لا يسأله انسان عن اي شيء . اما مكان غولز فهو صعدا في هذه الطريق على مسافة ثلاثة كيلومترات من هنا الى اليمين ، في صخور الغابة .

ـ الا تستطيع ان تسمح لنا بالذهاب اليه الآن ؟

ـ لا . سيكلفني ذلك راسي . يجب أن آخذكما الى المجنون . ثم لا تنسَ ان رسالتكما معه الآن .

ـ الا تستطيع ان تبلغ اي انسان ؟

ـ اجل ، استطيع ان ابلغ أول مسؤول اراه . فالكل يعرف انه مجنون .

ـ كنت انظر اليه دائما على انه شخصية عظيمة يمثل امجاد فرنسا .

ـ قد يكون مجدا في ذاته . ولكنه مجنون . وهوايته قتل الناس بالرصاص .

ـ قتلهم بالرصاص حقا ؟.

ـ ان ذلك العجوز يقتل من الناس اكثر من الطاعون . ولكنه لا يقتل الفاشيين كما نقتلهم . انما يبحث عن الاشكال الغريبة من التروتسكيين والمنحرفين وغيرهم .

ولم يستطع اندريه ان يفهم شيئا من كل هذا .

ومضى العريف يقول . . وعندما كنا في ايسكوريال ، قتلنا له عددا كبيرا من الناس . كنا فريق الرماية له . ولم يكن في وسع رجال الافواج ان يقتلوا زملاءهم . ولا سيما الفرنسيين . ولتجنب المصاعب ، كنا نحن نقوم باداء هذه المهمة . لقد قتلنا فرنسيين وبلجيكيين ، ورجالا من مختلف الاشكال والجنسيات . دائما لاسباب سياسية . انه مجنون . وهو مطهر اكثر من السالفرسان ؟

ـ ولكن ارجو ان تبلغ احد الناس بقصة هذه الرسالة ؟

ـ طبعا . بكل تأكيد . فانا اعرف كل رجل في هاتين الكتيبتين ؛ وكل شخص يمر بنا هنا . وانا اعرف حتى الروس منهم . مع ان القليلين منهم يعرفون الاسبانية . وسنحول بين هذا المجنون وبين قتل الاسبانيين .

ولكـن الرسالـة .

ـ لا تخشَ على الرسالة ايها الرفيق . فنحن نعرف كيف نتعامل معه . انه خطر مع جماعته . ونحن نفهمه تماما الآن .

وانطلق صوت اندريه ماسارت من الداخل يقول .. ادخل السجينين .

وسالهما العريف ـ اتريدان شرابا ؟

ـ ولـم لا .

وتناول العريف زجاجة من اليانسون من خزانة ، وشرب كل من غوميز واندريه والعريف ثم دعاهما الى الدخول ، فدلفوا من غرفة الحرس ، وقد التهبت احشاؤهم من دفء الشراب . الى الغرفة التي يجلس فيها ماسارت وراء مكتب كبير ، وقد نشر امامه خريطته ، وحمل قلمه الاحمر والازرق بيده . وكان المنظر جديدا ايضا بالنسبة الى اندريه ، بالاضافة الى المناظر الجديدة الكثيرة التي رآها تلك الليلة . ولكنه شرع يهدىء من روع نفسه، وهو يقول ، أنه ما دامت أوراقه صحيحة والرسالة موجودة فليس ثمة من خطر .. ولكن الرسالة مستعجلة وقد طلب اليه الانكليزي ايصالها بسرعة، وها هو هذا العجوز يضعها في جيبه . وادرك اندريه نهائيا أن من المستحيل عليه ان يعود ليشترك في عملية الجسر .

وقال ماسارت .. قفا بعيدا .

وهنا قال غوميز .. وقد اكسبه الشراب قوة وجراة وغضبا .. اسمع ايها الرفيق ماسارت . لقد تاخرنا مرة الليلة ، بفضل جهل الفوضويين . ثم تأخرنا ثانية بحماقة فاشي بيروقراطي ، والان نتاخر للمرة الثالثة بفضل الاغراق في شكوك شيوعي .

فقال ماسارت .. اغلق فمك . اننا لسنا في اجتماع .

وقال غوميز .. ولكن القضية فى منتهى الخطورة وتتطلب السرعة ايها الرفيق ماسارت .

وكان العريف والجندي يرقبان المشهد ببالغ الاهتمام واللذة ، وكأنه فصل من مسرحية ، راياها عدة مرات ، ولكن فى وسعهما ان يتحملا مشاهدة بعض مناظرها الرائعة مرارا وتكرارا .

وقال ماسارت .. كل شيء على جانب كبير من الاهمية والخطورة .. واخذ ينظر اليهما الان ، وفي يده قلمه . ثم قال .. وكيف عرفتما ان غولز هنا ؟ الا تعرفان الخطورة في ان يصل انسان ليسأل عن جنرال فرد ، يوشك ان يقوم بهجوم ؟ وكيف كان في وسعكما ان تعرفا ان هذا الجنرال موجــود هنا الان ؟

فقال غوميز لاندريه .. قل له انت .

فبدا اندريه حديثه قائلا .. ايها الرفيق الجنرال .. ولم يصحح اندريه ماسارت خطأه فى الحاق هذه الرتبة عليه .. لقد اعطيت هذه الرسالة في الجانب الثانــي مــن الخطوط .

فقال ماسارت .. من الجانب الثاني من الخطوط ؟ اجل لقد سمعته يقول انك جئت من الخطوط الفاشية

ومضى اندريه يقول .. وقد سلمنيها ايها الرفيق الجنرال ، انكليزي يدعى روبيرتو ، جاء الينا ليعمل كديناميتي ، وليقوم بنسف الجسر . هــل فهمت ؟

فقال ماسارت .. اكمل قصتك .. وقد استعمل تعبير قصة ، وكأنه يود ان يقول اكذوبتك او تلفيقك او اختراعك .

ـ حسنا ايها الرفيق الجنرال . لقد طلب الي الانكليزي ان احمل الرسالة الي الجنرال غولز بمنتهى السرعة . ويقوم الجنرال بهجوم اليوم في هذه

الجبـــال . وكل ما نرجوه ، هو ان تنقلها اليه الآن بسرعة ، اذا كـــان هذا يرضيك ايها الرفيق الجنرال .

وهز ماسارت راسه . وكان يتطلع الان الى اندريه دون ان يراه .

انه يفكر بغولز تفكيرا هو مزيج من الفزع والتمجيد الذي يحس بـــه الانسان عندما يسمع ان منافسا له في العمل قد قتل في حادث سيارة مخيفة . او ان شخصا يكرهه ولكنه لا يشك في استقامته ، قد اتهـــم بالتزوير والغش . ولا ريب في ان غولز هذا هو واحد منهم ايضا ، اذ لا ريب في انه على اتصال بالفاشيين .. غولز .. هذا الذي عرفه منذ نحوا من عشرين عاما .. غولز الذي استولى على قطار الذهب في ذلك الشتاء في سيبيريا . غولز الذي حارب ضد الكولشاك وفي بولندا ، والقفقاس والصين ، واسبانيا منذ مطلع الثورة . ولكنه كان قريبا من توكاشيفسكي ، ومن فوروشيلوف ايضا . ولكنه كان اقرب الى توكاشيفسكي . ولمن أيضا؟ انه قريب من كاركوف بالطبع ومن لوكاكز . ولكن المجرمين كانوا جميعا دائما من الدساسين والخونة . انه يكره غول . وغولز يكره غول . اذكر ذلك . اجل سجل هذه الحقيقة . لقد كان غولز دائم الكراهية لغول . وهو يحب بوتز . سجل هذه النقطة ايضا . ودوفال هو رئيس اركان حربه . فماذا ينتج عن ذلك . وقد سمعته يقول ان كوبيك مجنون . هذا شيء ثابت . بل موجود . والآن ما هي هذه الرسالة تصله من الخطوط الفاشية ولا يمكن للشجرة ان تستمر في النمو بشكل سليم الا اذا قلمت منهـــا اغصانها الذابلة . ولكن من الواجب ان يبدد الذبول قبل أن يتم التقليم . ولكن غولز من دون الناس جميعا .. ولكن ان يكون غولز احد الخونة .. انه لا يثق بانسان . اي انسان . حتى زوجته او حتى اخيه او اقـــدم رفاقه . ابدا . ابدا .

وقال للحرس .. خذوهما . واحرصوا عليهما .. وتطلع البريف الى الجندي فقد كان هذا الهدوء من المناظر المألوفة في مسرحيات ماسارت .

وقال غوميز .. ايها الرفيق ماسارت . لا تكن مجنونا . اصـــغ الي ،

فأنا ضابط مخلص ورفيق . هذه رسالة يجب ان تسلم الى صاحبها .وقد جاء بها هذا الرفيق مجازفا بنفسه عبر الخطوط الفاشية ، ليحملها الى الجنرال الرفيق غولز .

وقال ماسارت بصوت دمث الى رجال الحرس .. خذوهما .. انه يشعر بالاسى بالنسبة اليهما كبشر ، اذا حتمت الضرورة تصفيتهما . ولكن مأساة غولز هي التي تعذبه . ان يكون غولز من دون الناس جميعا . وسيحمل الرسالة الفاشية فورا الى فارلوف . لا من الافضل ان يأخذها الى غولز نفسه وان يراقبه عندما يتسلمها . هذا ما يجب ان يفعله . فكيف في وسعه ان يثق بفارلوف اذا كان غولز نفسه واحدا منهم . لا . هذه نقطة يجب أن يكون حذرا منها .

والتفت اندريه الى غوميز وقال وهو لا يكاد يصدق ما يراه .. هل تعني بانه لا يريد ان يسلم الرسالة ؟

فقال غوميز .. الا ترى .

فقال اندريه .. انه مجنون .

ـ اجل . انه مجنون .. اسمع انت مجنون .. مجنون .. واخذ يصرخ الآن على ماسارت الذي انحنى الان على خريطته بقلمه الاحمر والازرق .. اتسمع انت قاتل مجنون .

فقال ماسارت للحرس .. خذوهما . ان ضميريهما لا يتعذبان من جريمتهما الكبرى .

وكان هناك تعبير سبق للعريف أن سمعه من قبل ..

فصرخ غوميز .. ايها القاتل المجنون .

وقال اندريه .. مجنون ..

وكانت بلادة هذا الانسان قد اثارت غضبه . فاذا كان هذا الانسان

مجنونا فيجب ان يعامل على انه مجنون ، وان تؤخذ الرسالة من جيبه . وليذهب هذا المجنون الى الجحيم . وبدا غضبه الاسباني العنيف يشتد شيئا فشيئا ، نابعا من هدوئه الطبيعي ومزاجه الطيب . ولا ريب في انه سيصبح اعمى من الغضب بعد قليل .

وهز ماسارت راسه وهو ينظر الى خريطته ، عندما اخذ رجال الحرس غوميز واندريه الى الخارج . لقد طرب الحراس لسماعهما يشتمانه ، ولكنهما شعرا بخيبة الامل من المنظر كله . فقد سبق لهما ان رايا مناظر اكثر منه جمالا وروعة . ولم يكترث اندريه ماسارت بسماع الرجليـن يشتمانه . فقد شتمه الكثيرون في النهاية . وكل ما يحس به هو الاسف عليهم كبشر . وكان دائما يردد هذه الفكرة على نفسه ، لانها الفكـرة الاخيرة التي ظلت لديه والتي لم يكن هو مصدرها .

وجلس في مكانه وقد تركزت عيناه وشاربه على الخريطة التي لم يفهمها قط ، وعلى ما فيها من المقاطع الطولية والعرضية التي تشير الى الارتفاع والانخفاض . انه يرى الارتفاع والانخفاض ولكنه لا يعرف شيئا عنه او عن مقداره . ولكن في امكانه في اجتماع القيادة العامة ، الذي يحضره وفقا لنظام القوميسارين السياسيين كمسؤول عن الكتائب الاجنبية ، ان يضع يده على اية نقطة في الخريطة ، وان يقول .. هنا نقطة الضعف .

وكان غول وكوبيك ، وهما من رجال السياسة والطموح . يوافقانه دائما وفيما بعد ، يقوم رجال لم يروا الخريطة في حياتهم وانما سمعوا برقم التل قبل ان يغادروا نقطة البداية ، فيتسلقوها ليجدوا الموت في انتظارهم على منحدراتها ، او ليجبروا على الوقوف تحت تهديد المدافع الرشاشة التي اخفيت بعناية بين اشجار الزيتون ومن ثم التراجع عنها . ولكن عندما كان ماسارت يضع اصبعه على الخريطة في مقر قيادة غولز كان ذلـك الجنرال الاصلع ، الذي امتلأ راسه بالندوب ، صاحب الوجه الشاحب والفك البارز يقول .. يجب ان اقتلك يا اندريه ماسارت قبل ان اسمح لك بوضع اصبعك على احدى خرائطي . وعليك اللعنة ، علـى الرجال

الكثيرين الذين قتلتهم ، بتدخلك في شؤون لا تعرف عنها شيئا . واللعنة على ذلك اليوم الذي اسموا فيه مصانع المحاريث والقرى والتعاونيات التي تمثلها ، والتي لا أستطيع ان المسها . فاذهب ، وانثر شكوكك ، وعذب ، وتدخل ، واذبح ، واستنكر في اي مكان تشاء ، واترك قيادتي بعيـــدة عـن نفوذك .

ولكنه كان احيانا بدلا من ذلك ، يتكيء في مقعده ، ويقول . . « اجل ايها الرفيق ماسارت . انني ارى نقطتك . على كل حال ، انا لا اوافقك عليها . وفي وسعك ان تفعل ذلك في قضايا حزبية ، ولكنني لا اوافقك » .

وهكذا جلس اندريه ماسارت يعمل على خريطته الان في مكتبه العاري ، الا من ضوء شاحب فوق راسه ، وقد اسدل قبعته العسكرية على راسه لتغطي عينيه ، متطلعا الى الاوامر الموجودة لديه والمتعلقة بهجوم الغد ، يدرسها بدقة وعناية وكأنه ضابط صغير يحاول ان يحل مشكلة في كلية من كليات اركان الحرب . انه مشترك في الحرب . وهو يقود في فكـره الجنود ، ومن حقه ان يدخل وان يشكل القيادات . وهكذا جلس وقد وضع رسالة روبرت جوردان في جيبه بينما كان غوميز واندريه محجوزين في غرفة الحرس وكان روبرت جوردان منتظرا في الغابات فوق الجسر بـدء الهجـوم .

ومن المشكوك فيه ان تختلف النتيجة ، بالنسبة لمهمة اندريه ، لو سمح له ولغوميز ، بالمسير دون هذه الاعاقة من اندريه ماسارت . فلم يكن هناك في الجبهة من يملك الصلاحيات اللازمة لالغاء الهجوم . وكانت الترتيبـات قد قطعت شوطا بعيدا بحيث اصبح من المتعذر وقف الهجوم في هذه اللحظة فهناك قوة من الاستمرار الذاتي في كل عملية عسكرية مهما كان حجمها . ولكن متى امكن التغلب على هذا الاستمرار ، وبدات الحركة فمن الصعب وقفهـا .

وفي تلك الليلة ذاتها ، وبينما كان الرجل العجوز جالسا امام خريطته ، فتح الباب ودخل كاركوف الصحفي الروسي ، ومعه روسيان اخران في

الملابس المدنية ويرتديان معاطف من الجلد . واغلق عريف الحرس الباب ببرم وراءهم . فقد كان كاركوف اول رجل مسؤول استطاع الاتصال به.

وقال كاركوف بصوته المهذب الذي ينم عن الاحتقار وهو يبتسم .. ايها الرفيــق ماســارت .

ووقف ماسارت . انه لا يحب كاركوف . ولكن هذا يمثل البرافدا ،وهو على اتصال مباشر بستالين ، وهو احد الثلاثة الكبار في اسبانيا .. وقال .. ايهـا الرفيق كاركوف .

وقال كاركوف وهو يشير الى الخريطة .. هل تعد خطة الهجوم ؟

ـ لا . اننـي ادرسها .

ـ ولكـن هل انت الذي ستقوم بالهجوم او غولز ؟

ـ انا لست الا مفوضا (قوميسارا) كما تعرف .

ـ لا . انك متواضع . فانت جنرال حقيقي . وها هي خريطتك امامك، ومعك منظارك . قل لي . الم تكن اميرالا ذات مرة يا ماسارت ؟

ـ كنت مساعدا للمدفعي .. لقد كذب ، فقد كان حقا رئيسا للبحارة ايام العصيان . ولكنه ظن الان ، انه كان مجرد مساعد مدفعي .

ـ ظننت انك كنت قبطانا . يبدو لي ان معلوماتي دائما خاطئة ، وهذا مــايوصم بـه الصحفي .

ولم يشترك الروسيان الاخران في الحديث ، وانما كانا ينظران الــى الخريطة من حين الى آخر ، ويبديان بعض الملاحظات بلغتهما . اما ماسارت وكاركوف فقــد كانا يتحدثان بالفرنسية .

وقال ماسارت وكانه يريد ان يعيد بناء نفسه .. من الخير ان لا يخطىء الانسان في تحري الحقائق للبرافدا .. وكان من الصعب على ماسارت ان يتذكر عندما يتكلم كاركوف ، الاهمية التي جاء بها الى اسبانيا بوصفه

مندوبا عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي . وكان من الصعب عليه ان يذكر ايضا ، انه كان بدوره من الاشخاص الذين لا يجوز التعرض لهم . اما كاركوف هذا فيتعرض له دائما ، وان كان تعرضه برقة ، وفي الوقت الذي يريده .. وعاد كاركوف يقول .. ولكنني اصلح الاخطاء عادة قبل ان ابعث بها الى البرافدا . فانا اتوخى الدقة دائما في رسائلي اليها . قل لي يا رفيق ماسارت ، هل سمعت شيئا عن رسالة وردت عبر الخطوط الى غولز من جماعة من المناضلين العاملين وراء الخطوط في سيغوفيا . فهناك رفيق اميركي يعمل هناك ، اسمه جوردان ، وكان من واجبه ان يبعث الينا بتقرير . فقد وصلت انباء عن قتال دار هناك وراء الخطوط الفاشية . ولا بد انه بعث برسالة الى غولز .

فقال ماسارت .. امريكي ..؟ واخذ يفكر .. لقد تحدث اندريه عن انكليزي .. اذن فهذه هي القضية . وهو قد اخطأ .. فلماذا تحدث اليه هذان الاحمقان ؟

فقال كاركوف وهو يرنو اليه بازدراء .. اجل ، شخص امريكي لا قيمة سياسية كبيرة له ، ولكنه يتقن العمل مع الاسبانيين وقد ابلى بلاء حسنا في حرب العصابات . اعطني الرسالة يا رفيق ماسارت فقد تأخرت بما فيه الكفاية .

وقال ماسارت يسأله .. اية رسالة ؟ كانت بلادة منه ان يوجه هذا السؤال ، وقد ادرك هو خطاه . ولكن لم يكن في وسعه الاعتراف بخطئه في مثل هذه السرعة ، وقد وجه هذا السؤال ، ليؤخر على الاقل لحظة اذلاله

وعاد كاركوف يقول .. اعطني الرسالة ، واعطني جواز المرور معها .

ومد ماسارت يده في جيبه ووضع الرسالة على المكتب ، ونظر الى كاركوف ببلاهة . حسنا لقد اخطأ ، وليس في وسعه اصلاح الخطأ ،ولكنه لا يرضى بالاذلال .. فعاد كاركوف يقول .. وجواز المرور ايضا ..

ووضع ماسارت جواز المرور ايضا بجانب الرسالة .

وهتف كاركوف بالاسبانية .. ايها العريف الرفيق ..

وفتح العريف الباب ودلف الى الغرفة ، ونظر بسرعة الى اندريه ماسارت الذي كان يتطلع اليه وكانه خنزير بري اصبح امام صياديه وكلابهم . ولم يكن هناك اي خوف أو مسكنة على وجه ماسارت . وانما كان هناك غضب وتحد . فهو يعرف أن هذه الكلاب لا تستطيع ان تنال منه .

وقال كاركوف .. خذ هذه الاوراق الى الرفيقين الموجودين في غرفة الحرس . وارشدهما الى مقر قيادة الجنرال غولز .. فقد تاخرا كثيرا .

وخرج العريف . ونظر اليه ماسارت وهو يخرج ، ثم عاد يتطلع الى كاركوف ..

وقال كاركوف .. يا رفيق ماسارت ، سأرى الى اي حد لا يجوز ان تمس .

وتطلع اليه ماسارت ولم يقل شيئا .

وعاد كاركوف يقول .. لا تفكر بالاساءة الى العريف ايضا . فلم يكن هو الذي ابلغني . وانما رايت الرجلين في غرفة الحرس وقد تحدثا الي (وكان يكذب في قوله) ، وكم كنت آمل لو تحدث جميع الناس الي دائما .. وكان كاركوف يؤمن بما يستطيع ان يفعله من خير لو وصل اليه كل انسان ، وتدخل في جميع الامور في حينها بدافع انساني . هذا هو الشيء الذي لم يكن قط ليفشل فيه .

وعاد يقول .. اتعرف انني عندما اكون في الاتحاد السوفياتي ، يكتب الناس الي في البرافدا ، عندما يحسون بحيف يلحق بهم حتى ولو كانوا في اقاصي اذربيجان . اكنت تعرف هذا ؟ وكانوا يقولون دائما .. ان كاركوف سيساعدنا .

ونظر اليه اندريه ماسارت وليس على وجهه اي تعبير الا الغضب والكراهية . ولم يكن يفكر في شيء الآن ، سوى ان كاركوف قد اساء اليه.

حسنا يا كاركوف . فعلى الرغم من قوتك . عليك ان تكون حذرا .

ومضى كاركوف يقول .. وهذا امر آخر . ولكنه نفس المبدا . وساتحرى عن المدى الذي لا يجوز فيه ان تمس ايها الرفيق ماسارت . واود ان اعرف ايضا . اذا كان بالامكان تبديل ذلك الاسم بالنسبة الى مصنع المحاريث .

وازاح ماسارت نظره عنه . وعاد يتطلع الى الخريطة .

وقال كاركوف .. وماذا قال جوردان الشاب في رسالته ؟

فقال ماسارت .. أنا لم اقراها . يا رفيق كاركوف .

ـ حسنا سأتركك الان لمشاغلك العسكرية .

وخرج كاركوف من الغرفة الى غرفة الحرس . كان اندريه وغوميز قد مضيا ، ووقف لحظة يتطلع الى الطريق ، والى قمم الجبال . التي بدات تلوح عليها تباشير الفجر .. وفكر بان الرحيل اصبح ضروريا . فقد اوشك الهجوم على البدء .

وكان اندريه وغوميز يغذان السير بدراجتهما النارية على الطريق ثانية، واخذت تلوح انوار الفجر . وعندما وصلت بهما الدراجة الى القمة ، رايا بين الغابات الدبابات تغطيها اشجار الصنوبر ، والجنود منتشرين في كل مكان . وابصر اندريه بالرجال . يحملون اعمدة طويلة من الخشب على اكتافهم ، كما شاهد ثلاث سيارات من سيارات اركان الحرب الى يمين الطريق ، وقد غطيت كلها باغصان الصنوبر .

وادار غوميز الدراجة حتى وصل الى احدى هذه السيارات . فاتكأ بها على شجرة صنوبر ، وتحدث الى السائق الجالس قرب السيارة ، وقد اركن ظهره الى شجرة .. فقال السائق .. سآخذكما اليه . ضع دراجتك بعيدة عن النظر . وغطها بفروع الاشجار .

وكانت الشمس قد بدات تلوح من وراء الاغصان ، وتبع غوميز واندريه

السائق الذي كان يدعى فيسانت عبر الاشجار ، الى الطريق ، ومنها الى مدخل نفق صغير ، ترتفع من سقفه اعمدة اللاسلكي . ووقفا في الخارج ، بينما دلف السائق الى الداخل . واعجب اندريه ببقاء النفق الذي لا يبدو منه اي شيء في الخارج ، بينما كان يظهر فسيحا تماما في الداخل .

وخرج فيسانت السائق يقول .. ان الجنرال قد خرج ، حيث يشرف على توزيع القوات للهجوم . وقد سلمت الرسالة الى رئيس اركان حربه . وقد وقع هنا .

وسلم لغوميز الغلاف الموقع ، فاعطاه لاندريه الذي نظر اليه ، ثم وضعه في قميصه . وقال .. ما إسم الرجل الذي وقع .

فقال فيسانت .. دوفال .

ـ حسنا ، لقد كان احد الثلاثة الذين يجب ان اسلم اليهم الرسالة .

وقال غوميز يسأل اندريه .. وهل ننتظر للحصول على رد ؟

ـ اعتقد انه الافضل ، مع العلم ، انني لا ادري ، اين سأعثر على الانكليزي وبقية الرفاق ، بعد الانتهاء من عملية الجسر .

ـ تعالا وانتظرا عندي حتى يعود الجنرال . وسأقدم لكما قهوة . ولا ريب في انكمـا جائعان .

وقال غوميز .. وهذه الدبابات .

وكانوا يمرون الان بالدبابات التي غطتها الوحول واغصان الاشجار ، وكانت مدافعها من عيار ٤٥ مليمترا تتجه افقيا تحت الاغصان ، بينمـا جلس سائقوها ومدفعيوها ، بجاكيتاتهم الجلدية وخوذهم على الارض ، وقد اسندوا ظهورهم الى الاشجار .

فقال فيسانت .. هذه احتياط ، وكذلك الجنود . اما قوات الهجوم فهي هناك على المرتفع .

وقال أندريه .. وهل هي قوات كبيرة .

ــ أجل فرقــة كاملة .

وجلس دوفال في مركز القيادة يحمل بيده الرسالة المفتوحة التي بعث بها روبرت جوردان بيسراه ، ويتطلع الى ساعته بين ثانية واخرى ، وهو يقراها للمرة الرابعة ، وقد احس بالعرق يتصبب تحت ابطيه . فحمل سماعة الهاتف وقال .. أعطني مركز سيغوفيا اذن .. ترك .. أعطني مركــز افيلا ..

وظل يواصل الاتصال بالهاتف دون جدوى . فلقد تحدث الى اللوائين . لقد مر بهما غولز ، وهو في طريقه الى مركز المراقبة ، فتحدث دوفال الى مركز المراقبة فلم يجده .. وعاد يقول على الهاتف .. اذن اعطني سرب الطائرات رقم واحد .. لقد تحمل فجأة المسؤولية كلها . من الخير ان يوقف الغارة . فليس في وسعه ان يرسل الطائرات للقيام بغارة مفاجئة ضد عدو ينتظر وصولها . ليس في وسعه ان يفعل ذلك. انها عملية انتحار يجب أن لا تتم . يجب ان تقف . مهما حدث . وفي وسعهم ان يقتلوه اذا ارادوا . سيتصل بالمطار مباشرة ، ويلغي عملية القصف الجوي . ولكن قد يكون الهجوم عملية زجرية ؟ وقد تكون الغاية منه سحب جميع هذه القوات المعادية الى هذه الناحية . اجل لنفترض هذا . فهم لن يخبروك بالغاية من الهجوم .

وعاد يقول الى موظف الاشارة .. الغِ طلب السرب رقم واحد ، واعطني مركز مراقبة الكتيبة التاسعة والستين .

وكان لا يزال يطلب المركز ، عندما سمع اول صوت يدوي من الطائرات وفي تلك اللحظة اتصل بمركز المراقبة .. وقال غولز بهدوء .. من الطرف الاخــر .. نعــم .

كان يتكىء على كيس من الرمل ، وقد وضع قدمه على صخرة ، وفي شفته السفلى لفافة تبغ مدلاة ، وقد تطلع الى السماء وهو يتحدث . انه يرى الطائرات في مجموعات ثلاثية تهدر في السماء ، قادمة في كتف الجبل ،

حيث ظهرت الشمس من ورائه . انه يراها قادمة وهي تبرق في اشعة الشمس ، وتنعكس على مراوحها .

وعاد يقول بالفرنسية لان دوفال هو المتكلم .. نعم .. أخطأنا .. اجل .. هذا شأننا دائما .. اجل .. مصيبة .. نعم .. من العار ان الرسالة وصلت متاخرة .

كانت عيناه ترقبان الطائرات وقد بان الزهو فيهما . ورأى الاشارات الحمراء بوضوح ؛ ثم ابصر بها تتقدم ، بعزم واصرار . انها طائراتنا . لقد وصلت محمولة على بواخر من البحر الاسود عبر مضائق مرمرة والدردنيل فالبحر المتوسط ، حيث جرى تفريغها في اليكانتي ، ثم جمعت الى بعضها وتم اختبارها ، وها هي تطير الان في مجموعات رائعة على شكل رقم (٧) ؛ وضاءة . مشرقة ، في شمس الصباح ، لتصب حممها على تلك التلال هناك، وتنسفها ، حتى نقوم بهجومنا .

وعرف غولز ، ان الطائرات بعد ان تمر فوق رؤوسهم ، ستبدا في القاء حممها ، وآنذاك ، ستدوي قنابلها ، ناسفة مراكز العدو ، وسرعان ما تتقدم الدبابات ووراءها ، جنوده . واذا كان الهجوم مباغتا ؛ ففي وسعه ان يستمر ، مندفعا بالسيل ، ومتوقفا لحظات للقيام باعمال التطهير ، والدبابات تغطي الجنود المهاجمين ، وهم يندفعون هابطين الجبل . هذه هي الطريقة التي سيسير فيها الهجوم اذا نفذ كل انسان الاوامر المعطاة له

هناك الرابيتان ، والدبابات المتقدمة ، ثم هناك لواء المشاة ، على استعداد للزحف وراءها . وها هي الطائرات تبدأ الهجوم الان . وقد نفذ كل شيء كما يجب ان ينفذ .

ولكنه ادرك الان ، بعد أن سمع رسالة جوردان ، ان الرابيتين ،ستكونان خاليتين . فقد سحب الجنود منهما الى خنادق ضيقة او الى الغابات . وسيعود العدو اليهما بعد ان تمضي الطائرات ، لاستقبال رجاله بمدافعه

الرشاشة واسلحته الاوتوماتيكية ، ومدافعه المضادة للدبابات .

وعاد غولز يقول في سماعة الهاتف ، وهو ما زال يرقب الطائرات ،ماضية في طريقها ، تهدر بشكل مخيف . . « لا . لا تعمل شيئا ، ليس في وسعنا ان نعمل شيئا . فدع التفكير الان . ولنقبل الخطأ » .

وعاد غولز يرقب الطائرات ، بعينيه المزهوتين ، اللتين تدركان تمام الادراك كيف يجب ان تسير الامور ، وكيف اخذت تسير الان انه ما زال يصدق ان الامور ستسير وفق الخطة التي وضعها ، والتي كان من الواجب ان تسير فيها ، وقال . . حسنا ؛ اننا نعمل جهد طاقتنا . ثم اقفل الخط . .

ولكن دوفال لم يستطع سماعه . فقد كان لا يزال جالسا الى المكتب وقد امسك بسماعة الهاتف . وكان كل ما يسمعه هدير الطائرات . . وشرع يفكر . . اسمع هذه هي الطائرات تواصل السير ، وستقوم القاذفات بصب حممها الان ، وقد تنسفهم جميعا عن بكرة ابيهم . وقد نتمكن من شق طريقنا في جبهتهم . ولربما حصلنا على القوات الاحتياطية التي طلبناها . هيا . . هيا . . هيا . . وكان الدوي من العنف بحيث لم يعد يسمع افكاره .

٤٣

طلع الصباح ، وروبرت جوردان ، ما زال مستلقيا وراء الشجرة عند سفح التل . انه يحب دائما هذه الساعة من النهار ، وها هو يرقبها الان ، واحس بشيء من الصفاء في نفسه ، وكانه جزء من الضوء البطيء الـذي يسبق عادة شروق الشمس عندما تبدا الاشياء الصلدة في الاظلام ، والفضاء في الاضاءة ، وتاخذ انوار الليل ، في الاصفرار ، لتختفي عندما يطلع النهار . وراى جذوع الاشجار امامه واضحة الان ، وقد اسود لونها ، بينما اضاءت الطريق ، التي تعلوها سحابة خفيفة من الظل . وكانت ملابسه قد تبالت من الندى ، واحس بأرض الغابة تصبح ناعمة ، ونظر امامه ، فبصر عبر سحابة الظل بفولاذ الجسر ، يقف منتصبا امامه فوق الهوة ، وعلى طرفيه يقف الملاذان الخشبيان .

وراى الحارس الان يقف في ملاذه وقد ادار له ظهره ، ورفع « ياقـة » معطفه، على رقبته لتتصل بخوذته الفولاذية ، وقد انحنى على مدفئته البترولية يدفيء يديه . وسمع روبرت صوت خرير الميـاه في الوادي العميق ، وهي تنساب بين الصخور ، ثم راى دخانا شاحبا يتصاعـد مـن الملاذ .

وتطلع الى ساعته واخذ يفكر .. لا ادري هل اوصل اندريه الرسالة الى

غولز ؟ فاذا كان من المحتوم علينا ان ننسف الجسر ، فانني ارغب في ان اتنفس عميقا وان أؤخر الوقت بعض الشيء ، لاشعر بهذا التنفس . وعاد يحدث نفسه .. اتظن انه اوصلها ؟ اندريه ؟ ولو اوصلها ، هل يوقفون الهجوم ؟ وهل يتوفر لديهم الوقت لوقفه ؟.. لماذا القلق . اما ان يوقفوه، او لا يوقفوه . فليست هناك قرارات جديدة ، وعما قريب ستعرف كل شيء . واذا أفترضنا ان الهجوم قد نجح . لقد قال غولز ، انه سينجح . هناك احتمال ، فقواتنا ستهبط مع الجبل . لم لا تفكر بالطريقة التي سننتصر فيها ؟ لقد كنت في موقف الدفاع مدة طويلة حتى انك لم تعد تؤمن بنجاح الهجوم حقا . ولكن كل هذا ، قبل ان تتحرك جميع تلك القوات المعادية صعدا في الجبل . كان هذا قبل ان تأتي كل تلك الطائرات. فلا تكن ساذجا . وتذكر اننا ما دمنا قادرين ، على وقفهم في اماكنهم ، فنحن المنتصرون . وليس في وسع الفاشيين ان يهاجموا بلادا اخرى ، الا اذا انتهوا منا ، ولن يستطيعوا الانتهاء منا . ولو ساعد الفرنسيون ، وفتحوا حدودهم ، ولو زودنا الامريكيون بالطائرات ، فلن يستطيعوا الانتهاء منا . ابدا ، ما دمنا نحصل على المساعدات . فرجالنا سيقاتلون الى الابد ، اذا توفر لهم السلاح .

ولكن لا . لا تتوقع النصرقبل مرور عدة سنين . ان الهجوم لا يعدو ان يكون من النوع الكابح . فلا تسرح بعيدا في الخيال . واذا افترضنا اننا تمكنا من فتح ثغرة اليوم في خطوط العدو ؟ انه هجومنا الاول الكبير .. هذا هو المقياس الصحيح . ولكن لنفترض ذلك . لا تتحمس . تذكر القوات التي مرت على الطريق . لقد قمت بواجبك . كان من الواجب ان نحمل اجهزة ارسال على الموجة القصيرة من النوع الذي يحمل باليد . طبعا سيكون معنا ذلك في الوقت المناسب . اما الان فليست لدينا مثل هذه الاجهزة . اذن عليك ان تراقب الان ، وان تعمل ما باستطاعتك .

وما اليوم الا نهار من الايام العديدة التي يجب أن تمر بك . أما ما

سيحدث في الغد ، فيتوقف على ما ستفعله اليوم . هذه هي الطريقة المألوفة طيلة العام . وهذا ما حدث اكثر من مرة فكل ما يقع في هذه الحرب لا يعدو ذلك . . ولماذا كل هذا الادعاء اليوم انظر . . من جاء الان .

رأى رجلين في معطفيهما ، وخوذتيهما ، يسيران باتجاه الجسر ، وقد وضعا بندقيتيهما على ظهريهما . وقد وقف احدهما عند طرف الجسر ، ثم اختفى في داخل الملاذ . واما الثاني فعبر الجسر ، وهو يخطو ببطء وتثاؤل . وقد توقف قليلا على الجسر ، ثم بصق الى الهوة ، وعاد يستانف سيره الى الطرف القريب من الجسر حيث تحدث اليه الحارس الاخر ، قبل ان يمضي عابرا الجسر ، بسرعة ، فهو في طريقه الى الراحة ، والى تناول القهوة . . لقد وقف ايضا وبصق في الهوة .

ماذا ، اهذا البصاق تطير وتفاؤل ؟ اذن يجب ان ابصق انا عندما اصل اليه . آه لو استطيع الآن . ولكن لا ، انه ليس بالملاج الناجع .

ومضى الحارس الجديد الى داخل الملاذ وجلس ، بعد ان اسند بندقيته وفي راسها حربة طويلة ، الى الجدار . وتناول روبرت منظاره ، واخذ يتطلع الى الحارس .

كان يجلس متكئا الى الجدار . وقد علق خوذته على مشجب . وظهر وجهه واضحا امام روبرت . لقد كان نفس الرجل الذي رآه في الخفارة قبل يومين . وكان يرتدي نفس ملابسه دون ان يحلق ذقنه . كان يبدو عليه النعاس . ويكثر من التثاؤب ، ثم تناول ، علبة طباق من جيبه ، اخرج منها لفافة ، فاشعلها واخذ يدخنها .

وظل روبرت مستلقيا في مكانه . وحاول التوقف عن التفكير . وسمع عصفورا صغيرا ، يزقزق على شجرة قريبة منه فأخذ يراقبه ورأى عينيه الصغيرتين وذنبه القصير يتحرك في حماس . وسرعان ما انتقل العصفور الى شجرة اخرى ، ثم اخذ يهبط منها الى الارض وهو يهز ذنبه . وتطلع

العصفور الى روبرت ، ثم نشر جناحيه ، وارتفع طائراً الى شجرة بعيدة .

وعاد روبرت يتطلع الى ملاذ الحارس ، آه كم ود لو وضع العصفور في جيبه ، ليكون رفيقا له . انه يريد ان يكون معه اي شيء حتى يلمسه . وفرك كوعه على جذع الشجرة ، ولكنه لم يجد الاحساس الذي كان يتوقعه .. واخذ يحدث نفسه .. آه كم أتمنى لو خرجت ارنبتي سليمة من هذه الورطة .. قف ، لا تفكر بها الان . ولكن لم لا ، انك لا تعدو الاعراب عن الامل ، وهذا من حقك .. ان ما آمله هو ان احسن نسف الجسر ، وان تنجو هي . حسنا . هذا كل ما اريده . اجل كل ما اريده الآن .

ورجع يستلقي ، واخذ ينظر الى الافق البعيد عند الجبل . انه لا يريد ان يفكر الان . وشرع يرقب طلوع النهار . انه يوم من ايام الصيف الجميلة وقد سارع الصيف بالمجيء في نهاية ايار . ورأى راكب دراجة نارية ، يرتدي خوذة ومعطفا ، ويحمل بندقية اوتوماتيكية يعبر الجسر ، ويمضي صعدا في الطريق . ورأى سيارة اسعاف ايضا تمر على الجسر . هذا كل شيء . وشم رائحة الصنوبر ، وسمع صوت الجدول ، وبان الجسر واضحا امامه في ضوء الصباح . وهكذا ظل مستلقيا في مكانه ، دون ان يعود بنظره الى ملاذ الحارس ، وبدا له أن شيئا لن يحدث في هذا الصباح الجميل ، عندما سمع فجاة صوت القنابل الاولى .

ورفع روبرت على الفور بندقيته الرشاشة من مكانها . وكانت ذراعه قد تصلبت من ثقلها . وشعر بان اصابعه لا تطاوعه .

ووقف الحارس عندما سمع صوت القنابل . ورآه روبرت يمد يده الى بندقيته ويخرج من الملاذ وهو يصغي . ثم وقف في الطريق والشمس تسطع عليه ، يتطلع الى السماء في الناحية التي بدات الطائرات تقذف منها حممها

وكان الضباب قد اختفى الآن ، ورأى روبرت الرجل امامه الان واضحا يتطلع الى السماء .

واحس روبرت جوردان ، بنفسه يثقل شيئا فشيئا . وكان شيئا يقبض على صدره . ثم ثبت مرفقه واخذ يتلمس باصابعه الزناد « بالتدريج » ، وضبط هدفه على منتصف صدر الرجل واطلق النار .

وراى الرجل ، وقد اصابه الذهول ، يقع على ركبتيه ، بينما اتجهت جبهته الى الارض ، بعد أن سقطت بندقيته الى الارض بجانبه . ورفع روبرت نظره عن الرجل الذي قتله ، وتطلع الى الطرف الثاني من الجسر . لم يكن في وسعه ان يرى الحارس الثاني . فنظر الى المنحدر ، حيث يعرف ان اوغسطين مختبىء . وسرعان ما سمع رصاصة انسيلمو ، وقد ردد المضيق رجع صداها . وسمعه يطلق النار ثانية .

ومع الطلقة الثانية ، سمع صوت القنابل اليدوية وهي تنفجر من الزاوية السفلى تحت الجسر . وسمع صوت قنابل اخرى من الناحية اليسرى . وتوالى صوت الرصاص وهو يئز من جماعة بابلو ، وراى انسيلمو يخرج من مكانه ، فحمل بندقيته الرشاشة على كتفه ، والكيسين الثقيلين من وراء شجرة الصنوبر يحمل كلا منهما في يد واحـدة ، وهرع متجهـا الـى الطريق .

وعندما ركض سمع اوغسطين يقول له .. صيد حسن يا انكليزي .. صيد حسن .. ومضى يعبر الجسر ، فراى انسيلمو يركض اليه وهو يحمل بندقيته في يده ويهتف .. ليس هناك من خطأ ، ولكنني اجهزتعليه

وركع روبرت ، وفتح الكيسين في وسط الجسر ، ولخرج منها مواده ، وراى الدموع تسيل من عيني العجوز ، ولحيته البيضاء ترتعد .. فقال له .. لقد قتلت رجلا انا ايضا .

فقال انسيلمو .. اجل يا رجل .. كان من الواجب ان نقتل ، وقـد قتلنـا .

واخذ روبرت يرتقي هيكل الجسر . وكان الحديد باردا من الرطوبة والندى ، فصعد بحرص وعناية ، وقد احس بالشمس تلقي باشعتها على ظهره ، وسمع صوت خرير الماء في الوادي وبدأ العرق يتصبب منه ، ثم

شرع يهبط تحت الجسر ، حيث انتشرت البرودة ، وهتف بانسيلمو . .
اعطني المتفجرات حزمة . حزمة . .

واخذ انسيلمو يناوله المتفجرات . فيضعها في المكان الذي يريده . .
ومضى يعمل بهدوء ، يربط الاسلاك ببعضها ، ولا يفكر الا في شيء واحد
وهو النسف . كان كالطبيب الماهر ، يقوم بعملية جراحية دقيقة . ثم سمع
صوت قنبلة يدوية ، تبعتها اخرى ، وهي تدوي مع هدير الماء . وسرعان
ما ساد الهدوء ثانية .

وقال لنفسه . . اللعنة . . ترى ماذا اصابهم ؟

كان صوت الرصاص لا يزال ينطلق على الطريق العلوي ، قرب المركز
الاعلى . ان النار شديدة ، فماذا حدث يا ترى ؟ وكان يضع قنبلتين
يدويتين فوق اكوام المتفجرات يربط الاسلاك حولها ، ويثبتها بقوائم
الجسر الفولاذية . ثم هتف بانسيلمو . . لقد انتهينا من هذا الجانب الان ،
فالى الجانب الاخر . ومضى يتسلق الجسر من هيكله السفلي ، وكأنه
طرزان ، وخرج من الظلمة ، والنهر ينساب تحته ، ورفع عينيه فرأى
انسيلمو ، وهو يمد أليه بحزمة من المتفجرات . ونظر في وجهه فوجد انه لا
يبكي الان ، وانما يعبر عن التفاؤل . وها هو لم يبق امامه الا الجانب هذا
فقط وتنتهي العملية كلها ، ويهوي الجسر الى الوادي السحيق كتلة
واحدة . . وشرع يحدث نفسه . . هيا . . لا يؤثر عليك الهياج والحماس
اكثر من اللزوم . . اكمل العمل ، كما بدأته ، بشكل رائع ، ولا تحاول
الاسراع في عملك . فليس في الامكان ان تخسر الان . ولن تستطيع قوة
ان تحول بينك وبين نسف جزء منه الان ، اجل لقد قمت بالعمل حتى
الان كما يجب ان تقوم به . . هذا المكان بارد . وحق المسيح انه بارد كالقبو
الذي توضع فيه الخمر . . انه جسر الاحلام . والرجل العجوز الان في
مركز صعب . ولكن لا تسرع في عملك اكثر من اللزوم . كم وددت لو
توقف اطلاق النار الان . فماذا حدث لبيلار الان ؟ لا ريب انها في ورطة .
ولا ريب في ان بعض رجال المركز ، كانوا في الخارج ، وهم الذين لا يزالون

يطلقون النار . اجل هذا يعني ان بعضهم لا زال يقاوم في الطاحونة وقد إتخذوا من اكوام النشارة متاريس يدافعون عن انفسهم وراءها .. وما قضية بابلو .. ولماذا عاد الى اطلاق النار ثانية قبل فترة وجيزة.. لا ريب في أنها سيارة قادمة أو دراجة نارية .. آمل ان لا تصل اية سيارات مدرعة او دبابات فى هذه اللحظة .. هيا اكمل عملك باسرع ما تستطيع ، ولا ترتعد كامرأة وجلى .. ماذا حدث لك ؟ انك تحاول ان تسرع اكثر من اللزوم .. ولا ريب فى ان المرأة هناك ، لا ترتعد كما ترتعد انت .. اجل بيلار .. انها قد لا ترتعد مثلك الان .. ومن المحتمل انها ترتعد ايضا .. يبدو انها في ورطة شديدة ايضا .. وقد ترتعد كما يرتعد أي انسان .

ورفع راسه ليتناول من جديد ما يعطيه له انسيلمو ، وسمع صوت النيران تشتد والقنابل اليدوية تنفجر .. وعادت القنابل اليدوية تنفجر ثانية فقال لنفسه .. لقد هجموا على الطاحونة الان .. وعاد يحدث نفسه .. من حسن حظي ان المتفجرات معي في كتل لا في قضبان . انها اصلح واحسن .. لو ظلت معدات التفجير معي . ولكن ابن العاهرة قذف بها في هذا النهر . اجل ذلك الوغد بابلو .. أعطني كمية أخرى يا رفيق ..!

ان العجوز ينفذ العمل بصورة رائعة . انه جريء ولا يخاف شيئا .. لقد كان كارها أن يقتل الحارس ، وكذلك كنت أنا .. ولكن لم هذا التفكير الان ، وما زال أمامك عمل كثير . لا ريب في ان قتل انسان آخر ، ببندقية اوتوماتيكية ، اسهل منه ببندقية عادية .. انها الطلقة الاولى التي تحتاج اليها .. يا له من راس مفكر عندك يا جوردان .. هيا يا جوردان ،. انك ما زلت صغيراً .. واصغر من ذلك النهر فى منبعه .. كل شيء فى منبعه صغير . وها انت قد وجدت مثواك تحت هذا الجسر .. هيا يا جوردان، ان الامر جد ، الا تفهم ؟ انه جد . وكلما مضيت فى عملك ، كلما قلت خطورته .. انظر الى الجهة الثانية .. مهما حدث الان ؛ فقد نجحت .. سينهار الجسر كما انهار بنو اسرائيل .

وصرخ .. اعطني قليلا ايها العجوز .. لقد كدنا ننتهي ، فحنى الرجل العجــوز راسه .

وانتهى واخذ يلف الاسلاك حول القنابل . لقد انتهى اطلاق النار على الطريق . واستمر يواصل عمله مع صوت النهر . ونظر الى المنحدر ،فراى الماء وكأنه يغلي في الهاوية ، بين الصخور ، وقد انتشر الزبد من اصطدامه بالجلاميد . وراى سمكة تصعد من الماء بحثا عن بعض الحشرات ..وراى الشمس تسطع ألان على سفح الجبل .. وهتف بانسيلمو .. اعطني ربطة الاسلاك الضخمة الان .

وادرك انه انتهى ، فعاد يفحص كل ما عمله ، ليتأكد من نجاحه .. وعاد يسلم ربطة الاسلاك لانسيلمو وهو يقول .. امسكها بشدة ولا ترخها . وصعد الى الجسر فأمسك بالربطة وركض الى الجسر وهو يمد السلك الى المكان الذي كان الحارس قد هوى فيه ..

وصرخ لانسيلمو .. هيا هات الجرابين .. وتناول بندقيته الرشاشة ووضعها على كتفه .. وتطلع الى الوراء ، فراى الرجال قادمين من المركز العلوي .. لقد راى اربعة منهم فقط .. لم يكن ايلاديو معهم .

وركض روبرت ، الى ان وصل الى احدى العلامات الفارقة في الطريق ، فقطع السلك وسلمه الى انسيلمو .. وهو يقول .. امسك به وعد معي الى الجسر .. وعادا فثبته فى احدى القوائم ، ثم قال لانسيلمو .. خذ السلك ثانية الى تلك العلامة ، وامسكه بثبات ، ولكن لا تشده كثيرا ، والا انفجــر الجســر .

اجـــل .

ــ دع السلك ناعما غير مشدود ولكن لا ترخه كثيرا افهمت ؟

أجـــل .

وكان روبرت يتطلع آنذاك الى من بقي من عصابة بيلار .كانوا قد اقتربوا وراى بريمتيفو ورافائيل يسندان فيرناندو .. الذي كان يسير بصعوبة . وكانت بيلار ترتقي الضفة وهي تحمل ثلاث بنادق . ولم يستطع روبرت ان يرى وجهها ، ولكنها كانت تصعد بسرعة .

وقال بريمتيفو .. كيف تسير العملية ؟

ـ حسنا . كدنا ننتهي .

ولم يشعر روبرت بحاجة الى سؤالهم عن وضعهم . كان الثلاثة قد وصلوا الى طرف الطريق ، وكان فيرناندو يهز راسه وهم يحاولون رفعه عن الطريق .

وسمعه روبرت جوردان يقول في صوت مخنوق .. أعطوني بندقية هنا ..

ـ لا سنصل بك الى الجياد .

فقال فيرناندو .. ماذا افعل بالجواد ؟ انني مرتاح هنا .

ولم يسمع روبرت بقية الحديث ، فقد شرع يتحدث الى انسيلمو .. اذا جاءت الدبابات فانسفه . ولكن عندما تصل فوقه . اذا جاءت السيارات المصفحة فانسفه اذا صارت فوقه . أما المشاة ، فيستطيع بابلو وقفهم .

ـ لن انسفه وانت تحته .

ـ لا تهتم بي . انسفه اذا وجدت نفسك مرغما . سأثبت طرف السلك الآخر ثم اعود وننسفه معا .

وشرع يركض متجها الى منتصف الجسر .

وراى انسيلمو روبرت يركض فوق الجسر وقد حمل ربطة الاسلاك فوق ذراعه ، وبندقيته الاوتوماتيكية فوق ظهره ، ورآه يصعد حافة الجسر ويختفي تحته . وامسك انسيلمو بالسلك في يده اليمنى واختفى وراءاشارة الطريق واخذ يتطلع باتجاه الجسر . وراى الحارس القتيل في وسط الجسر وراح يطوف ببصره الى الجانب الاخير منه .واخذ يصغي الى فيرناندو وهو

يتحدث الى بريمتيفو والفجري ، ويقول .. دعوني هنا .. ان الجـرح يؤلمني كثيرا . والنزيف شديد فى الداخل .

ـ دعنا نحملك الى المنحدر . ضع ذراعيك حول كتفينا ، وسنحمل ساقيك

ـ لا فائدة من ذلك . ضعوني وراء حجر هنا . فاستطيع ان اكون مفيدا كمـا لو كنت فوق السفح .

وقال بريمتيفو .. ولكن عندما نذهب .

ـ اتركوني هنا فلا يمكن ان اسافر بهذا الجرح . وهذا يوفر لكم جوادا. وانا اشعر بالراحة هنا . ولا ريب فى انهم سيصلون قريبا .

فقال الفجري .. نستطيع ان نحملك الى الجبل بسهولة .

ولا ريب في ان الفجري كان تواقا للرحيل ، وكذلك بريمتيفو . ولكنهما كانا قد وصلا به الى هنا ، وشق عليهما أن يتركاه .

فقال فيرناندو .. لا .. انا بخير هنا . ماذا حدث لايلاديو .

ووضع الفجري يده على راسه ليشير الى المكان الذي جرح فيه وقال.. هنا ، عندما هجمنا .

فقال فيرناندو .. اتركاني هنا .. ورأى انسيلمو انه يتألم . انه يمسك بيديه بطنه ، وقد مد ساقيه . وكان وجهه شاحبا ، والعرق يتصبب منه

وعاد فيرناندو يقول .. اتركاني هنا ، رجاء .. كانت عيناه مغمضتين من الألم .. انني مستريح هنا .

فقال بريمتيفو .. خذ هذه بندقية وعيارات نارية .

فقال فيرناندو .. اهي بندقيتي ؟

ـ لا . لقد اخذتها . هذه بندقيتي .

ـ كنت افضل بندقيتي ، فانا متعود عليها .

فقال الفجري .. سآتيك بها . خذ هذه الى ان تصلك الثانية .

وعاد فيرناندو يقول .. انا في وضع طيب هنا ، بالنسبة للطريق والجسر وفتح عينيه ، وتطلع الى الجسر وعاد يغمضهما .

وربت الفجري على راسه واشار الى بريمتيفو ليلحق به . وشرعا يصعدان الجبل ، وقال بريمتيفو قبل ان يبتعد عنه .. سنعود اليك .

وكان فيرناندو مستنداً بظهره الى طرف الجبل ، وامامه احدى علامات الطريق الفارقة . وكانت الشمس تسطع باشعتها عليه . والى جانبه بندقيته وثلاثة امشاط من العتاد . وسقطت ذبابة على يده ، فلم يحس بها من شدة المه .

وقال انسيلمو ، من المكان الذي يقعي فيه ، وهو يمسك بيده السلك .. فيرناندو .

ولم يسمع جوابا .. فعاد يقول .. فيرناندو ..

وفتح فيرناندو عينيه ، وتطلع اليه قائلا .. كيف يسير العمل ؟
ـ على ما يرام . بعد دقيقة سننسف الجسر .

ـ يسعدني هذا . اذا احتجتما الي فقولا .. وعاد يغمض عينيه .

وعاد انسيلمو ببصره الى الجسر ، فراى يد الانكليزي ترتفع بربطة الاسلاك ، ثم راى راسه ووجهه . وكان العجوز ينظر في نفس الوقت الى ما وراء الجسر ، فلعل شيئا يصل من الطريق .. أن انسيلمو لم يعد يخاف شيئا . فقد سارت الامور سيراً طبيعيا . واخذ يفكر .. لقد كنت اكره القتل . وقد احسست بشعور غريب عندما قتلت الحارس ولكن هذا قد انتهى الآن . وكيف يمكن للانكليزي أن يقول ان قتل الرجل كقتل الحيوان ؟ كل حياتي التي قضيتها في الصيد ، كنت اشعر دائما باحساس

من الرفعة ، ولم احس بالخطأ . اما اطلاق النار على انسان ، فيبعث في النفس شعورا بالأثم ، وكأن المرء يقتل اخاه .. لا ، لا تفكر بهذا . فقد انتهى كل شيء الان ، وفى وسعك أن تحاول التكفير عن اثمك الجديد ،تماما كما ستحاول التكفير عن آثامك السابقة .. انك الان فى المعركة . وليست امامك اية مشكلة . واذا مت هذا الصباح ، فلا اهمية في موتك ابدا .

وعاد ينظر الى فيرناندو المنبطح على الارض ، وهو يتنفس تنفسا بطيئا وثقيلا . وقال لنفسه .. اذا قدر لي ان اموت ، فكم اود ان يكون موتي سريعا . هذا كل ما ارجوه ، اذا تحقق لنا اليوم ما نريد .. ولكن لا ترج شيئا ؟ افهمت .. لن ارجو شيئا .. كل ما اريده هو ان ننجح ..

واصغى الى الصوت البعيد القادم من مكان ناء . صوت المعركة تدور لاحتلال المضيق ، وقال لنفسه .. حقا انه ليوم عظيم .

ولم يحس بحماس . لقد انتهى الحماس ، وعاد الهدوء الى نفســه . وبينما كان يقعي وراء العلامة الفارقة ، لم يشعر بالوحدة التي سبق له ان احس بها . انه يمسك بسلك طرفه في يده ، والطرف الثاني على الجسر . في المتفجرات التي وضعها الانكليزي . أنه يعمل مع الانكليزي ، الذي مـا زال تحت الجسر ، وهو يشترك الآن في معركة من اجل الجمهورية .

ولكن اين حماسه . لقد اختفى . انه هادىء آلان . والشمس تسطع على عنقه وعلى كتفيه ، ورفع رأسه فرأى السماء الزرقاء الصافية ، ورأى المنحدر من الجبل فوق النهر ، ولم يحس بسعادة. ولكنه لا يشعر بالوحدة أو الخـوف .

وكانت بيلار ، فوق الرابية . منبطحة وراء شجرة وترقب الطريـــق الهابطة من المضيق ، والى جانبها ثلاث بندقيات محشوة . ناولت احداها الى بريمتيفو ، وهو يجلس الى جانبها ، ثم قالت .. اذهـــب وراء تلك الشجرة . وانت يا غجري الى تلك . هل مات ؟

ـ لا . لـم يمت بعـد .

ـ كان الحظ سيئا . لو كان معنا رجلان آخران لما وقع شيء . كان عليه ان يزحف حول النشارة .. وهل المكان الذي تركتماه فيه مريح .

نهـز بريمتيفو راسه .

وقال الغجري من مكانه .. عندما ينسف الانكليزي الجسر ، هل تصل الشظايا بعيدا الينا هنا ؟

ـ لا ادري ، ولكن أوغسطين بمدفعه الرشاش ، اقرب الى الجسر منك. ولو كانت الشظايا تصل اليه لما وضعه الانكليزي هناك .

ـ ولكنني اذكر عند نسف القطار ان الشظايا تطايرت فوق راسي .. كانهـا العصافير .

فقالت بيلار .. ان لك ذكريات شاعرية . كالعصافير .. اسمع يـا غجري ، لقد سلكت سلوكا ممتازاً اليوم ، فلا تتـرك خوفك يتسلط عليـك الآن .

ـ كل ما اردت قوله ان الشظايا اذا كانت تصل الـى هنا ، فساخفي نفسي جيدا وراء جذع الشجرة .

ـ لا تخف .. كم عدد الذين قتلناهم .

ـ خمسة . وهنا اثنان . الا ترين واحدا على هذا الجانب ؟ انظري الى الجسر عند الملاذ . انظري الا ترين ؟ وهناك ثمانية عند بابلو . وقد كنت ارقب ذلك الموقع مـن قبل .

ـ ماذا دها الانكليزي ؟ ماذا يفعل تحت الجسر ؟ هل هو يبني جسر او ينسفـه ؟

ورفعت راسها ، وصرخت الى انسيلمو .. ماذا حدث للانكليزي ؟

فرد انسيلمو .. الصبر يا امراة .. انه ينهي عمله .

ـ ولكن باسم اكبر عاهرة .. لماذا كل هذا الوقت الطويل ؟

ـ انها عملية علمية .

ـ لعنة الله على العلم .. لماذا لا ينسف الجسر وتنتهي .. وصرخت .. ماريا .. ثم شرعت تكيل سيلا من السباب لأعمال الانكليزي الخيالية تحت الجسر .

فصرخ انسيلمو من الطريق .. هدئي روعك يا امراة . انه يقوم بعمل هائل . وقد اشرف على الانتهاء منه الآن .

فصرخت بغضب .. الى الجحيم .. ان السرعة هي المهم .

وفي تلك اللحظة سمعوا جميعا ، صوت اطلاق النار من اسفل الطريق ، حيث كان بابلو يحتفظ بالموقع الذي احتله . وتوقفت بيلار عن الشتائم وهي تصغي .. وقالت .. آه .. آه .. هذا ما كنت اخشاه .

وسمع روبرت صوت الرصاص ، وهو يقذف بربطة الاسلاك ، وبنفسه فوق الجسر ، وعندما اصبح على الحاجز الحديدي ، سمع صوت مدفع عند المنعطف انه صوت يختلف عن صوت بندقية بابلو . ووقف على قدميه ، وشرع يسحب السلك ويمشي على طرف الجسر .

واخذ صوت الرصاص يعلو في اذنيه ، ومضى يقترب منه . وتطلع خلفه الى المنعطف . انه لا يرى سيارة ، ولا دبابة ولا رجالا . وكانت الطريق لا تزال خالية عندما وصل منتصف الجسر . وعندما وصل الى ثلاثة ارباعه كانت الطريق لا تزال خالية ، والسلك يمتد وراءه ، وعندما وصل ملاذ الحارس ، كانت الطريق لا تزال خالية . ووصل الى الطريق ، وكانت لا تزال خالية . واصبح الان مقابل الحجر الذي يقف وراءه انسيلمو .

ثم سمع صوت الشاحنة تهبط الطريق ، ولف السلك على يده وصرخ يا انسيلمو .. هيا انسف كانت الشاحنة لا تزال تهدر على الطريق ، وقد وصلت الى الجسر وسرعان ما صدر دوي هائل ، وارتفع الجسر من وسطه في الهواء ، كموجة هائلة تتكسر على الصخور ، واحس بضغط

الانفجار عندما انبطح على وجهه في الخندق . واخذت السماء تمطر قطعا من الفولاذ .

واحس روبرت انه لا يزال حيا . وكانت الشاحنة قد توقفت وهرع السائق والرجلان اللذان يستقلان السيارة معه ، الى الخندق يبحثون عن ملجأ .

اما فيرناندو ، فكان لا يزال متكئا على طرف الطريق ، وهو يتنفس ، وان كانت ذراعاه قد استرختا الى جانبه .

وكان انسيلمو منبطحا على وجهه وراء الحجر . وقد سقطت ذراعه اليسرى تحت راسه ، وامتدت يده اليمنى وحولها السلك لا يزال مربوطا بمعصمها . وهب روبرت على قدميه ، وعبر الطريق وركع الى جانبه ، فتأكد من انه قد مات . ولم يحاول ان يعرف اين اصابته الشظية .

وخيل الى روبرت ان الرجل يبدو صغيرا في موته .. اجل كان صغيرا اشيب الشعر .. واستغرب روبرت كيف كان هذا الرجل الضئيل الجسم يحمل كل تلك الاحمال الثقيلة . ومضى فحمل غدارة انسيلمو ، والجرابين الفارغين تقريبا الان والبندقية الموجودة الى جانب فيرناندو . واخذيرتقي الجبل نحو الغابة . ولم يلتفت روبرت وراءه كما لم يتطلع الى الطريق وراء الجسر . كانوا لا يزالون يطلقون النار وراء المنعطف ، ولكن لم يعد يحمه شيء الان .

وكان يسعل سعالا حادا ، واحس بخدر في جسمه . ووضع احدى البندقيتين الى جانب بيلار المنبطحة وراء الشجرة .

وقال .. انك في مكان بعيد هنا . فهناك سيارة شحن قادمة من الطريق وليس في وسعك ان تشاهديها من هنا . لقد ظن من في السيارة ، ان الانفجار من الطائرات . من الافضل ان تهبطي قليلا . اما انا فسأنزل مع اوغسطين لنغطي انسحاب بابلو .

وقالت بيلار .. وماذا حل بالرجل العجوز ؟

ــ لقد مات .

وسعل سعالا حادا . وبصق على الارض .

وقالت بيلار . . لا تنس يا انكليزي ان الجسر قد نسف .

ـ انا لا انسى شيئا . ان صوتك عال . فقد سمعت صراخك وانا تحت الجسر . اهتفي لماريا وقولي لها ، انني سليم .

وقالت بيلار ، وهي تحاول أن تفهمه . . خسرنا رجلين عند الطاحونة .

ـ لقد رايت ذلك . هل ارتكبتم خطئا ؟

ـ اذهب عليك اللعنة يا انكليزي لقد كان ايلاديو و فيرناندو رجلين ايضا .

ـ لماذا لا تصعدين الى الجياد ، في وسعي ان اقوم بالتغطية هنا بدلا منك

ـ ولكن عليك ان تغطي انسحاب بابلو . .

ـ ليذهب بابلو الى الجحيم ، ليغط نفسه مع حثالته .

ـ لا . . يا انكليزي . لقد عاد . ولقد قاتل ببسالة هناك . انك لم تسمع شيئا . وهو ما زال يقاتل الان . ضد قوات كبيرة . الا تسمع ؟

ـ ساغطيه . ولكن عليكم اللعنة جميعا ، انت وبابلو معا .

ـ هدىء من روعك يا انكليزي . . لقد كنت معك على طول الخط .دائما وقد اساء اليك بابلو ولكنه عاد .

ـ لو كان معي ادوات الانفجار التي سرقها . لما مات الرجل العجوز . وكان في وسعي ان انسف الجسر من هنا . .

ـ اذا . اذا . اذا .

كان الغضب الذي سيطر عليه . عندما راى ان انسيلمو قد مات . لا يزال يسيطر عليه . وكان لا يزال واقعا تحت سيطرة الالم الذى يتحول عند الجنود الى كراهية من ان ظلوا جنودا . . لقد احس بالوحده الان . . وقد غدا يكره كل ما يراه الان .

وقالت بيلار . . لو لم تكن هناك ثلج . . وفجأة احس روبرت ان شعور

الكراهية بدا في الزوال ، اجل الثلج .. انه المسؤول الاول . انه الثلج الذي ادى الى كل هذا .. انه السبب في ما وقع للاخرين .. واخذ روبـرت يحدث نفسه .. اما وقد رايت الحقيقة بالنسبة الى الاخرين ، كما رايتها بالنسبة لنفسك . فهذا يعني انك قد تغلبت على انانيتك .. وهذا ما يجب ان تفعله في الحرب دائما ، حيث تنعدم النفس والانانية . وسمع بيلار ، وقد بدأ يشعر بأنه اضاع ذاتيته تقول .. سوردو .

فقال .. مـاذا ؟

ـ ســوردو ..

فقال روبرت .. اجل .. على كل إنسي ما قلته . لقد كنت مخطئا .. انا آسف يا امراة . فعلينا ان نكمل العمل الان بدقة معا .. وها هو الجسر قـد نسف كما تقولين .

ـ اجل فعليك ان تفكر في اشياء اخرى الان .

نعم . سأمضي الى اوغسطين الآن . ودعي الغجري يهبط . حتى يستطيع ان يرى راس الطريق . اعط هذه البنادق الى بريمتيفو . وخذي هـذه البندقية الرشاشة .. دعيني اعلمك .

ـ دع البندقية الرشاشة .. لن ننتظر طويلا هنا . لا شك في ان بابلو سيصل الآن ، وسنمضي مـن هنا .

فقال روبرت .. رافائيل ، تعال معي.. هنا . حسنا . هل ترى هؤلاء الذين يخرجون من الخندق . هناك فوق الشاحنة ؟ يسيرون باتجاهها . اصب واحدا منهم . اجلس . خذ الامر ببساطة .

وصوب الغجري بندقيته الى الرجال الثلاثة ، وانطلقت الرصاصة ، لم تصب ايا منهم وقال روبرت .. لقد اصبت الصخرة فوقهم . يجب أن تصوب قدمين الى الاسفل . الآن . بعناية انهم يركضون حسنا .. اطلق.

فقال الغجري . لقد اصبت احدهم . وفعلا سقط واحد منهم بين الخندق والشاحنة . ولم يتوقف الاخران ليسحباه بل عادا يهربان الى الخندق ويختفيـان فيـه .

وقال روبرت .. لا تطلق النار عليه .. بل أطلقها على اطار السيارة . فاذا لم تصب الاطار اصبت الآلة . حسنا اخفض هدفك قليلا .. رائع . انك تصيب على احسن ما يكون . اطلق راس خزان السيارة . انك بطل . ارايت . لا تترك شيئا يمر من تلك النقطة هناك . ارايت ؟

وقال الغجري فرحا .. لاحظ ، ساحطم حاجز السيارة .

فرد روبرت .. لا . لقد أصبت السيارة . وفر رصاصاتك الى ان تاتي سيارة جديدة فى الطريق . ابدأ باطلاق النار عندما تصل الى الخندق . حاول اصابة السائق . وآنذاك اطلقوا النار جميعا .. ووجه هذه المرة كلامه الى بيلار ، التي هبطت مع بريمتيفو .. واضاف .. ان مكانكم رائع هنا ، فالمنحدر يحمي جناحكم .

فقالت بيلار .. هيا ، اكمل مهمتك مع اوغسطين ، ولا تلق محاضرة علي ، فقد رايت مناطق جبلية من قبل .

فقال روبرت .. ضعي بريمتيفو هناك . هناك يا امراة .

فقالت بيلار .. اتركني ، وامضي يا انكليزي . عليك اللعنة وعلى اتقانك فنحـن لسنا في مشكلة .

وسمعوا فى تلك اللحظة صوت الطائرات . وهي تهدر فوق رؤوسهم .

كانت ماريا قد قضت مع الجياد حتى الآن وقتا طويلا ، ولكن هـذه الجياد ، لم تبعث فى روحها التسلية والمتعة . كما انها هي لم تبعث في نفوس الجياد أي تسلية . ولم يكن في وسعها من المكان الذي تقف فيه ، في الغابة ، ان ترى الطريق او الجسر ، وعندما بدأ اطلاق النار ، طوقت

بذراعيها عنق الحصان الابيض ، الذي كانت تخصه بهداياها ، عندما كانت تزور الجياد وهي في حظيرتها عند المعسكر . ولكن ما تحس به ماريا من عصبية ، حمل الجواد ، على ان تثور اعصابه ايضا ، فاخذ يهز راسه ، وقد اتسع منخراه ، وهو يسمع صوت اطلاق العيارات النارية وتفجير القنابل . ولم تستطع ماريا ، أن تظل هادئة ، بل واصلت السير جائلة حول الجياد ، تربت على هذا وتداعب ذاك ، فتثيرها كلها .

وارادت ان تفكر باطلاق النار ، لا على اساس انه امر مفزع بل على اساس انه بابلو وجماعته من القادمين حديثا في مركزهم البعيد ،وبيلار مع رفاقها عند المركز الآخر ، مبعدة افكارها عن ان يكون قد حدث شيء لروبرتو الذي وضعت فيه كل ثقتها . ولكنها لم تستطع ان تبعد فكرها عنه ، مع هذه الاصوات التي تصل الى اذنيها من عيارات نارية تنطلق هنا وهناك وعلى الجسر ، ومن قنابل تنفجر بعيداً في ميدان المعركة الدائرة عند المضيق ، وظلت هذه الاصوات تحول بينها وبين التنفس .

وسمعت فيما بعد صوت بيلار العالي ، يصرخ ببعض الشتائم والسباب ولم تستطع ان تفهم شيئا .. واخذت تفكر .. آه ، يا الله ، لا . لا . لا تتحدثي هكذا عنه وكأنه في خطر . ولا تسيئي لانسان . وتقومي بمخاطرات لا تجدي ولا تنفع .. اجل لا تستفزي أحدا .

وبدات تصلي لروبرت بسرعة وبصورة رتيبة ، كما كانت تصلي وهي في المدرسة . انها تصلي بسرعة ، وتعد صلواتها على أصابع يدها اليسرى ، مكررة الصلاتين اللتين تعرفهما عشرات المرات . ثـــم انفجر الجسر ، واقتلع احد الجياد رباطه ، ومضى بين الاشجار . واعادت ماريا القبض على الحصان ، وارجعته الى مكانه وهو يرتجف ، وقد تصبب العرق على صدره وسمعت صوت عيارات نارية .. واخذت تحدث نفسها .. لا استطيع ان اتنفس ، لا استطيع ان احتمل اكثر .. لقد جف حلقي .. وانا خائفة ، ولا اصلح لشيء ، فانا اخيف الجياد .. وها قد فر واحد منها ، وعدت

فامسكت به .. آه يا الله انا لا ادري . لا أستطيع أن احتمل اكثر . يا رب احفظه لي ، رحمة بي وبقلبي . فالجمهورية شيء واحد ، وان ننتصر شيء آخر .. ولكن بحق العذراء اعده الي من الجسر ، وسأنفذ يا رب كل ما تطلبه مني . فأنا لست هنا الآن ، وليس هناك شيء هو انا الان . انني معه اعن به يا رب من اجلي ، لانه أنا ، وسأنفذ لك كل شيء . وبالطبع لن يكون ما انفذه ضد الجمهورية .. اغفر لي يا رب . فانا مرتبكة الآن . اما اذا عنيت به فسأنفذ كل ما هو حق . وسأنفذ كل ما يأمرني به ، وكل ما تأمرني به انت . اجل سأنفذه بكل ما في نفسينا معا من قوة . ولكنني الان لا استطيـــع الاحتمـــال .

وسمعت صوت بيلار يرتفع ثانية ويقول .. ماريا ، ماريا !! ان انكليزيك بخير ، هل سمعت ؟.. حسنا .

وبدات ماريا تبكي ، وقد امسكت بسرج الجواد بيديها .. وسمعــت الصوت يصرخ ثانية .. فهتفت .. نعم .. شكرا ، وخنقتها العبرات .. وهي تقول .. شكرا . شكرا جدا .

وعندما سمعوا صوت الطائرات ، رفعوا رؤوسهم ، فرأوها قادمة من ناحية سيفونيا ، وهي محلقة عاليا ، فضية في كبد السماء ..

وقالت بيلار .. آه .. هذه الطائرات .. لم يكن ينقص علينا الا ان تجيء هذه . ووضع روبرت ذراعه على كتفيها وهو يرقبها وقال .. لا يـا امراة ، انها ليست قادمة من اجلنا ،.. اذ لا وقت معها لتضيعه علينا . هدئي مـن روعك .

ـ انني اكرههـا .

ـ وانا ايضا . ولكن يجب ان اذهب الان الى اوغسطين .

وقام بدورة واسعة بين الاشجار ، والطائرات تحلق فوقه ، وعلى الطريق

بدا يسمع نيران المدافع الرشاشة

وهبط روبرت بجانب اوغسطين ، وراء المدفع الرشاش ؛ وكانت الطائرات ما تزال تتوافد باعداد كبيرة.

وقال اوغسطين .. ماذا يحدث هناك ؟ ماذا يعمل بابلو ؟ ألا يعرف ان الجسر قد نسف . الا يدري ان الجسر قد نسف ؟

ـ ربما تعذر عليه الوصول الينا .

ـ اذن فلنغادر ، وليذهب الى الجحيم .

ـ لا ريب فى انه سيصل الان اذا استطاع . ولا بد ان نراه الان .

ـ لم اسمع شيئا منه منذ خمس دقائق . لا . ها هو . اصغ . ها هو .

وقال روبرت جوردان .. اجل ، ها هو الوغد .

وتطلع الى السماء ، ورأى مجموعات جديدة من الطائرات تمر فوق راسه ثم تطلع الى اوغسطين ، فالى الجسر المحطم ، والى الطريق القائمة وراءه. وعاد يسمع دوي المدافع وراء المنعطف .. انها فى نفس المكان الذي سمع منه الصوت اولا .

وقال اوغسطين يسأله .. ما رايك ؟ ما هذا الذي تسمعه ؟

ـ انه نفس الصوت حتى قبل ان انسف الجسر .. وتطلع الى مكان النسف فرأى النهر المنساب فى الوادي تحت الجسر .. وسمع صوت الطائرة الاولى التي مرت من فوقهم تلقي بقذائفها هناك عند المضيق .. وما زالت الطائرات تتوافد ، ويملأ هديرها السماء ، ورأى حولها الطائرات المطاردة ، تدور وتحوم .

وقال بريمتيفو .. لا اعتقد انهم قد اجتازوا الخطوط هذا الصباح . واعتقد انهم عادوا الى التراجع غربا عندما راوا هذه الطائرات .

وقال روبرت .. أن معظم هذه الطائرات جديد .

كان يحس بشعور غريب ، هو شعور الانسان الذي يرى شيئا يبدأ بداية عادية ، ثم ينتهي الى نتائج ضخمة كبيرة غير متوقعة . اجل كذلك الانسان الذي يلقي حجرا ، فيئز الحجر في الهواء ، وكأنه يحدث موجة من المد . او كذلك الانسان الذي يطلق صوتا ، فيردد الصدى هذا الصوت على شكل هدير كهدير الرعد . او كذلك الانسان الذي يصرع رجلا ، فسرعان ما يهب امامه عدد ضخم من الرجال ، وكلهم مسلح ومدرع بالدروع . وقد سر كثيرا لانه لم يكن مع غولز عند المضيق .

وظل منبطحا فى مكانه على مقربة من اوغسطين ، يرقب الطائرات وهي تمر فوقه ، ويصغي الى اطلاق النار وراءه ، ويلاحظ الطريق ، حيث يتوقع في كل لحظة أن يرى شيئا جديدا ، لا يعرف كنهه . وكان لا يزال واقعا تحت تأثير الدهشة البالغة من انه لم يقتل عند الجسر . وكان قد تقبل فكرة القتل والموت تمام القبول ، حتى انه راى في كل شيء الآن امرا غير واقعي . وعاد يحدث نفسه .. هيا ، ابعد عن فكرك هذه الخيالات . تخلص منها . فما زال امامك الكثير لتعمله اليوم . لكن هذه الافكار السوداء لا تبرحه . وشعر بان كل ما يراه لا يعدو أن يكون حلما .

لقد ابتلعت الكثير من هذا الدخان .. ولكن ليس هذا هو السبب .. فهو يحس بان كل ما مر به لا يمت الى الحقيقة بصلة ، الحقيقة المتئنة ، عاد يمر بنظره على الجسر الذي هوى ، والحارس الذي قتل ، وانسيلمو الذي مات ، وفيرناندو المتكيء على حافة الطريق ، والسيارة الشاحنة ، وعلى الرغم من كل ما رآه ، فقد ظل هذا المنظر غير واقعي ..

وقال لنفسه .. من الخير ان تتخلص من هذا الشطر من وجودك بسرعة .. فانت مثل هذا الانسان الذي اصيب بجراح ،ولكنه لا يدري اين الجرح الذي اصيب به ، وان كانت برودة الموت تسري فى اوصاله .

وعاد يقول لها .. لا ، انك لست الا انسانا ثملا ، استرخى بعد المسؤولية الضخمة التي كان يحس بها .. خذ الامور هنية .

واحس باوغسطين يمسك بذراعه مشيرا الى ناحية . فتطلع عبر المضيق وراى بابلو . .

كان بابلو يركض دائراً حول منعطف الطريق . ورآياه يتوقف قليـــلا ويتكىء على صخرة . ثم يطلق النار على الطريق . اجـــل راى روبرت جوردان ، بابلو بجسمه القصير الضخم . وقد طارت قلنسوته عن راسه ، وهو يتكىء على الصخرة ، ويطلق النار من بندقيته الرشاشة التي اخذها من الفارس . ثم رآه يزحف ثانية ويستدير فيطلق دفعة ثانية من الرصاص ثم رآه يركض دون ان يتطلع خلفه ، مستهدفا الجسر .

وكان روبرت قد ازاح اوغسطين بيده وتسلم زناد المدفع الرشاش الكبير وصوبه الى منعطف الطريق . . وكان بابلو يدنو منهما ، وظل بابلو يرقب المنعطف فلا يرى شيئاً . وعندما وصل بابلو الجسر ، عاد فتطلع وراءه ، ورنا الى الجسر ببصره ثم هبط الى المضيق ، واختفى . وظل روبـــرت يرقب المنعطف فلا يرى شيئا . واقعى اوغسطين على ركبة واحدة وهو يرى بابلو يتسلق وكأنه احد الماعز . وكان صوت اطلاق النار قد توقـــف منذ رايا بابلو اول مـــرة .

وقال روبرت يسأله . . اترى شيئا هناك على الرابية ، على الصخور ؟

ــ لا ارى شيئـــا .

وظل روبرت يرقب المنعطف ، وكان يعرف أن الجدار مرتفع في تلك الناحية ، لا يستطيع انسان ان يرتقيه ، ولكنه ينحدر وراء ذلك ، وفي وسع اي انسان أن يدور حوله .

واذا كانت الامور بعيدة عن الحقيقة في الماضي ، فقد غدت فجاة حقيقة واقعية . وبدت الحقيقة تنجلي امامه ، وكأنها عدسة عاكسة تدور الى ان وجدت مركزها . وراى آنذاك ، فوهة مدفع تبدو من المنعطف وينعكس عليها ضوء الشمس ، فأطلق عليها النار ، وابصر بالشظايا تتطاير بعد أن

اصطدمت بفوهة المدفع وبفولاذ الدبابة . وعادت الدبابة الى الاختفاء وراء الصخور . ثم راى روبرت انفها يعود الى الوراء ، وبرجها يستدير الى ان استهدف الطريــق .

وقال اوغسطين .. انها تبدو كفار ينطلق من حجره .. انظر يا انكليزي.

ـ ان سائقها خائف ، ولا يثق بنفسه .

فعاد اوغسطين يقول .. هذه هي الحشرة الكبيرة التي كان بابلــو يحاربها .. اطلق النار عليها ثانية يا انكليزي .

ـ لا ، فليس في وسعنا أن نفعل له شيئا ، ولا اريد منه ان يرى مكاننا .

وعادت الدبابة تطلق النار على الطريق ، وتنطلق نيرانها وتصيب حديد الجسر . انه نفس الصوت الذي كانوا يسمعونه في السابق .

وقال اوغسطين .. يا له من جبان .. هل هذه هي الدبابة المشهورة يــا انكليــزي ؟

ـ انها دبابة من النوع الصغير .

ـ جبان . لو كانت لدي زجاجة صغيرة ملأى بالكاز ، لتسلقت عليهــا واحرقتها . ماذا سيصنع يا انكليزي ؟

ـ انه سيستانف التطلع من جديد .

ـ وهل هذا ما يخاف منه الجنود ؟ انظر يا انكليزي ؟ انه يعيد قتــل الحــراس .

ـ ما دام لا يجد هدفا آخر ، فلا تلمه .

ولكنه اخذ يفكر . لماذا السخرية منه . فلو كنت انت في مكانه ، في بلادك ورايتهم يتصدون لك باطلاق النار عليك في بلادك . ثم سمعت صــوت جسر ينسف ويتحطم . او لا يخطر ببالك ان الالغام قد وضعت مــن

قبل ، أو ان هناك شركا . طبعا ، هذا ما سيخيل أليك . لقد احسن صنعا حتى الان . انه ينتظر وصول نجدات . وهو يشتبك مع العدو ، مجرد اشتباك ليعرقله ويمنعه من الفرار ، وبالطبع ، لا يستطيع ان يشرح لـك ذلـك .

واستدارت الدبابة الصغيرة لتستهدف مكانا ابعد حول الزاوية .

ورأى اوغسطين بابلو في تلك اللحظة ، يخرج من حفة الهاوية ، وهـو يزحف على يديه ورجليه ، والعرق يتصبب منه .. وقال .. ها قد وصل ابـن العاهـرة .

ـ مـن ؟

ـ بابلـو .

والتفت روبرت جوردان ، فرأى بابلو ، واخذ يطلق النار على برج الدبابة وعادت الدبابة فانسحبت الى الوراء ، وحمل ..برت مدفعه الرشاش على كتفه ، وكان انبوبه لا يزال حاراً حتى انه احرق كتفه .. وقال .. احمل امشاط المتاد وبندقيتي الصغيرة .. واركض فوراً .

وركض روبرت جوردان الى الجبل عبر اشجـار الصنوبر . ووراءه اوغسطين يتلوه بابلو .. وصرخ جوردان .. بيلار .. هيا يا امراة .

واخذ ثلاثتهم يصعدون راكضين باسرع ما يمكنهم سفح الجبل . ولحق بابلـو بهـم ..

وقال اوغسطين بصوت جاف .. وماذا حل برجالك ؟

فقال بابلو وهو لا يكاد يستطيع ان يتنفس .. ماتوا جميعا . والتفت اليه اوغسطين ، وقال بابلو وهو يلهث .. لدينا الكثير مـن الجياد ، يـا انكليزي الان .

فقال روبرت جوردان .. حسنا .. واخذ يفكر فى هذا الوغد القاتل .. ثم قال له وماذا صادفك في طريقك ؟

ـ صادفت كل شيء ، وماذا حدث لبيلار ؟

ـ فقدت فيرناندو والأخ .

فقال اوغسطين .. ايلاديو .

وقال بابلو يسأله .. وانت ؟

ـ فقدت انسيلمو .

ـ اذن فلدينا الكثير من الجياد الآن .. عدد يكفي حتى لحمل المتاع .

وعض اوغسطين شفته وتطلع الى روبرت جوردان ثم هز راسه . وكانت الدبابة تطلق نيرانها من الاسفل على الجسر وعلى الطريق ثانية .

وهز روبرت جوردان راسه وقال .. ماذا حدث لك مع هذه الدبابة ؟ وكان لا يريد ان يتطلع الى بابلو ، ولا ان يشم رائحته ، ولكنه اراد ان يسمعه .

فقال بابلو .. لم استطع ان اغادر مكاني مع وجود الدبابة . وكنا قد اقمنا متاريس لنا في المنعطف الاسفل . واخيرا عادت الى الوراء ،وجئت انا

وقال اوغسطين .. وعلى ماذا كنت تطلق النار عند المنعطف ؟

فتطلع اليه بابلو ، وقطب حاجبيه ثم فكر قليلا ، ولم يجب .

وعاد اوغسطين يسأله : هل قتلتهم جميعا ؟.. وكان روبرت يفكر .. امن الخير ان يغلق فمه . فالامر لا يعنيه الان . فقد قاموا بواجبهم واكثر من الواجب . وهذه مشكلة داخلية محض .. اذن لا تتدخل .. ولا تبن احكاما اخلاقية . اذ ماذا تنتظر من قاتل . انك تعمل مع قاتل . اغلق فمك وقد عرفت عنه ما فيه الكفاية . فهذا ليس بالجديد بالنسبة اليك . ولكنه ، وغد سافل .

وكان صدره ، يكاد يضيق من الصعود ، ويتفجر من الركض ، ورأى امامه الجياد . وسمع اوغسطين يقول .. قل .. لماذا لا تعترف انك قتلتهم ؟

فقال بابلو .. اغلق فمك . لقد قاتلت كثيرا اليوم وابليت بلاء حسناً .
اسأل الانكليزي .

وقال روبرت جوردان .. والان عليك ان تتولى القيادة . فانت
صاحب الخطة .

فرد بابلو ــ عندي خطة رائعة ، اذا ساعدنا الحظ قليلا ، نجونا جميعا.

وكان تنفسه قد بدأ ينتظم .

وقال اوغسطين .. وطبعاً لن تقتل احداً منا . اذ انني ساقتلك الان .

فرد بابلو .. اغلق فمك .. علي ان اهتم بمصالحك ، ومصالح العصابة.
فهذه هي الحرب ولا يستطيع كل انسان ان يفعل فيها ما يشاء .

فقال اوغسطين .. ايها الجبان .. انك تنال كل الجوائز .

فقال روبرت موجهاً حديثه الى بابلو .. قل لي ماذا واجهت هناك ؟

ــ كل شيء .. كان لا يزال يتنفس بصعوبة ، ولكن حديثه اصبح ثابتا
الان ، واخذ العرق يتصبب من راسه ووجهه ، وتطلع الى روبرت بحذر
ليرى اذا كان حقا ودودا ثم قطب جبينه وقال .. كل شيء . اولا احتللنا
المركز . ثم جاءت دراجة نارية ، فدراجة ثانية ، فسيارة اسعاف .
فسيارة شحن . ثم جاءت الدبابة وكل ذلك قبل ان تنسف الجسر .

ــ وبعد ذلك .

ــ لم تستطع الدبابة ان تلحق بنا اي اذى ولكننا لم نستطع مغادرة
مواقفنا اذ انها كانت تسيطر على الطريق ، ثم مضت ، فقفلت عائدا .

وقال اوغسطين وهو لا يزال يبحث عن المشاكل .. ورجالك ؟

وعاد بابلو يقول .. وقد احتد .. إخرس لم يكونوا من عصابتنا .

واصبحوا يرون الجياد امامهم ، والشمس تصل اليهم مخترقة بأشعتها
غصون الاشجار . ورأى روبرت جوردان ماريا ، وسرعان ما ضمها الى

صدره ، والبندقية الرشاشة تضغط الى جانبه .. وماريا تقول .. انت يــا روبرتو .. انت .

ــ اجل يا ارنبتي . يا ارنبتي الرائعة . والان هيا بنا .

ــ هل انــت هنــا حقا ؟

ــ اجل . اجل . حقا .

انه لم يكن يعرف ان هناك امراة ، وهو يخوض المعركة ، ولم يكـــن ليستجيب لافكاره نحوها . ولم يكن يتصور ، حتى لو وجدت هذه المراة ، ان لها مثل هذين الثديين الناهدين الرائعين ، وهما يكادان يندفعان مــن القميص الذي تلمسه . ولكنهما موجودان ، وها هو يحس بهما . وهــذا امر حسن . انه لم يكن ليصدق نفسه . وعاد يضمها ، اليه ثانية بقوة دون ان ينظر اليها ثم ضربها بيده ، حيث لم يجرؤ من قبل ان يضربها ، وقال .. هيا استقلي الجواد . يا حلوة .

واخذوا يحلون قيود الجياد ، واعاد روبرت المدفع الرشاش الى اوغسطين ثم حمل بندقيته الرشاشة على ظهره ، واخذ يفرغ جيوبه من القنابل اليدوية ويضعها في جراب السرج . وسرعان ما جاءت بيلار ، وقد تقطعت انفاسها من الصعود ، ولم تستطع الكلام .

وسرعان ما استقل الجميع الجياد ، وكان روبرت يمتطي الجواد الاشهب الكبير الذي كان اول ما رآه في يوم الثلج . واستقلت بيلار جوادا وضعت عليه بعض الاغصان لتغطية سرجه فقال بريميتيفو .. بحق السماء .. ضعي تلك الاغصان عن الجواد فلن تستطيعي ان تركبي فوقها وستسقطين .

ــ اخرس .. ان هذه الاغصان ستنفعنا كثيراً .

وقال بابلو .. هل تستطيعين الركوب على هذا النحو يا امراة ؟

ــ تماما ، كأية بائعة حليب .. من اين طريقنا ؟

ـ سنهبط ، عبر الطريق ، ثم نصعد المرتفع البعيد من الناحية الاخرى الـى الغابـة .

فقال اوغسطين وقد حاذاه على جواده .. هل نعبر الطريق ؟

ـ اجل يا رجل ، انها الطريق الوحيدة .. ومضى بابلو يقول .. فـي وسعك ان تسير في المؤخرة يا انكليزي . سنصعد الى مكان مرتفع بحيث نبعد عن مدى نيران ذلك المدفع . وسنمضي فرادى ، ثم نعود الى الاجتماع فـي الغابـة .

فقال روبرت .. حسنـا .

وهبطوا عبر الاشجار الى حافة الطريق . وكان روبرت يسير بجواده وراء ماريا ، اذ لم يكن باستطاعته ان يسير محاذيا لها بسبب الاشجار .

وقال لماريا .. كوني الثانية عندما يعبرون الطريق . فالاول يتعرض لبعض الخطر ، اما الثاني فيكون دائما في منجاة . ويتعرض الاخيرون دائمـا لعين المراقبين .

فقالت ماريـا .. وانت ؟

ـ سامر فجاة .. لن تكون هناك مشكلة . اما المشكلـة فسنواجهها عندما نصل الى الخطوط .

وكان يتطلع الى راس بابلو المدور وقد غطس بين كتفيه ، بينما تعلقت بندقيته الاوتوماتيكية بكتفه . ونظر الى بيلار براسها العاري وكتفيها العريضتين .. وتطلعت اليه وهزت راسها .

فقال روبرت لماريا .. دعي بيلار تمر قبلك على الطريق .

ونظر امامه عبر الاشجار ، فراى الطريق ووراءها سفح الجبل الاخضر . وراى انهم قد غدوا فوق الخندق ، وتحت المرتفع ، الذي تنخفض الطريق عنده ، ماضية نحو الجسر ، ونحو الوادي . وقال لنفسه ، اننا على ارتفاع نحو من ثمانمائة ياردة فوق الجسر ، وهي مسافة تجعلنا فى مدى اطلاق

النار من مدفع « فيات » الموجود في تلك ألدبابة الصغيرة ، اذا كانت قد وصلت الى الجسر .

وقال .. ماريا .. هيا انت وبيلار ، ومرا قبل ان نصل الى الطريق .

ونظرت اليهولم تحر جوابا . ولم ينظر اليها آلا ليتاكد من انها قد فهمت كلامه .

فقال لها ـ هل فهمت ..؟

واحنت راسها بالايجاب .

ـ اذن هيا ، تحركي .

فهزت راسها .

ـ هيا ، تحركي !

ـ لا ، لن اذهب ، الا في المكان الذي يجب ان اذهب فيه .

وفي تلك اللحظة . دق بابلو مهمازيه في بطن جواده ، فمضى ينهب الارض قاطعا المسافة التي بقيت امامه من المنحدر ، وعابرا الطريق الى الجانب الاخر ولحق به الاخرون ورآهم روبرت جوردان ، يجتازون الطريق ، ويمضون خببا في الطريق الصاعد من الناحية الاخرى ، بينما انطلقت نيران المدفع الرشاش من ناحية الجسر . وسرعان ما راى الطلقات النارية تتساقط على الارض ، فينتصاعد من جراء اصطدامها غبار التراب .

وتوقف الفجري امامه قرب الطريق وراء الاشجار الاخيرة .. وتطلع الى روبرت جوردان .. فقال له هذا .. هيا يا رافائيل .. افر بجوادك ..

كان الفجري يمسك بزمام جواد آخر يحمل بعض المتاع ويجره وراءه .

فقال روبرت .. اترك زمام الجواد الثاني ، وامض خببا بجوادك .

وراى الفجري ، يرفع يده شيئا فشيئا ، ويطلق سراح الجواد الثاني

بينما ، دق مهمازيه في الجواد الذي يمتطيه ، وسرعان ما رآه يجتاز الطريق بجواده ، الذي اخذت حوافره تدق الارض .

وانطلقت دفعة جديدة من الرصاص ، ورأى العيارات تنهال قسرب الفجري وامامه ووراءه . ولكنه رآه يواصل الاغارة بجواده مرتقيا المنحدر الاخضر ، واصبح في نجوة من الخطر ، وراء كتف الرابية مع الاخرين .

وقال روبرت لنفسه .. لا استطيع ان آخذ الحصان الثاني المحمل بالمتاع معي ، وان كان باستطاعتي ان اجعله بيني وبين هدف ذلك المدفع الذي يطلقونه . من عيار ٤٧ مليمترا .. على كل حال ساحاول ان امر به .

ومضى الى الجواد الاخر فامسك به . وقاده من زمامه والجواد يركض خببا وراءه ، ثم سار نحوا من خمسين ياردة عبر الاشجار . وعندما وصل الى نهاية الاشجار . ، القى بنظرة الى الطريق وراء الشاحنة ، باتجاهالجسر ورأى عددا من الناس على الجسر ووراءه ، وكانت المواصلات قد توقفت هناك على الطريق . وتطلع روبرت جوردان حوله ، فابصر بما اراد اخيرا، ثم قطع غصنا ذابلا من شجرة صنوبر ، وضرب الجواد الذي يحمل المتاع به . وقال .. هيا يا أبن العاهرة ، ثم قذفه بالغصن وهو يعبر الطريق الى المنحدر ..

ومضى روبرت ثلاثين قدما اخرى مرتفعا مع الطريق ، حيث يصبح جانبها عاليا ، ثم همز جواده ، ببطنه .. وقال .. هيا ايها الجواد الفاشي، ومضى في غارة سريعة . يهبط المنحدر . وسرعان ما غدا مكشوفا في الطريق التي اصبحت قاسية تحت قدميه . واحس بثقل الارض .والجواد نقطعها ، متجها الى المنحدر . وتطلع الى المكان الذي يقوم فيه الجسر . فرآه الان من زاوية لم يره منها من قبل . ورأى المكان المحطم من الجسر ، ووراءه تقف الدبابة الصغيرة ، ووراءها دبابة كبيرة ، ارتفع مدفعها الكبير الاصفر ، مضيئا في الشمس ، وكأنه مرآة .. وعاد بنظره الى الامام فرأى جواد المتاع ، وقد خف سيره ، ثم عاد ينظر الى الجسر فرأى صفا طويلا

من الشاحنات . ورای النور يتصاعد من فوهة المدفع مشيرا الى انطلاق القذيفة التي سقطت قريبا منه وقد اطارت كمية كبيرة من التراب في الهواء

ورآهم جميعا امامه في طرف الغابة ينتظرون وصوله . وهمز جواده من جديد فانطلق مهرولا نحو المنحدر ، وعاد بنظره الى الوراء ، وابصر القذيفة تنطلق ، ولم يعد يبصر شيئا ، وانما رای نفسه تحت الجواد الاشهب ، وهذا الجواد يضرب بقدميه بينما يحاول هو الخلاص من تحت وطاة الجواد

في وسعه ان يتحرك .. باتجاه اليمين ، اما ساقه اليسرى فقد ظلت تحت الجواد وكان لها مفصلا جديدا . ليس المفصل القائم في الورك بل في مكان آخر واخذ يحس بعظام ساقه في المكان الذي احس انها خلقت منه .

ووقف الجواد فوقه ، ورای صدره يعلو ويهبط . وكان المكان الذي يجلس فيه مليئا بالخضرة ، وبين الاوراق الخضراء ازهار مختلفة ، وعاد بنظره الى المنحدر ، والى الطريق والجسر والهوة ، ورأى الدبابة في مكانها، وانتظر القذيفة الثانية . وسرعان ما انطلقت القذيفة ، ومع انفجارها ، وانطلاق رائحة الديناميت منها ، رای الجواد الاشهب الكبير ، يعود فيجلس الى جانبه . وكانه حصان من خيول « السيرك » . وسرعان ما اخذ يصغي الى الصوت الصادر عن الجواد .

وسرعان ما كان بريمتيفو واوغسطين يسحبانه من ابطيه المسافة الباقية من المنحدر ، ورای مفصل رجله الجديد ، يجر على الارض . وانطلقت قذيفة ثالثة ، فقذفاه من ايديهما وانبطحا على الارض ، ولكنها لم تصب هدفها ،وعادا يرفعانه من جديد حتى وصلا به الى الملجأ الامين بين الاشجار حيث تقف الجياد ، وتقف ماريا وبيلار وبابلو الى جواره .

وركعت ماريا الى جانبه وهي تقول .. روبرتو .. ماذا اصابك .

فقال والعرق يتصبب منه .. لقد كسرت ساقي اليسرى يا حلوة .

فقالت بيلار .. بنشدها . او لا تستطيع ان تركب هذا .. واشارت

الى احد الجياد وكان محملا بالمتاع وقالت .. أنزلوا المتاع عنه .

ورای روبرت جوردان ، بابلو وهو يهز راسه فاشار اليه .. تعال يـا بابلو .. اسمع ، اقترب مني .

ودنا الرجل ، وقد تصبب العرق من جبينه ، وشم روبرت جوردان ، رائحته القذرة منبعثة منه .. وقال باباو .. هل تشعر بالم شديد .

ـ لا ، اعتقد ان العصب قد انقطع . أصغ الي . امض مع الجماعة . واتركوني ، فأنت ترى انني انتهيت . دعني اتحدث الى الفتاة لحظة واحدة وعندما اقول لك خذها ، يجب ان تاخذها . انها ستحاول طبعا البقاء . وسأتحدث اليها لحظة واحدة .

فقال بابلو .. من الواضح ان الوقت قصير معنا .

ـ طبعـا .

وعاد روبرت يقول .. واعتقد انك اذا ذهبت الى الجمهورية ، كـان هذا اصلح واجـدى .

ـ لا ، انا ذاهب ألى غريدوس .

ـ استعمل عقلـك .

فقال بابلو .. حدثها الان . فالوقت ضيق . وانا اسف لما وقع يـا انكليـزي .

ـ ما دام قد وقع ، فعلينا ان لا نتحدث عنه . ولكن استعمل عقلك . فلديك عقل كبير ، استعمله .

ـ ولم لا استعمله ؟ تحدث بسرعة الان يا انكليزي . فليس لدينا وقت.

ومضى بابلو الى اقرب شجرة ، واخذ يرقب المنحدر ، وما وراءه حتى الطريق . وكان ينظر الى الحصان الاشهب الكبير ، وفي عينيه علائم الاسى

وجلست بيلار وماريا الى جانب روبرت حيث اتكأ الى جذع شجرة .

وقال لبيلار .. اقطعي سروالي من فضلك .. واقعت ماريا الي جانبه

لا تتكلم . واخذت اشعة الشمس تنعكس على شعرها ووجهها الذي كـان يبدو وكأنه وجه طفل على وشك البكاء . ولكنها لم تكن تبكي .

وانتضت بيلار مطواتها وشقت السروال تحت الجيب . وازاح روبرت جوردان القماش بيده وتطلع الى فخذه المهشم . رأى العظام وقد تناثرت، والتصق بعضها بجلده . وكانت ساقه تؤلف مع فخذه زاوية غريبة .. وتطلع الى بيلار .. فرأى على وجهها عين الملامح التي رآها في وجه ماريا.

وقال لبيلار .. اذهبـي .

فمضت بعيدة عنهما وقد احنت رأسها دون ان تقول شيئا ودون ان تنظر خلفها .. ورأى روبرت ان كتفيها يرتعدان .

وقال روبرت لماريا وقد امسك بيديها الاثنتين.. يا حلوة .. اسمعي لن نذهب الـى مدريد ..

ورآها تنفجر باكية ..

وقال .. لا ، يا حلوة ، لا تبكي . استمعي الي .. اننا لن نذهب الـى مدريد الان ، ولكنني ساذهب دائما معك اينما تذهبين . هل فهمت ؟

ولم تقل الفتاة شيئا . وانما وضعت رأسه على وجنته ، وطوقت رأسه بذراعيها .

ومضى يقول .. اسمعي يا ارنبتي .. وكان يدرك ان الوقت من ذهب، وقد تصبب العرق من وجهه ، ولكنه يجب أن يقول لها ما يريد قوله ، ويجبأن تفهمه .. اسمعي يا ارنبتي ، ستذهبين الآن . ولكنني معك . فما دام احدنا حيا ، فالاخر حي معه . هل فهمت .؟

ــ لا ، ساظل معـك .

ــ لا يا ارنبتي . فما أعمله الآن ، اعمله وحدي ، اذ لا استطيع ان اجيد عمله معك ، ولكنك اذا ذهبت ، فانا معك ايضا . الا تستطيعين ان تفهمي ما اقول ؟ فحيثما يوجد احدنا ، يوجد الثاني .

ـ سأظـل معـك .

ـ لا يا ارنبتي . ما سأعمله ، لا يستطيع ان يعمله الناس معا . ويجب ان يعمله كل على انفراد ، ولكنك اذا ذهبت ، فانـا معك . وانا اعرف انك ستذهبين الان . لانك كريمة ولطيفة . وستذهبين من اجلنا معا .

ـ ولكن من الاسهل علي ان ابقى معك . بل من الاجدى والافضل .

ـ اجل . اذن فاذهبي من اجلي . واعملي معي هذا المعروف . اجـل اذهبي من اجلي اذا كنت لا تستطيعين أن تذهبي من اجلك .

ولكنك لا تستطيع ان تفهم يا روبرتو . ماذا يحدث لي ؟ انه اسوأ شيء بالنسبة لي .

ـ طبعا . من الصعب عليك ان تذهبي . ولكنني وانت شخص واحد الان ولـم تقـل شيئا .

ونظر اليها ، والعرق يتصبب منه بشدة ، وتحدث الآن ، وهو يحاول القيام بشيء ، اصعب من كل ما عمله في حياته او حاوله .

ومضى يقول .. اذن فتذهبين الآن ، من اجلنا معا . يجب ان لا تكوني انانية يا ارنبتي ، وعليك ان تنفذي واجبك .

فهزت ماريا راسها .

وعاد يقول .. انك انا الان . يجب ان تشعري بذلك يا ارنبة . اسمعي يا ارنبة ! هذه هي الطريقة حقا لذهابي انا . وانا اقسم على ذلك .

ولـم تحر جوابـا .

وعاد يقول .. لقد بدات تدركين . لقد رايت الان انك فهمت . اذن فستذهبين حسنا فانت ذاهبة . وقد عرفت منك الان انك ستذهبين .

ولم تقل الفتـاة شيئا .

ـ واني شاكر لك الان . ستذهبين بسرعة ، وبعيدا ، فنذهب والحالة

هذه معا . والان ضمي يدك هنا واخفضي راسك قليلا . لا اخفضيه . هذا حسن . وانا اضع الان يدي هنا . حسنا . انك طيبة للغاية . ولا تفكري بأي شيء آخر فانت الان تنفذين ما يجب ان تفعليه . اجل انك تطيعين الان لا تطيعينني فحسب ، بل تطيعيننا معا . تطيعين نفسي الموجودة فى ذاتك الان . اذن فانت ذاهبة من اجلنا معا ، حقا . اننا نذهب معا فى ذاتك الان . وقد وعدتك بهذا . كريم منك أن تذهبي بل ولطيف ايضا .

واشار براسه الى بابلو الذي كان يتطلع اليه من وراء الشجرة .. ودنا هذا منه . ثم اشار الى بيــلار .

وعاد يقول .. سنذهب الى مدريد مرة اخرى يا ارنبة . حقا . والان قفي ، واذهبي ونحن معا نذهب فى ذاتك . قفي . ارايت ؟

ـ لا .. لا .. وامسكت به تضمه اليها بشدة .

وكان يتكلم الان بهدوء واتزان ، ولكن في صوت ينم عن الارادة الصارمة والامر .. وقال .. قفي .. انك انا الان . انك كل ما بقي مني . هيا . قفي .

ونهضت ببطء وهي تبكي ، وقد احنت رأسها .. ثم عادت تسقط بسرعة الى جانبه ، ولكنها سرعان ما اخذت تنهض ببطء وتثاقل عندما قـــال لها .. انهضي يــا حلوة !

وكانت بيلار ، تمسك بها من ذراعها ، وهي تقف الى جانبها .

وقالت بيلار .. وهي تنظر اليه وتهز رأسها .. اتحتاج الى شـــيء يــا انكليزي ؟

ـ لا .. وعاد يحدث ماريا .. ويقول .. لن اودعك يا ماريا ، لاننا لم ننفصل . ستنعمين فى غريدوس . فهيا ، اذهبي الان . هيا اذهبي .. وكان لا يزال يتحدث بهدوء واتزان بينما مضت بيلار مع الفتاة تمشيان .. لا تلتفتي الى الوراء . ضمي قدمك فى الركاب . هل وضمته . هيا ساعديها

يــا بيلار .. ضعيها على السرج .. هيا انطلقي بالجواد الان .

وادار رأسه ، والعرق يتصبب منه ، ينظر الى المنحدر .. ثم عاد ينظر الى الفتاة وهي على ظهر جوادها ، والى جانبها بيلار ، وبابلو .. وقال .. هيا .. اذهبي .. اذهبي .

وعادت تتطلع حولها .. فهتف روبرت .. لا تنظري ، هيا .. وضرب بابلو الجواد فانطلق ، وكادت تسقط ماريا لولا ان بيلار الواقفة على مقربة منها ، امسكت بها ، وبدات الجياد الثلاثة ترتقي الجبل .

ودارت ماريا براسها وصرخت .. روبرتو .. دعني ابقى معك .. دعني! فقال روبرت صارخا .. انا معك . انــا معك الآن .. اننا معــا الان هيا اذهبي .

وابتعد الثلاثة ، واختفوا وراء الزاوية ، وكان قد تبلل جسده من العرق واخــذ يتطلع الى خواء .

ووقف اوغسطين الى جانبه .

وقال اوغسطين وقد دنا منه .. اتريد مني ان اطلق النار عليك يــا انكليزي ؟ لحظة وتنتهي .

فقال روبرت .. لا . اذهب .. انني مرتاح هنا .

بكى اوغسطين .. وهو يقول .. الوداع يا انكليزي .

ــ الوداع ايها العجوز ..

وعاد ينظر الى المنحدر .. ثم قال .. اعتن بالفتاة .. اتعدني ؟

ــليست بك حاجة الى توصيتي ، فسيتحقق لك ما تريد .. اتريد شيئــا .

ــ في هذه البندقية الرشاشة بعض الطلقات ، ولذا فسأحافظ عليها ، وليس في وسعك ان تعطيني بعض العتاد .

ـ لقد نظفت لك « انبوبتها » ، فقد اتسخت عندما سقطت .

ـ وماذا حدث للجواد الذي كان يحمل المتاع ؟

ـ امسك بـه الغجري .

وامتطى اوغسطين جواده الان ، ولكنه لم يرد أن يذهب . وانحنى قريبا من الشجرة التي يتكىء اليها روبرت .

فقال له روبرت .. هيا أمض في طريقك يا رفيق .. ففي الحروب تكثر مثـل هـذه الحوادث

فقال اوغسطين .. ان الحرب عهر ..

ـ اجل يا رجل .. ولكن هيا ..

ـ الوداع يـا انكليزي ..

ـ الـوداع .

وادار اوغسطين جواده ، وهو يكيل السباب والشتائم ، ومضى ، وكان الجميع ، قد اختفوا عن نظره الان . وعاد عند المنعطف ينظر وراءه ويلوح بيده . فرد عليه روبرت جوردان اشارته ، ثم اختفى هــو ايضا عـن نظـر روبرت ..

وعاد روبرت يلقي ببصره على المنحدر الاخضر ، فالطريق والجسر .. وراح يفكر .. انني في وضع مريح الان .. ولا اعتقد ان من الخير الانبطاح على بطني ، اذ ان الرؤية ، على هذا النحو ، احسن واصلح .

وشعر بفراغ في نفسه ، وباعياء ، وجفاف ، من كل ما حدث . ومــن تركهم اياه ، واحس بحلقه يكاد يلتهب .. ها لم تعد له اخيرا اية مشكلة .. فمهما حدث له في الماضي من مشاكل ، لم تعد له مشاكل الآن .

لقد مضو جميعا ، وها هو الان وحيدا ، يسند ظهره الى شجرة ، وعاد بنظره الى المنحدر الاخضر ، ورأى الجواد الاشهب ، في المكان الذي قتله

فيه أوغسطين وراح ينظر الى ما وراء الطريق من ارض مغطاة بالاشجار .
ورنا ببصره الى الجسر والى ما وراءه ، واخذ يرقب النشاط على الجسر
والطريق . وكان في وسعه ان يرى هذا السيل الطويل من الشاحنات على
الطريق السفلي . وبانت له بالوانها الشاحبة عبر الاشجار . وعاد يرفع
نظره الى الطريق العليا التي تهبط منها الشاحنات . وخيل اليه ان اعدادا
اخرى ستصل من ذلك الاتجاه .

وقال يحدث نفسه .. لا ريب في ان بيلار ستعنى بها كل العناية ..
وانت تعرف ذلك . ولا ريب ان بابلو قد وضع مشروعا سليما للنجاة . والا
لما حاول الهروب .. وعليك أن لا تهتم ببابلو .. كما ان التفكير بماريا لا
ينفعك . حاول أن تصدق ما قلته لها . هذا احسن ما يمكن لك ان تفعله .
ثم اليس ما قلته صحيحا ؟ من يعارض هذا الراي ؟ اتعارضه انت ؟ انـك
لا تعارضه ، لانك لا تستطيع ان تنفي وجود ما هو كائن . اذن فحافـظ
على ما تعتقده . ولا تتشاءم . والوقت قصير وقد ابعدتها عنك . فكـل
انسان يفعل ما يستطيع . وقد لا تستطيع ان تفعل شيئا لنفسك .ولكنك
تستطيع ان تفعل كل شيء للاخرين . حسنا ، لقد حالفنا الحظ أياما
اربعة . انها ايام اربعة غير كاملة . لقد كان الوقت بعد الظهر عندما وصلت
هناك أول مرة ، ولن تشهد ظهر اليوم . وهذا يجعلها ثلاثة ايام بلياليها ..
كن دقيقا .. اجل كن دقيقا .

ومن الخير ان تهبط الان .. وان تثبت نفسك في مكان تستطيع ان
تؤدي عملا فيه ، بدلا من ان تظل متكئا على الشجرة مثل الافاقين .. لقد
حالفك الحظ . وكان ثمة ما هو اسوا مما انت فيه . وعلى كل انسان ان
يصل الى ما انت فيه ، ان لم يكن اليوم فغدا .. وبالطبع انت لست بخائف
ما دمت تعرف ان عليك ما تقوم به . هل انت خائف ؟.. لا . لا . انـا
لست بخائف حقا .. ومن الخير ان العصب قد قطع . وانا لا اكاد احس
باي شيء وراء الكسر . ولمس الجزء الاسفل من ساقه ، وخيل اليه انـه

يلمس شيئا آخر ، لا علاقة له بجسمه .

وعاد يتطلع الى المنحدر من جديد ، وهو يفكر .. انني اكره ان اغادر هذا المكان ، وهذا كل شيء .. اجل انني اكره أن اغادره تماما ، وآمل ان اتمكن من تحقيق شيء عنده . وقد حاولت ان اعمل ، بكل ما اوتيت من موهبة .. هل حاولت ايها الحقير .. اذن حاول .

اجل لقد حاربت دفاعاً عما اعتقده ، طيلة العام الذي انقضى . واذا كسبنا هنا ، كسبنا فى كل مكان . والعالم شيء رائع ، ويستحق ان يقاتل الانسان فى سبيله ، وانني اكره جدا ان اتركه .. ولكن من حسن حظك ، انك عشت هذه الحياة الطيبة . لقد كانت حياتك لا تقل طيبة عن حياة جدك ، وان لم تعادلها فى طولها . وقد نعمت بحياة سعيدة مثل اي انسان آخر بسبب هذه الايام الاخيرة . وليس بك من حاجة الى التذمر ، مادمت قد نعمت بهذه السعادة ، وكنت محظوظا الى هذا الحد . وكم كنت اود لو اتيح لي شخص انقل اليه ما تعلمته . يا للمسيح ، لقد تعلمت الكثير وبسرعة فى النهاية . اود ان اتحدث الى كاركوف . ولكنه في مدريد . هناك وراء هذه الجبال ، وعبر ذلك السهل الفسيح . هناك وراء تلك الصخور الشهب ، ووراء تلك الاشجار ، حيث يمتد المنبسط الواسع ، والهضبة العالية الصفراء .. هناك حيث ترى القمة عالية بيضاء وجميلة .. ان ذلك الجزء حقيقي تماما كالعجائز اللائي تحدثت عنهن بيلار ، واللائي يشربن الدماء فى المسلخ . ولكن هل هناك شيء صحيح ؟ أن كل شيء صحيح . فالطائرات جميلة سواءً أكانت لنا او لهم .. اجل يا للجحيم انها جميلة .

ومضى يحدث نفسه .. خذ الأمور ببساطة الآن . ودر حول نفسك ما دام معك وقت .. اسمع هناك شيء واحد . هل تذكره ؟ هل تذكر بيلار والكف ؟ اتصدق تلك الشعوذة ؟ لا . انك لا تصدقها . لا ، رغم كل ما حدث ؟ لا . انا لا أصدقها . لقد كانت تخشى انني قد صدقتها ، ومع ذلك فانا لم اصدقها . لكنها تصدق نفسها . انهن يرين شيئا .. او يحسسن

بشيء .. مثل كلب ألصيد .. وما رأيك في الادراك فوق الحسي ، او ما يسمونه بالحاسة السادسة ؟ وما رايك في الغموض ؟.. انها لم تودعك . لانها كانت تعرف ، انها ان ودعتك ، فان ماريا لن تذهب .. آه مـــن بيلار .. ادر نفسك الآن يا جوردان .. ولكن لماذا التردد .

وتذكر انه يحمل الزجاجة الصغيرة في جيب سرواله الخلفي ، وشرع يفكر .. سأتناول جرعة من السم الهائل ، ثم آحاول .. ومد يده ، فلم يعثر على الزجاجة في موضعها .. وهنا احسَّ بالوحدة القاتلة ، فقد افتقد هذه ألزجاجة في موضعها .. وقال يحدث نفسه .. لقد كنت اعتمد عليها كثيـــرا .

هل تعتقد ان بابلو قد اخذها ؟.. اوه .. لا تكن سخيفا . لا ريب في انك قد اضعتها على الجسر .. هيا يا جوردان .. ادر نفسك الآن .

وامسك بساقه اليسرى بيديه وشدها نحو القدم بكل ما لديه من قوة ، في الوقت الذي ظل متكئا الى الشجرة . وعاد يستلقي ، ويشد على ساقه حتى لا يرتفع العظم المكسور ، فيخلع جلد نخذه ، واخذ يستدير ببطء على جذعه حتى اصبحت مؤخرة راسه تواجه منخفض التل . وعاد يمسك بساقه المكسورة بيديه واخذ يتدحرج والعرق يتصبب من وجهه وصدره ، واقعى على مرفقيه ، ومد ساقه اليسرى وراءه بيديه ، والعرق يتصبب الى ان اتخذ موقعه . ومد يده يتحسس باصابعها فخذه الايسر فشعر انه على احسن ما يرام . فالطرف المكسور من العظم ، لم يندفع خارجا مـــن الجلد ، وانما ظل في مكانه في العضل .

واخذ يفكر .. لا ريب في ان العصب الكبير قد تحطم ، عندما انهار عليه ذلك الجواد الكبير اللعين . فهو لا يشعر بأي الم حقا ، الا عندما يغير مواقعه . اي عندما يصطدم العظم المحطم بشيء آخر . ارأيت ؟.. او ليس هذا من حسن طالعك ؟. انك لا تحتاج الى السم القاتل اذا .

ومد يده يمسك بالبندقية الرشاشة ، واخرج المشط الموجود فيها ووضع

مشطا اخر بدلا منه أخرجه من جيبه ؛ ثم أعد الزناد للضرب ، وتطلع الى المنحدر . قد تمضي نصف ساعة قبل أن تشرع في العمل .. على كل .. خذ الامـور ببساطة .

وعاد يتطلع الى طرف الرابية ، والى أشجار الصنوبر ، وحاول ان لا يفكـر ابـدا .

ونظر الى النهر وتذكر كيف رآه عندما كان في الجسر ينعم ببرودة الظل تحته .. آه كم اود لو جاءوا الان ، فانا لا اريد ، ان اقع في اية مشكلة قبل ان يجيئـوا .

ومن تعتقد انه يلقى الموت بسهولة ويسر اكثر ؟ اذلك الرجل الذي يؤمن بالدين ، او ذلك الذي لا يؤمن بشيء ؟ ان الدين يهون الامور على الموتى كثيرا ، ولكنني لا اشعر بأي خوف . والشيء الوحيد السيء ، هو ان يفتقد الانسان امرا . ان الموت يغدو شيئا ، عندما يطول مجيئه ، ويتألم الميت كثيرا ، ويشعر بالاذلال .. هنا يكمن حظك ارايت ؟ فانت لا تشعر بأي الم او اذلال ابدا .

ان من الرائع انهم قد نجوا وذهبوا . ولا يهمني الموت الان ، ما داموا قد مضوا .. لقد قلت هذا من قبل .. وهو ما عنيته تماما .. ارايت كم يكون المنظر مختلفا ، لو كانوا مبعثرين جثثا على ذلك التل ، حيث يوجد الحصان الاشهب . او اذا كنا جميعا محصورين هنا ننتظر مجيئهم . لا . لقـد ذهبوا .. اجل لقد مضوا .. والان اذا قدر للهجوم ان ينجح ، فماذا تريد ايضا ؟ لقد تحقق كل شيء . انني اريد كل شيء ، وسأحصل على كل ما اريد . واذا لم ينجح هذا الهجوم ، فسينجح هجوم آخر .. انا لم الاحظ متى عادت الطائرات .. يا الله ، لقد كان من حسن الحظ انني اقنعتهـا بالذهـاب .

أود ان احدث جدي عن هذه الفتاة . انا واثق من انه لم يمر مع أهله بتجربة كهذه التجربة التـي مررت بها .. ما يدريك ؟ قد يكون اضطر الى

ان يعمل ما عملته خمسين مرة . لقد قال لي مرة .. لا .. كن رفيقا .. لا يستطيع انسان أن يفعل ما فعلته خمسين مرة .. حتى ولا خمس مرات .. حتى ولا مرة واحدة ايضا ..

آه كم اود لو جاءوا الان .. اود لو اتوا الان ، فان ساقي بدات تؤلمني جدا .. لا ريب في انها اخذت في التورم .

لقد كنا نسير على احسن ما يرام ، عندما اصابتنا تلك القذيفة . ولكن من حسن الحظ ، انها لم تات وانا تحت الجسر ايضا . فعندما يكون ثمة خطأ فمن الواجب ان يحدث شيء .. لقد قضي عليك ، عندما صدرت تلك الاوامر لغولز .. وهذا ما عرفته انت ، وما أحست به بيلار في الغالب .. ولكن هذه الاوضاع سيتم تنظيمها فيما بعد .. ولا ريب في انهم سيوزعون اجهزة ازسال على الموجة القصيرة .. اجل هناك اشياء كثيرة .. يجب ان نحصل عليها .. فمثلا ، كان من الواجب ان احمل ساقا اضافية ايضا .

وقطب جبينه ، عندما جاءته هذه الفكرة ، لان ساقه حيث تهشم العصب الكبير ، قد تورمت ، وبدا الألم يشتد بها .. آه ليتهم يأتون الان .. لا اريد ان افعل ما فعله والدي من قبل .. سأنفذ ذلك تماما ، وان كنت غير راغب فيه .. فانا ضد الانتحار .. لماذا تفكر في هذا .. لا تفكر على الاطلاق .. كم اود لو جاء هؤلاء البناديق .. أود كثيرا لو جاءوا .

وكانت ساقه قد بدات تؤلمه كثيرا .. وقد بدأ الالم فجأة عندما شعرت رجله تتورم ، منذ تحرك من مكانه . اذن اليس من الافضل ان انفذ العمل الان . انني لا أصلح للألم . واذا نفذته ، فهل تفهمني .. الى من تتحدث الان ؟.. انا لا اتحدث لانسان .. قد تتحدث الى جدك ، وهذا ما اخمنه.. لا . ليس ثمة انسان .. آه ليتهم يأتون .

اسمع ، يجب ان تنتهي من نفسك الان ، والا فقد يغمى عليك من الالام وتصبح عاجزا عن العمل ، وآنذاك سيقبضون عليك ويوجهون اليك عددا

من الاسئلة . وينزلون بك انواع المكاره . من الافضل ان لا تسمح لهم بذلك . . اذن لم لا تتخلص من حياتك الان ، وتنتهي من كل شيء ؟ . . لانك تريد . . آه اصغ . . ليتهم يأتون الان .

انك لا تصلح لهذا يا جوردان . لا تصلح له ابدا . ومن يصلح له ؟ لا ادري ولا يهمني ان اعرف الان . اما انت فلا تصلح . وهذا حق . انك غير صالح مطلقا . . آه . . مطلقا ، مطلقا . . اعتقد ان من الخير . ان تنفذ العمل الان ؟ الا تعتقد ذلك ؟

لا . لأن هناك شيئا تستطيع ان تفعله بعد . وما دمت تعرف ما ستعمله؛ فعليك ان تفعله . وما دمت تذكر فعليك ان تنتظر . . تعال . . دعهم يأتون . . دعهم يأتون . . دعهم يأتون !

وقال لنفسه . . اذن فكر في انهم قد مضوا . . فكر في انهم يجتازون الان الغابة ، ويعبرون جدولا صغيرا . . تصورهم ، يمرون بجيادهم فوق الاعشاب في المرج . تصورهم وهم يرتقون المنحدر . . فكر بهم . . وقد نجوا الليلة . . اجل تخيلهم يواصلون السير طيلة الليل ، ثم يختبئون غدا . . فكر بهم . . يجب ان تفكر بهم . . وهذا كل ما استطيعه من تفكير بهم الان .

فكر بمونتانا . . لا استطيع . . فكر بمدريد . . لا استطيع . . فكر بكأس مترع بالماء البارد . . حسنا . . هذا هو كل شيء . . ان الموت ككأس من الماء البارد . . انك تكذب . . انه لا شيء . . انه لا شيء . . اذن هيا . . نفذ ما اعتزمت عليه . نفذه ، نفذه الان . . من الخير ان تنفذه الان . . هيا نفذه . لا . . يجب ان تنتظر . . ماذا انتظر ؟. انك تعرف ما تنتظره. ذن فانتظر .

لا استطيع ان انتظر مدة اطول . . فاذا انتظرت فسيغمى علي . . وانا ادرك ذلك ، فقد شعرت بالاغماء يهاجمني ثلاث مرات ثم سرعان ما يختفي؛ لانني اريده ان يختفي . . اجل ؛ فانا الذي اطرده . . وقد تمكنت من طرده حتى الان . . ولكن هل استطيع ان استمر في ذلك . لا ريب في ان نزيفا

داخليا ، قد جرى معك في فخذك ، في المكان الذي تقطع فيه العظم . ولا سيما عند المفصل . وهذا هو سبب التورم ، وسبب هذا الضعف الذي تحس به الان . . والاغماء الذي يهاجمك . . اذن فمن الخير . . ان تنفذ نيتك الان . الان . . حقا هذا هو الافضل .

ولكنك اذا استطعت ان تنتظر قليلا ، وان توقف اندفاعهم بعض الوقت او تصيب ضابطهم ، فقد يكون في عملك بعض الجدوى . . اجـــل اذا استطعت ان تنفذ عملك باتقان ففي وسعك . .

حسنا . . واستلقى بهدوء وحاول ان يحتفظ بوعيه ، الذي بدا يتسلل منه ، كما يذوب الثلج احيانا عند منحدر الجبل . . وقرر ان يواصل البقاء اخيـــرا حتى يصلوا . .

وراى ان حسن الطالع ما زال حليفا له ، فقد ابصر في تلك اللحظـــة بالفرسان يخرجون من الغابة ، ويجتازون الطريق ، واخذ يراقبهم ، وهم يرتقون المنحدر . ثم راى الجندي يقف عند الحصان الاشهب ، ويهتف بالضابط الذي جاء اليه . . راى الرجلين يتطلعان الى الجواد الاشهب . . وبالطبع فقد عرفاه . اذ فقد مع صاحبه منذ صباح اول امس .

ورآهم روبرت هناك على المنحدر ، قريبا منه الان ، ثم راى الطريق والجسر والصف الطويل من السيارات . . وشعر بالتكامل يسيطر عليه ، ونظر الى كل شيء نظرة طويلة . . ثم تطلع الى السماء . . كانت فيها سحب بيضاء وكثيرة . ولمس بيده جذع شجرة الصنوبر التي كان ينام وراءها .

ثم اتكأ على مرفقيه ، بأسهل ما يستطيع ، واسند فوهـــة البندقية الرشاشة على جذع شجرة الصنوبر .

وعندما تقدم الضابط خببا وراء اثر جياد العصابة ، كان سيمر على بعد عشرين ياردة من المكان الذي ينام فيه روبرت جوردان . ولن تكون هناك

مشكلة في هذه المسافة القريبة . كان الضابط هو الملازم بيريندو ، وقد جاء من لاغرانجا عندما وصل الى مسامعهم هناك الانباء الاولى للهجوم الذي وقع على المركز الأسفل . وكان قد جاء مع جماعته بسرعة ، ولكنه اضطر الى التراجع عندما رأى الجسر مهشما والهبوط الى الوادي السحيق ليعود مع جنوده من بين الاشجار . وكانت جياد الفرسان منهكة وقد بللها العرق ، وكان من الواجب حثها على السير خببا .

ومضى الملازم بيريندو .. وهو يقتفي الأثر ، يصعد التل ، بوجهه النحيل وقد بانت عليه علائم الجهد والجد . وكانت بندقيته الرشاشة امامه على السرج . وكان روبرت جوردان يستلقي وراء الشجرة ، وقد تماسك على نفسه ، وثبت يديه متغلبا على كل ما يحس به من الم . كان ينتظر وصول الضابط الى المكان الذي تضيئه اشعة الشمس ، حيث تلتقي الاشجار بمنحدر المرج .. واحس روبرت ، بخفقان فؤاده على ارض الغابة التي ملأتها فروع الصنوبر ..

المجموعة القصصية

في هذه المكتبة قصص من مختلف الأنواع والاتجاهات الأدبية ، منها القصة التاريخية ، ومنها الثقافية ، والأدبية والعاطفية ، والتي تعالج المشاكل الانسانية وكلها وضعت بأسلوب فني رائع ورفيع ، وبينها ما هو صالح لمطالعة الطلاب والطالبات ، كما فيها الآثار الكبرى الخالدة من آداب مختلف الأمم قديمة كانت أم حديثة . وقد راعت « دار مكتبة الحياة » في اختيارها للآثار العالمية ، ان تكون هذه الآثار لكبار الأدباء المعروفين ، كما عهدت بالترجمة إلى أمناء موهوبين ارتفعت تعابيرهم الأدبية غالباً إلى مستوى من الجمال الفني يحاكي الأصل الذي كتبه المؤلف بلغته الأم .

اسم الكتاب	المؤلف
ابو جعفر المنصور	كرم ملحم كرم
لبنى ذات الطيوب	كرم ملحم كرم
صقر قريش	كرم ملحم كرم
قطاف العناقيد	كرم ملحم كرم
اليوم الموعود	صباح محيي الدين
السمفونية الناقصة	صباح محيي الدين
تائهة في الشارع	حاتم خوري
ثم ازهر الحزن	فاضل السباعي
نجوم لا تحصى	فاضل السباعي
واهيفاء	نعمان سعيد ابو عيشة
يوميات شاطىء	عبد القادر شعبان
السمكة والبحار الزرق	عدنان الداعوق
السجين	أنيس زكي حسن
شمس الحقيقة	خالد برقاوي
غروب الآلهة	محمد الراشد
غروب في الفجر	وليد مدفعي
غصة في القلب	كاترين معلوف داغر

اسم الكتاب	المؤلف
كفاح امرأة	كاترين معلوف داغر
في قرية	علي الملك
فتاة تافهة	منى جبور
في قلب العاصفة	ميخائيل صوايا
قلب وضمير	سمير القطب
القبلة المحرمة	صبحي المصري
كوفاديس	ترجمة جماعة من اساتذة الأدب
أقنعة تتمزق	فوزي حداد
الانتقام في قصور العثمانيين	سعاد موريلي
الصلح سيد الأحكام	حسن حمام
بذور الحب والخير	حسن حمام
التراب الساخر	أديب سكيني
ثمن الهيروين	أسامة زيلع
ثقب في السماء	غسان صباغ
جريحة الأقدار	مصطفى شهاب
حقيقة الأبطال	جوزف مجدلاني
حكاية وجع	انطوان خباز
انتقام العشاق	جورج سانتو
الأمير العاشق	انتوني ارمسترونغ
الانسان الضائع	فلاديمير نابوكوف
جسر على الدرينا	ايفواندريتش
الجواد الأدهم	وولتر فارلي
خميس عذب	جون شتاينبك
الفردوس السليب	سمير القطب
رفاق السلاح	قسطنطين سيمونوف
الشرف المطعون	كورسيل ترجمة جماعة من الأدباء

اسم الكتاب	المؤلف
المدمرة (لهيب فوق البحار)	فورستر
لمن تقرع الأجراس	أرنست همنغواي
لكي يقف الزمن	الدوس هكسلي
المروج الخضر	كونرادرختر
والفولاذ سقيناه	نقولا استروفسكي
عمدة الشيطان	بطرس خواجة
قوس قزح	فاندا فاسيليفيسكا
الوهم	عيسى الحلو
الغربان والمسوح البيضاء	منى جبور
المدينة الفارغة	ليلى عسيران
وأخيراً تعانقت الأرواح	مالك نجيب حمدان
الجريمة والعقاب (غلاف)	دستويفسكي
الجريمة والعقاب (مجلد)	دستويفسكي
ابك يا بلدي الحبيب	الن باتون
رجال وفئران	جون شتاينبك
ريش الببغاء	عيسى الحلو
المنديل الاسود	بطرس خواجة
الموجة التاسعة ١ / ٢ (غلاف)	ايليا اهرنبرغ
الموجة التاسعة ١ / ٢ (مجلد)	ايليا اهرنبرغ
الآمال الكبيرة	شارلز ديكنز
نساء صغيرات	لويزا م . الكوت
سجين زندا	انتوني هوب
الافق المفقود	جيمس هيلتون
كفاح ومصير	سمير القطب

اسم الكتاب	المؤلف
الحارة القديمة (رواية)	خضر نبّوه
معاً على طريق العذاب	مصطفى شهاب
ثمانون يوماً حول العالم	جايمس فارن
شيء منه	رابحة الجميلي
البؤساء (غلاف)	فكتور هيغو
البؤساء (مجلد)	فكتور هيغو
احدب نوتردام (غلاف)	فكتور هيغو
احدب نوتردام (مجلد)	فكتور هيغو
جنة الاحزان	بطرس خواجة
الخيط الاسود	محمد احمد الامين
شوك بلا ورد	جورج ابراهيم الخوري
الاخوة كرامازوف	ديستويفسكي
العالم المفقود	السير ارثر كونان دويل
عواطف وعواصف	محمد طاهر فلمبان
آخر بني سراج	شاتوبريان
عشاق فينيسيا ١/٢	ميشال زيفاكو

المكتب العالمي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان